نَفْحُ الطِّيبْ

مِن

غصن الأندلس الرّطيب

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقّري التلمساني

حققه

الدكتور احسان عباس

المجلّد السّادس

دار صادر

بيروت

دار صادر : صندوق بريد ١٠ — بيروت

١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع

في مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية ، وثناء غير واحد من أعلام أهل عصره عليه ، وصرف القاصدين وجوه التأميل إليه ، واجتلائهم أنوار رياسته الجلية ، وكَتْبهم بعض المؤلفات باسمه ، ووقوفهم عند إشارته ورسمه ، وما يضاهي ذلك في حظه وقَسْمه ، وسعيهم بين يديه .

اعلم – سلك الله بي وبك الطريقَ الأقوم الأقوى ، وحلَّى صدور جميعنا بزينة التقوى – أن لسان الدين ذكر في كتبه كالإحاطة ونفاضة الجراب وغيرهما جملة ممّا خاطبه به الملوك وغيرهم ، من تبجيل وتنويه ، ولنذكر بعضَ ذلك من كتبه ومن غيرها تتميماً للمقصود وتبليغاً لنفوس الناظرين في هذه العجالة ما تؤمله وتنويه .

[١ – ظهير من أبي زيان المريني للسان الدين]

فمن ذلك ما ذكره في «الإحاطة» من إكرام السلطان أبي زيّان المَريني ابن الأمير أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن له ، وسرد ما كتب له به من قوله : هذا ظهير ، إلى قوله : أيده الله ونصره ، وسنّى له الفتح المبين ويسّره ،

وبعده ما صورته[1] : « للشيخ الفقيه الأجل الأسنى ، الأعز الأحظى الأرفع الأمجد الأسمى الأوحد الأنوه الأرقى ، العــالم العَلم الرئيس الأعرف المتفنن الأبرع المصنف المفيد الصدر الأحفل الأفضل الأكمل أبي عبد الله ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل الأسنى الأعز الأرفع الأمجد الوجيه الأنوه الأحفل الأفضل الحسيب الأصيل الأكمل المبرور المرحوم أبي محمد ابن الخطيب ، قابله أيده الله بوجه القبول والإقبال ، وأضفى عليه ملابسَ الإنعام والإفضال ، ورَعَى له خدمة السلف الرفيع الجلال ، وما تقرر من مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا العال ، وأمر في جملة ما سوّغه من الآلاء الوارفة الظلال ، الفسيحة المـَجال ، بأن يجدد له حكم ما بيده من الأوامر المتقدم تاريخها المتضمنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية[2] في كل شهر عن مرتب له ولولده الذي لنظره من مَجْبى مدينة سَلا حرسها الله في كل شهر ، ومن حيث جرت العادة أن يتمشَّى له ، ورفع الاعتراض ببابها فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه ، وفيما يستفيده خدامه[3] بخارجها وأحوازها من عنب وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك ، فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف[4] ، ولا يتوجّه فيه إليه بتكليف ، يتصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديداً تامّـاً ، واحتراماً عامّـاً ، أعلن بتجديد الحظوة واتصالها ، وإتمام النعمة وإكمالها ، من تواريخ الأوامر المذكورة إلى الآن ، ومن الآن إلى ما يأتي على الدوام ، واتصال الأيام ، وأن يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعي والمحاشاة في السُّخَر مهما عرضت ، والوظائف إذا افترضت ، حتى يتصل له تالد العناية بالطارف ،

[1] ورد هذا الظهير في الاستقصا ٤ : ٤٨ .
[2] العشرية : لعلها العاشرية وهي ما كان في كل دينار منها عشرة دراهم (انظر « عاشر » في ملحق المعاجم لدوزي) .
[3] ق : خدمه .
[4] الوظيف أو الوظيفة : الضريبة المقررة .

وتتضاعف أسباب المِنَن والعوَارف ، بفضل الله ، وتحرَّر له الأزواج[1] التي يحرثها بتالمغت من كل وجيبة[2] وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة ، بالتحرير التام بحول الله وعونه ، ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه ، وليُمضِ ما أمضاه ، إن شاء الله ، وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، وكتب في التاريخ » ؛ انتهى .

وقوله « وكتب في التاريخ » هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان ، يكتب بقلم غليظ ، وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة « صح في التاريخ »[3] .

[ترجمة أبي زيان المريني]

وقد عرَّف لسان الدين في « الإحاطة » بهذا السلطان بما نصّه : محمد بن يعقوب أبي عبد الرحمن بن علي أمير المسلمين بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق أمير المسلمين بالمغرب إلى هذا العهد ، يكنى أبا زيان[4] ، وصل الله نصره على عدوّ الدين ، وأرشده إلى سنن الخلفاء المهتدين .

حاله — فاضل سكون منقاد ، مشتغل بخاصة نفسه ، قليل الكلام ، حسن الشكل ، دَرِب بركض الخيل ، مفوض للوزراء ، عظيم التأتّي لأغراضهم ، ووكل الأمور لمن استكفاه منهم ، استقدم من أرض النصارى بالأندلس وقد فر

١ الأزواج : هي ما يسمى في المشرق « الأفدنة » ، أخذت من زوج البقر للحرث أي (الفدان) .

٢ الوجيبة : الضريبة .

٣ قال ابن الأحمر عند تعريفه العلامة : « فإذا رأيت الصك المريني وعلامته : كتب في التاريخ المؤرخ به ، فهي بخط يد السلطان ، وإذا كانت :وكتب في التاريخ ، فهي بخط يد صاحب العلامة (مستودع العلامة : ٢١) .

٤ بويع أبو زيان الملقب بالمتوكل ١١ صفر سنة ٧٦٣ وقتل غرقاً في السانية التي بروض الغزلان ٢٢ ذي الحجة سنة ٧٦٧ وسنه ٢٨ سنة ودفن بجامع قصره (روضة النسرين : ٣٢ وانظر الاستقصا ٤ : ٥١) .

إليهم خوفاً على نفسه ، فسمح به ملك الروم بعد اشتراط واشتطاط ، فكان وصوله إلى مدينة الملك بفاس يوم الاثنين الثاني والعشرين لصفر عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، ودخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان وبه السعد الأعظم كوكب المشتري من الكواكب السيارة ، وقد كان الوزير قيم الأمر والمثل في الكفاية والاضطلاع بالعظيمة عمر بن عبد الله بن علي الياباني[1] لمّا ثار بعمه السلطان أبي سالم رحمه الله تعالى وأقام الرسم بأخيه المعتوه المدعو بأبي عمر استدعى هذا المترجم به ، وقد نازله الأمير عبد الحليم ابن عمّهم ، وتوجّه عنه رسوله أثناء الحصار لمّا رأى الأمر لا يستقيم بمن نصبه ، فتلطف فيه إلى طاغية النصارى ، واستعان بالسلطان أبي عبد الله ابن نصر ، وقد جمعتهما إيالته ، فتم له اللحاق بالمغرب ، وانصرف الأمير عبد الحليم إلى سِجِلماسة فتملكها ، وتم الأمر للأمير أبي زيان يقوم به عنه وزيره ومستدعيه المذكور مصنوعاً له في خدمته ، أعانه الله تعالى وأصلح حاله وأحوال الخلق على يديه ، ووفدتُ عليـــه من محل الانقطاع بسَلا وأنشدته قولي[2] :

لمَن علَمٌ في هَضْبة الملك خفاقُ ... أفاقت بهِ من غَشْية الهَرْج آفاقُ
تُقِلُّ رياحَ النصرِ منـــهُ غمامةٌ ... تمـــدُّ لهـــا أيدٍ وتخضَعُ أعناق
وبيعة شورى أحكم السعدُ عَقْدَها ... وأعملَ إجماع عليهـــا وإصفاق
قضى عمر فيهـــا بحقّ محمّد ... فسُجِّل عهـــد للوفاء وميثاق
أحلماً ترى عيناي أم هي فترَة ... أعندكما في مشكل الأمر مصداق
وفاضٌ[3] لفضل الله في الأرض تُبْتَغى ... ومجتَمعات لا تريبُ وأســواق
وسَرْحٌ تَهنيه الـــكلاءةُ بالــكلا ... وفلحٌ لسقي الغَيث قامَ لهُ ساق

---

١ راجع أخبار هذا الوزير في العبر ٧ : ٣١٩ ، ٣٢٣ .
٢ انظر القصيدة في الاستقصا ٤ : ٤٦ – ٤٨ .
٣ الوفاض : جمع وفضة وهي المكان الذي يمسك الماء ؛ وفي ص : رفاض .

وقد كانَ طيفُ الحلم لا يعمل الخـُطا　　وللفتنة العَمياء في الأرضِ إطباق
وللغيثِ إمساكٌ وفي الأرض رَجّةٌ　　وللدين والدنيا وُجُومٌ وإطراق
فكلٌّ فريق فيــه للبغي رايةٌ　　وكلُّ طريقٍ فيه للعيثِ طرّاق[1]
أجل إنّه من آل يعقوب وارثٌ　　يحنُّ له البيتُ العتيقُ ويشتاق
لهُ مِن جناحِ الروحِ ظلَّ مسجف　　ومِن رفرف العزّ الإلهيِّ رُسْتاق[2]
أطلّ على الدُّنيا وقد عادَ ضوءُها　　دُجى وعلى الأحداق للذعر إحداق
فأشرقت الأرجاء من نور ربها　　وساحَ بها لله لطفٌ وإشفاق
فمِـن ألسُنٍ لله بالشكر أعلنت　　وكان لها من قبلُ همسٌ وإطباق
وليس لأمر أبرم الله ناقضٌ　　وليسَ لمَسْعًى أنجحَ اللهُ إخفاق
محمدُ قَدْ أحيَيْتَ دينَ محمد　　وللخَلْقِ أذماء تَفيضُ وأرماق
ولو لم تَثُبْ غطى على شفق الضُّحى　　دمٌ لسيوفِ البَغي في الأرض مُهراق
فأيْمِنْ بمشحونٍ من الفلك سابحٍ　　لهُ باختيارِ الله حطٌّ وإيساق[3]
أقلك والدأماء[4] تُظْهر طاعــة　　إليك وصفح الماء أزرق رقراق
إلى هدف السعد انبرى منهُ والدجى　　يضلّ الحجى سهمٌ من السعد رشّاق
فَخُطّتْ لتقويم القوامِ جداولٌ　　وصَحّتْ من التوفيقِ واليُمنِ أوفاق[5]
تباركَ من أهداكَ للخلقِ رحمة　　ومستبعَدٌ أن يهمل الخَلقَ خلاق
هو الله يبلو الناسَ بالخيرِ فتنةً　　وبالشرّ ، والأيامُ سمٌّ وترياق
سَمَتْ منكَ أعناقُ الورى لخليفةٍ　　لهُ في مجال السعدِ وخدٌ وإعناق

١ سقط البيت من ق .
٢ الرستاق : معربة عن الفارسية بمعنى الناحية أو الكورة .
٣ الحط : الرسو في الميناء ، والإيساق : مصدر أوسق بمعنى ملأ بالأحمال .
٤ الدأماء : البحر .
٥ يعني بالجداول : الجداول الفلكية ، والأوفاق : جمع وفق وهو المربع الذي يقسم إلى « خانات » ترتب فيها الأرقام .

وقالوا بنانٌ ما استقلّ بكفّه تفيضُ على العافين أم هي أرزاق
وأطنب فيك المادحون وأغرقوا فلم يُجْدِ إطنابٌ ولَمْ يُغْنِ إغراق
ألستَ من القوم الذين أكفُّهم غمامُ ندًى إن أخلف الغيث غيداق
ألستَ من القوم الذين وجوههم بدورٌ لها في ظلمة الروع إشراق
رياض إذا العافي استظل ظلالها ففيها جَنًى ملء الأكف وإيراق
أبوك وليُّ العهد لو سالم الردى وجدّك قد فاق الملوك وإن فاقوا
فمن ذا له جدّ كجدّك أو أب لآلىء والمجدُ المؤثّل نسّاق
وحَسْبُ العلا في آل يعقوب أنهم هم الأصل في العلياء والناس ألحاق
أسودُ سروحٍ أو بدور أسرَّة فإن حاربوا راعوا وإن سالموا راقوا
يطولُ لتحصيل الكمالِ سهادهم فهم للمعالي والمكارم عشّاق

ومنهـا

لئن نسيَتْ إحسانَ جدّك فرقةٌ تُزَرُّ على أعناقهم منه أطواقُ
أجازت خُروجَ ابنِ ابنهِ عن تراثهِ ولَمْ تدرِ ما ضمتْ من الذكرِ أوراق
ومِن دُونِ ما راموه لله قدرة ومن دون ما أمُّوه للفتح أغلاق
خذِ العفو وابذلْ فيهم العرفَ ولْتَسعْ جريرةَ من أبدى لك الغدرَ أخلاق
فربَّتما تنبو مهنّدةُ الظُّبي وتهفو حلوم القوم والقوم حُذّاق
وما الناسُ إلا مذنبٌ وابنُ مذنبٍ ولله إرفاد عليهم وإرفاق
ولا ترجُ في كلّ الأمور سوى الذي خزائنه ما ضرها قط إنفاق
إذا هوَ أعطى لم يضرْ منعُ مانعٍ وإن حشدت طَسْمٌ وعادٌ وعملاق
عرفت الردى واستأثرت بكَ للعدا تخومٌ بمختط الصليب وأعماق
فيسّرَ لليسرى وأحيا بك الورى وللروعِ إرعاد عليك وإبراق
فجازِ صنيعَ الله وازدد بشكره مواهب جود غيثُها الدهرَ دفّاق
وأوفِ لمن أوفى وكافِ الذي كفى فأنتَ كريم طهرت منكَ أعراق

وتهنيك يا مولى الملوك خـــلافة شَجتْها تباريح إليك وأشواق
فقد بلغتْ أقصى المُنى بكَ نفسُها وكم فازَ بالوصلِ المهنـــإ مشتاق
فلا راعَ منها السِّرْبَ للدهرُ رائع ولا نال منها جِدّةَ السّعدِ إخلاق
أمولايَ راعَ الدهر سِرْبي وغالني فَطَرْفيَ مذعورٌ وقلبيَ خفّاق
وليس لكَسْري غيرك اليوم جابر ولا ليدي إلاّ بمجدك أعـــلاق
ولي فيك ودٌّ[1] واعتدادٌ غرسته فراقت بهِ من يانعِ الحمد أوراق
وقد عيل صبري في ارتقابي خليفةً تُحَلُّ به للضرِّ عنّيَ أوهاق[2]
وأنت حســامُ الله والله ناصر وأنتَ أمينُ الله والله رزاق
وأنت الأمان المستجار من الردى إذا راعَ خطبٌ أو تُوُقِّعَ إملاق
وأهونُ ما تُرجى لديكَ شفاعةٌ إذا لم يكن عزمٌ حثيث وإرهاق
ودونَكَها من ذائعِ الحمدِ مخلصٍ له فيكَ تقييد يروقُ وإطلاق
إذا قـــالَ أمّا كلُّ سمـــعٍ لقوله فمُصْغٍ ، وأما كلُّ أنفٍ فنَشّاق
ودُمْ خافق الأعـــلام بالنّصر كلّما ذهبتَ لمسعى لم يكن فيه إخفاق

وُعدْتُ منه ببر كثير ، واحترام شهير .

دخوله غرناطة — لحق بها مُفْلتاً عند القبض على قرابته وبني عمّه وتقريبهم إلى مَصارعهم ، فكان وصوله في رمضان من عام خمسين وسبعمائة ، ثم رابه رائب لحق لأجله بصاحب قَشْتالة ، وأقام في جملته إلى حين استدعائه المتقرّر آنفاً ، وهو لهذا العهد أمير المسلمين بالمغرب ، أعانـــه الله تعالى عـــلى الخير ، وأطلق به يده ، وألهمه لما يرضى منه بفضله وكرمه ؛ انتهت الترجمة .

ورأيت على هامش هذا المحل من « الإحاطة » بخط الخطيب الشهير الإمام

١ ق : أصل .
٢ الأوهاق : جمع وهق وهو الأنشوطة .

أبي عبد الله ابن مرزوق التلمساني رحمه الله ما صورته : توفّي – يعني السلطان أبا زيان – مغتالاً عام ستة وستين على يد مظاهره الخائن عمر بن عبد الله ابن علي الوزير ، ردّاه في بئر ، وأشاع أنّه أفرط في السكر ، وألقى نفسه في البئر المعروفة برياض الغزلان ، وبايع لعمّه عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، فسلطه الله عليه ، وأخذ حقوق الخلائق على يديه ، فقتله غيلة بعد أن كان تغلب عليه ، فأعمل الحيلة في قتله ، واستمر ملك عبد العزيز ظاهراً ظافراً قد جمع بين المغرب إلى أقصاه وبين ملك تلمسان وقد شرّد أهلها كلّ مُشَرَّد ، فعندما أقبلت الدنيا عليه ، واستقام ملكه ، وكاد يلحق ملك أبيه أو يزيد مات رحمه الله تعالى ، قيل : مطعوناً[1] ، وقيل غير ذلك ، وذلك في حدود أربع وسبعين ، وولي ولده ، ثم عُزل بابن عمّه أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ، وحاز ملك المغرب إلى حين كتب هذا سنة سبع وسبعين وسبعمائة ؛ انتهى ما ألفيته بخط سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق .

ورأيت تحته بخط ابن لسان الدين أبي الحسن علي ما صورته : رحمة الله عليك يا عمر بن عبد الله بن علي ، فلقد كنت غسلت ملك المغرب من درن كبير ، وقمت على ملك لهو وضعف شهير ، وشهرتَ سيف الحق ، على الزواكرة الخرق ، فابتهج منبر الدين ؛ انتهى .

ومراده بهذا الكلام الرد على ابن مرزوق في ذمّه للوزير عمر ، وقوله « الزواكرة » لفظ يستعمله المغاربة ، ومعناه عندهم المتلبس الذي يُظهر النسك والعبادة ، ويبطن الفسق والفساد ، وعند الله تجتمع الخصوم .

---

١ ق ص : مطعوماً .

[٢ – رسالة من أبي سالم إلى لسان الدين]

ولنرجع إلى ما كنّا بسبيله فنقول :

ومما خوطب به ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، من قبل سلطان المغرب المستعين بالله أبي سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن المريني ما صورته بعد البسملة والصلاة[1] :

« من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي الحسن ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق ، أيد الله أمره وأعز نصره ، إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأحظى الأوجه الأنوه الصدر الأحفل المصنف البليغ الأعرف الأكمل أبي عبد الله ابن الشيخ الأجلّ الأعز الأسنى الوزير الأرفع الأنجد الأصيل الأكمل المرحوم المبرور أبي محمد ابن الخطيب ، وصل الله عزته ووالى رفعته ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

« أما بعدَ حمدِ الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم المصطفى ، والرضى عن آله وصحبه أعلام الإسلام وأئمة الرشد والهدى ، وصلةِ الدعاء لهذا الأمر العلي العزيز المنصور المستعينيّ بالنصر الأعز والفتح الأسنى ، فإنّا كتبناه إليكم – كتب الله تعالى لكم بلوغ الأمل ، ونُجْحَ القول والعمل – من منزلنا الأسعد بضفة وادي ملوية يمنه الله ، وصُنْعُ الله جميل ، ومنّه جزيل ، والحمد لله ، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل ، والعناية المتكفلة برَعْي الوسائل ، ذلكم لما تميزتم به من التمسك بالجناب العليّ ، المولوي العلوي ، جدّدَ الله تعالى عليه ملابس غُفْرانه ، وسقاهُ غُيُوثَ رحمته وحنّانه ؛

[1] وردت هذه الرسالة في الاستقصا ٤ : ٢٩ – ٣٠ وأزهار الرياض ١ : ٢٨٢ .

وما أهديتم إلينا من التقرب لدينا ، بخدمة ثراه الطاهر ، والاشتمال بمطارف حرمته السامية المظاهر .

« وإلى هذا وصل الله حُظْوتكم ووالى رفعتكم ، فإنّه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده ، المقابَلُ بالإسعاف المستعذب وِرْدُهُ ، فوقفنا على ما نَصَّه ، واستوفينا ما شرحه وقَصَّه ، فآثرنا حُسْنَ تلطفكم في التوسل بأكبر الوسائل إلينا ، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا ، وفي الحين عيّنّا لكمال مطلبكم ، وتمام مأربكم ، والتوجه بخطابنا في حقكم ، والاعتماد بوفقكم ، خديمَيْنا أبا البقاء ابن تاسكورت [1] وأبا زكريا ابن فرقاجة ، أنجدهما الله وتولاهما ؛ وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض المعلوم ، بعد التأكيد عليهما فيه ، وشرح العمل الذي يوفيه ، فكونوا على علم من ذلكم ، وابْسُطوا له جملة آمالكم ، وإنّا لنرجو ثواب الله في جبر أحوالكم ، وبرء اعتلالكم ، والله سبحانه وتعالى يَصِلُ مبرّتكم ، ويتولى تكرمتكم ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ كتب في الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبعمائة » .

[٣ ـ جواب لسان الدين]

فراجعه ابن الخطيب بما نصّه [2] « مولاي خليفة الله بحق ، وكبير ملوك الأرض عن حجة ، ومعدن الشفقة والحرمة ببرهان وحكمة ، أبقاكم الله تعالى عالي الدرجة في المنعمين ، ووافرَ الحظ عند جزاء المحسنين ، وأراكم ثمرة برّ أبيكم في البنين ، وصنع لكم في عدوكم الصنع الذي لا يقف عند معتاد ، وأذاق العذاب الأليم مَنْ أراد في مثابتكم بإلحاد ، عبدكم الذي ملكتم رقّه ،

١ الاستقصا والأزهار : تاشكورت .
٢ انظر هذه الرسالة في الاستقصا ٤ : ٣٠ – ٣١ والأزهار ١ : ٢٨٤ .

وآويتم غربته ، وسترتم أهله وولده ، وأسنيتم رزقه ، وجبرتم قلبه ، يُقبِّل موطئ الأخمص الكريم من رجلكم الطاهرة ، المستوجبة بفضل الله تعالى لموقف النصر ، الفارعة هَضَبَةَ العز ، المعملة الخطو في مجال السعد ، وميسّر[1] الحظ ابن الخطيب ، من شالة[2] التي تأكد بملككم الرضيّ احترامها ، وتجدد برعيكم عهدها ، واستبشر بملككم دفينها ، وأشرق بحسناتكم نورها .

«وقد ورد على العبد الجوابُ المولوي البر الرحيم ، المنعم المحسن بما يليق بالملك الأصيل والقدر الرفيع والهمّة السامية والعزّة القعساء ، من رَعْي الدخيل والنصرة للذِّمام والاهتزاز لبر الأب الكريم ، فثاب الرجاء وانبعث الأمل وقوي العَضُد وزار اللطف ، فالحمد لله الذي أجرى الخير على يدكم الكريمة ، وأعانكم على رعي ذمام الصالحين ، المتوسِّل إليكم أولاً بقبورهم ومتعبداتهم وتراب أجداثهم ، ثم بقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق أجمعين الذي تسبب[3] في وجودكم ، واختصكم بحبّه ، وغمركم بلطفه وحنانه ، وعلمكم آداب الشريعة ، وأورثكم ملك الدنيا ، وهيأتكم دعواتُه بالاستقامة إلى ملك الآخرة بعد طول المَدى وانفساح البقاء ، وفي علومكم المقدسة ما تضمنت الحكاياتُ عن العرب من النعرة[4] عن طائر داسَتْ أفراخَه ناقَة في جوار رئيس منهم ، وما انتهى إليه الامتعاضُ لذلك مما أُهينت فيه الأنفس وهلكت الأموال ، وقُصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا ، فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولاً إلى رُحْماكم بالأهل والولد عن حسنة تبرعتم بها ، وصدقة حملتكم الحرية

١ ق والاستقصا : وميسر .
٢ شالة : تعد اليوم من ضواحي الرباط ، وفيها قبور المرينيين . وإليها لجأ لسان الدين عندما نبت به الأندلس .
٣ ق : الذي هو سبب .
٤ ق : النفرة ؛ الاستقصا : النصرة .

على بذلها ؟ ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دامعَ العين خافقَ القلب واهي الفزعة ، يتغطى بردائه ، ويستجير بعليائه ، كأنّني تراميتُ عليهم في الحياة أمام الذعر الذي يُذهل العقل ويحجب عن التمييز بقصر داره ومضجع رقاده ، ما من يوم إلاّ وأجْهَرُ بعد التلاوة : يا لَيَعْقُوب ، يا لَمَرِين [1] ، نسأل الله تعالى أن لا يقطع عني معروفكم ، ولا يسلبني عنايتكم ، ويستعملني ما بقيت في خدمتكم ، ويتقبل دعائي فيكم .

« ولحين وصول الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدس ووضعته بإزائه ، وقلت : يا مولاي ، يا كبير الملوك ، وخليفة الله ، وبركة بني مرين ، صاحبَ الشهرة والذكر في المشرق والمغرب ، عبدُكَ المنقطع إليك ، المترامي بين يدي قبرك ، المتوسل إلى الله ثم إلى ولدك بك ، ابنُ الخطيب ، وصله من مولاه ولدِكَ ما يليق بمقامه من رَعْي وجهك ، والتقرب إلى الله تعالى برعيك ، والاشتهار في مشرق الدنيا وغربها ببرك ، وأنتم مَنْ أنتم مَنْ إذا صنع صنيعة كملها ، وإذا منّ منةً تممها ، وإذا أبدى يَداً أبرزها طاهرة بيضاء غيرَ مَعيبة ولا ممنونة ولا منتقضة ، وأنا بعدُ تحت ذَيْل حرُمْتك وظلّ دخيلك ، حتى يتم أملي ، ويخلص قصدي ، وتحفّ نعمتك بي ، ويطمئن إلى مأملك قلبي .

« ثمّ قلت للطلبة : أيّها السادة ، بيني وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوّة التأليف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم ، فأمّنوا على دعائي بإخلاص من قلوبكم ، واندفَعْتُ في الدعاء والتوسّل الذي نرجو أن يتقبله الله تعالى ولا يضيعه ، وخاطب العبدُ مولاه شاكِراً لنعمته مشيداً بصنيعته مسروراً بقَبُوله ، وشأنه من التعلق والتطارح شأنه حتى يكمل القصد ويتم الغرض ، مغمور الوقت بخدمة يرفعها ، ودعاء يردده ، والله المستعان » ؛ انتهى .

---

[1] ص ق : يا آل يعقوب ، يا آل مرين ؛ ولا خلاف .

[٤ – رسالة من لسان الدين إلى أبي سالم]

وكان تقدم من لسان الدين كتاب للسلطان المذكور ، وكان ما سبق من كتاب السلطان جواباً له ، وذلك بعد رجوع لسان الدين من مراكش واستقراره في مدينة سلا برباط شالة مدفن السلاطين من بني مرين ، ومنهم السلطان أبو الحسن والد السلطان أبي سالم المذكور ، ونصُّ الكتاب [١] :

« مولاي المرجوّ لإتمام الصنيعة وصِلَةِ النعمة وإحراز الفخر ، أبقاكم الله تعالى تُضْرَبُ بكم الأمثال في البر والرضى وعلوّ الهمّة ورَعْي الوسيلة ، مُقَبِّلُ موطىء قدمكم المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابنُ الخطيب من الضريح المقدّس بشالة ، وقد حط رَحْل الرجاء في القبة المقدسة ، وتذمَّم [٢] بالتربة الزكية ، وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ساعةَ إيابه من الوجهة المباركة وزيارة الرُّبُط المقصودة والترب المعظمة ، وقد عزم أن لا يبرح طوعاً من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعيٍّ حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ثم عليكم ، والتماس شفاعته في أمر سَهْل عليكم لا يجر إنفادَ مال ولا اقتحام خطر ، إنّما هو إعمال لسان ، وخط بنان ، وصَرْف عزم ، وإحراز فخر وأجر ، وإطابة ذكر ، وذلك أن العبد عرّفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال ما يحضر ممّا يفتح الله تعالى فيه ، ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب ، وقال لي صدرُ دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب – يعني ابن مرزوق – سَنّى الله تعالى أملَه من سعادة مقامكم وطول عمركم : أنت يا فلان والحمد لله ممّن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين ، وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ما صدر ، جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين .

١ قارن بما ورد في الاستقصا ٤ : ٢٤ وأزهار الرياض ١ : ٢٧٧ .
٢ الاستقصا : وتيمم .

« وقد تقدم تعريفُ مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسبما أداه مَنْ حَضَرَ ذلك المشهد من خدامكم ، والعبدُ الآن يعرض عليكم الجواب ، وهو أنّي لمّا فرغت من مخاطبته بمرأى من الملإ الكبير ، والجمّ الغفير ، أكببت على اللّحْد الكريم داعياً ومخاطباً ، وأصغيت بأذني عند قبره ، وجعل فؤادي يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله ، فكأنّي به يقول لي : قل لمولاك : يا ولدي وقرة عيني المخصوص برضاي وبرّي ، و[من] ستر حريمي ورد ملكي وصان أهلي وأكرم صنائعي ووصل عمــلي ، أسلّم عليك وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويُقَبّلَ عليك ، الدنيا دار غرور ، والآخرة خير لمن اتقى :

وما الناس إلا هالك وابن هالك [1]

« ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضي العفو والمغفرة ، أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ، ومِثْلُك من ذكر فتذكر ، وعرف فما أنكر ، وهذا ابنُ الخطيب قد وقف على قبري ، وتَهَمَّم بي ، وسبق الناس إلى رثائي ، وأنشدني ومجدني وبكاني ، ودعا لي وهنأني بمصير أمري إليك ، وعفّر وجهه في تربي ، وأملني لما انقطعت مني آمال الناس ، فلو كنتُ يا ولدي حيّاً لما وَسِعني أن أعمل معه إلا ما يليق بي ، وأن أستقل فيه الكثير ، وأحتقر العظيم ، لكن لما عجزت عن جزائه وكَلْته إليك ، وأحلته يا حبيبَ قلبي عليك ، وقد أخبرني أنه سَليبُ المال ، كثير العيال ، ضعيف الجسم ، قد ظهر في عدم نشاطه أثر السن ، وأمل أن ينقطع بجواري ، ويستتر بدخيلي وخدمتي ، ويرد عليه حقه بخدمتي ، ووجهي ووجوه من ضاجعني من سلفي ، ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتي ، وقد كنت تشوّفت إلى استخدامه في الحياة حسبما يعلمه حبيبُنا الخالص المحبة ، وخطيبُنا العظيم المزية القديمُ القربة ، أبو عبد الله ابن مرزوق ، فاسأله يذكرك ،

[1] صدر بيت لأبي نواس ، وتمامه : « وذو نسب في الهالكين عريق » .

واستخبره يخبرك ، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمي بعد الممات ، إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء ، وله يا ولدي ولد نجيب يخدم ببابك ، وينوب عنه في ملازمة بيت كتابك ، وقد استقر بدارك قراره ، وتعين بأمرك مرتبه ودشاره[1] ، فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب ، هذه رغبتي منك ، وحاجتي إليك ، واعلم أن هذا الحديث لا بد له أن يُذكر ويُتحدث به في الدنيا وبين أيدي الملوك والكبار ، فاعمل ما يبقى لك فخره ، ويتخلد ذكره ، وقد أقام مجاوراً ضريحي ، تالياً كتاب الله تعالى علي ، منتظراً ما يصله منك ويقرؤه علي ، من السعي في خلاص ماله ، والاحتجاج بهذه الوسيلة في جَبْره ، وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة . فالله الله يا إبراهيم ، اعمل ما يسمع عني وعنك فيه ، ولسانُ الحال أبلغ من لسان المقال ؛ انتهى .

« والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه ، منتظر منكم قضاء حاجته ، ولتعلموا وتتحققوا أنني لو ارتكبت الجرائم ، ورزأت الأموال ، وسفكت الدماء ، وأخذت حسائف[2] الملوك الأعزة ممن وراء النهر من الططر وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنهم الله تعالى مني من غير عهد بعد أن بلغهم تذممي بهذا الدخيل ، ومقامي بين هذه القبور الكريمة ، ما وسع أحداً منهم من حيث الحياء والحشمة من الأحياء والأموات وإيجاب الحقوق التي لا يُغفلها الكبار للكبار إلا الجودُ الذي لا يتعقبه البخل ، والعفو الذي لا تفسده المؤاخذة ، فضلاً عن سلطان الأندلس أسعده الله تعالى بموالاتكم ؛ فهو فاضل ، وابن ملوك أفاضل ، وحوله أكياس ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم ، لا سيما مولاي والدكم الذي أتوسل به إليكم وإليهم ، فقد كان يتبنى مولاي أبا الحجاج ، ويشمله بكنفه ، وصارخه بنفسه ، وأمده بأمواله ،

١ الدشار : المزرعة أو الأرض المستأجرة ، والجمع دشر .
٢ الحسائف : العداوات والضغائن .

ثم صيّر الله تعالى ملكه إليكم ، وأنتم من أنتم ذاتاً وقبيلاً ، فقد قرّتْ يا مولاي عينُ العبد بما رأت في هذا الوطن المراكشي من وفور حشودكم ، وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم وعددكم ، زادكم الله تعالى من فضله ؛ ولا شكّ عند عاقل أنكم إن انحلّتْ عروة تأميلكم ، وأعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوّه .

« وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان ، وتعلّقي بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاي والدكم ، وشهرة حرمة شالة معروفة ، حاش لله أن يضيعها أهلُ الأندلس ، وما توسل إليهم قط بها إلا الآن ، وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة ، وأملي منكم أن يتعين من بين يديكم خديم ، بكتاب كريم ، يتضمن الشفاعة في رد ما أخذ لي ، ويخبر بمَثْوَاي مترامياً على قبر والدكم ، ويقرر ما ألزمكم بسبب هـذا الترامي من الضرورة المهمّة والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا ، وتطلبون منه عادة المكارمة بحلّ هذه العقدة ، ومن المعلوم أنّي لو طلبت بهذه الوسائل من صلب . . . . . ما وسعهم بالنظر العقلي إلا حفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن ، فالحياء والحشمة يأبَيان العذر عن هذا في كل ملّة ونحلة .

« وإذا تمّ هذا الغرضُ — ولا شك في إتمامه بالله تعالى — تقع صدقتكم على القبر الكريم بي وتعينوني لخدمة هـذا المولى وزيارته وتفقّده ، ومدح النبي صلى الله عليه وسلّم ليلة المولد في جواره وبين يديه ، وهو غريب [1] مناسب لبركم به ، إلى أن أحجّ بيتَ الله بعناية مقامكم ، وأعود داعياً مُثْنياً مستدعياً للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب ، وأتعوّض من ذمّتي بالأندلس ذمّة بهذا الرباط المبارك يرثها ذريتي ، وقد ساومت في شيء من ذلك منتظراً ثمنه ممّا يباع بالأندلس بشفاعتكم ، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم في مثل هذا أو يتوقّع فيه وحشة أو جفاء والله ما طلبته ، لكنّهم أسرى وأفضل ، وانقطاعي أيضاً لوالدكم ممّا لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه ، وها أنا أرتقب جوابكم بما لي عندكم

---

١ غريب : يعني أنه عمل بديع .

من القبول ، ويَسَعُني مجدكم في الطلب وخروج الرسول لاقتضاء هذا الغرض ، والله سبحانه يطلع من مولاي على ما يليق به ، والسلام . وكتب في الحادي عشر من رجب عام أحد وستين وسبعمائة » .

وفي مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة [1] :

مولايَ ها أنا في جوارِ أبيكا	فابذلْ من البرّ المقدَّرِ فيكا
أسمعْهُ ما يرضيهِ من تحت الثرى	واللهُ يُسمعُكَ الذي يرضيكا
واجعلْ رضاهُ إذا تَهَدّتَ كتيبةً	تُهدي إليكَ النصرَ أو تهديكا
واجبر بجبري قَلْبَه تنلِ المنى	وتطالعِ الفتحَ المبينَ وشيكا
فهو الذي سنَّ البرور بأمِّه	وأبيه فاشرعْ شَرْعَه لبنيكا
وابعث رسولك منذراً ومحذِّراً	وبما تؤمّلُ نيلَهُ يأتيكا
قد هَزَّ عَزْمُك كلَّ قطرٍ نازحٍ	وأخافَ مملوكاً بهِ ومليكا
فإذا سموتَ إلى مَرَامٍ شاسعٍ	فغُصُونه ثَمَرَ المُنى تجنيكا
ضمنتْ رجالُ الله منك مطالبي	لمَّا جعلتك في الثواب شريكا
فلئن كفيتَ وجوهها في مقصدي	ورعيتها بركاتها تكفيكا
وإذا قضَيتَ حوائجي وأريتَني	أملاً فربُّكَ ما أردْتَ يُريكا
واشدُدْ على قولي يداً فهوَ الذي	برهانُهُ لا يقبلُ التشكيكا
مولايَ ما استأثرتُ عنك بمُهْجَتِي	إنّي ومُهْجَتِيَ التي تفديكا
لكن رأيتُ جنابَ شالة مغنماً	يُضفي عليَّ العزَّ في ناديكا
وفروضُ حقكَ لا تفوتُ فوقْتُها	باقٍ إذا استجزيته يجزيكا
ووعدتني وتكرَّرَ الوعدُ الذي	أبتِ المكارمُ أن يكونَ أفيكا
أضفى عليكَ الله سترَ عنايةٍ	من كلِّ محذورِ الطريق يقيكا

[1] أزهار الرياض ١ : ٢٨١ .

بِبَقائكَ الدُّنيا تُحاطُ وأهلها فاللهُ جلَّ جَلاله يُبقيكا

فلمّا وصل الكتاب إلى السلطان أجابه بما مر آنفاً .

ورأيت بخط الفقيه الأديب المؤرخ أبي عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي نزيل تلمسان على هامش قول ابن الخطيب في هذه الرسالة « ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلَّت عروة تأميلكم — إلخ » ما صورته : كذلك وقع آخر الأمر ، وكان الاستيلاء على مدينة غرناطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام في محرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة ، فرحم الله تعالى ابن الخطيب ، العاقل اللبيب ، وغفر له برحمته ؛ انتهى .

وممّا خاطب به لسان الدين السلطان أبا سالم في الغرض المتقدم قوله

عن بابِ والدكَ الرضى لا أبْرَحُ يأسُو الزمانُ لأجلِ ذا أو يَجْرَحُ
ضُرِبَتْ خيامي في حماه فصِبْيَتي تجني الجميمَ به وبَهْمِي تسرحُ
حتى يُراعى وجهُه في وجهتي بعنايةٍ تشفي الصدورَ وتشرحُ
أيسوغُ عَنْ مثواهُ سيري خائباً ومنابرُ الدنيا بذكركَ تَصْدَحُ
أنا في حماهُ وأنتَ أبْصَرُ بالذي يرضيه منكَ فوزنُ عقلك أرجحُ
في مثلها سيفُ الحميّةِ يُنْتَضَى في مثلها زَنْدُ الحفيظة يُقْدَحُ
وعسى الذي بدأ الجميلَ يعيده وعسى الذي سَدَّ المذاهبَ يفتحُ

[ترجمة أبي سالم المريني]

وقد عرّف في « الإحاطة » بالسلطان أبي سالم فقال بعد كلام : أملاك المسلمين ، وحماة الدين ، وأمراء المغرب الأقصى من بني مَرين ، غيوث المواهب وليوث العرين ، ومعتمد الصريخ وسهام الكافرين ، حفظ الله تعالى على الإسلام والمسلمين ظلهم ، وزين ببدور الدنيا والدين هالَتَهُم ، وأبقى الكلمة فيمن اختاره منهم أو من

أقاربهم ، فما عسى أن يُطنب اللسانُ في مدحهم ؟ وأين تقع العبارة ؟ وماذا[1] يحصر الوصف ؟ إلى أن قال : وفاته – وفي ليلة العشرين من ذي القعدة[2] من عام اثنين وستين وسبعمائة[3] ثار عليه بدار الملك وبلد الإمارة المعروف بالبلد الجديد من مدينة فاس الخائنُ الغادرُ مخلفه عليها عمر بن عبد الله بن علي نسمة السوء ، وجملة الشؤم ، والمثل البعيد في الجراءة على الله تعالى ، وقد اهتبل غِرَّة انتقاله إلى القصر السلطاني بالبلد القديم متحولاً إليه حذراً من قاطع[4] فلكي كان يحذر منه ، استعجله بضعف نفسه ، وأعانه على فرض صحة الحكم به ، وسد الباب في وجهه ، ودعا الناسَ إلى بيعة أخيه المعتوه ، وأصبح حائراً بنفسه ، يروم ارتجاع أمر ذهب من يده ، ويطوف بالبلد يلتمس وَجْهاً إلى نجاح حيلة ، فأعياه ذلك ، ورشقت مَنْ معه السهام ، وفرَّت عنه الأجناد والوجوه ، وأسلمه الدهر ، وتبرأ منه الجد ، وعندما جَنَّ عليه الليل فر لوجهه ، وقد التفَّ عليه الوزراء ، فسفهت حلومهم ، وفالتْ آراؤهم ، ولو قصدوا به بعضَ الجبال المنيعة لولوا أوجههم شطر مظنة الخلاص ، واتصفوا بإبلاغ الأعذار ، ولكنهم نَكلوا عنه . ورجعوا أدراجهم وتسلّلوا راجعين إلى يد غادر الجملة ، قد سلبهم الله سبحانه لباسَ الحياء والرجولية وتأذن الله تعالى لهم بعدُ بسوء العاقبة . وقصد بعض بيوت البادية وقد فضحه نهارُ الغد ، واقتفى المتبعة أثره حتى وقعوا عليه ، فسيق إلى مَصْرَعه ، وقُتِل بظاهر البلد ثاني اليوم الذي غدر به فيه ، جعلها الله تعالى له شهادةً ونفعه ؛ فلقد كان[5] بقية البيت وآخر القوم دَماثةً وحياء ، وبعداً عن

١ ق : وما .
٢ ص : قعدة .
٣ قال ابن الأحمر : وقتل رحمه الله تعالى وأنا أنظر إليه وأتوجع وأبكي يوم الخميس ٢١ لذي القعدة سنة ٧٦٢ وله ٢٨ سنة (روضة النسرين : ٣٠) .
٤ القاطع والقطع في مصطلح المنجمين ما يدل على نحس وخسارة .
٥ انظر أزهار الرياض ١ : ٢٧٠ .

الشرور ، وركوناً للعافية ، وأنشدت على قبره الذي ووريت به جثته بالقلعة من ظاهر المدينة قصيدةً أديتُ فيها بعض حقّه :

بني الدنيا بني لمع السرابِ «لدوا للموت وابنوا للخرابِ»

انتهى المقصود من الترجمة .

وكان يصف لسان الدين بعقرّبي وجليسي ، كما سبقت الإشارة إليه من كلام لسان الدين فيما خاطب به ابن أبي رمانة ، والله يسبل على الجميع رداء عفوه سبحانه .

وقد تقدم أنّه شفع لابن الخطيب عند أهل الأندلس ، ولذلك قال يخاطبهم :

سَمِيَّ خليل الله أحييتَ مُهجتي وعاجَلَني منكَ الصريخُ على بُعْدِ
فإن عشْتُ أُبْلِغْ فيك نفسيَ عذرها وإن لم أعشْ فالله يجزيك من بعدي

[ثناء المغاربة والمشارقة على لسان الدين]

وقال الرئيس الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر في حق ابن الخطيب ما صورته [1] : هو شاعر الدنيا ، وعَلَم المفرد والثُّنْيا ، وكاتب الأرض ، إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه في الكُتُب ، ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم في الماضي ، وسيف مِقْوَله ليس بالكَهام إذ هو الماضي ، وإلاّ فانظر كلام الكتّاب الأول من العصبة ، كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبة ، للبراعة ، باليراعة ، وبه أُسكت صائلهم ، وما حُمدتْ بُكَرُهم وأصائلهم ، للجزالة المشربة بالحلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العُدْوتين ، ورئيس الدولتين ، بالإطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية ، لكن

1 هذا نص ما قاله في نثير فرائد الجمان ٢٤٢ وانظر أزهار الرياض ١ : ١٩١ .

صِلّ لسانه في الهجاء لسع ، ونجاد نطاقه في ذلك اتسع ، حتى صدمني ، وعلى القول فيه أقدمني ، بسبب هجوه في ابن عمّي ملك الصقع الأندلسي ، سلطان ذلك الوطن في النفر الجنسي ، المعظم في الملوك بالقول الجني والإنسي ، ثمّ صفحت عنه صفحة القادر ، الوارد من مياه الظفر غير القاذر ، لأن مثلي لا يليق به إظهار العورات ، ولا يجمل له تتبع العثرات ، اتّباعاً للشرع في تحريم الغيبة ، وضرباً عن الكريهة وإثباتاً لحظوظ النقيبة الرغيبة ، فما ضره لو اشتغل بذُنُوبه ، وتأسف على ما شربه من ماء اللهو بذَنُوبه [1] ، وقد قال بعض الناس : من تعرض للأعراض ، صار عِرضُه هدفاً لسهام الأغراض ؛ انتهى .

ومثل هذا في لسان الدين لا يقدح ، وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح [2] ، وعلى تقدير صدور ما يخدش وجه جنابه الرفيع ، فالأولى أن ينشد :

وإذا الحبيبُ أتى بذنبٍ واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وممّن أثنى على لسان الدين ابن الخطيب ــ رحمه الله تعالى ــ بعضُ أكابر علماء تلمسان ، ولم يحضرني الآن اسمه ، في تأليف عرّف فيه بالشيخ العلامة سيدي أبي عبد الله الشريف التلمساني وابنيه العالمين أبي يحيى وسيدي عبد الله ، فقال بعد كلام في حق الشريف ما نصّه : وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره ، وأكثرهم تعظيماً له ، حتى إن العالم الشهير لسان الدين ابن الخطيب صاحب الأنباء العجيبة ، والتآليف البديعة ، كلّما ألف تأليفاً بعثه إليه ، وعرضه عليه ، وطلب أن يكتب عليه بخطّه ، وكان الشيخ الإمام الصدر المفتّي أبو سعيد ابن لب شيخ علماء الأندلس وآخرهم كلّما أشكلت عليه مسألة كاتبه بها ، وطلب منه بيان ما أشكل عليه ، مقرّاً له بالفضل ؛ انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور .

١ الذنوب : الدلو .
٢ عجز بيت ، وصدره : « هجوت زهيراً ثم إني مدحته » .

رجـــع :

وكتب لسان الدين ابن الخطيب متمثلاً بشيخه الأوحد قاضي الجماعة أبي البركات ابن الحاج البلفيقي رحمهما الله تعالى[1] :

أيّتها النفس إليـــه اذهبي فَحُبُّه المشهور من مذهبي
أيأسني التوبةَ من حُبِّهِ طلوعُه شمساً من المغربِ

ويغلب على ظني أنّه خاطبه بذلك عند قدومه ، أعني لسان الدين ، من المغرب إلى الأندلس ، والله تعالى أعلم .

وكان قاضي القضاة برهان الدين الباعوني الشاميّ[2] ، كثير الثناء على لسان الدين رحمه الله تعالى ، لأنّه تلقّى أخباره من قاضي القضاة ابن خلدون حسبما ذكرناه في غير هذا الموضع ، ولقد رأيت بخطّه على هامش بعض تآليف لسان الدين في الإنشاء ما نصّه : هذا بليغ إلى الغاية ؛ انتهى .

وكتب أثره بعض أكابر علماء المشرق ما نصّه : هذا خط العلامة قاضي القضاة برهان الدين الباعوني ، وهو شديد الاعتناء والمدح للمصنف ابن الخطيب الأندلسي ، معظم له ولإنشائه ، وهو خليق بالتعظيم ، جدير بمزيد التمجيد والتكريم ، وكيف لا وهو شاعر مُفْلِقٌ ، وخطيب مِصْقَع ، وكاتب مترسل بليغ ، لولا ما في إنشائه من الإكثار ، الذي لا يكاد يخلو من عثار ، والإطناب . الذي يُفضي إلى الاجتناب ، والإسهاب ، الذي يَقُدُّ الإهاب ، ويورث الالتهاب ؛ انتهى .

١ قد تقدم القول في البيتين ونسبتهما ج ٤ : ١٤ ؛ ٥ : ٣٤٨ ، ٤٨٢ .
٢ هو إبراهيم بن أحمد الباعوني (– ٨٧٠) الصفدي المولد الدمشقي الدار ، كان ينعت بقاضي القضاة مع أنه رفض تولي القضاء ، وله ديوان شعر ومؤلفات أخرى (الضوء اللامع ١ : ٢٦ والبدر الطالع ١ : ٨ ونظم العقيان : ١٣) .

قلت : وهذا الانتقاد غير مُسَلَّم ، فإن لسان الدين وإن أطنب وأسهب ، فقد سلك من البلاغة أحْسَنَ مذهب ، ويرحم الله تعالى العلامة البرهان الباعوني المذكور أعلاه ، إذ كتب بخطّه في آخر بعض تآليف لسان الدين في الإنشاء ما صورته : قال كاتبُه إبراهيم بن أحمد الباعوني لطف الله تعالى به : الحمد لله على ما ألهم من البيان وعلّم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم ، وقَفْتُ على هذا الكتاب من أوّله إلى آخره ، وعُمْتُ من بَحْر بلاغته في زاخره ، وعددته من مناقب مؤلفه ومفاخره ، فإنّه برّز فيه غاية التبريز ، وأتى بما هو أحسن من الذهب الإبريز ، لا بل هو أبهى من الجواهر ، والنجوم الزواهر ، وعجبت من تلك الألفاظ ، المشبهة لسحر الألحاظ ، ورقة المعاني ، المحكمة المباني ؛ انتهى .

فانظر — أيدك الله تعالى — بعين الإنصاف إلى كلام هذا الفاضل ، المنصف الكامل ، وقِسْه مع كلام ذلك المنتقد المتعصب الناقص الخامل ، مَعَ أن الكلام الذي تعرض له ذاك بالقدح ، هو الذي تصدى له الباعوني بالمدح ، وكل إناء بالذي فيه ينضح ، وإنّما يعرف الفضلَ لأهلِ الفضلِ أهلُ الفضل ، والأمر أجلى من أن يقام عليه دليل وأوضح .

رجع إلى ما كنّا بصدده :

وقال الوزير ابن عاصم عندما أجرى ذكر سلطان ابن الخطيب أمير المسلمين الغني بالله بعد كلام كثير ما صورة محل الحاجة منه : وكان هذا السلطان من نيل الأغراض على أكمل ما يكون عليه مِثلُه ممن نزع غرقاً في قَوْسِ الخلافة ، حكى لي شيخنا القاضي أبو العباس الحسني أن كبير ولده الأمير أبا الحجاج طلب من الشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب أن يطلب من أبيه الغني بالله أن يبادر بإعذاره ، إذ كان قد جاوز سنّ الإثغار ، دون إعذار ، لمكان ما لحق والده من التمحيص وغير ذلك من الحوادث المهمة ، فأسعده الشيخ بذلك ، وقال

للغني بالله : يا مولانا إن سيدي يوسف وَكّلني على طلب إعذاره من مولانا نصره الله على ما يليق بك وبه ، فقال له الغني بالله : حسبي الله ، وسكت سكتة لطيفة تُشعر بفصل الكلام بعضه من بعض ، ثم قال : ونعم الوكيل ! فعدّها الأكياس من مدارك نُبله ، ومحاسن قوله وفعله ؛ انتهى.

قلت : هذا من السلطان في حق لسان الدين غاية التبجيل ، أعني قوله « ونعم الوكيل » فأين هذا من سماع كلام أعدائه فيه بعد ، حتى آل أمره إلى النحس بعد ذلك السعد ؟ وسقاه دهره بعد الحلاوة ما مر ، ولم يكن قتله إلا بتسبب السلطان المذكور كما مر :

ثلاثـةٌ ليسَ لهـا أمانُ البحرُ والسلطانُ والزمانُ

[٥ – رسالة ابن خاتمة إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى [١] : ولمّا قضى الله عز وجل بالإدالة ، ورجعنا إلى أوطاننا من العُدْوَة ، واشتهر عني ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة ، والتيه على السلطان والدولة ، والتكبر على أعلى رتب الخدمة ، وتطارحت على السلطان في استنجاز وعد الرحلة ، ورغبت في تبرئة الذمة ، ونَفَرْتُ عن الأندلس بالجملة ، خاطبني – يعني أبا جعفر ابن خاتمة – بعد صدرٍ بلَغَ من حسن الإشارة وبراعة الاستهلال الغاية بقوله : «وإلى هذا يا سيدي ومحل تعظيمي وإجلالي ، أمتع الله تعالى الوجود بطول بقائكم ، وضاعف في العز درجات ارتقائكم ، فإنّه من الأمر الذي لم يغب عن رأي العقول ، ولا اختلف فيه أرباب المعقول ، أنّكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سِلْكها ، وطِراز مُلْكها ، وقِلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام

١ انظر الإحاطة ١ : ١٢٤ وأزهار الرياض ١ : ٢٦٥ .

زينتها على العموم والخصوص ، ثم أنتم مَدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبّ مارستانها ، والذي عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها ، فلديه يحل المشكل ، وإليه يُلجأ في الأمر المعضل ، فلا غرو أن تتقيد بكم الأسماع والأبصار ، وتحدّق نحوكم الأذهانُ والأفكار ، ويُزْجَر عنكم السانح والبارح ، ويستنبأ ما تطرف عنه العين وتختلج الجوارح ، استقراء لمَرامكم ، واستطلاعاً لطالع اعتزامكم ، واستكشافاً عن مَرامي سهامكم ، لا سيما مع إقامتكم على جَنَــاح خفوق ، وظهوركم في ملتمع بروق ؛ واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق ، حتى تستقر بكم الديار ، ويلقي عصاه التسيار ، ولها العذر في ذلك إذ صَدْعُها بفراقكم لم يندمل ، وسرورها بلقائكم لم يكتمل ، ولم يبرأ بعدُ جناحُها المَهيض ، ولا جَمَّ ماؤها المغيض ، ولا تميزت من داجيها لياليها البيض ، ولا استوى نهارها ، ولا تألّفت أنهارها ، ولا اشتملت نعماؤها ، ولا نُسيت غَمّاؤها ، بل هي كالناقهِ ، والحديث العهد بالمكارهِ ، يستشعر نفس العافية ، ويتمسح منكم باليد الشافية ، فبحَنانكم عليها ، وعظيم حرمتكم على من لديها ، لا تشوبوا لها عَذْبَ المُجاج بالأجاج ، وتفطموها عمّا عُوّدت من طيب المزاج ، فما لدائها وحياة قربكم غير طبكم من علاج .

« وإنّي ليخطر بخاطري محبةً فيكم ، وعناية بما يعنيكم ، ما نال جانبكم صانه الله تعالى بهذا الوطن من الجفاء ، ثمّ أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم الوفاء ، وأن الوطن إحدى المواطن الأظآر التي يحقُّ لهنّ جميلُ الاحتفاء ، وما يتعلّق بكم من حرمة أولياء القرابة وأوداء الصفاء ، فيغلب على ظني أنكم لحسنِ العهد أجنح ، وبحق نفسكم عن حق أوليائكم أسمح ، ولِلّتي هي أعظم قيمةً من فضائلكم أوهَبُ وأسْجَحُ ، وهب أن الدُّرَّ لا يحتاج في الإثبات ، إلى شهادة النحور واللبّات ، والياقوت غني في المكان ، عن مظاهرة القلائد والتيجان ، أليس أنّه أعلى للعيان ، وأبعد عن مكابرة البرهان ، تألقُها في تاج الملك أنوشروان ؟ فالشمس وإن كانت أم الأنوار ، وجلاء الأبصار ، مهما أغمى مكانها من الأفق

قيل : أليلٌ هو أم نهار ، وكما في علمكم ما فارق ذوو الأرحام ، وأولو الأحلام ، مواطن استقرارهم ، وأماكن قرارهم ، إلا برغمهم واضطرارهم ، واستبدال دار خير من دارهم ، ومتى توازن الأندلس بالمغرب ، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؟ ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعبّاد ، وما فوقه مرابط جهاد ، ومعاقد ألوية في سبيل الله ومضارب أوتاد ، ثم يبوأ ولده مبوأ أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتلاده ، أعيذ أنظاركم المسددة من رأي فائل ، وسعي طويل لم يَحْلَ منه بطائل ، فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعَوْد الحميد» ؛ وهي طويلة .

[٦ – من لسان الدين إلى ابن خاتمة]

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : فأجبته بقولي[١] :

لُمْ في الهوى العذريّ أو لا تلُمْ فالعذلُ لا يدخلُ أسماعي
شأنكَ تعنيفي وشأني الهوى كلٌّ امرىء في شأنه ساعي

أهلاً بتحفة القادم ، ورَيْحانة المنادم ، وذكر الهوى المتقادم ، لا يصغّر الله مسراك ، فما أسْرَاك ، لقد جبت إليّ من همومي ليلا ، وجست رَجْلاً وخيلا ، ووفيت من صاع الوفاء كيلا ، وظننت بي الأسف على ما فات ، فأعملت الالتفات ، لكيلا[٢] ، فأقسم لو أن الأمر اليوم بيدي ، أو كانت اللّمّة السوداء من عُدَدي ، ما أفلتَ أشراكي المنصوبة لأمثالك[٣] ، حول المياه وبين المسالك ، ولا علمت ما هنالك ، لكنّك طرقت حِمًى كَسَعَتْه الغارة الشعواء ، وغيرت

١ الإحاطة ١ : ١٢٦ والأزهار ١ : ٢٦٧ .
٢ هذا من الاكتفاء ، فهو يشير إلى الآية الكريمة « لكي لا تأسوا على ما فاتكم . . . الآية » .
٣ نثر بيت الشريف الرضي :

لو كانت اللمة السوداء من عددي يوم الغميم لما أفلت أشراكي

رَبْعه الأنواء ، فخمد بعد ارتجاجه ، وسكت أذينُ دجاجه ، وتلاعبت الرياحُ الهُوجُ فوق فِجاجه ، وطال عهدُه بالزمن الأوّل ، وهل عند رسم دارس من مُعَوَّل ؟ وحيّاً الله نَدْباً إلى زيارتي نَدَبَك ، وبآدابه الحكمية أدّبك :

فكأن وقد أفادَ بكَ الأماني كمن أهدى الشفاء إلى العليل

وهي شيمة بوركت من شيمَةٍ ، وهبة الله تعالى قبله من لدن المشيمة ، وَمَنْ مثله في صلةِ رعي ، وفضلِ سعي ، وقولِ وعي[1] :

قَسَماً بالكواكب الـ زُّهرِ والزُّهْرُ عاتمهْ
إنّما الفضلُ ملّةٌ خُتِمت بابن خاتمهْ

كساني حلة فضله ، وقد ذهب زمان التجمّل ، وحمّلني شكره وكتدي أواهٍ عن التحمل ، ونظرني بالعين الكليلة عن العيب ، فهلاّ أجاد التأمّل ، واستطلع طِلْعَ نَثّي[2] ، ووالى في مبرك المعجزة حثّي ﴿ إنّما أشكو بثّي ﴾ :

ولو تُرِكَ القَطا ليلاً لناما[3]

وما حال شمل وتده مفروق ، وقاعدته فروق ، وصُواع بني أبيه مسروق ، وقلب قَرْحِهِ من عَضّة الدهر دامٍ ، وجمرة حسرته ذات احتدامٍ ، هذا وقد صارت الصغرى ، التي كانت الكبرى ، لمشيب لم يدع أن هجم لمّا نجم ، ثم تهلّل عارضه وانسجم

لا تجمعي هَجْراً عَلَيَّ وغربةً فالهجر في تلف الغريب سريعُ

١ ق ص ومرعى
٢ النث ما يذيعه المرء من سر .
٣ من أمثالهم ؛ وصدره : «ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا » يريد أن وراء إثارة القطا في الليل أمراً رهيباً . انظر فصل المقال : ٣٠٥ – ٣٠٦ .

نظرت فإذا [الجنب ناب ، و][1] النفس فريسة ظُفُر وناب ، والمال أكيلة انتهاب ، والعمر رهن ذهاب ، واليد صفر من كل اكتساب ، وسوق المعاد مترامية ، والله سريع الحساب :

ولو نُعْطى الخيار لما افترقنا   ولكن لا خيارَ مَعَ الزمان

وهب أن العمر جديد ، وظلّ الأمن مديد ، ورأي الاغتباط بالوطن سديد ، فما الحجّة لنفسي إذا مرت بمَطارح جَفوتها ، وملاعب هَفْوَتها ، ومثاقف قَناتها ، ومظاهر عُزَّاها ومَناتها ، والزمان وَلُود ، وزناد الكون غير صَلُود :

وإذا امرؤ لدغته أفعى مَرَّةً   تركته حين يُجَرُّ حبلٌ يَفْرَقُ[2]

ثم إن المرغب قد ذهب ، والدهر قد استرجع ما وهب ، والعارض قد اشتهب ، وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضة ، وأسماؤه على الجوار مخفوضة ، والنيّة مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودة ، والتوبة بفضل الله عزّ وجل منقودة ، والمعاملة سامرية ، ودروع الصبر سابرية ، والاقتصاد قد قرت العين بصحبته ، والله قد عوّض حب الدنيا بمحبته ، فإذا راجعها مثلي من بعد الفراق ، وقد رَقَى لدغتها ألفُ راق ، وجمعتني بها الحجرة ، ما الذي تكون الأجرة ؟ جل شاني ، وإن رضي الوامق وسخط الشاني ، إنّي إلى الله تعالى مهاجر ، وللعرض الأدنى هاجر ، ولأظعان السُّرى زاجر ، لنجد إن شاء الله تعالى وحاجر ، لكن دعاني للهوى ، إلى هذا المولى المنعم هوى ، خلعت نعلي الوجود وما خلعته ، وشوقي أمرني فأطعته ، وغالبٌ والله صبري فما استطعته ، والحال أغلب ، وعسى أن لا يخيب المطلب ، فإن يسّر رضاه فأمر كمل ، ورواحل احتمل ، وحاد أشجى الناقة والجمل ، وإن كان خلاف ذلك فالزمان جم العلائق ، والتسليم

---

١ انفردت بها ص ، ووردت في المصدرين المذكورين .

٢ البيت لصالح بن عبد القدوس (تاريخ بغداد ٩ : ٣٠٤) .

بمقامي لائق :

ما بينَ غَمْضَة عين وانتباهتها يُصَرِّفُ الأمرُ من حال إلى حالِ

وأما تفضيله هذا الوطن ليُمن طَيْره ، وعموم خيره ، وبركة جهاده ، وعمران رُباه ووِهاده ، بأشلاء عُبّاده وزُهّاده ، حتى لا يفضله إلا أحد الحرمين ، فحَقٌّ بريء من المَيْن ، لكنني للحرمين جنحت ، وفي جوّ الشوق إليهما سنحت ، فقد أفضتْ إلى طريق قَصْدي محجته ، ونصرتني والمنة لله تعالى حُجّته ، وقصد سيدي أسنى قصد توخّاه الحمد والشكر ، ومعروف عرف به النكر ، والآمال من فضل الله بعدُ تُمْتار ، والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار ، ودعاؤه بظهر الغيب مدد ، وعدة وعدد ، وبره حالَيِ الظعن والإقامة معتمل معتمد ، ومجال المعرفة بفضله لا يحصره أمد ، والسلام ؛ انتهى .

ومن خط ابن الصباغ ما صورته : يكفي ابنَ خاتمة الغايةُ التي سلمها له إمام الطريقة ، وواحدها الفذ على الحقيقة ، حيث قال :

إنّمــا الفضلُ ملّةٌ خُتمتْ بابن خاتمهْ

ومن نظمه وقد تخلى عن الكتابة وطُلب منه أن يعود فأبى وأنشد :

تقضّى في الكتابة لي زمانٌ كشأن العبدِ ينْتظرُ الكتابهْ
فمنّ الله من عِتْقي بما لا يطيقُ الشكر أن يملا كتابه
وقالوا هل تعود فقلت كلا وهل حُرٌّ يعود إلى الكتابه

فانظر حُسْنَ هذه التورية العجيبة ؛ انتهى .

[رسالة ابن خاتمة إلى ابن جزي]

ولابن خاتمة يخاطب ابن جُزَي : يا أخي الذي سما وُدُّه أن يُجازى ،

وسيدي الذي علا مجده عن أن يُوازى ، وصل الله تعـالى لك أسباب الاعتلاء والاعتزاز ، وكافأ ما لك من الاختصاص بالفضائل والامتياز ؛ أمّا إنّه لو وسع التخلف عن جواب أخ أعز ، ولم يجب التكلف عمن قد عجز ، لغطيت عجزي عن عين تعجيزك ، ولما تعاطيت المثول بين يدي مناهزك أو مجيزك ، لكنّه في حكم الود المكنون المكنوز ، ممّا لا يحل ولا يجوز ، فلكم الفضل في الإغضاء عن عاجز ، دعاه حكم التكلّف إلى القيام مقام مُناجز ، وإن لم يكن ذلك عند الإنصاف ، وحميد الأوصاف ، من السائغ الجائز ، فعن جهد ما بلغ وليك إلى هذه الأحواز ، ولم يحصل الحقيقة إلاّ على المجاز أمّا ما ذهبتم إليه من تخميس القصيدة التي أعجزت ، وبلغت من البلاغة الغاية التي عزت مُناهَضَتُها وأعوزت ، فلم أكن لأستهدف ثانياً لمضاضة الإعجاز ، وأسجل على نفسي بالإفلاس والإعواز ؛ انتهى .

وكتب قبلها قصيدة زائية أجابه بها عن قصيدة زائية ، التزم فيها ابنُ جزي ترك الراء ، لأنّه كان ألْثَغ يبدلها غيناً ، رحم الله تعالى الجميع .

وقال لسان الدين في ترجمة ابن خاتمة المذكور [1] : إنّه الصدر المتفنن المشارك ، القوي الإدراك ، السديد النظر ، الثاقب الذهن ، الكثير الاجتهاد ، الموفور الأدوات ، المعين الطبع ، الجيد القريحة ، الذي هو حسنة من حسنات الأندلس ، أحمد بن علي بن خاتمة ، من أهل المرية .

[٧ – رسالة من ابن خاتمة إلى لسان الدين]

إلى أن قال : «ومما خاطبني به بعد إلمام الركاب السلطاني ببلده وأنا صحبته ، ولقائه إياي بما يلقى به مثله من تأنيس وبر ، وتودد وتردد :

يا من حصلتُ على الكمال بما رأتْ عينايَ منـه من الجمال الرائع ِ

[1] انظر الإحاطة ١ : ١١٤ ، ١١٦

قمرٌ يروقُ وفي عطافَيْ بردِهِ ما شئتَ من كرم ومجد بارع
أشكو إليك من الزمان تحاملاً في فَضِّ شَمْلٍ لي بقربكَ جامع
هَجَمَ البعاد عليه ضنّاً باللّقا حتّى تقلّصَ مثل برقٍ لامع
فلو آنّي ذُو مَذْهبٍ لشفاعة ناديتُهُ يا مالكي يا شافعي

« شكواي إلى سيدي ومُعَظّمي — أقر الله تعالى بسنائه أعين المجد ، وأدرَّ بثنائه ألسنَ الحمد — شكوى ظمآن صُدَّ عن القَراح العَذْب لأوّل وروده ، والهيمان رد عن استرواح القرب لمعضل صدوده ، من زمان هجم عليَّ بإبعاده ، على حين إسعاده ، ودهمني بفراقه ، غبَّ إنارة أُفقي به وإشراقه ، ثم لم يكفه ما اجترم في ترويع خياله الزاهر ، حتى حرم عن تشييع كماله الباهر ، فقُطع عن توفية حقّه ، ومُنع من تأدية مستحقّه ، لا جَرَم أنّه أنف لشعاع ذُكائه ، من هذه المطالع النائية عن شريف الإنارة ، وبخل بالإمتاع بذَكائه ، عن هذه المسامع النائية[1] عن لطيف العبارة ، فراجع أنظاره ، واسترجع مُعاره ، وإلا فعهدي بغروب الشمس إلى الطلوع ، وأن البدر يتصرف بين الإقامة والرجوع ، فما بال هذا النير الأسعد ، غَرَبَ ثمَّ لم يطلع من الغد ، ما ذاك إلا لعدوى الأيام وعُدْوانها ، وشأنها في تغطية إساءتها وجه إحسانها ، وكما قيل : عادت هيف إلى أديانها ، أستغفر الله أن لا يعد ذلك من المغتفَر ، في جانب ما أولت من الأُثَر ، التي أزرى العيان فيها بالأثر ، وأربى الخُبر على الخَبَر ، فقد سرت متشوّفات الخواطر ، وأقرّت مستشرفات النواظر ، بما حوت من ذلكم الكمال الباهر ، والجمال الناضر ، الذي قيد خطا الأبصار ، عن التشوّف والاستبصار ، وأخذ بأزمّة القلوب ، عن سبيل كل مأمول ومرغوب ، وأنّى للعين ، بالتحوُّل عن كمال الزَّيْن ؟ أو بالطرف ، بالتّنقل عن خلال الظرف ؟ أو للسمع من مراد ، بعد

١ ق النابية .

ذلكم الإصدار الأدبي والإيراد ، أو للقلب من مراد ، غير تلكم الشيم الرافلة من ملابس الكرم في حُلل وأبراد ، وهل هو إلاّ الحسن جُمع في نظام ، والبدر طالع لتمام ، وأنواع الفضل ضمها جنس اتفاق والتئام ، فما ترعى العين منه في غير مرعّى خصيب ، ولا تستهدف الأذن بغير سهم في حدق البلاغة مصيب ، ولا تستطلع النفس سوى مطلع له في الحسن والإحسان أوفر نصيب ، لقد أزرى بناظم حلاه فيما يتعاطاه التقصير ، وانفسح مدى علاه بكل باع قصير ، وسفه حلم القائل إن الإنسان عالَم صغير ، شكراً للدهر على يد أسداها بقرب مزاره ، وتحفة أهداها بمطلع أنواره ، على تغاليه في ادخار نفائسه وبخله بنفائس ادّخاره ، لا غرو أن يضيق عنّا نطاق الذكر ، ولا يتسع لنا سوار الشكر ، فقد عمت هذه الأقطار بما شاءت من تحف بين تحفٍ وكرامة ، واجتنت أهلها ثمرةَ الرحلة في ظل الإقامة ، وجرى لهم الأمر في ذلك مجرى الكرامة .

« ألا وإن مفاتحي لسيدي ومعظّمي – حرَسَ الله تعالى مجده ، وضاعف سعده – مفاتحة من ظفر من الدهر بمطلوبه ، وجرى له القدر على وفق مرغوبه ، فشرع له إلى أهله باباً ، ورفع له من خجله جلباباً ، فهو يكلف بالاقتحام ، ويأنف من الإحجام ، غير أن الحصر عن درج قصده يقيّده ، والبصر يبَهْرج نقده فيقعده ، فهو يُقَدّم رجلاً ويؤخر أخرى ، ويجدد عزماً ثم لا يتحرّى ؛ فإن أبطأ خطابي فلواضح الأعذار ، ومثلكم مَنْ قبل جليّات الأقدار ، والله سبحانه يصل لكم عوائد الإسعاد والإسعاف ، ويحفظ بكم ما للمجد من جوانب وأكناف ، إن شاء الله تعالى . وكتب في عاشر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبعمائة » ؛ انتهى .

ومن خاتمة رسالةٍ من إنشاء ابن خاتمة المذكور : فلنصرف عنان البطالة عن الإطالة ، ونسلّم على السيادة الطاهرة الأصالة ، بأطيب تسليم ، ختامه مسك ومزاجه من تسنيم .

ومن نظم ابن خاتمة المذكور[1] :

هو الدهرُ لا يُبقي على عائذٍ به   فمن شاء عيشاً يصطبرْ لنوائبهْ
فمن لم يُصَبْ في نفسه فمُصابه   بفَوْتِ أمانيه وفقدِ حبائبهْ

ومنه قوله :

ملاكُ الأمرِ تقوى الله ، فاجعلْ   تُقاه عُـدَّةً لصلاحِ أمركْ
وبادرْ نحـو طاعتهِ بعزمٍ   فما تدري متى يقضى بعمركْ

[٨ – رسالة أخرى من ابن خاتمة إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين : وكتب إلي – يعني ابن خاتمة المذكور – عقبَ انصرافهِ من غرناطة في بعض قدماته عليها ما نصّه[2] : ممّا قلته بديهة عند الإشراف على جنابكم السعيد ودخوله مع النفر الذين أتحفتهم سيادتكم بالإشراف عليه ، والدخول إليه ، وتنعيم الأبصار في المحاسن المجموعة لديه ، وإن كان يوماً قد غابت شمسه ، ولم يتّفِقْ أن كمل أُنسه ، وأنشدته حينئذ بعض من حضر ولعلّه لم يبلغكم ، وإن كان قد بلغكم ففضلكم يحملني في إعادة الحديث :

أقولُ وعينُ الدّمع نصبُ عيوننا   ولاحَ لبستانِ الوزارةِ جانبُ
أهذي سماء أم بنـاء سما به[3]   كواكبُ غضّتْ عن سناها الكواكبُ
تناظرتِ الأشكالُ منه تقابلاً   على السّعد وُسْطى عقده والحبائبُ
وقد جرتِ الأمـواهُ فيه مجرّةً   مذانبُها شُهبٌ لهن ذوائبُ
وأشرفَ مِن علياه بَهْوٌ تحفُّه   شماسي زجاجٍ وَشْيُها متناسبُ

١ القطعتان في الإحاطة : ١٢٢ – ١٢٣ .
٢ المصدر السابق : ١٢٣ والكتيبة : ٢٤٤ .
٣ الإحاطة : سماؤه .

يطلّ على ماء به الآسُ دائراً[1] كما افترّ ثغرٌ أو كما اخضرّ شاربُ
هنالك ما شاء العُلا من جلالة بها يزدهي بستانُها والمراتبُ

ولمّا أُحضر الطعام هنالك دعي شيخنا القاضي أبو البركات فاعتذر أنّه صائم قد بيّتَه من الليل ، فحضرني أن قلت :

دعونا الخطيبَ أبا البركاتِ لأكلِ طعامِ الوزير الأجلّ
وقد ضمّنا في نداه جنانٌ به احتفل الحسنُ حتى كمل
فأعرض عنّا لعذرِ الصيامِ وما كلّ عذرٍ لهُ مستقلّ
فإنّ الجنانَ محلُّ الجزاء وليس الجنانُ محلّ العمل

وعندما فرغنا من الطعام أنشدت الأبيات شيخنا أبا البركات ، فقال لي : لو أنشدتنيها وأنتم بعد لم تفرغوا منه لأكلت معكم ، برّاً بهذه الأبيات ، والحوالة في ذلك على الله تعالى ؛ انتهى .

ومن نظم ابن خاتمة المذكور في فرّان :

ربّ فرّانٍ جــلا صفحتَهُ لهبُ الفُرنِ جلاءَ العسجدِ
يضرمُ النار بأحشاء الورى مثلما يضرم في المستوقدِ
فكأنّ الوجه منهُ خُبْزةٌ فوقها الشعرُ كقدر أسودِ

[أحمد بن صفوان]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى[2] : ولما قدمت مالقة آيباً من السفارة إلى ملك المغرب محفوفــاً بفضل الله تعالى وجميل صُنْعه ، مُوَفّى المآرب ، مصحباً

١ ق : دائر .
٢ انظر ترجمة ابن صفوان في الإحاطة ١ : ١٠٠ والكتيبة : ٢١٦ .

بالإعانة ، لقيني على عادته مهنياً ، يعني أحمد بن صفوان أحد أعلام مالقة وبقية أدبائها وصدور كتّابها ، وأنشدني معيداً في الود مبدياً ، وضمّن غرضاً له تعجل قضاءه والحمد لله تعالى :

قدمتَ بما سَرَّ النفوسَ اجتلاؤهُ … فهنيتَ ما عمَّ الجميعَ هناؤهُ
قدوماً بخــيرٍ وافرٍ وعنايةٍ … وعزٍّ مَشيدٍ بالمعــالي بناؤهُ
ورفعةِ قدرٍ لا يداني محلَّها … رفيعٌ وإن ضاهى السماكَ اعتلاؤهُ
عُنيتَ بأمرِ المسلمينَ فكلّهم … بمــا يرتجيه قد توالى دعاؤهُ
بلغتَ الذي أمَّلته من صلاحهم … فأدركتَ مأمولاً عظيماً جزاؤهُ
فيا واحداً أغنتْ عن الجمع ذاتُهُ … وقام بأعباء الأمورِ غنَــاؤهُ
تشوّقك الملكُ الذي بك فخره … وأنت حقيقاً حسنهُ وبهاؤهُ
فلا زال مُزْداناً بحليك جودُهُ … ولا زال موفوراً عليك اصطفاؤهُ
وخُصّصْتَ من ربّ العبادِ بنعمة … ينيلُكها تخصيصُهُ واحتفاؤهُ
وعشتَ عزيزاً في النفوسِ محبَّباً … يُلبَّى بتبجيلٍ وبرٍّ نداؤهُ
وقد جاءني داعي السرورِ مؤدياً … لحقٍّ هناء فَرْضُ عينٍ أداؤه
ولي بعدَ هذا مأربٌ متوقفٌ … على فضلك الرحبِ الجنابِ قضاؤهُ
هززتُ له عطف البطرنيِّ راجياً … له النجحَ فاستعصى وخاب رجاؤهُ
ولم يدرِ أني من عَلائكَ منتضٍ … حُساماً كفيلاً بالنجاح انتضاؤهُ
يصمم إن هزّته كفّي لمعضلٍ … فيكفي العنا تصميمه ومضاؤهُ
فحقّقْ له دامت سعودك حرمتي … لديك يرجي مَطْله والتواؤهُ
وشاركْ محبّاً خالصاً لك حبُّهُ … قديماً كريماً عهدُهُ ووفاؤهُ
وصِلْ بجزيلِ الرعي حبلَ ذمامه … يصلْكَ جزيلاً شكره وثناؤهُ
بقيتَ وصنعُ الله يدني لكَ المُنى … ويوليكَ من مصنوعهِ ما تشاؤهُ
بحرمةِ مَنْ حقّت سيادتهُ على … بني آدم والخيرُ منهُ ابتــداؤهُ

وجمعت [1] ديوان شعره أيام مقامي بمالقة عند توجهي صحبة الركاب السلطاني إلى إصراخ الخضراء عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، وقدمت صدره خطبة ، وسميت الجزء بـ « الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة » .

[٩ – إجازة ابن صفوان للسان الدين]

وطلبت منه أن يجيزني وولدي عبد الله رواية ذلك عنه ، فكتب بخطّه الرائق بظهر المجموع ما نصّه : الحمد لله مستحق الحمد ، أجبت سؤال الفقيه الأجل الأفضل السري الماجد الأوحد الأحفل الأديب البارع الطالع في أفق المعرفة والنباهة ، والرفعة المكينة والوجاهة ، بأبهى المطالع ، المصنف الحافظ العلامة الحائز في فني النظم والنثر ، وأسلوبي الكتابة والشعر ، رتبة الرياسة والإمامة ، محلّي جيدِ العصر بتآليفه الباهرة الرُّواء ، ومجلّي محاسن بنيه الرائقة على منصة الإشادة والأنباء أبي عبد الله ابن الخطيب ، وصَل الله تعالى سعادته ، وحرس مجادته ، وسنّى من الخير الأوفر ، والصنع الأبهر ، مقصده وإرادته ، وبلّغه في نجله الأسعد ، وابنه الراقي بمحتده الفاضل ومَنْشَئِهِ الأطهر محلَّ الفَرْقَد ، أفضلَ ما يؤمل نحلته إياه من المكرمات وإفادته ، وأجزت له ولابنه عبد الله المذكور أبقاهما الله تعالى في عزّة سنية الخلال ، وعافية ممتدّة الأفياء وارفة الظلال ، روايةَ جميعِ ما تقيد في الأوراق المكتتب على ظهر أوّل ورقة منها من نظمي ونثري ، وما توليت إنشاءهُ ، واعتمدت بالارتجال والرواية اختياره وانتقاءه ، أيام عمري ، وجميعَ ما لي من تصنيف وتقييد ، ومقطوعة وقَصيد ، وجميع ما أحمله عن أشياخي رضي الله تعالى عنهم من العلوم ، وفنون المنثور والمنظوم ، بأي وجه تأدّى ذلك إليّ ، وصح حملي له وثبت إسناده لديّ ، إجازة تامة ، في ذلك كلّه عامة ، على سَنَن الإجازات الشرعي ، وشرطها

[1] الإحاطة : ١٠٥ .

المأثور عند أهل الحديث المرعيّ ، والله ينفعني وإياهما بالعلم وحمله ، وينظمنا جميعاً في سلك حزبه المفلح وأهله ، ويفيض علينا من أنوار بركته وفضله ؛ قال ذلك وكتبه بخط يده الفانية العبدُ الفقير إلى الله الغني به أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان ، ختم الله تعالى له بخير ، حامداً الله تعالى ، ومصلياً ومسلماً على نبيه المصطفى الكريم ، وعلى آله الطاهرين ذوي المنصب العظيم ، وصحابته البررة أولي الأثرة والتقديم ، في سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ انتهى .

[١٠ – من العذري إلى لسان الدين]

وكتب الفقيه أبو جعفر ابن عبد الملك العذري من أهل سبتة إلى لسان الدين رحمه الله تعالى في بعض الأغراض :

إنّي بمجدك لم أزل مُسْتَيْقِناً ... أن لا يهدّم بالتغير ما بنّى
إذ أنتَ أعظم مـــاجد يعزى لَهُ ... صفح وأكرم من عفا عمن جنى

وكتب أيضاً :

إن كان دهري قد أساء وجارا ... فذمام مجدك لا يضيِّع جارا
فلأنت أعظم ملجإ يُنْجي إذا ... ما الدهرُ أنجـــد موعداً وأغارا

[١١ – رسالة من لسان الدين إلى ابن نفيس]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : خاطبتُ الشيخَ الشريف الفاضل أبا عبد الله ابن نفيس صحبة ثمن مسكن اشتريته منه ، وكان قد أهداني فرساً عتيقاً :

جُزيت يا ابن رسول الله أفضل ما ... جزى الإلهُ شريف البيت يوم جزى

إن أعجزَ الشكرُ منّي منّةً ضعفت   عن بعض حقك شُكْرُ الله ما عجزا

« سيدي ، أبقى الله شرفَكَ تشهد به الطباع ، إذا بعدت المعاهد المقدسة والرّباع ، وتعترف به الأبصار والأسماع ، وإن جحدت عارَضَها الإجماع ، بأي لسان أثني ؟ أم أيَّ الأفنان أهصر وأجني ؟ أم أيَّ المقاصد الكريمة أعني ؟ أمطيت جوادك المبارك ، وأسكنت دارك ، وأوسعت مطالبي اصطبارك ، وهضمت حقك وبوّأت جوارك ، ووصلت للغرباء إيثارك ، أشهد بأنّك الكريم ابن الكريم ، لا أقف في تعدادها عند حد[1] إلى خير جد ، فإن أعان الدهر على مجازاة ، وإن ترفع كرمك عن مُوازاة ، فحاجةَ نفسٍ قضيت ، وأحكامَ آمال أمضيت ، وإن اتصلَ العجز فعين على القذى أغضيت ، ومَناصل عزم ما انتضيت ، وعلى كل حال فالثناء ذائع والحمد شائع ، واللسان والحمد لله طائع ، والله مشترٍ ما أنت بائع[2] ، وقد وجهت من يحاول لسيدي ثمن ما اكتسبه مجده ، وسَفَر عنه حمده ، والعقيدة بعد التراضي ، وكمال التقاضي ، وحميد الصبر وسعة التغاضي ، وكونه الخصم والقاضي ، أنّه هبة سَوَّغها إنعامه ، وأكلة هناها مِطْعامه ، نسأل الله تعالى أن يعلي ذكره ، ويتولى شكره ، ويُنْمِيَ ماله ، ويرفع قدره ، والولد جاره الغريب الذي برز إلى مقارعة الأيام عن خبرة قاصرة ، وتجربة غير منجدة على الدهر وناصرة ، قد جعلته وديعة في كرم جواره ، ووضعته في حِجْرِ إيثاره ، فإن زاغ فيَدُه العليا في تبصيره ، ومؤاخذته بتقصيره ، ومَنْ نَبّه مثله نام ، ومن استنام إليه بمهمةٍ أكرم بمن إليه استنام ، وإن تشوّف[3] سيدي لحال محبه فمطلق للدنيا من عقال ، ورافض أثقال ، ومؤمل اعتياض بخدمة الله تعالى وانتقال » انتهى .

١ وهضمت . . . عند حد : سقطت من ق .
٢ والحمد . . . بائع : سقطت من ق .
٣ ق : تشوق .

[١٢ – من لسان الدين إلى ابن رضوان]

وقال رحمه الله تعالى : ممّا خاطبت به صدرَ الفضلاء الفقيه المعظم أبا القاسم ابن رضوان بما يظهر داعيته من فحواه :

مرضت فأيامي لديك مريضة وبرؤكَ مقرون ببرء اعتلالها
فلا راعَ تلك الذات للضر رائع ولا وسمت بالسقم غرّ خلالها

« وردت عليّ من فئتي التي إليها في مَعْرك الدهر أتحيز ، وبفضل فضلها في الأقدار المشتركة أتميز ، سَحَاءة سرّت وساءت ، وبلغت من القصدين ما شاءت ، أطلع بها سيدي صنيعة ودّه من شكواه على كل عابث في السويداء ، مُوجِب اقتحام البَيْداء ، مُضرم نار الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلاّ القليل ، ولا من إفصاح لسانه إلا الأنين والأليل ، ونوى مدت الغير ضرورة يرضاها الخليل ، فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع متقبل أعماله ، أو آمل ضويق في فذلكة آماله ، لكنّي رجحت دليلَ المفهوم على دليل المنطوق ، وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ، ورأيت الخطّ يبهر والحمد لله تعالى ويروق ، واللفظ الحسن تومِضُ في حبره للمعنى الأصيل بُروق ، فقلت : ارتفع الوصَب ، وردّ من الصحة المغتصَب ، وآلة الحس والحركة هي العصَب ، وإذا أشرق سراجُ الإدراك دل على سلامة سَليطه ، والروح خليط البدن والمرء بخليطه ، وعلى ذلك فلا يقنع بليد احتياطي إلاّ الشرح ، ففيه يسكن الظمأ البرح ، وعذراً عن التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار ، والإطناب والإكثار ، وزَنْدُ القلق في مثلها أوْرَى ، والشفيقُ بسوء الظن مُغْرَى ، وسيدي هو العمدة التي سلمت لي الأيام فيها ، وقالت : حسب آمالك ويكفيها ، فكيف لا أشفق ، ومن أنفق من عينه فأنا من عيني لا أُنفق ، والله لا يحبط سعيي في سؤال عصمتها ولا يخفق ، ويرشد إلى شكره على ما وهب منها ويوفق ، والسلام الكريم على سيدي البر الوصول ،

الذي زكت منه الفروع لما طابت الأصول ، وخلص من ودّه لابن الخطيب المحصول ، ورحمة الله تعالى وبركاته » .

[١٣ — جواب ابن رضوان]

قال : فراجعني حفظ الله سيادته بما نصّه :

متى شئت أُلفي من علائك كلّ ما ينيل من الآمال خير منالها
كبرء اعتلال منْ دعائكَ زارني وعادات برّ لم تَرِمْ عن وصالها

« أبقى الله ذلك الجلال الأعلى متطولاً بتأكيد البر ، متفضلاً بموجبات الحمد والشكر ، ورَدَّتْني سَحاءته المشتملة على معهود تشريفه ، وفضله الغني عن تعريفه ، متحفياً في السؤال ، عن شرح الحال ، ومُعْلناً بما تحلى به من كرم الخلال ، والشرف العال ، والمعظم على ما يسّر ذلك الجلال الوزاري الرياسي أجراه الله تعالى على أفضل ما عَوَّدَه ، كما أعلى في كل مكرمة يده ، ذلك ببركة دعائه الصالح ، وحبّه المخيّم بين الجوانح ، والله سبحانه المحمود على نعمه ، ومواهب لطفه وكرمه ، وهو سبحانه المسؤول أن يهيىء لسيدي قَرار الخاطر ، على ما يسرُّه في الباطن والظاهر ، بمنّ الله تعالى وفضله ، والسلام الكريم على جلاله الأعلى ورحمة الله وبركاته ، كتبه المعظم الشاكر الداعي الذاكر المحب ابن رضوان ، وفقه الله تعالى ، في ذي الحجّة ختام عام واحد وستين وسبعمائة » ؛ انتهى .

[١٤ — من لسان الدين إلى الجنان]

وقال رحمه الله تعالى : وفاتحته — يعني الشيخ الجنان — محرّكاً قريحته ومستثيراً ما عنده ، بقولي :

إن كانت الآدابُ أضحتْ جنّةً فلقد غـدا جنّانها الجنانُ
أقلامه القُضُبُ اللّدان بدَوْحها والزهرُ ما رقَمَتْه منه بنانُ

وذكر بعد البيتين سَجْعاً بليغاً .

[١٥ – جواب الجنان]

ثمّ قال : فراجعني الجنان بما نصّه :

يا خاطبَ الآدابِ مَهْلاً فقد ردّك عن خطبتها ابن الخطيبْ
هل غيره في الأرض كفء لها وشرطها الكفاةُ قولٌ مصيبْ
أصبح للشرطِ بها معرساً فاستفتِ في الفسخ فهل من مجيبْ

أيّها السيد الذي يُتَنافس في لقائه ويُتَغالى ، ويصادم بولائه صرف الزمان ويتعالى ، وتُستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه ، وتُقْتَنَص شوارد العلوم بروايات كلامه فكيف بمداناة عيانه ، جلوتَ عليّ من بنات فكرك عقائل نواهد، وأقمت بها على معارفك الجمّة دلائل وشواهد ، واقتنصت بِشَرَك بديهتك من المعاني أوابدَ شَوَارد ، وفَجّرْتَ من بلاغتك وبراعتك حياضاً عذبة الموارد ، ثمّ كلفتني من إجراء ظالعي[1] في ميـدان ضليعها ، مقابلة الشمس المنيرة بسراج عند طلوعها، فأخلدت[2] إخلاد مَهِيض الجناح ، وفررت فرار الأعزل عن شاكي السلاح ، وعلمت أنّي إن أخذت نفسي بالمقابلة ، وأدليت دلو قريحتي للمُساجلة، كنت كمن كلف الأيام مراجعة أمسها ، أو طلب ممّن علته السماء محاولة لمسها ، وإن رضيت من القريحة بسجيتها ، وأظهرت القَدْرَ الذي كنت امتَحَنْتُ من رَكِيتها ، أصبحت مسخرة للراوين والسامعين ، ونبت عن أسْمى دواوينهم

١ ق ص : ظالعي .
٢ ق ص : فأخذت .

كما تنبو عن الأشيب عيون العين ؛ ثم إن أمرك يا سيدي لا يُحَلّ وثيق مبرمه ، ولا يَحِلّ نسخ محكمه ، فامتثلته امتثال من لم يجد في نفسه حرجاً من قضائك ، ورجوت حسن تجاوزك وإغضائك ، أبقاك الله تعالى قطباً لفلك المكارم والمآثر ، وفصّاً لخاتم المحامد والمفاخر ، والسلام » انتهى .

[ترجمة ابن الجنان]

والجنان المذكور[1] مغربي من مكناسة الزيتون ، وهو الشيخ الفقيه العدل الأديب الأخباري المشارك ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي ، الجنان ، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة ، كاتب عاقل ناظم ناثر مشارك في فنون من العلم ، له تصنيف حسن في ثلاث مجلدات سمّاه « المنهل المورود في شرح المقصد المحمود » شَرَح فيه وثائق أبي القاسم الجزيري المالكي ، فأربى على غيره بياناً وإفادة ، قال في « نفاضة الجراب » : وناولني إياه ، وأذن لي في حملي عنه ، وأنشدني كثيراً من شعره ، فمن ذلك ما صدّر به رسالة يهنىء بها ناقهاً من مَرَض[2] :

البسِ الصحّةَ بُرداً قشيبا وارشفِ النعمةَ ثغراً شنيبا
واقطفِ الآمالَ زهراً نضيراً واعطفِ الإقبالَ غصناً رطيبا
إن يكنْ ساءك وَعْكٌ تقضّى تجــدِ الأجرَ عظيماً رحيبا
فانتعشْ في دهرنا ذا سرورٍ يصبحِ الحاسدُ منه كئيبا

[مقطعات وقصائد تكتب على المباني]

وقال أيضاً لسانُ الدين في النفاضة : قرأت بالدور الخشبي في الدار التي

---

١ انظر ترجمته في نيل الابتهاج : ٥٠ .
٢ الأبيات في المصدر المذكور .

نزلت بها بمكناسة الزيتون أبياتاً منقّشة استحسنتها لسهولتها فأخبرني أنها من نظمه ، وهي :

انظر إلى منزلٍ متى نظرت عيناك يعجبْكَ كلُّ ما فيهِ
ينبىء عن رفعةٍ لمالكه وعن ذكاء الحجى لبانيه
يناسبُ الوشيَ في أسافله ما يرقمُ النقشُ في أعاليه
كأنه روضــةٌ مُدَبَّجة جاد لهـا وابلٌ بما فيه
فأظهرتْ للعُيون زخرفَها ووافَقَتْها على تجلّيـه
فهو على بهجةٍ تلوحُ به ورونقٍ للجمالِ يبديه
يشهدُ للساكنينَ أنَّ لهم من جنَّةِ الخلدِ ما يحاكيه

قلت : قد تذكرت هنا ، والشيء بالشيء يُذكر ، ما رأيته مكتوباً على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أميرُ المسلمين ابن تاشفين الزياني ، وهي من بدائع الدنيا ، وهو :

انظرْ بعينكَ بهجتي وسنائي وبديعَ إتقاني ، وحسنَ بنائي
وبديعَ شكلي ، واعتبرْ فيما ترى من نشأتي بل من تدفّقِ مائي
جسمٌ لطيفٌ ذائبٌ سيلانُه صافٍ كذَوْبِ الفضّةِ البيضاء
قد حفَّ بي أزهارُ وَشْيٍ نمقت فغدتْ كمثلِ الروضِ غِبَّ سماء

وما أنشده بعضُ أهل العصر في المغرب بقصد أن يُرسم في الأستار المذهبة المحكمة الصنعة التي جعلها السلطان المنصور أبو العباس الشريف الحسني رحمه الله تعالى لكي يستّر بها النواحي الأربع من القبة الكبيرة بالبديع ، وتسمى هذه الستور عند أهل المغرب بالحائطي ، ففي الجهة الأولى :

متّعْ جفونَكَ من بديع لباسي وأدِرْ على حُسْني حُميّا الكاسِ

هذي الرُّبى والروضُ من جَرْعائها　　ممّا اغتذى[1] بالعارضِ البجّاس
أنّى لروضٍ أن يروقَ بهاؤهُ　　مثلي وأن يجري على مقياس ؟
فالروضُ تغشاه السوامُ ، وإنّما　　تأوي إلى كنفي ظباءُ كناس

وعلى الجهة الثانية :

من كلّ حَسْنا كالقضيب إذا انثنى　　تُزْرِي بغصنِ البانةِ الميّاسِ
ولقد نشرتُ على السماكِ ذوائبي　　ونظرتُ من شَزْرٍ إلى الكنّاس
وجررتُ ذيلي بالمجرّةِ عابثاً　　فخراً بمخترعي أبي العبّـــاس
ما نيطَ مثلي في القبابِ ولا ازدهت　　بفتى سواه مراتبٌ وكراسي

وعلى الجهة الثالثة :

ملكٌ تقاصرتِ الملوكُ لعزه　　ورماهمُ بالذلّ والإتعاسِ
غَيْثُ المواهبِ بحرُ كلّ فضيلةٍ　　ليثُ الحروبِ مسعّر الأوطاس
فردُ المحاسنِ والمفاخرِ كلّها　　قطبُ الجمال أخو الندى والباس
ملكٌ إذا وافى البلادَ تأرجَتْ　　منـه الوهادُ بعاطرِ الأنفاس

وعلى الجهة الرابعة :

وإذا تطلّعَ بدرُهُ من هالةٍ　　يُعْشي سناهُ نواظرَ الجلاسِ
أيامُهُ غرراً تجلّتْ كلّها　　أبهى من الأعيادِ والأعراسِ
لا زال للمجدِ السنيّ يشيده　　ويقيمُ مبناه على الآساس
ما مال بالغصن النسيمُ وحبيتْ　　دُرَرُ الندى في جيده الميّاس

وما أنشدنيهِ بعضُ العصريين من المغاربة لصاحبنا المرحوم الفقيه الكاتب

[1] في ص : علماً اغتذى ؛ ق : على ما اغتذى .

المحقق أبي محمد الحسن بن أحمد المسفيوي المراكشي [1] أحد مشاهير الكتّاب بباب أمير المؤمنين المنصور بالله أبي العباس الشريف الحسني ملك المغرب ، صبّ الله تعالى على الجميع أمطار الرضوان ممّا كتب في بعض مباني صاحبنا الوزير العلامة الأجل سيدي عبد العزيز الفَشْتالي رحمه الله تعالى ، وهو :

أجِلِ المعلّى من قِداحِ سُرُوري ... وأدِرْ كؤوسَ الأنْسِ دون شرورِ
خلعتْ على عِطْفِ البهاء محاسني ... فكستْ به الآفاقَ ثوبَ حبور
وتناسقَ الوَشْيُ المفوّفُ حلّتي ... نسقَ الشذورِ على نحور الحور
شأو القصورِ قصورُها عن رتبة ... لي بالسنا الممدود والمقصور [2]
في المبنى المراكشيّ وأفقه ... أزرى على الزوراء والخابور
أعلى مقامي البارعُ الأسمى الذي ... قد حاز سبقَ النظم والمنثور
فإذا أقلَّ بنانُهُ أقلامَهُ ... نفثت [3] عقودَ السحر بين سطور
عبدُ العزيز أخو الجلالةِ كاتبٌ ... سِرَّ الخليفةِ أحمدَ المنصور
لا زالَ في يمنٍ وأمنٍ ما شَدَتْ ... وُرْقٌ بروضٍ بالنّدَى ممطور

وبعضه كتبته بالمعنى من حفظي لطول العهد ، والغاية في هذا الباب ما أنشدنيه لنفسه الوزير أبو فارس عبد العزيز الفشتالي المذكور ، وهي جملة من قصائد كتبت في المباني الملوكية المنصورية بالحضرة المراكشية ، حاطها الله تعالى ، فمنها ما كتب خارج القبة الخمسينية أي التي فيها خمسون ذراعاً بالعمل ، وذلك قوله رحمه الله تعالى على لسان القبة [4] :

١ ترجم له المقري في روضة الآس : ١٦٣ وأورد جملة من شعره ، وانظر درة الحجال ١ : ١٢٨ وله قصائد في مناهل الصفا .
٢ يريد : بالسنا (مقصوراً) وبالسناء (ممدوداً) .
٣ ق : نقشت .
٤ وردت القصيدة في روضة الآس : ١٣٨ – ١٣٩ .

سموتُ فخرَّ البدرُ دونيَ وانحطّا ... وأصبحَ قرصُ الشمسِ في أذني قُرْطا
وصُغْتُ من الإكليلِ تاجاً لمفرقي ... ونيطتْ بيَ الجوزاءُ في عنقي سمطا
ولاحَتْ بأطواقي الثريا كأنّها ... نثيرُ جُمانٍ قد تتبعتُه لَقْطا
وعدَّيتُ عَنْ زُهرِ النّجوم لأنني ... جعلتُ على كيوانَ رحليَ منحطّا
وأجريتُ من فيضِ السماحةِ والندى ... خليجاً على نهر المجرَّة قد غطّى
عقدتُ عليه الجسرَ للفخر فارتمتْ ... إليه وفودُ البحرِ تغرفُ ما أنطى
تنضنض ما بينَ الغروسِ كأنّه ... وقد رقرقتْ حصباؤه حيَّةٌ رقطا
حواليهِ من دَوْحِ الرياضِ خرائدٌ ... وغيدٌ تجرّ[1] من خمائلها مِرْطا
إذا أرسلتْ لدنُ الفروعِ وفتَّحتْ ... جنى الزهرِ لاح في ذوائبها وخْطا
يرنّحها مَرُّ النسيم إذا سرى ... كما مال نشوانٌ تشرَّبَ إسفنطا
يشقّ رياضاً جادَها الجودُ والندى ... سواء لديها الغيثُ أسكبَ أم أخطا
وسالت بسلسالِ اللُّجَيْن حياضُهُ ... بحاراً غدا عرضُ البسيطِ لها شطّا
تطلَّعَ منها وسطَ وُسطاهُ دُميةٌ ... هي الشمسُ لا تخشى كسوفاً ولا غمطا
حكت وحبابُ الماء في جنباتها ... سنا البدر حلَّ من نجوم السما وسطا
إذا غازلتها الشمسُ ألقى شعاعها ... على جسمها الفضيِّ نهراً بها لطّا
توسمتُ فيها من صفاء أديمها ... نقوشاً كأنَّ المسكَ ينقطها نقطا
إذا اتّسقتْ بيضُ القبابِ قلادةً ... فإنّي لها في الحسنِ دُرَّتُها الوسطى
تكنَّفني بيضُ الدُّمى فكأنّها ... عَذارى نضَتْ عنها القلائدَ والريطا
قُدُودٌ ولكن زانها الحسن عريها ... وأجملَ في تنعيمها النحتَ والخرطا
نمت صُعُداً تيجانها فتكسرَتْ ... قواريرُ أفلاكِ السماحِ بها ضغطا
فيا لكَ شأواً بالسعادة آهلاً[2] ... بأكنافهِ رَحْلُ العُلا والهُدى حُطّا

١ ص ق : تجرر ، ولا يصلح للوزن .
٢ ق ص : شأو . . . آهل .

وكعبةَ مجــدٍ شادها العزُّ فانبرت تطوفُ بمغناها أمـاني الورى شوطا
ومسرحَ غزلان الصّريم كناسُها جنايا قبابٍ لا الكثيبَ ولا السِّقْطا
فُلِكْنَ به ما طاب لا الأثل والخمْطا وَوُسِّدن فيه الوشي لا السّدْر والأرْطى
تراهُ مـــن المسكِ الفتيتِ مدبّراً إذا مازجته السُّحبُ عاد بها خلطا
وإن باكرته نسمةٌ سَحَراً سرى[1] إلى كل أنفٍ عَرْفُ عنبره قسْطا
أقرَّتْ لهُ الزهراءُ والخلدُ وانتقتْ أواوينُ كسرى الفرسِ تغبطه غبطا
جنابٌ رواقُ المجدِ فيــه مطنّبٌ على خير من يعزى لخير الورى سِبطا
إمامٌ يسيرُ الدهرُ تحت لوائه وَتَرسى سفانٌ للعُلا حيثما وطّا
وفتّاحُ أقطـــارِ البـــلادِ بفيلقٍ يفلّقُ هاماتِ العدا بالظُّبى خبْطا
تطلّعُ من خرصانه الشُّهبُ فانثنت ذوائبُ أرض الزنج من ضوئها شُمْطا
كتائبُ نصرٍ إن جرتْ لملمَّةٍ جرتْ قبلَها الأقْدارُ تسبقُها فُرْطا
إذا ما عقــدنَ رايةَ علَويةً جعلن ضمانَ الفتحِ في عقدها شرطا
فما للسما تلكَ الأهلَّةُ إنّما سنابكها أبْقَتْ مثالاً بهــا خطّا
يطاوعُ أيدي المعلواتِ عنانهــا فيعتاضُ من قبضِ الزّمان بها بسطا
يَدٌ لأمــيرِ المؤمنينَ بكفّها زمامٌ يقود الفرس والروم والقبطا
أدارَ جداراً للعُـــلا وسرادقاً يحوط جهات الأرض من رعيه حوطا

وقوله ممّا كتب ببَهْوِها بمرمر أسود في أبيض[2] :

لله بهوٌ عزَّ منــه نظيرُ لمّــا زها كالروضِ وهو نضيرُ
رُصِفتْ نقوشُ حلاه رَصْفَ قلائد[3] قد نضدتْها في النحورِ الحور
فكأنّها والتبر سالَ خلالهــا وشيٌ وفضّــةُ تربها كافور

١ روضة الآس : نسمة لسرى بها .
٢ روضة الآس : ١٣٦ .
٣ ق : قلادة .

وكأنَّ أرضَ قرارِه ديباجةٌ ... قد زان حُسْنَ طرازها تشجير

وإذا تصعّد ندُّه نَوْءاً ففي ... أنماطِــه نَوْرٌ به ممطور

شأوُ القصورِ قصورها عن وصفهِ ... سيّانِ فيهِ خَوَرْنقٌ وسدير

فإذا أجلتَ اللحظَ في جنباتهِ ... يرتدُّ وهــو بحسنــهِ محســور

وكأنَّ موجَ البركتين أمامه ... حركاتُ سجفٍ صافحتهُ دَبور

صُفّت بِصُفّتهــا تماثلُ فضةٍ ... مَلَكَتْ النفوسَ بحسنها تصوير

فتديرُ من صفوِ الزلالِ معتّقاً ... يسري إلى الأرواحِ منهُ سرور

ما بين آسادٍ يهيجُ زئيرها ... وأساودٍ يُسْلي لهــن صفير

ودحتْ من الأنهار أرضَ زجاجةٍ ... وأظلّها فَلَكٌ يضيء منـير

راقتْ فمن حصبائها وفواقعٍ ... تطفو[1] عليهــا اللؤلؤ المنثــور

يا حُسْنَهُ من مَصْنَعٍ فبهاؤه ... باهَى نجومَ الأفقِ وهي تنور

وكأنّما زهرُ الرياضِ بجنبــه ... حيثُ التفتَّ كواكبٌ وبدور

ولدستهِ الأسمى تَخَيّرَ رَصْفَهُ ... فخرُ الورى وإمامُها المنصور

ملكٌ أناف على الفراقدِ رتبــةً ... وأقلّهُ فوقَ السِّماكِ سرير

قطبُ الخلافةِ تاجُ مفرقِ دولة ... رُميت بجَحْفَلها اللّهامُ الكور

وجرى إلى أقصى العراق لرعبها[2] ... جيشٌ على جسرِ الفراتِ عبور

نجلُ النبيّ ابنُ الوصيّ سليلُ مَنْ ... حقنَ الدماء وعَفَّ وهو قدير

بحرُ الندى ، لكنّــه متموّجٌ ... سيفُ العُلا ، لكنّــه مطرور

طَــوْدٌ يخفُّ لحلمه ووقاره ... ولجيشه يومَ النزال ثبــير

دامتْ معاليــه ودام ومجده ... طوقٌ على جيدِ العُلا مزرور

وتعاهدتْه عن الفتوح بشائرٌ ... يغدو عليــه بها المسا وبكور

[1] ق والروضة : يطفو .

[2] الروضة : لرعبها .

ما دامَ منزلُ سعده يرقى به[1] نصرٌ يرفُّ لواؤه المنشـــور
ومشت[2] به مرحاً جيادُ مسرَّةٍ وأدار كاسَ الأنس فيه سمير

وقوله ممّا كتب بداخل القُبَّة المذكورة[3] :

جَمالُ بدائعي سحَرَ العيونا ورونقُ منظري بهرَ الجفونا
وقد حسنت نقوشي واستطارت سَناً يُعْشي عيونَ الناظرينا
وأطلع سمكيَ الأعلى نجوماً ثواقبَ لا تغورُ الدهرَ حينا
وجوّي من دخانِ النَّدِّ ألقى على أرضي الغياهبَ والدُّجونا
علوتُ دوائرَ الأفلاكِ سبعاً لذاك الدهرَ ما ألفتْ سكونا
فصغتُ من الأهلَّةِ والحنايا أساورَ والخلاخــلَ والبُرِينا
تكنّفني حياضٌ مائحـاتٌ أمامي والشمالَ أو اليمينا
يُقَيّدُ حسنُها[4] الطرفَ انفساحاً ويجري[5] الفلك فيها والسفينا
تدافَعَ نهرُهـا نحوي فلمَّـا تلاقى البحرُ في جريٍ دفينا
ترى شُهبَ السماء بهنَّ غرقى فتحسبها بها الدُّرَّ المصونا
وقد نشر[6] الحبابُ على سماها لآلىء تزدري العقدَ الثمينا
فخرتُ وحُقَّ لي لمَّا اجتباني لمجلســه أمــيرُ المؤمنينا
هو المنصورُ حائز خَصْلِ سَبْقٍ وباني المجـــدِ بنياناً مكينا
وليثُ وغًى إذا زأر امتعاضاً يروعُ زئيره هنــداً وصينا
إذا أمّتْ كتائبُه الأعادي بعثْن برعبِــهِ جيشاً كَمينا

١ الروضة : يرتاده .
٢ ق : وجرت .
٣ روضة الآس : ١٣٥ .
٤ ص : جنحها . ٥ ص ويكري .
٦ ق : نثر .

يديرُ عليهمُ من كلّ حربٍ تدقُّهم رحًى أو منجنونا
إمامٌ بالمغارب لاحَ شمساً بها الشرقُ اكتسى نوراً مُبينا
بقيتَ بذي القصور الغُرّ بدراً تلوحُ بأفقهن مدى السنينا
تحفّ بكم عواكفُ عند بابي ملائكــة كرام كاتبونــــا
لك البشرى أميرَ المؤمنين ادْ خلوهـــا بسـلامٍ [1] آمنينـــا

وقوله في بعض المباني المنصورية [2] :

معاني الحسنِ تظهرُ في المغاني ظهورَ السحرِ في حَدَقِ الحسانِ
مَشابه في صفاتِ الحسنِ أضحتْ تمتُّ بهــا المَغاني للغواني
بكلّ عمودِ صبحٍ من لجينٍ تكوَّنَ في استقامةِ خُوطِ بان
مفصَّلةِ القــدودِ مثلثاتٍ مواصلةِ العناق من التداني
تردَّت سابريَّ الحسنِ يزري بحسنِ الســابريّ الخسرواني
وتعطو الخيزرانةَ من دُماها بسالفــةِ القطيع البرهمـــاني
لمجـــدك تنتمي لكنْ نماها إلى صنعاء ما صنع اليدان
يدينُ لك ابنُ ذي يزَنٍ ويعنو لهـــا غُمْدانُ في أرض اليمان
غدتْ حرَماً ولكن حلَّ فيها لوفدكمُ الأمانُ معَ الأماني
مبانٍ [3] بالخلافــةِ آهــلاتٌ بها يتلو الهدى السَّبْعَ المثاني
هي الدنيا وساكنها إمامٌ لأهل الأرضِ من قاصٍ وداني
قصورٌ ما لها في الأرضِ شبهٌ وما في المجـــدِ للمنصورِ ثاني

وقوله رحمه الله تعالى ممّا كتب في المصرية [4] المطلة على الرياض المرتفعة

١ الروضة : مع سلام .
٢ روضة الآس : ١٣٣ .
٣ ق : منازل .
٤ المصرية : منزل يبنى شبه علية .

على القبة الخضراء من بديع[1] المنصور ، وكان إنشاؤها في جمادى الأولى من عام خمسة وتسعين وتسعمائة[2] :

باكرْ لديَّ من السرورِ كؤوسا   وارضِ النديمَ أهلَّةً وشموسا
واعرجْ على[3] غُرَفي المنيفِ سماؤها   تلقَ الفراقدَ في حمايَ جلوسا
وإذا طلعتَ بأوْجِها قمر العُلا   لا ترتضي غيرَ النجوم جَليسا
شَرِقَ القصورُ بريقها لمَّا اجتلتْ   منّي على بُسُطِ الرياضِ عَرُوسا
واعتضتُ بالمنصور أحمدَ ضيغماً   وَرْداً تحيَّزَ من بديعي خِيسا
ملكٌ أرى كلَّ الملوك ممالكاً   لِعُلاه والدُّنيا عليهِ حبيسا
دامت وفودُ السعدِ وهي عواكفٌ   تَصِلُ المقيلَ لديَّ والتعريسا
وهَناكَ يا شرفَ الخلافةِ دولةٌ   تلقى برايَتها طلائعَ عيسى

وقوله من جملة قصيدة من نمط ما تقدم لم أستحضر أولها[4] :

سلبت تماثِلُها الحجى لمَّا اغتدت   تزهو بحسنِ طرازها تذهيبا
ولقد تشامخَ في العلو سماكها   فجرى على الفَلكِ المُنير جَنيبا
وسما إلى الشُّهبِ الزواهرِ فاغتدى الـ   إكليلُ منها تاجها المعصوبا
هـذا البَديعُ يعزّ شبه بدائـعٍ   أبدعتهن بـهِ فجـاء غريبا
أضنى الغزالَةَ حسنُه حسداً لذا   أبدى عليها للأصيلِ شُحوبا
وانقضَّتِ الزُّهرُ المُنيرةُ إذ رأتْ   زهرَ الرياضِ بهِ ينور عجيبا
شيدتّهن مصـانعـاً وصنائعـاً   أنجزن وعدكَ للعُلا المرقوبا

١ البديع : أحد المنشآت الثلاث التي بناها المنصور ، والاثنتان الأخريان هما : المسرة والمشتهى .
٢ روضة الآس : ١٣٤
٣ الروضة : إلى .
٤ هذا ما قاله أيضاً في الروضة : ١٣٥ وزاد هنالك : « ولعلي أجد أولها إن شاء الله فألحقه بها » وانظر القصيدة في مناهل الصفا ٢ : ٢٨١

وجريتَ في كلّ الفخارِ لغايةٍ أدركتها أو ما مسستَ لغوبا
فانعم بملكك فيه دام مؤبّداً تجني بهِ فننَ النعيمِ رطيبا
وإليكها عذراء فكرٍ أُهديتْ وجعلتُ مدحك مَهْرَها الموهوبا
ونظمتُ من دررِ البلاغةِ عقدها فغَـــدا يروقُ بجيدها ترتيبا
ورفعتها لمقامكم تمشي على استحيا فيزعجها الولا ترغيبا
فأتَتْ على شرفٍ لكم فتوقفتْ لمّا رأت ذاكَ الجلالَ مهيبا
شفعتْ إليك بحبّ جَدِّكَ أحمدٍ لتُنيلها منكَ الرضى المرغوبا
دامت بكَ الدنيا يروقُ جمالُها وإلى القيامةِ أمركم مرهوبا
وكَلاكُمُ اللهُ العظيمُ كلاءةً يرعى بها خَلَفاً لكم وعقيبا

[رسالة من الفشتالي إلى المؤلف]

ومحاسن صاحبنا المذكور في النظم والنثر يضيق عنها هذا التأليف ، وكنت أثبتُّ منها جملة في غير هذا الموضع .

ولما أحس بعزمي على الرحلة إلى الحجاز ، واقتضائي من سلطان المغرب في وَعْده لي بها النّجاز ، كتب إليّ من حضرة مراكش وأنا حينئذٍ بفاس ، ما صورته بعد سطر الافتتاح :

يا نسمةَ عَطّسَتْ بها أنفُ الصَّبا فتضمخت بعبيرها قُنَنُ الرُّبى
هبّي على ساحاتِ أحمدَ واشرحي شوقي إلى لقياه شرحاً مُطْنَبا
وصِفي لـهُ بالمنحنى من أضلعي قلباً على جمر الغَضا متقلّبا
بانَ الأحبةُ عنه ، حيٌّ قد ثوَى منهم ، وآخرُ قد نأى وتغيّبا
فعساك تُسْعِدُ يا زمانُ بقربهمْ فأقولَ أهلاً باللّقاء ومرحبا

« السيادة التي سوّاها الله من طينة الشرف والحسب ، وغَرَسَ دَوْحَتَها الطيبة بمعدن العلم الزاكي المحتد والنسب ، سيادة العالم الذي تمشي تحت عَلَم فُتْياه

العلماء الأعلام ، وتخضع لفصاحته وبلاغته صَيارفة النثر والنظام ، وحمَلة الأقلام ، كلّما خطّ أو كَتَب ، وإذا استطار بفكره الوقاد سواجع السجع انثالت عليه من كل أوكارها ونسلت من كل حَدَب ، وحكت بانسجامها السيل والقطر في صبَب ، الفقيه العالم العَلَم ، والمحصل الذي ساجلت العلماء لتدرك في مجال الإدراك شأوه فلم ، سيدنا الفقيه الحافظ حامـل لواء الفُتْيا ، ومالك المملكة في المنقول والمعقول من غير شرط ولا ثُنْيا ، أبو العباس سيدي أحمـد بن محمد المقّري أبقاه الله تعالى للعلم يَفْتَض أبكاره ، ويَجْني من روضه اليانع ثماره ، سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتبه المحب الشاكر عن وُدّ راسخ العِماد ، ثابتِ الأوتاد مزهرِ الأغوار والأنجاد ، ولا جديد إلا الشوق الذي تحنّ إلى لقياكم ركائبُه وترتاح ، وتَحُومُ على مورد الأنس بكم حَوْمَ ذات الجناح على العذب القراح ، جمع الله تعالى الأرواح المؤتلفة على بساط السرور وأسِرّة الهنا ، وأتاح للنفوس من حُسن محاضرتكم قَطْفَ المشتهى وهو غَضٌّ الجَنَى .

« وقد اتصل بالمحب الودود الرقيم الذي راقت من سواد النقش وبياض الطرس شِياته ، وأرانا معجز أحمد فبهرت آياته ، وخبا سقطُ الزند لما أشرقت من سماء فكركم آياته ، فأطربنا بتغريد طيور همزاته على أغصان ألفاته ، وعوّذنا بالسبع المثاني بناناً أجادت نثر زهراته على صفحاته ، ثم مررنا بتضاعيفه بسوق الرقيق ، فرُمْنا السلوك على مَنْحاها فعُمّي علينا الطريق ، وقلنا : واهاً على سوق ابن نباتة وكساد رقيقها ، واستلاب البهجة عن نفيس دررها وأنيقها ، لا كسوق نفق فيها سوق الغزل ، وعلا كعب الرامح والأعزل ، وتضافر على سحر النفوس والألباب هاروت الجد وماروت الهزل ، وقد ألقينا السلاح وجنحنا للسلم ، وتهيأنا للسباحة فوقفنا بساحل اليم ، وسلمنا لمن استوت به سفينة البلاغة على الجوديّ ، فأبنا والحمد لله على السلامة بالفهاهة والعي ، وقلنا : ما لنا وللإنشاء ، فهو فضل الله يؤتيه من يشاء .

« وعُذْراً أيّها الشيخ عن البيت الذي عطست به أنفُ الصَّبا فقذفت به البديهة

من الفم ، وشرقت به صَدْرُ قناة القلم ، كما شرقت صدر القناة من الدم .

« وأمّا ما تحمّل الرسول من كلام ، في صورة ملام ، لا بل مدام ، أترع به من سلاف المحبّة كأسٌ وَجام ، فلا وربك ما هي إلاّ نفحة نفحت ، لا سموم لفحت ، هززنا بها جِذْعَ أدبكم كي يتساقط علينا رُطَباً جَنيّاً ، ويَهْمي وَدْقُه على الرَّبع المحيل من أفكارنا وسْمِيّاً ووَلِيّاً ، فجاد وأرْوَى ، وأجاد فيما روّى ، وأحيا من القرائح ميتاً كان حديثاً يُرْوَى ، وطرساً بين أنامل الأيام يُنشر ويطوى ، أحيا الله تعالى قلوبنا بمعرفته ونواسم رحمته ، وعَرّجَ بأرواحنا عند الممات إلى المحل الأخص بالمؤمن من حضرته . وأهدي السلام ، المُزْرِي بمسك الختام ، إلى الفقيهين الأمجدين ، الصدرين الأنجدين ، الفذين التوأمين ، الفاضلين المجيدين ، فارسي البراعة واليراعة ، ورئيسي الجماعة في هذه الصناعة ، رضيعي لبان الأدب وواسطتي عقده ، ومُجيلَيْ قِدْحِهِ المعلّى ومُورِيَيْ زَنْدِهِ ، المتعين بشميم عَرّاره ورَنْدِه ، الكارعَين بالبحر الفياض من هزله وجِدِّه ، الآتيين بالجنس والفصل من رسمه وحِدِّه ، الكاتب البارع أبي الحسن سيدي علي ابن أحمد الشامي ، والكاتب البليغ أبي عبد الله سيدي محمد بن علي الوجدي[1] ، وأقرّر لهما الود المستحكم المعاقد ، الصافي المناهل العذب الموارد ، وأنّي قائم بورد الثناء عليكم وعليهما لدى المقام العلي ، الإماميّ الناصري ، دام سلطانه ، وتمهدت أوطاره وأوطانه .

« ونُنْهي إليكم أن الفقيه المحبّ الأستاذ سيدي محمد بن يوسف[2] طَلْقُ اللسان بالشكر ، صادحٌ على أيك الثناء عن تلكم السيادة بما واليتموه به من جزيل الإحسان ، وقابلتموه به عند الورود والصدر من البِشر والكرامة وجميل الامتنان ، والسلام التام مُعاد عليكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبه وجب الكَتب إليكم ،

---

١ ترجمة الوجدي في روضة الآس : ٧١ وانظر ص (لب) من المقدمة .

٢ راجع المجلد الثاني ص : ٤٧٠ .

والله سبحانه يرعاكم ، في يوم الخميس موفي عشرين من محرم الحرام فاتح سبعة وعشرين وألف ، المحب الودود الشاكر عبد العزيز بن محمد الفَشتالي لطف الله تعالى به ، وخار له بمنّه وكرمه » انتهى .

ومن أراد شيئاً من أخباره فعليه بكتابي الموسوم بـ « روضة الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » وقد بلغتني وفاته رحمه الله تعالى وأنا في مصر بعد عام ثلاثين وألف ، رحمه الله تعالى ؛ فلقد كان أوحد عصره ، حتى إن سلطان المغرب كان يقول : إن الفَشتالي نفتخر به على ملوك الأرض ، ونباري به لسان الدين ابن الخطيب ، رحم الله تعالى الجميع .

[تعريف بأبي الحسن الشامي]

والشامي الذي أشار إليه هو من أعيان أهل فاس وذوي البيوت بها ، وجدُّه قدم من الشام على حضرة فاس ، فشهر بنوه بالنسبة إلى الشام ، وقد بلغتني وفاته أيضاً بعد الثلاثين بعد الألف ، وقد أجاب عن الأبيات البائية التي خاطبني بها الوزير سيدي عبد العزيز الفَشْتالي المذكور رحم الله تعالى الجميع بقوله :

نَمّتْ نوافحُ عَرْفِ أنفاسِ الصَّبا ... فنمى بها روضُ الودادِ وأخصبا
نثرتْ جواهرَ سلكها فتتوّج الـ ... غصنُ النضيرُ بدرّها وتعصَّبا
ورمتْ محاجرَ منحنَى ذاك الحمى ... فغدا بها خيفُ القلوبِ محصَّبا
وروتْ أحاديثَ الغرام صحيحةً ... فشفتْ فؤاداً من بعادك موصبا
لا غَرو أن طارتْ حُشاشةُ لبِّه ... طرباً فما خِلْوُ الغرامِ كمنْ صَبا
لا زلتمُ والزَّهرُ ينشقُ عَرْفَكم ... والزُّهرُ تحسدُ من كمالك منصبا

ولنُمْسِكْ عِنان البنان ، ونرجع إلى ما كنا بصدده من شأن لسان الدين ابن الخطيب المريع منه بمُزن البلاغة والفصاحة جنان الجنان ، فنقول والله سبحانه ولي التوفيق والإمداد ، وليس إلاّ عليه الاعتماد :

[١٦ – بين ابن الجياب ولسان الدين]

وقال ابن الصباغ العقيلي[١] : كان أبو الحسن ابن الجياب رئيس كتّاب الأندلس وهم رؤساء غيرهم ، واختص به ذو الوزارتين أبو عبد الله ابن الخطيب اختصاصاً تامّاً ، وأورثه رتبة من بعده ، وعهد بها إليه ، مشيراً بذلك على من استشاره من أعلام الحجاب عند حضور عمره ، وتدرب بذكائه حتّى استحق أزمته فأنسى بحسن سياسته شيخه المذكور ، ونال التي لا فوقها من الحُظْوَة ، وبُعد الصيت وسعادة البخت ، اتفق له يوماً بعدما عزم النصراني على ورود البلد وضاقت به الصدور ، فأنشد ابن الجياب بديهاً بمحضر الكتّاب :

هذا العدوُّ قد طغى وقَـدْ تعـدّى وبغى

وقال لابن الخطيب : أجز أبا عبد الله ، فأنشده بديهاً :

وأظهرَ السـلمَ وقَدْ أسَرَّ حَسْواً في ارْتِغا
فبلّغ الرحمَنُ سيـ ـفَ النصرِ فيه ما ابتغى
وردَّه ردَّ ثمـو دٍ والفصيلُ قد رَغا
حتّى يُرى وليمـةً لكلِّ مرهوبِ الثّغا

فقال ابن الجياب : هكذا وإلاَّ فلا ، وعجب الحاضرون من هذه البديهة ؛ انتهى .

[١٧ – قصيدتان للبلوي يخاطب بهما لسان الدين]

وممّا خوطب به لسان الدين قول الفقيه أبي يحيى البلوي المري[٢] رحم الله الجميع :

---

١ أزهار الرياض ١ : ١٩٢ .
٢ ص : المريي .

عللّوني ولَوْ بوعـــدٍ محالٍ وصِلوني ولَوْ بطيفِ خيالِ
واعلموا أنّني أسيرُ هواكمْ لستُ أنفكُّ دائماً عن عقـال
فدموعي من بينكم في انسكابٍ وفؤادي من هجركم في اشتعال
يا أُهيلَ الحمى كفاني غرامي لا تزيدوا حسبي بما قد جرى لي
مَنْ مُجيري من لحظِ ريمٍ ظلوم حلّلَ الهجر بعد طيب الوصال
ناعسِ الطرفِ أسهرَ الجفنَ منّي طالَ منهُ الجفا بطولِ الليالي
بابليّ اللحاظِ أصمى فؤادي ورماهُ من غُنْجِهِ بنبال
وكسا الجسمَ من هواه نحولاً قصده في النوى بذاك انتحالي
ما ابتدى في الوصالِ يوماً بعطفٍ مذ روى في الغرامِ بابَ اشتغالي
ليس لي منه في الهوى من مجيرٍ غيرُ تاجِ العُلا وقطب الكمال
عَلَم الدين عزه وســـناه ذروةُ المجد ، بدرُ أفقِ الجلال
هو غيثُ الندى ، وبحرُ العطايا هو شمسُ الهدى ، فريدُ المعالي
إن وَشَى في الرقاع بالنقشِ قلنا صفحةُ الطِّرسِ حُلِّيَتْ باللآلي
أو دجا الخطبُ فهو فيه شهابٌ زانه الصبحُ في ظلامِ الضلال
أو نبا الأمرُ فهو في الأمرِ عَضْبٌ صادقُ العزمِ عند ضيق المَجال
لستَ تلقى مثاله في زمانٍ جَلَّ في الدهر يا أخي عن مثال
قد نأى بي حبّي له عن دياري لا لجدوى ولا لنَيْلِ نوال
لكن اشتقتُ أن أرى منه وجهاً نوره فاضحٌ لنور الهـــلال
وكما هِمْتُ فيهِ ألثمُ كفّاً جاد لي بالنوالِ قبل السؤال
هاكها ابنَ الخطيب عذراء جاءتْ تَلثم الأرضَ قبل شِسْعِ النعال
وتوفّي حقَّ الوزارةِ عمَّن هو ملكٌ لها على كلّ حال

ومن نظمه قوله يخاطبه مهنئاً في إعذاره أولادَهُ بعد نثر نصّه : يعتذر عن خدمة الإعذار ، ويصل المدح والثناء على بُعد الدار ، بتاريخ الوسط من شهر

شعبان عام تسعة وأربعين وسبعمائة :

لا عُذرَ لي عن خدمة الإعذارِ ولئن نأى وَطَني وَشطَّ مَزاري
أو عاقني عنه الزمانُ وصرفه تقضي الأماني عادة الإعصار
قد كنتُ أرغبُ أن أفوزَ بخدمتي وأحطَّ رحلي عندَ بابِ الدار
بادي المسرَّة بالصنيع وأهله متشمراً فيه بفضلِ إزاري
من شاء أن يلقى الزمانَ وأهله ويرى جلالاً شاع في الأقطار
فليأتِ حيَّ ابن الخطيب ملبياً فيفوزَ بالإعظـام والإكبـار
كم ضمَّ من صِيدٍ كرامٍ قدرُهمْ يسمو ويعلو في ذوي[1] الأقدار
إن جئتَ ناديَهُ فنُبْ عني وقلْ نلتَ المُنى بتلطُّفٍ ووقار
يا من له الشرفُ القديم ومن له الـ حسبُ الصميمُ العِدُّ يوم فخار
يهنيك ما قد نلتَ من أمل به في الفرقدين النيرين لساري
نجلاك قطبا كلِّ مجدٍ باذخٍ أملان مَرْجُوَّانِ في الإعسار
عبد الإله وصنوه قمر العُلا فرعانِ من أصلٍ زَكا ونجار
ناهيك من قمرين في أفقِ العلا ينميهما نورٌ من الأنوار
زاكي الأرومةِ مُعرقٌ في مجده جمٌّ الفضائلِ طيّبُ الأخبار
رَقَّتْ طبائعُهُ وراق جمالُهُ فكأنّما خُلِقا من الأزهار
وحلتْ شمائلُ حسنِهِ فكأنّما خلعتْ عليه رقةَ الأسحار
فإذا تكلّم قلتَ طَلٌّ ساقطٌ أو وَقْعُ دُرّ من نحورِ جَواري
أو فتّتَ حبرَ المسك في قرطاسه فالروضُ غِبَّ الواكفِ المدرار
تتبسمُ الأقلامُ بينَ بنانه فتريكَ نظم الدرّ في الأسطار
فتخالُ من تلك البنانِ كمائماً ظَلّتْ تفتّحُ ناضرَ النوّار

[1] ق : ذرى .

تلقّاهُ فيّاضَ الندى متهللاً يلقاك بالبشرى والاستبشار
بحرُ البلاغة قُسُّها وإيادُها سحبانُها حبرٌ من الأحْبار
إن ناظرَ العلماء فَهْوَ إمامُهم شرفُ المعارفِ ، واحدُ النُّظّار
أربى على العلماء بالصيتِ الذي قد طارَ في الآفاقِ كلَّ مَطار
ما ضرّه أن لم يجيء متقدماً بالسبقِ يُعرفُ آخرُ المضمار
إن كان أخّره الزمانُ لحكمة ظهرتْ وما خفيت كَضوء نهار
الشمسُ تُحجبُ وهي أعظمُ نيِّرٍ وترى من الآفاق إثر دراري
يا ابنَ الخطيب خطبتها لعُلاكمُ بكراً تزفُّ لكم من الأفكار
جاءتك من خجل على قدم الحيا قد طيبت بثنائكَ المعطار
وأتت تؤدي بعضَ حقّ واجب عن نازحِ الأوطان والأوطار
مَدَّتْ يد التطفيلِ نحو عُلاكمُ فتوشحتْ من حَلْيكم بنُضار
فابذلْ لها في النقد صَفْحَكَ إنها تشكو من التقصير في الأشعار
لا زلتَ في دَعَةٍ وعزٍّ دائم ومسرَّةٍ تَتْرى معَ الأعمار

[ترجمة أبي يحيى البلوي]

قال لسان الدين في حق المذكور في « الإحاطة » : هو محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوي ، من أبناء النعم وذوي البيوتات ، كثير السكون والحياء ، آل به ذلك أخيراً إلى لُوثَة لم يستفق منها ، لَطَفَ الله به ، حسن الخط ، مطبوع الأدب ، سيال الطبع معينه ، وناب عن بعض القضاة ، وهو الآن رهين ما ذكر يتمنى أهله موته ، والله ولي المعافاة .

وجرى ذكره في « الإكليل » بما نصّه : من أُولي الاتصال ، بأُولى الخلال البارعة والخصال ، خطّاً رائقاً ، ونظماً بمثله [1] لائقاً ، ودعابة يسترها تَجَهُّم ،

[1] ق : به .

وسكوناً في طيه إدراك وتفهُّم ، عني بالدراية والتقييد ، ومال في النظم إلى بعض التوليد ، وله أصالة نبتت في السرو عروقها ، وتألقت في سماء المَجادة بروقها ، وتصرَّف بين النيابة في الأحكام الشرعية ، وبين الشهادات العلمية المرعية ؛ انتهى .

ورأيت بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين على هامش هذا المحل من « الإحاطة » ما صورته : رحمة الله عليه ما أعذب حلاوته ، وأعظم مروءته ، وأكرم أصالته ، وبنو البَلَوى ذوو حسب ، وأهل نعيم ، وتربية ملوكية ، حيَّاهم الله وبيَّاهم ! قال ذلك حبيبُهم وأخوهم علي بن الخطيب ؛ انتهى .

[١٨ — من ابن مرزوق إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى عند ذكر الخطيب الرئيس أبي عبد الله محمد ابن مرزوق التلمساني ما صورته : ولما قدمت على مدينة فاس في غرض الرسالة خاطبني بمنزل[1] الشاطبي على مرحلة منها بما نصّه :

يا قادماً وافى بكلِّ نجاحِ ... أبشرْ بما تلقاه من أفراحِ
هـذي ذُرى ملكِ الملوك فلُذْ بها ... تنلِ المُنى وتفزْ بكلِّ سماحِ
مغنى الإمام أبي عنانٍ يَمِّمَنْ ... تظْفَرْ ببحرٍ في العُلا طفّاحِ
مَنْ قاسَ جودَ أبي عنان في الندى ... بِسواهُ قاسَ البحرَ بالضَّحضاحِ
ملكٌ يُفيضُ على العُفاةِ نَوالَهُ ... قبلَ السُّؤالِ وقبلَ بسطةِ راحِ
فلجودِ كعبٍ وابن سُعْدى[2] في الندى ... ذكرٌ مَحاه عن نداه ماحي
ما إن سمعتُ ولا رأيتُ بمثلهِ ... مِنْ أريحيّ للندى مرتاحِ
بسطَ الأمانَ على الأنامِ فأصبحوا ... قَدْ أُلحِفُوا منه بظلِّ جَناحِ
وهَمى على العافينَ سَيْبُ نواله ... حتّى حكى سحَّ الغمام الساحي

---

١ ص : بمنزلة .

٢ ابن سعدى : أوس بن حارثة الطائي .

فَنَـــوالُهُ وجَـــلالُهُ وفعالُهُ فاقَتْ وأعيَتْ ألسنَ المُدَّاحِ
وبهِ الدُّنا أضحتْ تروقُ وأصبحَتْ كلٌّ المُنَى تنقادُ بعدَ جماحِ
من كانَ ذا تَرَحٍ فرؤيةُ وجههِ متـــلافةُ الأحزانِ والأتراحِ
فانهض أبا عبد الإلـــهِ تفزْ بما تبغيـــه من أملٍ ونيلِ نجاحِ
لا زلت ترتشفُ الأماني راحـــةً من راحةِ المولى بكلّ صباحِ

فالحمدُ لله يا سيدي وأخي على نعمه التي لا تُحْصَى ، حَمْداً يؤمُّ به جميعنا المقصد الأسنى فيبلغ الأمد الأقصى ، فطالما كان معظّم سيدي للأسى في خبَال ، وللأسف بين اشتغال بال ، واشتعال بَلْبال ، ولقُدُومكم على هذا المقام المولوي في ارتقاب ، ولمواعيدكم بذلك في تحقق[1] وقوعه من غير شك ولا ارتياب ، فها أنت تجتلي من هذا المقام العلي بتشيعك وجوه المسرّاتِ صباحاً ، وتتلقّى أحاديث مكارمه ومواهبه مُسْنَدَة صحاحاً ، بحول الله تعالى ، ولسيدي الفضل في قبول مركوبه الواصل إليه بسرجه ولجامه ، فهو من بعض ما لدى المعظم من إحسان مولاه وإنعامه ، ولعمري لقد كان وافداً على سيدي في مستقره مع غيره ، فالحمد لله الذي يسّر في إيصاله ، على أفضل أحواله .

[١٩ – جواب لسان الدين]

فراجعته بما نَصُّه :

راحَتْ تذكرني كؤوسَ الراحِ والقربُ يخفضُ للجنوحِ جناحي
وسرَتْ تدلُّ على القبولِ كأنّما دلَّ النسيمُ على انبلاجِ صباحِ
حسناءُ قد غَنِيَتْ بحسنِ صفاتها عَنْ دُمْلُجٍ وقلادةٍ ووشاحِ
أمستْ تحضُّ على اللياذ بمن جرت بسعودهِ الأقلامُ في الألواحِ

١ ص : ولمواعدكم . . . محقق .

بخليفـــةِ الله المؤيّـــد فارسٍ شمْسِ المَعالي الأزهرِ الوضّاحِ
ما شئتَ من شِيَم ومن همم غدتْ كالزُّهْرِ أو كالزَّهْرِ في الأدواحِ
فَضَلَ الملوكَ فليس يُدْرَكُ شأْوُهُ أنّى يقاسُ الغمرُ بالضحضاحِ
أنسى بني عبّاسهم بلِوائهِ ال منصور ، أو بحُســامه السفّاحِ
وغــدتْ مغاني الملكِ لمّا حلّها تُزْهَى ببدرِ هدًى وبحرِ سماحِ
وحياةٍ من أهداك تحفةَ قادم في العرفِ منهــا راحةُ الأرواحِ
ما زلتُ أجعل ذكره وثنـــاءهُ روحي وريحاني الأريجَ وراحي
ولقد تمازجَ حُبُّـه بجوارحي كتمازج الأجسامِ بالأرواحِ
ولَوَ انني أبصرتُ يوماً في يدي أمري لطرتُ إليهِ دونَ جناحِ
فالآن ساعدني الزمانُ وأيقنتْ من قربه نفسي بفوز قداحي
إيهٍ أبا عبــدِ الإلـهِ ، وإنّه لَنــداءُ ودٍّ في علاكَ صُراحِ
أما إذا استنجدتني من بعـــد ما ركدتْ لما جَنَتِ الخطوبُ رياحي
فإليكها مهـــزولةً وأنا امرؤ قررتُ عجزي واطّرحتُ سلاحي

« سيدي أبقاك الله لعهد تَحفَظه ، ووليٍّ بعين الوفاء تَلْحَظه ، وصلتني رقعتك التي أبدعَتْ ، وبالحق من مولى الخليقة صدعتْ ، وألفتني وقد سَطَتْ بي الأوجال ، حتى كادت تتلف الرحال ، والحاجة إلى الغذاء قد شمرت كشح البَطين ، وثانية العجماوين قد توقع فوات وقتها وإن كانت صَلاتُها صلاةَ الطين ، والفكر قد غاض مَعِينُه ، وضعف وعلى الله جزاء المولى الذي يُعينه ، فغزتني بكتيبة بيانٍ أسَدُها هَصُور ، وعلَمها مَنْصُور ، وألفاظها ليس فيها قُصُور ، ومعانيها عليها الحسن مقصور ، واعتراف مثلي بالعجز في المضايق حَوْلٌ ومُنّة ، وقول « لا أدري » للعالم فكيف لغيره جُنّة ، لكنها بشرتني بما يَقِلُّ لمؤديه بَذْلُ النفوسِ وإن جلّتْ ، وأطلعتني من السراء على وجه تحسده الشمس إذا تجلّتْ ، بما أعلمتني به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله في

عبده ، وصدق المَخيلة في كرم مجده ، وهذا هو الجود المَحْض ، والفضلُ الذي شكره هو الفرض ، وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات مَنْ يبدأ بالنوال ، من قبل الضَّرَاعة والسؤال ، من غير اعتبار للأسباب ولا مجازاة للأعمال ، نسأل الله تعالى أن يبقي منها على الإسلام أوْفَى الظلال ، ويُبلغها من فضله أقصى الآمال ، ووَصَل ما بعثه سيدي صحبتها من الهدية ، والتحفة الودية ، وقبلتها امتثالاً ، واستجليت[1] منها عِتقاً وجَمالاً ، وسيدي في الوقت أنسب لاتخاذ ذلك الجنس ، وأقدر على الاستكثار من إناث البَهْم والإنس ، وأنا ضعيف القدرة ، غير مستطيع على ذلك إلاّ في الندرة ، فلو راءَ سيدي ورأيه سَداد ، وقَصْده فضل ووداد ، أن ينقل القضية إلى باب العارية من باب الهبة ، مع وجود الحقوق المترتبة ، لبَسَطَ خاطري وجَمَعَه ، وعمل في رفع المؤونة على شاكلة حالي معه ، وقد استصحبت مركوباً يشقّ عليَّ هجره ، ويناسب مقامي شكله ونَجْره ، وسيدي في الإسعاف على الله أجره ، وهذا أمر عرض ، وفرض فرض ، وعلى نظره المعوَّل ، واعتماد إغضائه هو المعقول الأوّل ، والسلام على سيدي من معظم قدره ، وملتزم برّه ، ابن الخطيب ، في ليلة الأحد السابع والعشرين لذي قعدة خمس وخمسين وسبعمائة ، والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الأجفان ، وظُنّ أنّه الطوفان ، واللحاق في غدها بالباب المولوي مؤمل بحول الله » انتهى .

[٢٠ – من البرجي إلى لسان الدين]

وكتب القاضي أبو القاسم البَرْجي[2] للسان الدين في غرض الشفاعة لبعض قرابته قوله[3] :

١ ص ق : واستجلبت .
٢ ترجمة البرجي في الإحاطة ٢ : ٢١٥ والكتيبة : ٢٥٠ ونيل الابتهاج : ١٧٢
٣ الكتيبة ٢٥١

أيا سابقاً في مجـال البراعه ... وفارسَ مَيْدان أهلِ البراعَه
ومَنْ بَدْرُهُ في سماء المَعالي ... يزينُ بوصفِ الكمالِ ارتفاعه
بما لكَ في الفضلِ من حُجَّة ... ومن إمرةٍ في ذويهِ مُطاعه
قضاءكَ في معسرٍ حلَّ دَيْنٌ ... عليـه فإرجاؤه قد أضاعه
وقد كان يبغي لديكم شفيعاً ... توسَّطَ عنـدكمُ في شفاعه
على أنَّه في اقتضاء الودادِ ... يوفّى موازينه أو صُواعـه
وما هو في سوقِ تقريظكم ... ونَشْر حلاكم بمُزْجَى البضاعه

«كتبت يا سيدي ـ أدام الله تعالى علاكم ، وحرس مجدكم الطاهر وسناكم ـ وأنا بين خَجَلٍ مفحم ، وعجل مقحم ، أتذكَّر تسويفي بلقائكم ، حين سمح الدهر باقترابكم ، فأُحجم وأُفكر في أن إحجامي عند ذلك بإرجائي ، عسى أن يكون وفق رجائي ، أفاتني المقصود فأرى الحزم في أن أُقْدِم ، وموقفها بين يديكم فلان ، يطالبني مطالبة الغريم ، وأروم مِطاله فلا يبرح ولا يَرِيم ؛ والانقياد في زمام طاعته ممّا توجبه المروّة بعدما أوجبه الشارع إذ جعل له حظّاً في الأبوة ، وقد أعلقته من ذمام علائكم بالحبل المتين ، وأنزلته من حماكم بِرَبْوة ذات قرار ومَعين ، فإن أعرتموه من لحظكم الجميل طَرْفَ اهتبال ، وأقبلتموه من اعتنائكم الجزيل وَجْهَ إقبال ، فقد عاد دهره بعد النفار مُواتياً ، ونزل على أهل المهلَّب شاتياً ، ومجدكم كفيل بتبليغ أمله ، وتوسيع جذله ، وذلكم يدٌ على معظمكم شكرها ، وعلى الله أجرها » انتهى .

[ترجمة أبي القاسم البرجي]

والبرجي المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن علي بن إبراهيم ، الغساني البرجي ، يكنى أبا القاسم ، من أهل غرناطة ، قال في « الإحاطة » : هو فاضل مجمَع على فضله ، صالح الأبوّة ، طاهر النشأة ، بادي الصيانة والعفة ،

طرف في الخير والحشمة ، صدر في الأدب ، جم المشاركة ، ثاقب الفهم ، جميل العشرة ، ممتع المجالسة ، حسن الشِّعر والخط والكتابة ، فذ في الانطباع ، صَنَاع اليد[1] ، محكم لعمل الكثير من الآلات العلمية ، ويجيد تسفير الكتب ، رَحَلَ إلى العُدْوَة ولقي جلة ، وتوسّل إلى ملكها مجدِّدِ الرسم ومعتام أولي الشهرة وعامر دست الشعر والكتابة ، أمير المسلمين أبي عنان ، فاشتمل عليه ، ونوّه به وملأ بالخير يده ، فاقتنى جِدَةً وحُظْوة ، وذكراً وشهرة ، وانقبض مع استرسال الملك لفضل عقله ، حتّى تشكى إليَّ سلطانه بَثَّ ذلك عند قدومي عليه ، وآثر الراحة ، وجهد في التماس الرحلة الحجازية ، ونبذ الكل ، وقصر الخطوة[2] ، وسَلا الحظوة ، فأسعفه سلطانه بغَرَضه ، وجعل حَبْلَ همّه[3] على غاربه ، وأصحبه إلى النبي الكريم صلوات الله عليه رسالةً من إنشائه وقصيدة من نظمه ، وكلاهما يعلن في الخلفاء ببعد شأوه ، ورسوخ قَدَمِ علمه ، وعراقة البلاغة في نسب خصله ، ولما هلك وولي ابنه [قدمه] قاضياً بمدينة[4] ملكه وضاعف له التنويه ، فأجرى الخطة على سبيل من السداد والنزاهة ، ثم لمّا ولي السلطان أبو سالم عمّه أجراه على الرسم المذكور ، واستجلى المشكلات بصدقه ، وهو الآن بحاله الموصوفة مفخر من مفاخر ذلك الباب السلطاني على تعدد مفاخره .

شعره – ثبت في كتاب « نفاضة الجراب » من تأليفنا عند ذكر المدْعَى الكبير بباب ملك المغرب ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وذكر مَنْ أنشد ليلتئذٍ من الشعراء ما نصّه : وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضي جملة السذاجة[5] وكرم الخلق وطيب النفس وخدن العافية وابن الصلاح والعبادة ونشأة القرآن

١ الإحاطة : اليدين .
٢ ص : الخطو .
٣ ق والإحاطة : نعمه .
٤ قدمه . . . بمدينة : سقطتا من ق ، ولفظة « قدمه » سقطت من ص .
٥ ص : الشذاخة .

المتحيّز إلى حزب السلامة المنقبض عن الغمار العزُوف عن فضول القول والعمل جامع المحاسن الأشتات [1] من عقل رصين وطلب ممتع وأدب نقاوة ويد صنّاع أبو القاسم ابن أبي زكريا البرْجي ، فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة [2] :

أصغَى إلى الوجْدِ لمّا جدّ عاتبُهُ ... صَبٌّ لَهُ شُغُلٌ عمّن يعاتبُهُ
لم يعطِ للصبرِ من بعد الفراقِ يداً ... فضلٌ مَن ظلّ إرشاداً يخاطبه
لولا النّوَى لم يبتْ حرّانَ مكتئباً ... يغالبُ الوجدَ كتماً وهو غالبه
يستودعُ الليلَ أسرارَ الغرامِ وما ... تمليه أشجانُهُ فالدمعُ كاتبه
لله عصرٌ بشرقيّ الحمى سمحتْ ... بالوصلِ أوقاتُهُ لَوْ عادَ ذاهبه
يا جيرةً أودعُوا إذ ودّعُوا حُرَقاً ... يَصْلى بها من صَميمِ القلب ذائبه
يا هل تُرى تجمعُ [3] الأيّامُ ألفتَنا ... كعهْدِنا أو يردُّ القلبَ سالبُه
ويا أهيلَ ودادي ، والنوى قَذَفٌ ... والقُربُ قد أبهمَتْ دوني مَذاهبُه
هَل ناقضُ العهد بعدَ البعدِ حافِظُهُ ... وصادعُ الشملِ يَوْمَ الشّعبِ شاعِبُه
ويا ربوعَ الحمى لا زلتِ ناعمةً ... يبكي عهودَكِ مُضْنى الجسمِ شاحبُه
يا مَنْ لقلبٍ مَعَ الأهواء مُنعطفٍ ... في كلّ أوْبٍ لهُ شوقٌ يجاذبه
يَسْمُو إلى طلبِ الباقي بهمتِهِ ... والنفسُ بالمَيْلِ للفاني تُطالبُه
وفتنةُ المرء بالمألوفِ معضلةٌ ... والأنسُ بالإلف نحوَ الإلف جاذبُه
أبكي لعهد الصِّبا والشيبُ يضحك بي ... يا للرّجالِ سبَتْ جدّي ملاعبُه
ولَنْ ترى كالهوى ، أشجاهُ سالفه ... ولا كوعدِ المُنى ، أحلاه كاذبُه
وهمّةُ المرء تُغليه وتُرخصُهُ ... مَنْ عزّ نفساً لقد عزّتْ مَطالبُه

1 الأشتات : ثبتت في ق ص وسقطت من الإحاطة .
2 القصيدة في الإحاطة وبعضها في الكتيبة .
3 الكتيبة : ترجع .

ما هانَ كسبُ المعالي أو تناولها   بل هانَ في ذاكَ ما يَلْقاهُ طالبُه[1]
لولا سُرَى الفَلَكِ السامي لما ظهرتْ   آثارهُ ولمـا لاحَتْ كَواكبُه
في ذمّةِ الله ركْبٌ للعُلا ركبُوا   ظَهْرَ السُّرى فأجابتهُم نجائبُه
يرمون عرضَ الفلا بالسير عن عُرُضٍ   طيَّ السجلَ إذا ما جـدَّ كاتبُه
كأنّهم في فؤادِ الليلِ سِرُّ هَوًى   لولا الضّرامُ لما خفَتْ جوانبه
شَدّوا على لهبِ الرمضاء وطأتهم   فغاص في لُجّةِ الظلماء راسبه
وكلّفوا الليل من طولِ السُّرى شططاً   فخلّفوهُ وقد شابَتْ ذوائبُه
حتّى إذا أبصروا الأعلامَ ماثلةً   بجانبِ الحرمِ المحميّ جانبُه
بحيثُ يأمنُ مَنْ مولاهُ خائفُه   من ذَنبِهِ وينالُ القصدَ راغبه
فيهـا وفي طيبة الغرّاء لي أملٌ   يُصاحبُ القلبَ منهُ ما يُصاحبه
إن أنسَ[2] لا أنسَ أياماً بظلهما   سقى ثَراهُ عَميمُ الغيثِ ساكبه
شوقي إليها وإن شَطَّ المزارُ بها   شوقُ المقيمِ وقد سارتْ حبائبه
إن ردَّها الدهر يوماً بعدما عبثتْ   في الشّملِ منّا يداهُ لا نُعاتبه
مَعاهدٌ شَرُفَتْ بالمُصْطَفى فَلَها   من فضلِهِ شرفٌ تَعْلُو مَراتبه[3]
محمّدُ المُجتَبى الهادي الشفيعُ إلى   ربّ العبـاد أمينُ الوحي عاقبه
أوْفى الورى ذمماً ، أسماهُمُ هِمماً   أعْلاهُمُ كرماً ، جلّتْ مناقبه
هـو المُكمَّلُ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ   زكَتْ حُـلاهُ كما طابَتْ مَناسبه
عنايةٌ قبلَ بدء الخلقِ سابقةٌ   مـنْ أجْلِها كانَ آتيه وذاهبه
جاءتْ تُبَشّرُنا الرُّسْلُ الكرامُ به   كالصُّبح تَبْدُو تباشيراً كواكبه
أخباره سِرُّ علمِ الأولين وسَلْ   بديرِ تَيْماء ما أبْداه راهبه
تطابَقَ الكونُ في البُشرى بمولده   وطبَّقَ الأرضَ أعلاماً تجاوبه

١ سقط البيت من ص .
٢ ق ص : لا أنس ؛ الإحاطة : لم أنس .
٣ ص : مراقبه .

فالجنُّ تهتفُ إعلاناً هواتفُه والجنّ تقذفُ إحراقاً ثواقبُه
ولَمْ تزل عصمةُ التأييد تكنفه حتى انجلى الحقُّ وانزاحَتْ شوائبُه
سرى وجنحُ ظلامِ الليلِ منسدلٌ والنجمُ لا يهتدي في الأفقِ ساربه
يَسْمُو لكلِّ سماء منهُ منفردٌ عَنِ الأنامِ وجَبْرَائيلُ صاحبه
لمنتهًى وَقَفَ الروحُ الأمينُ بِهِ وامتاز قُرباً فلا خَلْقٌ يقاربُه
لقابِ قَوْسينِ أو أدْنى فما علمتْ نفسٌ بمقدار ما أولاهُ واهبه
أراهُ أسرارَ ما قد كان أودعه في الخلقِ والأمرُ باديه وغائبه
وآبَ والبدرُ في بحر الدجى غرقٌ والصُّبحُ لمّا يؤبْ للشرق آيبُه
فأشرقَتْ بسَناهُ الأرضُ واتَّبعَتْ سُبْلَ النّجاةِ بما أبدتْ مذاهبه
وأقبلَ الرشدُ والتاحَتْ زواهره وأدبرَ الغيُّ فانجابَتْ غياهبُه
وجاء بالذّكرِ آياتٍ مُفَصَّلةً يُهْدَى بها من صِراطِ اللهِ لاحِبُه
نُورٌ مِنَ الحكمِ لا تخبو سواطِعه بحرٌ مِنَ العلمِ لا تفنى عَجائبُه
لَهُ مَقامُ الرِّضى المحمودِ شاهدُهُ في موقفِ الحشرِ إذ نابت نوائبُه
والرُّسلُ تحتَ لواء الحمدِ يقدمها محمّدٌ أحمدُ السامي مَراتبه
لَهُ الشّفاعاتُ مقبولاً وسائلُها إذا دهى الأمرُ واشتدتْ مصاعبه
والحوض يُروي الصدى من عذب مورده لا يشتكي غلّةَ الظمآنِ شاربُه
محامدُ المُصْطَفى لا ينْتَهي أبداً تعدادُها ، هل يَعُدُّ القَطْرَ حاسبه ؟
فضلٌ تكَفّلَ بالدّارين يوسِعُها نُعمى ورُحمى فلا فَضْلٌ يُناسبه
حسبي التوسّلُ منها بالذي سمحتْ به القوافي وجلّتْها غرائبه
حيّاه من صلواتِ الله صَوبُ حَياً تُحْدى إلى قبره الزاكي نجائبه
وخلّدَ اللهُ ملكَ المُستعينِ بهِ مؤيَّدَ الأمر مَنصُوراً كتائبُه
إمامُ عدلٍ بتَقْوَى الله مشتملٌ في الأمرِ والنهي يرضيهِ يراقبه
مسدَّدُ الحكمِ ، مَيْمونٌ نقيبته مظفَّرُ العزمِ ، صَدْقُ الرأيِ صائبه

مُشَمِّرٌ للتُّقى أذيالَ مجتهدٍ ... جرّارُ أذيالِ سُحبِ الجودِ ساحبه

قد أوسعت أمَلَ الراجي مَكارمُهُ ... وأحسبَتْ رغبَةَ العافي رغائبُه

وفازَ بالأمنِ محبوراً مُسالمه ... وباءَ بالخزي مَقْهُوراً محاربه

كَمْ وافدٍ آملٍ مَعْهُودَ نائله ... أثنى وأثنَتْ بما أولى حقائبه

ومُسْتَجِيرٍ بعزٍّ من مَثابته ... عَزَّتْ مَرامِيهِ وانقادتْ مآربه

وجاءه الدهرُ يسترضيهِ معتذراً ... مستغفراً من وقوعِ الذنبِ تائبه

لولا الخليفةُ إبراهيمُ لانبهمَتْ ... طُرْقُ المَعالي ونال الملكَ غاصبه

سَمَتْ لنيلِ تراثِ المجدِ همّته ... والملكُ ميراثُ مجدٍ وهو غاصبه

ينميه للعزّ والعَليا أبو حَسَنٍ ... سمحُ الخلائقِ محمودٌ ضرائبه

من آل يَعْقوبَ حسب الملك مفتَخَراً ... بباب عزّهمُ السامي تعاقبه

أطوادُ حلمٍ رَسا بالأرضِ محتدُه ... وزاحمتْ منكبَ الجوزا مناكبه

تحفّها من مَرِينٍ أبحرٌ زَخَرتْ ... أمْواجُهُا وغمامٌ ثارَ صائبه

بكلِّ نجمٍ لَدى الهَيْجاء مُلتهبٍ ... ينقضُّ وسطَ سماء النَّقْعِ ثاقبه

أكفُّهم في دياجيها مَطالعُهُ ... وفي نحور أعاديهم مَغاربُه

يا خيرَ من خلصتْ لله نيّتُه ... في الملكِ أو خَطَبَ العَلياء خاطبه

جرَّدتَ والفتنَةُ الشعواء مُلبسةٌ ... سيفاً من العزم لا تَنْبُو مضاربه

وخضتَها غيرَ هيّاب ولا وَكلٍ[1] ... وقلّما أدركَ المَطْلُوبَ هائبه

صبرت نفساً لعقبى الصبرِ حامدةً ... والصبرُ مذ كانَ محمودٌ عواقبه

فليهنِ دينَ الهُدى إذ كنتَ ناصرَهُ ... أمْنٌ يواليه أو خوفٌ يجانبُه

لا زالَ ملكَكَ والتأييدُ يخدمه ... تَقْضي بخفضٍ مُناويه قَوَاضبه

ودمتَ في نِعَمٍ تضفو مَلابسُها ... في ظلِّ عزٍّ عُلاً تصفو مشاربه

ثمَّ الصلاة على خيرِ البريّةِ ما ... سارتْ إليهِ بمُشْتاقٍ ركائبه

[1] ق : وهل .

ومن شعره ما قيده لي بخطّه صاحبُ قلم الإنشاء بالحضرة المَرينية الفقيه الرئيس الصدر المتفنن أبو زيد ابن خلدون[1] :

صحا القلبُ عمّا تعلمينَ فأقلعا ... وعَطّلَ من تلك المعاهدِ أربُعا
وأصبحَ لا يَلْوي على حدّ منزلٍ ... ولا يُتْبِعُ الطرفَ الخليَّ المودَّعا
وأضحى من السلوانِ في حرزِ مَعْقلٍ ... بعيدٍ عن الأيام أن يتضعضعا
يردُّ الجفونَ النُّجلَ عن شُرُفاته ... وإن لحظتْ عن كل أجْيَدَ أتلَعا
عزيزٌ على داعي الغرام انقياده ... وكان إذ ناداه للوجدِ أهطعا
أهابَ بهِ للشيبِ أنصحُ واعظٍ ... أصاخ له قلباً منيباً ومسمعا
وسافر في أفْقِ التفكّرِ والحجى ... زواهره لا تبرحُ الدهرَ طُلّعا
لعمري لقدْ أنضيتُ عزمي تطلُّباً ... وقضّيتُ عمري رِقْبةً وتطلُّعا
وخضتُ عُباب البحر أخضرَ مُزْبداً ... ودستُ أديمَ الأرضِ أغبرَ أسفعا

وقال حسبما قيده المذكور[2] :

نهاهُ النُّهى بَعْدَ طولِ التّجاربْ ... ولاحَ لهُ منهجُ الرشدِ لاحبْ
وخاطبَـهُ دَهْرُهُ ناصحاً ... بألسنةِ الوعظِ من كلّ جانبْ
فأضْحى إلى نُصْحِهِ واعياً ... وألغى حديثَ الأماني الكواذبْ
وأصبحَ لا تستبيه الغواني ... ولا تزدريه حظوظُ المناصبْ

ثم قال في « الإحاطة » : وإحسانه كثير في النثر والنظم والقصار والمطوّلات ، واستُعمل في السّفارة إلى ملك مصر وملك قَشْتالة ، وهو الآن قاضي حضرة الملك

١ الإحاطة : ٢٢٠ .
٢ المصدر السابق : ٢٢١ والكتيبة : ٢٥١ وقد حولت في ق إلى وزن الطويل مثل « ولاح له نهج من الرشد لاحب » أو « وخاطبه دهر له كان ناصحاً » ... إلخ .

نسيجُ وَحْدِهِ في السلامة والتخصص واجتناب فضول القول والعمل ، كان الله له ؛ انتهى .

وكتب ابن المصنف بهامش ترجمة المذكور من « الإحاطة » ما صورته : سيدي وشيخي علاّمة المغرب اليوم ، وحائز رتبه العليّة من خطابة وقضاء وعلامة وهو أحق بها ، لخلاله الحميدة ، أبقاه الله تعالى ، قاله محبه علي بن الخطيب ؛ انتهى .

وكتب على القصيدة الميلادية المتقدمة ما نصّه : رويتها عنه ، وسمعتها من لفظه ، وأجازني إياها بتلمسان ؛ انتهى .

وكتب على حاشية قصيدته « صحا القلب – إلى آخره » ما صورته : سمعتها من لفظ سيدي وشقيق روحي الإمام العلامة الرائس أبي زيد ابن خلدون بالأندلس أمتع الله به تعالى ؛ قال ذلك أخوه علي بن الخطيب ؛ انتهى .

[٢١ – مخاطبات ابن زمرك للسان الدين]

وقال في « الإحاطة » في ترجمة ابن زَمْرَك ما صورته [١] : وشعره مترامٍ إلى هَدَفِ الإجادة ، خفاجي النزعة ، كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة ، فمن ذلك ما خاطبني به وهي من أول ما نظمه قصيدة مطلعها :

أمَا وانصِداعِ النورِ من مطلعِ الفجر

يقول فيها بعد أبيات :

لكَ اللهُ من فَذّ الجلالةِ أوحد ... تطاوعه الآمالُ في النهي والأمرِ
لكَ القلَمُ الأعلى الذي طالَ فخرُهُ ... على المُرْهفاتِ البيض والأسَلِ السُّمر
يقلّـد أجيادَ الطروسِ تمائماً ... بصِنْفَيْ لآلٍ من نظامٍ ومن نثر

١ الإحاطة ٢ : ١٨٤ وانظر القصيدة في الكتيبة : ٢٨٤ وأزهار الرياض ٢ : ١٦٤ .

تَهيَّبكَ القرطاسُ فاحمرَّ إذ غدا ... يُقلُّ بحوراً من أناملك العشر
كأنَّ رياضَ الطِّرْسِ خدٌّ مورَّدٌ ... يطرِّزه وشيُ العذارِ من الحبر
فشارةُ هذا الملك رائقةُ الحُلى ... بألويةٍ حُمْرٍ وبالصُّحُفِ الحمر
وما روضةٌ غنّاء عاهَدَها الحَيا ... تَحُوكُ بها وَشْيَ الربيع يدُ القَطر
تُغنّي قيانُ الطيرِ في جنباتها ... فيرقص غصنُ البانِ في حُللٍ خُضر
تمدّ لأكواسِ العَرار أناملاً ... من السوسنِ الغضّ المختَّمِ بالتبر
ويحرسُ خدَّ الورد صارمُ نهرها ... ويَمْنَعُ ثغرُ النورِ بالذابلِ النضر
يفاخرُ مَرْآها السماء محاسناً ... وتزري نجومُ الزَّهْرِ منها على الزُّهْر
إذا مسحت كفُّ الصَّبا جفنَ نورها ... تنفَّس ثغر الزهر عن عنبرِ الشَّحر
بأعْطرَ من ريّا ثَنائك في السُّرى ... وأبهرَ حسناً من شَمائلك الغُرّ
عجبتُ لهُ يحكي خِلالَ خَميلةٍ ... وتَفرقُ منهُ الأسْدُ في موقفِ الذعر
إذا أضرمتْ من بأسها الحربُ جاحماً ... تأجّجَ منهُ العضبُ في لجّة البحر
وإن كَلَّح الأبطالُ في حومة الوغى ... ترقْرقَ ماءُ البِشرِ في صفحة البدر
لك الحسَبُ الوضّاحُ والسؤددُ الذي ... يضيقُ نطاقُ الوصفِ فيه عن الحصر
تَشَرَّفَ أفقٌ أنتَ بدرُ كمالِه ... فغرناطةٌ تختالُ تيهاً على مصر
تكلَّل تاجُ المُلكِ منك محاسناً ... وفاخرتِ الأملاكَ منك بنو نصر
بعزمة مضمونِ السّعادةِ أوحدٍ ... وغُرَّة وضَّاحِ المَكارمِ والنَّجْر
طوى الحيفَ منشورَ اللواء مؤيّداً ... فعزَّ حِمى الإسلام بالطيّ والنّشر
ومدَّ ظلالَ الأمنِ إذ قصّر العدا ... فيُتلى سناء الملك بالمدّ والقصر
إذا احتفل الإيوانُ يومَ مَشُورة ... وتضطربُ الآراءُ من كل ذي حِجْر
صدعتَ بفصل القول غيرَ منازعٍ ... وأطلعتَ آراء قبسْنَ من الفجر
فإن تظفرِ الخَيْلُ المغيرةُ بالضحى ... فعَنْ رأيكَ الميمونِ تظفرُ بالنصر
فلا زلتَ للعَلْياء تحمي ذمارها ... وتسحبُ أذيالَ الفخارِ على النسر

وللعلم فخر الدين والفتكِ بالعدا بَأوْتَ به يا ابن الخطيب على الفخر
فيهنيك عيدُ الفطر من أنت عيده ويثني بما أوليتَ من نِعَمٍ غُرّ
جبرتَ مَهيضاً من جناحي ورِشْتَه وَسَهّلْتَ لي من جانبِ الزمن الوعر
وبوّأتني من ذروةِ العزّ معتلًى وشرّفتني من حيثُ أدري ولا أدري
وسوغتني الآمالَ عذباً مسلسلاً وأسميتَ من ذكري ورفّعْتَ من قدري
فدهريَ عيدٌ بالسرور وبالمنى وكلُّ ليالي العمرِ لي ليلة القدر
فأصبحتُ مغبوطاً على خيرِ نعمةٍ يقلُّ لأدناها الكثيرُ من الشكر

وهي طويلة ؛ انتهى .

قلت : هذا الرئيس ابن زَمْرَك صرح هنا بأنّه بجاه لسان الدين ابن الخطيب أدرك من العز ما أدرك ، ثم انقلب عليه مع الدهر وكفر نعمته وبها أشرك ، وحرك من دواعي قتله ما حرك ، وكم من صديق لك ضرّك ، وعقّكَ بعدما برّك ، وساءك إثر ما سرّك ، ولذا رأيت بخط ابن لسان الدين على هامش قوله في هذه القصيدة « ومد ظلال الأمن — إلخ » ما صورته : هذا مدحه لحاه الله ؛ وعلى قوله « وبوّأتني من ذروة العزّ — إلخ » ما مثاله : هكذا شهادتك لحقه ، ثمّ تحوّلك عنه ، وكفر نعمته ، اغرب أخزاك الله ؛ انتهى .

وكتب بهامش أول ترجمته من « الإحاطة » ما نصّه : أتبعه الله خزياً ، وعامله بما يستحقّه ؛ فبهذا ترجمه والدي مولاه الذي رفع من قدره فيه ، ولم يقتله أحد غيره ، كفانا الله تعالى شرَّ مَنْ أحسنّا إليه .

وكتب أيضاً تحت هذا ما مثاله : هذا الوغد ابن زَمْرَك من شياطين الكتّاب ابن حداد بالبيازين ، قتل أباه بيده ، أوجعه ضرباً فمات من ذلك ، وهو أخسُّ عباد الله تربية ، وأحقرهم صورة ، وأخملهم شكلاً ، استعمله أبي في الكتابة السلطانية ، فجنينا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شرّ ، وهو كان السبب في قتل أبي مصنف هذا الكتاب الذي ربّاه وأدّبه واستخدمه ، حسبما هو معروف ،

وكفانا الله شرَّ من أحسنَّا إليه وأساء إلينا ، انتهى .

وقد ألممنا بترجمته في هذا الكتاب في باب تلامذة لسان الدين فلتراجَع هنالك .

وممّا كتب به ابن زَمْرَك المذكور إلى لسان الدين ابن الخطيب جواباً عن رسالة قوله [1] :

حيّتْ صباحاً فأحيت ساكني القَصَبه ... واسترجعَتْ أنفُساً بالشوق مُغتَصَبَهْ
قضى البيانُ لهـا أن لا نظيرَ لها ... فأحرزتْ من معاني خَصْله قَصَبَهْ
ناجتْ طليحَ سُرًى لا يستفيقُ لها ... هَدّتْ جوارحَهُ واستوهنتْ عصَبَهْ
فحرّكتْهُ على فتكِ الكلالِ به ... وأذهبتْ بسرورِ الملتقى نَصَبَهْ
وأذكرتْ عهدَ مُهْديها على شَحَطٍ ... فعاود القلب من تذكاره وَصَبَهْ
ما كنتُ أسمحُ من دهري بجوهره ... لو كان يسمحُ لي بالقلبِ مَنْ غَصَبَهْ
سل أدمعَ الصبِّ من أعدى السحابَ بها ... وَقَلْبَهُ بجمارِ الشوقِ مَنْ حَصَبَهْ
فالله يحفظُ مهديها ويشكره ... فوجهها بعصابِ الحسنِ قَدْ عَصَبَهْ
مَنْ كان وارثَ آدابٍ يشعشعها ... بالفرضِ إنّيَ في إرثي لها عَصَبَهْ
هُوَ المَلاذُ مَلاذُ الناسِ قاطبةً ... سبحان مَنْ لغياثِ الخلقِ قد نَصَبَهْ

وخاطبه كذلك بقوله [2] :

يكلّفني مولاي رَجْعَ جوابه ... وما لتعاطي المُعْجِزاتِ وما ليا
أجيبك للفضلِ الذي أنْتَ أهلُه ... وأكتُبُ ممّا قَدْ أفدتُ الأماليا
فأنْتَ الذي طوقتَني كلَّ منّةٍ ... وأحسبتَ آمالي وأكسبْتَ ماليا
وأنْتَ الذي أعْدى الزمانَ كمالُه ... وصيرتَ أحرارَ الزمانِ مَواليا
فلا زلتَ للفعلِ الجميلِ مُواصلاً ... ولا زلتُ للشكرِ الجزيل مُواليا

[1] الأزهار ٢ : ١٦٦ .
[2] الكتيبة : ٢٨٨ والأزهار ٢ : ١٦٧ .

وخاطبه كذلك بقوله[1] :

طالعتُها دونَ الصَّباحِ صَباحا ... لمَّا جلَتْ غُررَ البَيان صِباحا
ولقد رأيتُ، وما رأيتُ كحُسنها ... وجهاً أغرَّ ومبسماً وضَّاحا
عذراء أرضعَها البَيانُ لِبانَهُ ... وأطالَ مَغْدًى عندها ومَراحا
فأتَتْ كما شاءت وشاء نجيبها ... تذكي الحجى وتُنَعِّم الأرواحا
لا بل كمثلِ الروضِ باكَرَهُ الحيا ... وسقى به زهرَ الكمام ففاحا
وطوتْ بساطَ الشوقِ مني بعدما ... نشرتْ عليَّ من القَبولِ جَناحا

وخاطبه كذلك بقوله[2] :

ذَروني فإنّي بالعَلاء خبيرُ ... أسيرُ فإنَّ النيِّرات تسيرُ
وكم بتُّ أطوي الليلَ في طلب العُلا ... كأنّي إلى نجم السماء سفيرُ
بعزمٍ إذا ما الليلُ مَدَّ رِواقَه ... يكرُّ على ظلمائه فينيرُ
أخو كَلَفٍ بالمجدِ لا يستفزّه ... مِهادٌ إذا جنَّ الظلامُ وثيرُ
إذا ما طوى يوماً على السرِّ كَشْحَه ... فَليسَ لَهُ حتى المماتِ نُشورُ
وإنّي وإن كنتُ المنَّعَ جارُهُ ... لَتَسبي فؤادي أعينٌ وثُغورُ
وما تعتريني فترةٌ في مدى العُلا ... إلى أن أرى لحظاً عليه فتورُ
وفي السِّرْبِ من نجدٍ تعلقْتُ ظبيةً ... تصولُ على ألبابنا وتغيرُ
وتمنعُ ميسورَ الكلام أخا الهُدى ... وتبْخَلُ حتى بالخيالِ يزورُ
أسُكّانَ نجدٍ جادها واكفُ الحيا ... هواكمْ بقلبي مُنْجِدٌ ومُغيرُ
ويا سكني بالأجْرَعِ الفَرْدِ من مِنًى ... وأيسرُ حظٍّ من رضاكَ كثيرُ
ذكرتك فوقَ البحرِ والبعدُ بيننا ... فمدَّتْهُ من فَيضِ الدُّموعِ بحورُ

١ الأزهار ٢ : ١٦٧
٢ الأزهار ٢ ١٦٧

وأومضَ خفَّاقُ الذؤابةِ بارقٌ　　فطارتْ بقلبي أنّـــةٌ وزفـيرُ
ويهفو فؤادي كلّما هبّتِ الصَّبا　　أمَا لفؤادي في هـــواك نَصيرُ
ووالله ما أدري أذكْرك هزّني　　أم الكأسُ ما بين الخيامِ تَدُورُ
فمَن مُبْلغٌ عني النّوى ما يسوءُها　　وللبينِ حـكمٌ يَعْتدي ويجورُ
بأنّا غَداً أو بعده سوفَ نلتقي　　ونمسي ومنّـــا زائرٌ ومَزورُ
إلى كم أرى أكني ووجدي مصرّحٌ　　وأُخفي اسْمَ من أهواه وهو شهيرُ
أمنجدَ آمالي ، ومغليَ كاسدي　　ومصدرَ جاهي ، والحديثُ كثيرُ
أأنسى ، ولا أنْسى ، مجالسك التي　　بهـــا تلتقيني نَضْرةٌ وسرورُ
نزورك في جنحِ الظلام وننثني　　وبينَ يدينا من حديثك نورُ
على أنّني إن غبتُ عنك فلم تغب　　لطائفُ لم يُحجبْ لهن سفورُ
نروحُ ونغدو كلَّ يومٍ وعندها　　رواحٌ علينـــا دائمٌ وبكورُ
فظلُّك فوقي حيثما كنتُ وارفٌ　　وموردُ آمالي لديك نمـــيرُ
وعذراً فإني إن أطلتُ فإنّما　　قصارايَ مِنْ بَعْدِ البيانِ قصورُ

وكتب إليه خاتمة رسالة كذلك :

وحقِّكَ ما استطعمت بعدك غمضةً　　من النوم حتى آذن النجمُ بالغروبْ
وعارضْتُ مَسرَى الريح قلتُ لعلَّها　　تنمُّ بريّا منك عاطرةِ الهبوبْ
إلى أن بدا وَجْهُ الصَّباحِ كأنّهُ　　محيّاك إذ يجلو بغُرّته الخطوبْ
فقلتُ لقلبي استشعرِ الأنسَ وابتهجْ　　فإن تبعدِ الأجسامُ لم تبعدِ القلوبْ
وسِرْ في ضمان الله حيثُ توجهتْ　　ركابُك لا تخشَ الحوادثَ أن تنوبْ

قلت : هذه غاية في معناها ، لولا خرُوجها عن القواعد في ترتيب قافيتها ومبناها ، فانظر إلى تحوّله عن لسان الدين بعد هذه المدائح ، ونسبته إليه بعده القبائح ، والإنسان خوّان ، إلا النادر من الإخوان ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

[٢٢ – من ابن سلبطور إلى لسان الدين]

قال في « الإحاطة » في ترجمة ابن سلبطور ما نصّه : وممّا خاطبني به :

تالله ما أورى زنادَ القلقِ سوى بريقٍ لاحَ لي بالأبرقِ
أيقنتُ بالحَيْن فلَوْلا نفحةٌ نجدية منكمْ تلافت رَمَقي
لكنتُ أقضي بتلظّي زفرةٍ وحسرةٍ بينَ الضلوع تلتقي
فآهِ من هَوْلِ النوى وما جَنَى على القلوبِ موقفُ التفرقِ
يا حاكيَ الغصنِ انثنى متوّجاً بالبدرِ تحت لمّةٍ من غسَقِ
اللهَ في نفسِ مُعَنَّى أقْصِدَتْ من لاعجِ الشوق بما لم تُطِقِ
أتى على أكثرها بَرْحُ الأسى دعْ ما مضى منها وأدركْ ما بقي
ولو بإلمامِ خيالٍ في الكرى إن ساعَدَ الجفنَ رقيبُ الأرقِ
فربَّ زَورٍ من خيالٍ زائر أقرَّ عينيَّ وإن لَمْ يصدقِ
شقيتُ من برحِ الأسى لو أنَّ مَنْ أصبح رِقّي في يديه مُعْتِقي
ففي معاناة الليالي عائقٌ عن التصابي وفنونِ العُلَقِ
وفي ضمانِ ما يُعاني المرء من نوائبِ الدهرِ مشيبُ المفرقِ
هذا لعمري مَعَ أنّي لم أبتْ منها بشكوى روعة أو فَرَقِ
فقد أخذتُ من خطوبِ غدرها بابن الخطيب الأمنَ ممّا أتّقي
فخرُ الوزارة الذي ما مثلـه بدرٌ علا في مغربٍ أو مشرقِ
ومذ أرانيـه زماني لم أُبَلْ مِنْ صَرفه بمُرْعِدٍ أو مُبْرِقِ
لا سيّما مُنذُ حططتُ في حمى مقامـه[1] الأمنعِ رحْلَ أيْنُقي
أيقنتُ أنّي في رجائي لم أخبْ وأنَّ مسعى بغيتي لم يُخْفِقِ
ندبٌ لهُ في كلّ حُسنٍ آيةٌ تناسبتْ في الخَلق أو في الخُلُقِ

---

١ سقطت هذه الكلمة من ص ، وفي ق : مسعاه .

في وجهه مسحةُ بِشر إن بدت تبهرجتْ أنوارُ شمسِ الأفقِ
تعتبر الأبصارُ في اللألاء ما عليهِ مِنْ نور السماحِ المشرقِ
كالدهر في استينائه وبطشه كالسيفِ في حدّ الظُّبي والرونقِ
إنْ بخلَ الغيثُ استهلّتْ يدُه بوابلٍ من غيثِ جودٍ غَدِقِ
وإن وشتْ صفحة طرسٍ انجلي ليلُ دجاها عن سنا مؤتلقِ
بمثلهـا من حبراتٍ أخجلتْ حواشيَ الروضِ خدودُ المُهْرَقِ
ما راق في الآذان أشنافٌ سوى ملتقطاتِ لفظـه المفترقِ
تودُّ أجيادُ الغواني أن يرى حليّها من درّ ذاك المنطقِ
فسَلْ به هل آده الأمرُ الذي حُمّلَ في شرخ الشبابِ المونقِ
إذا رأى الرأيَ فلا يخطئه يُمْنُ اختيارِ للطريقِ الأوفقِ
إيهِ أبا عبدِ الإله هاكَها عذراء تحثو في وجوهِ السُّبَّقِ
خذها إليك بكْرَ فكرٍ يزدري لديك بالأعشى لدى المحلّقِ
لا زلتَ مرهوبَ الجناب مرتجّى موصولَ عزّ في سعودٍ ترتقي
مبلَّغَ الآمـالِ فيمـا تبتغي مؤمّنَ الأغراض ممّا تتّقي

[ترجمة ابن سلبطور]

وابن سلبطور هو : محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور الهاشمي .

قال في « الإحاطة » : من أهل المرية ، يكنى أبا عبد الله ، من وجوه بلده وأعيانه ، نشأ نبيهَ البيت ساحباً بنفسه وبماله ذيل الحظوة ، متحلّياً بخصال من خط وأدب ، وزيراً متجنّداً ظريفاً ، دربا على ركوب البحر وقيادة الأساطيل ، ثم انحطَّ في هواه انحطاطاً أضاع مروءته واستهلك عقاره وهَدَّ بيته ، وألجأه أخيراً إلى اللحاق بالعُدْوة فهلك بها .

وجرى ذكره في « الإكليل » بما نصّه : مجموع شعر وخطّ ، وذكاء عن

درجة الظرفاء غير منحطّ ، إلى مجادة أثيلة البيت ، شهيرة الحي والميت ، نشأ في حِجر الترَف والنعمة ، محفوفاً بالمالية الجمَّة ، فلمّا عقل عن ذاته ، وترعرع بين لِداته ، أجرى خيول لذاته ، فلم يَدَعْ منها ربْعاً إلا أقفره ، ولا عقاراً إلا عقره ، حتى حطّ بساحلها ، واستولى بسفر الإنفاق على جميع مراحلها ، إلاّ أنّه خلص بنفس طيّبة ، وسَرَاوة سماؤها صَيِّبَة ، وتمتّع ما شاء من زير وبم ، وتأنّس لم يُعْطِ القيادَ لهمّ ، وفي عفو الله سَعَة ، وليس مع التوكل عليه ضَعَة .

شعره — من شعره قوله يمدح السلطان ، وأنشدها إيّاه بالمضارب من وادي الغيران عند قدومه المرية :

أثغرُكِ أم سِمْطٌ من الدرّ يُنظمُ ... وريقُك أم مسكٌ به الراحُ تُختَمُ
ووجهُك أم بادٍ من الصبح نَيّرٌ ... وفرعُك أم داجٍ من الليلِ مُظلمُ
أُعلّل منكِ الوجدَ والليلُ مُتلفي ... وهل ينفعُ التعليلُ والخطبُ مؤلمُ
وأقنعُ من طيفِ الخيالِ بزَوْرةٍ ... لَوَ انّ جفوني بالمنـــامِ تنعمُ

ثم سرد لسان الدين القصيدةَ ، وهي طويلة .

ثم قال : ومن شعره مذيلاً على البيت الأخير حسبما نُسِب إليه ببلده :

نامَتْ جفونُكَ يا سؤلي ولم أنَمِ ... ما ذاك إلا لفرطِ الوجدِ والسّقَمِ
أشكو إلى الله ما بي من محبّتكم ... فهو العليمُ بما ألقى من الألمِ
« إن كان سفكُ دمي أقصى مرادكمُ ... فما غلَتْ نظرةٌ منكم بسفكِ دمي »

وممّا يُنسب إليه كذلك :

قفْ بي ونادِ بينَ تلك الطلولْ ... أينَ الألى كانوا عليهـا نزولْ
أينَ ليالينـــا بهـــم والمُنى ... نجنيه غضّاً بالرضى والقَبول

لا حمّلوا بعضَ الذي حمّلُوا يومَ تولّتْ بالقِباب الحُمُول
إن غبتمُ يا أهلَ نجـدٍ ففي قلبيَ أنتم وضلوعي حُلول[1]

ثم قال : ناب في القيادة البحرية عن خاله القائد أبي علي الرنداحي ، وولي أسطول المنكّب[2] برهة ، وتوفّي بمراكش عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

[٢٣ – من ابن راجح إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين : كتب إليّ أبو عبد الله ابن راجح التونسي بما يظهر من أبياته ، وهي :

أما والذي لي في حُلاكَ من الحمدِ ومالك ملاّكي لديَّ من الرفدِ
لقد أشعرتْني النفسُ أنك مُعرضٌ عن المسرفِ الآتي لفضلك يستجدي
فإنْ زلةٌ مني بدتْ لكَ جهرةً فصفحاً فما والله أذنبتُ عن قصدِ

[٢٤ – جواب لسان الدين]

فراجعته بقولي :

أُجِلُّكَ عن عتبٍ يغضُّ من الودِّ وأُكرمُ وجهَ العذرِ منكَ عن الردِّ
ولكنّني أُهدي إليكَ نَصيحتي وإن كنتُ قد أهديتُها ثم لم تُجْدِ
إذا مِقْوَلُ الإنْسانِ جاوزَ حَدَّهُ تحوّلتِ الأغراضُ منه إلى الضدِّ
فأصبح منهُ الجدُّ هزلاً مذمّماً وأصبح منه الهزلُ في معرضِ الجدِّ
فما اسطعتَ قبضاً للعنانِ فإنّـه أحقُّ السجايـا بالعَلاء وبالمجدِ

١ ق : نزول ؛ ص : حمول .
٢ هذه رواية ص ؛ وفي ق : المبكم .

[ترجمة ابن راجح]

وقال في «الإحاطة» في حق ابن راجح المذكور ما محصّله[1] : محمد بن علي ابن الحسن بن راجح ، الشريف الحسني باعترافه ﴿ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الزمر : ٧ ، والإسراء : ١٥ ، والأنعام : ١٦٤) تونسي ، أبو عبد الله ، يُعرف بابن راجح ، صاحب رُواء وأُبهة[2] ، نظيف البزة ، فاره المركب ، مطفف مكيال الإطراء ، جَمُوحٌ في إيجاب الحقوق ، مترامٍ إلى أقصى آماد التوغّل ، سخي اللسان بالثناء ثرثاره ، مرسلٌ لعنانِهِ في كل المحافل ، متواضع متودد فكه مطبوع حسن الخلق عذب الفكاهة ، مخصوص حيث حلّ من الملوك والأمراء بالأثَرَة ، وممّن دونهم بالمداخلة والصحبة ، ينظم الشعر ، ويحاضر بالأبيات ، ويقوم على تاريخ بلده ، ويثابر على لقاء أهل المعرفة ، والأخذ عن أُولي الرواية ، قدم الأندلس عام خمسين وسبعمائة مفلتاً من الوقيعة بالسلطان أبي الحسن ، فمهد له سلطانها كَنَفَ برّه ، وآواه إلى سَعَة رِعيه ، وتأكدت بيني وبينه صحبة .

[٢٥ - من لسان الدين إلى ابن راجح]

كتبتُ إليه أولَ قدومه بما نصّه أحذو حذو أبيات ذكر أن شيخنا أبا محمد الحضرمي خاطبه بها :

أمِنْ جانبِ الغَرْبيّ نَفْحَةُ بارحٍ سرَتْ منه أرواحُ الجَوَى في الجوارحِ ؟
قدحتُ بها زندَ الغَرامِ وإنّما تجافيتُ في دينِ السلوّ لقادحِ
وما هي إلا نَسْمَةٌ حاجريّةٌ رمى الشوقُ منها كلَّ قلبٍ بقادحِ
رَجَحْنا لها من غيرِ شكٍّ كأنّها شمائلُ أخلاقِ الشريفِ ابنِ راجحِ

---

١ ق : حاصله .

٢ ق : وبديهة .

فتى هاشمٍ سبقاً إلى كلّ غايةٍ وصبراً ، مُغار الفتلِ في كلّ فادحِ
أصيلُ العلا جَمٌّ السيادة ، ذكره طرازُ نُضارٍ في برودِ المَدائحِ
وفرقانُ مجدٍ يصدعُ الشكّ نورُه حبا الله منهُ كلَّ صدرٍ بشارحِ
وفارسُ ميدان البيانِ إذا انتضى صحائفَهُ أنسَتْ مضاء الصفائحِ
رقيقٌ كما راقتك نغمةُ ساجعٍ وجَزْلٌ كما راعتك صولةُ جارحِ
إذا ما احتبى مستحضراً في بلاغة وخوضِ خِضمٍّ القولِ منه بسابحِ
وقد شرعتْ في مجمع الحَفْل[1] نحوه أسنّةُ حربٍ للعيونِ اللوامحِ
فما ضعضعتْ منهُ لصولة صادعٍ ولا ذهبَتْ منهُ بحكمةِ ناصحِ
تذكرتُ قُسّاً قائماً في عكاظه وقد غصّ بالشُّمِّ الأنوفِ الجحاجحِ
ليهنك شمسَ الدين ما حزتَ من عُلا خواتمُهُ موصولَةٌ بالفواتحِ
رعى الله ركباً أطلع الصبحَ مسفراً لمرآكَ من فوق الرُّبى والبطائحِ
ولله ما أهدته كَوْماءُ أوضعتْ برحلك في قفرٍ عن الأنسِ نازحِ
أقول لقومي عندما حطَّ كورها وساعدها السّعدانُ وسط الأباطحِ
ذروها وأرضَ اللهِ لا تعرضوا لها بمعرض سوء فهي ناقةُ صالحِ
إذا ما أردنا القولَ فيه فمَنْ لنا بطوعِ القوافي وانبعاثِ القرائحِ
بقيتَ مُنى نفسٍ وتحفةَ قادمٍ وموردَ ظمآنٍ وكعبةَ مادحِ
ولا زلت تلقى البرَّ والرحبَ حيثما أرحتَ السُّرَى من كُلّ غادٍ ورائحِ

[٢٦ – جواب ابن راجح]

فأجابني بما نصّه :

أمِنْ مطلعِ الأنوارِ لمحَةُ لامحٍ تعادُ لمفؤودٍ عَنِ الحيّ نازحِ
وهل بالمنى من مَوْردِ الوصلِ يرتوي غليلُ عليلٍ للتواصلِ جانحِ

[1] ق : الحصل .

فيا فيضَ عينِ الدمع ما لكَ والحمى ورندَ الحمى والشيحَ شيحَ الأشايحِ
مرابعُ آرامي وموردُ ناقتي فسقياً لها سقياً لناقةِ صالحِ
سقى الله ذاك الحيَّ وَدْقاً فإنّه حمى لمَحاتِ العينِ عن لمحِ لامحِ
وأبدى لنا حُورَ الخيامِ تزُفُّ في حُلى الحسن والحسنى وحلْيِ الملامحِ
ترى حَيَّ تلك الحور للحورِ مهيَعٌ يدلّ ، وهل حسمٌ لداء التّبارحِ
ويا دوحةَ الريحانِ هل ليَ عودة لعفرِ عفارِ الأنسِ بينَ الأباطحِ
وهَلْ أنْتِ إلاّ حلّةٌ حاتمية تغصّ نواديها بغادٍ ورائحِ
أقامَ بها الفخرَ الخطيبُ منابراً لترتيلِ آياتِ النّدى والمنائحِ
وشَفّع بالإنجيلِ حمدَ مديحهِ وأوترَ بالتوراةِ شفعَ المدائحِ
وفرّق بالفرقان كلَّ فريقة نأت عن رشاد فيهِ محضُ النصائحِ
وهل هو إلا للبريةِ مرشدٌ لكلّ هدًى هادٍ لأرجحِ راجحِ
فبشرى لسانَ الدين ساد بك الورى وأورى الهدى للرشد أوضحَ واضحِ
متى قلتَ لم تتركْ مقالاً لقائل[1] وإن لم تقلْ لم يُغْنِ مدحٌ لمادحِ
فمن حامَ بالحيّ الذي أنتَ ربُّه وعامَ ببحرٍ من عطاياك طافحِ
يحقُّ له أن يشفعَ الحمدَ بالثنا ويغدو بذاك البحرِ أسبحَ سابحِ
ويا فَوْزَ ملكٍ دمتَ صدر صدوره وبشرى لهُ قد راح أربح رابحِ[2]
بآرائكَ اللاتي تدلُّ على الهدى وتبدي لمن خصصت سُبْلَ المناجحِ
ملكتَ خصال السبق في كلّ غايةٍ ومُلّكْتَ ما ملكت يا ابنَ الجحاجحِ
مطامح[3] آمالٍ لأشرفِ همّة أقلُّ مراميها أجلُّ المطامحِ
فدونكها يا مهديَ المدح مدحةً أجبتُ بها عَن مدحِ أشرف مادحِ

١ من قول حسان في مدح ابن عباس :
إذا قال لم يترك مقالا لقائل بملتقطات لا ترى بينها فصلا
٢ سقط البيت من ص .
٣ ق : مطالب .

تُهَنّيك بالعام الذي عَمّ مدحُهُ مواهبُ هاتيك البحار الطوافحِ
فخُذْها سميَّ الفخر يا خيرَ مسبلٍ على الخلْقِ إغْضاءَ سُتور التسامحِ
ودُمْ خاطبَ العليا بها خيرَ خاطبٍ وأتْوقَ توّاقٍ وأطمحَ طامحِ

[بقية ترجمة ابن راجح]

ثمّ قال لسان الدين : توفّي يوم الخميس ثالث شعبان سنة خمس وستين وسبعمائة ، وقد ناهز السبعين ، ودفنّاه بروضتنا بباب إلبيرة ، وأُعفي شارب الشعر من ثاني[1] مِقَصّه ، عفا الله تعالى عنّا وعنه ؛ انتهى .

قلت : رأيت بخط البدر البشتكي في اختصاره لإحاطة لسان الدين وسمّاه بـ « مركز الإحاطة » في هذا المحل ما نصّه : قال كاتبه : لو وفّق الله تعالى هذا الرجل لم يجب عن مثل تلك الحائية بهذا الهُذاء ، ولعل ما في كتاب أبي البركات الذي اسمه « شعر مَنْ لا شعر له » أنزل من هذه الطبقة ؛ انتهى .

وقد أشار لسان الدين لهذا بقوله السابق : وأُعفي شارب الشعر من ثاني[1] مقصّه ، فلله دره من لوذعي زان خاتم البراعة بفَصّه ، فلكم له من عبارة وجيزة يقضي بها ما لم يستطع غيره أن يعبر عنه بإطنابه ، فعلى كل مَنْ يروم التعبير ، عمّا في الضمير ، أن يتمسك بأطنابه .

وقال ابن خاتمة : حدثني الشريف الأديب أبو عبد الله ابن راجح التونسي مَقْدَمَه علينا بالمرية قال : سجن القاضي أبو عبد الله ابن عبد السلام شابّاً وسيماً لحقّ تعين عليه ، فأنشدته مداعباً :

أقاضي المسلمين حكمتَ حكماً غدا[2] وجهُ الزّمانِ له عبُوسا

---

١ ص : نابي .
٢ ق : بدا .

سجنتَ على الدراهم ذا جمال   ولم تسجنه إذ غَصَبَ النفوسا

فأجابني بأن قال : إنّما شكاه لي أربابُ الدراهم ، دون أرباب النفوس ؛ انتهى .

رجع إلى ما خوطب به لسان الدين رحمه الله تعالى :

[٢٧ – من العشاب إلى لسان الدين]

وممّا خاطبه به أبو عبد الله العشاب[١] التونسي في بعض الأعياد قوله :

بيُمن أبي عبد الإلهِ محمّدٍ   تيمَّنَ هذا القُطْر وانسجم القَطرُ
أفاضَ علَيْنا من جزيلِ عطائه   بحوراً تديمُ المَدَّ ليس له جَزْر
وآنسنا لمّا عدمنا مَغانياً   إذا ذُكرت في القلب ليس لها[٢] ذعر
هنيئاً بعيدِ الفطرِ يا خيرَ ماجدٍ   كريمٍ به تسمو السيادةُ والفخر
ودمتَ مدى الأيام في ظل نعمة   تطيع لك الدنيا ويَعْنُو لك الدهر

[٢٨ – من محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين في ترجمة ابن عبد الملك المراكشي ما صورته : وخاطبني بقوله :

وليتَ ولايةً أحسنتَ فيها   ليُعلم أنها شَرُفَتْ بقدركْ
وكم والٍ أساء فقيل فيه   دنيّ القدرِ ليسَ لها بمدركْ

وقال أيضاً يخاطبني في المعنى :

١ ق : الفشتالي .
٢ ص : من ذكرها .

وليتَ فقيل أحسنَ خيرُ والٍ ففاق مَدى مداركها بفضله
وكم والٍ أساء فَقيلَ فيهِ دَنا فمَحا محاسِنَها بفعله

[ترجمة ولد ابن عبد الملك]

وفي « الإحاطة » ما محصّله أن المذكور محمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأنصاري الأوسي ، كان شديد الانقباض ، محجوب المحاسن ، تنبو العين عنه جَهامة ووَحْشة ظاهر وغرابة شكل ، وفي طي ذلك أدب غض ، ونفس حرّة ، وحديث ممتع ، وأبوّة كريمة ، أحد الصابرين على الجَهْد ، المستمسكين بأسباب الحشمة ، الراضين بالخصاصة ، وأبوه قاضي القضاة نَسيجُ وَحْدِهِ الإمام العالم التاريخي المتبحّر في الآداب ، تقلبت به أيدي الليالي بعد وفاته لتبعة سلطت على نَشَبه ، فاستقر بمالقة مقدوراً عليه ، لا يهتدي لمكان فضله إلا من عثر عليه ، ومن شعره قوله :

من لم يصنْ في أملٍ وجهَــهُ عنك فَصُنْ وجهكَ عن ردّهِ
واعرفْ لهُ الفضلَ وعرّف لَهُ حيثُ أحلَّ النفسَ من قصــدهِ

ثم قال : توفّي في ذي القعدة عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

[٢٩ — من المكودي إلى لسان الدين]

وممّا مُدِح به لسان الدين قولُ أبي عبد الله محمد المَكُودي الفاسي رحمه الله تعالى :

رُحماكَ بي فلقدْ خلّدْتَ في خلَدي هوًى أكابدُ منه حُرْقَةَ الكبدِ
حللتَ عَقْدَ سُلُوّي عن فؤاديَ إذ حللتَ منهُ محلَّ الروح من جسدي
مرآكَ بدري ، وذكراك التذاذُ فمي ودين حبّك إضماري ومعتقدي

ومن جمالك نورٌ لاحَ في بصري ومن ودادك روحٌ حلَّ في خلَدي
لا تحسبنَّ فؤادي عنكَ مصطبراً فقبلَ حبِّكَ كان الصبرُ طوعَ يدي
وهاكَ جسمِيَ قد أودى النحولُ به فلَوْ طلبتَ وجوداً منه لم تجدِ
بما بطرفكَ من غُنْجٍ ومن حَوَرٍ وما بثغركَ من دُرٍّ ومن بَرَدِ
كنْ بينَ طرفي وقلبي منصفاً فلقد حابيتَ بعضهما فاعدلْ ولا تحدِ
فقال لي : قد جعلتَ القلبَ لي وطناً وقد قضيتَ على الأجفانِ بالسُّهُدِ
وكيف تطلبُ عدلاً والهوى حَكَمٌ وحكمُه قطُّ لَمْ يعدلْ على أحدِ
من لي بأغيدَ لا يرثي لذي شجنٍ وليسَ يعرفُ ما يلقاه ذو كمدِ
ما كنتُ من قبلِ إذعاني لسطوته إخالُ أنَّ الرشا يسطو على الأسدِ
إن جاد بالوعدِ لم تصدقْ مواعده فإن قنعتُ بزورِ الوعدِ لم يعدِ
شكوتُه عِلَّتي منهُ فقال ألا سرْ للطبيب فما برء الضنى بيدي
فقلتُ : إن شئتَ برئي أو شفا ألمي فبارتشافِ لماك الكوثريّ جُدِ
وإن بخلتَ فلي مولّى يجودُ على ضعفي ويبرىء ما أضنيتَ من جسدي

وخرج بعد هذا إلى مدح لسان الدين فأطال وأطاب ، وكيف لا وقد ملأ من إحسانه الوطاب ، رحم الله تعالى الجميع .

[٣٠ – من اليتيم إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين : كتبت إلى أبي عبد الله اليتيم [١] أسألُ منه ما أثبت في كتاب « التاج » من شعره ، فكتب إليَّ بهذه الأبيات :

أمّا الغرامُ فلَمْ أخْلِلْ بمذهبِه فلِمْ حرَمْتَ فؤادي نيلَ مطلبِه

١ هو محمد بن علي بن محمد العبدري ، وسينقل المقري ترجمته عن التاج فيما يلي، وبعضها مثبت أيضاً في الكتيبة : ٥٩ .

يا مُعرضاً عن فؤاد لم يزل كَلِفاً بحبّه ، ذا حذارٍ من تجنّبه
قطعتَ عنهُ الذي عوّدته فغدا وحظّه من رضاه برق خُلّبه
أيامَ وصلُكَ مبذولٌ ، وبرُّك بي مجدَّدٌ ، قد صفا لي عذبُ مشربه
وسمع ودِّكَ عن إفكِ العواذلِ في شغلٍ وبدرُ الدجى ناسٍ لمغربه
لا أنت تمنَعني نيلَ الرضى كرَماً ولا فؤادي بوانٍ في تطلّبه
لله عَرْفُكَ ما أذكى تنسّمَهُ لو كنتَ تمنحني استنشاقَ طيّبه
أنت الحبيبُ الذي لم أتخذ بدلاً منهُ وحاشا لقلْبي من تقلّبه
يا ابنَ الخطيب الذي قد فُقْتَ كلَّ سنا أزال عن ناظري إظلامَ غيهبه
محمد الحسن في خَلقٍ وفي خُلُقٍ أكملت باسمكَ معنى الحُسنِ فازْهَ به
حضرتَ[1] أو غبتَ ما لي عن هواكَ غنًى لا ينقصُ البدرُ حسناً في تغيّبه
سيّانِ حالُ التداني والبعادِ ، وهلْ لمبصرِ البدرِ نيلٌ في ترقبه ؟
يا من أُحسّنُ ظنّي في رضاه وما ينفكُّ يهدي قبيحاً من تغضّبه
إن كان ذنبي الهوى فالقلبُ منيَ لا يصغي لسمعِ ملامٍ منْ مؤنّبه

[٣١ – من لسان الدين إلى اليتيم]

فأجبته بهذه الرسالة ، وهي ظريفة في معناها : « يا سيدي الذي إذا رُفعت راية ثنائه تلقيتها باليَدَيْن [2] ، وإذا قُسمت سِهامُ وداده على ذوي اعتقاده كنت صاحبَ الفريضة [3] والدين ، دام بقاؤك لطُرْفة تُبْديها ، وغريبة تردفها بأخرى تليها ، وعَقيلة بيانٍ تجلّيها ، ونفس أخذ الحزن بكَظْمِها ، وكلف الدهر بِشت نظمها ، تؤنسها وتسليها ، لم أزل أشدُّ على بدائعك يَدَ الضنين ، وأقتني

---

١ ص : نأيت .
٢ فيه إشارة إلى قول الشماخ :
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابــة باليمين
٣ الفريضة : الإرث أو الحصة منه .

درر كلامِكَ ، ونفثات أقلامك ، اقتناء الدر الثمين ، والأيام بلقائك تَعِدُ ولا تُسْعد ، وفي هذه الأيام انثالت عليَّ سماؤك بعد قَحْط ، وتواترت لدي آلاؤك على شَحْط ، وزارتني من عقائل بيانك كلُّ فاتنة الطرف ، عاطرة العَرْف ، رافلة في حلل البيان والظرف ، لو ضربت بيوتّها بالحجاز ، لأقرت لها العربُ العاربة بالإعجاز ، ما شئت من رصف المبنى ، ومطاوعة اللّفظ لغرض المعنى ، وطيب الأسلوب ، والتشبث بالقلوب ، غير أن سيدي أفرط في التنزل ، وخلط المخاطبة بالتغزل ، وراجع الالتفات ، ورام استدراك ما فات ، ويرحم الله تعالى شاعر المعرة فلقد أجاد في قوله ، وأنكر مناجاة الشوق بعد انصرام حَوْله[1] :

أبَعْد حَوْلٍ تناجي الشوقَ ناجيةٌ هلاَّ ونحن على عشرٍ من العُشَرِ[2]

« ولقد تجاوزت في الأمد ، وأنسيت أخبار صاحبك عبد الصمد ، فأقسم بألِفاتِ القدود ، وهَمزات الجفون السود ، وحامل الأرواح مع الألواح ، بالغدوّ والرَّواح ، لولا بُعْدُ مَزارك ، ما أمنت غائلة ما تحت إزارك ، ثم إنّي حققت الغرض ، وبحثت عن المشكل الذي عَرَض ، فقلت : للخواطر[3] انتقال ، ولكل مقام مقال ، وتختلف الحوائج باختلاف الأوقات ، ثم رفع اللبسَ خبرُ الثقات » .

ومنها — « وتعرفت ما كان من مراجعة سيدي لحرفة التكتيب والتعليم ، والحنين إلى العهد القديم ، فسررت باستقامة حاله ، وفضل ماله ، وإن لاحظ

١ من قصيدته التي مطلعها :
يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعواناً على السهر
(شروح السقط : ١١٤) .
٢ الناجية : الناقة السريعة ؛ والعشر : شجر ، وأراد به هنا المكان الذي ينبت فيه .
٣ ق : للخاطر .

اللاحظ ، ما قال الجاحظ [1] ، فاعتراضٌ لا يردُ ، وقياس لا يَطّرِدُ ، حبّذا والله عيشُ التأديب ، فلا بالضَّنْك ولا بالجديب ، معاهدة الإحسان ، ومشاهدة الصور الحسان [2] . يميناً إن المعلمين ، لسادة المسلمين ، وإنّي لأنظر منهم كلّما خطرت على المكاتب ، أمَرَاء فوق المراتب ، من كل مسيطر الدرة ، متقطب الأسرَّة ، متنمر للوارد تنمر الهرة ، يغدو إلى مكتبه ، كالأمير في موكبه ، حتى إذا استقل في فرشِه [3] ، واستوى على عَرْشِه ، وترنم بتلاوة قالونه ووَرْشِه [4] ، أظهر للخلق احتقاراً ، وأزرى بالجبال وَقاراً ، ورفعت إليه الخصوم ، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم ، فتقول : كسرى في إيوانه ، والرشيد في أوَانه ، أو الحجاج بين أعوانه ، فإذا استولى على البدر السَّرَار ، وتبين للشهر الغرار ، تحرك إلى الخَرْج ، تحرك العُود إلى الفرج ، أستغفر الله ممّا يشقُّ على سيدي سماعُه ، وتشمئز من ذكره طباعه ، شيم اللسان ، خلط الإساءة بالإحسان ، والغفلة من صفات الإنسان ، فأي عيش كهذا العيش ؟ وكيف حال أمير هذا الجيش ؟ طاعة معروفة ، ووجوه إليه مَصْرُوفة ، فإن أشار بالإنصات ، لتحقق القصَّات ، فكأنّما طمس على الأفواه ، ولأم بين الشّفاه ، وإن أمر بالإفصاح ، وتلاوة الألواح ، علا الضجيج والعجيج ، وحف به كما حف بالبيت الحجيج ، وكم بين ذلك من رشوة تدس ، وغمزة لا تحس ، ووعد يستنجز ، وحاجة تستعجل وتحفز ، هنأ الله سيدي ما خوّله ، وأنساه بطيب أخراه أوّله ، وقد بعثت بدُعابتي هذه مع إجلال قدره ، والثقة بسعة صَدْره ، فليتلقها بيمينه ، ويفسح لها في المرتبة بينه وبين خدينه ، ويفرغ لمراجعتها وقتاً من أوقاته عملاً بمقتضى دينه ، وفضل يقينه ، والسلام » .

١ يومىء إلى أن الجاحظ قد ذم معلمي الصبيان ، ويداعب ابن اليتيم في عودته إلى هذه الحرفة .
٢ ومشاهدة . . . الحسان : سقطت من ق .
٣ ق : استقبل على فرشه .
٤ قالون وورش : مقرئان اختص كل منهما بقراءة من القراءات .

[ترجمة أبي عبد الله اليتيم]

ثمّ قال : ومن المداعبة التي وقعت إليها الإشارة ما كتب به إليه صديقه أبو علي ابن عبد السلام :

أبا عبدِ الإلَهِ نِــداءَ خِلٍ ... وفيٍّ جاء يمنحكَ النصيحه
إلى كم تألَفُ الشبانَ غيّاً ... وخذلاناً، أما تخشى الفضيحه ؟

فأجابه بقوله :

فديتك صاحبَ السِّمَةِ المليحه ... ومن طابتْ أرومته الصريحه
ومَنْ قَلْبي وضعتُ لَهُ محلاً ... فما عنهُ يحلُّ بأن أزيحه
نأيتَ فدمعُ عيني في انسكاب ... وأكبادي لفرقتكُم قريحه
وطرفي لا يُتاحُ لهُ رقادٌ ... وهــل نومٌ لأجفانٍ جريحه
وزاد تشوّقي أبياتُ شعرٍ ... أتت منكُم بألفاظٍ فصيحه[1]
ولم تقصدْ بها جدّاً ، ولكن ... قصدتَ بهــا مداعبة وقيحه
فقلت : أتألَفُ الشبانَ غيّاً ... وخذلاناً ، أما تخشى الفضيحه ؟
ففيهم حرفتي وقوامُ عيْشي ... وأحوالي بخلطتهمْ نجيحه
وأمري فيهِمُ أمرٌ مُطاعٌ ... وأوجُهُهم مصابيحٌ صبيحه
وتعــلم أنّني رجلٌ حصُور ... وتعرفُ ذاكَ معرفةً صحيحه

ثمّ قال لسان الدين — بعد إيراده ما مر — ما صورته : ولمّا اشتهر المشيب بعارضه ولمّته ، وخفر الدهر بعهود صِباه وأذِمّته ، أقلع واسترجع ، وتألّم لما فرط وتوجّع ، وهو الآن من جلّة[2] الخطباء طاهر العِرْض والثوب ، خالص

١ سقط هذان البيتان من ق .
٢ ق : جملة .

من الشَّوْب ، بادٍ عليه قبول قابل التوب ، وتوفّي في أخريات صفر سنة خمسين وسبعمائة في الطاعون ، رحمه الله تعالى وغفر له ؛ انتهى .

واليتيم المذكور هو أبو عبد الله محمد بن علي العبدري المالقي ، وفي حقّه يقول لسان الدين في «التاج» ما مثاله : هو مجموع أدوات حسان ، من خط ونغمة [1] لسان ، أخلاقه رَوْض تتضوّع نسماته ، وبشره صبح تتألق قَسَماته ، ولا تخفى سِماته ، يُقَرْطِس أغراض الدعابة ويُصْمِيها ، ويفوّق سهام الفكاهة إلى مَرَاميها ، فكلّما صدرَتْ في عصره قصيدة هازلة ، أو أبيات منحطة عن الإجادة نازلة ، خَمّس أبياتها وذيّلها ، وصرّف معانيها وسيّلها ، وتركها سَمَرَ الندمان ، وأضحوكة الأزمان ، وهو الآن خطيبُ المسجد الأعلى بمالَقَة ، متحلّ بوقار وسكينة ، حالّ من أهلها بمكانة مَكينة ، لسهولة جانبه ، واتضاح مقاصده في الخير ومَذاهبه ، واشتغل لأوّل أمره بالتكتيب ، وبلغ الغاية في التعليم والترتيب ، والشباب لم ينصل خضابُه ، ولا سُلّت للمشيب عِضابه ، ونفسه بالمحاسن كَلِفة صَبّة ، وشأنه كلّه هوى ومَحَبّة ، ولذلك ما خاطبه بعضُ أودائه ، وكلاهما رمى أخاه بدائه ، حسبما يأتي خلال هذا المقول وفي أثنائه ؛ انتهى .

وذكر نحو ما تقدّم ذكره ، سامح الله الجميع بفضله .

[٣٢ – مخاطبة الكرسوطي للسان الدين]

وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي الفاسي [2] نزيل مالقة ما صورته : وأنشدني وأنا بمالقة أحاول لَوْثَ العمامة ، وأستعين بالغير على الإحكام لها :

١ ق : من حفظ ونعمة .

٢ ترجمة الكرسوطي في الإحاطة ، الورقة : ٥٠ وفيه البيتان .

أمعمّماً قمراً تكاملَ حُسْنُهُ أربى على الشمسِ المنيرة في البَها
لا تلتمسْ ممّن لديك زيادةً فالبدرُ لا يمتارُ من نور السُّها

[ترجمة ابي عبد الله الكرسوطي]

قال لسان الدين : وهو فقيه محدث متكلم ، ألف كتباً منها « الغُرر في تكميل الطُّرر » طُرر أبي إبراهيم الأعرج ، ثم كتاب « الدرر في اختصار الطُّرر » المذكور ، وتقييدان على الرسالة كبير وصغير ، ولخص « التهذيب » لابن بشير ، وحذف أسانيد المصنّفات الثلاثة ، والتزم إسقاط التكرار ، واستدرك الصحاح الواقعة في الترمذي على البخاري ومسلم ، وقيد على مختصر الطليطلي ، وشرع في تقييدٍ على قواعد الإمام أبي الفضل عياض بن موسى برسم ولدي ، ويصدر منه الشعر مصدراً لا تكنفه منه العناية ، وكانت لهُ اليد الطولى في عبارة الرؤيا ، ومولده بفاس عام تسعين وستمائة ؛ انتهى ملخصاً .

[٣٣ - مخاطبة ابن الزبير للسان الدين]

وقال في ترجمة أبي عمرو ابن الزبير ما صورته : وممّا خاطبني به عند إيابي من العُدْوَة في غرض الرسالة قوله :

نوالي الشكرَ للرحمن فرضاً على نِعَمٍ كَسَتْ طولاً وعرضا
وكم لله من لطفٍ خفيٍّ لنا منه الذي قد شا وأمضى
بمقدمك السعيدِ أتت سعودٌ ننال بها نعيمَ الدهرِ محضا
فيا بشرى لأندلس بما قد به والاك بارينا وأرضى
ويا لله من سفرٍ سعيد قَدَ اقرضك المهيمنُ فيه قرضا
ورحتَ بنيّةٍ أخلصتَ فيها فأُبتَ بكلّ ما يبغى ويرضى
وثُبْتَ لنصرة الإسلام لمّا علمت بأنَّ الأمر إليك أفضى

لقد أحييتَ بالتقوى رُسُوماً كما أرضيتَ بالتمهيد أرضا
وقمتَ بسنَّةِ المختارِ فينا تُـمَـهِّدُ سنّةً وتقيمُ فرضا
ورضت من العلوم الصَّعْبَ حتّى جنيتَ ثمارها رَطْباً وغَضّاً
فرأيك راجحٌ فيما تـراهُ وعزمك من مواضي الهند أمضى
تدبِّر أمـرَ مولانا فيلقى الـ ـمسيء لديكَ إشفاقاً وإغضا
فأعقبنا شـفاء وانبساطـاً وقد كانت قلوبُ الناس مرضى
ومن أضحى على ظمإٍ وأمسى يَرِدْ إن شاء من نعماك حوضا
أبا عبد الإله إليك أشكو زماني حين زاد الفقرُ عضّاً
ومن نُعْماك أستجدي لباساً تُفيضُ به عليَّ الجاهَ فيضا
بقيتَ مؤمَّلاً تُرجى وتُخشى ومثلك من إذا ما جاد أرضى

[ترجمة أبي عمرو ابن الزبير]

وأبو عمرو المذكور هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، أبوه الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير أستاذ الزمان شيخ أبي حيان وغيره ، وقال في « الإحاطة » في حقّه : إنّه فكه حسن الحديث ، ركَضَ طرْفَ الشبيبة في ميدان الراحــة منكبّاً عن سنن أبيه وقومه ، مع شفوف إدراك ، وجودة حفظ ، كانا يُطمعان والده في نجابته ، فلم يعدم قادحاً ، شرَّقَ فنال حظوة ، وجرت عليه خطوب ، ثمّ عاد إلى الأندلس ، فتطور بها ، وهو الآن قد نال منه الكبر يزجي لوقته[1] بمالقة متعلّلاً برمَق من بعض الخدم المخزنيّة[2] ، استجاز له والده الطم والرم من أهل المغرب والمشرق ، وبضاعته في الشعر مزْجاة ، ثم قال : مات تاسع المحرم عام خمسة وستين وسبعمائة ؛ انتهى .

---

١ ق : الوقت .
٢ المخزنية : نسبة إلى المخزن وهو الدولة .

[ترجمة أبي يحيى الأكحل]

وقال في ترجمة أبي يحيى محمد بن أحمد بن محمد بن الأكحل ما صورته : شيخ هيدوريّ[1] الذقن ، خدوع الظاهر ، خلوب اللّفظ ، شديد الهوى إلى الصوفية ، والكلف بإطراء أهل الخير ، من بيت صَوْن وحشمة ، متقدم في معرفة الأمور العلمية ، خائض في غمار التصوّف ، وانتحال كيمياء السعادة ، راكب متن دعوى عريضة في مقام التوحيد ، تكذبها أحواله الراهنة ، لمعاصاة خلقه على الرياضة ، واستيلاء الشرَه ، وغلبة سلطان الشهوة ، والمشاحة أيام الولاية ، والسباب[2] الشاهد بالشدة ، والحلف المتصل بياضَ اليوم في ثمن الخردلة باليمين التي فيها فساد الأنكحة ، والغضب الذي يقلب العين .

[٣٤ ــ مخاطبة الأكحل للسان الدين]

خاطبني بين يدي نكبته ولم أكن أظن الشعر ممّا تلوكه جَحْفَلته[3] ، ولكنه من أهل الكفاية :

رجوتكَ بَعْدَ اللهِ يا خيرَ مُنجدِ ... وأكرمَ مأمولٍ وأعظمَ مُرْفدِ
وأفضلَ مَنْ أمّلْتُ للحادثِ الذي ... فقدتُ به صبري وما ملَكت يدي
وحاشا وكلاّ أن يخيبَ مؤمّلي ... وقد علقَتْ بابن الخطيب محمدِ
وما أنا إلاّ عبـدُ نعمته التي ... عهدتُ بها يُمْني وإنجاحَ مقصدي
وأشرفُ من حَضّ الملوك على التّقى ... وأبدى لهم رشداً نصيحَةَ[4] مرشدِ

١ ق : هيدري ؛ ولعلها هدوري من قولهم هدر النبت إذا كثر وطال .
٢ ص : والسيد ولعلها محرفة عن « والسب » .
٣ الجحفلة للدابة بمنزلة الشفة للإنسان .
٤ ق : رشد النصيحة .

وساس الرعايا الآن خيرَ سياسةٍ مباركةٍ في كــلّ غيب ومشهدِ
وأعرض عن دنياه زهــداً وإنها لمظهـرةٌ طوعاً لهُ عن تودّدِ
وما هو إلاّ الليثُ والغيثُ إن أتى لهُ خائفٌ أو جاء مَغناه مجتدي
وبحــرُ علومٍ درُّه كلِماتُه إذا رُدِّدتْ في الحفلِ أيَّ تردّدِ
صقيلُ مرائي الفكرِ ربُّ لطائفٍ محاسنها تُجْلَى بحسنِ تعبُّدِ
بديعُ عروج النفس للملإ الذي تجلَّت لهُ الأسرار في كل مصعدِ
شفيقٌ رفيق دائم الحلم راحمٌ ورأيٌ جميلٌ للجميل معــوّدِ
صفوحٌ عن الجاني على حين قدرةٍ مواصِلُ تقوى الله في اليومِ والغدِ
أيا سيدي يا عمدتي عنــد شدتي ويا مشربي مهما ظمئتُ وموردي
حنانيك والطُفْ بي وكن ليَ راحماً ورفقاً على شيخٍ ضعيفٍ منكَّدِ
رجاك رجاء للذي أنت أهلُه ووافاك يهــدي للثناء المجدّدِ
وأمّكَ مضطرّاً لرحماك شاكياً بحالٍ كحرّ الشمسِ حرَّ توقّدِ
وعندي افتقارٌ لا يزالُ مواصَلاً لأكرم مولى حاز أجراً وسيّدِ
ترفّقْ بأولاد صغــار بكاؤهم يزيدُ لوقــع الحادثِ المتزيدِ
وليس لهم إلاّ إليك تَطَلّعٌ إذا مَسَّهم ضُرٌّ أليمُ التعهُّدِ
أنلهمْ أيا مولايَ نظرةَ مشفقٍ وجُدْ بالرضى وانظرْ لشملٍ مبدَّدِ
وعامِلْ أخا الكربِ الشديدِ برحمة وأسعفْ بغفرانِ الذنوب وأسعِدِ
ولا تنظرنْ إلاّ لفضلك ، لا إلى جريمة شيخ عن محلّك مبعَدِ
وإن كنتُ قد أذنبتُ إنّيَ تائبٌ فعوّد ليَ الفعلَ الجميلَ وجدِّدِ[1]
بقيتَ بخــيرٍ لا يزال وعزةٍ وعيشٍ هنيء كيف شئت وأسعدِ
وسَخّرك الرحمن للعبــد ؛ إنّه لمثنٍ وداعٍ للمحلّ الممجّدِ

ثم قال : وهو الآن من مسطري الأعمال على تهوّر واقتحام كبرةٍ[2] ، من

١ سقط البيت من ص .
٢ ق : كبيرة .

خط لا غاية وراءه في الركاكة ، كما قال المعري[1] :

تمشت[2] فوقَهُ حُمرُ المَنايا ولكن بعدما مُسِخَتْ نمالا[3]

[٣٥ – مخاطبة ابن عياش للسان الدين]

وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن عياش بن مشرف الأمي : إنّه من أهل الأصالة والحسب ، ظهرت منه على حداثة السن أبيات ، ونُسب إليه شعر توسّل به ، وتصرف في الإشراف ، فحمدت سيرته ، وكتب إلي بقوله :

سَفَرَتْ شموسُ اليُمنِ والإقبالِ وبدت بدورُ السعدِ ذات كمالِ
لقُدومِ سيدنا الوزيرِ محمدٍ أعززْ بهِ من سيدٍ مفضالِ
قمرٌ تجلّى بَينَ زُهْرٍ تجتلي يهدي لفعلِ الخير لا الإضلالِ
سر آمناً لا تكترثْ ، فلأنت في حفظِ الإلهِ الواحدِ المتعالي
برّاً وبحراً لا تخافُ مُلمّةً وعدوّ ذاتك خلفَ ظهرك صالي
لا يَسْتقرُّ لهُ قرارٌ بعدكم ممّا يحلُّ به من الأوجالِ
والآن ترجعُ سالماً ومبشّراً ببلوغ كلّ مسرّة ومنالِ

وهي طويلة ، نَمَطُها متخلف عن الإجادة ، وهي من مثله ممّا يُستظرف ؛ انتهى .

[٣٦ – مخاطبة أبي عبد الله الوادي آشي للسان الدين]

وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد العراقي الوادي آشي : فاضل

١ شروح السقط : ١٠٤ .
٢ السقط : ودبت .
٣ البيت في وصف السيف ؛ أي أن إفرنده وكأنما دبت فوقه النمل .

الأبوة ، بادي الاستقامة ، حسن الأخلاق ، تولّى أعمالاً ، كتب إلي وقد أبى عملاً عُرض عليه بقوله :

أأصْمتُ ألفاً ثمَّ أنطقُ بالخلفِ وأفقدُ إلفاً ثم آنسُ بالجلفِ
وأمسكُ دهري ثم أفطرُ علقماً ويُمْحَقُ بدري ثم ألحقُ بالخسفِ
وعزكمُ لا كنتُ بالذل عاملاً ولو أنَّ ضعفي ينتهي بي إلى الحتفِ
فإن تُعملوني في تصرفِ عزةٍ وعدلٍ وإلاّ فاحسموا علةَ الصرفِ
بقيتم وسُحْبُ العفو منكم تُظلِّني وحظٌّ ثنائي دائماً ثانيَ العِطفِ

[٣٧ ــ مخاطبة أبي محمد الأزدي للسان الدين]

وقال في ترجمة أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي ما صورته : وخاطبني لما وليت خطّة الإنشاء وغيرها في أواخر عام تسعة وأربعين وسبعمائة بما نصّه :

حُشاشَةُ نَفْسٍ أعلنَتْ لمذيبِها بتذكارِ أيامِ الوصال وطيبها
ونادته رحمى أحيِها نفسَ مدنفٍ تموتُ إذا لم تحيِها بوجيبها
فداوِ بقربٍ منكَ لاعجَ وجدها وفيضَ أماقيها ، وطولَ نحيبها
وقد بلغت حدّاً به صحَّ في الهوى وأحكامِهِ ثوبُ الضنى في نَصيبها
وهل يتداوى داءُ نفس تعيسة إذا كان يوماً داؤها من طبيبها
لعلَّ أُوارَ الوجدِ تخمدُ نارُهُ فيبردَ عنها ما بها من لهيبها
إليك حَداها الشّوقُ يا بَدرها الذي يَعزُّ عليها منهُ طولُ مَغيبها
سلكتَ بها سبل الهوى فهي تبتغي لقاك وتبغي غفلةً من رقيبها
أجبها بإبقاء عليها فإنّها ستفنى إذا ما لم تكنْ بمجيبها
ومِلْ نحوها بالودّ فهي قَدَ اَذعنت كما تذعنُ الأقلامُ لابن خطيبها
وحيد الزّمانِ الماهر الباهر الحلى وجهبذ آدابِ العُلا وأديبها
إمامُ معاليها ، وبحرُ علومها وبدرُ دياجيها ، وصدرُ شعوبها

مُصَرِّفُها كيفَ انثنت ومعيدها ... ومبدئها حيثُ انتهَتْ ومصيبها
ورافعُ أعلامِ البلاغةِ والذي ... أتى ناثراً أو ناظماً بعجيبها
وحاملُ راياتِ الرياسةِ رفعةً ... قضى المجدُ تخصيصاً لهُ بوجوبها
من الغُرِّ ممّن أوجبَتْ لشبابها ... معاليهمُ الفضلَ العظيمَ وشيبِها
مِنَ ابناء أرباب المَنابرِ والأُلى ... سما فخرهُم بينَ الورى بركوبها
خلالُ ابن عبد الله طود الحجى أبي ... محمد بادٍ حسنُها من ضروبها
أجاد وأجدى فاسْلُ عن ذكر طيّء ... وحاتمها زَهْواً بهِ وحبيبها
ففي كلّ ما يبدي محمدُ عبرةٌ ... محاسنها تنبي بسرّ غُيوبها
تجيبُ القوافي إن دعا ببعيدها ... وتنقادُ طوعاً إن دعا بقريبها
تخيَّر أخلاقَ الكرام فلم يكُن ... نهًى ولُهًى يَرْضَى بغيرِ رحيبها
تقدّم في دارِ الخلافة حاجباً ... لينجدَها في سلمها وحروبها
وقام لها في ساحةِ العزّ كاتباً ... بمحضرها أسرارها ومَغيبها
فأبدى مِنَ انواعِ الفضائلِ أوْجُهاً ... تقرُّ لها بالحسنِ عينُ لبيبها
هنيئاً بهِ يمناً بأسعدِ ماثلٍ ... لغرناطةٍ قاضٍ بصرفِ خطوبها
فللسعدِ تأثيرٌ يجيء إذا جرى ... به قَدَرٌ كالريحِ عندَ هبوبها
أموقدَ نار الفكرِ يقدحُ زندها ... فيسبي به الألبابَ سحرُ نسيبها
حدَاني إليك الحبُّ قِدْماً ومال بي ... حديثٌ لآمال خلَتْ عن غريبها
فقدَّمتها نظماً قوافيَ قصرت ... لديكَ بذاوي فكرتي ورطيبها
وكنتُ كمن وافى لدى الدار بالحصى ... يرفّع منها ساهياً عن عيوبها
فصلها وخذْ بالعفوِ فيها فلم أصِلْ ... لأبلغَ منها فاغتفرْ من ذنوبها

[قطع من شعر الأزدي]

وصاحب هذا النظم من أهل بلش ، وله اقتدار على النظم والنثر ، قال في

« الإحاطة » ما محصَّله : وممّا وقع له أثناء مقامات وأغراض تشهد باقتداره مهملاً :

رعى الله عهداً حوى ما حوى ... لأهلِ الودادِ وأهلِ الهوى
أراهمْ أموراً حَلا وِرْدها ... وأعطاهُمُ السؤلَ كلاًّ سوا
ولمّا حلا الوصلُ صالوا له ... وراموه مأوى ومـاءً رِوًا
وأوردهـم سرَّ أسرارهِم ... وردَّ إلى كـلِّ داء دوا
وما أمَلٌ طـال إلاّ وهى ... وما آملٌ صال إلاّ هوى

وقال معجمة :

بثُّ بَيْني يَبثّني فيض جَفني ... شَغَفي شَفَّني فَشِبْتُ بِبَيْتي
فَتَنَتْني بغُنجٍ ظبيٍ تجنّى ... تَبْتَغي نَقْضَ نيّتي بتَجنّي
بزّةٌ زينَتْ قَضيبَ تَثَنّي ... قُضِيَتْ بُغْيَتي ففزتُ بفَنٍّ
خفتُ تَشتيتَ بنيّي فَجَفَتْني ... ثقةً تَنْثني فَخيُّبَ ظنّي

وقال كلمة وكلمة :

الهوى شفّني وأهملَ جفني ... أدمعاً تنثني دَماً بتَثَنّي
أحْورٌ شَبَّ حرَّ بثّيَ لمّا ... نقضَ العهدَ بينَ طول تجني
حاكمٌ يُتّقَى ولا ذنبَ إلاّ ... شغفٌ لمْ يَخِبْ لمسعاه ظني
ما له ينقضُ العهودَ فيشجي ... ولها ينثني مُسَهَّدَ جفنِ
لم يجزْ وصله فبتُّ محالاً ... يقتضي حلَّ بغيتي كلُّ فنِّ

وقال يرثي ديكاً فَقَدَه ، ويصف الوجد الذي وَجَدَه ، ويبكي عدم أذانه، إلى غير ذلك من مستظرف شانه :

أودى به الحتفُ لمّا جاءه الأجلُ ... ديكاً فلا عِوَضٌ منه ولا بَدَلُ

قد كان لي أملٌ في أن يعيشَ فلم ... يثبتْ مع الحتفِ في بُقْياه لي أملُ
فقدته فلعمري إنهــا عظةٌ ... وبالمواعظِ تُذْرِي دمعَها المُقَلُ
ما كانَ أبدعَ مرآهُ ومنظرَهُ ... وَصْفاً به كلَّ حين يُضربُ المثلُ
كأنَّ مُطْرَفَ وشيٍ فوقَ ملبسه ... عليه من كلِّ حُسنٍ باهرٍ حُلَلُ
كأنَّ إكليلَ كسرى فوق مفرقه ... وتاجه فهو عالي الشكل محتفلُ
مُوَقّت لم يكنْ يُعزى لهُ خطأ ... فيما يرتّبُ من ورد ولا خَلَلُ
كأنَّ زرقال[1] فيما مرَّ علّمه ... علمَ المواقيتِ ممّا رتّب الأُولُ
يرحّلُ الليل ، يحيي بالصراخ فما ... يصده كَلَلٌ عنه ولا مَلَلُ
رأيته قد وَهَتْ منه القُوَى فهوى ... للأرضِ فعلاً يريه الشاربُ الثّملُ
لو يُفتدى بديوكِ الأرضِ قلَّ له ... ذاك الفداءُ ولكن فاجأ الأجلُ
قالوا الدواء فلم يغنِ الدواء ولم ... ينفعه من ذاكَ ما قالوا وما فعلوا
أمّلْتُ فيه ثواباً أجرَ محتسبٍ ... إن نلتُ ذلك صحَّ القولُ والعملُ

وأمره السلطان أبو عبد الله سادس الملوك النّصْريين ، وقد نظر إلى شلير وقد تردى بالثلج وتعمم ، وكمل ما أراد من بزته وتمم ، أن ينظم في وصفه ، فقال بديهاً :

وشيخ جَليل القَدر قد طال عمرُهُ ... وما عنده علمٌ بطولٍ ولا قِصَرْ
عليه لباسٌ أبيضٌ باهرُ السَّنا ... وليس بثوبٍ أحكمتْهُ يدُ البَشَرْ
فطَوراً تراهُ كلّه كاسياً به ... وكسوته فيها لأهلِ النُّهى عبرْ
وطوراً تراهُ عارياً ليسَ يكتسي ... بحرّ ولا بردٍ من الشمسِ والقمرْ
وكم مرَّتِ الأيامُ وهو كما ترى ... على حاله لم يشكُ ضعفاً ولا كبرْ
وذاك شليرٌ شيخُ غرناطةَ التي ... لبهجتها في الأرضِ ذكرٌ قد اشتهرْ

[1] يريد إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقال وقد وضع صحيفة في الرصد اسمها الزرقلة (أو الزرقالة) .

بها ملكٌ سامي المراقي ، أطاعهُ كبارُ ملوكِ الأرضِ في حالةِ الصِّغرْ
تولاّه ربُّ العرشِ منهُ بعصمةٍ تقيهِ مَدَى الأيام من كلِّ ما ضررْ

وتوفّي المذكور في بلده بلش في طاعون عام خمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

[٣٨ – من لسان الدين إلى ابن رضوان]

وقال في « الإحاطة » في ترجمة صاحب القلم الأعلى بالمغرب أبي القاسم ابن رضوان النجاري [١] ما صورته : ولما ولي الإنشاء بباب ملك المغرب ظهر لسلطاننا بعض قصور في المراجعات ، فكتبت إليه [٢] :

أبا قاسم [٣] لا زلتَ للفضلِ قاسماً بميزان عدلٍ ينصرُ الحقَّ من نَصَرْ
مدادك وهوَ المسك طيباً ومنظراً وإلاّ سوادُ القلبِ والفَوْد والبصرْ
عهدناه في كلِّ المعارف مطنباً فما بالهُ في حُرْمة الود مختصرْ
أظنّكَ من ليلِ الوصالِ انتخبته إلينا ، وذاك الليلُ يوصَفُ بالقِصَرْ
أردنا بكَ العذرَ الذي أنتَ أهلهُ ومثلك لا يُرْمَى بعيٍّ ولا حَصَرْ

[٣٩ – جواب ابن رضوان]

فراجعني ، ولا أدري أهي من نظمه أم نظم غيره :

١ هو صاحب كتاب « الشهب اللامعة في السياسة النافعة » وترجمته في الإحاطة ، الورقة : ٢٤٤ والكتيبة : ٢٥٤ ونيل الابتهاج ١٢٣ والتعريف ٤١ (و ض : ٢٠) وفهرسة السراج (ك : ١٢٤٢ د : ٢٦٤٣) الورقة : ١٣٩ ، ١٤٨ ومستودع العلامة : ٥٢ ونثير الجمان ، الورقة : ٦٥ (نسخة دار الكتب) وجلوة الاقتباس : ٢٤٧ وقد كتبنا عنه دراسة مفصلة (نشرت في كتاب العيد الصادر ببيروت سنة ١٩٦٧) .
٢ الأبيات وجوابها في الكتيبة : ٢٥٦ .
٣ كناه في الإحاطة بأبي محمد .

حقيقٌ أبا عبد الإلهِ بكَ الذي لمذهبهِ في البرّ يتضحُ الأثَرْ
وإنّ الذي نبّهتَ منيَ لم يكُنْ نؤوماً وحاشا الودّ أن أغمط الأثَرْ
ورُبَّ اختصارٍ لم يَشِنْ نظمَ ناظم وربّ اقتصار لم يعبْ نثرَ من نثرْ
وعذرك عنّي من محاسنك التي نظامُ حلاها في المدائح ما انتثرْ
ومن عرفَ الوصفَ المناسبَ منصفاً تأتّى له نهجٌ من العذرِ ما دثرْ

[ترجمة ابن رضوان]

وهو عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان النجاري ، من أهل مالقة ، صاحب العلامة العلية والقلم الأعلى بالمغرب ، قرأ على جماعة منهم بتونس قاضي الجماعة ابن عبد السلام ، قال في « التاج » فيه أيامَ لم يفهق حوضه ، ولا أزهر روضه ، ما نصّه : أديب أحسن ما شاء ، ومتح قليبه فملأ الدلو وبَلّ الرشاء ، وعانى على حداثته الشعر والإنشاء ، وله ببلده بيت معمور بفضل وأمانة ، ومجد وديانة ، ونشأ هذا الفاضل على أتم العفاف والصَّوْن ، فما مال إلى فساد بعد الكون ، وله خط بارع ، وفهم إلى الغوامض مسارع ، وقد أثبتُّ من كلامه ، ونَفَثات أقلامه ، كلّ محكم العقود ، زارٍ بابنة العُنْقُود ، فمن ذلك قوله [1] :

لعلّكما أن ترعيا لي وسائلا فبالله عُوجا بالركابِ وسائلا

ومنها :

لقد جار دهري إذ نأى بمطالبي وظلّ بما أبغي من القرب ماطلا
عتبتُ عليه فاغتدى ليَ عاتباً وقال : أصخْ لي لا تكن قطُّ عاذِلا
أتعتبني أن قد أفدتك موقفاً لدى أعظم الأملاك حلماً ونائلا

١ القصيدة في الإحاطة : ٢٤٦ – ٢٤٨ .

مليكٌ حَباه الله بالخُلقِ الرضى — وأعلى له في المكرماتِ المنازلا

وهي طويلة .

ومن نظم ابن رضوان المذكور[1] :

تبرَّأتُ من حَوْلي إليك وأيقنَتْ — برحماكَ آمالي أصحَّ يقينِ
فلا أرهبُ الأيامَ إذ كنتَ ملجأ — وحسبي يقيني باليقين يقيني

وكلفه أبو عنان وصف صيد من غدير فقال من أبيات[2] :

ولربَّ يومٍ في حِماكَ شهدته — والسَّرْح ناشرةٌ عليك ظلالها
حيثُ الغديرُ يريك من صفحاته — درعاً تجيدُ بهِ الرياحُ صِقالها
والمنشآتُ بهِ تديرُ حبائلاً — للصيد في حِيَلٍ تديرُ حبالها
وتُريكَ إذ يلقي بها اليمُّ الذي — أخفتْ جوانحه وغاب خلالها
فحسبتها زَرَداً وأنَّ[3] عواليا — تركَتْ بهِ عند الطعانِ نصالها

وقال فيه أيضاً :

أبصرتُ في يومِ الغَديرِ عَجائباً — جاءت بآيات العجائب مُبْصِرَهْ
سمكاً لدى شَبَكٍ فقل ليلٌ بدت — فيهِ الزواهرُ للنَّواظرِ نيّره
فكأنَّ ذا[4] زَرَدٌ تضاعفَ نسجه — وكأنَّ تلك أسِنَّةٌ متكسره

وممّا نظمه عن أمر الخلافة المستعينية ليُكتب في طُرَّة قبة رياض الغزلان

---

١ الإحاطة : ٢٥٠ والكتيبة : ٢٥٩ .
٢ الكتيبة : ٢٥٧ .
٣ ق ص : لو أن .
٤ ق : فكأنه .

من حضرته[1] :

هذا محلُّ المُنى بالأمْنِ مَعْمورُ ... مَنْ حلّه فهو بالآمالِ محبورُ
مأوى النعيم به ما شئت من تَرَف ... تَهْوَى محاسنَهُ الولدانُ والحور
ويطلع الروضُ منهُ مصنعاً عجباً ... يضاحكُ النَّورَ من لألائهِ النُّور
ويسطعُ الزهرُ من أرجائهِ أرجاً ... ينافحُ الندَّ نشرٌ منـــه منشور
مَغْنى السرور سقاه الله ما حملَتْ ... غرُّ الغمامِ وحلّتْهُ الأزاهير
انظر إلى الروضِ تنظرْ كلَّ معجبةٍ ... ممّا ارتضاه لرأي العينِ تحبير
مرَّ النسيم به يبغي القِرَى فقَرى ... دراهمَ النـــورِ تبديدٌ وتنثير
وهامتِ الشمسُ في حسنِ الظلالِ به ... فَفَرَّقَتْ فوقَها منـــهُ دنانير
والدوحُ ناعمـــةٌ تهتز من طرب ... همساً ، وصوتُ غناء الطيرِ مجهور
كأنّما الطيرُ في أفنائها صَدَحَتْ ... بشكرِ مالكها ، والفضلُ مشكور
والنهرُ شقَّ بساطَ الروضِ تحسبه ... سيفاً ولكنهُ في السلم مشهور
ينسابُ للُّجّة الخضراء أزرقُهُ ... كالأيمِ جدَّ انسياباً وهو مذعور
هذي مصانعُ مولانا التي جمعتْ ... شملَ السرور ، وأمرُ السعدِ مأمور
وهذه القبة الغــرَّاء ما نظرت ... لشكلها العَيْنُ إلاّ عــزَّ تنظير
ولا يصوّرها في الفهم ذو فِكَرٍ ... إلا ومنهُ لكلّ الحسنِ تصوير
ولا يرام بحَصْرٍ وصفُ ما جمعتْ ... من المحاسن إلاّ صَدَّ تقصير
فيها المقاصيرُ تحميها مهابته ... لله ما جمعتْ تلك المقاصـــير
كأنّها الأفقُ تبـــدو النيراتُ به ... ويستقيمُ بها في السعد تسيير
وينشأ المزنُ في أرجائهِ ولَهُ ... من عنبرِ الشّحرِ إنْشاءٌ وتَسْخير
وينهمي القَطْرُ منه وهو منسكبٌ ... ماءٌ من الورد يذكو منهُ تقطير

[1] القصيدة في الاستقصا ٤ : ٤٠ .

وتخفق الريحُ منهُ وهي ناسمةٌ ... ممّا أهبَّ به مسكٌ وكافور
ويشرق الصبحُ منه وهو من غُررٍ ... غُرٍّ تــلألأ منهــنَّ الأسارير
وتطلعُ الشمسُ فيه من سَنا ملكٍ ... تبسَّم الدهرُ منهُ وهو مسرور
لله منهُ إمامٌ عادلٌ بهــرتْ ... أوصافُهُ فهي للأمداحِ تحبير
غيثُ السماح وليثُ البأس فالتَّقِ به ... محيي الهُدى وهو للعادين تتْبير
قُلْ للمُباري وإن لم تلقَه أبداً ... وربَّ فرضٍ محالٌ وهو تقدير
فخر الأنام أحـلَّ الفخرَ منزله ... فكلُّ مدحٍ على علياه مقصور
إذا أبو سالم مولى الملوك بَدا ... بدراً تضيء بمــرآه الدياجير
فأيّ خطب يخافُ الدهرَ آملُه ... وأيّ سؤلٍ له في النيل تعذير
بشراك بشراك يا نجلَ الخلافة ما ... خوّلت من نيلها والضدُّ مقهور
لك الخلودُ بعزّ الملكِ في نعمٍ ... لا يعتري صَفْوَها في الدهرِ تكدير
فانعم هنيئاً بلذّاتٍ مواصلةً ... لا يأتليهنَّ إلمامٌ وتكرير
لا زلتَ تلقى المُنى في غبطةٍ أبداً ... مــا دام لله تهليــلٌ وتكبير

وقال وكتب به على قلم فضة :

إذا شهدتْ بالنصر خطّيّة القَنا ... فملَّكتَ أمرَ الفتحِ من دون ما شرْطِ
كفى شاهداً مني بفضلك ناطقاً ... لسانيَ مهما أفصحتْ ألسنُ الخطّي

وقال وكتب به على سكين :

أروحُ بأمــر المستعينِ وأغتدي ... لإذهابِ طغيانِ اليراعِ الرواقمِ
ويفعل في الأقلامِ حدّيَ مصلحاً ... كفعل ظُبى أسيافِهِ في الأقالمِ

قال : وممّا كتب به على قصيدة عيدية :

لمّا رأيتُ هدايا العيدِ أعظَمُها ... هديّةُ الطيِّب في حُسنٍ وتعجيبِ

ولم أجدْ في ضروبِ العاطراتِ شذا ... يحكي ثناءك في نَشْرٍ وفي طيبِ
أهديتُ نحوكَ منهُ كلَّ ذي أرجٍ ... أنفاسهُ بينَ تشريقٍ وتغريبِ
وفي القبولِ منالُ السعدِ فالْقَ به ... تلقَ الأماني بتأهيلٍ وترحيبِ

وقال في رجل يلقب بالبعير :

وذي لقب عَنّتْ لهُ عندَ صحبه ... مآربُ لم يُسْعِدْ عليهنَّ مسعدُ
دَعَوْهُ بَعيراً فاستشاطَ فقالَ مَهْ ... أبا أحمد ، وارتدَّ عنهم يهدهدُ
فقلتُ لهُ عُدْ نحوهم لتَعُودَ من ... مرامك بالمطلوبِ توفى وتحمدُ
فقال وقد غصَّ الفَضاءُ بصوته ... وقد هَدَرَتْ منهُ الشقاشقُ تزبدُ
لئن عدتُ نادوني بَعيراً كمثلها ... فقلتُ لهُ لا تخشَ فالعَودُ[1] أحمدُ

وقال[2] :

وبخيلٍ لمَّا دعوه لسُكْنَى ... منزلٍ بالجنانِ ضَنَّ بذلك
قال لي مخزنٌ بداريَ فيه ... كلٌّ مالي فلستُ للدّار تارك
قلتُ وُفّقْتَ للصوابِ فحاذرْ ... قولَ خلٍّ مرغّبٍ في انتقالك
لا تعرِّجْ على الجنان بسُكْنى ... ولتكنْ ساكناً بمخزنِ مالك[3]

وقال رحمه الله تعالى في مركب :

يا ربَّ منشأة عجبتُ لشأنها ... وقد احتوتْ في البحرِ أعجبَ شانِ
سكنتْ بجنبيها عصابةُ شدة ... حلّتْ محلَّ الروح في الجثمانِ
فتحرّكتْ بإرادة مَعْ أنها ... في جنسها ليسَتْ من الحيوانِ

١ يوري بكلمة « العود » وهو البعير أيضاً . وفي ص : لا تمش .
٢ الأبيات في الإحاطة : ٢٥٤ وكذلك القطعتان التاليتان . والثانية منهما في الكتيبة : ٢٥٨ .
٣ يوري بمالك التي تعني المال ، ومالك هو خازن النار .

وجَرَتْ كما قد شاءه سُكّانها فعلمتُ أنّ السرَّ في السكّانِ[1]

وقال رحمه الله تعالى :

وذي خُدَعٍ دَعَوْهُ لاشتغالٍ وما عرفوه غثّاً من سمينِ
فأظهرَ زهده وغنًى بمالٍ وجيشُ الحرصِ منه في كمين
وأقسم لا فعلتُ يمينَ خَبٍّ فيا عَجَباً لحلاّفٍ مهين
يغرُّ بيسره ويمينِ حَنْثٍ ليأكلَ باليسارِ وباليمين

وهو الآن بحاله الموصوفة ؛ انتهى .

[٤٠ – مخاطبة أبي بكر ابن عبد الملك للسان الدين]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : خاطبني أبو بكر عبدُ الرحمن بن عبد الملك مستدعياً إلى إعذار ولده بقوله :

أريدُ من سيدي الأعلى تَكَلُّفه إلى الوصولِ إلى داري صباحَ غدِ
يزيدني شرفاً منهُ ويبصرُ لي صناعةَ القاطعِ الحجّامِ في ولدي

فأجبته :

يا سيّدي الأوحد الأسْمى ومُعْتمدي وذا الوسيلَةِ من أهلي ومن بَلَدي
دعوتَ في يوم الاثنين الصحابَ ضحى وفيهِ ما ليسَ في سبت ولا أحدِ
يومُ السلامِ على المولى وخدمته فاصفحْ وإن عثَرَتْ رجلي فخذْ بيدي
والعذرُ أوضحُ من نارٍ على عَلَم فَعدِّ إن غبتُ عن لوم وعن فَنَدِ
بقيتَ في ظلِّ عيشٍ لا نفادَ له مصاحَباً غيرَ محصورٍ إلى أمدِ

[1] التورية في السكان من المثل « الشأن في السكان لا في المكان » والسكان أيضاً « دفة السفينة » .

[ترجمة أبي بكر ابن عبد الملك]

وأبو بكر المذكور أصلـه من باغُهْ ، ونشأ بلوشة ، وهو محسوب من الغرناطيين .

وفي « التاج » في حقّه ما صورته : فارضٌ هاجي ، مُداهن مداجي ، أخبث من نظر من طرف خفي ، وأغدر من تلبس بشعارِ وفي ، إلى مكيدة مبثوثة الحبائل ، وإغراء يقطع بين الشعوب والقبائل ، من شيوخ طريقة العمل ، المتقلبين من أحوالها بين الصَّحْو والثمل ، المتعللين برسومها حين اختلط المرعيُّ بالهَمَل ، وهو ناظمُ أرجاز ، ومستعمل حقيقة ومجاز ، نظم مختصر السيرة ، في الألفاظ اليسيرة ، ونظم رجزاً في الزجر والفال ، نبّه به تلك الطريقة بعد الإغفال ؛ انتهى .

قال : ومن شعره :

إنَّ الولايَـةَ رفعـةٌ لكنّها   أبداً إذا حقّقتها تتنقـــلُ
فانظرْ فضائلَ من مضى من أهلِها   تجدِ الفضائلَ كلّها لا تعزلُ

توفّي بالطاعون بغرناطة عام خمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

[٤١ – مخاطبة أبي سلطان للسان الدين]

وقال في ترجمة أبي سلطان عبد العزيز بن علي الغرناطي بن يشت ما صورته[١] : ومما خاطبني بهِ قوله :

أطلتُ عتْبَ زمانٍ فلَّ من أملي   وسُمْته الذمَّ في حلٍّ ومرتحلِ
عاتبتُه ليُلينَ العتبُ جانبَــهُ   فما تراجعَ عن مَطْلٍ ولا بخَلِ

١ ترجمته في الإحاطة ، الورقة : ٣١٥ .

فعدتُ أمنَحهُ العتبى ليشفقَ لي ... فقال لي إنَّ سمعي عنك في شُغُلِ
فالعتبُ عنديَ كالعُتْبى فلستُ أرى ... أُصغي لمدحك إذ لم أصغِ للعَذَلِ
فقلتُ للنفس كُفّي عن معاتبةِ ... لا تنقضي وجوابِ صيغَ من وجلِ
من يعتلقْ في الدُّنا بابن الخطيب فقد ... سما عن الذلّ واستولى على الجذلِ
قالَتْ فمَن لي بتقريبي لخدمته ... فقد أجابَ قريباً من جوابكَ لي
فقال للناسِ كُفّوا عن محادثتي ... فليسَ ينفعكم حولي ولا حِيَلي
قد اشتغلْتُ عن الدُّنيا بآخرتي ... وكان ما كان من أياميَ الأوَلِ
وقد رعيتُ وما أهملتُ من منح ... فكيف يختلط المرعيُّ بالهَمَلِ
ولستُ أرجعُ للدُّنيا وزخرفها ... من بعد شَيب غدا في الرأس مشتعلِ
ألستَ تبصرُ أطماري وبعديَ عن ... نيلِ الحظوظ وإغذاذي إلى أجلي
فقلتُ ذلك قولٌ صحَّ مجملُهُ ... لكنَّ من شأنه التفصيل للجُملِ
ما أنْتَ جالبُ أمرٍ تستعين به ... على المَظالم في حالٍ ومُقتبَلِ
ولا تحلّ حراماً أو تحرّم ما ... أحلَّ ربُّكَ في قولٍ ولا عملِ
ولا تبعْ آجلَ الدُّنيا بعاجلها ... كما الولاةُ تبيعُ اليمَّ بالوَشَلِ
وأين عنكَ الرشا إن ظَلَلْتَ تطلبها ... هذا لعمريَ أمرٌ غير منفعلِ
هل أنت تطلبُ إلاّ أن تعودَ إلى ... كتب المقامِ الرفيعِ القدرِ في الدولِ
فما لأوحدِ هذا الكونِ قاطبةً ... وأسمح الخلقِ من حافٍ ومنتعلِ
لم يلتفتْ نحوَ ما تبغيهِ من وطرٍ ... ولم يَسُدَّ الذي قد بانَ من خللِ
إن لَمْ تقعْ نظرةٌ منه عليك فما ... يصفو لديك الذي أمّلتَ من أملِ
فدونَك السيّدَ الأعْلى فمطلبكم ... قد نيطَ منه بفضلٍ غير منفصلِ
فقد خبَرْتُ بني الدُّنيا بأجمعهم ... من عالم وحكيم عارفٍ وولي
فما رأيتُ لهُ في الناس من شَبَهٍ ... قَلَّ النظيرُ لهُ عندي فلا تَسَلِ
وقد قصدتُكَ يا أسمى الورى هِمماً ... وليس لي عن حمى علياك من حوَلِ
فما سواك لما أمّلتُ من أملٍ ... وليسَ لي عنك من زَيْغ ولا مَيَلِ

فانظرْ لحالي فقد رقَّ الحسود لها ... واحسم زَمانةَ ما قد ساء من عللِ
ودمْ لنا ولدينِ الله ترفعُـهُ ... ما أعقبتْ بُـكَـرُ الإصباح بالأصُلِ
لا زلتَ معتلياً عن كلّ حادثةٍ ... كما علَتْ ملَّةُ الإسلام في المللِ

انتهى .

[ترجمة عبد العزيز أبي سلطان]

والمذكور هو عبد العزيز بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز بن يشت ، من غرناطة ، يكنى أبا سلطان ، قال في « الإحاطة » في حقّه : فاضل حيي حسن الصورة بادي الحشمة ، فاضـــل البيت سريُّهُ ، كتب في ديوان الأعمال فأتقن ، وترقى إلى الكتابة السلطانية ، وسَفر في بعض الأغراض الغربية ، ولازم الشيخ أبا بكر عتيق بن مقدم من مشيخة الصوفية بالحضرة فظهرت عليه آثار ذلك في نظمه ومقاصده ، فمن نظمه ما أنشده ليلة الميلاد المعظم :

القلبُ يعشق والمـــدامعُ تَنْطِقُ ... برحَ الخفاءُ فـكلُّ عضو منطقُ
إن كنتُ أكتم ما أكنُّ من الجوى ... فشحوبُ لوني في الغرام مصدّقُ
وتذلُّلي عنـدَ اللّقا وتملُّقي ... إنَّ المحبَّ إذا دنا يتملّقُ
فلكم سترتُ عن الوجود محبّتي ... والدمعُ يفضحُ ما يُسِرُّ المنطقُ
ولـكَم أُمَوّهُ بالطلولِ وبالكُنَى ... وأخوضُ بحرَ الكَتْم وهو الأليقُ
ظهر الحبيبُ فلستُ أُبصرُ غيره ... فبكلّ مرئيّ أرى يتحقّقُ
ما في الوجـــود تكثّرٌ لمكثّرٍ ... إنَّ المكثّر بالأباطلِ يعلقُ
فمتى نظرتُ فأنتَ موضعُ نظرتي ... ومتى نطقتُ فما بغيرك أنطقُ
يا سائلي عن بعض كنه صفاته ... كَلَّ اللسانُ وكَلَّ عنه المنطقُ
فاسلكْ مقاماتِ الرجالِ محقّقاً ... إنَّ المحققَ شأوه لا يُلحقُ
مزّقْ حجابَ الوهم لا تحفلْ به ... فالوهمُ يسترُ ما العقولُ تحققُ

واخلصْ إذا شئتَ الوصولَ ولا تنِلْ[1] فالعجزُ عن طلبِ المعارفِ موبقُ
إنَّ التحلّي في التخلّي فاقتصدْ ذاك الجنابَ ، فبابُه لا يُغلقُ
ولتقتبسْ نارَ الكليم ولا تخفْ والغِ السّوى إن كنتَ منها تَفرَقُ
ومتى تجلّى فيك سرُّ جَمالـه وصعقتَ خوفاً فالمكلّم يصعقُ
دع رتبة[2] التقليدِ عنكَ ولا تتهْ تلقَ الذي قيّدت وهو المطلقُ
واقطعْ حبالَ علائقٍ وعوائقٍ إنَّ العوائقَ بالمكاره تطرقُ
جرِّدْ حسام النفسِ عن جفن الهوى إنَّ العوائدَ بالتجردِ تخرقُ
فإذا فهمتَ السرَّ منك فلا تبُحْ فالسيفُ من بثّ الحقائق أصدقُ
بالذوقِ لا بالعـلم يدرك علمنا سرّ بمكنونِ الكتاب مصدّقُ
وبما أتى عن خيرِ من وطئ الثرى سرُّ الوجود وغيثُهُ المتدفّقُ
خيرُ الورى وابن الذبيحين الذي أنوارُهُ في هديها تتألّـقُ
مَنْ أخبرَ الأنباءَ قبلُ ببعثه ولنصّه سرُّ الكتاب يصدقُ
رُفعتْ له الحجبُ التي لم ترتفعْ إلا إليه فكلُّ ستر يُخرقُ
ورَقي مقاماً قصّرت عن كنهه رُتبُ الوجودِ وكَعَّ عنه السُّبّقُ
وطئ البساطَ تدلّلاً وجرى إلى أمـدٍ تناهى ما إليه مَسْبَقُ
إنسانُ عينِ الكونِ مبلغُ سرّه قطبُ الجمـالِ وغيثُهُ المتدفّقُ
سرُّ الوجود ونكتةُ الدهرِ الذي كلُّ الوجودِ بجـودِهِ يتعلّقُ
من جاء بالآياتِ يسطعُ نورها والذكر فهو عن الهوى لا ينطقُ
يا سيّدَ الأرسالِ غيرَ مدافَعٍ وأجلّهم سبقاً وإن هم أعنقوا
بالفقرِ جئتك موئلي لا بالغنى فالذلُّ والإذعانُ عندك ينفقُ
فاجبر كسيرَ جرائرٍ وجرائمٍ فالقلبُ من عظم الخطايا يَقْلَقُ

---

١ لا تنل : لا تقصر .
٢ ق : ريبة .

أرجوكَ يا غوثَ الأنام فلا تدعْ   بابَ الرضى دوني يُسدُّ ويُغلقُ
حاشاك تطردُ مَنْ أتاكَ مؤمِّلاً   فلأنْتَ لي منّي أحنُّ وأرفقُ
وعَبتي تقضي بأنّكَ مُنْقِذي   ممّا أخافُ فمـا بغيرك أعلقُ
يا هل تساعدني الأماني والمُنى   وأحلُّ حيثُ سَنا الرسالة يُشرقُ
إن كانَ ثبّطني القضا بعقيّدٍ   فعِنانُ عزمي نحوَ مجدكَ مطلقُ
ولئن ثوى شخصٌ بأقصى مغرب   فتشوّقي مـني إليكَ يشرِّقُ
فعليكَ يا أسْنى الوجودِ تحيّةٌ   من طيب نَفْحتها البسيطةُ تَعْبَقُ
وعلى صحـابتك الذين تأنّقُوا   رتبَ الكمالِ ومثلهم يتأنّقُ
وعلى الأُلى آووك في أوطانهم   نالوا بذلكَ رتبـةً لا تُلحقُ
أعظمْ بأنصـار النبيّ وحزبه   وبمن أتى بعبـاءة يتعلّقُ
من مثل سَعْدٍ أو كقيسٍ نجله   عَرْفُ السيادة من حماهُمْ يُنشقُ
أكرمْ بهم وبمن أتى من سرّهم   عَزَّ النظيرُ فمجدهم لا يُلحقُ
مَنْ مثلُ نَصْرٍ أو بنيهِ ملُوكنا   كلُّ الأنامِ لعـزّهم يتملّقُ
بمحمدٍ نجـلِ الخليفةِ يوسفٍ   عَزَّ الهدى فحماه ما إن يُطرَقُ
مولى الملوك وتاجُ مفرقِ عزّهم   وأجلُّ من تُحْدَى إليهِ الأينقُ
ملكٌ يرى أنَّ التقدمَ مغنمٌ   مهما تعرَّض موكبٌ أو فيلقُ
تُروى أحاديثُ الوغى عن بأسهِ   فالسيفُ يُسْنِدُ والعوالي تطلقُ
ملكُ البسالةِ والمكارمِ والنُّهى   فعُداته منـه تَغَصُّ وتَفرقُ
مُلئتْ قلوبُ عداه منهُ مهابةً   فمغرِّبٌ من خوفهِ ومشرِّقُ
مولايَ يا أسمى الملوك ومَنْ غدتْ   عينُ الزمانِ إلى سناه تحدّقُ
لا تقطعوا عني الذي عوّدتمُ   فالعبدُ مِنْ قَطْع العوائد يُشْفقُ
لا تحرمـوني مطلبي فمحبّتي   تقضي لسعيي أنّه لا يُخفقُ
فانعمْ بردّي في بساطكَ كاتباً   وأعِدْ لمـا قد كنت فهو الأليقُ
فاسلَمْ أمـيرَ المسلمين لأمّةٍ   أفواهُهُـم ما إن بغيرك تنطقُ

واهنأ بها من ليلةٍ نبويّةٍ جاءتْ بأكرمِ من بهِ يُتعلّقُ
صَلّى عليه الله ما هَبّتْ صَباً واهتزَّ غصنٌ في الحديقةِ مورقُ

ثمّ قال : وهو الآن بحالته الموصوفة ؛ انتهى .

[٤٢ – رسالة من النباهي للسان الدين]

وممّا خوطبَ به لسان الدين رحمه الله تعالى ما حكاه في « الإحاطة » في ترجمة القاضي أبي الحسن النباهي ، إذ قال ما نصّه : وخاطبني بسبتة وأنا يومئذ بسَلا بقوله : يا أيتها الآية البالغة وقد طُمِست الأعلام ، والغرة الواضحة وقد تنكرت الأيام ، والبقية الصالحة وقد ذهب الكرام ، أبقاكم الله تعالى البقاء الجميل ، وأبلغكم غاية المراد ومُنْتهى التأميل ، أبى الله أن يتمكّن المقام بالأندلس بعدكم ، وأن يكون سكون النفس إلا عندكم ، سرٌّ من الكون غريب ، ومَعْنى في التشاكل عجيب ، أختصر لكم الكلام ، فأقول بعد التحية والسلام : تفاقمت الحوادث ، وتعاظمت الخطوب الكوارث ، واستأسدت الذئاب الأخابث ، ونكث الأكثر من ولد سام وحام ويافث ، فلم يبق إلا كاشح باحث ، أو مكافح عابث ، ويا ليت شعري مَنِ الثالث ؟ فحينئذ وجهت وجهي للفاطر الباعث ، ونجوت بنفسي لكِنْ مَنْجَى الحارث ، وقد عبرت البحر كَسيرَ الجناح ، دامي الجراح ، وإنّي لأرجو الله سبحانه بحسن نيتكم أن يكون الفرج قريباً ، والصنع عجيباً ، فعمادي أعان الله على القيام بواجبه ، هو الركن الذي ما زلت أميل على جوَانبه ، ولا تزيدني الأيام إلاّ بصيرة في الإقرار بفضله والاعتداد به ، وقد وصلني خطابُ سيدي الذي جَلّى الشكوك بنور يقينه ، ونصح النصح اللائق بعلمه ودينه ، وكأنّه نظر إلى الغيب من وراء حجاب ، فأشار بما أشار به على ساريةَ عمر بن الخطاب ، ومن العجب أنّي عملت بمقتضى إشارته ، قبل بلوغ إضْبارته ، فللّه ما تضمّنه مكتوبكم الكريم من الدر ، وحرّره من الكلام

الحر ، وايم الله لو تجسم لكان مَلَكاً ، ولو تنسم لكان مسكاً ، ولو قبس لكان شهاباً ، ولو لبس لكان شباباً ، فحلَّ مني علم الله تعالى محل البرء من المريض ، وأعاد الأنس بما تضمّنه من التعريض ، والكلم المُزْرِية بقِطَع الروض الأريض ، فقبلته عن راحتكم ، وتخيلت أنّه مُقيم بساحتكم ، ثم وردتُ مَعينه الأصفى ، وكلت من بركات مواعظه بالمكيال الأوفى ، وليست بأول أياديكم ، وإحالتكم على الله فهو الذي يجازيكم ، وبالجملة فالأمور بيد الأقدار ، لا إلى المراد والاختيار :

وما كلُّ ما ترجو النفوسُ بنافعٍ ولا كلُّ ما تخشى النفوسُ بضَرَّارِ

انتهى .

قلت : أين هذا الكتاب من الذي قدمناه عنه في الباب الثاني ، حين أظلم بينه وبين لسان الدين الجو وعِطْفه إلى مُهاجاته ثاني ، وسَفَر في أمره إلى العُدْوة ، واجتهد في ضرره بعد أن كان له به القدوة ، وقد قابله لسان الدين بما أذهب عن جفنه الوَسَن ، وألف فيه كما سبق « خَلْع الرسن » .

[ترجمة النباهي]

على أنّه عرّف به في « الإحاطة » أحسن تعريف ، وشرّفه بحلاه أجمل تشريف ، إذ قال ما ملخصه [1] : علي بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله ابن الحسن بن محمد بن الحسن الجذامي المالقي أبو الحسن ، ويُعرف بالنباهي ، هذا الفاضل قريعُ بيت مَجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، خاطب للشيخوخة ، مستعجل للشيبة ، ظاهر الحياء ، متحرّك مع السكون ، بعيد الغَوْر ، مرهف الجوانب

[1] قارن بما كتبه عنه في الكتيبة : ١٤٦ بعد أن تغيرت النفوس .

مع الانكماش ، مقتصد في الملبس والآلة ، متظاهر بالسذاجة ، بريء من النوك والغفلة ، يقظ للمعاريض ، مهتد إلى الملاحن ، طرف في الجود[1] ، حافظ مقيّد طلعة إخباري ، قائم على تاريخ بلده ، شرع في تكميل ما صنف فيه ، ملازم للتقييد والتطرير[2] ، منقّر عن الإجادات والفوائد، استفدت منه في هذا الغرض وغيره كثيراً ، حسن الخط ، ناظم ناثر ، نثره يشف على نظمه ، ذاكر للكثير ، استظهر محفوظات منها «النوادر» للقالي ، وناهيك به محفوظاً مهجوراً ، ومسلكاً غفلاً ، فما ظنّك بسواه ، نشأ ببلده حرّ الطعمة فاضل الأبوة ، وقرأ به ، ثم ولي القضاء بملتماس[3] ثم ببلش وعملها ، فسيح الخطّة مطلق الجراية ، بعيد المدى في باب النزاهة ، ماضياً غير هيوب ، حتى أربى في الزمن القريب على المحتنكين ، وغبّر في وجوه أهل الدربة ، وجرت أحكامه مستندة إلى الفتيا ، جارية على المسائل المشهورة ، ثم نُقل منها إلى النظر في أمور الحل والعقد بمالقة مضافة إليه الخطط النبيهة ، وصدر له منشور من إملائي ، إلى أن قال في ترجمة نظمه : قال نظمت سمح الله تعالى لي قطعتين مُوَطئاً فيهما على البيتين المشهورين ، إحداهما :

بنفسيَ من غزلان حُزْوَى غزالةٌ ... جمالُ محيّاها عن النسكِ زاجرُ
تصيدُ بلحظِ الطرف مَنْ رام صيدها ... ولو أنّه النسرُ الذي هو طائرُ
مُعَطَّرةُ الأنفاسِ رائقةُ الحلى ... هواها بقلبي في المهامه سائرُ
«إذا رمتُ عنها سلوةً قال شافعٌ ... من الحبّ : ميعاد السلوّ المقابرُ»

والأخرى :

وقائلةٍ لمّا رأتْ شيب لمّتي ... لئن مِلْتَ عن سلمى فعذرك ظاهرُ

---

١ ق : المجون .
٢ التطرير التقييد في طرر الكتب .
٣ ق : بملتامو .

زمانُ التصابي قَدْ مَضى لسبيله … وهل لك بعد الشيبِ في الحبّ عاذرُ
فقلتُ لها : كلا وإن تلف الفتى … فما لهواها عنـد مثليَ آخرُ
« سيبقى لها في مضمر القلب والحشا … سريرةُ وُدّ يومَ تُبْلى السرائرُ »

وكتب على مثال النعل الكريم ، وأهداه لمزمع سفر :

فديتك لا يهدى إليكَ أجلّ من … حديثِ نبيّ اللهِ خاتمِ رُسْلِهِ
ومن ذلك الباب المثالُ الذي أتى … به الأثرُ المأثورُ في شأنِ نعلهِ
ومن فضلهِ مهما يكُنْ عند حاملٍ … لهُ نالَ ما يهواهُ ساعة حملهِ
ولا سيما إن كان ذا سَـفَرٍ به … فقد ظفرتْ يمناهُ بالأمنِ كلّهِ
فدونَكَ منهُ أيّها العَلَمُ الرضى … مثالاً كريمـاً لا نظيرَ لمثلِهِ

وقال مراجعاً عن أبيات يظهر منها غرضها :

إذا كنتَ بالقصد الصَّحيح لنا تهوى … فسلّم لَنا في حكمنا ودعِ الشكوى
ولا تَتَبّـعْ أهواء نفسك والتفتْ … لنا حيثُ كنّا في الرخاء وفي اللّأوا[1]
وكم من محبّ في رضانا وحبّنا … محا كلّ ما يبدو سوانا له مَحْوا
رآنا عياناً عينَ معنى وجـودِهِ … فعاجَ عن الشكوى وفَوَّضَ في البلوى
وقال تحكّمْ كيف شئتَ بما ترى … رضيتُ بما تقضي وهمتُ بما تهوى
فحلّ لدينـا بالخلُوصِ وبالرضى … محلّ اختصاصٍ نال منه المنى صَفْوا
فإن كنتَ ترجو في الصبابة والهوى … لحاقاً بهم فاسلكْ طريقهمُ الأضوا
ومُتْ في سبيل الحبّ إن كنتَ مخلصاً … لنا في الهوى تحيا حياة أُولي التقوى
هنالك تُؤْتى ما تريدُ وتقتضي … ديونَكَ منّا دون مَطْلٍ ولا دعوى
وتشربُ من عينِ اليقينِ وتغتذي … بخمرِ الصفا الصرفِ الزلالِ لكي تروى

---

١ اللأواء : الشدة .

وقال :

لا تلجأنَّ لمخلوقٍ منَ النّاسِ من يافثٍ كان أصلاً أو من الياسِ
وثقْ بربِّكَ لا تيأسْ تجِدْ عجباً فلا أضرَّ على عبدٍ من الياسِ

وقال :

فديتك لا تصحبْ لئيماً ، ولا تكنْ مُعيناً لَهُ إنَّ اللئيمَ خؤونُ
فلا عهدَ يرعى ، لا ، ولا نعمةً يرى ولا سرَّ خلٍّ عن عداه يصونُ

وقال يخاطب أبا القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان :

لكَ اللهُ قلبي في هواكَ رهينُ وروحيَ غني إن رحلتَ ظعينُ
ملكتَ بحكم الفضلِ كلّيَ خالصاً وملكُكَ للحرّ الصريحِ يزينُ
فهبْ ليَ من نطقي بمقدارِ ما به يترجم سرٌّ في الفؤادِ دفينُ
فقد شملتنا من رضاكَ ملابسٌ وسحَّ لدينا من نداكَ مَعينُ
أعنْتَ على الدهرِ الغشومِ ولمْ تزلْ بدُنياكَ في الأمرِ المهمِّ تعينُ
وقصّرَ من لم تعلم النفسُ أنّه خذولٌ إذا خان الزّمان يخونُ
وإنّي بحمدِ اللهِ عنهُ لفي غنًى وحسبيَ صبرٌ عن سواكَ يصونُ
أبى ليَ مجدٌ عن كرام ورثته وقوفاً ببابٍ للكريم يهينُ
ونفسٌ سمتْ فوقَ السماكينِ همةً وما كلُّ نفسٍ بالهوانِ تدينُ
ولمّا رأتْ عيني مُحيّاك أقسمتْ بأنّك للفعلِ الجميلِ ضمينُ
وعاد لها الأنسُ الذي كان قد مضى بريّةَ إذ شَرْخُ الشبابِ خدينُ
بحيث نشأنا لابسين حلى التقى وكلٌّ بكلٍّ عند ذاك ضنينُ
أما وسنا تلكَ الليالي وطيبها ووجدِ غرامي ، والحديثُ شجونُ
وفتيانِ صدقٍ كالشموس وكالحيا حديثهمُ ما شئتَ عنهُ يكونُ
لئن نزحتْ تلكَ الديار فوجدنا عليها لهُ بينَ الضلوعِ أنينُ

إذا مرَّ حينٌ زاده الشوقُ جِدَّةً ... وليسَ بعابٍ للربوعِ حنينُ
وأنّى بمسلاها ، وللبين لذعةٌ ... أقلُّ أذاها للسّليم جنونُ
لقد عبثتْ أيدي الزمانِ بجمعنا ... وحانَ افتراقٌ لم نَخَلْهُ يحينُ
وبعدُ التقينا في محلٍّ تغرُّب ... وكلُّ الذي دونَ الفراق يهونُ
فقابلتَ بالفضلِ الذي أنتَ أهله ... وما لكَ في حُسْنِ الصنيع قرينُ
وغبتَ وما غابت مكارمك التي ... على شكرها الربُّ العظيمُ يعينُ
يميناً لقد أوليتنا منكَ نعمةً ... تلذُّ بها عند العيان عيونُ
ويقصرُ عنها الوصفُ إذ هي كلّها ... لها وجهُ حرٍّ بالحياء مصونُ
ولمّا قدمتَ الآن زاد سرورنا ... ومقدمك الأسنى بذاك قمينُ
لأنك أنتَ الروح منّا وكلّنا ... جسومٌ ، فعند البعدِ كيف نكونُ
ولو كان قدر الحبّ فيك لقاؤنا ... إليك لكنّا باللزوم ندينُ
ولكن قَصَدْنا راحةَ المجد جهدنا ... فراحتُهُ شَمْلَ الجميع تصونُ
هنيئاً هنيئاً أيّها العَلَم الرضى ... بما لك في طيِّ القلوبِ كَمينُ
لك الحسنُ والإحسانُ والعلمُ والتُّقى ... فحبّك دنيا للمحبِّ ودينُ
وكم لك في بابِ الخلافة من يدٍ ... أقرت لها بالصدقِ منك مَرينُ
وقامتْ عليها للملوك أدلةٌ ... فأنتَ لديها ما حييتَ مَكينُ
فلا وجهَ إلا وهو بالبِشرِ مُشْرِقٌ ... ولا نطقَ إلا عن عُلاكَ مبينُ
بقيتَ لرَبع الفضلِ تحمي ذماره ... صحيحاً كما قد صحَّ منكَ يقينُ
ودونَكَ يا قطبَ المَعالي بُنَيَّةً ... من الفكرِ عن حالِ المحبِّ تُبينُ
أتتكَ ابنَ رضوانٍ تمتُّ بودها ... وما لسوى الإغضاء منك ركونُ
فخلِّ انتقادَ البحثِ عن هفواتها ... وَمَهِّدْ لها بالسمعِ حيثُ تكونُ
وخذها على علاتها فحديثُها ... حديثُ غريبٍ قد عراه سكونُ

وهو بحاله الموصوفة ؛ انتهى باختصار .

[٤٣ – مخاطبات بين لسان الدين وابن الجياب]

ولما كتب لسان الدين الى شيخه الرئيس الكاتب أبي الحسن الجياب قصيدة أولها[١] :

أمستخرجاً كَنْزَ العقيقِ بآماقي ... أناشدك الرحمنَ في الرَّمَقِ الباقي
فقد ضعفتْ عن حملِ صبريَ طاقتي ... عليك وضاقتْ عن زفيريَ أطواقي

وهي طويلة أجابه عنها بقوله :

سقاني فأهْلاً بالمدامة[٢] والساقي ... سُلافاً بها قام السرورُ على ساقِ
ولا نَقْلَ إلاّ من بدائعِ حكمةٍ ... ولا كأسَ إلا من سطورٍ وأوراقِ
فقد أنشأتْ لي نشوةً بعد نشوةٍ ... تمدّ بروحانيةٍ ذات أذواقِ
فمن خطِّها الفاني[٣] متاع لناظري ... وسمعي، وحظ الروح من خطها الباقي
أعادتْ شبابي بعد سبعين حجّةً ... فأثوابُهُ قد جُدِّدت بعد إخلاقِ
وما كنتُ يوماً للمدامةِ صاحباً ... ولا قبلتْها قطُّ نشأةُ أخلاقي
ولا خالطتْ لحمي ولا مازَجَتْ دمي ... كفى شَرَّها مولايَ فالفضلُ للواقي
وهذا على عهدِ الشّباب ، فكيف لي ... بها بعد ماءٍ للشبيبة مُهْرَاقِ ؟
تَبَصَّرْ فحكما القَهْوتين تخالفا ... فكم بينَ إثباتٍ لعقلٍ وإزهاقِ
وشتّان ما بين المُدامين فاعتبرْ ... فكم بين إنجاح لسعي وإخفاقِ
فتلك تَهادَى بين ظلمٍ وظلمةٍ ... وهذي تَهادى بين عدلٍ وإشراقِ
أيا علَمَ الإحسانِ غيرَ منازَعٍ ... شهادةَ إجماعٍ عليها وإصفاقِ[٤]

١ انظر الكتيبة : ١٨٦ .
٢ الكتيبة : بالسقاية .
٣ الكتيبة : الباهي .
٤ الكتيبة : وإطباق .

فضائلكَ الحُسنى عليَّ تواترتْ   بمنهمرٍ من سُحْبِ فكرك غَيْداقِ
خزائنُ آدابٍ بعثتَ بدُرِّها   إليَّ ولم تمننْ بخشية إنفـــاقِ
ولا مثلَ بكرٍ حرّة عربيّة   زكيةِ أخلاقٍ كريمــةِ أعراقِ
فأقسم ما البيضُ الحسانُ تبرجَتْ   تناجيك سرّاً بين وَحْيٍ وإطراقِ
بدورٌ بدتْ من أفق أطواقها على   رياض شدَتْ في قطبها ذاتُ أطواقِ
فناظرَ منهـا الأقحوانُ ثغورَها   وقابل منها نرجسٌ سحرَ[1] أحداقِ
وناسبَ منها الوردُ خدّاً مورّداً   سقاه الشبابُ النّضْرُ بورِك من ساقِ
وألبسن من صنعاء وَشْياً منمنماً   وحُلِّين من درٍّ نفائسَ أعلاقِ
بأحلى لأفواهٍ ، وأبهى لأعين   وأحيى لألباب ، وأشهى لعشاقِ
رأيتُ بها شُهبَ السماء تنزلت   إليّ تحييني تحيــةَ مشتــاقِ
ألا إنَّ هذا السحرُ لا سحرُ بابلٍ   فقد سحرت قلبي المعنّى فمَنْ راقِ
لقد أعجزتْ شكري فضائلُ ماجدٍ   أبرَّ بأحبــاب وأوفى بميثــاقِ
تقاضى ديونَ الشعر مني منبهاً   رويدك لا تعجلْ علي بإرهاقِ
فلو نشر الصادان من مَلْحَدَيْهما   لإنصافِ هذا الدَّيْنِ لاذا بإملاقِ[2]
فخذْ بزمامِ الرفقِ شيخاً تقاصرتْ   خطاه وعاهده بمعهود إشفاقِ
فلا زلت تحيي للمكارم رسمها   وقدرك في أهل العُلا والنهي راقي

قال : وكتبت إليه في غرض العتاب قصيدة أولها :

أدَرْنا وضَوءُ الأفق قد صدع الفضا   مدامةَ عتب بيننا نَقْلُها الرضى
فللّه عينا مَنْ رآنا وللحيا   حيٌّ بآفاقِ البَشاشة أومَضا

---

١ الكتيبة : حسن .
٢ الصادان : الصابي أبو إسحاق والصاحب بن عباد .

نفرُّ إلى عدلِ الزمانِ الذي أتى ... ونبرأ من جورِ الزمانِ الذي مضى
ونأسو كلومَ اللفظ باللفظِ عاجلاً ... كذا قَدَحُ الصهباء داوى وأمرضا

فراجعني عنها بهذه القصيدة :

ألا حبذا ذاك العتابُ الذي مضى ... وإن جرّهُ واشٍ بزُورٍ تمضمضا
أغارتْ له خيلٌ فما ذَعرَتْ حمًى ... ولكنّها كانت طلائعَ للرضى
تألّق منهُ بارقٌ صابَ مُزْنُهُ ... على معهدِ الحبِّ الصميم فروّضا
تلألأ نوراً للصـــداقةِ حافظاً ... وإن ظُنَّ سيفاً للقطيعة مُنْتَضَى
فإن سوّد الشيطانُ منه صحيفةً ... أتى مَلَكُ الرُّحْمى عليها فبيّضا
وما كان حبٌّ أحكمَ الصدق عهده ... ليُرْمى بوَسْواسِ الوشاة فيرفضا
أُعيذُ وداداً زاكيَ القصدِ وافياً ... تخلّصَ من أدرانهِ فتمحّضا
ونيةَ صدقٍ في رضى الله أخلصتْ ... سناها بآفاقِ البسيطة قد أضا
مَنِ الآفكُ الساعي ليخفيَ نورها ... أيخفى شعاعُ الشمسِ قد ملأ الفضا ؟
وكيفَ يحلّ المبطلون بإفكهم ... معاقدَ حبٍّ أحكمتها يدُ القضا
تعرّض يبغي هدمَها فكأنّه ... لتشييد مبناها الوثيقِ تعرّضا
وَحَرّضَ في تنفيره فكأنّما ... على البر والتسكين والحبِّ حرّضا
وأوقد ناراً فهو يَصْلى جحيمها ... يقلّبُ منها القلبَ في موقد الغَضا
أيا واحدي المعدود بالألف وحده ... ويا ولدي البر الزكيّ إن ارتضى
بعثتَ من الدرِّ النفيسِ قلائداً ... على ما ارتضى حكم المحبة واقتضى
نتيجةُ آدابٍ وطبعٍ مهذّبٍ ... أطالَ مَداه في البيان وأعرضا
ولا مثلَ بكرٍ باكرتنيَ آنفا ... كزورةِ خِلٍّ بعدما كان أعرضا
هي الروضةُ الغنّاءُ أينعَ زهرها ... تناظرُ حسناً مذهباً ومفضضا
أو الغادةُ الحسناءُ راقتْ فينقضي ... مدى العمرِ في وَصْفي لها وهو ما انقضى
تطابقَ منهـــا شَعْرُها وجبينها ... فذا الليلُ مسودّاً وذا الصبحُ أبيضا

أو الشُّهبُ منها زينةٌ وهدايةٌ ورَجْمٌ لشيطانٍ إذا هو قُيِّضا
أتت ببديع الشعرِ طوراً مصرِّحاً بآياتك الحسنى ، وطوراً معرِّضا
ومَهّدَتِ الأعذارَ دونَ جنايةٍ ولو أنّك الجاني لكنتُ المغمّضا
لكَ اللهُ من برٍّ وفيٍّ وصاحبٍ محضتُ له صدقَ الضمير فأمحضا
لسانُك في شكري مفيضٌ تفضّلاً فيا حُسنَ ما أهدى وأسدى وأقرضا
وقلبُك فاضتْ فيه أنوارُ خلّتي فألقى يَدَيْ تسليمه لي مفوّضا
وقصدُكَ مشكورٌ ، وعهدُكَ ثابتٌ وفضلك منشورٌ ، وفعلك مُرْتَضَى
فهل معَ هذا ريبةٌ في مودّةٍ بحالٍ ؟ وإن رابت فما أنا معرضا
فثِقْ بولائي إنّني لك مخلصٌ هوًى ثابتاً يبقى فليس له انْقضا
عليك سلامُ اللهِ ما هبّتِ الصَّبا وما بارقٌ جنحَ الدجنَّة أومضا

وقال لسان الدين : من غريب ما خاطبني به قوله [1] :

أُقسم بالقَيسين والنابغتينْ وشاعرَيْ طيّئ المولّدَينْ
وبابن حُجْرٍ وزهيرٍ وابنه والأعشيين بعدُ ثمَّ الأعمين
ثمَّ بعشّاق الثريا والرة يّاتِ وَعزةٍ ومَيٍّ وبثين
وبأبي الشّيص ودعبلٍ ومَنْ كشاعرَيْ خزُاعةَ المخضرمين
وولدِ المعتزّ والرضيّ والـ سريِّ ثمَّ حسنٍ وابن الحسين
واختم بقُسَّ وبسحبانٍ وإن أوجب حقٌّ أن يكونا أوّلين
وحَلْبَتَيْ نثرهمُ ونظمهمْ في مشرقَيْ أقطارهم والمغربين
إنَّ الخطيبَ ابنَ الخطيب سابقٌ بنثره ونَظْمه للحلبتين
راقتنيَ الصحيفةُ الحسنا التي شاهدتُ فيها المكرماتِ رأيَ عين
تجمعُ من براعة المَعْنى إلى براعةِ الألفاظِ كلتا الحسنيين

[1] الكتيبة : ١٨٨ .

أشهدُ أنّكَ الذي سبقْتَ في طريقَيِ الآدابِ أقصى الأمدين
شـعرٌ حوى جزالةً ورقّةً تصاغ منه حلّة للشّعريين
رسائـلٌ أزهارهـا منثورةٌ سرورُ قلبٍ ومتاعُ ناظرين
يا أحوذيّاً يا نسيجَ وَحْدِهِ شهادةً تنزهتْ عن قولِ مَيْن
بقيتَ في مواهبِ الله التي تقرُّ عينيكِ وتملأ اليدين

انتهى .

[٤٤ – من سعيد الغرناطي إلى لسان الدين]

وحكى لسان الدين أن سعيد بن محمد الغرناطي الغساني استعار منه كتاباً ، فأرسله إليه وعلى ظهره هذه الأبيات :

هذا كتابٌ كلّه معجمٌ أفحمني معناهُ إفحاما
أعجمـه منشئـه أوّلاً وزاده الناسخُ إعجاما
أسقط من إجماله جملةً وزاد في التفصيلِ أقساما
وغيّر الألفاظَ عن وضعها وصيّرَ الإيجادَ إعداما
فليس في إصلاحه حيلةٌ تُرجى ، ولو قوبل أعواما

ولم أقف على جواب لسان الدين له عنها ، والله تعالى أعلم .

وولد سعيد المذكور سنة ٦٩٩ .

[٤٥ – مخاطبات بين ابن البناء ولسان الدين]

وممّا خوطب به لسان الدين لما تقلد الكتابة العليا قولُ أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن البناء الوادي آشي رحمه الله تعالى :

هو العلاءُ جرى باليُمن طائرُهُ فكانَ منكَ على الآمالِ ناصرُهُ

ولو جرى بكَ ممتدّاً إلى أمدٍ	لأعجزَ الشمسَ ما آبت عساكرُه
لقد حباه منيعَ العزِّ خالقُهُ	بفاضلٍ منك لا تحصى مآثره
فليزهُ فخراً فما خَلْقٌ يعارضه	ولا علاءٌ مدى الدنيا يفاخره
لله أوصافك الحسنى لقد عجزتْ	من كلِّ ذي لَسَنٍ عنها خواطره
هيهات ليس عجيباً عجزُ ذي لسنٍ	عن وصفِ بحرٍ رمى بالدرِّ زاخره
هل أنت إلا الخطيبُ ابن الخطيب ومن	زانتْ حُلَى الدينِ والدنيا مفاخره
فإن يقصّرْ عن الأوصافِ ذو أدبٍ	فما بدا منك في التقصير عاذره
يا ابنَ الكرام الأُلى ما شبّ طفلهمُ	إلا وللمجد قد شُدَّتْ مآزره
مهلاً عليكَ فما العلياءُ قافية	ولا العلاء بسجع أنتَ ناثره
ولا المكارمُ طرساً أنتَ راقمه	ولا المناقبُ طبّاً أنتَ ماهره
ماذا على سابقٍ يَسْري إلى سَنَن	إن كان من رفقهِ خلٌّ يسايره
سِرْ حيث شئتَ من العلياء متئداً	فما أمامك سبّاق تحاذره
أنت الإمامُ لأهل الفخر إن فخروا	أنتَ الجوادُ الذي عزّتْ أوافره
ما بعدَ ما حُزْتَه من عزةٍ وعُلاً	شأوٌ يطاردُ فيه المجدَ كابره
نادتْ بك الدولة النصريُّ محتدها	نداءَ مستنجدٍ أزراً يوازره
حلّيتها برداء البرّ مرتدياً	وَصُبْحُ يمنك فجرُ السعدِ سافره
فالملكُ يرفلُ في أبراده مَرَحاً	قد عمّتِ الأرضَ إشراقاً بشائره
فاهنأ بها نعمةً ما إن يقومُ لها	من اللسانِ ببعضِ الحقِّ شاكره
وليهنها أنّها ألقتْ مقالدها	إلى زكيٍّ زكتْ منهُ عناصره
فإنّه بدرُ تمٍّ في مطالعها	قد طَبّقَ الأرضَ بالأنوار ناثره

وقال لسان الدين : وأهدى إلي قباقب خشب جوز وكتب معها :

هاكها ضمّراً مطايا حسانا	نشأتْ في الرياض قُضْباً لِدانا
وثوتْ بينَ روضةٍ وغديرٍ	مرضعاتٍ من النّمير لبانا

لابساتٍ من الظـلال بروداً دونها القُضْبُ رقةً ولِيانا
ثمَّ لمَّـا أراد إكرامهـا الله وسَنّى لها المُنى والأمانـا
قصدتْ بابك العليَّ ابتداراً ورَجَتْ في قبولك الإحسانا

قال : فأجبته :

قد قبلنا جيادَك الدُّهمَ لمَّا أن بلونا منها العتاق الحسانا
أقبلتْ خلفَ كلِّ حِجْرٍ تبيعٍ خلَعَتْ وصفها عليه عيانا
فعنينا برعيهـا وفسحنـا في ربوع العلا لها ميدانا
وأردنا امتطاءهـا فاتخـذنا من شراكِ الأديم فيها عنانا
قدمتْ قبلها كتيبة سحرٍ من كتاب سَبَتْ به الأذهانا
مثلما تجنُبُ الجيوشُ المذاكي عُدَّةً للقاء مهما كانا
لم يرقْ مقلتي ولا راق قلبي كعُلاهـا براعـةً وبَيانا
من يكن مُهْدياً فمثلك يهدي لم أجدْ للثنا عليكَ لسانا

وقال لسان الدين : ومن أبدع ما هز به إلى إقامة سوقه ، ورعي حقوقه ، قوله :

يا معدنَ الفضلِ موروثاً ومكتسَبا وكلَّ مجدٍ إلى عليائِهِ انتسبا
بباب مجدكم الأسمى أخو أدبٍ مستصرخٌ بكمُ يستنجدُ الأدبا
ذلَّ الزمانُ له طوراً فبلّغه من بعضِ آماله فوقَ الذي طلبا
والآن أركبه من كلِّ نائبةٍ صَعْبَ الأعنّة لا يألو به نصَبا
فحملته دواعي حبِّكم وكفى بذاكَ شافعُ صدقٍ يبلغ الأربا
فهلْ سرى نسمةٌ من جاهكم فبها خليفةُ الله فينا يمطر الذّهبا

[ترجمة ابن البناء]

وقال لسان الدين في « الإكليل » في حق المذكور ما صورته : فاضل يروقك وقاره ، وصقر بَعُدَ مطاره ، قدم من بلده يروم اللحاق بكتّاب الإنشاء وتوسل بنظم أنيق ، ونسيب في نسب الإجادة عريق ، تُعْرب براعته عن لسان ذليق ، وطبع طليق ، وذكاء بالأثرة خليق ، وبينما هو يُلْحم في ذلك الغرض ويُسْدي ، ويعيد ويبدي ، وقد كادت وسائله أن تنجح ، وليل رجائه أن يصبح ، اغتاله الحِمام ، وخانته الأيام ، والبقاء لله تعالى والدوام ، توفّي بالطاعون في عام واحد وخمسين وسبعمائة وسنه دون الثلاثين ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

[٤٦ — رسالة من لسان الدين إلى سلطان تونس]

ولمّا خوطب لسان الدين من سلطان تونس بما لم يحضرني الآن أجاب عنه بما نصه : « المقام الإمامي الإبراهيمي المولوي المستنصري الحَفْصي ، الذي كَرُمَ فرعاً وأصلاً ، وشرف جنساً وفصلاً ، وتملّى في ظلّ رعاية المجد ، من لدن المَهْد ، كرماً وخصلاً ، وصَرّفت متجردة الأقــلام ، إلى مَثابة خلافته المنصورة الأعلام ، وُجُوهَ عبارة الكلام ، فاتخذ من مقام إبراهيم مُصَلّى ، مقامُ مولانا أمير المؤمنين الخليفة الإمام أبي إسحاق ابن مولانا أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين ، أبقاه الله تعالى تهوي إليه الأفئدة كلّما انتشت بذكره ؛ وتتنافس الألسنة في إحراز غاية حمده وشكره ، وتتكفّل الأقدار بإنفاذ نهيه وأمره ، وتغرى عواملُ عواملِه بحذف زيد عدوّه وعَمْرِه ، ويتبرع أسمر الليل وأبيض النهار بإعمال بيضِه وسُمْره ، ولا زال حُسامه الماضي يغني يومُه في النصر عن شهره ، والروض يحييه بمباسم زهره ، ويرفع إليه رُقَعَ الحمد ببنان قضبه الناشئة من مِعْصَم نهره ، وولي الدنيا والآخرة يمتعنا بهما بعد الإعانة على مَهْرِه ، يُقَبِّلُ بساطَه المعوّدَ الاستلام بصفحات الخدود ، الرافع

عماده ظلُّ العدل الممدود ، عبدُ مقامه المحمود ، ووارد غَمْر إنعامه غير المنزور ولا المثمود ، المُثني على نعمه العميمة ، ومِنَحه الجسيمة ، ثناء الروض المَجُود ، على العُهُود ، ابنُ الخطيب ، من باب المولى الموجب حقّه ، المتأكّد الفروض ، الثابت العهود ، المعتدّ منه بالود الجامع الرسوم والحدود ، والفضل المتوارَث عن الآباء والجدود ، يسلم على مَثابتها سلامَ متلو على مثلها إن وجد المثل في الثاني ، ويعوّذ كمالها بالسبع المثاني ، ويدعو الله تعالى لسلطانها بتشييد المباني ، وتيسير الأماني ، ويُنهي إلى علوم تلك الخلافة الفاروقية المقدّسة بمناسب التوحيد ، المستولية من مدارك الآمال على الأمد البعيد ، أن مخاطبتها المولوية تاهت على الملوك فارعة العلا ، مزَعْفَرة الحلل والحلى ، ذهبية المجلى ، تفيد العز المكين ، والدنيا والدين ، وتُرعى في الآباء والبنين ، على مر السنين ﴿صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسرُّ النّاظرين﴾ (البقرة : ٦٩) وقد حملت من مدحها الكريم ما أخفي للمملوك من قرة عَيْن ، ودرة زين ، جبين الشرف الوضاح ، ومستوجب الحق على مثله من الخلق بالنسب الصُّراح ، والغُرَر والأوضاح ، والأرَجِ الفَوّاح ، فاقتنى دره النفيس ، ووجد المروع[1] في جانب الخلافة التنفيس ، وقراه لما قراه التعظيم والتقديس ، وقال ﴿يا أيّها المَلأ إنّي أُلقِيَ إلي كِتابٌ كَرِيم﴾ (النمل : ٢٩) وإن لم يكن بلقيس ، أعلى الله تعالى تلك اليد مُطَوِّقة الأيادي ، ومخجلة الغمائم والغَوادي ، وأبقاها عامرة النوادي ، غالبة الأعادي ، وجعل سيفها السفاح ورأيها الرشيد وعَلَمها الهادي ، ووصل ما ألطف به رعيها من أشتات بر بلغت ، وموارد فضل سوّغت ، أمدّها سعادة المولى بمدد لم يضر معه البحر الهائل ، ولا العدوّ الغائل ، وأقام أَوَدَها عند الشدائد الفُلك المائل ، لا بل الملك الذي له إلى الله الوسائل ، وحَسِبَ الجفن رسالتكم الكريمة لحظاً فصان وأكرم ، وعُوذَةً فتعوّذ بها وتحرَّم ، وتولى المملوك تنفيق عروضها

[1] ص : المروج .

بانشراح صدره ، وعلى قدره ، فوقعت الموقع الذي لم يقعه سواها ، فأمّا الخيل فأُكرم مثواها ، وجُعلت جنان [1] الصون مأواها ، ولو كسيت الربيع المزهر حللاً ، وأوردت في نهر المجرة عَلاً ونَهَلاً ، وقلدت النجوم العواتم صحلاً ، ومسحت أعطافها بمنديل النسيم ، وألحفت بأردية الصباح الوسيم ، وافترشت لمرابطها الحَشايا ، وأُقضمت حبات القلوب بالعشايا ، لكان بعض ما يجب ، لحقّها الذي لا يجحد فضله ولا يحتجب ، وما عداها من الرقيق والفتيان ، رُعاة ذلك الفريق تكفّله الاستحسان ، وأطنب الاعتقاد وإن قصر اللسان ، تولى الله تعالى تلك الخلافة بالشكر الذي يُحْسِبُ العطاء ، والحفظ الذي يُسْبل الغِطاء ، والصنع الذي ييسر من مطا الأمل الامتطاء ، وأما ما يختص بالمملوك فقد خصّه بقبوله تبركاً بتلك المقاصد التي سددها الدِّين ، وعدّدها الفضل المبين ، وأنشد الخلافة التي راق من مجدها الجبين :

قلدتَني بفرائد أخرجتها من بحرِ جودك وهو ملتطمُ الثَّبَجْ
ورعيتَ نسبتَها فإنَّ سبيكة ممّا يلائم لونها قطعَ السَّبَجْ

والمملوك بهذا الباب النصري أعزّه الله تعالى على قدم خدمة ، وقائم بشكر منة لكم ونعمة ، وحاضر في جملة الأولياء بدعائه وحُبِّه ، ومتوسل في دوام بقاء أيامكم ونصر أعلامكم إلى ربّه ، وإن بَعُدَ بجسمه فلم يبعد بقلبه ، والسلام الكريم ، الطيب البر العميم ، يخصّها دائماً متصلاً ، ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

[٤٧ – مخاطبة من ابن البربري المالقي إلى لسان الدين]

وممّا خوطب به لسان الدين قول أبي الحسن علي بن يحيى الفزاري المالقي

---

[1] ص : جنات .

المعروف بابن البريري ، وكان ممّن يمدح الملوك والكبراء :

لِبابِكَ أمَّ الآمِلُون ويمّموا ... وفي ساحتَيْ رحماك حطُّوا وخيموا
ومن راحتَيْ كفيك جدواك تنهمي ... فتروَى عطاشٌ من نداك وتنعمُ
وأنت لما راموه كعبةُ حجّهم ... إذا شاهدوا مرآك لَبَّوا وأحرموا
يطوفون سبعاً حول بابك عندما ... يلوحُ لهم ذاكَ المَقامُ المعظّمُ
فيُمْناك يمنٌ للرعايا ومنّةٌ ... ويسراك يسرٌ للعُفاةِ ومغنمُ
ولقياك بِشرٌ للنفوسِ وجنّةٌ ... ترنُّ بها وُرْقُ المنى وترَنّمُ
فيا واحدَ الأزمانِ علماً ومنصباً ... ويا مَنْ به الدنيا تروقُ وتبسمُ
ومَنْ وجهه كالبدر يشرقُ نوره ... ومَنْ جوده كالغيثِ بل هو أكرمُ
ومَنْ ذكره كالمسك فُضَّ ختامُهُ ... وكالشمسِ نوراً بشرُه المتوسَّمُ
لقد حُزْتَ فضلَ السبقِ غيرَ منازَعٍ ... فأنت على أهلِ السباقِ مقدَّمُ
حويتَ من العلياء كلَّ كريمةٍ ... بها الروضُ يَنْدَى والرُّبى تتبسمُ
وباهَيْتَ أقلامَ الأنام براعةً ... فلا قلم إلا يراعَكَ يخدمُ
إذا فاخرَ الأمجادُ يوماً فإنّما ... لمجدك في حالِ الفخارِ يُسَلِّمُ
وإن سكتوا كنتَ البليغَ لديهمُ ... تعبِّرُ عن سرِّ العُلا وتترجمُ

ومنها :

فيا صاحبَيْ نجوايَ عُوجا برامةٍ ... على رَبعه حيثُ الندى والتكرمُ
وقولا لهُ عبدٌ ببابك يرتجي ... قضاء لُباناتٍ لديك تُتمَّمُ
فليس لهُ إلاّ عُلاكَ وسيلةٌ ... ولا شيء أسمى من علاكَ وأعظمُ
فجُد بالذي يرجوه منك فما له ... كعقدٍ ثمينٍ من ثنائك يُنظمُ
بقيتَ ونجمُ السّعدِ عندك طالعٌ ... يُضيءُ لهُ بدرٌ وتشرقُ أنجمُ

توفّي المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

[٤٨ – مخاطبة من الحرالي إلى لسان الدين]

ومما خوطب به قولُ أبي القاسم قاسم بن محمد الحرالي المالقي القاضي بانتقيرة[1] قبل وفاته :

عليك قصرتُ المدحَ يا خيرَ ماجدٍ وأفْضَلَ موصوفٍ بكلِّ المحامدِ
ويا كهفَ ملهوفٍ، وملجأ خائف ومورِدَ جود قد كفى كلَّ واردِ
لقد شُهِرت بالمجدِ منك شمائلٌ محاسنها أزكى وأعدلُ شاهدِ
وكلُّ الذي يبدو من الفضل بعضُ ما حُبيت به ، أعْظِمْ بها من محامدِ
إذا أمّلت منك المكارمُ ألفيَتْ تُنادي هلمُّوا فزتمُ بالمساعدِ
عطاؤكم جزْلٌ فمن أمّلَ الغنى فمثلكم يبغي فيا سعدَ قاصدِ
وراثةُ مجدٍ كابراً بعد كابرٍ وأصلٌ زكيٌّ الفرع عذبُ الموارد

[ترجمة أبي القاسم الحرالي]

وتوفّي المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمائة ، وفي حقّه يقول في « الإكليل » : مشمر في الطلب عن ساق ، مُثابر على اللحاق بدرجات الحذّاق ، منتحل للعربية ، جادّ في إحصاء خلافها ، ومُعاطاة سُلافها ، وربما شرست في المذاكرة أخلاقه ، إذا بُهْرِجت أعلاقه ، ونوزع تمسّكه بالحجّة واعتلاقه . وقال لسان الدين في ترجمة شعر المذكور : إنّه ضعيف مهزول ؛ انتهى .

[٤٩ – رسالة من المنتشاقري إلى لسان الدين]

ومما خوطب به قول أبي الحجاج يوسف بن موسى الجذامي المنتشاقري من أهل رُنْدَة ، ونصّه :

حيّاك فؤادي نيلَ بشرى وأحياكا وحيدٌ بآدابٍ نفائسَ حيّاكا

---

١ انتقيرة (Antequera) تبعد عن مالقة حوالي ٦٠ كيلومتراً شمالا .

بدائعُ أبداها بديعُ زمانــهِ فطاب بها يا عاطرَ الروض ريّاكا
أمهديَها أودعتَ قلبي علاقةً وإن لم يزل مُغْرًى قديماً بعلياكا
إذا ما أشار العصرُ نحو فريدهِ فإياك يَعْنِي بالإشارة إياكا
لأتحفني لقياكَ أسنى مؤمَّلي وهل تُحْفَةٌ في الدهر إلا بلقياكا
وأعقبتَ إتحافي فرائدكَ التي وجوبُ ثناها يا لسانيَ أعياكا

ووصل هذا النظم بنثر صورته : « خصصتني أيها المخصوص بمآثرَ أعيا عَدُّها وحَصْرُها ، ومكارم طيّبَ أرواحَ الأزاهرِ عِطْرُها ، وسارت الركبان بثنائها ، وشملت الخواطر محبة علائها ، بفرائدك الأنيقة ، وفوائدك المزرية جمالاً على أزهار الحديقة ، ومعارفك التي زكت حقّاً وحقيقة ، وهدَت الضالَّ عن سبيل الأدب مَهْيَعه وطريقه ، وسبق تحفتك أعلى التحف عندي وهو مأمول لقائك ، والتمتع بالتماح سَناك الباهر وسنائك ، على حين امتدت لذلكم اللقاء أشواقي ، وعظم من فوت استنارتي بنور محيَّاك إشفاقي ، وتردد لهَجي بما يبلغني من معاليك ومعانيك ، وما شاده فكرك الوقاد من مبانيك ، وما أهلت به بلاغتك من دراسه ، وما أضفيت [1] على الزمان من رائق ملابسه ، وما جمعت من أشتاته ، وأحييت من أمواته ، وأيقظت من سِناته ، وما جاد به الزمان من حَسَناته ، فلترداد هذه المحاسن من أنبائك ، وتصرُّف الألسنة بثنائك ، علقت النفسُ من هواها بأشد عَلاقة ، وجنحت إلى لقائك جنوحَ والهة مشتاقة ، والحوادث الجارية تَصْرِفُها ، والعوائق الحادثة كلّما عطفت أملها إليه لا تتحفها به ولا تَعْطِفها ، إلى أن ساعد الوقت ، وأسعد البخت ، بلقائكم في هذه السفرة الجهادية ، وجاد إسعاف الإسعاد من أمنيتي بأسنى هدية ، فلقيتكم لُقْيا خَجَل ، ولمحت أنواركم لمحة على وَجَل ، ومحبّتي في محاسنكم الرائقة ، ومعاليكم الفائقة ، على

---

١ ق ص : أضيفت .

ما يعلمه ربنا عزّ وجل ، وتذكرت عند لقائكم المأمول ، إنشاء قائل يقول :

كانت مساءلَةُ الركبانِ تخبر عن محمدِ بن الخطيب أطيبَ الخبرِ
حتى التقينا فلا والله ما سمعتْ أذني بأحسنَ ممّا قد رأى بصري

قسمٌ لعمري أقوله وأعتقده ، وأعتده وأعتمده ، فلقد بهرت منك المحاسن ، وفُقْتَ من يُحاسن ، وقَصّر عن شأوكَ كلُّ بليغ لَسِنٍ ، وسبقَتْ فطنتك النارية النورية بلاغة كل فَطِنٍ ، وشهد لك الزمان أنكَ وحيدُه ، ورئيس عصبته الأدبية وفريده ، فبورك لك فيما أُنلت من الفضائل ، وأُوتيت من آيات المعارف التي بها نور الغزالة ضائل ، ولا زلت ترقى في مراتب المعالي ، مُوَقًّى صروف الأيام والليالي » انتهى .

[٥٠ — رسالة لسان الدين إلى المنتشاقري]

وهذا الخطاب جواب من المذكور لكلام خاطبه به لسان الدين نصّه :

حمدتُ على فرطِ المشقّةِ رحلةً أتاحتْ لعينيَّ اجتلاءَ محيّاكا
وقد كنتُ بالتذكارِ في البعدِ قانعاً وبالريحِ إن هبَّتْ بعاطر ريّاكا
فحلّتْ ليَ النُّعمى بما أنعمتْ به عليَّ فحيّاها الإلَهُ وحيّاكا

« أيها الصدر الذي بمخاطبته يُباهى ويتشرف ، والعَلَم الذي بالإضافة إليه يتعرف ، والروضُ الذي لم يزل على البعد بأزهاره الغضة يُتْحِف ، دمت تتزاحم على موارد ثنائك الألسن ، ويَرْوِي الرواة من أنبائك ما يصح ويَحْسُن ، طالما مالت إليك النفوسُ منّا وجَنَحَتْ ، وزجرت الطائر الميمون من رقاعك كلّما سَنَحَتْ ، فالآن اتضح البيان ، وصدّق الأثر العيان ، ولقد كنّا للمقام بهذه الرحال نرتمض ، ويجنُّ الظلام فلا نغتمض ، هذا يقلقه إصفار كيسه ، وهذا يتوجّع لبعد أنيسه ، وهذا تروعه الأهوال ، وتضجره بتقلباتها الأحوال ،

فمن أنّة لا تنفع ، وشكوى إلى الله تعالى تُرفع ، فلمّا ورد بقدومك البشير ، وأشار إلى ثَنية طلوعك المشير ، تشوفت النفوس الصَّدِئة إلى جلائها وصِقالها ، والعقول إلى حلّ عِقالها ، والأنفس المُفْحَمة إلى فصل مَقالها ، ثم إن الدهر راجعَ التفاته ، واستدرك ما فاته ، فلم يسمح من لقائك إلا بلمحة ، ولا بعث من نسيم روضك بغير نفحة ، فما زاد أن هيَّج الأشواق فالتهبت ، وشَنّ غاراتها على الجوانح فانتهبت ، وأعلّ القلوب وأمرضها ، ورمى ثغرة الصبر فأصاب غَرَضَها ، فإن رأيت أن تنفِّس عن نفسٍ شد الشوق مُخَنَّقَها ، وكدَّر مشاربَ أنسها وأذهب رَوْنَقَها ، وتتحف من آدابك بدرر تُقتنى ، وروضة طيبة الجَنى ، فليست ببدع في شيمك ، ولا شاذة في باب كرمك ، ولولا شاغل لا يبرح ، وعوائق أكثرها لا يُشرح ، لنافستُ هذه السّحاءة في القدوم عليك ، والمثول بين يديك ، فتشَوُّقي إلى اجتلاء أنوارك شديد ، وتَشَيُّعي إلى إبلاء الزمان جديد » انتهى .

[ترجمة أبي الحجاج المنتشاقري]

ووصف لسان الدين في « التاج المحلّى » أبا الحجاج المذكور بما صورته[1] : حسنة الدهر الكثير العيوب ، وتوبة الزمان الجمّ الذنوب ، ما شئت من أدب يتألّق ، وفضل تتعطر به النسمات وتتخلّق ، ونفس كريمة الشمائل والضرائب ، وقريحة يقذف بَحرُها بدرر الغرائب ، إلى خشية لله تعالى تحول بين القلوب وقرارها ، وتَثْني النفوس عن اغترارها ، ولسان يبوح بأشواقه ، وجفن يسخو بدرر آماقه ، وحرص على لقاء كل ذي علم وأدب ، ومن يَمُتّ إلى أهل الديانة والعبادة بسبب ، سبق بقُطْره الحَلْبة ، وفرع من الأدب الهضبة ، ورفع الراية ،

[1] انظر ترجمة أبي الحجاج المنتشاقري في الكتيبة : ١١٩ ؛ وهذه النسبة الى منتشاقر (Monte - Sacro) في مقاطعة أكشونبة .

وبلغ في الإحسان الغاية ، فطارت قصائده كلَّ المطار ، وتغنّى بها راكب الفُلك وحادي القطار ، وتقلد خُطّة القضاء ببلده ، وانتهت إليه رياسة الأحكام بين أهله وولده ، فوضحت المذاهبُ بفضل مذهبه وحُسن مقصده ، وله شيمة في الوفاء تعلَّم منها الآس ، ومؤانسة عذبة لا تستطيعها الأكواس ، وقد أثبتُّ من كلامه ما تتحلى[1] به مراتب المهارق ، ويجعل طيبه فوق المفارق ، وكنت أتشوق إلى لقائه ، فلقيته بالمحلة من جبل الفتح لقيا لم تبلَّ صدًى ، ولا شَفَتْ كمداً ، وتعذر بعد ذلك لقاؤه ، فخاطبته بهذه الرقعة :

حمدت على فرط المشقّة رحلة

فذكر لسان الدين ما قدمنا إلى آخره .

وقد أورد جملة من مطولاته وغيرها ومؤلفاته ، ولنلخص بعض ذلك فنقول :

ومن شعر أبي الحجاج المذكور يمدح الجهة الكريمة النبوية ، مُصَدِّراً بالنسيب لبسط الخواطر النفسانية ، قوله :

لمّا تناهى الصبُّ في تشويقِهِ ... دررُ الدموعِ اعتاضها بعقيقِهِ
متلهفٌ وفــؤادُهُ متلهبٌ ... كيف البقا بعد احتدامِ حريقِهِ
متموّجٌ بحرُ الدموع بخدِّه ... أنّى خلاصٌ يرتجى لغريقِهِ
متجرعٌ صابَ النوى من هاجرٍ ... ما إن يحنُّ للاعجاتِ مشوقِهِ
يسبي الخواطرَ حسنُه ببديعهِ ... يُصْبي النفوسَ جمالُه بأنيقهِ
قَيْدُ النواظر إذ يلوحُ لرامقٍ ... لا تنثني الأحداقُ عن تحديقهِ
للبــدر لَمْحتُهُ كبِشْر ضيائه ... للمسكِ نَفْحته كنشرِ فتيقهِ
سكرتْ خواطرُ لاحيهِ كأنّهم ... شربوا من الصهباء كأسَ رحيقِهِ
عطشوا لثغرٍ لا سبيلَ لريقِهِ ... إلا كلمحِهمُ للمع بريقِــهِ

[1] ق : تتجلى .

ما ضرَّ مولًى عاشقوه عبيدُه ... لو رقَّ إشفاقاً لحالِ رقيقِه
عنه اصطباري ما أنا بمطيعه ... مثلُ السلوّ ولا أنا بمطيقِه
سجَعَ الحمامُ بشوق ترجيع الهوى ... فأثارَ شجوَ مشوقه بمَشُوقِه
وبكتْ هَديلاً راعها تفريقه ... ويحقُّ أن يبكي أخو تفريقِه
وبكاءُ أمثالي أحقُّ لأنني ... لم أقضِ للمولى أكيدَ حقوقِه
وغَفَلْتُ في زمن الشباب المنقضي ... أقْبِحْ بنسخ برورِه بعقوقِه
وبدا المشيبُ وفيه زجرُ ذوي النُّهى ... لو كنتُ مزدجراً لشَيم بروقِه
حسبي ندامةُ آسفٍ ممَّا جنى ... يصلُ النشيجَ لوزره بشهيقِه
ويروم ما خرم الهوى زمن الصِّبا ... ويرومُ من مولاه رَتْقَ فتوقِه
ويردِّد الشكوى لديه تذللاً ... علَّ الرضى يحييهِ دركُ لحوقِه
فيصحُّ من سكر التصابي سكره ... نسخاً لحكمِ صَبوحه وغَبوقِه
لو كنتُ يممتُ التُّقى وصحبتُه ... وسلكتُ إيثاراً سَواءَ طريقِه
لأفدتُ منه فوائداً وفرائداً ... عرضتْ تُسامُ لرابحٍ في سوقِه
لله أربابُ القلوبِ فإنّهم ... من حزبِ مَنْ نال الرضى وفريقِه
قاموا وقد نام الأنام فنورهم ... هتكَ الدجى بضيائه وشروقِه
وتأنَّسوا بحبيبهم فلهم به ... بِشرٌ لصدقِ الفضلِ في تحقيقِه
قَصَّرْتُ عنهم عندما سبقوا المدى ... ولسابقٍ فضلٌ على مسبوقِه
لولا رجاءُ تَلَمُّحٍ من نورهم ... يحيي الفؤادَ بسيره وطروقِه
وتأرجٌ يستافُ من أرواحهم ... سببَ انتعاش الروح طيبُ خَلوقِه
لفنيتُ من جرَّا جرَائريَ التي ... من خوفها قلبي حليف خفوقِه
ومعي رجاءُ توسّلٍ أعددته ... ذخراً لصدماتِ الزمانِ وضيقِه
حبي ومدحي أحمد الهادي الذي ... فوزُ الأنام يصحُّ في تصديقِه
أسمى الورى في منصبٍ وبمنسبٍ ... من هاشمٍ زاكي النِّجار عريقِه
الحقُّ أظهرهُ عقيبَ خَفائه ... والدِّينُ نظَّمه لدى تفريقِه

ونفى هُداه ضلالةً من جائرٍ مستوثقٍ بيَغُوثِه ويَعُوقِهِ
سبحان مرسله إلينا رحمةً يهدي ويُهْدَى الفضلُ من توفيقِهِ
والمعجزاتُ بدت بصدقِ رسوله وحقيقهِ بالمـأثرات خليقِهِ
كالظّبي في تكليمه، والجذعِ في تحنينه، والبدرِ في تشقيقِهِ
والنارِ إذ خمدتْ بنورِ ولادةٍ وأُجاجِ ماءٍ قد حلا من ريقِهِ
والزادُ قَلَّ فزاد من بركاتهِ فكفى الجيوشَ بتَمْره وسَويقِهِ
ونبوعُ ماءِ الكفِّ من آياته وسلامُ أحجارٍ غَدَتْ بطريقِهِ
والنخلُ لمَّا أن دعاه مشى لهُ ذا سرعةٍ بعذوقهِ وعروقِهِ
والأرضُ عايَنَها وقد زُويت له فقريب ما فيها رأى كسحيقِهِ
وكذا ذراعُ الشاةِ قد نطقتْ له نطقَ اللسانِ فصيحِهِ وذَليقِهِ
ورمى عداه بكفِّ حصبا فانثنت هرباً كمذعورِ الجَنان فَروقِهِ
وعليهِ آياتُ الكتابِ تنزلت تُتلى بعلو جلالِهِ وبُسوقِهِ
وأُذيق من كأسِ المحبَّةِ صِرفها سبحانَ ساقيهِ بها ومذيقِهِ
حاز السناء وناله بعروجِـهِ جاز السماء طباقَها بخروقِهِ
ولكَم له من آيةٍ من ربِّهِ وعنايةٍ ورعـايةٍ بحقوقِهِ
يا خيرةَ الأرسالِ عند إلهِهِ يا محرزَ العَليا عَلى مخلوقِهِ
عَلَّقْتُ آمالي بجاهك عدَّةً والقصدُ ليس يخيبُ في تعليقِهِ
وعَلِقْتُ من حبل اعتمادي عمدةً لتمسُّكي بقويِّـهِ ووَثيقِهِ
ولئن غدوتُ أخيذَ ذنبي إنّني أرجو بقصدِكَ أن أرى كطليقِهِ
وكسادُ سوقي مذ لجأت لبابكم يقضي حصولَ نفوذهِ ونفوقِهِ
ويحنُّ قلبي وهو في تغريبه لمزاره لرُباكَ في تشريقِـهِ
وتزيد لوعته متى حَثَّ السُّرى حادٍ حدا بجِماله وبنُوقِهِ
وأرى قشيبَ العمر أمسى بالياً ومرورَ دهري جدَّ في تمزيقِهِ

وأخافُ أن أقضي ولم أقضِ المُنى بنفوذِ سَهْمِ منيَّتي ومُروقهِ
فمتى أحطُّ على اللوى رحلي وقد بلغتْ ركابي للحِمى وعقيقهِ
وأمرِّغُ الخدين في تربٍ غدا كالمسكِ في أرَجٍ شذا منشوقهِ
وأعيدُ إنشائي وإنشادي الثنا ببديعِ نظمِ قريحتي ورقيقهِ
حتّى أُميل العاشقين تطرباً كالغصن مَرَّ صَباً على ممشوقهِ
وتحيّةُ التسليم أبْلَغُ شافعٍ وثَنا المديح حديثِهِ وعتيقهِ
ولذي الفخار وذي الحلى ووزيره صِدّيقه وأخي الهدى فاروقهِ
مني السلامُ عليهمُ كالزَّهْرِ في تأليفهــا والزَّهْرِ في تأنيقهِ

وقال [1] :

هواكمْ بقلبي ما لمحكمهِ نسخُ ومِنْ أجلهِ جفني بمدمعهِ يسخو
ومن نشأتي ما إن صَحَتْ منه نَشْوتي سواءٌ به عصر المشيبِ [2] أو الشَّرْخُ
عليهِ حياتي مُذْ تمادت وميتتي وبعثي إذا بالصُّور يتفقُ النفخُ
ولي خَلَدٌ أضحى قنيصَ [3] غرامهِ ولا شَرَكٌ يدني إليــهِ ولا فخٌّ
قتلتُ سلوّي حين أحييتُ لوعتي وما اجتيحَ بالإقرار في حالتي لطخُ
وأغدو إلى سُعدى بكرخٍ علاقتي وقصديَ قصدي ليس سعدى ولا الكرخُ
وناصحُ كتمي [4] إذ زكت بيّناته [5] يجولُ عليه من دموع الأسى نضخُ
وأرجو بتحقيقي هواكم بأن أفي فعهدٌ ولا نقضٌ ، وعقدٌ ولا فسخُ
وما الحبُّ إلا ما استقلَّ ثبوته لمبناهُ رصٌّ في الجوانح أو رسخُ [6]

---

١ القصيدة في الكتيبة : ١٢١ .
٢ ق والكتيبة : الشباب .
٣ ق ص : يبيض .
٤ الكتيبة : وما صح جسمي .
٥ ق ص : أدركت ؛ ص : بينانه .
٦ ق : رض . . . أو رضخ .

إذا مسلكٌ لم يستقمْ بطريقه سلكتُ اعتدالاً مثلما يسلك الرخُّ
بدا لضميري من سناكم تلمُّحٌ فبخٍّ لعقلٍ لم يطرْ عندها بخُّ
على عَوْدِ ذاك اللمح ما زلتُ نادباً كما تندب الورقاء فارَقَها الفرخُ
يــدي بأياديكُم وقلبيَ شاغــل فمن فكرتي نسجٌ ومن أنملي نسخُ

وقال :

إليكَ تحنُّ النُّجْبُ والنُّجَباءُ فهم وَهْيَ في أشواقهم شركاءُ
تخبُّ بركّابٍ تحبّ وصولها لأرضٍ بهــا بادٍ سناً وسناء
فأنفاسُها ما إن تني صُعَداؤها وأنفُسُهُمْ من فوقِها سُعَداء
هُمُ عالجوا إذ عجّل السيرُ داءهم وأشباهُ مثلي مُدْنَفُونَ بِطاء
قعدتُ ودوني للحبيبِ ترحلوا وما قاعدٌ والراحلون ســواء
له وعليهِ حبُّ قلبي وأدمعي وقد صحَّ لي حبٌّ وسَحَّ بــكاء
بطيبة هل أرضى وتبدو سماؤها وإن تكُ أرضاً فالحبيب سماء
شذا نَفْحِها واللمحُ منها كأنّه ذكاء عبير والضياء ذُكاء
فيا حادياً غنّى وللركب حادياً عنانيَ بعدَ البعد عنكَ عناء
بسَلْع فسل عمّا أقاسي من الهوى وسـلْ بقباءٍ إذ يلُوح قباء
وفي عالج مِنّي بقلبيَ لاعجٌ فهلْ لي علاجٌ عنده وشفاء
وللرقمتين أرقَمُ الشوقِ لادغٌ ودرياقُهُ أن لو يُباح لقاء
أماكن تمكينٍ وأرضٍ بها الرضى وأرجاءُ فيهــا للمشوق رجاء

وقال [1]

أدبُ الفتى في أن يُرى متيقظاً لأوامــرِ من ربّــهِ ونواهِ
فإذا تمسّكَ بالهوى يهوي بهِ والحبلُ منهُ لمن تيقّن واهِ

[1] هذه المقطوعة والثنتان تاليتان في الكتيبة : ١٢٢ .

وقال :

يا من بدُنياه ظلَّ في لجج ٍ حقّقْ بأنَّ النجاةَ في الشاطي
تطمعُ في إرثك الفلاحَ وقد أضَعْتَ ما قبله مِنَ اشراطِ
كن حذراً في الذي طمعتَ به ِ من حَجْبِ نقص وحجب إسقاطِ

وقال :

تُرى شعروا أنّي غبطتُ نُسَيْمَةً ذكَتْ بتلاقي الروضِ غِبَّ الغمائمِ
كما قابلتْ زهرَ الرياض وقبَّلتْ ثغورَ أقاحيهِ بلا لومِ لائمِ

وقال :

وَرَدَ المشيبُ مُبَيِّضاً بوروده ِ ما كان من شَعرِ الشبيبةِ حالكا
يا ليتَهُ لو كان بَيَّضَ بالتُّقى ما سوَّدَتْهُ مآثمٌ من حالكا
إنَّ المشيبَ غدا رداءً للردى فإذا علاك أجدَّ في ترحالكا

وقال[1] :

لوعةُ الحبِّ في فؤادي تعاصتْ أن تُداوَى ولَوْ أتى ألفُ راقِ
كيفَ يَبْرا مِنْ علَّةٍ وعليها زائدٌ علَّةُ النوى والفراقِ
فانسكابُ الدموع جارٍ فجارٍ والتهابُ الضلوعِ راقٍ فَراقِ

ومن غرائب الاتفاق أنّه قال : كنت جالساً بين يدي الخطيب أبي القاسم التاكروني صبيحة يوم بمسجد مالقة ، فقال لنا في أثناء حديثه : رأيت البارحة في عالم النوم كأنَّ أبا عبد الله الجلياني يأتيني ببيتي شعر في يده ، وهما :

---

١ الكتيبة : ١٢٢ .

كلُّ علمٍ يكون للمرء شُغْلاً بسوى الحق قادحٌ في رشاده
فإذا كان فيـهِ للهِ حظٌّ فهوَ ممّا يُعِدُّهُ لمعاده

قال : فلم ينفصل المجلس حتّى دخل علينا الفقيه الأديب أبو عبد الله الجلياني ، والبيتان معه ، فعرضهما على الشيخ ، فأخبره أنّه صنعهما البارحة ، فقال له كل من في المجلس : أخبرنا بهما الشيخ قبل مجيئك ، فكان هذا من العجائب .

ولأبي الحجاج المذكور تواليف ، منها كتاب « ملاذ المستعين في بعض خصائص سيد المرسلين » أربعون حديثاً ، وكتاب « تخصيص القرب وتحصيل الأرب » و« قبول الرأي الرشيد في تخميس الوتريات النبوية لابن رشيد » و « انتشاق النسمات النجدية واتّساق النزعات الجدية » و « غرر الأماني المسفرات في نظم المكفّرات » و « النفحات الرَّندية واللمحات الرُّندية » مجموع شعره ، و « حقائق بركات المنام في مرأى المصطفى خير الأنام » و « الاستشفاء بالعدة والاستشفاع بالعمدة في تخميس البردة » و « توجّع الرائي في تنوّع المرائي » و « اعتلاق السائل بأفضل الوسائل » و « لمح البهيج ونفح الأريج » في ترجيز كلام الشيخ أبي مدين من عبارات حكمية وإشارات صوفية ، وكتاب « تجريد رؤوس مسائل البيان والتحصيل لتيسير البلوغ لمطالعتها والتوصيل » وفهرسة روايته ، ورجز ذكر مشايخ أبي عمر الطنجي ، وكتاب « أرج الأرجاء في مزج الخوف والرجاء » أربعون حديثاً في الرجاء والخوف .

وكان رحمه الله تعالى حيّاً حين ألف لسان الدين « الإحاطة » رحم الله تعالى الجميع .

ورأيت على ظهر أوّل ورقة من « الريحانة » بخط الإمام الكبير الشهير الشيخ إبراهيم الباعوني الدمشقي رحمه الله تعالى ما نصّه : قال كاتبه إبراهيم بن أحمد الباعوني — غفر الله ذنوبه ، وستّر عيوبه ، وبلّغه من فضله مطلوبه — صاحبُ كتاب الريحانة ، آية من آيات الله سبحانه ، لوجه أدبه طلاقة ، وللسانه ذلاقة ،

وللقلوب به علاقة ، وفي خطّه غلاقة ، يعرفها مَنْ عرف اصطلاحه بمطالعته ، وينفتح له بابُ فهمها بتكرير مراجعته ، فليتأمّل الناظر إليه ، والمقبل عليه ، ما فيه من الجواهر ، والنجوم الزواهر ، بل الآيات البواهر ، وليسبّح الله تعالى تعجباً من قدرته جل وعلا ، ومواهبه التي عذب ماؤها النّميرُ وحَلا ، وليقل عند تأمل دره النّظيم ﴿ ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتيهِ مَنْ يَشاء واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظيم ﴾ (الحديد : ٢١) ؛ انتهى .

وقوله رحمه الله تعالى « وفي خطّه غلاقة » ليس المراد به إلا صعوبة الخط المغربي على أهل المشرق حسبما يُعلم ممّا بعده ، وإلاّ فإن خط لسان الدين رحمه الله تعالى محمود عند المغاربة ، ولنقتصر من هذا الغرض على ما ذكر ، فإن تتبعه يطول ؛ إذ هو بحر لا ساحل له .

[نقل من الروض الأريض لابن عاصم]

وكان لسان الدين رحمه الله تعالى مؤثراً لقضاء حاجة مَنْ أمّله ، وقَصَد بابه وأمّ له ، سواء كان من أودائه ، أو من أعدائه ، وقد ذكر الوزير الرئيس الكاتب أبو يحيى ابن عاصم رحمه الله تعالى عنه في ذلك حكاية في أثناء كلام رأيت أن أذكر جملته لما اشتمل عليه من الفائدة ، وهو أنّه ذكر في ترجمة شموس العصر من ملوك بني نصر من كتابه المسمّى بـ « الروض الأريض » في اسم السلطان الذي كان ابن الخطيب وزيره ، وهو الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر الخزرجي ، بعد كلام ما صورته[1] : كان قد جرى عليه التمحيص الذي أزعجه عن وطنه إلى الدار البيضاء بالمغرب من إيالة بني مَرين ، فأفادته الحنكة والتجربة هذه السيرة التي وقف شيوخنا على حقيقتها ، وانتهجوا واضح طريقتها ، وبلغتنا منقولة بألسنة صدقهم ، معبراً عنها في عرف

١ أزهار الرياض ١ : ٥٨ — ٦٠ .

التخاطب بالعادة ، فلم يكن الوزير الكيّس والرئيس الجهبذ يجريان من الاستقامة على قانون ، ولا يطّردان من الصواب على أسلوب ، إلا بالمحافظة على ما رسم من القواعد ، والمطابقة لما ثبت من العوائد ، وكان ذوو النُّبل من هذه الطبقة وأُولو الحذق من أرباب هذه المهن السياسية يتعجبون من صحة اختياره لما رَسَم ، وجودة تمييزه لما قصد ، ويَرَوْن المفسدة في الخروج عنها ضَرْبَةَ لازب ، وأن الاستمرار على مراسمها آكد واجب ، فيتحرونها بالالتزام كما تُتحرى السنن ، ويتوخونها بالإقامة كما تُتوخى الفرائض ، وسواء تبادَرَ لهم معناها ففهموه ، أو خفي عليهم وَجْهُ رسمها فجهلوه ، حدثني شيخُنا القاضي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسني أن الرئيس[1] أبا عبد الله ابن زَمرك دخل على الشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب يستأذنه في جملة مسائل ممّا يتوقّف عادة على إذن الوزير ، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبي عبد الله ابن زَمرك ، قال الشريف : فأمضاها كلّها له ، ما عدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة ، فقال له ذو الوزارتين ابن الخطيب : لا ، والله يا رئيس أبا عبد الله لا آذن في هذا ، لأنّا ما استقمنا في هذه الدار إلاّ بحفظ العوائد .

ثم قال صاحب الروض : فلمّا تأذّنَ الله تعالى للدولة بالاضطراب ، واستحكم الوهن بتمكن الأسباب ، عَدَلَ عن تلك القواعد الراسخة ، واستخف بتلك القوانين الثابتة ، فنشأ من المفاسد ما أعْوَزَ رَفْعُه ، وتعدد وتره وشفعه ، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دَفْعُه ، وتعذر فيه الدواء الذي يُرْجى نفعه ، وكان قد صحبه من الجد ما سنّى آماله ، وأنجح بإذن الله تعالى أقواله وأعماله ، فكان يجري الأمر على رسم من السياسة واضح ، ونظر من الآراء السديدة راجح ، ثم يحفّه من الجد سياج لا يفارقه إلى تمام الغاية المطلوبة من حصوله ، وتمكن مقتضى الإرادة السلطانية من فروعه وأصوله ؛ انتهى كلام ابن عاصم .

[1] ص : الرائس ، حيثما وقعت .

وإذ جرى ذكره فلا بأس أن نلمع بشيء من أحواله ، لأن أهل الأندلس كانوا يسمونه ابن الخطيب الثاني ، فنقول :

[ترجمة أبي يحيى ابن عاصم]

هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الجامع الكامل الشاعر المفلق الناثر الحجة ، خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق ، ومالك خدم البراعة بالاسترقاق ، أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم ، القيسي الأندلسي الغرناطي ، قاضي الجماعة بها ، كان – رحمه الله تعالى – من أكابر فقهائها وعلمائها ورؤسائها ، أخذ عن الإمام المحقق أبي الحسن ابن سمعت ، والإمام القاضي أبي القاسم ابن سراج ، والشيخ الراوية أبي عبد الله المنتوري ، والإمام أبي عبد الله البياني ، وغيرهم ، ومن تآليفه شرح تحفة والده ، وذكر فيه أنه ولي القضاء سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ، ومنها كتاب « جنة الرضى في التسليم لما قدر الله تعالى وقضى » وكتاب « الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض » كأنه ذيّل به إحاطة لسان الدين ابن الخطيب ، وله غير ذلك ، وقد أطلت الكلام في ترجمته من كتابي « أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها ممّا يحصل للنفس به ارتياح وللعقل ارتياض »[1] .

ووصفه ابن فرج السبتي بأنه الأستاذ العلَم الصدر المفتي القاضي رئيس الكتّاب ، ومعدن السماحة ، ومنبع الآداب ؛ انتهى .

[نموذج من نثر ابن عاصم]

وقد تقدم بعض كلامه فيما مرّ ، ومن بديع نثره الذي يسلك به نهج ابن

١ انظر ص : ١٤٥ وما بعدها من الجزء الأول من أزهار الرياض .

الخطيب رحمه الله تعالى قوله من كلام جلبت جملته في «أزهار الرياض» ، واقتصرت هنا على قوله بعد الحمدلة الطويلة ما صورته [1] : أمّا بعدُ فإن الله على كل شيء قدير ، وإنّه بعباده لخبير بصير ، وهو لمن أهل نيّتَهُ ، وأخلص طَوِيّتَهُ ، نعم المولى ونعم النصير ، بيده الرفع والخفض ، والبسط والقبض ، والرشد والغي ، والنشر والطيّ ، والمنح والمنع ، والضر والنفع ، والبطء والعجل ، والرزق والأجل ، والمسرّة والمَساءة ، والإحسان والإساءة ، والإدراك والفَوْت ، والحياة والموت ، إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون ، وهو الفاعل على الحقيقة وتعالى الله عمّا يقول الآفكون ، وهو الكفيل بأن يظهر دينه على الدين كلّه ولو كره المشركون ، وإن في أحوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعبرة لمن يفهم قوله تعالى ﴿ إنّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ ﴾ (الحج : ١٨) و﴿ إنّ اللهَ يَحْكُمُ ما يُريد ﴾ (المائدة : ١) بينما الدسوت عامرة ، والولاة آمرة ، والفئة مجموعة ، والدعوة مسموعة ، والإمرة مطاعة ، والأجوبة سمعاً وطاعة ، وإذا بالنعمة قد كُفِرَت ، والذمة قد خُفِرت .

إلى أن قال : والسعيد من اتعظ بغيره ، ولا يزيد المؤمن عمرُه إلاّ خيراً جعلنا الله تعالى ممّن قضى عمره بخيره ، وبينما الفرقة حاصلة ، والقطيعة فاصلة ، والمضرة واصلة ، والحبل في انبتات والوطن في شَتات ، والخلاف يمنع رَعْيَ متات ، والقلوب شتّى من قوم أشتات ، والطاغية يتمطى لقصم الوطن وقضمه ، ويلحظه لحظ الخائف على هضمه ، والآخذ بكَظْمه ، ويتوقع الحسرة أن يأذن الله بجمع شمله ونَظْمه ، على رغم الشيطان ورغمه ، وإذا بالقلوب قد ائتلفت ، والمتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت ، والأفئدة بالألفة قد اقترّبت إلى الله تعالى وازدلفت ، والمتضرعة إلى الله تعالى قد ابتهلت ، في إصلاح الحالة التي سَلَفَتْ ، فألقت الحرب أوزارها ، وأدنت الفرقة النافرة مزارها ، وجلت الألفة الدينية

[1] أزهار الرياض ١ : ١٦٠ .

أنوارها ، وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ، ورفعت الوحشة الناشبة أظفارها أعذارها ، وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها ، وغضت الفئة المتعرضة أبصارها ، وأصلح الله تعالى أسرارها ، فجمعت الأوطان بالطاعة ، والتزمت نصيحة الدين بأقصى الاستطاعة ، وتسابقت إلى لزوم السنّة والجماعة ، وألقت إلى الإمامة الفلانية يَدَ التسليم والضراعة ، فتقبلت فَيْأَتهم ، وأحمدت جَيْأَتهم ، وأسعدت آمالهم ، وارتضيت أعمالهم ، وكملت مطالبهم ، وتمت مآربهم ، وقضيت حاجاتهم ، واستمعت مناجاتهم ، وألسنتهم بالدعاء قد انطلقت ، ووجهتهم في الخلوص قد صدقت ، وقلوبهم على جمع الكلمة قد اتفقت ، وأكفُّهم بهذه الإمامة الفلانية قد اعتلقت ، وكانت الإدالة في الوقت على عدوّ الدين قد ظهرت وبرقت ، إلى أن قال : وكفَّت القدرة القاهرة ، والعزة الباهرة ، من عدوان الطاغية غوائل ، بإعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كلّه فواتح وأوائل ، ومعلوم بالضرورة أن الله تعالى لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود ، ﴿ وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها ﴾ (إبراهيم : ٣٤) دليلٌ على ما سوّغ من الكرم والجود ؛ انتهى المقصود منه ، وهو كلام بليغ ، ومَنْ أراد جملته فعليه بأزهار الرياض .

[من نظم ابن عاصم]

ومن نظم ابن عاصم المذكور قوله مخاطباً شيخه قاضي الجماعة أبا القاسم ابن سراج ، وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة ، فظن أنّه يستخبره عن سر من أسرار السلطان ، فأعدّه معتذراً ، ولم يصدق الظن :

فديتك لا تسألْ عن السرّ كاتباً فتلقاه في حالٍ من الرشدِ عاطلِ
وتضطره إمّا لحالةِ خائنٍ أمانَتَهُ أو خائضٍ في الأباطلِ
فلا فَرْقَ عندي بين قاضٍ وكاتبٍ وَشَى ذا بسرٍّ أو قَضَى ذا بباطلِ

[قصيدة لابن الأزرق في مدحه]

ومن بديع ما نُظم في مَدْح الرئيس أبي يحيى ابن عاصم المذكور قولُ العلامة ابن الأزرق رحمه الله تعالى :

خضعتْ لمعطفه الغصونُ الميَّسُ ... ورنا فهام بمقلتيهِ النرجسُ
ذو مبسمٍ زهرُ الرُّبى في كسبهِ ... متنافسٌ عَنْ طيبهِ متنفسُ
ومُوَرَّدٍ مِنْ وردهِ أو نارهِ ... يتنعمُ القلبُ العميدُ وييأسُ
فالوردُ فيهِ من دموعيَ يرتوي ... والنارُ فيه من ضلوعيَ تُقْبَسُ
كَمُلت محاسنُهُ فقــدٌّ ناضرٌ ... ولواحظٌ نُجْلٌ وثغرٌ ألْعَسُ
صعبُ التعطفِ بالغرام حَبَيْتُهُ ... فالحبُّ يُحْبِي والتعطفُ يُحبسُ
غرس التشوّقَ ثم أغرى الوجدَ بي ... فالوجدُ يُغرَى والتشوُّقُ يُغْرَسُ
ما كنتُ أشقى لو حللتُ بجنَّةٍ ... مِنْ وصلِهِ تحيا لديها الأنفسُ
ألحــاظُهُ ورُضابُــهُ وعِذارهُ ... حورٌ بها أو كوثرٌ أو سندسُ
وليالِ أنسٍ قد أمنتُ بهنَّ من ... واشٍ ينمُّ ومن رقيبٍ يحرسُ
أطلعتُ شمسَ الراح فيها فاهتدى ... عاشٍ إلينا في الدجى ومُغَلّسُ
صفراءُ كالعقيان في الألوانِ لا ... ندمانِ كالشُّهبانِ منها أكؤسُ
صُبّتْ شقيقاً فاستحالت نرجساً ... في مزجها فمورَّدٌ ومورَّسُ
وحَبابها يغنى بأسنى جوهرٍ ... أنْفَى لغمٍّ المعـدمين وأنفسُ
يُجْلى بها للغمّ منهـا حِنْدِساً ... قمرٌ عليهِ من الذؤابة حِندسُ
حتى إذا عمشتْ مِرآةُ البدرِ من ... صبحٍ بدا تلقاهُ إذ يتنفسُ
ناديتهُ وَسَنا الصباح مُحَصْحصٌ ... ينجابُ عنهُ من الظلامِ معسعسُ
يا مطلعَ الأنوار زهراً يجتنى ... ومشعشعَ الصهباء ناراً تُلمسُ
بك مجلسُ الأنسِ اطمأنَّ وبابن عا ... صِمٍ اطمأنَّ من الرياسةِ مجلسُ
بــدرٌ بأنوارِ الهُــدى متطلــعٌ ... غيثٌ بأشتاتِ الندى متبجّسُ

حامي فلم نَرْتَعْ لخطبٍ يعتري ... ووفى فلم نحفلْ بدهرٍ يبخسُ
شِيَمٌ مهذبةٌ ، وعلمٌ راسخٌ ... ومكارمٌ هُتُنٌ ، ومجدٌ أقعسُ
لو كان شخصاً ذكره لبدا على ... أعطافهِ من كلّ حمد ملبَسُ
ذاكم أبو يحيى بـهِ تُحمى العُلا ... وبه خلالُ الفخرِ طُرّاً تُحرسُ
بيتٌ على عَمَدِ الفخار مُطَنَّبٌ ... مجدٌ على متنِ السماكِ مؤسَّسُ
خيِّم وعرِّسْ في حماه فكم حوى ... فيـهِ المرادَ مخيِّمٌ ومعرِّسُ
إنّا لنغدو هُيَّماً فينيلُنا ... ريّاً ويوحشنا النوى فيؤنِّسُ
حتى أقمنا والأماني منهضا ... تٌ وابتسمنا والزمانُ مُعَبِّسُ
لم ندرِ قبلَ يَراعِه وبنانه ... أنَّ الذوابلَ بالغمائم تبجسُ
هنَّ اليراع بها يؤمَّنُ خائفٌ ... ويحاطُ مذعورٌ ، ويَغْنى مُفْلسُ
مهما انبرتْ فهي السهام يُرَى لها ... وقعٌ لأغراضِ البيانِ مُقَرْطسُ
يشفى بمـأملهِ الشكيُّ المعتري ... يحيـا بمأمنهِ الحمـامُ المؤيسُ
فتَقَصُّ حين تُشَقُّ منها ألسنٌ ... وتسيرُ حين تُقَطُّ منها أرؤسُ
من كلِّ وشّاءٍ بأسرارِ النُّهى ... دَرِبٍ بإظهار السرائر يهجسُ
قد جمّع الأضدادَ في حركاتهِ ... فلذا اطِّرادُ فخاره لا يعكسُ
عطشانُ ذو ريٍّ ، يبيسٌ مثمرٌ ، ... غضبانُ ذو صَفْحٍ ، فَصيحٌ أخرسُ
للهِ من تلك اليراع جواذبٌ ... للسحر منكَ كأنّها المغنيطسُ
رُضْنا شِماس القولِ في أوصافها ... فهي التي راضتْ لنا ما يُشْمسُ
وإليكها حُللاً تَشابه نسجُها ... مثلي يفصِّلها ومثلك يلبسُ
واهنأ بعيدٍ باسمٍ متهللٍ ... وافاك يجهرُ بالسرورِ ويهمسُ
واحبس لواء الفخرِ موقوفاً فإنَّ ... الحمدَ موقوفٌ عليك محبَّسُ

قلت : وعندي الآن شك في صاحب هذه القصيدة ، هل هو قاضي الجماعة بغرناطة محمد بن الأزرق أو ابن الأزرق الثاني القائل فيما يكتب على السيف :

إن عمَّت الأفقَ من نقع الوغى سُحُبٌ   فَشِمْ بها بارقاً من لمع إيماضي
وإن نَوَتْ حركاتُ النصرِ أرضَ عِداً   فليس للفتحِ إلاّ فعليَ الماضي

والله سبحانه أعلم .

[رسالة ابن عاصم إلى ابن طركاط]

ومن إنشاء الرئيس ابن عاصم المذكور ما كتب به يخاطب الكاتب أبا القاسم ابن طركاط ، وهو : « القضاء — حفظ الله تعالى كمالك ، وأنجح آمالك — إذا لم يَحُطْه العدلُ من كلا جانبيه سبيلٌ معوجّ ، ومذهب لا يوافق عليه مُناظر ولا ينصره محتجّ ، كما أنّه إذا حاطه العدل جادة للنجاة ، وسببٌ في حصول رحمة الله تعالى المرتجاة ، وسوق لنفاق بضاعة العبد المُزْجاة ، وأجمل العدل ما تحلى به في نفسه الحكم ، وجرى على مقتضى ما شهدت به الآراء المشهورة والحِكم ، حتّى يكون عن البغي رادعاً ، وبالقسط صادعاً ، ولأنف الأنَفَةِ من الإذعان للحق جادعاً ، وأنت أجلَّك الله تعالى على سعة اطلاعك ، وشدة ساعد قيامك بالطريقة واضطلاعك ، ممن لا يُنَبَّه على ما ينبغي ، ولا يرد على طلبته من الإنصاف المبتغي ، فلك في الطريقة القاضوية التبريز ، وأنت إذا كان غيرُك الشبهَ الذهبُ الإبريز ، ولعلمية عدلك التوشية بالنزاهة والتطريز ، وليتني كنت لمظهرك الحكمي حاضراً ، ولإعلام القضاة بآرائك المرتضاة محاضراً ، والوازع قد تمرَّسَ بالخصوم ، وجعل المتصدي للإذن في محل المخصوم ، وأنت حفظك الله تعالى قد قمت من غلظ الحجاب بالمقام المعصوم ، ومثلت من سعة المنزل في الفضل والطول كالشهر المصوم ، والباب قد سُد ، وداعي الشفاعة قد رُد ، والميقات للإذن قد حُد ، ومطلب الأجرة المتعارفة قد بلغ الأشد ، حتّى إذا قضي الواجب ، وأذن في دخول الخصمين الحاجب ، وكبح السابقين إلى الحد الذي

لا يَعْدُونه ، وحفز [1] إعاؤه مَنْ تعداه أو وقف دونه ، وقد حصل باللحظ واللفظ التساوي ، وأنتج المطالبَ الأربعة هذا اللازم المُساوي ، ومجلسك قد رجح وقاره برَضْوَى ، ومجتلاك قد فضح نوره البدر الأضْوا ، وقد امتزت عن سواك من القضاة بمراسم لا تليق بجملتهم معارفها ، وتخصصت عنهم بملابس تعج عجيجاً من جذامهم مَطارِفُها [2] ، بحيث تحد لخلع النعلين حدّاً لا يتجاوز طُوَاه ، وتسد في بعض الأوقات الباب سدّاً لا تُرقع بالمحاجر كُوَاه [3] ، وتفصل بين الخصمين أحياناً بالنية [4] دون الكلام ولكل امرىء ما نَوَاه .

« وهذه أعانك الله تعالى مكملات من العدل في الحكم وقف عياض دون تحقيق مَناطها ، وأعيت ابنَ رُشْدٍ فلم يهتد بيانه ولا تحصيله لاستنباطها ، فما بال النازحة [5] عنك حسّاً ومَعْنى ، النازلة من تقاضي دَيْنك بمنزلة الممطول المعنّى ، المعتقلة من ملكة رقك بحيث أقصاها لاعج الشوق ، المعذبة من الصبابة فيك بما شب عَمْرُه عن الطوق ، تتنفس الصعداء مما تشاهده منك من مبتدعات الجَوْر ، وتردد البكاء على ضياع ما استعار الحسن لصفاتها من النجد والغَوْر ، وتقضي العجب ممّا تسمع من عدلك الذي لم تجتلِ لمحةً من نوره ، ومن حلمك الذي أشقاها [6] فلم تحضر لدكة طُورِه ، وتستصوب أنظار النحاة في منع التهيئة والقطع في العامل ، وتستجلب اصطلاح العروضيين في المديد والبسيط دون الطويل والكامل ، فهلاً راجعتَ فيها النظر ، وأنجزت لها الوعد المنتظر ، وكففت من

---

١ ص : وأحفز ؛ ق : وأحفر .

٢ إشارة إلى قول الشاعرة :

شكا الخز من روح وأنكر ريحه وعجت عجيجاً من جذام المطارف

٣ من قول الشاعر : « ورقعن الكوى بالمحاجر » وأصله قول المثقب العبدي « وثقبن الوصاوص للعيون » .

٤ ق ص: بالبينة .

٥ أخذ يتحدث هنا – بضمير المؤنث – عن رسالة لم يحفل القاضي برد جوابها .

٦ ص : أشقاها المجد .

عيونها دموعاً مستهلّة ، واجتليت من جبينها الوضاح ما أخجل بدوراً مشرقة وأهلّة ، ولم تحوجها إلى أن ينطق قرينها [1] الروحاني بالشعر على لسانها ولسانك ، ولم تضطرها في هذه المعاملة إلى ما لا ترتضيه من كفر إحسانك ، والعذر أظهر ، والبرهان أبهر ، وخلافك في العالم أشهر ، وأنت إن لم يكن ما يعصم الله تعالى منه لمقتضى الطبيعة أقهر .

« وقد أدرجتُ لك في طي هذا ما يصل إلى يدك ، وتلهج به في يومك وغدك ، منتظرة منك إطفاء الجوى بالجواب ، ومحو ما سبق من الخطإ بالخطاب ، إن شاء الله تعالى ، والله تعالى يصل سعادته ، ويحفظ مَجادته ، ومعاد السلام من الشاكر الذاكر ابن عاصم وفّقه الله تعالى في أوائل ذي الحجّة عام خمسة وأربعين وثمانمائة » انتهى ، وهو ممّا لم أذكره في « أزهار الرياض » .

[ظهير بتقديم ابن عاصم للنظر في أمور الفقهاء]

ولنذكر هنا الظهير الذي جلبته فيها [2] بتقديم المذكور للنظر في أمور الفقهاء وغيرهم ، ونصّه : هذا ظهير كريم إليه انتهت الظهائر شرفاً عليّاً ، وبه تقررت المآثر برهاناً جليّاً ، وراقت المفاخر قلائد وحليّاً ، وتميزت الأكابر الذين افتخرت بهم الأقلام والمحابر ، اختصاصاً مولويّاً . فهو وإن تكاثرت المرسومات وتعددت ، وتوالت المنشورات وتجددت ، أكبر [3] مرسوم تمم في الاعتقاد نظراً خطيراً ، وأحكم في التفويض أمراً كبيراً ، وأبرم في الاستخلاص عزماً أبيّاً . اعتمد بمسطوره العزيز ، واختص [4] بمنشوره الذي تلقّاه اليُمْنُ بالتعزيز ، من لم يزل

١ قرينها : سقطت من ق .
٢ فيها : يعني في أزهار الرياض ؛ انظر ج : ١ ص : ١٧٢ .
٣ ق : أكرم .
٤ ق : واختبر .

بالتعظيم حقيقاً ، وبالإكبار خليقاً ، وبالإجلال حَرِيّاً . فهو شهير لم يزل في الشهرة سابقاً ، هادٍ لم يزل بالهدى ناطقاً ، بليغ لم يزل بالبلاغة دَرِيّاً ، عظيم لم يزل في النفوس معظّماً ، علم لم يزل في الأعلام مقدماً ، كريم لم يزل في الكرام سنِيّاً . اشتملت منه محافل الملك على العقد الثمين ، وحلّت به المشورة في الكنف المحوط والحرم الأمين ، فكان في مشكاة الأمور هادياً ، وفي ميدان المراشد جَرِيّاً . فإلى مقاماته تبلغ مَقامات الإخلاص ، وإلى مرتبته تنتهي مراتب الاختصاص ، فيمن حاز خَصْلاً ، وزيّن حَفْلاً ، وشرّف نَدِيّاً . واستكمل هِمماً ، واستحمل قلماً ، واستخدم مشرفيّاً . فللّه ما أعلى قدر هذا الشرف ، الجامع بين المتلد والمطرف[1] ، السابق في الفضل أمداً قَصِيّاً . الحالّ من الاصطفاء مظهراً ، الفارع من العلاء منبراً ، الصاعد من العز كرسيّاً . حاز الفضل إرثاً وتعصيباً ، واستوفى الكمال حقّاً ونصيباً ، ثناء أرَجُه كالروض لو لم يكن الروض ذابلاً وهديّاً . نوره كالبدر لو لم يكن البدر آفلاً ، ومجد علوه كالسُّها لو لم يكن السُّها خفيّاً . فما أشرف الملك الذي اصطفاه ، وكمل له حق التقريب ووفاه ، وأحلّه قرارة التمكين ، ومن اختصاصه بالمكان المكين ، فسبق في ميدان التفويض وشأى[2] ، ورأى من الأنظار الحميدة ما رأى ، صادعاً بالحقّ إماماً علماً ، موضحاً من الدين نهجاً أَمَماً ، هادياً من الواجب صراطاً سويّاً . بانياً للمجد صَرْحاً مُشَيّداً ، مشهراً للعدل قولاً مؤيداً ، مبرماً للخير سبباً قويّاً . فالله تعالى يصل لمقام هذا الملك الذي طلع في سمائه بدراً دونه البدور ، وصدراً تلوذ به الصدور ، سعداً لا تَمْطُله الأيام في تقاضيه ، ونصراً يمضي به نصل الجهاد فلا يزال ماضيه ، على الفتح مبنيّاً . ويوالي له عزّاً يَذُودُ عن حرم الدين ويمنحه تأييداً[3] يصبح في أعناق الكفر حديث سيفه قطعيّاً .

---

١ ق : والطارف .

٢ الأزهار : وسما ؛ ق : وشاه .

٣ هكذا في الأزهار ؛ وفي ص : وخيفة وتأييداً ، واللفظتان على الرفع في ق .

أمر بهِ مرسوماً عزيزاً لا تبلغ المرسومات إلى مداه ، ولا يبدي بآثار الاختصاص مثل ما أبداه ، عبد الله أمير المسلمين محمد الغالب بالله أيّد الله تعالى مقامه ، ونصر أعلامه ، وشكر إنعامه ، ويسّرَ مرامه ، لإمام الأئمة وعلم الأعلام ، وعماد ذوي العقول والأحلام ، وبركة حمَلة السيوف والأقلام ، وقدوة رجال الدين وعلماء الإسلام ، الشيخ الفقيه أبي يحيى ابن كبير العلماء ، شهير العظماء ، حجّة الأكابر والأعيان ، مصباح البلاغة والبيان ، قاضي القضاة وإمامهم ، أوحد الجِلّةِ وطود شمامهم ، الشيخ الفقيه أبي بكر ابن عاصم أبقاه الله تعالى ، ومناطق الشكر له فصيحة اللسان ، ومواهب الملك بهِ معهودة الإحسان ، وقلائد الأيادي منه متقلدة بجيد كل إنسان ، قد تقرّر والمفاخر لا تُنسب إلا لبنيها ، والفضائل لا تعتبر إلا بمن يشيد أركانها ويبنيها ، والكمال لا يُصفي شِرْبه ، إلا لمن يؤمّن سِرْبه ، أن هذا العَلم الكبير ، الذي لا يفي بوصفه التعبير ، علم بآثاره يقتدى ، وبأنظاره يهتدى ، وبإشارته يستشهد ، وبإدارته يسترشد ، إذ لا أمد علو[1] إلاّ وقد تخطاه ، ولا مركب فضل إلاّ وقد تمطاه ، ولا شارقة هدى إلا وقد جلاها ، ولا لبة فخر إلاّ وقد حلاّها ، ولا نعمة إلا وقد أسداها ، ولا حرمة إلا وقد أبداها ، لما له في دار الملك من الخصوصية العظمى ، والمكانة التي تسوغ النعمى ، والرتب التي تسمو العيون إلى مُرْتقاها ، وتستقبلها النفوس بالتعظيم وتتلقاها ، حيث سر الملك مكتوم ، وقرطاسه مختوم ، وأمره محتوم ، والأقلام قد روضت الطروس وهي ذاوية ، وقسمت الأرزاق وهي طاوية ، شقت ألسنتها فنطقت ، وقطّت[2] أرجلها فسبقت ، ويبست فأثمرت إنعاماً ، ونكست فأظهرت قواماً ، وخطت فأعطت ، وكتبت فوهبت ، ومشقت فرفقت ، وأبرمت فأنعمت ، فكم يسرت الجبر ،

١ ص : على (علا) .
٢ ق : وقطعت .

وعفرت الهِزَبر ، وشنّفت المسامع ، وكيّفت المطامع ، وأقلت فيما ارتفع من المواضع ، وأحلت لما امتنع من المراضع ، فهي تنجز النعم ، وتحجز النقم ، وتبث المذاهب ، وتحث المواهب ، وتروض المراد ، وتنهض المراد ، وتحرس الأكناف ، وتغرس الأشراف ، مصيخة لنداء هذا العماد الأعلى ، طامحة لمكانه الذي سما واستعلى ، فيما يملي عليها من البيان الذي يقر له بالتفضيل ، الملكُ الضِّلّيل ، ويشهد له بالإحسان ، لسان حسان ، ويحكم له ببري القَوْس [1] ، حبيب بن أوس ، ويهيم بما من الأساليب عنده ، شاعر كِنْده ، ويستمطر سحبه الثرّة ، فصيح المعرّة ، إلى منثور تزيل الفَقر فِقَرُه ، وتدرّ الرزق دِرَرُه ، لو أُنهي إلى قس إياد لشكر في الصنيعة أياديه ، واستمطر سحبه وغواديه ، أو بلغ إلى سحبان لسحره ، وما فارقه عشيته ولا سَحَره ، ولو رآه الصابي لأبدى إليه من صبوته ما أبدى ، أو سمعه ابن عباد لكان له عبدا ، أو بلغ بديع الزمان لهجر بَدائعه ، واستنزر بضائعه ، أو أتحف به البستي لاتخذه بستاناً ، أو عُرِض على عبد الحميد لأحمد من صَوْبه هتّاناً ، فأعظم به من عالٍ لا تُرقى ثَنيته ، ولا تحاز مزيته ، ولا يُرْجَمُ أفقه ، ولا يُكتم حقّه ، ولا ينام له عن اكتساب الحمد ناظر ، ولا ينقاس به في الفضل مُناظر ، وهل تقاس الأجادل بالبغاث ، أو الحقائق بالأضغاث ؟

ألا وإن بيته هو البيت الذي طلع في أفقه كل كوكب وَقّاد ، ممّن وشج به للعلوم اتقاء واتقاد ، وترامى به للمدارك ذكاء وانتقاد ، فأعظم بهم أعلاماً وصدوراً ، وأهلّة وبدوراً ، خلدت ذكرهم الدواوين المُسَطّرة ، وسرت في محامدهم الأنفاس المعطرة ، إلى أن نشأ في سمائهم هذا الأوحد ، الذي شهرة فضله لا تجحد ، فكان قمرهم الأزهر ، ونيِّرهم الأظهر ، ووسيطة عقدهم الأنفس ، ونتيجة مجدهم الأقعس ، فأبعد في المناقب آماده ، ورفع الفخر وأقام عماده ، وبنى على تلك الآساس المشيدة ، وجرى لإدراك تلك الغايات البعيدة ،

[1] ق : ببرء النفوس .

فسبق وجلّى ، وشنّف بذكره المسامع وحلّى ، ورفع المشكل ببيانه ، وحرر الملتبس ببرهانه ، إلى أن أحله قضاء الجماعة ذروة أُفقه الأصعد [1] ، وبوّأه عزيز ذلك المقعد ، فشرّف الخطة ، وأخذ على الأيدي المشتطة ، لا يراقب إلا ربّه ، ولا يضمر إلا العدل وحبه ، والمجلس السلطاني أسماه الله تعالى يختصه بنفسه ، ويفرغ عليه من حلل الاصطفاء ولبسه ، ويستمطر فوائده ، ويجرب بأنظاره حقوق الملك وعوائده ، فكان بين يديه حكماً مُقْسِطاً ، ومقسماً لحظوظ الإنعام مُقَسِّطاً ، إلى أن خصّه بالكتابة المولوية ، ورأى له ذلك حق الأولوية ، إذ كان والده المقدس نعّم الله تعالى ثراه ، ومنحه السعادة في أُخراه ، مشرِّف ذلك الديوان ، ومعلي ذلك الإيوان ، يحبِّر رقاع الملك فتروق ، وتلوح كالشمس عند الشروق ، فحلّ ابنُه هذا [2] الكبير شرفاً ، الشهير سلفاً ، مرتبتَه التي سَمَتْ ، وافترَّت به عن السعد وابتسمت ، فسحبت به للشرف مَطارف ، وأحرزت به من الفخر التالد والطارف ، فهو إليوم في وجهها غُرَّة ، وفي عينها قُرَّة ، ولله هو في ملاحظة الحقائق ورعيها ، وسمع الحجج ووعيها ، فلقد فضل بذلك أهل الاختصاص ، وسبقهم في تبيين ما يشكل منها وما يعتاص ، إذ المشكلة معه جلية الأغراض ، والآراء لديه آمنة من مأخذ الاعتراض ، فكم رتبة عمرها بذَويها ، فأكسبها تشريفاً وتنويها ، وعلى ذلك فأعلام قضاة الوطن ، ومن عَبر منهم وقَطَن ، مع أقدارهم السامية ، ومعاليهم التي هي للزُّهر مسامية ، إنّما رقتهم وساطته التي أحسنت ، وزينت بهم المجالس وحسَّنت ، فيه [3] أمضوا أحكامهم ، وأعملوا في الأباطيل احتكامهم ، وكتبوا الرسوم ، وكبتوا الخصوم ، وحلوا دَسْتَ القضاء ، وسلوا سيف المَضاء ، وفي زمانه تخرّجوا ،

١ ق : الأسعد .
٢ ص : ذلك .
٣ كذا في ص ق ؛ وفي الأزهار : فيه .

وفي بستانه تأرجوا ، ومن خلقه اكتسبوا ، وإلى طرقه انتسبوا ، وعلى موارده حامُوا ، وحول فوائده قاموا ، وبتعريفه عُرفوا ، وبتشريفه شرفوا ، وبصفاته كَلِفُوا ، وبعرّفاتِهِ وقفوا ، فأمِنُوا مع انسكاب سحب إفادته من الجَدْب ، وقاموا بذلك الفرض بسبب ذلك النَّدْب ، وهل العلماء وإن عمّت فوائدهم ، وانتظمت بجياد الأذهان فرائدهم ، إلا من أنواره مستمدون ، وإلى الاستفادة من أنظاره ممتلون ، وببركاته معتدّون ، وبأسبابه مشتدّون ، فبه اجتُنيتْ من أفنان المنابر ثمراتهم ، وتأرجَتْ في روضات المعارف زهراتهم ، وبه عمروا الحلَق ، وائتلق من أنوارهم ما ائتلق ، إذ كلٌّ من اصطناعه محسوب ، وإلى بركته منسوب ، فهو بَدرهم الأهْدَى ، وغيثهم الأجْدى ، وعقدهم المقتنى ، وروضهم المجتنى ، وبدر منازلهم ، وصدر محافلهم .

وعلى ما أعلى المقام المولوي من مكانه ، وقضى به من استمكانه ، واعتمد من إبرامه ، وأبرم من أعتماده ، ومهد من إكرامه ، وكرم من مهاده ، واختص من علاه ، وأعلى من اختصاصه ، واستخلص من حُلاه ، وحلا من استخلاصه ، ووفى من تكرمه ، وكرم من وفائه ، واصطفى من مجده ، ومجد من اصطفائه ، وقدم من براعته ، وحكم من يراعته ، وشقق من كتابته ، وأنطق من خطابته ، وسجل من أنظاره ، وعجل من اختياره ، فذكا ذكره ، وسطا سَطْره ، وأمعن معناه ، وأغنى مغناه ، أشار أيّده الله تعالى باستئناف خصوصيته وتجديدها ، وإثبات مقاماته وتحديدها ، لتُعرف تلك الحدود فلا تُتخطى ، وتُكبر تلك المراتب فلا تُستعطى ، فأصدر له شكر الله تعالى إصداره ، وعمر بالنصر داره ، هذا المنشورَ الذي تأرج بمحامدِهِ نَشْره ، وتضمن من مناقبه البديع فرَاقَ طيه ونَشْره ، وغدا وفرائد المآثر لديه موجدة مكونه [1] ، وأصبح للمفاخر مالكاً لما أتى به مدونه ، وخصّه فيه بالنظر المطلق الشروط ، الملازم للتفويض ملازمة

---

[1] ق : مكنونه ؛ ص : مكمونه .

الشرط للمشروط ، المستكمل الفروع والأصول ، المستوفي الأجناس والفصول ، في الأمور التي تختص بأعلام القضاة الأكابر ، وكتّاب القضاة ذوي الأقلام والمحابر ، وشيوخ العلم وخطباء المنابر ، وسائر أرباب الأقــلام القاطن منهم والعابر ، بالحضرة العلية ، وجميع البلاد النصرية ، تولى الله تعالى جميع ذلك بمعهود ستره ، ووصل لديه ما تعوّد من شفع اللطف ووتره ، يحوط مراتبهم التي قُطفت من روضاتها ثمرات الحكم وجُنِيَتْ ، ويراعي أمورهم التي أقيمت على العوائد وبُنيت ، وحقوقهم التي حُفظت لهم في المجالس السلطانية ورُعيت ، ويحل كل واحد منهم في منزلته التي تليق ، ومرتبته التي هو بها خَليق ، على ما يقتضي ما يعلم من أدواتهم ، ويخبر من تباين ذواتهم ، ويُرَشّح كل واحد إلى ما استحقّه ، ويؤتي كل ذي حق حقّه ، اعتماداً على أغراضه التي عدلت ، وصدحت على أفنانها من الأفواه طيور الشكر وهَدَلَت ، واستناداً في ذلك إلى آرائه ، وتفويضاً له في هذا الشأن بين خلصاء الملك وظُهَرَائه ، وذلك على مقتضى ما كان عليه أعلام الرياسة الذين سبقوا ، وانتهضوا بهممهم واستبقوا ، كالشيخ الرئيس الصالح أبي الحسن ابن الجيّاب ، والشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب ، رحمهما الله تعالى .

فليقم أبقاه الله تعالى بهذه الأعمال التي سَمَتْ واعتزّت ، ومالت بها أعطاف العدل واهْتَزّت ، وسار بها الخبر حثيثَ السُّرى ، وصار بها الحق مشدود العُرَى ، وعلى جميع القضاة الأمضياء ، والعلماء الأرضياء ، والخطباء الأولياء ، والمقرئين الأزكياء ، وحمَلة الأقلام الأحظياء ، أن يعتمدوا هذا الولي العماد في كل ما يرجع إلى عوائدهم ، ويختص في دار الملك من مرتباتهم وفوائدهم ، وما يتعلّق بولاياتهم وأمنياتهم ، ويليق بمقاصدهم ونياتهم ، فهو الذي يسوّغهم المشارب ، ويبلغهم المآرب ، ويستقبل العلي بالعلي ، والعاطل بالحلي ، والمشكل بالجلي ، والمفرق بالتاج ، والمقدمة بالإنتاج ، وعلى ذلك فهذا المنشور الكريم قد أقرهم على ولاياتهم وأبقاهم ، ولقّاهم من حفظ المراتب ما رقّاهم ، فليَجْبُروا

على ما هم بسبيله ، وليهتدوا بمرشد هذا الاعتناء ودليله ، وكتب في صفر عام سبعة وخمسين وثمانمائة ؛ انتهى .

قلت : وإنّما أتيت به لوجوه   أحدها ما يتعلّق بلسان الدين إذ وقعت الإشارة إلى مرتبته في آخره ، والثاني ما اشتمل عليه من الإنشاء الغريب ، والثالث معرفة حال الرئيس أبي يحيى ابن عاصم وتمكّنه من الرياسة ، لأنّا بنينا هذا الكتاب على ذكر ما يناسبه من أنباء أهل المغرب ، لكون أهل هذه البلاد المشرقية ليس لهم بها عناية ، والرابع أن بعض أكابر شيوخنا ممن ألف في طبقات المالكيّة لما عرّف بأبي يحيى ذكره في نحو أسطر عشرة ، وقال : هذا الذي حضرني من التعريف به ، والخامس أن ابن عاصم المذكور كما قاله الوادي آشي وغيره كان يدعى في الأندلس بابن الخطيب الثاني ، ويعنون بذلك البلاغة والبراعة والرياسة والسياسة .

رجع إلى أخبار لسان الدين فنقول :

وأما كتب التأليف باسم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فقد قال في «الإحاطة» لما أجرى ذكر ذلك ما صورته: وأمّا ما رفع إليّ من الموضوعات العلمية ، والوسائل الأدبية ، والرسائل الإخوانية ، لما أقامني الملك صنماً يعتمد ، وخيالاً إليه يستند ، صادرة عن الأعلام ، وحمـلة الأقلام ، ورؤساء النثّار والنظام ، فَجَمّ يضيق عنه الإحصاء ، ويعجز عن ضم نشره الاستقصاء ، وربما تضمّن هذا الكتاب كتاب «الإحاطة» منه كثيراً ، ومنظوماً أثيراً ، ودرّاً نثيراً ، جرى في أثناء الأسماء ، وانتمى إلى الإجادة أكرم الانتماء ، غفر الله تعالى لي ولقائله ، فما كان أولاني وإياه بستر زوره ، وإغراء الإضراب بغروره ، فأهون بما لا ينفع ، وإن ارتفع الكلم الطيب لا يرفع ، اللّهم تجاوز عنّا بفضلك وكرمك ؛ انتهى .

وقد تقدم في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي الفاسي نزيل مالقة وصاحب التآليف العديدة أنّه ألّف تقييداً على قواعد الإمام القاضي

أبي الفضل عياض رحمه الله تعالى برسم ولد لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، وكذلك غير واحد من أهل عصره ، قصدوه بالنظم والنثر ، وهي سنّة الله سبحانه وتعالى في عباده ، إذ السلطان سوق يُجْلَب إليها ما ينفق فيها ، والله سبحانه وتعالى وليّ المكافأة ، لا ربّ غيره ، ولا مأمول سواه [1] ؛ انتهى .

١ ص : ولا . . . سواه : سقطت من ص ؛ وإلى هنا انتهت نسخة ص ، وفي آخرها « انتهى الجزء الثالث من نفح الطيب تاريخ الإمام العالم العلامة أحمد المقري المالكي » .

الباب الخامس

في إيراد جملة من نثره الذي عَبِقَ أريجُ البلاغة من نفحاته، ونَظْمه الذي تألق نور البراعة من لمحاته وصفحاته، وما يتصل به من أزجاله وموشّحاته، ومناسبات رائقة في فنون الأدب ومصطلحاته.

اعلم ـ سلك الله تعالى بي وبك أوضح محجَّة، وجعلنا ممّن انتحى صوب الصواب ونهجه ـ أن هذا الباب، هو المقصود بتأليف هذا الكتاب، وغيره كالتَّبَع له، وها أنا أذكر ما حضرني الآن من بنات أفكار لسان الدين التي هي بالمحاسن متقنعة، وللبدائع متعلة، فأقول:

أما نثره فهو البحر الزخار، بل الدر الذي به الافتخار، وناهيك أن كتبه الآن في المغرب قِبْلَة أرباب الإنشاء التي إليها يصلُّون، وسوق دررهم النفيسة التي يزينون بها صدور طروسهم ويحلون، وخصوصاً كتابه «ريحانة الكتّاب ونُجعة المنتاب» فإنه، وإن تعددت مجلداته، على فنّ الإنشاء والكتابة مقصور، وقد اشتمل على السلطانيات وغيرها ومخاطباته لأهل المشرق والمغرب على لسان ملوك الأندلس الذين علَم بلاغتهم منصور، وقد تركت نسختي منه في المغرب، ولو حضرتني لكفتني عن هذه الفوائد التي أتعبت خاطري في جمعها من مقيداتي التي صحبتها معي، وهي قليلة.

وقد مرَّ في هذا الكتاب جملة من نثره ونظمه، والذي نجلبه هنا زيادة على ما سبق.

وقال رحمه الله تعالى في «الإحاطة» عند ترجمة نثره ما صورته: وأما النثر

فبحر زاخر ، ومدى طوله مستاخر ، وإنك لم يفخر عليك كفاخر ، وقد مرّ منه في تضاعيف هذا الديوان كثير ، ونحن نجلب منه ما يشير إليه مُشير ؛ انتهى .

١ – فمن ذلك قوله في غرض التحميد ممّا افتتح به الكتاب في التاريخ المتضمن دولة بني نصر[1] : «الحمد لله الذي جعل الأزمنة كالأفلاك ، ودول الأملاك كأنجم الأحلاك ، تطلعها من المشارق نيرة ، وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة ، ثم تذهب بها غائرة متغيرة ، السائق[2] عَجِل ، وطبع الوجود مرتجِل ، والحي من الموت وجِل ، والدهر لا معتذر ولا خَجِل ، بينما ترى الدّست عظيم الزحام ، والموكب شديد الالتحام ، والوَزَعَة تشير ، والأبواب يقرعها البشير ، والسرور قد شمل الأهل والعشير ، والأطراف تلثمها الأشراف ، والطاعة يشهرها الاعتراف ، والأموال يحوطها العدل أو يبيحها الإسراف ، والرايات تُعْقَد ، والأعطيات تُنقد ، إذ رأيت الأبواب مهجورة ، والدسوتَ لا مؤمَّلة ولا مزورة ، والحركات قد سكنت ، وأيدي الإدالة قد تمكنت ، فكأنما لم يسمر سامر ، ولا نهى ناهٍ ولا أمر آمر ، ما أشبه الليلة بالبارحة ، والغادية بالرائحة ﴿ إنما مَثَلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ﴾ (الكهف : ٤٥) .

٢ – ومن نثره قوله في استدعاء إمداد وحضّ على الجهاد : «أيها الناس رحمكم الله تعالى ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دَهم العدوُّ قصمه الله تعالى ساحَتَهم ، ورام الكفرُ خذله الله تعالى استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم ، ومد الصليب ذراعيه عليهم ، وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم الغريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهـادَ الجهادَ فقد تعين ،

---

١ يريد كتاب اللمحة البدرية ، انظر مقدمته ص: ٩ .
٢ اللمحة : السابق .

الجارَ الجارَ فقد قرر الشرع حقه وبيّن ، الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد ، جَدّدوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد ، صِلوا رحم الكلمة ، واسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة ، كتاب الله بين أيديكم ، وألسنة الآيات تناديكم ، وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله سبحانه يقول فيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا هـل أدلكم على تجارة تنجيكم ﴾ (الصف : ١٠) ومما صح عنه قوله « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرّمهما الله على النار » « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم » « من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا » ، أدركوا رَمَقَ الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده ، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده :

ماذا يكون جوابكم لنبيكم ... وطريقُ هذا العذرِ غير ممهَّدِ
إن قال لمْ فرَّطتمُ في أمتي ... وتركتموهم للعدوّ المعتدي
تالله لو أنَّ العقوبةَ لم تُخَفْ ... لكفى الحيا من وجه ذاك السيِّدِ

اللهم اعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بث لنا الحميّة في البلاد ، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك ، بأحبابك وأوليائك ، يا خير الناصرين ، اللهم أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً » . انتهى .

٣ — ومن ذلك قوله في صداق أمره السلطان بإنشائه لكبير الشرفاء بفاس في فصل منه تضمن ذكر أوليتهم واستيطانهم لتلك المدينة ما صورته :

« فضرب بفاس — عمرها الله تعالى — حلته ، وأورث منها بالبقعة الزكية

الرفيعة سراته وجِلّته ، فتبوّأوا من ذلك الغَور ، المعشب الروض الأرج النَّور ، هالة سعد ، وأُفق برق ورعد ، ودست وعيد ووعد ، يتناقلون رُتَبَ الشرف الصريح كابراً عن كابر ، ويروي مسلسل المجد عن بيتهم الرفيع الجد كلُّ حريص على عوالي المعالي مثابر :

فالكفُّ عن صلةٍ ، والأذن عن حسَن   والعينُ عن قرَّةٍ ، والقلبُ عن جابرْ

حيث الأنوف الشُّم والوجوه الغُر ، والعزة القعساء والنسب الحر ، والفواطم في صدف الصون من لدن الكون كأنهن الدر ، آل رسول الله ونعم الآل ، والموارد الصادقة إذا كذب الآل ، ومَن إذا لم يُصَلّ عليهم في الصلاة حَبِطَتْ منها الأعمال ، طَلِبَة الراكب ، ونِشدة الطالب ، وسراة لؤي بن غالب ، وملتقى نور الله تعالى ما بين فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب » . انتهى ، وهو طويل لم يحضرني منه الآن سوى ما ذكرته .

٤ — ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى : كتبت إلى بعض السادة الفضلاء ، وقد بلغني مرضه أيام كان الانزعاج عن الأندلس إلى الإيالة المرينيّة[١] :

« وردت علي من فئتي التي إليها في معركة الدهر أتحيز ، وبفصل فضلها في الأقدار المشتركة أتميز ، سَحاءة سرَّت وساءت ، وبلغت من القصدين[٢] ما شاءت ، أطلع بها سيدي صنيعة وده من شكواه على كل عابث في السويداء ، موجب اقتحام البيداء ، مضرم نار الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلاّ القليل ، ولا من إفصاح لسانه إلاّ الأنين والأليل ، ونوى مدت لغير ضرورة يرضاها الخليل ، فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع في تقبّل أعماله ، أو آمل ضويق في فذلكة آماله ، لكني رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق ، وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ، ورأيت الخطَّ يبهر والحمد لله تعالى ويروق ،

١ مر في الباب الرابع ص : ٤٣ أن هذا النص من رسالة خاطب بها أبا القاسم ابن رضوان .
٢ ق : القصد .

واللفظ الحسن تومض في حبره للمعنى الأصيل بروق ، فقلت : ارتفع الوصَب ، ورُدَّ من الصحة المغتصَب ، وآلة الحس والحركة هي العصب ، وإذا أشرق سراج الإدراك دل على سلامة سليطه ، والروح خليط البدن والمرء بخليطه ، وعلى ذلك فبليد احتياطي لا يقنعه إلاّ الشرح ، فبه يسكن الظمأ البرح ، وعُذراً عن التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار ، والإطناب والإكثار ، وزَندُ القلق في مثلها أوْرى ، والشفيق بسوء الظن مُغْرى ، والسلام » .

٥ – ومن نثر لسان الدين ما ذكره في «الإحاطة » في ترجمة أبي عبد الله الشُّدّيد وهو محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري الجياني الأصل ثم المالقي إذ قال ما صورته[١] :

« جملة جمال[٢] من خط حسن واضطلاع بحمل كتاب الله ، بُلبل دَوْح السبع المثاني ، وماشطة عروس أبي الفرج ابن الجوزي ، وآية صُقْعه ونسيج وحْده في حسن الصوت وطيب النغمة ، اقتحم لذلك دسوت الملوك ، وجر أذيال الشهرة[٣] ، عذب الفكاهة ، ظريف المجالسة ، قادراً على المحاكاة ، متسوّراً حمى الوقار ، مليباً داعي الانبساط ، قُلد شهادة الديوان بمالقة فكان مُغار حبْل الأمانة ، شامخ مارن النزاهة ، لوحاً للألقاب ، وعُزّزت ولايته ببعض الألقاب النبيهة ، وهو الآن الناظر في أمور الحِسْبة ببلده ، ولذلك خاطبته برقعة أداعبه بها وأشير إلى أضداده بما نصه :

يا أيها المحتسبُ الجزلُ ومن لديهِ الجدُّ والهزلُ
يهنيك والشكرُ لمولى الورى ولايَةٌ ليسَ لهـــا عزلُ

كتبت أيها المحتسب ، المنتمي إلى النزاهة المنتسب ، أهنيك ببلوغ تمنيك ، وأحذرك

١ الإحاطة ، الورقة : ١٢ .
٢ الإحاطة : مجموع خلال .
٣ الإحاطة : الصحبة .

من طمع نفس بالغرور تمنيك ، فكأنني بك وقد طافت بركابك الباعة ، ولزم أمرك السمع والطاعة ، وارتفعت في مصانعتك الطماعة ، وأخذتَ أهل الريب بغتة كما تقوم الساعة ، ونهضت تقعد وتقيم ، وسطوتك الريح العقيم ، وبين يديك القسطاس المستقيم ، ولا بد من شرك يُنصب ، وجماعة على ذي جاه تعصب[1] ، ودالة يمت بها الجناب الأخصب ، فإن غضضت طرفك ، أمنت على الولاية صرفك ، وإن ملأت ظَرفَك[2] ، رحلت عنها حرفك ، وإن كففت فيها كفك ، حفك العز فيمن حفك ، فكنْ لقالي المجبَّنة قالياً ، ولحوت السلة سالياً ، وأبدِ لدقيق الحُوّارى زُهْدَ حَواريّ ، وازهد فيما بأيدي الناس من العواري ، وسر في اجتناب الحَلواء ، على السبيل السواء ، وارفض في الشواء ، دواعي الأهواء[3] ، وكن على الهرّاس[4] وصاحب ثريد الراس شديد المراس ، وثبْ على طبيخ الأعراس ليثاً مرهوب الافتراس ، وأدِّب أطفال الفسوق في السوق ، لا سيما من كان قبل البلوغ والبسوق ، وصمم على استخراج الحقوق ، والناس أصناف فمنهم خسيس يطمع منك في أكلة ، ومُستَعدٍ عليك بوكزة أو ركلة ، وحاسد في مطية تُركب وعَطِية تُسكب ، فاخفض للحاسد جناحك ، وسدّد إلى حربه رماحك ، وأشبع الخسيس منهم مرقة فإنه حنق ، ودُسَّ له فيها عظماً لعله يختنق ، واحفر لشريرهم حفرة عميقة ، فإنّه العدوّ حقيقة ، حتّى إذا حصل ، وعلمت أن وقت الانتصار قد اتصل ، فأوقع وأوجع ولا ترجع ، وأولياءه من الشياطين[5] فافجع ، والحقُّ أقوى ، وأن تعفو أقرب للتقوى ، سددك الله تعالى إلى غرض التوفيق ، وأعلَقَك

---

١ الإحاطة : تتصعب .
٢ ملأ ظرفه : كناية عن قبول الهدية والرشا .
٣ الإحاطة : وارفض في الشوا دواعي الهوى .
٤ الهراس : صانع الهريسة .
٥ الإحاطة : من حزب الشيطان .

من الحق بالسبب الوثيق ، وجعل قدومك مقروناً برخص اللحم والزيت والدقيق» ؛ انتهى .

٦ – ومما كتب به لسان الدين إلى علي بن بدر الدين الطوسي بن موسى ابن رحّو بن عبد الله بن عبد الحق من مدينة سلا ما نصه :

«يا جملةَ الفضلِ والوفاء ما بمعاليك من خَفاء
عنديَ بالودّ فيكَ عقْدٌ صَحّفَهُ الدّهْرُ باكتفاء
ما كنتُ أقضي حلاكَ حقّاً لو جئتُ مدحاً بكلّ فاء
فأوْلِ وجهَ القَبولِ عذري وحسبكَ[١] الشكُّ في صفاء

سيدي الذي هو فصل جنسه ، ومزية يومه على أمسه ، فإن افتخر الدين من أبيك ببدره افتخر منك بشمسه ، رحلت على المنشإ والقرارة ، ومحل الصبوة والفرارة ، فلم تتعلق نفسي بذخيرة ، ولا عهد جيرة خيرة[٢] ، كتعلقها بتلك الذات التي لطفت لطافة الراح ، واشتملت بالمجد الصُّراح ، شفقة أن تصيبها معرة والله تعالى يقيها ، ويحفظها ويُبْقيها ، إذ الفضائل في الأزمان الرذلة غوائل ، والضد عن ضده منحرف بالطبع ومائل ، فلما تعرفت خلاص سيدي من ذلك الوطن ، وإلقاءه وراء الفرضة[٣] بالعطن ، لم تبقَ لي تَعِلّة ، ولا أحرضتني له علّة ، ولا أوتي جمعي من قلّة ، فكتبت أهنىء نفسي الثانية بعد هناء نفسي الأولى ، وأعترف للزمان باليد الطّولى ، فالحمد لله الذي جمع الشمل بعد شتاته ، وأحيا الأنس بعد مماته ، سبحانه لا مبدّل لكلماته ، وإياه أسأل أن يجعل العصمة حظ سيدي ونصيبه ، فلا يستطيع حادث أن يصيبه ، وأنا أخرج له عن بث كمين ، ونصح أنا به قمين ،

١ ق : وجنب .
٢ خيرة : سقطت من ق .
٣ ق : العرصة .

بعد أن أسبُرَ غوره ، وأخبُرَ طوره ، وأرصد دوره ، فإن كان له في التشريق أمل ، وفي ركب الحجاز ناقة وجمل ، والرأي فيه قد نجحت منه نية وعمل ، فقد غني عن عرف البقرات ، بأزكى الثمرات ، وأطفأ هذه الجمرات ، برمي الجمرات ، وتأنّس بوصل السُّرى ووصال السراة ، وأنا به إن رضيني أرضى مُرافق ، ولواء عزي به خافق ، وإن كان على السكون بناؤه ، وانصرف إلى الإقامة اعتناؤه ، فأمرٌ له ما بعــده ، والله يحفظ من الغِيَر سعده ، والحق أن تحذف الأبهة وتختصر ، ويحفظ اللسان ويغضّ البصر ، وينخرط في الغمار ، ويخلّي عن المضمار ، ويجعل من المحظور مداخلة من لا خَلاق له ، ممن لا يقبل الله تعالى قوله ولا عمله ، فلا يكتّم سرّاً ، ولا يتطوق من الرجولة زرّاً ، ويرفض زمام السلامة[1] ، وتركُ العلامة على النجاة علامة ، وأما حالي فكما علمتم مُلازم كِنّ ، ومهبط تجربة وسنّ ، أزجي الأيام ، وأروم بعد التفرق الالتئام ، خالي اليد ، مليء القلب والخلد ، بفضل الواحد الصمد ، عامل على الرحلة الحجازية التي أختارها لكم ولنفسي ، وأصِل في التماس الإعانة عليها يومي بأمسي ، أوجب ما قررته لكم ما أنتم أعلم به من ود قررته الأيام والشهور ، والخلوصُ المشهور ، وما أطلت في شيء عند قدومي على هذا الباب الكريم إطالتي فيما يختص بكم من موالاته ، وبذل مجهود القول والعمل في مرضاته ، وأما ذكركم في هذه الأوضاع فهو ممّا يقر عين المجادة ، والوظيفة التي ينافس فيها أُولو السيادة ، والله يصل بقاءكم ، وييسر لقاءكم ، والسلام » انتهى .

٧ — ومن نثر لسان الدين ما أثبته في « الإحاطة » في ترجمة ابن خلدون صاحب التاريخ الذي تكرر نقلنا منه في هذا التأليف :

ولنذكر الترجمة بجملتها فنقول قال رحمه الله تعالى في « الإحاطة » ما نصه : « عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن

[1] ق : الصحبة زمان السلامة .

إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي ، من ذرية عثمان أخي كريب المذكور في نبهاء ثوار الأندلس ، ويُنسب سلَفُهم إلى وائل بن حجر ، وحاله عند القدوم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم معروفة ، انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك ، فاستقر بتونس منهم ثاني المحمدين محمد بن الحسن ، وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة ، وتصرَّف جدُّ المترجم به في القيادة . وأما المترجم به فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الحصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وَقور المجلس ، خاصيُّ الزي ، عالي الهمة ، عَزوف عن الضيم ، صَعْب المقادة ، قوي الجأش ، طامح لقُنَن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم في فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مُغرى بالتجلة ، جواد حسن العشرة ، مبذول المشاركة ، مقيم لرسم التعين ، عاكف على رَعْي خلال الأصالة ، مفخر من مفاخر التّخوم المغربية . قرأ القرآن ببلده على المكتّب ابن برال ، والعربية على المقرىء الزواوي وغيره ، وتأدب بأبيه ، وأخذ عن المحدث أبي عبد الله ابن جابر الوادي آشي ، وحضر مجلس القاضي أبي عبد الله ابن عبد السلام ، وروى عن الحافظ أبي عبد الله السطي ، والرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي ، ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الآبلي وانتفع به ، انصرف من إفريقية منشئه بعد أن تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة ، وإقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة ، عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، وعرف فضله ، وخطبه السلطان مُنفّقُ سوق العلم والأدب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان ، واستحضره [1] بمجلس المذاكرة فعرف حقه وأوجب فضله ، واستعمله على الكتابة أوائل عام ستة وخمسين ، ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده عن حسن التأتي ، وشفوفه بثقوب الفهم وجودة الإدراك ، فأغروا به

[1] ق : واستقدمه واستحضره .

السلطان إغراء عضَدَه ما جُبل عليه عهدئذٍ من إغفال التحفظ ممّا يريب لديه ، فأصابته شدة تخلصه منها أجله[1] ، كانت مغربة في جفاء ذلك الملك وهناة جواره ، وإحدى العواذل لأولي الهوى في القول بفضله وعدم الخشوع وإهمال التوسل وإبادة المكسوب في سبيل النفقة والإرضاخ على زمن المحنة وجار المنزل الخشن ، إلى أن أفضى الأمر إلى السعيد ولده ، فأعتبه قيِّم الملك لحينه ، وأعاده إلى رسمه ، ودالت الدولة إلى السلطان أبي سالم ، وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حُظوته ، فقلده ديوان الإنشاء مطلق الجرايات محرر السهام نبيه الرتبة ، إلى آخر أيامه . ولما ألقت الدولة مقادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله مدبر الأمر ، وله إليه وسيلة وفي حليه شركة وعنده حق ، رابه تقصيره عمّا ارتمى إليه أمله ، فساء ما بينهما بما آل إلى انفصاله عن الباب المريني ، وورد على الأندلس في أول ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة ، واهتز له السلطان ، وأركب خاصته لتلقّيه ، وأكرم وفادته ، وخلع عليه وأجلسه بمجلسه ، ولم يدخر عنه بِرّاً ومؤاكلة ومراكبة ومطايبة وفكاهة » .

٨ — وخاطبني لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرني الآن ، فأجبته عنها بقولي[2] :

حللتَ حلولَ الغَيْثِ في البلدِ المحْلِ ... على الطائرِ الميمونِ والرحبِ والسهلِ
يميناً بمن تَعْنو الوجوهُ لوجهــه ... من الشيخِ والطفلِ المهدَّإ والكهلِ
لقد نشأتْ عندي للقياكَ غبطةٌ ... تُنَسّي اغتباطي بالشبيبةِ والأهــلِ

أقسمت بمن حجت قريش لبيته ، وقبر صُرفت أزمّةُ الأحياء لميته ، ونور ضُربت الأمثال بمشكاته وزيتِه ، لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنية ، والعارفة

١ ق : الأجل .
٢ أوردها ابن خلدون في التعريف : ٨٢ .

الوارفة ، واللطيفة المطيفة ، بين رجع الشباب يقطرْ ماء ويرفُّ نماء ، ويغازل عيون الكواكب فضلاً عن الكواعب إشارة وإيماء ، بحيث لا الوخط يلمُّ بسياج لمّته ، أو يقدح ذُبالةً في ظلمته ، أو يقوم حواريه في ملته ، من الأحابش وأمته ، وزمانه رَوْح وراح ، ومغدى في النعيم ومراح ، وقصف صراح ، ورقي وجراح ، وانتحاب واقتراح ، وصدور ما بها إلاّ انشراح ، ومسرات تردفها أفراح ، وبين قدومك خليع الرسن ، ممتعاً والحمد لله باليقظة والوسن ، محكماً في نسك الجنيد أو فتكِ الحسن ، ممتعاً بظرف المعارف ، مالئاً أكفَّ الصيارف ، ماحياً بأنوار البراهين شُبَه الزخارف ، لما اخترت الشباب وإن راقني[1] زمنُه ، وأعياني ثمنُه، وأجرت سحائبَ دمعي دِمَنُه ، فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي ، وملّكني أزمة آرابي ، وغبطني بمائي وترابي ، ومألف أترابي ، وقد أغصني بلذيذ شرابي ، ووقّع على سطوره المعتبرة إضرابي ، وعجلْتُ هذه مُغَبِّطَةً بمناخ المطية ، ومنتهى الطية ، وملتقى السعود غير البطية ، وتهني الآمال الوثيرة الوطية ، فما شئت من نفوس عاطشة إلى ريّك ، متجملة بزيّك ، عاقلة خطى مَهْرِيّك ، ومولى مكارمه نشيدة أمثالك ، ومظان مثالك ، وسيصدق الخبر ما هنالك ، ويسع فضل مجدك في التخلف عن الإصحار[2] ، لا بل اللقاء من وراء البحار ، والسلام » .

٩ — ولما استقر بالحضرة جرت بيني وبينه مكاتبات أقطعها الظرف جانبه، وأوضح الأدب مذاهبه ، فمن ذلك ما خاطبته به وقد تسرّى جارية رومية اسمها هند صبيحة الابتناء بها :

أُوصيك بالشيخ أبي بكره ... لا تأمنَنْ في حالةٍ مكرهْ
واجتنبِ الشكَّ إذا جئته ... جنّبكَ الرحمن ما تكرهْ

١ ق والتعريف : شاقني .
٢ الإصحار : الخروج لتلقيه خارج البلد .

سيدي لا زلت تتصف بالوالج ، بين الخلاخل والدمالج ، وتركض فوقها ركض الهمالج ، أخبرني كيف كانت الحال ، وهل حُطّت بالقاع من خير البقاع الرحال ، وأُحكم بمرود المراودة الاكتحال ، وارتفع بالسقيا الإمحال ، وصح الانتحال ، وحصحص الحقّ وذهب المحال ، وقد طولعت بكل بشرى وبشر ، وزفّت هند منك إلى بِشر ، فلله من عشية ، تمتعت من الربيع بفُرُش مَوْشية ، وأبدلت منها أي آسادٍ وحشية ، وقد أقبل ظبي الكناس ، من الديماس ، ومطوق الحمَام ، من الحمّام ، وقد حسَّنت الوجهَ الجميلَ التّطرية ، وأزيلت عن الفرع الأثيث الأبرية ، وصُقلت الخدود فكأنها الأمرية[1] ، وسُلّط الدّلكُ على الجلود ، وأُغريت النورة بالشّعر المولود ، وعادت الأعضاء يزلق عنها اللمس ، ولا تنالها البنان[2] الخمس ، والسحنة يجول في صفحتها الفضية ماء النعيم ، والمسواك يلبي من ثنيّة التنعيم ، والقلب يرمى من الكف الرقيم[3] بالمقعد المقيم ، وينظر إلى نجوم الوشوم فيقول : إني سقيم ، وقد تفتح ورد الخفر ، وحكم لزنجي الضفيرة بالظفر ، واتصف أمير الحسن بالصدود المغتفر ، ورش بماء الطيب ، ثم أعلق بباله دخان العود الرطيب ، وأقبلت الغادة ، يهديها اليُمن وتزفها السعادة ، فهي تمشي على استحيا ، وقد ذاع طيب الريّا وراق حسن المحيّا ، حتى إذا نُزع الخف ، وقُبّلت الأكفّ ، وصخب المزمار وتجاوب الدف ، وذاع الأرج ، وارتفع الحرج ، وتجوّز اللوى والمنعرج ، ونزل على بشر بزيارة هند الفرج ، اهتزت الأرض وربت ، وعوصيت الطباع البشرية فأبت ، ولله در القائل[4] :

ومرّتْ فقالتْ : متى نلتقي ؟ فهشّ اشتياقاً إليها الخبيثُ
وكاد يمزّقُ سرباله فقلت : إليكَ يساقُ الحديثُ

[1] لعل الأبرية جمع برى بمعنى التراب ؛ والأمرية : المرايا جمع مرآة .
[2] البنان : سقطت من ق .
[3] الرقيم : المزين .
[4] ينسب البيتان لبشار (فصل المقال : ٤٦) وفي الثاني منهما المثل «إليك يساق الحديث»

فلما انسدل جنح الظلام ، وانتصفت من غريم العشاء الأخيرة فريضة السلام ، وخاطت خيوط المنام عيون الأنام ، تأتّى دنو الجلسة ، ومسارقة الخلسة ، ثم عضة النهد ، وقبلة الفم والخد ، وإرسال اليد من النجد إلى الوهد ، وكانت الإمالة القليلة قبل المد ، ثم الإفاضة فيما يغبط ويرغب ، ثم الإماطة لما يشوش ويشغب ، ثمّ إعمال المسير ، إلى السرير[1] :

وصرنا إلى الحسنى ، ورقّ كلامنا ورُضتُ فذلّتْ صعبةٌ أيَّ إذلالِ

وهذا بعد منازعة للأطواق يسيرة ، يراها الغيد من حسن السيرة ، ثمّ شرع في التكة ، ونزع الشّكة[2] ، وتهيئة الأرض العزاز[3] عمل السكة ، ثمّ كان الوحي والاستعجال ، وحمي الوطيس والمجال ، وعلا الجزء الخفيف ، وتضافرت الحصور الهيف ، وتشاطر الطبع العفيف ، وتواتر التقبيل ، وكان الأخذ الوبيل ، وامتاز الأنوك من النبيل ، ومنها جائر وعلى الله قصد السبيل ، فيا لها من نعم متداركة ، ونفوس في سبيل القحة متهالكة ، ونَفَس يقطّع حروفَ الحلق ، وسبحان الذي يزيد في الخلق ، وعظمت الممانعة ، وكثرت باليد المصانعة ، وطال التراوغ والتزاور ، وشُكي التحاور ، وهنالك تختلف الأحوال ، وتعظم الأهوال ، وتخسر أو تربح الأموال ، فمن عصاً تنقلب ثعباناً مبيناً ، ونونة[4] تصير تنيناً ، وبطل لم يهمله المعترك الهائل ، والوهم الزائل ، ولا حال بينه وبين قرنه الحائل ، فتعدى فتكة السُّلَيك إلى فتكة البرّاض ، وتقلد مذهب الأزارقة من الخوارج في الاعتراض[5] ، ثم شق الصف ، وقد خضب الكف ، بعد أن كان يصيب البوسى

---

١ البيت لامرىء القيس ، ديوانه : ٣٢ .
٢ ونزع الشكة : سقطت من ق .
٣ العزاز : الصلبة .
٤ النونة : السمكة ؛ وفي العبارات كنايات تنطوي على الغمز والسخرية .
٥ الاعتراض : عدم المبالاة بالقتل في حال الخروج أو الإقدام على القتل الجماعي .

بطعنته ، ويبوء بمقت الله ولعنته :

طعنت ابن عبد الله طعنة ثائر لها نَفَذٌ لولا الشعاع أضاءها [1]

وهناك هدأ القتال ، وسكن الخبال ، ووقع المتوقع فاستّراح البال ، وتشوف إلى مذهب الثنوية من لم يكن للتوحيد بمبال ، وكثُر السؤال عن المبال ، بما بال ، وجعل الجريح يقول وقد نظر إلى دمه ، يسيل على قدمه :

إني له عن دمي المسفوك معتذر أقول حَمَّلْتُهُ في سفكه تعبا [2]

ومن سنان [3] عاد عناناً ، وشجاع صار جباناً ، كلما شابته شائبة ريبه ، أدخل يده في جيبه ، فانجحرت الحية ، وماتت الغريزة الحية ، وهناك يزيغ البصر ، ويخذل المنتصر ، ويسلّم الأشر ، ويُغلب الحصر ، ويجفّ اللعاب ، ويظهر العاب [4] ، ويخفق الفؤاد ، ويكبو الجواد ، ويسيل العرق ، ويشتد الكرب والأرق ، وينشأ في محل الأمن الفَرَق ، ويدرك فرعونَ الغرق ، ويقوى اللجاج ويعظم الحرق ، فلا تزيد الحال إلاّ شدة ، ولا تعرف تلك الجائحة المؤمنة إلاّ ردة :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأول [5] ما يجني عليه اجتهادهُ

فكم مغرى بطول اللبث ، وهو من الخبث ، يؤمِّل الكرَّة ، ليزيل المعرَّة ، ويستنصر الخيال ، ويعمل باليد الاحتيال :

إنكَ لا تشكو إلى مصمِّتِ فاصبر على الحمل الثقيل أو متِ [6]

١ البيت لقيس بن الخطيم ، ديوانه : ٧ .
٢ ق : التعبا .
٣ عطف على قوله فيما سبق : « فمن عصا تنقلب . . . إلخ » .
٤ ق : اللغاب ؛ والعاب : العيب .
٥ ق : فأكثر .
٦ المصمت : الذي يهتم إذا شكوت إليه ؛ وهذا من الأمثال ، (انظر اللسان – صمت –) .

ومعتذر بمرض أصابه ، جرَّعه أوصابه ، ووجع طرقه ، جلب أرقه ، وخطيب أرتج عليه أحياناً ، فقال : سيُحدث الله بعد عسر يُسراً وبعد عيٍّ بياناً ؛ اللّهمَّ إنّا نعوذ بك من فضائح الفروج إذا استغلقت أقفالها ، ولم تتسم بالنجيع أغفالها ، ومن مَعَرّات الأقذار ، والنكول عن الأبكار ، ومن النزول عن البطون والسُّرَر ، والجوارح الحسنة الغرر ، قبل ثقب الدرر ، ولا تجعلنا ممّن يستحيي من البكر بالغداة ، وتعلم منه كلال الأداة ، وهو مجال فُضحت فيه رجال ، وفراشٌ شُكيت فيه أوجال ، وأُعملت روية وارتجال ، فمن قائل :

أرفعه طوراً على إصبعي ورأسه مضطربٌ أسفله
كالحنش المقتول يُلقى على عودٍ لكي يُطرح في مزبلَه

وقائل :

عدمتُ من أيري قُوى حسهِ يا حسرة المرء على نفسهِ
تراه قد مال على أصلهِ كحائطٍ خرَّ على أسّهِ

وقائل :

أيحسدني إبليسُ داءين أصبحا برجلي ورأسي دُمّلاً وزكاما
فليتهمـــا كانا بهِ وأزيدُهُ رخاوةَ أيرٍ لا يطيقُ قياما
إذا نهضتْ للنيك أزبابُ معشرٍ توسّدَ إحدى خصيتيه وناما

وقائل :

أقولُ لأيري وهو يرقب فتكةً به : خبتَ من أير وعالتك[1] داهيه
إذا لم يكن للأير بختٌ تعذرت عليهِ وجوهُ النيكِ من كل ناحيه

وقائل :

تعقّفَ فوقَ الخصيتين كأنّهُ رِشاء إلى جنبِ الركيّةِ ملتفُّ

١ ق : ونالتك .

كفرخِ ابن ذي يومينِ يرفعُ رأسه إلى أبويهِ ثمّ يدركه الضعفُ

وقائل :

تكرّش أيري بعدما كان أملسا وكان غنيّاً من قواهُ فأفلسا
وصار جوابي للمها إن مررنَ بي «مضى الوصل الامنية تبعث الأسى»

وقائل :

بنفسيَ مَنْ حييّتُه فاستخفّ بي ولم يخطرِ الهجرانُ يوماً على بالي
وقابلني بالغورِ والنّجدِ بعدما حططتُ به رحلي وجردت سربالي
وما أرتجي من موسرٍ فوق تكة عرضت له شيئاً من الحشَف البالي

هموم لا تزال تُبكى ، وعلل الدهر تُشكى ، وأحاديث تُقص وتُحكى ، فإن كنتَ أعزك الله سبحانه من النمط الأوّل ، ولم تقل :

وهل عند رسم دارس من معوّلِ[1]

فقد جنيت الثمر ، واستطبت السّمر ، فاستدعِ الأبواق من أقصى المدينة ، واخرج على قومك في ثياب الزينة[2] ، واستبشر بالوفود ، وعرّف المسمع عازفة الجود ، وتبجح بصلابة العود ، وإنجاز الوعود ، واجنِ رمّان النهود ، من أغصان القدود ، واقطف ببنان اللثم أقاح الثغور وورد الخدود ، وإن كانت الأخرى فأخفِ الكمد ، وارضَ الثمد ، وانتظر الأمد ، وأكذب التوسم ، واستعمل التبسم ، واستكتم النسوة ، وأفضْ فيهنّ الرشوة ، وتقلد المغالطة وارتكب ، وجىء على قميصه بدم كذب ، واستنجد الرحمن ، واستعن على أمرك بالكتمان :

١ صدر هذا البيت «وإن شفائي عبرة مهراقة» وهو من معلقة امرىء القيس .
٢ يشير إلى زهوه كأنه قارون .

لا تُظهرنّ لعاذلٍ أو عاذرٍ   حاليك في الضرّاء والسرّاء[1]
فلرحمةِ المتفجعين حرارةٌ   في القلبِ مثل شماتة الأعداء

وانتشق الأرج ، وارتقب الفرج ، فكم غمام طما ﴿وما رميتَ إذ رميتَ ولكنّ الله رمى﴾ (الأنفال : ١٧) وامْلِك بعدها عِنان نفسك حتى تمكنك الفرصة ، وترفع إليك القصة ، ولا تشره إلى عمل لا تفيء منه بتمام ، وخذ عن إمام ، ولله درُّ الحارث بن هشام[2] :

الله يعلَمُ ما تركتُ قتالهم   حتى رموا مهري بأشقرَ مزبدِ
وعلمتُ أني إن أقاتل دونهم   أُقتلْ ، ولم يضرر عدوي مشهدي
ففررتُ منهمْ والأحبّةُ فيهمُ   طمعاً لهم بعقابِ يومٍ مفسدِ

واللّبانات تلين وتجمح ، والمآرب تدنو وتنزح ، وتحرن ثمّ تسمح ، وكم من شجاع خام[3] ، ويقظ نام ، ودليل أخطأ الطريق ، وأضلّ الفريق ، والله عز وجل يجعلها خلة موصولة ، وشملاً أكنافه بالخير مشمولة ، وبنية أركانها لركائب اليُمن مأمولة ، حتى تكثر خدم سيدي وجواريه ، وأسرته وسراريه ، وتضفو عليه نعم باريه ، ما طورِدَ قنيص ، واقتُحم عيص ، وأُدرك مرام عويص ، وأعطي زاهد وحرم حريص ؛ والسلام .

[بقية ترجمة ابن خلدون عن الإحاطة]

تواليفه – شرح البردة شرحاً بديعاً دل به على انفساح ذَرعه ، وتفنن إدراكه

---

١ ق : السراء والضراء .
٢ قالها حين فر عن أصحابه يوم بدر وعيره حسان بالفرار بقوله :
إن كنت كاذبة الذي حدثتني   فنجوت منجى الحارث بن هشام
وانظر حماسة البحتري : ٤٠ .
٣ خام : حاد وجبن .

وغزارة حفظه ، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أيام نظره في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق ، ولخص محصل الإمام فخر الدين الرازي ، وبه داعبته أول لقيه ، فقلت له : لي عليك مطالبة فإنك لخصت محصلي ، وألّف كتاباً في الحساب ، وشرع في هذه الأيام في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه بشيء لا غاية فوقه في الكمال .

وأما نثره وسلطانياته السجعية فخُلُج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع ، يفرغ عنها يراعه الجريء ، شبيهة البداءات بالخواتم ، في نداوة الحروف ، وقرب العهد بجرية المداد ، ونفوذ أمر القريحة ، واسترسال الطبع .

وأما نظمه فنهض لهذا العهد قُدُماً في ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه فانثال عليه جوّه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة .

خاطب السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعمائة بقصيدة طويلة أولها[١] :

أسْرَفْنَ في هَجْري وفي تَعْذيبي ... وأطلْنَ موقف عَبرتي ونحيبي
وأبَيْنَ يومَ البينِ وقفةَ ساعةٍ ... لوداعِ مشغوفِ الفؤادِ كئيبِ
للهِ عَهْدُ الظاعنينَ وغادروا ... قلبي رهينَ صبابةٍ ووجيبِ
غَرَبَتْ ركائبُهمْ ودمعي سافحٌ ... فشرقْتُ بعدهُمُ بماء غروبي[٢]
يا ناقعاً بالعَتبِ غُلّةَ شوقهمْ ... رحماكَ في عَذَلي وفي تأنيبي
يستعذبُ الصبُّ الملامَ وإنّني ... ماءُ الملامِ لديَّ غير شريبِ[٣]
ما هاجني طربٌ ولا اعتاد الجوى ... لولا تذكرُ منزلٍ وحبيبِ
أهفو إلى الأطلالِ كانتْ مَطْلعاً ... للبدرِ منهمْ أو كناسَ ربيبِ

١ القصيدة في التعريف : ٧٠
٢ الغروب : الشئون ، أي مجاري الدموع .
٣ الشريب : العذب ؛ وفي التعريف : شروب .

عبثتْ بها أيدي البلى وترددتْ ... في عطفها للدهرِ آيُ خطوبِ
تَبلى معاهدها وإنَّ عهودهـا ... لَيُجِدُّها وصفي وحسنُ نسيبي
وإذا الـديارُ تعرضتْ لمتيَّمٍ ... هزَّتْهُ ذكراها إلى التشبيبِ
إيهٍ على الصبرِ الجميلِ فإنّـهُ ... ألوى بدَيْنِ فؤاديَ المنهوبِ
لم أنسَها والدهرُ يَثني صَرْفَهُ ... ويغضُّ طرفَيْ حاسدٍ ورقيبِ
والدارُ مونِقَةٌ محـاسنُها بمـا ... لبستْ من الأيامِ كلَّ قشيبِ
يا سائقَ الأظعانِ تعتسفُ الفلا ... وتُواصلُ الإسآدَ بالتـأويبِ[1]
متهافتاً عن رحلِ كلِّ مذلّلٍ ... نشوانَ من أينٍ ومَسَّ لُغوبِ
تتجاذبُ النفحاتُ فضلَ ردائه ... في ملتقاها من صَباً وجَنوبِ
إن هام من ظمإ الصبابةِ صحبُهُ ... نَهلوا بموردِ دمعـهِ المسكوبِ
أو تعترض مسراهمُ سُدُفُ الدجى ... صدعوا الدجى بغرامه المشبوبِ
في كلِّ شعبٍ مُنْيَةٌ من دونهـا ... هجرُ الأماني أو لقـاءُ شَعوبِ
هلاّ عطفتَ صدورهنَّ إلى التي ... فيها لُبـانةُ أعينٍ وقلـوبِ
فتؤمَّ من أكنافِ يثربَ مأمنـاً ... يكفيكَ ما تخشاهُ من تثريبِ
حيثُ النبوَّةُ آيها مَجْلُوَّةٌ ... تتلو من الآثـارِ كلَّ غريبِ
سرٌّ غريبٌ لم يحجّبهُ الثرى ... ما كان سرُّ اللهِ بالمحجوبِ

ومنها بعد تعديد معجزاته صلّى الله عليه وسلّم :

يا سيّدَ الرُّسلِ الكرامِ ضراعةٌ ... تقضي منى نفسي وتُذهبُ حُوبي[2]
عاقَتْ ذنوبي عن جَنابكَ والمنى ... فيهـا تعلّلني بكلِّ كذوبِ
لا كالأُلى صَرفوا العزائمَ للتُّقى ... فاستأثروا منهـا بخير نصيبِ

١ الإسآد : سير الليل ، والتأويب : سير النهار .
٢ الحوب : الإثم .

لم يخلصوا للهِ حتى فرّقوا   في اللهِ بين مَضاجعٍ وجُنوبِ
هبْ لي شفاعتكَ التي أرجو بهـا   صفحاً جميلاً عن قبيح ذنوبي
إنَّ النجاةَ وإنْ أُتيحتْ لامرىء   فبفضلِ جاهكَ ليسَ بالتسبيبِ
إنّي دعوتُكَ واثِقـاً بإجابتي   يا خيرَ مَدْعوٍ وخيرَ مجيبِ
قصّرتُ في مدحي فإنْ يكُ طيّباً   فبما لذكركَ من أريجِ الطيبِ
ماذا عسى يبغي المطيلُ وقد حوى   في مدحك القرآنُ كلَّ مطيبِ
يا هَلْ تُبلِّغُني الليـالي زورةً   تُـدْني إليَّ الفـوز بـالمرغوبِ
أمحو خَطيئاتي بإخلاصي بهـا   وأحطُّ أوزاري وإصرَ ذنوبي
في فِتْيَةٍ هَجَروا المنى وتعوَّدوا   إنضاءَ كلِّ نجيبَـةٍ ونجيبِ
يطوي صحائفَ ليلهم فوق الفلا   ما شئتَ منْ خَبَبٍ ومن تقريبِ
إنْ رنَّمَ الحادي بذكرك رددوا   أنفاسَ مشتاقٍ إليكَ طَروبِ
أو غرَّدَ الركبُ الحليُّ بطيبةٍ   حنّوا لمَغْناهـا حنينَ النِّيبِ
ورثوا اعتسافَ البِيدِ عن آبائهم   إرثَ الخلافةِ في بني يعقوبِ
الطاعنونَ الخيلَ وهي عوابسٌ   يَغشى مُثارُ النقعِ كلَّ سَبيبِ[1]
والواهبونَ المقربات صوافنـاً   من كلِّ خوّار العنان[2] لعوبِ
والمانعونَ الجارَ حتى عِرضُهمْ   في منتدى الأعداء غيرُ معيبِ
تُخْشى بوادرهمْ ويُرجى حلمهم   والعزُّ شيمةُ مرتجّى ومَهيبِ

ومنها

سائلْ به طامي العُباب وقد سرى   تُزجى بريحِ العزمِ ذاتُ هبوبِ
تهديهِ شُهْبُ أسِنّةٍ وعزائمٍ   يصدعنَ ليلَ الحادثِ المرهوبِ

١ السبيب : شعر عرف الفرس .
٢ خوار العنان : لين العطف .

حتّى انجلَتْ ظُلَمُ الضلالِ بسعيهِ   وسطا الهدى بفريقهـا المغلوبِ[1]
يا ابنَ الأُلى شادوا الخلافَةَ بالتُّقى   واستأثروكَ بتـاجهـا المعصوبِ
جمعوا بحفظِ الدينِ آيَ مناقبٍ   كرموا بها في مشهدٍ ومغيبِ
للهِ مجـدُكَ طارفاً أو تالداً   فلقد شهدنا منه كلَّ عجيبِ
كمْ رهبةٍ أو رغبةٍ لك والعلا   تُقْتـادُ بالترْغيبِ والـترهيبِ
لا زلتَ مسروراً بأشرفِ دولةٍ   يبدو الهدى من أفقها المرقوبِ
تحيي المعالي غادياً أو رائحاً   وجديدُ سعدكَ ضامنُ المطلوبِ

وقال من قصيدة خاطبه بها عند وصول هدية ملك السودان إليه وفيها الزرافة[2]:

قدحتْ يدُ الأشواقِ من زندي   وهفَتْ بقلبي زفرةُ الوجْدِ
ونبذتُ سلواني على ثقَةٍ   بالقـربِ فاستبدلتُ بالبعدِ
ولربَّ وصلٍ كنتُ آملُهُ   فاعتضتُ منهُ مؤلمَ الصدِّ
لا عَهْدَ عنْدَ الصبرِ أطلبهُ   إنَّ الغرامَ أضاعَ من عهدي
يلحى العَذولُ فما أُعنّفهُ   وأقولُ ضَلَّ فأبتغي رشدي
وأُعارضُ النفحاتِ أسألهـا   برْدَ الجوى فتزيدُ في الوَقْدِ
يَهْدي الغرامُ إلى مسالكها   لتعلّلي بضعيفِ ما تُهْدي
يا سائقَ الوجنـاء معتسفاً   طَيَّ الفلاةِ لِطيّةِ الوجدِ
أرحِ الركابَ ففي الصَّبا نبأ   يغـني عن المستنّةِ الجـردِ
وسلِ الربوعَ برامةٍ خبراً   عن ساكني نجدٍ وعن نجدِ
ما لي تلام على الهوى خُلُقي   وهي التي تأبى سوى الحمدِ
لأبَيْتُ إلاّ الرشدَ مذ وضحتْ   بالمستعـينِ معـالمُ الرشْدِ
نعْمَ الخليفةُ في هدًى وتقًى   وبناء عزٍّ شامخِ الطّودِ

---

١ ق : المطلوب .
٢ التعريف : ٧٤ ، وانظر الاستقصا ٤ : ٣٥ .

نجلُ السراةِ الغُـرّ شأنهمُ كسبُ العلا بمواهبِ الوجدِ

ومنها :

للهِ مِنّي إذْ تأوّبَني ذكراهُ وهو بشاهقٍ فَرْدِ
شهمٌ يَفلُّ بواتراً قُضباً وجموعَ أقيالٍ أولي أيْدِ
أوريتُ زندَ العزمِ في طلبي وقضيتُ حقَّ المجدِ من قصدي
ووردتُ عن ظمإٍ مَناهِلَهُ فرويتُ من عزٍّ ومن رِفدِ
هي جنّةُ المأوى لمن كلفتْ آمالُهُ بمطالبِ المجدِ
لو لمْ أعلَّ بوِرْدِ كوثرها ما قلتُ هذي جنّةُ الخلدِ
مَنْ مُبْلِغٌ قومي ودونهمُ قُذُفُ النّوى وتَنوفةُ البعدِ
أنّي أنفْتُ على رجائهمُ وملكتُ عزَّ جميعهم وحدي

ومنها[1] :

ورقيمةِ الأعْطافِ حاليةٍ مَوْشيّةٍ بوشائعِ البُردِ
وَحْشيّةِ الأنسابِ ما أنستْ في مُوحشِ البيداء بالفَردِ
تسمو بجيدٍ بالغٍ صُعُداً شَرَفَ الصروحِ بغيرِ ما جهدِ
طالتْ رؤوسَ الشامخاتِ به ولربما قَصُرَتْ عن الوهدِ
قطعتْ إليكَ تنائفاً وصلتْ إسآدها بالنّصِّ والوخدِ
تخدي على استصعابها ذُلُلاً وتبيتُ طوعَ القِنِّ والقِدِّ
بسعودكَ اللاّتي ضمنَّ لنا طولَ الحياةِ بعيشةٍ رغدِ
جاءتكَ في وفدِ الأحابشِ لا يرجونَ غيركَ مُكرِمَ الوفدِ
وافَوْكَ أنْضاءً تُقَلّبهمْ أيدي السُّرى بالغورِ والنجدِ
كالطيفِ يستَقري مضاجعهُ أو كالحسامِ يُسَلُّ من غمدِ

[1] ومنها : سقطت من ق .

يثنونَ بالحسنى التي سبقَتْ   من غيرِ إنكارٍ ولا جَحْدِ
ويرونَ لحظكَ من وفادتِهم   فَخراً على الأتراكِ والهندِ
يا مستعيناً جلَّ في شَرَفٍ   عن رتبةِ المنصورِ والمهدي
جازاكَ ربُّكَ عَنْ خليقتهِ   خيرَ الجزاء فنعمَ ما تسدي
وبَقيتَ للدُّنيـــا وساكنها   في عزّةٍ أبداً وفي سَعْدِ

وقال يخاطب عمر بن عبد الله مدبر ملك المغرب :

يا سيدَ الفضلاء دعوةَ مشفقٍ   نادى لشكوى البثّ خيرَ سميعِ
ما لي وللإقصاء بعدَ تعلّةٍ   بالقربِ كنتُ لها أجلَّ شفيعِ
وأرى الليالي رنّقَتْ لي صافياً   منها فأصبح في الأجاج شروعي
ولقد خلصتُ إليك بالقُرَبِ التي   ليسَ الزمانُ لشملها بصَدوعِ
ووثقتُ منكَ بأيّ وعدٍ صادقٍ   أنّي المصونُ وأنت غيرُ مُضيعِ
وسما بنفسي للخليفَةِ طاعةً   دون الأنامِ هواكَ قبلَ نزوعِ
حتى انتحاني الكاشحون بسعيهم   فصددتَهمْ عنّي وكنتَ منيعي
رغمتْ أنوفهمُ بنُجحِ وسائلي   وتقطّعَتْ أنفـاسُهمْ بصنيعي
وبَغوا بما نقموا عليَّ خلائقي   حسداً فراموني بكلّ شنيعِ
لا تطمعنّهُمُ ببذلٍ في التي   قد صُنْتُها عنهم بفضلِ قنوعي
أنّى أُضامُ وفي يدي القلم الذي   ما كان طَبّعُهُ لهم بمطيعِ ؟
وليَ الخصائصُ ليسَ تأبى رتبةً   حسبي بعلمي ذاكَ من تفريعي
قسَماً بمجدكَ وهو خيرُ أليّةٍ   أعْتَدُّها لفؤاديَ المصـــدوعِ
إني لتصطحبُ الهمومُ بمضجعي   فتحولُ ما بيني وبين هجوعي
عطفاً عليَّ بوحدتي عن معشرٍ   نَفَثَ الإباء صدودهم في رُوعي
أغــدو إذا باكرتهم متجلّداً   وأروحُ أعثرُ في فضولِ دموعي
حيران أوجسُ عند نفسي خيفةً   فتسرُّ في الأوهامِ كلَّ مروعِ

أطوي على الزفراتِ قلباً آدَهُ حملُ الهمومِ تجولُ بين ضلوعي
ولقد أقولُ لصرْفِ دهرٍ رابني بحوادثٍ جاءت على تنويعِ
مهلاً عليكِ فليس خطبك ضائري فلقد لبست له أجَنَّ دروعِ
إني ظفرتُ بعصمةٍ من أوحدٍ بَذَّ الجميعَ بفَضلِه المجْموعِ

وقال يخاطب بعض الوزراء في حال وَحْشة[1] :

هنيئاً بصومٍ لا عَداه قَبولُ وبشرى بِعيدٍ أنت فيه مُنيلُ
وهنّيتها من عزّةٍ وسعادةٍ تَتَابَعُ أعوامٌ بها وفصولُ
سقى الله دهراً أنت إنسانُ عينه ولا مسَّ رَبعاً في حماكَ محولُ
فعصرك ما بين الليالي مواسمٌ لها غُرَرٌ وضّاحَةٌ وحُجولُ
وجانِبُكَ المأمولُ للجودِ مَشرعٌ يحومُ عليه عالِمٌ وجَهولُ
عساكَ وإن ضنَّ الزمانُ منوّلي فرسمُ الأماني من سواكَ محيلُ
أجِرني وليسَ الدهرُ لي بمسالمٍ إذا لم يكن لي في ذراكَ مَقيلُ
وأوليتني[2] الحسنى بما أنا آملٌ فمثلُكَ يولي راجياً وينيلُ
ووالله ما رُمْتُ الترحّلَ عن قلًى ولا سَخَطٍ للعيشِ فهو جزيلُ
ولا رغبةٌ عن هذه الدار إنها لَظِلٌّ على هذا الأنامِ ظليلُ
ولكن نأى بالشّعبِ عني حبائبٌ دعاهنَّ[3] خطبٌ للفراقِ طويلُ
يهيجُ بهنَّ الوجدَ أنيَ نازحٌ وأنَّ فؤادي حيث هنَّ حلولُ
عزيزٌ عليهنَّ الذي قد لقيته وأنَّ اغترابي في البلادِ يطولُ
توارتْ بأنبائي البقاعُ كأنني تُخُطّفتُ أو غالت ركابيَ غولُ

١ هو الوزير عمر بن عبد الله ، ويستجير بصديقه ورديفه الوزير مسعود بن رحو بن ماساي والقصيدة في التعريف : ٧٧ .
٢ التعريف : وأولني .
٣ التعريف : شجاهن .

ذكرتكَ يا مَغنى الأحبَّةِ والهوى — فطارتْ بقلبي أنّةٌ وعَويلُ
وحيَّيتُ عن شوقٍ رُباكَ كأنما — يُمَثَّلُ لي نؤيٌ بها وطُلولُ
أأحبابَنا والعهدُ بيني وبينكم — كريمٌ، وما عهد الكريم يحولُ
إذا أنا لم تُرضِ الحمولَ مدامعي — فلا قَرَّبتني للّقاء حمولُ
إلامَ مُقامي حيثُ لم تردِ العلا — مَرادي ولم تعطِ القيادَ ذلولُ ؟
أجاذب فضلَ العمر يوماً وليلةً — وساء صباحٌ بينها وأصيلُ
ويذهبُ فيما بين يأسٍ ومطمعٍ — زمانٌ بنيلِ المعلواتِ بخيلُ
تُعلّلني منهُ أمانٍ خوادعٌ — ويؤيسني ليّانُ منه مَطولُ
أما لليالٍ لا تردّ خطوبها — ففي كبدي من وقعهنّ فلولُ
يروّعني من صرفها كلُّ حادثٍ — تكادُ لهُ صُمُّ الجبالِ تزولُ
أداري على رغم العِدا لا لريبةٍ — يصانعُ واشٍ خوفَها وعذولُ
وأغدو بأشجاني عليلاً كأنما — تجودُ بنفسي زفرةٌ وغليلُ
وإني وإن أصبحتُ في دار غربةٍ — تحيلُ الليالي سلوتي وتزيلُ
وصدّتنيَ الأيامُ عن خيرِ منزلٍ — عهدتُ به أنْ لا يُضامَ نزيلُ
لأعلمُ أنَّ الخيرَ والشرَّ ينتهي — مَداهُ وأنَّ الله سوف يُديلُ
وأني عزيزٌ بابن ماساي مكثرٌ — وإن هان أنصارٌ وبان خليلُ

وقال يمدح[1] :

هلْ غيرُ بابِكَ للغريبِ مؤمَّلُ — أو عن جنابكَ للأماني مَعدِلُ
هي همّةٌ بعثت إليك على النّوى — عزماً كما شحذ الحسامَ الصَّيقلُ
متبوّأ الدُّنيا ومنتجَعُ المنى — والغيثُ حَيْثُ العارضُ المتهلّلُ
حيثُ القصورُ الزاهراتُ منيفةٌ — تُعنى بها زُهْرُ النجومِ وتَحفلُ

[1] قالها يمدح أبا العباس سلطان تونس عندما قدم إليه نسخة من كتابه « العبر » ، انظر التعريف : ٢٣٣ .

حيثُ الخيامُ البيض يُرفعُ للعلا — والمكرماتِ طِرافُها المتهدّلُ
حيثُ الحمى للعزّ دون مجاله[1] — ظلٌّ أفاءته الوشيجُ الذُّبّلُ
حيثُ الكرامُ ينوبُ عن نار القِرى — عَرْفُ الكِباء بحيّهم والمَندَلُ
حيثُ الجيادُ أملَّهنَّ بنو الوغى — ممّا أطالوا في المُغارِ وأوغلوا
حيثُ الوجوهُ الغُرُّ قنّعها الحيا — والبِشرُ فوق جبينهـا يتهلّلُ
حيث الملوكُ الصِّيد والنَّفَرُ الأُلى — عَزَّ الجوارُ لديهمُ والمنزلُ

وأنشد السلطان أبا عبد الله ابن الحجاج لأول قدومه ليلة الميلاد الكريم عام أربعة وستين وسبعمائة هذه القصيدة[2] :

حيِّ المعاهدَ كانت قبلُ تُحييني — بواكفِ الدمعِ يُرويها ويُظمِيني
إنَّ الأُلى نزحَتْ داري ودارهُمُ — تحمَّلوا القلبَ في آثارهمْ دوني
وقفتُ أنشدُ صبراً ضاعَ بعدهُمُ — فيهمْ وأسألُ رسماً لا يناجيني
أمثّلُ الرَّبعَ من شوقٍ وألثمهُ — وكيفَ والفكرُ يدنيـه ويقصيني
وينهبُ الوجدُ مني كلَّ لؤلؤة — ما زالَ جَفني عليها غيرَ مأمونِ
سَقَتْ جفوني مغاني الرَّبع بعدهمُ — فالدمعُ وَقْفٌ على أطلاله الجونِ
قد كان للقلبِ عن داعي الهوى شغل — لو أنَّ قلبي إلى السلوان يدعوني
أحبابَنا هل لعهدِ الوصلِ مدَّكَرٌ — منكم وهلْ نسمةٌ منكم تحييني
ما لي وللطيفِ لا يعتادُ زائرهُ — وللنّسيمِ عَليـلاً لا يـداويني
يا أهلَ نجدٍ وما نجدٌ وساكنهـا — حسناً سوى جنة الفردوس والعينِ
أعندكمْ أنّني ما مرَّ ذكركمُ — إلاّ انثنيتُ كأنَّ الراحَ تثنيني
أصبو إلى البرقِ من أنحاء أرضكمُ — شوقاً ، ولولاكمُ ما كان يصبيني

١ التعريف : في ساحاته .
٢ التعريف : ٨٥ .

يا نازحاً والمنى تُدنيه من خَلَدي حتّى لأحسبهُ قرباً يناجيني
أسلى هواك فؤادي عن سواك وما سواكَ يوماً بحالٍ عنكَ يُسليني
ترى الليالي أنستْكَ ادّكاريَ يا من لم يكن ذكره الأيامُ تنسيني

ومنها :

أبَعد مرّ الثلاثين التي ذهبتْ أولى الشبابِ بإحساني وتحسيني
أضعتُ فيها نفيساً ما وردت به إلاّ سرابَ غرورٍ لا يروّيني
واحسرتي من أمانٍ كلّها خُدَعٌ تَريشُ غيّي ومرُّ الدهرِ يَبريني

ومنها في وصف المشوَر[1] المبني لهذا العهد :

يا مصنعاً شيّدتْ منه السعودُ حمًى لا يطرقُ الدّهرُ مبناهُ بتوهينِ
صرحٌ يحارُ لديه الطّرفُ مفتتناً فيما يروقكَ من شكلٍ وتكوينِ
بُعداً لإيوان كسرى إنّ مَشْوَرَكَ الـ سامي لأعظمُ من تلك الأواوينِ
ودّع دمشق ومغناها فقصركَ ذا «أشهى إلى القلبِ من أبواب جيرونِ»

ومنها في التعريض بالوزير الذي كان انصرافه بسببه :

مَن مبلغٌ عنيَ الصحبَ الأُلى جهلوا ودّي وضاع حماهم إذ أضاعوني
أني أويتُ من العليا إلى حَرَمٍ كادتْ مغانيه بالبشرى تحيّيني
وأنّني ظاعناً لم ألقَ بعدهُمُ دهراً أشاكي ولا خصماً يشاكيني
لا كالتي أخفرتْ عهدي لياليَ إذ أقلّبُ الطرفَ بين الخوفِ والهونِ
سَقياً ورعياً لأيامي التي ظفرتْ يدايَ منها بحظٍّ غير مغبونِ
أرتادُ منهـا مليّاً لا يماطلني وعداً وأرجو كريماً لا يُعنّيني

[1] المشور : المكان الذي يجلس فيه السلطان للحكم .

ومنها :

وهاكَ منها قوافٍ طيّها حكم ... مثلُ الأزاهرِ في طيّ الرياحينِ
تلوحُ إن جُليَتْ درّاً ، وإن تُليتْ ... تثني عليكَ بأنفاسِ البساتينِ
عانيتُ منها بجهدي كلَّ شاردةٍ ... لولا سعودُكَ ما كانت تواتيني
يمانعُ الفكرَ عنهـا ما تَقَسّمهُ ... من كلّ حزنٍ بطيّ الصدرِ مكنونِ
لكنْ بسعدك ذلّتْ لي شواردها ... فرُضْتُ منهـا بتحبيرٍ وتزيينِ
بقيتَ دهرَكَ في أمنٍ وفي دعةٍ ... ودام ملكُكَ في نصرٍ وتمكينِ

وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والحظوة قد استُعمل في السفارة إلى ملك قَشتَالة فَراقه وعرف حقه .

مولده بتونس بلده في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى كلام لسان الدين في حق ابن خلدون .

[تعليق للمقّري والباعوني]

قلت : هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادىء أمره وأواسطه ، فكيف لو رأى تاريخه الكبير الذي نقلنا منه في مواضع وسماه « ديوان العبر وكتاب المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » ورأيته بفاس وعليه خطه في ثماني مجلدات كبار جدّاً ، وقد عرّف في آخره بنفسه ، وأطال ، وذكر أنه لما كان بالأندلس وحظي عند السلطان أبي عبد الله شمَّ من وزيره ابن الخطيب رائحة الانقباض ، فقوض الرحال ولم يرض من الإقامة بحال ، ولعب بكرته صوالجة الأقدار ، حتّى حل بالقاهرة المعزيّة واتخذها خير دار ، وتولى بها قضاء القضاة وحصلت له أمور ، رحمه الله تعالى .

وكان – أعني الولي ابن خلدون – كثير الثناء على لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى .

ولقد رأيت بخط العالم الشهير الشيخ إبراهيم البـــاعوني الشامي فيما يتعلق بابن خلدون ما نصّ محل الحاجة منه : تقلبت به الأحوال حتّى قدم إلى الديار المصرية ، وولي بها قضاء قضاة المالكية ، في الدولة الشريفة الظاهرية ، وصحبته – رحمه الله تعالى – في سنة ٨٠٣ عند قدومه إلى الشام صحبة الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق في فتنة تمرلنك عليه من الله تعالى ما يستحقه ، وأكرمه تمرلنك غاية الإكرام ، وأعاده إلى الديار المصرية ، وكنت أكثر الاجتماع به بالقاهرة المحروسة للمودة الحاصلة بيني وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين ابن الخطيب ، ويورد من نظمه ونثره ما يشنف به الأسماع ، وينعقد على استحسانه الإجماع ، وتتقاصر عن إدراكه الأطماع ، فرحمة الله تعالى عليهما ، وأزكى تحياته تهدى إليهما . ولقد كان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان ، وله من النظم والنثر ما يزري بعقود الجمان ، مع الهمة العلية ، والتبحر في العلوم النقلية والعقلية ، وكانت وفاته بالقاهرة المعزيّة سنة ٨٠٧ ، سقى الله تعالى عهده ، ووطّأ في الفردوس مَهْده . قاله وكتبه الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن أحمد الباعوني الشافعي ، غفر الله تعالى له زلله ، وأصلح خلله ؛ انتهى .

١٠ – ومن نثر لسان الدين ما ذكره في « الإحاطة » في ترجمة يحيى بن إبراهيم ابن يحيى البرغواطي من بني الترجمان ، ولنذكر الترجمة بجملتها لاشتمالها على ما ذكر وغيره في حق المذكور بعد قوله « إنه من بني الترجمان » ما صورته :

« عزف عنهم وانقطع إلى لقاء الصالحين ، وصحبة الفقراء المتجردين ، وكان نسيجَ وَحْدِهِ في طلاقة اللسان ، حافظاً لكل غريبة من غرائب الصوفية ، يتكلم في مشكلاتهم ، حفظ « منازل السائرين » للهروي ، وتائية ابن الفارض ؛ مليح الملبس ، مترفع عن الكُدية ، حسن الحديث ، صاحب شهرة ، ومع ذلك

فمغضوض منه ، محمول عليه ، لما جبل عليه من رفض الاصطلاح ، واطّراح التغافل ، مُولَع بالنقد ، والمخالفة في كل ما يطرق سمعه ، مرشحاً ذلك بالجدل المبرِم ، ذاهباً أقصى مذاهب القِحة ، كثير الفلتات ، نالته بسبب هذه البلية محن ، ووُسم بالرهق في دينه مع صحة العقل ، وهو الآن عامر الرباط المنسوب إلى اللجام على رسم الشياخة ، عديم التابع ، مهجوز الفِناء ، قيد الكثير من الأجزاء منها في نسبة الذنب إلى الذاكر جزء نبيل غريب المأخذ ، ومنها فيما أشكل من كتاب أبي محمد ابن الشيخ ، وصنف كتاباً كبير الحجم في الاعتقادات جلب فيه كثيراً من الحكايات ، رأيت عليه بخط شيخنا أبي عبد الله المقّري ما يدل على استحسانه . ومن البرسام الذي يجري على لسانه ، بين الجد والقحة والجهالة والمجانة ، قوله لبعض خدام باب السلطان وقد ضويق في شيء أضجره منقولاً من خطّه — بعد ردّ كثيرٍ منه للإعراب — ما نصه : الله نور السموات من غير نار ولا غيرها ، والسلطان ظلٌّ له وسراجه في الأرض ، ولكل منهما فرّاش مما يليق به ويتهافت عليه ، فهو تعالى محرق فَراشه بذاته ، مغرقهم بصفاته وسراجه ، وظله هو السلطان محرق فَراشِه بناره ، مغرقهم بزيته ونواله ، ففَراش الله تعالى ينقسم إلى حافّين ومسبّحين ومستغفرين وأمناء وشاخصين ، وفَراش السلطان ينقسمون إلى أقسام لا يشذ أحدهم عنها ، وهم وزغة ابن وزغة ، وكلب ابن كلب ، وكلب مطلقاً ، وعار ابن عار ، وملعون ابن ملعون ، وقط ، فأما الوزغة فهو المغرق في زيت نواله المشغول بذلك عما يليق بصاحب النعمة من النصح وبذل الجهد ، والكلب ابن الكلب هو الكيّس المتحرز في تهافته من إحراق وإغراق يعطي بعض الحق ويأخذ بعضه ، وأما الكلب مطلقاً فهو المواجه وهو المشرد للسفهاء عن الباب المعظم القليل النعمة ، وأما العار ابن العار فهو المتعاطي في تهافته ما فوق الطوق ، ولهذا امتاز هذا الاسم بالرياسة عند العامة إذا مر بهم جلف أو متعاظم يقولون : هذا العار ابن العار ، يحسب نفسه رئيساً ، وذلك لقرب المناسبة ؛ فهو موضوع لبعض الرياسة ، كما أن الكلب ابن الكلب لبعض الكياسة ، وأما الملعون

ابن الملعون فهو المغالط المعاند المشارك لربه المنعم عليه في كبريائه وسلطانه ، وأما القط فهو الفقير مثلي المستغني عنه لكونه لا تختص به رتبة ، فتارة في حجر الملك ، وتارة في السنداس[1] ، وتارة في أعلى الرتب ، وتارة محسن ، وتارة مسيء ، تُغفر سيئاته الكثيرة بأدنى حسنة ، إذ هو من الطوّافين ، متطيَّر بقتله وإهانته ، تياه في بعض الأحايين بعزة يجدها من حرمة أبقاها له الشارع ، وكل ذلك لا يخفى. وأما الفرّاش المحرّق فهو عند الدول نوعان : تارة يكون ظاهراً وحصته مسح المصباح وتصفية زيته وإصلاح فتيله وستر دخانه ومسايسة ما يكون من المطلوب منه ، ووجود هذا شديد الملازمة ظاهراً ، وأما المحرّق الباطن فهو المشار إليه في دولته بالصلاح والزهد والورع فيعظمه الخلق ويُتبرك لما هو بسبيله ، فيكون وسيلة بينهم وبين ربهم وخليفته الذي هو مصباحهم ، فإذا أراد الله تعالى إهلاك المروءة وإطفاء مصباحها تولى ذلك أهل البطالة والجهالة ، وكان الأمر كما رأيتم ، والكل فرّاش متهافت ، وكلٌّ يعمل على شاكلته ».

١١ — قال الوزير لسان الدين : وطلب مني الكَتب عليه بمثل ذلك ، فكتبت ببعض أوراقه إثارة لضجره ، واستدعاء لفكاهة انزعاجه ، ما نصه :

« وقفت من الكتاب المنسوب لصاحبنا أبي زكريا البرغواطي على برسام محموم ، واختلاط مذموم ، وانتساب زَنجٍ في روم ، وكان حقه أن يتهيب طريقاً لم يسلكها ، ويتجنب عقيلة لم يملكها ، إذ المذكور لم يتلق شيئاً من علم الأصول ، ولا نظر من الإعراب في فصل من الفصول ، إنما هي قِحّة وخلاف ، وتهاونٌ بالمعارف واستخفاف ، غير أنه يحفظ في طريق القوم كل نادرة ، وفيه رجولية ظاهرة ، وعنده طلاقة لسان ، وكفاية قلّما تتأتى لإنسان ، فإلى الله نضرع أن يعرّفنا مقادير الأشياء ، ويجعلنا بمعزل عن الأغبياء ، وقد قلت مرتجلاً من أول نظرة ، واجتزاء بقليل من كثرة :

[1] السنداس بيت الراحة .

كلُّ جارٍ لغايةٍ مَرْجوّهْ فهو عندي لم يَعْدُ حقّ الفتوّهْ
وأراكَ اقتحمتَ ليلاً بهيماً موبلحاً منك ناقةً في كوّهْ
لا اتّباعاً ولا اختراعاً أتتنا إذْ نظرنا عروسَكَ المجلوّهْ
كلُّ ما قلتَهُ فقد قاله النا سُ مقالاً آياتُهُ متلوّهْ
لم تزدْ غيرَ أن أبحتَ حمى الإع رابِ في كلِّ لفظة مقروّهْ
نسألُ الله فكرةً تلزمُ العق لَ إلى حشمة تحوطُ المروّهْ
وعزيزٌ عليَّ أن كنتَ يحيى ثم لم تأخذ الكتابَ بقوّهْ»

١٢ – ومن بديع نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه لسلطان تلمسان إثر قصيدة سينية حازت قصب السبق ، ولنثبت الكل هنا فنقول : قال الإمام الحافظ عبد الله التنسي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ، عندما جرى ذكر أمير المسلمين السلطان أبي حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يَغْمَراسَنْ بن زيان رحمه الله تعالى ، ما صورته : وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله ابن الخطيب كثيراً ما يوجه إليه بالأمداح ، ومن أحسن ما وجه له قصيدة سينية فائقة ، وذلك عندما أحس بتغير سلطانه عليه ، فجعلها مقدمة بين يدي نجواه ، لتمهد له مَثواه ، وتحصل له المستقر ، إذا ألجأه الأمر إلى المفر ، فلم تساعده الأيام ، كما هو شأنها في أكثر الأعلام ، وهي هذه[1] :

أطلَعْنَ في سُدَفِ الفروع شموسا ضحكَ الظلامُ لها وكان عبوسا
وعَطفْنَ قُضباً للقدودِ نواعماً بُوِّئْنَ أدواحَ النعيمِ غُروسا
وعدَلْنَ عن جهرِ السلامِ مخافةَ الـ واشي فجئنَ بلفظه مَهْموسا
وسَفَرْن من دهَشِ الوداعِ وقومُهُـ ـنَّ إلى الترحّلِ قد أناخوا العيسا
وخلسنَ من خَللِ الحجالِ إشارةً فتركن كلَّ حجالها مخلوسا
لم أنسها من وحشةٍ والحيُّ قد زَجَرَ الحمولَ وآثرَ التَغْليسا

١ أزهار الرياض ١ : ٢٥٠ وبغية الرواد ٢ : ٢٨٧

لا الملتقى من بعدها كَثَبٌ ولا عُوجُ الركائبِ تسأمُ التَّخْييسا[1]
فوقفتُ وِقْفَةَ هائمٍ برحاؤهُ وُقِفَتْ عليه وحُبِّسَتْ تحبيسا
ودَعَوْتُ عيني عاتباً وعيونهـا بعصا النوى قد بجّست تبجيسا
نافستِ يا عينيَّ درَّ دموعهم فعرضتِ درّاً للدموعِ نفيسا
ما للحمى بعدَ الأحبّةِ موحشاً ولكَمْ تراءى آهلاً مـأنوسا
ولِسِرْبِهِ حولَ الخميلةِ نافراً عَمّنْ يحسُّ بهِ وكـان أنيسا
ولظلّهِ المورودِ غمرُ قَليبِهِ لا يقتضي ورداً ولا تَعْريسا
حيّيْتُهُ فأجابني رَجْعُ الصدى لا فَرْقَ بينهما إذا ما قيسا
ما إن يزيدُ على الإعادةِ صوتُهُ حرفاً فيشفي بالمزيدِ نسيسا[2]
نَضَبَ المعينُ وقلّصَ الظلُّ الذي ظَلْنا عكوفاً عندهُ وجُلوسا
نَتواعَدُ الرُّجْعى ونَغْتنمُ اللقا ونديرُ من شكوى الغرامِ كؤوسا
فإذا سألتَ فـلا تسائلْ مخبراً وإذا سمعتَ فلا تحسَّ حسيسا
عهدي بهِ والدهرُ يتحفُ بالمنى وقد اقتضتْ نعماهُ أن لا بوسا
والعيشُ غَضٌّ الرَّبْعِ والدُّنيا قد اجـ تليتْ بمغنـاهُ عليَّ عَروسـا
أتُرى يعيدُ الدهرُ عهداً للصّبـا دَرَسَتْ مغاني الأنسِ فيه دروسا
أوطانُ أوطارٍ تعوّضَ أفقهـا منْ رونَـقِ البشرِ البهيِّ عُبوسا
هيهاتَ لا تغني لعلَّ ولا عسى في مثلهـا إلاّ لآيةِ عيسى
والدَّهْرُ في دستِ القضاء مدرِّسٌ فإذا قضى يستأنفُ التـدريسا
تفتنُّ في جُمَلِ الورى أبحاثُهُ لا سيّما في باب نعمَ وبيسـا
وسجيّةُ الإنسانِ ليسَ بناصلٍ من صبغها حتّى يُرى مرموسا
يغترُّ مَهْما ساعَدَتْ آمـالهُ فإذا عَراهُ الخطبُ كان يؤوسا

١ ق ص : التجنيسا ، والتصويب عن الأزهار والبغية ؛ التخييس : تذليل الدابة .
٢ النسيس : غاية الجهد ؛ قلت ولعل الصواب « رسيسا » .

فَلَو آنّ نفساً مُكّنتْ من رشْدها   يومـــاً وقدَّسها الهدى تَقْديســـا
لم تَسْتَفزَّ رسوخَهـا النعمى ولا   هلعتْ إذا كَثرتْ[1] إليها البوسى
قلْ للزمـــانِ إليكَ عـن مُتَذَمِّمٍ   بضمانِ عزٍّ لم يكن ليخيسا[2]
فإذا استَحرَّ جلادُهُ فأنا الذي اس   تغشيتُ من سردِ اليقينِ لَبوسا
وإذا طغى فرعونهُ فأنا الذي   من ضُرّه وأذاهُ عُذْتُ بموسى
أنا ذا أبو مثواهُ[3] مَنْ يحمي الحمى   ليثـاً ويعْلمُ بـالزئيرِ الخيســـا
بحمى أبي حمّو حططتُ ركائبي   لمّـــا اختبرتُ الليثَ والعرّيســـا
أسَدُ الهياجِ إذا خطا قُدُماً سطا   فتخلّفَ الأسدَ الهزبرَ فريسا
بدرُ الهدى يأبى الضلالَ ضياؤهُ   أبداً فيجلو الظلمةَ الحنديسا
جبَلُ الوقارِ رسا وأشرف واعتلى   وسما فطأطأتِ الجبالُ رؤوسا
غيثُ النوالِ إذا الغمامُ حَلوبةٌ   مَثلَتْ بأيدي الحالبين بَسوسا[4]
تَلْقاهُ يومَ الأنسِ روضاً ناعماً   وتراهُ بأسـاً في الهيـــاجِ بئيسا
كمْ غمرةٍ جلّى وكمْ خطبٍ كفى   إنْ أوطأ الجُرْدَ العتاقَ وطيسا
كم حكمةٍ أبدى وكم قصدِ هدى   للسالكينَ أبــانَ منهُ دريســـا[5]
أعلى بني زيّان والفَذُّ الذي   لَبِسَ الكمالَ فزيّنَ الملبوسا
جَمَعَ الندى والبأسَ والشيَمَ العلا   والسؤددَ المتواترَ القُــدْموســـا
والحلمُ ليسَ يباين الخلق الرضى   والعلمُ ليسَ يعارضُ الناموسا
والسعدُ يغني حكمه عن نَصْبَةٍ   تَسْتَخْبِرُ التّربيعَ والتّسْديسا
كمْ راضَ صعباً لا يراض مُعاصياً   كم خاض بحراً لا يخاضُ ضروسا

---

١ ق : كثرت .
٢ خاس : خفر العهد .   ٣ البغية : نادى أبا مثواي .
٤ البسوس : التي تتطلب إبساساً أي تسكيناً كي تدر .
٥ الدريس : الطريق الخفي .

بلَغَ الّتي لا فوقها متمهّلاً وعلا السُّها واستفل البرجيسا[1]
يا خيرَ مَنْ خفقتْ عليهِ سحابةٌ للنّصرِ تُمطرهُ أجشُّ بجيسا[2]
وأجلَّ من حملتْه صَهْوةُ سابحٍ إن كرَّ ضعضع كرُّهُ الكُردوسا
قسَماً بمَن رفع السماء بغير ما عَمَدٍ ورَفَعَ فوقَهــــا إدريسا
ودحا البسيطةَ فوقَ لُجٍّ مُزْبدٍ ما إنْ يزالُ على القرارِ حبيسا
حتّى يهيبَ بأهلهِ الوعدُ الذي حشر الرئيسَ إليهِ والمرؤوسا
ما أنتَ إلاّ ذخرُ دهركَ دمتَ في الـ صونِ الحريزِ مُمَتَّعــاً محروســا
لو ساومتهُ الأرضُ فيكَ بما حوَتْ لَرآكَ مستاماً بهـــا مبخوسا
حلف[3] البرورُ بها أليّةَ صادقٍ ويمينُ مَنْ عقدَ اليمينَ غموسا
مَنْ قاسَ ذاتكَ بالذواتِ فإنّهُ جهلَ الوزانَ وأخطــأ التقييســا
لا تستوي الأعيانُ فضلَ مزيّةٍ وطبيعةٍ فَطَرَ الإلهُ وسُوسا[4]
لعنايةِ التّخصيصِ سرٌّ غامضٌ من قبلِ ذَرْءِ الخلقِ خصّ نفوسا
من أنكرَ الفضلَ الذي أُوتيتَهُ جَحَدَ العيانَ وأنكَرَ المَحْسوسا
من دان بالإخلاصِ فيكَ فعقده لا يَقْبَلُ التّمْويهَ والتّلْبيسا
والمنتمي العَلَويّ عيصُكَ لم تكنْ لترى دخيلاً في بَنيهِ دَسيسا
بيتُ البتولِ ومنبتُ الشرفِ الذي تحمي الملائكُ دوحَهُ المغروسا
أمّــــا سياستكَ الّتي أحكَمتهـــا ورَمَيْتَ بالتقصيرِ أسطــاليســا
فلَوَ انَّ كسرى الفرسِ أبصر بعضها ما كان يَطْمعُ أنْ يُعدّيَ سوسا[5]
لو سار عدلك في السنين لما اشتكتْ بخساً ، ولم يكُ بعضهن كبيسا

---

١ البرجيس : المشتري .
٢ البجيس : المتدفق بغزارة .
٣ ق والبغية : كلف .
٤ السوس : الخليقة والسجية .
٥ يعدي سوسا : يتجاوز السوس ، منطقة تستّر ؛ وفي الأزهار : يعد سؤوسا أي ذا سياسة .

ولو الجواري الخُنّسُ انتسبتْ إلى ... إقدامِ عزْمكَ ما خنسنَ خنُوسا [1]
قُدْتَ الصعابَ فكلُّ صعبٍ سامحٌ ... لكَ بالقيادِ وكانَ قبلُ شَموسا
تلقى الليوثَ وللقتامِ غمامةٌ ... قَدَحَ الصفيحُ وميضَها المقبوسا
وكأنها تحتَ الدروعِ أراقمٌ ... ينظرنَ من خللِ المغافرِ شوسا
ما لابنِ مامةَ في القَديمِ وحاتمٍ ... ضربَ الزمانُ بجودهم ناقوسا
مَنْ جاء منهمْ مثلَ جودكَ كلّما ... حسبوا المكارمَ كسْوَةً أو كيسا
أنتَ الذي افتكَّ السفينَ وأهله ... إذْ أوسعتْ سبُلُ الخلاصِ طموسا
أنتَ الذي أمددتَ ثغرَ اللهِ بالصـ ... ـدقاتِ تُبْلِسُ كَرَّةً إبليسا
وأعنْتَ أندلُساً بكلّ سبيكةٍ ... موسومةٍ لا تعرفُ التدْليسا
وشَحينةٍ بالبرّ في سُبُلِ الرضى ... والبرّ قارب قاعُها القاموسا
إنْ لم تجرَّ بها الخميسَ فطالما ... جهّزْتَ فيها للنّوالِ خميسا
وملأتَ أيديها وقد كادت على ... حكمِ القضاء تُشافِهُ التفْليسا
صدّقْتَ للآمالِ صنعةَ جابرٍ ... وكفيتها التشميعَ والتشْميسا [2]
والحلَّ والتقطيرَ والتصعيدَ والتـ ... ـتخميرَ والتصويلَ والتكْليسا [3]
فسبكتَ من آمالها مالاً ، ومنْ ... أوراقها وَرِقاً ، وكنَّ طُروسا
بُهِتوا فلمّا استخبروا لم ينكروا ... وزناً ولا لوناً ولا ملموسا
وتُديرُ من قَلْبِ السطورِ سبائكاً ... منها ومن طبعِ الحروفِ فلوسا
ونحوتَ نحوَ الفضلِ تعضدُ منه بالـ ... ـمسموعِ ما ألفيتَ منهُ مَقيسا
وجبرتَ بعدَ الكسرِ قومكَ جاهداً ... تُغْني العديمَ وتُطلقُ المحبوسا

١ هذا البيت والذي بعده سقطا من ق .
٢ ذكر جابر بن حيان وأردف ذلك بذكر بعض المصطلحات الكيميائية ؛ فالتشميع : تليين الشمع ، والتشميس : تعريض المواد للشمس .
٣ الحل : التحليل الكيميائي ؛ والتقطير والتصعيد متشابهان . والتصويل : جعل الرواسب طافية وهو تال للتكليس .

ونشرتَ رايةَ عزِّهمْ من بعد ما … دالَ الزمانُ فسامهـا تنكيسا
أحْكَمْتَ حيلةَ بُرئهمْ بلطافة … قد أعجزتْ في الطبِّ جالينوسا
وفلَلْتَ منْ حدِّ الزمانِ وإنّهُ … أوحى وأمضى من غِرارِ الموسى
وشحذتَ حَدّاً كان قبلُ مثلَّماً … ونعشتَ جَدّاً كان قبلُ تعيسا
لمْ ترجُ إلاّ اللهَ جلَّ جلالهُ … في شدّةٍ تُكفى وجرحٍ يوسى
قَدَّمْتَ صبحاً فاستضأتَ بنورهِ … ووجدتَ عند الشدّةِ التنفيسا
ما أنتَ إلاّ فالحٌ متيَقّنٌ … بالنُّجْحِ تعمرُ مُمْرِعاً ويبيسا
ومتاجرٌ جعلَ الأريكةَ صهوةً … عَرَبيّةً والمُتّكا القَرَبوسا
ما إنْ تُبايعُ أو تشاري واثقاً … بالربحِ إلاّ المالكَ القُدُّوسا
والعزمُ يفترعُ النجومَ بناؤهُ … مَهْما أقامَ على التُّقى تأسيسا
ومقام صبركَ واتكالكَ مُذكرٌ … بحديثهِ الشبليَّ أو طاووسا
ومَنِ ارتضاهُ اللهُ وفّقَ سعيَهُ … فرأى العظيمَ من الحظوظِ[1] خسيسا
ما ازددتَ بالتمحيصِ إلاّ جدّةً … ونضوتَ من خِلَعِ الزمانِ لَبيسا
ولطالما طرقَ الخسوفُ أهلّةً … ولطالما اعترضَ الكسوفُ شموسا
ثمّ انجلتْ قَسماتُها عن مشرقٍ … للسَّعْدِ ليسَ بحاذرٍ تَتْعيسا
خذْها إليكَ على النوى سينيّةً … ترضى الطّباقَ وتشكرُ التجنيسا
إن طوولتْ[2] بالدّرِّ من حولِ الطُّلى … يوماً تشكّتْ حظَّها الموكوسا
لولاكَ ما أصْغَتْ لخطبةِ خاطبٍ … ولعنّستْ في بيتها تعنيسا
قصدتْ سليمانَ الزمانِ وقاربتْ … في الخطوِ تحسبُ نفسها بَلْقيسا
لي فيكَ وُدٌّ لم أكنْ من بعد ما … أعطيتُ صفقةَ عهدهِ لأخيسا
كمْ لي بصحةِ عقدهِ من شاهدٍ … لا يحْذَرُ التجريحَ والتّدليسا

١ البغية : الأمور .   ٢ البغية : طاوقت .

يقفو الشهادةَ باليمينِ ، وإنّهُ لمؤمّنٌ منْ أنْ يُعَدَّ فَسيسا[1]
لا يستقرُّ قَرارُ أفكاري إلى أنْ أستقِرَّ لدى عُلاكَ جليسا
وأرى تجاهلكَ مستقيمَ السيرِ لا قصدِ الذي أعملتُهُ مَعْكوسا
هي دينُ أيّامي فإنْ سَمَحَتْ بهِ لم يبق من شيء عليهِ يوسى
لا زالَ صنعُ اللهِ مجنوباً إلى مَثْواكَ يهدي البشرَ والتأنيسا
مُتَتابِعاً كتَتابُعِ الأيامِ لا يَذَرُ التعاقبَ جمعةً وخَميسا
فَلَوَ ٱنْصفَتكَ إيالةُ الملكِ التي رُضْتَ الزمانَ لها وكانَ شريسا
قرنتْ بذكركَ والدعاء لكَ الذي تختارهُ التّسْبيحَ والتّقْديسا
القَلْبُ أنتَ لها رئيسُ حياتِها لمْ تُعتبرْ مهما صلحتَ رئيسا

ثمّ قال الحافظ التنسي رحمه الله تعالى بعد سرد هذه القصيدة ما معناه : إن لسان الدين ابن الخطيب حذا في هذه القصيدة السينية حَذْوَ أبي تمام في قصيدته التي أولها[2] :

أقَشيبَ رَبعهمُ أراكَ دريسا تَقْري ضيوفَكَ لوعةً ورَسيسا

واختلس كثيراً من ألفاظها ومعانيها ؛ انتهى .

ووصل لسان الدين هذه القصيدة بنثر بديع نصه :

« هذه القصيدة — أبقى الله تعالى أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل المجموع ، والثناء المسموع ، والملك المنصور الجموع — نفثة مَنْ باح بسر هَواه[3] ، ولبى دعوة الشوق العابث بلبه وقد ظفر بمن يُهدي خبر جواه ، إلى محلّ هواه ، ويختلس بعث تحيته ، إلى مثير أريحيته ، وهي بالنسبة إلى ما يعتقد

---

١ الفسيس : الضعيف ؛ وفي ق ص : قسيا .
٢ ديوانه ٢ : ٢٦٢ .
٣ البغية : بسر حبه .

من ذلك الكمال ، الشاذ عن الآمال ، عنوانٌ من كتاب ، وذواق من أوقار ذات أقتاب ، وإلاّ فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانُه ، أو يكافىء إحسانَها إحسانُه ، أو يستقلّ بوصفها يراعه ، أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه ؟ ولا مكابرة بعد الاعتراف ، والبحر لا ينفدُ بالاغتراف ، لا سيما وذاتكم اليومَ والله تعالى يبقيها ، ومن المكاره يقيها ، وفي معارج القرب من حضرة القدس يرقيها ، ياقوتة اختارها واعتبرها ، ثمّ ابتلاها بالتمحيص في سبيل التخصيص واختبرها ، وسبيكة أخلصها مسجرها ، فخلصها بتسجيره من الشوْب ، وأبرزها من لباب الذوب [1] ، وقصرت عن هذه الأثمان ، وسُرَّ بصدق دعواه البهرمان [2] ، ليفاضل بين الجهام والصيِّب و﴿ ليميز الله الخبيث من الطيّب ﴾ (الأنفال : ٣٧) فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعدة ، وعرّفكم بنفسه في حال الشدة ، ثمّ فسح لكم بعد ذلك في المدة ، لتعرفوه إذا دال الرخاء ، وهبَّت بعد تلك الزعازع الريحُ الرُّخاء ، وملأكم من التجارب ، وأوردكم من ألطافه أعذب المشارب ، ونقلكم بين إمرار الزمان وإحلائه ، ولم يسلُبكم إلاّ حقيراً عند أوليائه ، وأعادكم المعاد المُطَهر ، وألبسكم من أثواب اختصاصه المُعْلم المشهّر ، فأنتم اليوم بعين العناية ، بالإفصاح والكناية ، قد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجناية ، فإن كان الملك اليوم عِلْماً يُدرس ، وقوانين في قوّة الحفظ تُغرس ، وبضاعة برَصْد التجارب تُحرس ، فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة ، وأصمعيٌّ شعوبه المنسوبة ، إلى ما حزتم من أشتات الكمال ، المُرْبية على الآمال ، فالبيت علوي المنتسب ، والملك بين الموروث والمكتسب ، والجود يعترف به الوجود ، والدين يشهد به الركوع والسجود ، والبأس تعرفه التهائم والنُّجود ، والخلق يحسده الروض المَجود ، والشعر يغترف من عذب نمير ، ويصدق ما قال : بدىء بأمير وختم بأمير ، وإن مملوككم حوّم

١ ق : أخلصها وشجرها فخلصتها الشخيرة من الشوب وأبرزتها من الباب الذوب ؛ وكذلك هي في أصول الأزهار ؛ وفي البغية : خلصها وشجرها فخلصتها السحيرة من الشوب . . . الخ .
٢ البغية : يصدق دعوته البرهان ؛ والبهرمان : العصفر .

من بابكم على العذب البَرود ، فعاقه الدهر عن الورود ، واستقبل أُفقه ليحقق الرَّصْد ، ولكنه أخطأ القصد ، ومن أخطأ الغرض أعاد ، ورجا من الزمان الإسعاد ، فربما خُبِيء نصيب ، أو كان مع الخواطىء سهم مصيب [1] ، وكان يؤمل صحبة ركاب الحجاز ، فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز ، وقَطَعَت القواطع التي لم ينلها الحساب ، ومنعت الموانع التي خلص منها إلى الفتنة الانتساب ، ومن طلب الأيام أن تجري على اقتراحه ، وجَبَ العملُ على اطِّراحه ، فإنما هي البحر الزاخر ، الذي لا يدرَك منه الآخر ، والرياح متغايرة ، والسفينة الحائرة ، فتارة يتعذر من المرسى الصرف ، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتدَّ الطرف ، هـذا إن سالمها عَطَبُها ، وأُعفي من الوقود حَطَبُها ، ولقد علم الله جل جلاله أن لقاء ذلك المقام الكريم عند المملوك تمام المطلوب ، ممن يجبر كسر القلوب ، فإنه ممّا انعقد على كماله الإجماع ، وصحَّ في عوالي معاليه السَّماع ، وارتفعت في وجود مثاله الأطماع ، أخلاقاً هذَّبها الكرم الوضاح ، وسجية كلف بها الكمال الفضاح ، وحرصاً على الذكر الجميل وما يتنافس فيه إلا من سَمَتْ همَمُه ، وكرمتْ ذممه ، وألفت الخلد رممه ، إذ الوجود سراب ، وما فوق التراب تراب ، ولا يبقى إلا عمل راق ، أو ذكر بالجميل يُسَطر في أوراق ، حسبما قلت من قصيدة كتبتها على ظهر مكتوب موضوع أشار به من كانت له طاعة ، فوفت بمقترحه استطاعة :

يمضي الزمانُ وكلُّ فانٍ ذاهبٌ	إلا جميلُ الذكرِ فهو الباقي
لم يبقَ من إيوانِ كسرى بعد ذا	كَ الحفلِ إلا الذكر في الأوراقِ
هلْ كان للسفّاح والمنصور والـ	ـمهديّ من ذكر على الإطلاقِ
أو للرشيدِ وللأمينِ وصنْوهِ	لولا شَباة يراعةِ الورّاقِ
رجع التراب إلى التراب بما اقتضتْ	في كلّ خَلْقٍ حكمةُ الخلاّقِ

[1] أصله من المثل «مع الخواطي سهم صائب» .

إلاّ الثّناء الخالد العَطِر الشّذا يهدي حديثَ مكارمِ الأخلاقِ

والرغبة من مقامكم الرفيع الجناب ، أن يمكنها من حسن المَناب ، فتحظى بحلول ساحته ، ثمّ بلثم راحته ، ثمّ بالإصغاء ، ولا مزيد للابتغاء ، إلى أن ترتفع الوساطة ، وتغني عن التركيب البساطة ، ويُنسى الأثر بالعَين ، ويحسن الدهر قضاء الدين ، ونسأل الذي أغرى بها القريحة ، ولم يجعل الباعثَ إلاّ المحبة الصريحة ، أن يبقي تلك المثابة زَيْناً للزمان ، وذخراً مكنوفاً باليُمن والأمان ، مظلَّلاً برحمة الرحمن ، بفضله وكرمه ؛ انتهى .

١٣ – وممّا كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى إلى الشيخ الرئيس الخطيب شيخه أبي عبد الله ابن مرزوق رحمه الله تعالى حين كانت أزمّةُ أمر المغرب بيده أيام السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني رحم الله تعالى الجميع ، ما صورته :

« سيدي بل مالكي بل شافعي ، ومُنتَشلي [1] من الهفوة ورافعي ، وعاصمي عند تجويد حروف الصنائع ونافعي ، الذي بجاهه أجزلتِ المنازل قِراي ، وفَضَلت أولاي والمنة لله تعالى أخراي ، وأصبحت وقول الحسن [2] هِجّيراي :

علقتُ بحبلٍ من حبالِ محمّدٍ أمِنتُ به من طارقِ الحدَثانِ
تغطيتُ من دهري بظلّ جناحهِ فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تَسأل الأيامُ ما اسميَ ما درتْ وأين مكاني ما عرفن مكاني

وصلت مكناسة حرسها الله تعالى حداني حدو نداك ، سحائب لولا الخصال المبرة قلت : يداك [3] ، وكان الوطن لاغتباطه بجواري ، أو ما رآه من انتياب زوّاري ،

---

١ ق : ومنقذي .
٢ يعني أبا نواس ، والأبيات في ديوانه : ٩٧ .
٣ ق : قبلت يداك ؛ فاقتضى التصويب ، والمبرة : الزائدة على خصال السحائب هنا .

أوغر إلى بهت يقطع الطريق ، وأطلع يده على التفريق ، وأشرق القوافل مع كثرة الماء بالريق ، فلم يسع إلاّ المقام أياماً قعوداً في البر وقياماً ، واختياراً لضروب الأنس واعتياماً ، ورأيت بلدة معارفها أعلام ، وهواؤها برد وسلام ، ومحاسنها تعمل فيها ألسنة وأقلام ، فحيّا الله تعالى سيدي فلكمْ من فضل أفاد ، وأُنس أحياه وقد باد ، وحفظ منه على الأيام الذخرَ والعتّاد ، كما ملكه زمام الكمال فاقتاد ، وأنا أتطارح عليه في صِلات تَفَقّدِه ، وموالاة يده ، بأن يُسهمني في فرض مخاطبته مهما خاطب معتبراً بهذه الجهات ، ويصحبني من مناصحته بكؤوس مسرة يعمل فيها هاك وهات ، فالعز بعزه معقود ، والسعد بوجوده موجود ، ومَنْهَلُ السرور بسروره مورود ، والله عز وجل يُبقيه بقاء الدهر ، ويجعل حُبّه وظيفة السر وحَمْده وظيفة الجهر ، ويحفظ على الأيام من زمنه زمن الزهر ، ويصل لنا تحت إيالته العام بالعام والشهر بالشهر ، آمين آمين » انتهى .

١٤ ــ ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى صاحب الأشغال بالمغرب أبا عبد الله ابن أبي القاسم بن أبي مَدْين يهنيه بتقلد المنصب من رسالة قوله :

تعودُ الأمانيُّ بعدَ انصرافِ ويعتدلُ الشيءُ بعد انحرافِ
فإن كان دهرُكَ يوماً جنَى فقد جاء ذا خجلٍ واعترافِ

طلع البشير أبقاك الله تعالى بقبول الخلافة المرينية ، والإمامة السنية ، خصها الله تعالى ببلوغ الأمنية ، على تلك الذات التي طابت أرومتها وزكت ، وتأوّهت العلياء لتذكر عهدها وبكت ، وكاد السرور ينقطع لولا أنها تركت منك الوارثَ الذي تركت ، فلولا العذر الذي تأكدت ضرورته ، والمانع الذي ربما تقررت لديكم صورته ، لكنت أول مشافه بالهناء ، ومصارف لهذا الاعتناء ، الوثيق البناء ، بنُقود الحمد لله والثناء ، وهي طويلة .

١٥ ــ ومما خاطب به رحمه الله تعالى قاضي الجماعة وقد نالته مشقة

جرّها غلطُ الخدّام السوء واشتراك الأسماء ، أعتبه عندها السلطان وخلع عليه وأشاد بقدره بما نصه :

تعرفتُ أمراً ساءني ثمّ سرّني   وفي صحّة الأيام لا بد من مرَضْ
تعمـّدك المحبوب بالذاتِ بعدما   جرى ضده، والله يكفيه بالعرضْ

في مثلها سيدي يُحْمَد الاختصار ، وتُقصر الأنصار ، وتُصرف[1] الأبصار ، إذ لم يتعين ظالم ، ولم يتبين يقظ ولا حالم ، وإنما هي هدية أجر ، وحقيقة وصل أعقبت مجاز هجر ، وجرح جُبار ، وأمر ليس به اعتبار ، ووقيعة لم يكن فيها إلاّ غُبار ، وعثرة القدم لا تُنكَر ، والله سبحانه يُحْمَد في كلّ حالة ويُشكُر ، وإذا كان اعتقاد الخلافة لم يَشُبْه شائب ، وحسن الولاية لم يعبه عائب ، والرعي دائب ، والجاني تائب ، فما هو إلاّ الدهر الحسود ، لمن يسود ، خمَّش بيد ثمّ سترها ، ورمى عن قوس ما أصلحها — والحمد لله — ولا أوترها ، إنما باء بشينه، وجنى من مزيد العناية محنة عينه ، ولا اعتراض على قدر ، أعقب بحظ معتذر ، ووِرْدٍ تُغصّص بكدر ، ثمّ أنَّسَ بإكرام[2] صدر ، وحسبنا أن نحمد الدفاع من الله تعالى والذب ، ولا نقول مع الكَظْم إلاّ ما يُرضي الرب ، وإذا سابق أولياء سيدي في مضمار ، وحماية ذمار ، واستباق إلى بر وابتدار ، بجهد اقتدار ، فأنا ولا فخر متناول القَصَبة ، وصاحب الدّين من بين العَصَبة[3] ، لما بلوت من بر أوجبه الحسب ، والفضل الموروث والمكتسَب ، ونصح وضح منه المذهب ، وتنفيقٍ راق منه الرداء المُذْهَب ، هذا مُجْمل وبيانُه إلى وقت الحاجة مؤخَّر ، ونبذة شرِهَ لتعجيلها يراعٌ مسخَّر ، والله سبحانه يعلم ما أنطوي عليه لسيدي من إيجابِ الحق ، والسير من إجلاله على أوضح الطرق ، والسلام ؛ انتهى .

[1] ق : وتطرف .
[2] ق : بأكرم .
[3] العصبة : الأقرباء من جهة الأب .

١٦ — وقال رحمه الله تعالى : خاطبتُ بعض الفضلاء بقولي ممّا يظهر من الجملة غرضه :

تعرفتُ قُرْبَ الدارِ ممّن أحبّهُ — فكنتُ أُجِدُّ السير لولا ضروره
لأتلُوَ من آي المحامدِ سورةً — وأُبصر من شخص المحاسن صُوره

كنت أبقاك الله تعالى لاغتباطي بولائك ، وسروري بلقائك ، أود أن أطوي إليك هذه المرحلة ، وأُجدّد العهد بلُقياكَ المؤمَّلة ، فمنع مانع ، وما ندري في الآني ما الله صانع ، وعلى كل حال فشأني قد وضح منه سبيل مسلوك ، وعلِمه مالك ومملوك ، واعتقادي أكثر ممّا تسعه العبارة ، والألفاظ المستعارة ، وموصِّلها ينوب عني في شكر تلك الذات المستكملة شروط الوزارة ، المتصفة بالعفاف والطهارة ، والسلام .

١٧ — وقال سامحه الله تعالى يخاطب السلطان أبا عبد الله ابن نصر جبره الله تعالى عند وصول ولده من الأندلس :

الدهرُ أضيقُ فُسحَةً من أن يُرى — بالحزنِ والكمدِ المضاعَفِ يُقطعُ
وإذا قطَعْتَ زمانه في كربةٍ — ضيعتَ في الأوهامِ ما لا يرجعُ
فاقنعْ بما أعطاكَ ربكَ واغتنمْ — منه السرورَ وخلِّ ما لا ينفعُ

مولاي الذي له المنَن ، والخَلْق الجميل والخُلُق الحسن ، والمجد الذي وضح منه السّنن ، كتبه عبدك مهنئاً بنعم الله تعالى التي أفاضها عليك ، وجلَبها إليك ، من اجتماع شملك ، بنَجْلك ، وقضاء دَينك ، من قرة عينك ، إلى ما تقدم من إفلاتك ، وسلامة ذاتك ، وتمزق أعدائك ، وانفرادك بأودّائك ، والزمن ساعةٌ في القِصَر ، لا بل كلَمْح البصر ، وكأني بالبساط قد طُوي ، والتراب على الكل قد سوي ، فلا تبقى غبطة ولا حسرة ، ولا كربة ولا يسرة ، وإذا نظرت

ما كنت فيه تجدك لا تنال منه إلاّ أكلة وفراشاً ، وكِنّاً ورياشاً ، مع توقُّع الوقائع وارتقاب الفجائع ، ودعاء المظلوم وصُداع الجائع ، فقد حصل ما كان عليه التعب ، وأمن الرهب ، ووضح الأجر المذهب ، والقدرة باقية ، والأدعية راقية[1] ، وما تدري ما تحكم به الأقدار ، ويتمخض عنه الليل والنهار ، وأنت اليوم على زمانك بالخيار ، فإن اعتبرت الحال واجتنبت المحال ، لم يخفَ عليك أنك اليوم خير منك أمس ، من غير شك ولا لَبْس ، وكان من أملي التوجّه إلى رؤية ولدكم ولكن عارضتني موانع ، ولا ندري في الآتي ما الله تعالى صانع ، فاستنبت هذه في تقبيل قَدَمِه ، والهناء بمقدمه ، والسلام .

١٨ – وقال رحمه الله تعالى : قلت أخاطب محمد بن نوار ، وقد أعرسَ ببنت مزوار الدار السلطانية ، وهو معروف بالوسامة وحسن الصورة :

إن كنتُ في العُرسِ ذا قصورٍ　　فلا حضورٌ ولا دَخالهْ[2]
ينوبُ نظمي منابَ تَيسٍ　　والنثرُ عنْ قُفّةِ النخالهْ

هنّاكم الله سبحانه دعاء وخبراً ، وألبسكم من السرور حِبَراً ، وعوّذكم بالخمس ، حتّى من عين الشمس ، فلعمري لقد حصلت النسبة ، ورضيت هذه المعيشة الحسبة ، ومن يكن المزوار ذواقه[3] ، كيف لا يشق البدر أطواقه ، وينشر القبولُ عليه رِواقه ، وأنتم أيضاً بركان جمال ، وبقية رأس مال ، ويمين في الانطباع وشمال ، بمنزلكم اليوم بدرٌ وهلال ، ولعقد التوفيق بفضل الله تعالى استقلال ، فأنا أُهنيكم بتَسَنّي أمانيكم ، والسلام .

١٩ – وقال رحمه الله تعالى مخاطباً عميد مراكش المتميز بالرأي والسياسة

١ كذا في ق ، ولعلها أن تقرأ «واقية» .
٢ الدخالة : الهدية .
٣ لست مطمئناً إلى أن اللفظة صحيحة .

والهمة وإفاضة العدل وكف اليد والتجافي عن مال الجباية عامر بن محمد بن علي الهنتاتي[1] :

تقولُ ليَ الأظعانُ والشوقُ في الحشا ... لهُ الحكمُ يمضي بين ناهٍ وآمرِ
إذا جبلَ التوحيدِ أصبحتَ فارعاً ... فخيِّمْ قَرارَ العيَنِ في دار عامرِ
وزُرْ تربةَ المَعْلومِ إنَّ مزارها ... هو الحجُّ يُفضي نحوهُ كلُّ ضامرِ
ستَلْقى بمَثْوى عامرِ بن محمّدٍ ... ثغورَ الأماني من ثنايا البشائرِ
ولله ما تبلوهُ منْ سَعْدِ وجهِهِ ... ولله ما تَلْقاهُ من يُمْنِ طائرِ
وتُستَعملُ الأمثالُ في الدهرِ منكما ... بخيرِ مَزورٍ أو بأغْبَطِ زائرِ

لم يكن همي أبقاك الله تعالى مع فراغ البال ، وإسعاف الآمال ، ومساعدة الأيام والليال ، إذ الشمل جميع ، والزمان كله ربيع ، والدهرُ مطيع سميع ، إلاّ زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان ، ويواصَل أمنُه بين النوم والأجفان ، وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية ، وكانت إليـه العودة ومنه البداية ، فلمّا حُمَّ الواقع ، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع ، وأصبحت ديار الأندلس وهي البلاقع ، وحسنت من استدعائك إياي المواقع ، وقوي العزم وإن لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على نفسي السفر بسببك فألفيته خفيفاً ، والتمست الإذن حتّى لا نرى في قبلة السداد تحريفاً ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند للعزم مقدوح ، والله سبحانه يحقق السول ، ويسهل بمثوى الأماثل المثول ، ويهيىء من قبل هنتاتة القبول ، بفضله .

٢٠ — وللسان الدين ابن الخطيب مقامة عظيمة بديعة وصف بها بلاد الأندلس

١ كان أبو ثابت عامر بن محمد الهنتاتي كبير جبل درن والبلاد المراكشية ، وقد وفد على أبي زيان ابن أبي عبد الرحمن فأكرمه سنة ٧٦٣ ، فلما عاد إلى بلده كان كأنه حاكم مستقل فيها ، وكان ذلك فاتحة انتقاضات كثيرة إلى أن هلك عامر على يد السلطان عبد العزيز ، كما يذكره المقري في ما يلي (ص : ٢١٩) وهذه القصيدة والرسالة في الاستقصا ٤ : ١٧ ومشاهدات لسان الدين : ١٢٠ .

والعُلوة ، وأتى فيها من دلائل براعته بالعجب العُجاب ، وقد تركتها مع كتبي بالمغرب ، ولم يحضرني منها الآن إلاّ قوله في وصف مدينة سبتة ما صورته :

« قلت : فمدينة سبتة ، قال[1] : عروس المجلى ، وثنية الصباح الأجلى ، تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقيلة ، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة ، وإذا قامت بيض أسوارها ، وكان جبل بنيونش[2] شمّامة أزهارها ، والمنارة منارة أنوارها[3] ، كيف لا ترغب النفوس في جوارها ، وتهيم[4] الخواطر بين أنجادها وأغوارها ؟ إلى المينا الفُلكية ، والمراقي[5] الفلَكية ، والركية الزكية ، غير المنزورة ولا البكية ، ذات الوَقود الجزل ، المعد للأزل ، والقصور المقصورة على الجد والهزل ، والوجوه الزُّهر السَّحَن ، المضنون بها عن المحَن ، دار الناشبة ، والحامية المضرمة للحرب الناشبة ، والأسطول المرهوب ، المحذور الألهوب ، والسلاح المكتوب المحسوب ، والأثر المعروف المنسوب ، كرسي الأمراء والأشراف ، والوسيطة ، لخامس أقاليم[6] البسيطة ، فلا حظّ لها في الانحراف ، بَصْرة علوم اللسان ، وصنعاء الحُلَل الحسان ، وثمرة امتثال قوله تعالى ﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ (النحل : ٩٠) الأمينة على الاختزان ، القويمة المكيال والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافل العصير والحرير والكتّان ، وكفاها السكنى ببنيونش في فصول الأزمان ، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان ، والمدفن المرحوم ، غير المزحوم ، وخزانة كتب العلوم ، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم ، إلاّ أنها فاغرة أفواه الجنوب ، للغيث المصبوب[7] ، عرضة للرياح ذات

١ انظر هذا النص في مشاهدات لسان الدين : ١٠١ .
٢ بنيونش (Baliunech) : قرية إلى الغرب من سبتة .
٣ المشاهدات : شوارها .
٤ المشاهدات : وتخيم .
٥ المشاهدات : والمراسي .
٦ ق : الأقاليم .
٧ ق : المصوب .

الهبوب ، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب ، وناهيك بحسنة تُعَدّ من الذنوب ، فأحوال أهلها رقيقة ، وتكلّفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة ، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة ، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة ، فهم يمصون البلالة مصّ المحاجم ، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم ، وراعي الجديب بالمطر الساجم ، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة ، الشك عندي في مكة والمدينة » انتهى .

وقد سلك في هذه المقامة وصف بلدان المغرب بالسجع والتقفية ، ووفّاها من المدح وضده أكمل توفية ، وعكس هذه الطريقة في « نفاضة الجراب » فوصف فيها الأماكن بكلام مرسل جزل غير مسجع ، مع كونه أقطع من السيف إذا بان عنه القُراب .

٢١ ــ فمن ذلك قوله حين أجرى ذكر مدينــــة « مكناسة الزيتون » : وأطلّتْ مدينة مكناسة في مظهر النجد ، رافلة في حلل الدوح ، مبتسمة عن شنب المياه العذبة ، سافرة عن أجمل المراد ، قد أحكمَ وضعَها الذي أخرج المرعى ، قيد النص وفذلكة الحسن ، فنزلنا بها منزلاً لا تستطيع العين أن تخلفه حسناً ووضعاً من بلد دارت به المداشر[1] المُغِلّة ، والتفّتْ بسوره الزياتين المفيدة ، وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه الطرف ، ورحب ساحة والتفاف شجرة ونباهة بنية وإشراف ربوة ، ومثلت بإزائها الزاوية القُدْمى المعدة للوراد[2] ، ذات البركة النامية ، والمئذنة السامية ، والمرافق المتيسرة ، يصاقبها الخان البديع المنصب الحصين الغلّق الخاص بالسابلة والجوّابة في الأرض يبتغون من فضل الله

[1] المداشر : القرى أو المزارع .
[2] ق : للوارد .

تعالى ، تقابلها غرباً الزاوية الحديثة المربية برونق الشبيبة ومزية الجدة والانفساح وتفنن الاحتفال ، إلى أن قال : وبداخلها مدارس ثلاث لبثّ العلم ، كلفت بها الملوك الجلة الهمم ، وأخذها التنجيد ، فجاءت فائقة الحسن ، ما شئت من أبواب نحاسية ، وبرك فياضة تقذف فيها صافي الماء أعناقٌ أسدية ، وفيها خزائن الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين ، وتفضل هذه المدينة كثيراً من لِداتها بصحـــة الهواء وتبحر أصناف الفواكه وتعمير الخزائن ومداومة البر لجوار ترابها سليماً من الفساد معافًى من العفن ، إذ تقام ساحات منازلها غالباً على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها المواريث ويصحبها التعمير وتتجافى عنها الأرض ، ومحاسن هذه البلدة المباركة جمّة ، قال ابن عبدون من أهلها ولله دره :

إن تفتخر فاسٌ بمـــا في طيِّها ... وبأنّهـــا في زيِّها حَسْناءُ
يكفيك من مكناسةٍ أرجاؤها ... والأطيبانِ هواؤها والماءُ

ويُسامتها شرقاً جبل زرهون ، المنبجس العيون ، الظاهر البركة ، المتزاحم العمران ، الكثير الزياتين والأشجار ، قد جلله سكراً ورزقاً حسناً ، فهو عنصر الخير ، ومادة المجبى ، وفي المدينة دور نبيهـة ، وبِنًى أصيلة ، والله سبحانه ولي من اشتملت عليه بقدرته ، وفيها أقول :

بالحسنِ من مكناسةِ الزيتونِ ... قد صحَّ عُذْرُ الناظرِ المفتونِ
فضلُ الهواءِ وصحةُ الماءِ الذي ... يجري بها وسلامةُ المخزونِ
سَحّتْ عليها كلُّ عينٍ ثَرَّةٍ ... للمزنِ هاميةِ الغمامِ هتونِ
فاحمرَّ خدُّ الوردِ بينَ أباطحٍ ... وافترَّ ثغرُ الزهرِ بين غصونِ
ولقد كفاها شاهداً مهما ادعتْ ... قصَبَ السباق القربُ من زرهونِ
جبلٌ تضاحكتِ البروقُ بجوِّهِ ... فبكتْ عِذابُ عيونهِ بعيونِ

وكأنما هو بربريّ فاقـدٌ[1] في لوحه والتين والزيتون
حُيِّيتَ من بلد خصيب أرضه مثوى أمان أو مُناخ أمون
وضفتْ عليك من الإله عناية تكسوك ثوبَيْ أمنة وسكون

٢٢ — وقد وصفها في مقامة البلدان على منوال السجع فقال[1] : مكناسة مدينة أصيلة ، وشُعَب للمحاسن وفصيلة ، فضَّلها الله تعالى ورعاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، فجانبُها مَريع ، وخيرها سريع ، ووضعها له في فقه الفضائل تفريع ، اعتدل فيها الزمان ، وانسدل الأمان ، وفاقت الفواكه فواكهُها ولا سيما الرمان ، وحفظ أقواتها الاختزان ، ولطفت فيها الأواني والكيزان ، ودنا من الحضرة جوارها ، فكثُر قصّادها من الوزراء وزُوّارها ، وبها المدارس والفقهاء ، ولقصبتها الأبهة والمقاصير والأبهاء .

[تعليق للمقري]

ويعني بالحضرة مدينة فاس المحروسة لأنها إذ ذاك كرسي الخلافة ، ومكناسة مقر الوزارة ، وأهل المغرب يعبرون عن المدينة التي فيها كرسي الخلافة بالحضرة .

قلت : دخلت مكناسة هذه مراراً عديدة ، وقد أبلى الدهر محاسنها التي كانت في زمان لسان الدين[2] ابن الخطيب جديدة ، واستولى عليها الخراب ، وتكدر منها بالفتن الشراب ، وعاث في ظاهرها الأعراب ، وفي باطنها سماسرة الفتنة العائقة عن كثير من الآراب ، حتى صار أهلها حزبين ، لبس كثير من أهلها ثياب البعد عنها والبين ، والله تعالى يجبرُ حالها ، ويعقب بالخصب إمحالها ، ويرحم الله تعالى ابن جابر إذ قال :

لا تنكرنَّ الحسنَ من مكناسة فالحسنُ لم يبرحْ بهـا معروفا
ولئن محتْ أيدي الزمان رسومها فلربمـا أبقتْ هناكَ حروفا

---

١ كذا في ق ، ولعلها « ناقد » .
٢ انظر مشاهدات لسان الدين : ١٠٩ .

على أن ضواحيها كانت في زمان لسان الدين مأوى للمحاربين واللصوص ، ومثوى للأعراب الذين أعضل داؤهم بأقطار المغرب على العموم والخصوص ، ولذلك يقول لسان الدين رحمه الله تعالى :

مكناسةٌ حُشِرَتْ بها زُمَرُ العدا فمدى بريدٍ فيهِ ألفُ مَرِيدِ
من واصلٍ للجوعِ لا لرياضةٍ أو لابسٍ للصوفِ غيرَ مُرِيدِ
فإذا سَلَكْتَ طريقَها متصوفاً فانوِ السلوكَ بها على التجريدِ

وما أشار إليه رحمه الله تعالى فيما سبق من ذكر الزاوية القُدمى والجديدة أشار به إلى زاويتين بناهما السلطان أبو الحسن المريني الكثير الآثار بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس ، وكان بنى الزاوية القدمى في زمان أبيه السلطان أبي سعيد والجديدة حين تولى الخلافة ، وله في هذه المدينة غير الزاويتين المذكورتين عدّة آثار كثيرة جميلة من القناطر والسقايات وغيرها ، ومن أجلّ مآثره بها المدرسة الجديدة ، وكان قدّم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ، ولما أخبر السلطان بتمام بنائها جاء إليها من فاس ليراها ، فقعد على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها ، وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها ، فغرّقها في الصهريج قبل أن يطالع ما فيها ، وأنشد :

لا بأسَ بالغالي إذا قيلَ حَسَنْ ليسَ لما قَرَّتْ بهِ العينُ ثَمَنْ

وهذا السلطان أبو الحسن أشهر ملوك بني مرين ، وأبعدهم صيتاً ، وكان قد ملك رحمه الله تعالى المغربَ بأسره وبعض الأندلس ، وامتد ملكه إلى طرابلس الغرب ، ثمّ حصلت له الهزيمة الشنعاء قرب القيروان حين قاتل أعراب إفريقية ، فغدره بنو عبد الواد الذين أخذ من يدهم ملك تلمسان ، وانتهزوا الفرصة فيه ، وهربوا إلى الأعراب عند المصافّة ، فاختل مصافه ، وهُزم أقبح هزيمة ، ورجع إلى تونس مغلوباً ، وركب البحر في أساطيله ، وكانت نحو الستمائة من السفن ، فقضى الله تعالى أن غرقت جميعاً ، ونجا على لوح ، وهلك من كان معه من أعلام المغرب ،

وهم نحو أربعمائة عالم[1] ، منهم السطي شارح الحوفي ، وابن الصباغ الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على حديث «يا أبا عمير ما فعل النُّغير[2] » أربعمائة فائدة .

قال الأستاذ أبو عبد الله ابن غازي رحمه الله تعالى : حدثني بعضُ أعيان الأصحاب أنه بلغه أن الفقيه ابن الصباغ المذكور سُمِع بمنصورة تلمسان المحروسة ينشد كالمعاتب لنفسه[3] :

يا قلبُ كيفَ وقعتَ في أشراكهم ولقد عهدتُكَ تحذرُ الأشراكا
أرضًى بذلٍّ في هوًى وصبابةٍ هذا لعمرُ اللهِ قد[4] أشقاكا

ومات رحمه الله تعالى غريقاً في أسطول السلطان أبي الحسن المريني على ساحل تَدْلس[5] هو والفقيه السطي والأستاذ الزواوي وغير واحد في نكبة السلطان أبي الحسن المعروفة .

ومن نظم ابن الصباغ المذكور في العلاقات المعتبرة في المجاز وفي المرجحات له قوله رحمه الله تعالى :

يا سائلاً حَصرَ العلاقاتِ التي وضْعُ المجازِ بها يَسوغُ ويجملُ
خُذها مرتبةً وكلُّ مقابلٍ حكم المقابلِ فيه حقاً يحملُ
عن ذكر ملزومٍ يعوِّض لازمٌ وكـذا بعلّته يعاض معلَّلُ
وعن المعمَّمِ يستعاضُ مخصَّصٌ وكذاكَ عن جزءٍ ينوبُ المكملُ
وعن المحلِّ ينوبُ ما قد حلَّهُ والحذفُ للتخفيفِ ممّا يسهلُ
وعن المُضافِ إليهِ نابَ مُضافهُ والضدُّ عنْ أضداده مُستَعمَلُ

[1] عرف ابن خلدون في كتاب التعريف ببعض من كان في صحبة أبي الحسن من العلماء ، وانظر كلامه عن ابن الصباغ ص : ٤٥ .
[2] النغير : تصغير نغر وهو طائر صغير أحمر المنقار .
[3] ورد البيتان دون نسبة في مشارق أنوار القلوب : ٦٠ .
[4] مشارق : أبداً تعالى الله ما .
[5] تدلس : مدينة على ساحل الجزائر .

والشبهُ في صفةٍ تبينُ وصورةٍ ومن المقيَّدِ مطلَقٌ قد يُبدلُ
والشيءُ يسمى باسم ما قد كانهُ وكذاكَ يُسمى بالبديلِ المبدَلُ
وضعِ المجاور في مكانةِ جارهِ وبهذه حكمُ التعاكسِ يكملُ
واجعل مكان الشيء آلته ،وجيء بمنكَّرٍ قَصْدَ العموم فيحصلُ
ومعرّفٍ عن مطلقٍ وبه انتهتْ وبحلِّها حكمُ التداخلِ يشملُ
وبكثرةٍ وبلاغةٍ ولزومـــهِ لحقيقةٍ رجحـانُهُ يتحصّلُ

انتهى كلام شيخ شيوخ شيوخنا الإمام أبي عبد الله محمد بن غازي رحمه الله تعالى .

وقد حكى ابن غازي المذكور عن شيخه القوري عن شيخه ابن جابر أن ابن الصباغ المذكور اعترض على القاضي ابن عبد السلام التونسي ، قال : لما لقي ابن الصباغ بتونس اعترض عليه ابن الصباغ أربع عشرة مسألة لم ينفصل عن واحدة منها ، بل أقرّ بالخطإ فيها ، إذ ليس ينبغي اتصاف بالكمال ، إلاّ لربي الكبير المتعال ؛ انتهى .

وذكر الشيخ أبو عبد الله الأبّي رحمه الله تعالى في « شرح مسلم » عند تكلمه على أحاديث العين ما معناه أن رجلاً كان بتلك الديار معروفاً بإصابة العين ، فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين ، وكانت كثيرة نحو الستمائة ، فنظر إليها الرجل العائن ، فكان غرقها بقدرة الله الذي يفعل ما يشاء ، ونجا السلطان برأسه ، وجرت عليه محن ، واستولى ولده السلطان أبو عنان فارس على ملكه ، وكان خلّفه بتلمسان ، ولم يزل في اضطراب حتى ذهب إلى سجلماسة ، ومنها خلص إلى جبل هنتاتة قرب مراكش ، فذهب إلى حربه ابنه السلطان أبو عنان فارس بجيوشه ، وأناخ على الجبل بكَلكله ، ولم تخفر أهل هنتاتة جواره لديهم ، ولا كبيراهم عامر بن محمد وأخوه ، وصبروا على الحصار وخراب الديار ، وحرق الأماكن ، حتى مات هناك رحمه الله تعالى ونُقل بعدُ إلى شالة سلا مدفن أسلافه ، ومَن أراد الوقوف على أخباره فعليه بكتاب الخطيب

ابن مرزوق الذي ألفه فيه وسماه «المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبي الحسن» .

ولما ذهب لسان الدين ابن الخطيب إلى عامر بن محمد بجبله المشهور زار محل وفاة السلطان المذكور ، وقد ألمّ بذكر ذلك في «نفاضة الجراب» إذ قال : وشاهدت بجبل هنتاتة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبي الحسن رحمه الله تعالى ، حيث أصابه طارق الأجل ، الذي فصل الخطة ، وأصمت الدعوة ، ورفع المنازعة ، وعاينته مرفّعاً عن الابتذال بالسكنى مفترشاً بالحصباء ، مقصوداً بالابتهال والدعاء ، فلم أبرح يوم زيارة محل وفاته أن قلت[1] :

يا حسنها من أربُعٍ وديارِ ... أضحتْ لباغي الأمنِ دارَ قَرارِ
وجبالِ عزٍّ لا تذلُّ أنوفها ... إلاّ لعزِّ الواحدِ القهّارِ
ومقرِّ توحيدٍ وأسِّ خلافةٍ ... آثارها تُنْبي عن الأخبارِ
ما كنتُ أحسبُ أنَّ أنهارَ الندى ... تجري بها في جملةِ الأنهارِ
ما كنتُ أحسبُ أنَّ أنوارَ الحجى ... تلتاحُ في قُنَنٍ وفي أحجارِ
مُحَّتْ جوانبها البرود ، وإن تكنْ ... شبّتْ بها الأعداءُ جَذْوَةَ نارِ
هَدَّتْ بناها في سبيلِ وفائها ... فكأنّها صرعى بغيرِ عُقارِ
لمّا توعّدها على المجدِ العِدا ... رضيتْ بعَيْثِ النارِ لا بالعارِ
عمرتْ بجِلّةِ عامرٍ وأعزَّها ... عبدُ العزيزِ بمرهَفٍ بتّارِ
فرسا رهانٍ أحرزا قصَبَ الندى ... والبأسَ في طلَقٍ وفي مضمارِ
وَرِثا عن النَّدْبِ الكبيرِ أبيهما ... مَحْضَ الوفاء ورفعةَ المقدارِ
وكذا الفروعُ تطولُ وهي شبيهةٌ ... بالأصلِ في ورقٍ وفي أثمارِ
أزرتْ وجوهُ الصِّيدِ من هنتاتةٍ ... في جوّها بمطالعِ الأقمارِ
للهِ أيُّ قبيلةٍ تركتْ لها الـ ... نظراءُ دعوى الفخرِ يومَ فخارِ

[1] القصيدة في المشاهدات : ١٢٨ وأزهار الرياض ١ : ٢٩٤ .

نصرتْ أميرَ المسلمينَ وملكُهُ قَدْ أسلمتْهُ عزائمُ الأنصارِ
وارتْ[1] عليّاً عندما ذهب الردى والروعُ بالأسمـــاعِ والأبصارِ
وتخاذلَ الجيشُ اللهامُ واصبحَ الـ أبطالُ بـــينَ تقاعدٍ وفرارِ
كفرتْ صنائعهُ فيمّمَ دارها مستظهراً منهـــا بعزِّ جوارِ
وأقامَ بينَ ظهورهـــا لا يتّقي وَقْعَ الردى وقد ارتمى بشرارِ
فكأنها الأنصارُ لمّا أنسَتْ[2] فيما تقدَّمَ غربةَ المختارِ
لمّا غـــدا لحظاً وهم أجفانُهُ نابتْ شفارهُمُ عن الأشفارِ
حتّى دعاهُ اللهُ بينَ بيوتهم فأجابَ ممتثلاً لأمرِ الباري
لو كان يمنعُ من قضاء الله ما خَلَصَتْ إليهِ نوافذُ الأقدارِ
قد كان يأملُ أن يكافىء بعض ما أولوهُ لولا قـــاطعُ الأعمارِ
ما كان يقنعهُ لو امتدَّ المدى إلاّ القيامُ بحقّها من دارِ
فيعيدُ ذاكَ الماءَ ذائبَ فضةٍ ويعيدُ ذاكَ التربَ ذوبَ نضارِ
حتّى تفوزَ على النّوى أوطانَها من ملكهِ بجلائلِ الأوطـــارِ
حتّى يلوحَ على وجوه وجوههم أثَرُ العنـــايةِ[3] ساطعَ الأنوارِ
ويسوّغَ الأملَ القصيَّ كرامُها من غير ما ثنيا ولا استعصارِ
ما كان يرضى الشمسَ أو بدر الدجى عن دِرْهَمٍ فيهم ولا دينارِ
أو أنْ يتوّجَ أو يقلّدَ هامهـــا ونحورهـــا بأهِلّةٍ ودراري
حقٌّ على المولى ابنه إيثارُ مـــا بذلوهُ من نصرٍ ومن إيثـــارِ
فلمثلها ذُخِرَ الجزاءُ ، ومثلُهُ مَنْ لا يُضيعُ صنائعَ الأحرارِ
وهو الذي يقضي الديونَ وبرُّهُ يرضيهِ في علنٍ وفي إسرارِ
حتّى تحجَّ محلّةٌ رفعوا بهـــا علَمَ الوفاء لأعيُنِ النُّظّارِ

١ المشاهدات : آوت ؛ ق : وأوت . . . بعدما .
٢ ق : أن سبت .
٣ المشاهدات : الرعاية .

فيصير منها البيتُ بيتاً ثانياً للطـــائفينَ إليهِ أيَّ بدارِ
تغني قلوبُ القومِ عن هديٍ بهِ ودموعُهم تكفي لرميِ جمارِ
حُيِّيتِ من دارٍ تكفَّل سعيها الـ محمود بالزُّلفى وعُقْبى الدارِ
وضفَتْ عليكِ من الإلهِ عنايةٌ ما كرَّ ليلٌ فيكِ إثرَ نهـــارِ

ويعني بالمولى ابنه السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن .

ومن العجائب أن الرئيس عامر بن محمد الذي جرى في هذه الأبيات ذكره كان يؤمل بإيوائه للسلطان أبي الحسن ونُصرته له وعدم إخفار ذمته فيه أن ينال من أولاده الملوك بذلك عزّاً مستطيلاً ورياسة زائدة على ما كان فيه ، فقضى الله تعالى أن كان حتفه على يد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، إذ نازله بجنوده ، وحاصره بمعتقله ، حتّى استولى عليه وقتله ، حسبما استوفى ذلك الشيخ الرئيس قاضي القضاة أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي نزيل مصر في تاريخه الكبير الذي سماه بـ «كتاب العبر وديوان المبتــدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » فمن شاء فليراجعه ثـمّة .

وكان الرئيس أبو ثابت عامر بن محمد الهنتاتي المذكور خرج على السلطان عبد العزيز بالسلطان المعتمد على الله أبي الفضل محمد ابن أخي السلطان عبد العزيز المذكور ، فكان من قتله ما ذكر ، والله غالب على أمره .

ولنرجع إلى ما كنا فيه من نثر لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى عنه ، فنقول :

٢٣ — ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى في كتابه « أعمال الأعلام » ما صورته :

« وفي غرضي إذا منّ الله تعالى بانفراج الضيقة الوقتية ، ومُعاودة الأزمان الهنية ، والنصبة النقية ، أن نصنف في التاريخ كتاباً مبنياً على التطويل ، مستوعباً

للكثير والقليل ، نسميه « بضاعـة المهولين في أساطير الأولين » يكون هذا الكتاب بالنسبة إليه الحصاة من الرمال ، والقطرة من الغيث المنثال ، بإعانة ذي القدرة والجلال » ؛ انتهى .

٢٤ — ومن كلامه رحمه الله تعالى : فما استبعد المرام ، مَنْ قصد الكرام ، وما فقد الإيناس ، من أمّل الناس ؛ انتهى .

وقد سلك لسان الدين رحمه الله تعالى في كثير من كتبه ك « الكتيبة الكامنة » و « التاج المحلّى » و « الإكليل الزاهر » وغيرها تحليةَ الأعلام من حمَلة السيوف والأقلام ، بالكلام المسجّع الآخذ بحظه من الإتقان على طريقة صاحب «القلائد» و « المطمح » أبي نصر الفتح بن عبيد الله المدعو بابن خاقان بليغ الأندلس غير مدافَع وعلى نهج مباريه ابن بسّام صاحب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » وهو كتاب ينبغي أن يراجَع ، وقد رأيت أن آتي بشيء من كلام لسان الدين فيما ذكر ، ونُلم بعد تحليته بالتعريف بحال مَنْ حلاه من الأعلام ، بحسب ما منّ به ويسره لي الملك العلام ، سبحانه وتعالى ، فنقول :

٢٥ — قال لسان الدين رحمه الله تعالى في بعض كتبه في وصف بعض من عرّف به ما نصه : أي نفس صافية من الكدر ، وصَدْر طيب الوِرد والصدَر ، ودوحة عهد تَندى أوراقها ، ومِشكاة فضل يستطلع إشراقها ، تمسك برضاع الكأس ، يرى ذلك من حسن عهده ، وقسم لحظاته بين آس الرياض وورده ، فلما حوّم حمامه للوقوع ، وكاد يقوّض رحله عن الربوع ، وشعر بحبائل المنية تعتلقه ، وسرعان خيل الأجل ترهقه ، أقلع عن فنّه ، وأمر بسفك دنّه ، ولجأ إلى الله تعالى بأوبته ، وضرع إلى الله تعالى في قبول توبته وغفران حوبته ، فكان ذلك عنوان الرضى ، وعلامة عفو الله تعالى عمّا مضى ، دخلت عليه في مرضه ، وأشرتُ باستعمال الدواء المسمّى بلحية التيس عند الأطباء ، فاستعمله ، فوجد بعض خفة .

٢٦ - وقال في آخر : كثيف الحاشية ، معدود في جنس السائمة والماشية ، تُليت على العمال به سورة الغاشية ، تولّى الأشغال السلطانية فذُعرت الجُباة لولايته ، وقامت قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل القنوط ، وقالوا : جاءت الدابة تكلمنا وهي إحدى الشروط ، من رجل صائم الحشوة ، بعيد من المصانعة والرشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند المخاطبة : لا مِساس ، وعلى مسافة تجهـِه ، وتجهّم وجهـِه ، فكان خالطاً إساءته بإحسانه ، مشتغلاً بشانه ، غاضّاً من عنان لسانه ، عهدي به في الأعمال يقدِّر فيها ويدبِّر ، ويرجح ويعبر ، ويحبط ويتبّر ، وهو مع ذلك يكبّر ، ويحسّن من الأزمنة ويقبّح ، وهو يسبّح ، ولما شرع في البحث والتنقير ، والمحاسبة على القِطمير والنّقير ، أتاه قاطع الأجل ، فحَنَّ ركابه فأقضى العجل ، وصدرت عنه أبيات خَضَم فيها وقضم ، وحصل تحت القدر المشترك مع من نظم .

٢٧ - وقال في آخر : كودن حلبة الآداب ، وسِنَّور عبد الله بيع بقيراط لما شاب [١] ، هام بوادي الشعر مع مَن هام ، واستمطر منها الجهام ، فجاء بأبيات أوهى من بيت العنكبوت نسجاً ، ومقاصد لا تبين قصداً ولا نهجاً ، وله بيت معمور بقضاةٍ أكابر ، فرسان أقلام ومحابر ، وعمال قادوا الدهر بأزمّة أزمّتهم ، وفرعوا الزهر بهمتهم ، وتكاثرت عليه رحمه الله الإحَن ، وتعاورته المِحَن ، وتصرّف آخر عمره في بعض الأعمال المخزنية فتعلّل بنزر القوت ، إلى الأجل الموقوت .

٢٨ - وقال في آخر : معدود في وقته من أدبائه ، ومحسوب في أعيان بلده وحُسبائه ، كان رحمه الله تعالى من أهل العدالة والخير ، سائراً على منهج الاستقامة

١ يشير إلى قول بعضهم :

كسنور عبد الله بيع بدرهم   صغيراً فلما شب بيع بقيراط

انظر الحيوان ٥ : ٢١٥ وتعليق الجاحظ على البيت ، والحاشية رقم : ٤ .

أحسن السّير ، وله أدب لا يقصر عن السداد ، وإن لم يكن بطلاً فمن يكثر السواد ، قد أثبتُ له ما عثرت عليه ، ممّا ينسب الناس إليه .

٢٩ ـ وقال في آخر : معترّ غير قانع ، ومنجع كل شهم وخانع ، نشأ ببلده مالقة أبرع من أورد اليراعة في نِقْس ، وهز غصنها في روضة طِرْس ، إلاّ ما كان من سخافة عقله ، وقعوده تحت المثل « اخبُرْ تَقْلِه » ، لا يرتبط إلى رتبة ، ولا ينتمي إلى عُصبة ، ولا يتلبّس بسمت ، ولا يستقيم من أمْت [1] ، أخبرني مَن عني بخبرِه ، وذكر عِبَرِه ، من صباه إلى كبرِه ، أنه رشح في بعض الدول ، وعرض لاكتساب الحيل والحَوَل ، وخُلعت عليه كسوة فاخرة ، وشارة بزهر الرياض ساخرة ، فانقاد طَوْع حرمانه ، ونبذ صفْقَة زمانه ، وحمله فرطُ النَّهَم ، على أن ابتاع في حجره طعاماً كثير الدَّسم ، وأقبل وأذياله منه تقطر ، كما اختلفت باللبن الأشطر ، فطُرد ونُبذ ، وطُرح بعدما جُبذ ، لقيته بمالقة وقد قلب له زمانه عينيه ، وسقط في يديه ، فانتابني بأمداحه ، وتعاورني بأُجاجه وقَراحه .

٣٠ ـ وقال في آخر : أديبٌ نار فكره تتوقد ، وأريب لا يُعترض كلامه ولا يُنْتَقَد ، أما الهزل فهو طريقته المثلى ، ركض في ميدانها وجلّى ، وطلع في أفقها وتجلّى ، فأصبح علَم أعلامها ، وعابر أحلامها ، إن أخذ بها في وصف الكاس ، وذكر الورد والآس ، وألمّ بالربيع وفصله ، والحبيب ووصله ، والروض وطيبه ، والغَمام وتقطيبه ، شَقّ الجيوبَ طَرَباً ، وعلّ النفوس شرباً وضَرَباً ، وإن ابتغى لاعتلال العشية ، في فرش الربيع الموشيّة ، ثمّ تعدّاها إلى وصف الصَّبوح ، وأجهز على الزق المجروح ، وأشار إلى نغمات الوُرق ، يرفلن في الحلل الزُّرق ، وقد اشتعلت في عنبر الليل نارُ البرق ، وطلعت بنودُ الصباح في

---

١ الأمت : الاعوجاج .

شرفات الشرق ، سَلَبَ الحليم وقاره ، وذكّر الخليع كأسه وعقاره ، وحرك الأشواق بعد سكونها ، وأخرجها من وكونهـا ، بلسان يتزاحم على موارد الخيال ، ويتدفّق من حافاته الأدب السيّال ، وبيان يقيم أود المعاني ، ويشيد مصانع اللفظ محكمة المباني ، ويكسو حلل الإحسان جسوم المثالث والمثاني ، إلى نادرة لمثلها يشار ، ومحاضرة يُجنى بها الشهد ويُشار ، وقد أثبتُّ من شعره المعرب وإن كان لا يتعاطاه إلاّ قليلاً ، ولا يجاور إلاّ تعليلاً ، أبياتاً لا تخلو عن مسحة جمال على صفحاتها ، وهَبَّة طيب ينمُّ في نفحاتها .

٣١ – وقال أيضاً في آخر : ظريفُ السجية ، كثير الأريحية ، ارتحل من لورقة فتحها الله تعالى واتخذ المرية داراً ، وألِفَ بها استقراراً ، إلى أن دعاه بها داعيه ، وقام فيها ناعيه .

٣٢ – وقال في وصف آخر : شيخ أخلاقُه لينة ، ونفسه – كما قيل في نفس المؤمن – هيّنة ، ينظم الشعر عذباً مَساقُه ، محكماً اتساقُه ، على فاقة ، وحال ما لها من إفاقة ، أنشد المقام الكريم بظاهر بلده قصيدةً استغرب منه منزعها ، واستعذب من مثله مشرعها .

٣٣ – وقال في آخر : من أئمة أهل الزمام ، خليق برَعْي المتات والذّمام ، ذو خط كما تفتّح زهرُ الكِمام ، وأخلاق أعذبَ من ماء الغمام ، كان ببلده رحمه الله تعالى بدار إشرافه محاسباً ، ودرة في لجة الإغفال راسباً ، صحيح العمل ، يُلْبس الطروس من براعته حُسْنَ الحلل ، وله شعر لا بأس به ، ولا خفاء بفضل مذهبه .

٣٤ – وقال في آخر : خير من استبق إلى داعي الفلاح استباقاً ، وانتمى إلى القوم الذين هم في الآخرة أطولُ أعناقاً ، وإن كانوا في الدنيا أضيق أرزاقاً ، مردد أذكار ، ومُسبّح أسحار ، وعامر مئذنة ومنار ، كان ببلده مؤذناً بجامعها ،

ومؤقتاً بأم صوامعها ، ومعتبراً فيمن كان بها من السَّدنة ، ومن مثله قوله : فكأنما قَرَّبَ بدنة ، وله لسان مخيف ، وشعر سخيف ، توشح بحليته ، وجعله وسيلة كُديته .

٣٥ — وقال في آخر : عظيم الهيئة حسن اللقاء ، أغرب في حسن المداراة من العَنْقاء ، استمر عمره للحكم ، وصبر على حجج الصم والبكم ، وأفرط في هَشّته وهزته ، وتنزل عن نخوة القضاء وعزته ، وله سلف في القضاء عالي المراقب ، مُزاحم للنجم الثاقب ، وقد أثبتُ من شعره ما تيسر إثباته ، ونجح بروض هذا المجموع نباته .

٣٦ — وقال في آخر : قاضٍ توارث كل جلالة ، عن كلالة ، وجمع في العلم الحسب ، بين الموروث والمكتسب ، أشرق بجيدٍ معمّ في العشيرة مخولٍ ، وألقت عليه مقاليدها من منقول ومتأوّل ، إلى نزاهة لا تغرها البيضاء ولا الصفراء ، وحلم لا تستهويه السعاية ولا يستفزه الإغراء ، ووقار يستخف الجبال الراسية ، ونظر يكشف الظُّلَم الغاشية ، تولى قضاء الحضرة فأنفذ الأحكام وأمضاها ، وشام سيوف الجزالة وانتضاها ، ولبس أثواب النزاهة والانقباض فما نضاها ، وسلك الطريق التي اختارها السلفُ وارتضاها ، فاجتمعت الأهوال المفْترقة عليه ، وصرف الثناء أعنة الألسن إليه ، ثمّ كرّ إلى بلده ، واستقر خطيباً بقرارة أهله وولده .

٣٧ — وقال في آخر : مُنتَمٍ إلى معرفة ، متصف من الذكاء بأحسن صفة ، أقرأ ببلده علم اللسان ، وما حاد عن الإحسان ، وعاني الشعر فنظم قوافيه ، وما تكلف فيه ، وعلى غزارة مادته ، ووُضوح جادته ، فشعره قليل البشاشة ، ذاهبُ الحُشاشة ، وذو الإكثار ، كمثل العثار ، وله سلف يخوض في الحقائق ، وينتحل بعض الكلام الرائق .

٣٨ — وقال في آخر : مُنتمٍ لدين وعفة ، وإلى نفْس بالعَرَضِ الأدنى

مستخفّة ، ممّن نزع إلى سلوك ورياضة ، ويفيض في طريق القوم بعض إفاضة .

٣٩ — وقال في آخر : ممّن يتشوق إلى المعارف والمقالات ، ويرتاح إلى الحقائق والمحالات ، ويشتمل على نفس رقيقة ، ويَسيرُ من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويعاني من الشعر ما يشهد بنُبله ، ويُستظرف من مثله .

٤٠ — وقال في آخر : مشمر في الطلب عن ساق ، مثابر على اللحاق بدرجات الحُذّاق ، منتحل للعربية جادّ في إحصاء خلافها ، ومعاطاة سُلافها ، وربما شرست في المذاكرة أخلاقه ، إذا بُهرجت أعلاقه ، ونوزع تمسكه بالحجة واعتلاقه ، ورحل إلى المغرب فاستجدى بالشعر سلطانه ، ثم راجع أوطانه .

٤١ — وقال في آخر : منتمٍ إلى زهد ، باذل في التماس الخير الجهد ، نظمه لا يخلو من حلاوة ، ومعانيه في طريقه عليها بعض طُلاوة .

٤٢ — وقال في آخر : كاتب سجلات لا يساجَلُ في صحة فصولها ، وتوقيع فروعها على أصولها ، وكلما طلب بالنظم القريحة ، وأعمل الفكرة الصريحة ، مع إقلاله ، وعدم استعماله ، أجابت ولَبّتْ ، وتنسّمت رياحُها وهبّتْ .

٤٣ — وقال رحمه الله تعالى وسامحه في بعض العدول الصوفية الأخيار ، الذين وحدوا الله وفَنوا عن سائر الأغيار : خير عدل ، وممّن له وقار وفضل ، مُتّسم بخير ، معرض عن غير ، مشتمل بصفات مرضية ، مُلم بالنظم في الطريقة الصوفية .

وللسان الدين رحمه الله تعالى رَكض في هذا الميدان لا يجارى فيه ، وثبوت فضل لا يستند إلى دليلٍ جاحدُه ونافيه .

٤٤ — وقال رحمه الله تعالى في كتابه «التاج المحلّى في مساجلة القِدْح

المعلّى » في ترجمة محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمي المريي[1] ، ما صورته : لُجٌّ معرفة لا يَغيض ، وصاحب فنون يأخذ فيها ويفيض ، نشأ ببلده مشمراً عن ساعد اجتهاده ، وسائراً في قُنن العلم ووهاده ، حتّى أينع روضه ، وفهق حوضه ، ثمّ أخذ في راحة ذاته ، وشام بارق لذاته ، ثمّ سار في البطالة سير الجَموح ، وواصل الغَبوق بالصَّبوح ، حتّى قضى وطره ، وسئم بطره ، وركب الفُلك ، وخاض اللجج الحُلك ، واستقر بمصر على النعمة العريضة ، على شك في قضاء حجة الفريضة ، وهو اليوم بمدرستها الصالحية نبيه المكانة ، معدود في أهل العلم والديانة ؛ انتهى .

وقال في « الإحاطة » في حق المذكور ما نصه : من خط شيخنا أبي البركات في الكتاب « المؤتمن على أنباء أبناء الزمن » : كان سهلاً سَلِس القياد ، لذيذ العشرة ، دمث الأخلاق ، ميالاً إلى الدَّعة ، نفوراً عن النصب ، يركن إلى فضل نباهة وذكاء يحاسب بهما عند التحصيل والدراسة والدؤوب على الطلب ؛ من رجل يجري من الألحان على مضمار لطيف ، ولم يكن له صوت رخيم يساوق[2] انطباعه في التلحين ، فجبر ذلك بالأوتار ، وحاول من ذلك بيده مع أصحابه ما لاذ به الظرفاء منهم ، واستُعمل بدار الأشراف بالمرية ، فأحكم تلك الطريقة في أقرب زمان ، وجاء زمامه يروق مَنْ ذلك العملُ من شأنه ، ثمّ نهضت به همّته إلى أرفع من ذلك ، فسار إلى غرناطة ، فقرأ بها العربية وغيرها ، وانخرط في سلك نبهاء الطلبة لأدنى مدة ، ثمّ رحل إلى بلاد المشرق في حدود العشرين وسبعمائة فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هوائها علة كان يشكوها ، وأخذ في إقراء العربية بها ، وعُرف بها إلى أن صار يدعى بأبي عبد الله النحوي . قال شيخنا المذكور : ورأى في صغره فارة أنثى فقال : هذه قرينة ، فلقّب بذلك ، وصار هذا اللقب أغلب

١ انظر ترجمته في الكتيبة : ٨٨ وبغية الوعاة : ٦٠ والدرر ٤ : ١٠٣ (ط . القاهرة) .
٢ ق : يصادق .

عليه من اسمه ومعرفته .

ثم قال لسان الدين في حق المذكور ما ملخصه : إنه قرأ بالحضرة على الخطيب أبي علي القيجاطي وطبقته ، وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبي حيان ، وانتفع بجاهه ، نقل إلينا الحاج الحافظ أبو جعفر ابن غصن من شعره حسبما قيده عنه بمصر[1] :

بُعْدُ المزار ولَوْعَةُ الأشواقِ ... حكَمَا بفَيْضِ مدامعِ الآماقِ
وخفوقُ نجديِّ النسيمِ إذا سرى ... أذكى لهيبَ فؤاديَ الخفّاقِ
أمعلّلي أنَّ التواصلَ في غدٍ ... من ذا الذي لغدٍ فديتُكَ باقي
إنَّ اللياليَ سُبَّقٌ إن أقبلتْ ... وإذا تولّتْ لم تُنَلْ بلحاقِ
عج بالمطيِّ على الحمى ، سُقِيَ الحمى ... صوبَ الغمامِ الواكفِ الرقراقِ
فيهِ لذي القلبِ السليمِ ودادةٌ ... قلبٌ سليمٌ ما له من راقِ
قلبٌ غداةَ فراقهم فارقته ... لا كان في الأيامِ يومُ فراقِ
يا سارياً والليلُ ساجٍ عاكفٌ ... يَفْري الفَلا بنجائبٍ ونياقِ
عرّجْ على مَثْوى النبيِّ محمّدٍ ... خيرِ البريّةِ ذي المقام الراقي
ورسولِ ربِّ العالمين ومَن له ... حفظُ العهودِ وصحةُ الميثاقِ
الظاهرُ الآياتِ قام دليلُها ... والطاهرُ الأخلاقِ والأعراقِ
بَدْرُ الهدى وهو الذي آياتُهُ ... وجبينهُ كالشمسِ في الإشراقِ
الشافعُ المقبولُ مَنْ عَمَّ الورى ... بالجودِ والإرفادِ والإرفاقِ
الصادقُ المأمونُ أكرمُ مرسَلٍ ... سارتْ رسالتهُ إلى الآفاقِ
أعلى الكرام ندًى وأبسطهم يداً ... قبضتْ عنانَ المجدِ باستحقاقِ
وأشدّ خلقِ اللهِ إقداماً إذا ... حميَ الوطيسُ وشمرتْ عن ساقِ
أمضاهُمُ والخيلُ تعثرُ في الوغى ... وتجولُ سَبْحاً في الدَّمِ المهراقِ

[1] القصيدة في الكتيبة : ٨٨ – ٩٠ .

مَنْ صيّرَ الأديانَ ديناً واحداً ... من بعدِ إشراكٍ مضى ونفاقِ
وَأحلّنا من حُرمةِ الإسلامِ في ... ظِـلٍّ ظليلٍ وارفِ الأوراقِ
لو أنَّ للبـدرِ المنيرِ كمالَهُ ... ما نالهُ كسفٌ ونكسُ محاقِ
لو أنَّ للبحرينِ جودَ يمينِهِ ... أَمِنَ السفينُ غوائلَ الإيساقِ
لو أنَّ للآسادِ شـدّةَ بأسهِ ... لثنتْ عن الإنجـادِ والإعراقِ
لو أنَّ للآباء رحمةَ قَلْبهِ ... ذابتْ نفوسهمُ من الإشفاقِ
ذو العلمِ والحلمِ الخفيِّ المنجلي ... والجاهِ والشرفِ القديمِ الباقي
آياتُهُ شُهُبٌ وغُرٌّ بنـانه ... سُحُبُ النوالِ تدرُّ بالأرزاقِ
ماجت فتوحُ الأرض وهو غياثُها ... وربَتْ رُبى الإيمانِ وهو الساقي
ذو رأفةٍ بالمؤمنينَ ورحمةٍ ... وهدًى وتـأديبٍ بحسنِ سياقِ
وخصالِ مجدٍ أُفردتْ بالخصلِ في ... مرمى الفخـارِ وغايةِ السُّبّاقِ
ذو المعجزاتِ الغُـرِّ والآي التي ... كمْ آيةٍ فُقدتْ وهُنَّ بواقي
ثَنَتِ المُعارض حائراً لمّا حكتْ ... فَلَقَ الصباحِ وكانَ ذا إفلاقِ
يقظ الفؤادِ سرى وقد هجع الورى ... لمقامِ صدقٍ فوق ظهرِ بُراقِ
وسما وأملاكُ السمـاء تحفّـهُ ... حتى تجاوزهنَّ سبعَ طبـاقِ

ومنها :

يا ذا الذي اتّصلَ الرجاءُ بحبله ... وانبتَّ من هذا الورى بطلاقِ
حُبي إليكَ وسيلتي وذخيرتي ... إنّي من الأعمالِ ذو إملاقِ
وإليكَ أعملتُ الرواحلَ ضُمَّراً ... تختالُ بينَ الوخْدِ والإعناقِ
نُجُباً إذا نشدتْ حلي تلك العلا ... تطوي الفلا ممتدّةَ الأعناقِ
يحدو بهنَّ منَ النّحيبِ مردّدٌ ... وتقودهنَّ أزمّـةُ الأشـواقِ
غرضٌ إليهِ فوّقَتْنا أسهماً ... وهي القسيُّ بُرينَ كالأفواقِ
فأنختها بفِنائك الرّحب الذي ... وَسِعَ الورى بالنائلِ الدفّاقِ

وقِرى مؤمِّلكَ الشفاعةُ في غد ... وكفى بهـا هبةً من الرزّاقِ
وعليكَ يا خيرَ الأنامِ تحيّةٌ ... تحيي النفوسَ بنشرها الفتّاقِ
تتأرّجُ الأرجاءُ من نفَحاتها ... أرَجَ النديِّ بمدحك المصداقِ

ومنها :

قسَماً بطيبِ ترابِ طَيْبةَ ؛ إنهُ ... مسكُ الأنوفِ وإثمدُ الأحداقِ
وبشأنِ مسجدها الذي يرجى به ... لمُعامِلِ الرحمنِ أيُّ نفاقِ
لأجودُ فيهِ بأدمعٍ أسلاكُها ... منظومةٌ بترائبٍ وتراقِ
أغدو بتَقْبيلٍ على حَصبائهِ ... وعلى كرائمِ جُدْرِهِ بعناقِ

ومنها :

وعليكَ ذا النورينِ تسليمٌ له ... نورٌ يلوحُ بصفحَةِ المهراقِ
كفؤ النبيّ وكفؤ أعلى جنّةٍ ... حيزتْ له بشهادةٍ وصداقِ
وكفاه ما في الفتح جاء ومصحفٌ ... في الفتحِ يحمده وفي الإطباقِ
وعلى أبي السبطين مَنْ سبَقَ الأُلى ... سبقوا إلى الإسلامِ يومَ سباقِ
الطاهر الطهر ابن عمّ المصطفى ... شرفٌ على التخصيصِ والإطلاقِ
مُبدي القضايا من وراءِ حجابها ... ومفتّح الأكمامِ عن أعلاقِ
يغزو العُداةَ بغلظةٍ فيهُدُّهمْ ... بصوارمٍ تفري الفقارَ رقاقِ
راياتهُ لا شيءَ من عقبانها ... بمطارِ يومٍ وغى ولا بمطاقِ
وعلى كرامٍ ستّةٍ عشرت بهمْ ... عند النّظامِ لآلىء النُّسّاقِ
ما بينَ أروعَ ماجدٍ نيرانُهُ ... جنحَ الظلامَ تشبُّ للطُّرّاقِ
وأخي حروبٍ صدّهُ رَشقُ القنا ... عمّا قدودٍ مثلهنَّ رقاقِ
ما غرّدتْ شجواً مطوّقة وما ... شقّتْ كمام الروضِ عن أطواقِ
وعلى القرابةِ والصحابةِ كلهم ... والتّابعينَ لهمْ ليومِ تلاقِ

وذكر في « الإحاطة » غير هذه .

٤٥ — وقال لسان الدين في « التاج » في ترجمة محمد بن عبد الرحيم الوادي آشي[1] ما صورته : ناظم أبيات ، وموضح غُرر وشيات ، وصاحب توقيعات وقيعات ، وإشارات ذوات شارات ، وكان شاعراً مكثاراً ، وجواداً لا يخاف عثاراً ، دخل على أمير بلده المخلوع عن ملكه ، بعد انتثار سلكه ، وخروج الحضرة عن ملكه ، واستقراره بوادي آش مُروَّع البال ، متعلّلاً بالآمال ، وقد بلغه دخول طبرنش[2] في طاعته ، فأنشده من ساعته :

خُذْها إليكَ طبرنشا شَفَّعْ بها وادي الأشا
والأمُّ تأتي بنتَها والله يفعلُ ما يشا

ومن نوادره العذبة ، ما كتبه إليه يطلب منه الحسبة :

أنلني أيا خيرَ البريةِ خطةً ترفِّعني قدراً وتُكسبني عزّا
فأعتزَّ في أهلي كما اعتزَّ بَيدقٌ على سفرة الشطرنج لما انثنى فرزا

فوقع له بما ثبت في ترجمته ؛ انتهى .

٤٦ — وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله ابن العطار المزني ما صورته : ممّن نبغ ونجب ، وحق له البر بذاته ووجب ، تحلّى بوقار ، وشعشع للأدب كأس عقار ، إلاّ أنّه احتُرمَ في اقتبال ، وأصيب للأجل بنبال ؛ انتهى .

٤٧ — وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد ابن علي بن يحيى بن خاتمة الأنصاري المزني[3]، ما صورته : ممّن ثكلته البراعة ، وفقدته البراعة ، تأدب بأخيه وتهذب ، وأراه في النظم المذهب ، وكساه من التفهم والتعليم الرداء المذهب ، فاقتفى واقتدى ، وراح في الحلبة واغتدى ، حتّى

١ ترجمته في الدرر ٤ ١٣٣ (ط . القاهرة) .
٢ طبرنش (Tabernas) شرقي المرية . ٣ ترجمته في الدرر ٤ ٢٠١

نبل وشدا ، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى ، وأما خطه فقيّد الأبصار ، وطرفة من طرف الأمصار ، واعتُبِطَ يانع الشبيبة ، مخضرَّ الكتيبة ، مات عام خمسين وسبعمائة .

وأورد له في « الإحاطة » قوله :

وَمَضَ البرقُ فثار القلقُ ومضى النَوْمُ وحلَّ الأرقُ
مذْ تذكّرتُ لأيامٍ خلَتْ ضمّنا فيها الحمى والأبْرقُ
وعَشيّاتٍ تقَضّتْ باللوى في محيّا الدهرِ منها رونقُ
إذْ شبابي والتصابي جُمِعا ورياضُ الأنسِ غَضٌ مورقُ
شتّتَ يومُ البينِ شملي ليت ما خُلقَ البينُ لقلبٍ يعشقُ
آهِ من يومٍ قضى لي فرقَةً شابَ مني يومَ حلّتْ مفرقُ

وقوله [1] :

الرفْعُ نعتُكمُ لا خانكم أملُ والخفضُ شيمةُ مثلي والهوى دولُ
هل منكمُ ليَ عطفٌ بعد بعدكمُ إذ ليس لي منكمُ يا سادتي بدَلُ

قلت : البيت الثاني غاية في معناه ، وأما الأول فسافل وإن أُسس على الرفع مبناه ، والله أعلم .

٤٨ — وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم ابن عيسى بن داود الحميري المالقي [2] ما صورته : عَلَم من أعلام هذا الفن ، ومشَعْشع راح هذا الدن ، مجموع أدوات ، وفارس يراعة ودواة ، ظريف المنزع ، أنيق المرأى والمسمع ، اختص بالرياسة فأدار فلك إمارتها ، واتسم

١ البيتان في الدرر الكامنة .
٢ انظر أيضاً ترجمته في الكتيبة : ١٥٨ والدرر ٤ ٢٧١ (ط . القاهرة) .

باسم كتابتها ووزارتها ، ناهضاً بالأعباء ، صاعداً في درج التقريب والاجتباء ، مصانعاً دهره في راح وراحة ، آوياً إلى فضل وسماحة ، وخصب ساحة ، كلما فرغ من شأن خدمته ، وانصرف عن رب نعمته ، عقد شرباً ، وأطفأ من الاهتمام بغيَر الأيام حرباً ، وعكف على صوت يستعيده ، وظرف يبديه ويعيده ، فلمّا تقلبت بالرياسة الحال ، وقُوضت منها الرحال ، استقر بالمغرب غريباً ، يقلّب طرفاً مستريباً ، ويلحظ الدنيا تبعة عليه وتثريباً ، وإن كان لم يُعدم من أمرائه حظوة وتقريباً ، وما برح يبوح بشَجنه ، ويرتاح إلى عهود وطنه ، وممّا أعرب به ، عن براعة أدبه ، قوله [1] :

« يا نـازحينَ ولم أُفارق منهمُ ... شوقاً تأجّجَ في الضلوع[2] ضرامُهُ
غُيّبتمُ عن ناظريَّ وشخصُكمْ ... حيث استقرَّ من الضلوعِ مقامُهُ
رَمَتِ النوى شملي فشتّتَ نظمهُ[3] ... والبينُ رامٍ لا تطيشُ سهامُهُ
وقد اعتدى فينا وجدَّ مبالغاً ... وجرتْ بمحكمِ جوره أحكامُهُ
أترى الزمانَ مؤخّراً في مدّتي ... حتى أراهُ قد انقضتْ أيامُهُ

تحملها يا نسيم نجدية النفحات ، وجنْديّة اللّفحات ، تؤدي عني إلى الأحبة نفحها سلاماً ، وتورد عليهم لفحها بَرداً وسلاماً ، ولا تقل كيف تحملني ناراً ، وترسل على الأحبّة مني إعصاراً ، كلاً إذا أهديتهم تحية إيناسي ، وآنسوا من جانب هبوبك نار ضرام أنفاسي ، وارتاحوا إلى هبوبك ، واهتزوا في كف مسرى جنوبك ، وتعلّلوا بك تعليلاً ، وأوسعوا آثار مَهَبّكَ تقبيلاً ، أرسلها عليهم بليلاً ، وخاطبهم بلطافة تلطفك تعليــلاً ، ألم تروني كيف جئتكم بما حملني عليلاً :

١ الكتيبة : ١٦١ ؛ والبيتان الأولان في الدرر : ٢٧٢ .
٢ الكتيبة : في الفؤاد .
٣ ق : شمله .

كذاكَ تركته[1] مُلقًى بأرضٍ ... له فيهـا التعلّلُ بالريـاحِ
إذا هَبّتْ إليهِ صبا إليهـا ... وإن جاءته من كلّ النّواحي
تساعده الحمائمُ حينَ يبكي ... فما ينفكُّ موصولَ النُّواحِ[2]
يخاطبهنّ مهما طِرْنَ شوقاً ... أما فيكنّ واهبةُ الجناحِ

ولولا تعلله بالأماني ، وتحدث نفسه بزمان التداني ، لكان قد قضى نحبه ، ولم أُبلغكم إلاّ نعيه أو ندبه ، لكنه يتعلل من الآمال بالوعد الممطول ، ويتطارح باقتراحاته على الزمن المجهول ، ويحدث نفسه وقد قنعت من بروق الآمال بالخُلّب ، ووثقت بمواعيد الدهر القُلّب ، فيناجيها بوحي ضميره ، وإيماء تصويره : كيف أجدك يوم الالتقاء بالأحباب ، والتخلص من رِبقة الاغتراب ، أبائنة الحضور أم بادية الاضطراب ، كأني بك وقد استفزّك ولهُ السرور ، فصرفك عن مشاهدة الحضور ، وعاقتك غشاوة الاستعبار للاستبشار ، عن اجتلاء محيّا ذلك النهار :

يومٌ يُداوي زماناتي منَ ازَماني ... أزالَ تنغيصَ أحياني فأحياني
جعلْتُ لله نذراً صومَهُ أبَداً ... أفي به وأوَفّي شرطَ إيماني
إذا ارتفعنا وزال البعد وانقطعتْ ... أشطانُ دهرٍ قد التفّتْ بأشطاني
أعدُّهُ خيرَ أعيادِ الزمانِ إذا ... أوطانيَ السعدُ فيه ترب أوطاني

أرأيت كيف ارتياحي إلى التذكار ، وانقيادي إلى معلّلات توهمات الأفكار ؟ كأن البعد باستغراقها قد طويت شقته ، وذهبت عني مشقته ، وكأني بالتخيل بين تلك الخمائل أتنسم صَباها ، وأتسنم رُباها ، وأجتني أزهارها ، وأجتلي أنوارها ، وأجول في خمائلها ، وأتنعّم ببُكرها وأصائلها ، وأطوف بمعالمها ، وأنتشق

١ الكتيبة : غريب بعدكم .
٢ الكتيبة : التياح .

أزهار كمائمها ، وأصيخ بأذن الشوق إلى سجع حمائمها ، وقد داخلتني الأفراح ونالت مني نشوة الارتياح ، ودنا السرور لتوهم ذهاب الأتراح ، فلمّا أفقت من غمرات سكري ، ووثبت من هفوات فكري ، وجدت مرارة ما شابه لي في استغراق دهري ، وكأني من حينئذٍ عالجت وقفة الفراق ، وابتدأت منازعة الأشواق ، وكأنما أغمضني النوم ، وسمح لي بتلك الفكرة الحلم :

ذكَرَ الديارَ فهاجَهُ تذكارُهُ وسرتْ به من حينهِ أفكارُهُ
فاحتلَّ منها حيث كان حلولُهُ بالوهمِ منها واستقرَّ قَرارهُ
ما أقربَ الآمالَ من غَفَواتهِ لو أنها قُضيتْ بها أوطارهُ

فإذا جئتها أيها القادم والأصيلُ قد خلع عليها بُرداً مُورَّساً ، والربيع قد مدَّ على القيعان منها سندساً ، فاتخذها — فديتُكَ — معرَّساً ، واجرر ذيولك فيها متبختراً ، وبث فيها من طيب نفحاتك عنبراً ، وافتُق عليها من نوافج أنفاسك مسكا أذفراً ، واعطف معاطف بانها ، وأرْقِصْ قُضُبَ ريحانها ، وصافح صفحات نهرها ، ونافحْ نفحات زهرها ، هذه كلها أمارات ، وعن أسرار مقاصدي عبارات ، هنالك تنتعش بها صُبابات ، تعالج صبابات ، تتعلّل بإقبالك ، وتعكف على لثم أذيالك ، وتبدو لك في صفة الفاني المتهالك ، لاطفها بلطافة اعتلالك ، وترفّق بها ترفّق أمثالك ، فإذا مالت بهم إلى هواك الأشواق ، ولَوَوْا إليك الأرؤس والأعناق ، وسألوكَ عن اضطرابي في الآفاق ، وتقلُّبي بين الإشآم والإعراق ، فقل لهم : عرض له في أسفاره ، ما يعرض للبدر في سراره ، من سرار السرار ، ولحاق المحاق ، وقد تركته وهو يسامر الفرقدين ، ويساير النيرين ، وينشد إذا راعه البين :

وقد نكونُ وما يُخشى تفرُّقنا فاليومَ نحنُ وما يُرجى تلاقينا

لم يفارق وعثاء الأسفار ، ولا ألقى من يده عصا التسيار ، يتهاداه الغور والنجد ،

ويتداوله الإرقال والوَخْد ، وقد لفحته الرَّمضاء ، وسئمه الإنضاء ، فالجهات تلفظه ، والآكام تَبْهظه ، يحمل همومه الرواسم ، وتحياته البواسم :

لا يستقرُّ بأرضٍ حين يبلغها   ولا له غير حدوِ العيسِ إيناسُ

ثم إذا استوفوا سؤالك عن حالي ، وتقلُّبي بين حلِّي وترحالي ، وبلغت القلوب منهم الحناجر ، وملأت الدموع المحاجر ، وابتلّت ذيولك بمائها ، لا بل تضرجت بدمائها ، فحيّهم عني تحيّة منفصل ، ووداعَ مرتحل ، ثم اعطف عليك ركابك ، ومَهّد لهم جنابك ، وقل لهم إذا سألني عن المنازل بعد سكانها ، والربوع بعد ظعن أظعانها ، بماذا أُجيبه ؟ وبماذا يسكن وجيبه ، فسيقولون لك هي البلاقع المقفرات ، والمعارف التي أصبحت نكرات :

صَمَّ صداها وعفا رسمها   واستعجمتْ عن منطقِ السائلِ

قلْ لهم : كيف الروض وآسُه ؟ وعَمَّ تتأرج أنفاسُه ؟ عهدي به والحَمام يردد به أسجاعه ، والذباب يغني به هزجاً فيحك بذراعه ذراعه ، وغصونه تعتنق ، وأحشاء جداوله تصطَفق ، وأسحارُهُ تتنسم ، وآصاله تتوسم ، كما كانت بقية نضرته ، وكما عهدتّها أنيقة خضرته ، وكيف التفاته عن أزرق نَهره ، وتأنقه في تكليل إكليله بيانع زهره ، وهل رقّ نسيمُ أصائله ، وصفت موارد جداوله ؟ وكيف انفساح ساحاته ، والتفاف دوحاته ؟ وهل تمتدّ كما كانت مع العشي فينانَةُ سرحاتِه ، وعهدي بها المديدة الظلال ، المزعفرة السربال ؟ وهل تحدّق الآن به عيون نرجسه ، ويمد بساط سندسه ؟ وأنّى منه مجالس لِداتي ، ومعاهد غدواتي وروحاتي ، إذ أباري في المجون لمن أُباري ، وأسابق إلى اللذات كلَّ من أُجاري ، فسيقولون لك : ذوَتْ أفنانه ، وانقصفت أغصانه ، وتكدَّرت غدرانه ، وتغير رَوْحُه وريحانه ، وأقفرت معالمه ، وأخرست حمائمه ، واستحالت حُلَلُ خمائله ، وتغيرت وجوه بُكَره وأصائله ، فإن صَلصَلَ حنين رعد فعن قلبي

لفراقه خفق ، وإن تلألأ برقٌ فعَنْ حرّ حشاي ائتلق ، وإن سحّت السحب فمساعدة لجفني ، وإن طال بكاؤها فعنّي ، حيّاها الله تعالى منازل ، لم تزل بمنظوم الشمل أواهل ، وحين انتثرت نثرت أزهارها أسفاً ، ولم تثن الريح من أغصانها معْطفاً ، أعاد الله تعالى الشمل فيها إلى محكم نِظامه ، وجعل الدهر الذي فرقه يتأنق في إحكامه ، وهو سبحانه يجبر الصَّدع ، ويعجل الجمع ، إنّه بالإجابة جدير ، وعلى ما يشاء قدير .

إيه بُنيّ كيف حال من استودعتهم أمانتك ، وألزمتهم صونك وصيانتك ، وألبستهم نسبك ، ومهّدت لهم حسبك ، الله في حفظهم فهو اللائق بفعالك ، المناسب لشرف خلالك ، ارعَ لهم الاغتراب لديك ، والانقطاع إليك ، فهم أمانة الله تعالى في يديك ، وهو سبحانه يحفظك بحفظهم ، ويوالي بلحظك أسباب لحظهم ، وإن ذهبتم إلى معرفة الأحوال ، فنِعَمُ الله تعالى ممتدة الظلال ، وخيراته وارفةُ السربال ، لولا الشوق الملازم ، والوجْدُ الذي سكن الحيازم » .

٤٩ — وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي بكر محمد بن محمد بن عبد الله ابن مقاتل المالقي[١] ما نصه : نابغة مالقية ، وخلَف وبقية ، ومغربي الوطن أخلاقه مشرقية ، أزمع الرحيل إلى المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المفرق ، فلمّا توسطت السفينة اللُّجَج ، وقارعت الثَّبَج ، هال عليها البحر فسقاها كأس الحمام ، وأولدها قبل التمام ، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها ، وانضم على نوره سوادها ، من جملة الطلبة والأدباء ، وأبناء السراة الحسباء ، أصبح كلٌّ منهم مطيعاً ، لداعي الردى وسميعاً ، وأحيوا فرادى وماتوا جميعاً ، فأجروا الدموع حزناً ، وأرسلوا العبرات عليهم مُزْناً ، وكأن البحر لما طَمَسَ سبيلَ خلاصهم وسدّها ، وأهال هضبة سفينتهم وهدّها ، غار على نفوسهم النفيسة فاستردّها ، والفقيه أبو بكر مع إكثاره ، وانقياد نظامه ونثاره ، لم أظفر من أدبه

١ ترجمته في الدرر ٤ ٣١٣ (ط . القاهرة) .

إلاّ بالقليل التافه ، بعد وداعه وانصرافه ، فمن ذلك قوله وقد أبصر فتًى عاثراً .

ومهفهفٍ هافي المعاطفِ أحْوَرٍ فضحتْ أشعّةُ نوره الأقمارا
زَلّتْ له قدمٌ فأصبحَ عاثراً بينَ الأنامِ لَعاً لذاكَ عِثارا
لو كنتُ أعلم ما يكون فرشتُ في ذاكَ المكانِ الخدَّ والأشفارا

وقال :

أيا لبني الرفّاء تنضي ظباؤهم جفونَ ظُباهم فالفؤادُ كليمُ
لقد قطّع الأحشاءَ منهم مهفهفٌ له التبرُ خَدٌّ واللُّجَيْنُ أديمُ
يسدد إذ يرمي قسيَّ حواجبٍ وأسْهُمُها من مقلتيه تسومُ
وتسقمني عينــاهُ وهي سقيمةٌ ومن عجبٍ سُقْمٌ جناهُ سقيمُ
ويذبلُ جسمي في هواهُ صبابةً وفي وصلهِ للعاشقينَ نعيمُ

كان غرقه في أُخريات عام تسعة وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى .

٥٠ — وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد الشُّدَيد المالقي ما نصه : شاعر مُجيد حَوْك الكلام ، ولا يقصر فيه عن درجة الأعلام ، رحل إلى الحجاز لأول أمره فطال بالبلاد المشرقية ثَواؤه ، وعُمِّيَتْ أنباؤه ، وعلى هذا العهد وقفتُ له على قصيدة بخطه غرضُها نبيل ، ومرعاها غير وَبيل ، تدل على نَفْس ونَفَس ، وإضاءة قَبَس ، وهي :

لنا في كلّ مكرمةٍ مَقامُ ومن فوقِ النجومِ لنا مُقامُ

ومنها :

رَوينا من مياهِ المجدِ لمّا وردناها وقد كَثُرَ الزحامُ
فنحن همُ ، وقلْ لي من سوانا لنا التقديمُ قدماً والكلامُ
لنا الأيدي الطّوال بكلّ صوبٍ يُهَزُّ به لدى الروع الحسامُ
ونحنُ اللابسونَ لكلّ درعٍ يصيبُ السُّمرَ منهنّ انثلامُ

بأندلسٍ لنا أيامُ حربٍ ... مواقفهن في الدنيا عظامُ
ثوى منها قلوبَ الرومِ خوفٌ ... يخوّفُ منه في المهدِ الغلامُ
حمينا جانبَ الدينِ احتساباً ... فها هو لا يهانُ ولا يضامُ
وتحتَ الرايةِ الحمراءِ منّا ... كتائبُ لا تطاقُ ولا ترامُ
بنو نصر وما أدراكَ ما هم ... أسودُ الحربِ والقومُ الكرامُ
لهمْ في حربهمْ فتكات عمروٍ ... فللأعـمـارِ عندهُمُ انصرامُ
يقولُ عُداتهمْ مهما ألمّوا ... أتونا ما من الموتِ اعتصامُ
إذا شرعوا الأسنّةَ يومَ حربٍ ... فحقّقْ أنّ ذاكَ هو الحِمامُ
كأنّ رماحهم فيها نجومٌ ... إذا ما أشبهَ الليلَ القتامُ
أناسٌ تُخْلِفُ الأيامُ ميتاً ... بحيٍّ منهمُ فلهمْ دوامُ
رأينا من أبي الحجاج شخصاً ... على تلك الصفاتِ له قيامُ
مُوَقّى العرضِ محمودُ السجايا ... كريمُ الكفِّ مقدامٌ همامُ
يجولُ بذهنه في كلّ شيءٍ ... فيدركهُ وإنْ عزَّ المَرامُ
قويمُ الرأي في نُوَبِ الليالي ... إذا ما الرأيُ فارقهُ القوامُ
لهُ في كلِّ معضلةٍ مَضاءٌ ... مضاءُ الكفِّ ساعدَها الحسامُ
رؤوفٌ قادرٌ يُغضي ويعفو ... وإنْ عَظُم اجتناءٌ واجترامُ
تطوفُ ببيتِ سؤدده القوافي ... كما قد طافَ بالبيْتِ الأنامُ
وتسجدُ في مقام علاهُ شكراً ... ونعمَ الركنُ ذلك والمقـامُ
أفارسَها إذا ما الحربُ أخنتْ ... على أبطالهـا ودَنا الحِمامُ
وممطرها إذا ما السُّحبُ كفّتْ ... وكفُّ أخي الندى أبداً غمامُ
لك الذكرُ الجميلُ بكلّ قطرٍ ... لك الشرفُ الأصيلُ المستدامُ
لقد جُبْنا البلادَ فحيث سرنا ... رأينا أنّ ملكك لا يرامُ
فضلتَ ملوكها شرقاً وغرباً ... وبتّ لملكها يقظاً وناموا
فأنتَ لكلّ معلوةٍ مَدارٌ ... وأنتَ لكلّ مكرمةٍ إمامُ

جَعَلْتَ بلادَ أندلس إذا ما ذُكِرْتَ تغارُ مصرٌ والشآمُ
مكانٌ أنتَ فيه مكانُ عزٍّ وأوطانٌ حللتَ بها كرامُ
وهبتكَ من بناتِ الفكرِ بكراً لها من حُسْنِ لقياكَ ابتسامُ
فنزّه طرفَ مجدكَ في حلاها فللمجدِ الأصيلِ بها اهتمامُ

٥١ – وقال في « الإكليل » في ترجمة الشريف محمد بن الحسن العمراني من أهل فاس[١] ما صورته : كريم الانتماء ، متظلل بأغصان الشجرة الشمّاء ، من رجل سليم الضمير ، ذي باطن أصفى من الماء النَّمير ، له في الشعر طبع يشهد بعروبية أصوله ، ومضاء نصوله .

وذكر في «الإحاطة» أن الشريف المذكور توفي في حدود ثمانية وثلاثين وسبعمائة.

٥٢ – وقال في « الإكليل » في ترجمة محمد بن أحمد بن إبراهيم المُرادي العشاب ، وهو قرطبي الأصل تونسي المولد والمنشأ ، ما صورته : جواد لا يُتعاطى طَلَقُه ، وصُبح فضل لا يماثل فَلَقُه ، كانت لأبيه رحمه الله تعالى من الدول الحفصية منزلة لطيفة المحل ، ومفاوضة في العقد والحل ، ولم يزل تسمو به قدم النجابة ، من العمل إلى الحجابة ، ونشأ ابنه هذا مقضيَّ الديون ، مفَدًّى بالأنفس والعيون ، والدهر ذو ألوان ، ومارقُ حرب عوان ، والأيام كُرات تُتلقف وأحوال لا تتوقف ، فألوى بهم الدهر وأنحى ، وأغام جوهم بعقب ما أصحى ، فشملهم الاعتقال ، وتعاورتهم النّوب الثقال ، واستقرت بالمشرق ركابه ، وحُطّتْ به أقتابه ، فحج واعتمر ، واستوطن تلك المعاهد وعَمَر ، وعكف على كتاب الله تعالى فجوّد الحروف ، وقرأ المعروف ، وقيد وأسند ، وتكرر إلى دور الحديث وتردّد ، وقدم على هذا الوطن قدومَ النسيم البليل ، على كبد العليل ، ولما استقر به قَراره ، واشتمل على جفنه غراره ، بادرت إلى مؤانسته ، وثابرت على مجالسته ، فاجتليت للسر شخصا ، وطالعت ديوان الوفاء مُستقصى ،

١ ترجمته في الدرر ٤ : ٤٦ (ط . القاهرة) .

وشعره ليس بحائد عن الإحسان ، ولا غفل عن النكت الحسان ؛ انتهى .

٥٣ – وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمر بن علي ابن إبراهيم المليكشي[١] ما صورته : كاتب الخلافة ، ومُشعشع الأدب الذي يزري بالسُّلافة ، كان بطل مجال ، وربَّ روية وارتجال ، قدم على هذه البلاد وقد نبا به وطنه ، وضاق ببعض الحوادث عَطَنه ، فتلوّم تلوّمَ النسيم بين الخمائل ، وحل منها محل الطيف من الوشاح الجائل ، ولبث مدة إقامته تحت جراية واسعة ، وميرة[٢] يانعة ، ثمّ آثر قُطره ، فولّى وجهَهُ شطره ، واستقبله دهره بالإنابة ، وقلده خُطّة الكتابة ، فاستقامت حاله ، وحُطّتْ رحاله ، وله شعر أنيق ، وتصوّف وتحقيق ، ورحلة إلى الحجاز سعيها في الخير وثيق ، ونَسَبها في الصالحات عريق ، ومن شعره قوله :

رِضًى نلتِ ما ترضين من كل ما يهوى ... فلا توقفيني موقفَ الذلّ والشكوى
وصفْحاً عن الجاني المسيء لنفسه ... كفاه الذي يلقاه من شدّةِ البلوى
بما بيننا من خَلْوَةٍ معنوية ... أرقّ من النجوى وأحلى من السلوى
قفي أتشكى لوعَةَ البينِ ساعةً ... ولا يكُ هذا آخرَ العهد بالنجوى
قفي ساعةً في عرصةِ الدار وانظري ... إلى عاشقٍ ما يستفيقُ منَ البلوى
وكمْ قد سألتُ الريحَ شَوْقاً إليكمُ ... فما حنّ مسراها عليّ ولا ألوى
فيا ريحُ حتى أنتِ ممّن يغارُ بي ... ويا نجدُ حتى أنت تهوى الذي أهوى
خُلِقْتُ ولي قلبٌ جليدٌ على النوى ... ولكنْ على فقدِ الأحبّةِ لا يقوى

وحدث بعض من عني بأخباره ، أيام مقامه بمالقة واستقراره ، أنه لقي بباب الملعب من أبوابها ظبيةً من ظبيات الإنس ، وقَيْنة من قينات هذا الجنس ، فخطب وصالها ، واتقى بفؤاده نصالها ، حتى همّت بالانقياد ، وانعطفت انعطاف الغصن

---

١ ترجمته في نيل الابتهاج : ٢٣٧ ورحلة البلوي (الورقة : ٢٢) والدرر ٤ : ٢٢٦ (ط. القاهرة) .
٢ ق : ومبرة .

الميّاد ، فأبقى على نفسه وأمسك ، وأنِفَ من خلع العِذار بعدما تنسّك ، وقال :

لم أنسَ وقفتنا ببابِ الملعبِ ... بين الرجا واليأس من متجنبِ
وعدَتْ فكنتُ مراقباً لحديثها ... يا ذلَّ وقفة خائفٍ مترقّبِ
وتدللتْ فذللتُ بعد تعزّزٍ ... يأتي الغرامُ بكلّ أمرٍ معجبِ
بلويةٌ أبدى الجمالُ بوجهها ... ما شئتَ من خدٍّ شريق مذهبِ
تدنو وتبعدُ نفرةً وتجنّياً ... فتكادُ تحسبها مَهاة الرَّبربِ
ورنتْ بلحظٍ فاتنٍ لك فاترٍ ... أنضى وأمضى من حسام المضربِ
وأرتكَ بابلُ سحرها بجفونها ... فسبتْ ، وحق لمثلها أن تستبي
وتضاحكتْ فحكتْ بنيّر ثغرها ... لمعانَ نور ضياءِ برقٍ خُلّبِ
بمنظّمٍ في عقدِ سمطيْ جوهرٍ ... عن شبه نَوْرِ الأقحوان الأشنبِ
وتمايلتْ كالغصنِ أخضلَه الندى ... ريّانَ من ماءِ الشبيبةِ مخصبِ
تَثْنيه أرواحُ الصبابةِ والصَّبا ... فتراهُ بينَ مشرّقٍ ومغرّبِ
أبَتِ الروادفُ أنْ تميلَ بميلهِ ... فرستْ وجالَ كأنّهُ في لَولبِ
متوجاً بهلالِ وجهٍ لاح في ... خلل السحاب لحاجبٍ ومحجّبِ
يا من رأى فيها محبّاً مغرَماً ... لم ينقلب إلاّ بقلبٍ قُلّبِ
ما زالَ مذْ ولّى يحاولُ حيلةً ... تدنيهِ من نيلِ المنى والمطلّبِ
فأجالَ نار الفكرِ حتى أُوقدتْ ... في القلبِ نارُ تشوّقٍ وتلهّبِ
فتلاقتِ الأرواحُ قبلَ جسومها ... وكذا البسيطُ يكونُ قبلَ مركّبِ

وقال :

أرى لك يا قلبي بقلبي محبةً ... بعثتُ بها سرّي إليكَ رسولا
فقابلْهُ بالبشرى ، وأقبلْ عشيّةً ... فقد هبَّ مسكيُّ النّسيمِ عليلا
ولا تعتذر بالقَطرِ أو بللِ الندى ... فأحسنُ ما يأتي النسيمُ بليلا

توفي عام أربعين وسبعمائة بتونس ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

٥٤ ــ وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر العبدري التونسي الشاطبي الأصل[١]، ما نصه : غَذِيُّ نعمة هامية ، وقريع رتبة سامية ، صُرِفتْ إلى سلفه الوجوه ، ولم يبق من إفريقية إلاّ مَن يخافه ويرجوه ، وبلغ هو مدة ذلك الشرف ، الغايةَ من الترف ، ثمّ قلب الدهر له ظهر المِجَنّ ، واشتد به الخُمار عند فراغ الدَّنّ ، ولحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوب مُبيرة ، وشدة كبيرة ، فامتزج بسكانه وقُطّانه ، ونال من اللذات به ما لم ينله في أوطانه ، واكتسب الشمائل العِذاب ، وكان كابن الجَهْم بُعث إلى الرصافة ليرقّ فذاب ، ثمّ حوّم على وطنه تحويم الطائر ، وألمّ بهذه البلاد إلمام الخيال الزائر ، فاغتنمت صفقة وده لحين وروده ، وخطبت موالاته على انقباضه وشروده ، فحصلت منه على درة تُقْتَنى ، وحديقة طيبة الجَنى ، أنشدني في أصحاب له بمصر قاموا ببره :

لكلّ أناسٍ مذهبٌ وسجيةٌ ... ومذهبُ أولادِ النظامِ المكارمُ
إذا كنتَ فيهم ثاوياً كنت سيداً ... وإن غبتَ عنهم لم تنلكَ المظالمُ
أولئك صحبي لا عدمت حياتَهم ، ... ولا عدموا السعدَ الذي هو دائمُ
أُغنّي بذكراهم وطيبِ حديثهم ... كما غرّدتْ فوق الغصون الحمائمُ

وقال :

أحبتَنا بمصرٍ لَوْ رأيتمْ ... بكائي عند أطرافِ النهارِ
أكنتم تشفقون لفرطِ وجدي ... وما ألقاهُ من بُعْدِ الديارِ

٥٥ ــ وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي القاسم محمد بن أبي زكريا يحيى ابن أبي طالب عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي السبتي[٢] ، ما صورته : فرع تأود من الرياسة في دَوْحة ، وتردد بين غدوة في المجد ورَوْحَة ، نشأ والرياسة العزفية

---

١ ترجمته في الدرر ٤ : ١٩٨ (ط . القاهرة) .
٢ الدرر : ٥٢ .

تعله وتنهله ، والدهر ييسر أمله الأقصى ويُسَهله ، حتى اتسقت أسبابُ سعده ، وانتهت إليه رياسة سلفه من بعده ، فألقت إليه رحالها وحطَّتْ ، ومتعته بقربها بعدما شطَّتْ ، ثمّ كلح له الدهر بعدما تبسم ، وعاد زَعزَعاً نسيمُه الذي كان يتنسم ، وعاق هلاله عن تِمِّه ، ما كان من تغلب ابن عمّه ، واستقر بهذه البلاد نازح الدار ، بحكم الأقدار ؛ وإن كان نبيه المكانة والمقدار ، وجرت عليه جراية واسعة ، ورعاية متتابعة ، وله أدب كالروض باكرتْهُ الغمائم ، والزهر تفتحت عنه الكمائم ، رفع منه راية خافقة ، وأقام له سوقاً نافقة ، وعلى تدفق أنهاره ، وكثرة نظمه واشتهاره ، فلم أظفر منه إلاّ باليسير التافه ، بعد انصرافه ؛ انتهى .

٥٦ ــ وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن [عبد الرحمن] المكودي الفاسي ما نصه: شاعر لا يُتقاصى ميدانه ، ومَرعى بيانٍ رفّ غضاهُ وأينع سَعدانه ، يدعو الكلام فيُهطِع لداعيه ، ويسعى في اجتلاب المعاني فتنجح مساعيه ، غير أنه أفرط في الانهماك ، وهوى إلى السمكة من أوج السِّماك ، قدم على هذه البلاد مفلتاً من رهق تلمسان حين الحصار ، صفر اليمين واليسار من اليسار ، فلٌّ هوًى أنحى على طريفه وتلاده ، وأخرجه من بلاده ، ولمّا جدّ به البين ، وحلّ هذه البلدة بحال تقتحمها العين ، والسيف بهزّته لا بحسن بزّته ، دعوناه إلى مجلس أعاره البدر هالته ، وخلع عليه الأصيلُ غلالته ، وروض تفتّح كمامه ، وهمى عليه غمامه ، وكأس أُنس تدور ، فتتلقى نجومها البدور ، فلمّا ذهبت المؤانسة بخجله ، وتذكر هواه ويوم نواه حتّى خفنا حلول أجله ، جذبنا للمؤانسة زمامه ، واستسقينا منه غمامه ، فأمتع وأحسبَ ، ونظر ونسب ، وتكلم في المسائل ، وحاضر بطُرَف الأبيات وعيون الرسائل ، حتّى نشر الصباح رايته ، وأطلع النهار آيته ، فممّا نسبه إلى نفسه وأنشدناه قوله :

غرامي فيكَ جَلّ عن القياسِ ... وقد سقّيتنيه بكلّ كاسِ
ولا أنسى هواكَ ولو جفاني ... عليكَ أقاربي طُرّاً وناسي

ولا أدري لنفسي من كمالٍ سوى أني لعهدكَ غيرُ ناسي

وقال :

بَعَثْتَ بخمرٍ فيهِ ماءٌ وإنّما بعثتَ بماءٍ فيهِ رائحةُ الخمرِ
فقَلَّ عليه الشكرُ إذ قلَّ سكرنا فنحن بلا سكرٍ ، وأنت بلا شكرِ

٥٧ – وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن بيبش العبدري الغرناطي[١] ما صورته : معلم مدرب ، مسهل مقرب ، له في صنعة العربية باعٌ مديد ، وفي هدفها سهم سديد ، ومشاركة في الأدب لا يفارقها تسديد ، خاصي المنازع مختصرها ، مرتب الأحوال مقررها ، تميز أول وقته بالتجارة في الكتب فسُلِّطتْ منه عليها أرضة آكلة ، وسهم أصاب من رميتها الشاكلة ، أثرى بسببها وأترب ، وأغنى جهة وأفقر أخرى ، وانتقل لهذا العهد الأخير إلى سكنى مسقط رأسه ، ومنبت غرسه ، وجرت عليه جراية من أحباسها ، ووقع عليه قبول من ناسها ، وبها تلاحق به الحمام ، فكان من ترابها البداية وإليها التمام ، وله شعر لم يقصر فيه عن المدى ، وأدب توشح بالإجادة وارتدى ، أنشدني بسبتة تاسع جمادى الأولى عام اثنين وخمسين وسبعمائة يجيب عن بيتي ابن العفيف التلمساني :

يا ساكناً قلبيَ المعنّى وليسَ فيه سواك ثاني
لأيّ معنًى كسرتَ قلبي وما التقى فيه ساكنانِ

فقال :

نحلْتَني طائعاً فؤاداً فصار إذ حزْتُه مكاني
لا غرو إذ كان لي مضافاً أني على الكسرِ فيه باني

وقال يخاطب الشريف أبا العباس وأهدى أقلاماً :

---

١ انظر أيضاً ترجمته في الكتيبة : ٩٠ وبغية الوعاة : ١٠٠ والدرر ٤ : ٣٥٨ (ط . القاهرة) وراجع ما تقدم في النفح ٥ : ٣٨٤ .

أناملكَ الغُرُّ التي سَيْبُ جودِها يفيض كفيض المزنِ بالصيِّب القطرِ
أتتنيَ منهــا تحفةٌ مثلُ حدِّها إذا انتُضيتْ كانت كمرهَفة السُّمرِ
هي الصفرُ لكن تعلمُ البيضُ أنها محكَّمَةٌ فيها على النّفعِ والضرِّ
مهذَّبةُ الأوصالِ ممشوقةٌ كما تصوغ سهام الرمي من خالص[1] التبرِ
فقبلّتهــا عشراً ومثّلتُ أنّني ظفرتُ بلثمٍ في أناملكَ العشرِ

وقال في ترتيب حروف الصحاح :

أساجعةٌ بالواديــينِ تبَوّئي ثماراً جنَتْها حالياتٌ خواضبُ
دعي ذكرَ روض زاره سقي شربه صباح ضحى طيرٌ ظماءٌ عواصبُ
غرامُ فؤادي قاذفٌ كلَّ ليلةٍ متى ما نأى وهناً هواهُ يراقبُ

مولده في حدود ثمانين وستمائة ، وتوفي بغرناطة في رجب عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

قلت : رأيت بخط الجلال السيوطي على هامش جوابه عن بيتي ابن العفيف التلمساني ما صورته : قلت : في هذا البيت تصريح بأن المضاف إلى الياء مبني على الكسر ، وهو رأي مرجوح عند النحاة ، ذهب إليه الجرجاني ، والصحيح أنه معرب ، على أن ذاك لا يحتاج إلى جواب كما يظهر بالتأمل ، قاله عبد الرحمن السيوطي ؛ انتهى . ويعني بذلك أن الساكنين إنما يُكسر أحدهما ، لا محلهما ، والله سبحانه أعلم .

٥٨ – وقال لسان الدين في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن هانىء اللخمي السبتي ، وأصله من إشبيلية ، ما صورته : علم تشير إليه الأكف ، ويُعْمَل[2] إلى لقائه الحافر والخف ، رفع للعربية ببلده رايةً لا تتأخر ، ومرج

١ الكتيبة : أو خالص .
٢ الإحاطة : وينتقل .

منها لجة تزخر ، فانفسح مجالُ درسه ، وأثمرت أنواع غرسه ، فركض ما شاء ومرح ، ودوّن وشَرَح ، إلى شمائل يملك الظرف زمامها ، ودعابة راشت الحلاوة سهامها ، ولمّا أخذ المسلمون في مُنازلة الجبل وحصاره ، وأصابوا الكفر منه بجارحة إبصاره ، ورموا بالثُّكل فيه نازح أمصاره ، كان ممّن انتدب وتطوّع ، وسمع النداء فأهطع ، فلازمه إلى أن نفد لأهله القوت ، وبلغ من فسحة الأجل الموقوت ، فأقام الصلاة بمحرابه ، وحَيّاه وقد غير محياه طول اغترابه ، وبادره الطاغية قبل أن يستقر نصل الإسلام في قِرابه ، أو يعلق أصل الدين في ترابه ، وانتدب إلى الحصار ربه وتدرّع ، ودعاه أجله فلبّى وأسرع ، ولما هدر عليه الفنيق ، وركع إلى قبلة المنجنيق ، أصيب بحجر دوَّم عليه كالجارح المحلّق ، وانقض إليه انقضاض البارق المتألق ، فاقتنصه واختطفه ، وعمد إلى زهره فاقتطفه ، فمضى إلى الله تعالى طوع نيّته ، وصحبته غرابة المنازع حتى في أمنيته ؛ انتهى .

وقد جوّد ترجمته في « الإحاطة »[1] وقال : إنّه ألّف كتباً منها شرح « تسهيل الفوائد » لابن مالك ، مبدع تنافس الناس فيه ، وكتاب « الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة » ، وكتاب « إنشاد الضوال وإرشاد السؤّال » في لحن العامة ، وهو مفيد ، وكتاب « قوت المقيم »[2] ودوّن ترسيل أبي المطرّف ابن عميرة وضمه في سفرين ، وله جزء في الفرائض ، وحدثني شيخنا الشريف القاضي أبو القاسم قال : خاطبت ابن هانىء بقصيدة من نظمي أولها :

هاتِ الحديثَ عن الركبِ الذي شَخَصا

فأجابني بقصيدة على رويها ، أولها :

لولا مشيبٌ بفَودي للفؤادِ عصى ... أنضيتُ في مهمه التشبيبِ لي قُلُصا

---

١ ترجمته في الورقة : ٦٠ وقد نقل فيها ما قاله في الإكليل .
٢ وكتاب ... المقيم : سقط هذا من الإحاطة .

واستوقفت عبراتي وهي جاريةٌ وكفاءُ توهمُ ربعاً للحبيبِ قَصا
مسائلاً عن لياليه التي انتهزتْ أيدي الأماني بها ما شئته فُرَصا
وكنتُ جاريتُ فيه من جرى طَلَقاً من الإجادةِ لم يجمح ولا نكصا
أصابَ شاكلةَ المرميِّ حين رمى من الشواردِ ما لولاهُ ما اقتنصا
ومن أعدَّ مكان النَّبلِ نبلَ حجًى لم يرضَ إلاّ بأبكارِ النُّهى قَنَصا
ثمّ انثنى ثانياً عِطفَ النسيبِ إلى مدحٍ به قد غلا ما كان قد رخصا
فظلتُ أرفلُ فيها لبسةً شرفتْ ذاتاً ومنتسباً أعززْ بها قُمُصا
يقولُ فيها وقد خوّلت منحتها وجُرّع الكاشح المغرى بها غُصصا
هذي عقائلُ وافتْ منكَ ذا شرفٍ لولا أياديه بيعَ الحمدُ مرتخصا
فقلتُ هلاّ عكستَ القولَ منك له ولم يكنْ قابلاً في مدحه الرُّخَصا
وقلتَ ذي بكرُ فكرٍ من أخي شرفٍ يردي ويرضي بها الحساد والخلصا
لهـا حُلًى حسنيّاتٌ على حللٍ حُسنيّةٍ تستبي من حلَّ أو شخصا
خوّلتها وقد اعتزّتْ ملابسهـا بالبختِ ينقادُ للإنسان ما عوصا
خذها أبا قاسمٍ مني نتيجةَ ذي ودٍّ إذا شئتَ ودّاً للورى خلصا
جاءتْ تجاوبُ عمّا قد بعثتَ به إن كنتَ تأخذ من درّ النحورِ حصى

وهي طويلة .

ومما ينسب إليه :

ما للنوى مدّتْ لغير ضرورة ولقبل ما عهدي بها مقصورَهْ
إنَّ الخليلَ وإن دعته ضرورةٌ لم يرض ذاك فكيف دونَ ضرورهْ

وقال مضمناً للثاني :

لا تلمني عاذلي[1] حين ترى وجهَ من أهوى فلومي مستحيلْ

[1] الإحاطة : خلني يا عاذلي .

لو رأى وجْهَ حبيبي عاذلي لتِفارقنـا على وجهٍ جميلْ

وأجاب الشريف المذكور عن قصيدة مهموزة بقوله :

يا أوحد الأدباء أو يا أوحد الـ ـفضلاء أو يـا أوحدَ الشرفاء
من ذا تراه أحقَّ منكَ إذا التوتْ طرقُ الحِجاجِ بأن يجيب ندائي
أدبٌ أرقُّ من الهواء وإن تشا فمنَ الهوا والماء والصهباء
وألذُّ من ظَلْمِ الحبيبِ وظُلمه بالظاء مفتوحاً وضمّ الظاء
ما السحرُ إلاّ ما تصوغُ بنانُهُ ولسانُهُ مـن حلْيَةِ الإنشاء

وهي طويلة يقول فيها بعد جملة أبيات :

لله نفثةُ سحرٍ ما قد شِدْتَ لي من نفثِ سحركَ في مشادِ ثناء
عارضتَ صفواناً بها فأريت[1] ما يستعظمُ الراوي لها والرائي
لو راء لؤلؤك المنظمَ لم يفزْ من نظمِ لؤلؤه بغيرِ عَناء
بوّأتني منهـا أجلَّ مبوّإ فلأخمصي مستوطىء الجوزاء
وسما بها اسمي سائراً فأنا بما أسديتَ ذو الأسماء في الأسماء
وأشدتَ ذكري في البلاد فلي بها طولُ الثناء وإنْ أطلتَ ثوائي
ولقوميَ الفخرُ المشيدُ بنيتَهُ يا حُسْنَ تشييدٍ وحُسْنَ بناء
فليهن هانيهم[2] يدٌ بيضاءُ ما إنْ مثلُها لك من يدٍ بيضاء
حلّيْتَ أبياتاً له لحميّـةٌ تُجلـى على مضريّـةٍ غرّاء
فليشمخوا أنفاً بمـا أوليتهمْ يـا محرزَ الآلاء بـالإيـلاء

ووصلها بنثر نصه : « هذا بُنيَّ – وصل الله سبحانه لك ولي بك علو المقدار ،

---

[1] ق : فأرتك .
[2] : فلتهنها بهم .

وأجرى وفق إرادتك وإرادتي لك جاريات الأقدار – ما سَنَحَ به الذهن الكليل ، واللسان الفليل ، في مراجعة قصيدتك الغرّاء ، الجالبة السرّاء ، الآخذة بمجامع القلوب ، الموفية بجوامع المطلوب ، الحسنة المَهْيَع والأسلوب ، المتحلية بالحلى السنية ، العريقة المنتسب في العلا الحسنية ، الجالية لصدإ القلوب ران عليها الكَسل، وخانها المسعدان السؤل والأمل ، فمتى حامت المعاني حولها ، ولو أقامت حولها ، شكت ويلها وعَوْلها ، وحرمت من فريضة الفضيلة عَوْلها ، وعهدي بها والزمان زمان ، وأحكامها الماضية أماني مقضية وأمان ، تتوارد ألافها ، ويجمع إجماعها وخلافها ، ويساعدها من الألفاظ كل سهل ممتنع ، مفترق مجتمع ، مستأنس غريب ، بعيد الغور قريب ، فاضح الحُلى ، واضح العلا ، وضاح الغرة والجبين، رافع عمود الصبح المبين ، أيد من الفصاحة بأيادٍ ، فلم يحفل بصاحبي طيىء وإياد ، وكسي [1] نصاعة البلاغة ، فلم يعبأ بهمّام وابن المراغة ، شفاء المحزون ، وعلم سر المخزون ، ما بين منثوره والموزون ، والآن لا ملهج ولا مبهج ، ولا مرشد ولا منهج ، عكست القضايا فلم تُنْتج ، فتبلّد القلب الذكي ، ولم يرشح القلم الزكي ، وعم الإفحام وغم الإحجام ، وتمكن الإكداء والإجبال ، وكورت الشمس وسيرت الجبال ، وعلت سآمة ، وغلبت ندامة ، وارتفعت ملامة ، وقامت لنوعي الأدب قيامة ، حتى إذا ورد ذلك المُهْرَق ، وفرّع غصنه المورق ، وتغنى به الحمام الأورق ، وأحاط بعداد عداته الغصص والشّرَق ، وأمن من ذلك الغصب والسَّرَق ، وأقبل الأمن وذهب لإقباله الفَرَق ، نفخ في صُور أهل المنظوم والمنثور ، وبُعثر ما في القبور وحُصّل ما في الصدور ، وتراءت للأدب صور ، وعمرت للبلاغة كور ، وهَمَتْ لليراعة دِرَر ، ونظمت البراعة درَر ، وعندها تبين أنك واحد حلبة البيان ، والسابق في ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القَدَم ،وأقر لك مع التأخر السابق الأقدم ، فوحقّ نصاعة ألفاظ أجدّتها حين أوردتها ، وأسلتها

---

[1] ق : ونسي .

حين أرسلتها ، وأزنتها حين وزنتها ، وبراعة معان سلكتها حين ملكتها ، وأرويتها حين رَوَّيتها أو روَّيتها[1] ، وأصلتها حين فصلتها أو وصلتها ، ونظام جعلته بجسد البيان قَلباً ، ولمعصمه قُلباً ، وهصرت حدائقه غُلباً ، وارتكبت رويَّه صعباً[2] ، ونثار أتبعته له خديماً ، وصيرته لمدير كأسه نديماً ، ولحفظه ذِمامه المُدامي أو مُدامه الذمامي مديماً ، لقد فتنتني حين أتتني ، وسَبَتني حين اطَّبتني ، فذهبت خفتها بوقاري ، ولم يرعها بعدُ شيب عذاري ، بل دعت للتصابي فقلت مرحبا ، وحللتُ لفتنتها الحُبا ، ولم أحفل بشيب ، وألفيت ما ردَّ تصابي نصيب[3] ، وإن كنّا فرسيْ رهانٍ ، وسابقيْ حلبة ميدان ، غير أن الجلدة بيضاء ، والمرجوّ الإغضاء بل الإرضاء . بُنَيَّ كيف رأيتَ للبيان هذا الطوع ، والخروج فيه من نوع إلى نوع ؟ أين صفوان بن إدريس ، ومحل دعواه بين رحلة وتعريس ؟ كم بين ثغاء بقر الفلاة وبين الليث ذي الفريس ؟ كما أني أعلم قطعاً وأقطع علماً ، وأحكم مضاء وأمضي حكماً ، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائقة ، وفريدتك الحالية الفائقة ، المعارضة بها قصيدته ، المنتسخة بها فريدته ، لذهب عرضاً وطولا ، ثمّ اعتقد لك اليد الطولى ، وأقر فارتفع النزاع ، وذهبت له تلك العلاقات والأطماع ، ونسي كلمته اللؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأدبية ، واستغفر ربه من تلك الأليّة . بُنَيَّ وهذا من ذلك الجري في تلك المسالك ، والتبسط في تلك المآخذ والمتارك ، أينزع غيري هذا المنزع ؟ أم المرء بنفسه وابنه مولَع ؟ حيّا الله الأدب وبنيه ، وأعاد علينا من أيامه وسِنيه ، ما أعلى منازعه ، وأكبى مُنازعه ، وأجلَّ مآخذه ، وأجهل تاركه وأعلم آخذه ، وأرقّ طباعه ، وأحق أشياعه وأتباعه ، وأبعد طريقه ، وأسعد فريقه ، وأقْوَمَ نهجه ، وأوثق نَسْجَه ، وأسمح ألفاظه ، وأفصح عُكاظه ، وأصدق معانيه وألفاظه ، وأحمد نظامه ونثاره ،

١ حين . . . رويتها : سقطت من ق .
٢ أشار إلى صعوبة القافية ، وإن كانت همزية ، وهي غير صعبة .
٣ يشير إلى قول نصيب (الأغاني ١٦ : ١٠٩) :
ولولا أن يقال صبا نصيب   لقلت بنفسي النشء الصغار

وأغنى شعاره ودثاره ، فعائبه مطرود ، وعاتبه مصفود ، وجاهله محصود ، وعالمه محسود ، غير أن الإحسان فيه قليل ، ولطريق الإصابة فيه علم ودليل ، مَن ظفر بهما وصلَ ، وعلى الغاية القصوى منه حصل ، ومن نكب عن الطريق[1] ، لم يُعَدَّ من ذلك الفريق ، فلْيَهْنِكَ أيها الابن الذكي ، البرُّ الزكي ، الحبيب الحفي ، الصفيّ الوفيّ ، أنك حاملُ رايته ، وواصل غايته ، ليس أولوه وآخروه لذلك بمنكرين ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ، ولولا أن يطول الكتاب ، وينحرف الشعراء والكتّاب ، لفاضت ينابيع هذا الفضل فيضاً ، وخرجت إلى نوع آخر من البلاغة أيضاً ، قَرَّت عيونُ أوِدّائك ، وملئت غيظاً صدور أعدائك ، ورقِيت درج الآمال ، ووقيت عين الكمال ، وحفظ منصبك العالي ، بفضل ربك الكبير المتعالي ، والسلام الأتم الأكمل الأعم ، يخصك به من طال في مدحه إرقالك وإغذاذك ، وراد روض حمدك وابلك وطَلُّك ورذاذك ، وغدت مصالح سعيه في سعي مصالحك ، وسينفعك بحول الله وقوته وفضله ومنته مُعاذك ، ووسمت نفسك بتلميذه فسمت نفسه بأنه أُستاذك ، ابن هانىء ، ورحمة الله تعالى وبركاته » .

وكانت وفاته شهادة في أواخر ذي القعدة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، ورثاه شيخنا أبو القاسم الحسني بقصيدة أُثبتت في اسمه منها :

سقى الله بالخضراء أشلاء سؤددٍ تضمنهنَّ التربُ صوبَ الغمائم

ورثاه شيخنا أبو بكر ابن شبرين فقال :

قد كان ما قال البريدُ فاصبرْ فحزنكَ لا يفيدُ
أودى ابن هانىء الرّضى فـاعتادني للثّكْلِ عيدُ
بحرُ العلومِ وصدرهـا وعميدُها إذْ لا عَميدُ

[1] ق : طريق .

قد كانَ زينـاً للوجو د ِ ففيه قد فُجِعَ الوجودُ
العِلْمُ والتّحقيقُ والتّـ وفيقُ والحسَبُ التّليدُ
تَنْدى خلائقُـهُ فقلْ فيها هي الروضُ المجودُ
مُغضٍ عن الإخوانِ لا جَهمُ اللقاءِ ولا كَنودُ
أودى شَهيداً باذلاً مجهودَهُ ، نِعمَ الشهيدُ
لمْ أنسَـهُ حينَ المعـا رفُ باسمه فينا تُشيدُ
ولهُ صبوبٌ في طـلا بِ العلمِ يتلوهُ صعودُ
للهِ وقتٌ كـان ينـ ظمنا كما نُظِمَ الفريدُ
أيامَ نَغْـدو أو نرو حُ وسَعْيُنا السعيُ الحميدُ
وإذا المشيخـةُ جُثّمٌ هضباتُ حلمٍ لا تميدُ
ومرادنـا جَمٌّ النبـا تِ وعيشنا خَضِرٌ بَرودُ
لهفي على الإخوانِ والـ أترابِ كلهم فقيدُ
لو جئتُ أوطاني لأنْـ كرني التّهائم والنُّجودُ
ولراعَ نفسي شيبُ مَنْ غـادرتهُ وهو الوليدُ
ولطُفتُ ما بينَ اللحو دِ وقد تكاثرتِ اللحودُ
سرعانَ ما عاثَ الحِما مُ ونحنُ أيقاظٌ هجودُ
كمْ رُمْتُ إعمالَ المَسيـ رِ فقيّدتْ عزمي قيودُ
والآنَ أخلفـتِ الوعو دُ ، وأخلقتْ تلك البرودُ
مـا للفتى مـا يبتغي فالله يفعَلُ مـا يريدُ
أعَلى القديمِ الملكِ يا ويلاهُ يَعْتَرِضُ العَبيدُ ؟
يا بينُ قد طالَ المدى أبرقْ وأرعدْ يا يزيدُ[1]

[1] أخذه من قول الكميت :
أرعد وأبرق يا يزيـ ـد فما وعيدك لي بضائر

ولكلِّ شيءٍ غـايةٌ ولربما لانَ الحديـدُ
إيـه أبا عبدِ الإله ودوننا مرمًى بعيدُ
أينَ الرسائلُ منكَ تأ تينا كما نُسِقَ العقودُ
أينَ الرسومُ الصالحا تُ؟ تصرَّمت أين العهودُ[1]
أنعمْ مساءً لا تخطّيـ لكَ البشائرُ والسعودُ
وأقدِمْ على دارِ الرضى حيثُ الإقامةُ والخلودُ
والقَ الأحبّةَ حيث دا رُ الملكِ والقصرُ المشيدُ
حتى الشهادةُ لم تَفتْـ لكَ فنجمك النجم السعيدُ
لا تبعدنْ وعْداً لو انَّ الـبـدء في الدنيـا يعودُ
فلئن بليتَ فإنَّ ذكـ ركَ في الدُّنا غَضٌّ جديدُ
تالله لا تنسـاكَ أنـ ديةُ العلا ما اخضرَّ عودُ
وإذا تسومحَ في الحقو قِ فحقُّك الحقُّ الأكيدُ
جادتْ صَداكَ غمامةٌ يرمي بها ذاكَ الصعيدُ
وتعهدتْكَ مِنَ المهيْـ منِ رحمة أبداً وجُودُ

وقوله أول هذه الرسالة «عارضت صفوان بها، إلى آخره» يعني بذلك همزية صفوان بن إدريس المشهورة بين أدباء المغرب، ولنذكرها إفادة للغرض، وهي:

جادَ الرُّبى من بانةِ الجرعـاءِ نَوْءانِ من دمعي وغيم سماءِ
فالدمعُ يقضي عندها حقَّ الهوى والغيمُ حقَّ البـانةِ الغنّاءِ
خلتِ الصدورُ من القلوبِ كما خلتْ تلكَ المقاصرُ من مهاً وظباءِ
ولقد أقولُ لصاحبيَّ وإنمـا ذُخِرَ الصديقُ لآكد الأشياءِ
يا صاحبيَّ ولا أقلَّ إذا أنا ناديتُ من أن تُصغيا لندائي

[1] ق: العقود.

عوجا بمجاري الغيثَ في سَقْيِ الحمى ... حتّى يُرى كيفَ انسكابُ الماء
ونَسُنُّ في سَقْيِ المنازلِ سنّة ... نُمضي بها حكماً على الظرفاء
يا منزلاً نشطتْ إليهِ عَبرتي ... حتّى تبَسَّمَ زهرهُ لبكائي
ما كنتُ قبلَ مزارِ ربعكَ عالماً ... أنَّ المدامعَ أصدقُ الأنواء
يا ليتَ شعري ، والزمانُ تنقُّلٌ ... والدَّهرُ ناسخُ شدة برخاء
هل نَلتقي في روضة مَوْشيّة ... خفّاقةِ الأغصانِ و الأفياء
وننالُ فيها من تألُّفنا ولو ... ما فيهِ سخنةُ أعينِ الرُّقباء
في حيث أتلعتِ الغصونُ سوالفاً ... قد قُلِّدَتْ بلآلىء الأنداء
وبدتْ ثغورُ الياسمين فقبّلتْ ... عنّي عذارَ الآسةِ الميساء
والوردُ في شطّ الخليجِ كأنّهُ ... رمَدٌ ألمَّ بمقْلَةِ زرقاء
وكأنَّ غَضَّ الزهرِ في خضرِ الرُّبى ... زُهرُ النجومِ تلوحُ بالخضراء
وكأنّما جاء النسيمُ مبشّراً ... للروضِ يخبره بطول بقاء
فكساهُ خِلعَةَ طيبهِ ورمى له ... بدراهمِ الأزهارِ رَمْيَ سخاء
وكأنّما احتقر الصنيعَ فبادرتْ ... للعُذْرِ عنهُ نَغْمَةُ الوَرقاء
والغصنُ يرقصُ في حلى أوراقهِ ... كالخودِ في موشيّةٍ خضراء
وافترّ ثغرُ الأقحوانِ بما رأى ... طرباً وقهقه منه جَريُ الماء
أفديهِ من أُنسٍ تصرَّمَ فانقضى ... فكأنّهُ قد كان في الإغفاء
لم يبقَ منهُ غيرُ ذكرى أو منًى ... وكلاهما سببٌ لطول عناء
أو رقعة من صاحبٍ هي تحفةٌ ... إنَّ الرقاعَ لتحفةُ النبهاء
كبطاقة الوشقيِّ إذ حيّا بها ... إنَّ الكتابَ تحيّة الخلطاء
ما كنتُ أدري قبلَ فضِّ ختامها ... أنَّ البطائقَ أكؤسُ الصَّهباء
حتّى ثنيتُ معاطفي طرباً بها ... وجررْتُ أذيالي من الخُيَلاء
فجعلتُ ذاكَ الطِّرْسَ كأسَ مُدامة ... وجعلتُ مهديهِ من النّدماء
وعجبتُ من خلٍّ يعاطي خلّهُ ... كأساً وراء البحرِ والبيداء

ورأيتُ رونقَ خطِّها في حُسنها كالوشي نمّقَ معصم الحسناء
فوحقّهـــا من تسعِ آياتٍ لقد جاءت بتأييدي عـــلى أعدائي
فكأنني موسى بهـا ، وكأنهـا تفسيرُ مـا في سورةِ الإسراء
لو جاء فكرُ ابنِ الحسينِ بمثلها صحّتْ نبوّتُهُ لدى الشعراء
سوداءُ إذْ أبصرتهـا لكنها كم تحتهـا لك من يدٍ بيضاء
ولقد رأيتُ وقد تأوّبني الكرَى في حيثُ شابتْ لمّةُ الظّلْماء
أنّ السّماءَ أتى إليّ رسولهـا بهديّةٍ ضاءتْ بهـا أرجائي
بالفرقـدينِ وبالثريّا أدرجـا في الطيّ من كافورةٍ بيضاء
فكفى بذاكَ الطِّرسِ من كافورةٍ وبنظمِ شعركَ من نجومِ سماء
قَسَماً بها وبنظمهـا وبنثرهـا لقد انتحتني ملءَ عين رجـائي
وعلمتُ أنكَ أنتَ في إبداعها لفظـاً وخطّاً معجزُ النبلاء
لا ما تعاطتْ بابلٌ من سحرها لا ما ادعاهُ الوشيُ من صنعاء
ولقد رميتُ لها القيادَ وإنهـا لقضيّةٌ أعيَتْ على البلغـاء
وطلبتُ من فكري الجوابَ فعقّني وكبا بكفّ الذّهْنِ زَنْدُ ذكائي
فلذا تركتُ عَروضها ورويهـا وهجرتُ فيهـا سُنّةَ الأدباء
وبَعَثْتهـا ألفيّـةً همزيّـةً خدعـاً لفكرٍ جامعٍ إيبائي
علمتْ بقدركَ في المعارف فانبرتْ من خجلةٍ تمشي على استحياء

انتهت القصيدة ، ومن خط ناظمها صفوان نقلتها .

رجع :

٥٩ ــ وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في ترجمة أبي محمد عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي في « التاج » ما صورته : طويل القوادم والخوافي ، كَلِفَ على كبر سنه بعقائل القوافي ، شاب في الأدب وشبَّ ، ونشق ريح البيان لما هَبَّ ، فحاول رقيقه وجَزْلَه ، وأجاد جدّه وأحكم هزله ، فإن مدح ،

صدح ، وإن وصف ، أنصف ، وإن عصف ، قصف ، وإن أنشأ ودوّن ، وتقلب في أفانين البلاغة وتلوّن ، أفسد ما شاء الله وكوّن ، فهو شيخ الطريقة الأدبية وفتّاها ، وخطيب حفلها كلّما أتاها ، لا يتوقف عليه من أغراضها غرض ، ولا يضيع لديه منها مفترض ، ولم تزل بُروقه تتألّق ، ومعانيه بأذيال الإحسان تتعلّق ، حتى برّز في أبطال الكلام وفرسانه ، وذُعرت القلوب بسطوة لسانه ، وألقت إليه الصناعة زمامَها ، ووقفت عليه أحكامها ، وعبر البحرَ منتجعاً بشعره ، ومنفقاً في سوق الكساد من سعره ، فأبرق وأرعد ، وحذّر وأوعد ، وبلغ جهد إمكانه ، في التعريف بمكانه ، فما حرك ولا هزّ ، وذل في طلب الرفد وقد عزّ ، وما برح أن رجع إلى وطنه الذي اعتاده ، رجوع الحديث إلى قتاده ، وقد أثبت من نزعاته ، وبعض مخترعاته ، ما يدل على سعَة باعه ، ونهضة ذراعه ، فمن النسيب قولُه :

ما للمحبِّ دواء يُذْهِبُ الألما — عنه سوى لمم فيه ارتشافُ لمى
ولا يردّ عليه نومَ مقلته — إلاّ الدنوّ إلى مَنْ شفّه سقما
يا حـاكماً والهوى فينا يؤيّدهُ — هواكَ فيَّ بما ترضاهُ قد حكما

ثمّ سردها . وقال في المديح :

إليكَ جدَّ بيَ التّسيارُ تأميلا — فلي على فضلكَ المأمولِ تعويلا
الحمدُ لله حمداً لا كفاءَ لهُ — بسَعْدِ أيامكَ المأمولُ قد نيلا
يا راغباً مرتجاهُ دفعُ معضلَةٍ — فصبره بصروفِ الدّهرِ قد عيلا
ألمْ بحضرةِ ملْكٍ كلُّ مفتخرٍ — بالملك يوليهِ بالتعظيمِ ترسيلا
فرع من الدوحة النصرية اجتمعتْ — فيه الفضائلُ تتميماً وتكميلا
لديهِ ممّا لدى الصدّيق تسميةٌ — وميسَمٌ وكفاهَ ذاكَ تفضيلا

وهي طويلة ؛ انتهى .

٦٠ — وقال لسان الدين في « الإكليل » في ترجمة أبي الحسن علي بن إبراهيم ابن علي بن خطاب السكاك من أهل غرناطة ، ما صورته : متسوّر على بيوت القريض ، في الطويل من الكلام والعريض ، ممّن أطاعته براعة الخط ، وسلّمت لأقلامه رماحُ الخطّ ، عانى كتابة الشروط لأول أمره ، ثمّ ألظّتْ به محنتُه على توفّر خصاله ، ونُبل خلاله ، وهو الآن من كتّاب ديوان الحساب ، يتعلّل من الأمور المخزنية ببعض الألقاب ؛ انتهى .

٦١ — وقال في « التاج » في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الحق ابن الصباغ العقيلي الغرناطي [1] ما صورته : اللّسِن العارف ، الناقد لجواهر المعاني كما يفعل بالسكة الصيارف ، والأديب المجيد ، الذي تحلّى به للعصر النحرُ والجيد ، إن أجال جياد براعته فضح فرسان المهارق ، وأخجل بين بياض طِرسه وسواد نِقْسه الطُّرَرَ تحت المفارق ، وإن جلا أبكار أفكاره ، وأثار طير البيان من أوكاره ، سلب الرحيقَ المقدَّم فضلَ إسكاره ، إلى نفس لا يفارقها ظرف ، وهمة لا يرتد إليها طرف ، وإبانة لا يُفَلُّ لها غَرْب ولا حرف ، وله أدب غض ، زهرهُ على مجتنيه منفض ، كتبت إليه أستنجز وعده في الإتحاف برائقه ، والإمتاع بزهر حدائقه ، قولي :

عندي لموعدكَ افتقارٌ محرجٌ   وعهودكَ افتقرتْ إلى إنجازهـا
والله يعلـم فيكَ صدْقَ مودتي   وحقيقةُ الأشياء غيرُ مجـازها

فأجابني بقوله :

يا مُهديَ الدرِّ الثمينِ منظّماً   كلِماً حلالُ السحرِ في ايجازها
أدركتَ حلْباتِ الأوائل وانيـاً   ورددتَ أُولاها على أعجازها

[1] انظر ترجمته أيضاً في الكتيبة : ٢٢٨

أحرزْتَ في المضمارِ خَصل سباقها ولأنتَ أسبقهم إلى إحرازها
حلّيْتَ بالسمطَيْنِ منّي عاطلاً وبعثتَ من فكري فتـاة مفازها
فلأنجزنّ مواعدي مستعطفـاً فاسمحْ ، وبالإغضاء منك فجازها

وقال في « الإحاطة » في حق المذكور : إنه من أهل الفضل والسراوة والرجولة والجزالة ، فذٌّ في الكفاية ، ظاهر السذاجة والسلامة ، مُصعَبٌ لأضداده ، شديد العصبية لأولي وداده ، يشتمل على خلال من خط بارع وكتابة حسنة وشعر جيد ومشاركة في فقه وأدب ووثيقة ومحاضرة ممتعة ، ناب عن بعض القضاة وكتب الشروط ، وارتسم في ديوان الجند ، وكتب عن شيخ الغزاة أبي زكريا يحيى بن عمر على عهده ، ثمّ انصرف إلى العُدوة سابع عشر جمادى الأولى من عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، فارتسم في الكتابة السلطانية منوّهاً به مستعملاً في خدم مجدية بان غَنَاؤه فيها وظفرت كفايته ؛ انتهى .

وقد وصفه بصاحبنا ، ثمّ قال : ومن شعر المذكور قوله :

ليتَ شعري ، والهوى أملٌ وأماني الصبِّ لا تقفُ
هلْ لذاكَ الوصلِ مرتجَعٌ أو لهذا الهجرِ منصَرَفُ ؟

وقال :

وظبي سبى بالطّرفِ والعِطفِ والجَيَدْ [1] وما حاز من غُنجٍ ولينٍ ومن غيَدْ
أشرْتُ إليهِ بالدّنوّ مداعبـاً فقال : أيدنو الظبيُ من غابةِ الأسدْ ؟

وقال في مبدإ قصيدة مطولة :

حديثُ المغاني بعدهنّ شجونُ [2] وأوجُـهُ أيامِ التباعدِ جُونُ

١ الكتيبة : زها بالطرف . . . والطلا .
٢ ق : شؤون .

لحا اللهُ أيامَ الفراقِ فكم شجَتْ ... وغادرتِ الجذلانَ وهو حزينُ
وحيّا دياراً في رُبى أغرناطة ... وإني بذاكَ القربِ منكَ ضنينُ
لأرخصتُ فيها من شبابيَ ما غلا ... وعزمي على مالِ العفافِ أمينُ
خليليَّ – لا أمرٌ – بأربُعها قِفا ... فعندي إلى تلكَ الربوعِ حنينُ
ألم ترياني كلّما ذرَّ شارقٌ ... تضاعفُ عندي عبرةٌ وأنينُ
إذا لم يساعدني أخٌ منكما فلا ... حَدَتْ لخؤون بعدَ ذاكَ أمُونُ
أليسَ عجيباً في البريّةِ مَنْ له ... إلى عهدِ إخوانِ الزمانِ ركونُ
فلا تثقنْ من ذي وفاء بعهدهِ ... فقد أجِنَ السّلسال وهو مَعينُ
لقلبيَ عذرٌ في فراقِ ضلوعه ... وللدمع في تركِ الشؤون شؤونُ
ومن تركَ الحزمَ المعينَ فإنّهُ ... لَعانٍ بأيدي الحادثاتِ رهينُ
رعى الله أيامي الوثيقَ ذمامُها ... فإنَّ مكاني في الوفاء مكينُ
ولم أرَ مثلَ الدهرِ أمّا عدوّه ... فحِبٌّ[1] ، وأمّا خلّهُ فخؤونُ
ولولا أبو عمرو وجودُ بنانهِ ... لما كان في هذا الزمانِ مُعينُ

وقال :

زار الخيالُ ويا لها من لذّة ... لكنّ لَذّاتِ الخيالِ مَنامُ
ما زلتُ ألثمُ مَتبسماً منظومهُ ... درٌّ ومَورده الشهيُّ مُدامُ
وأضمّ غصنَ البانِ من أعطافهِ ... وأشمُّ مسكاً فُضَّ عنهُ ختامُ

مولده عام ستة وسبعمائة ، وتوفي بفاس ، وقد تخلفه السلطان كاتب ولده عند توجهه لإفريقية في العشرين من رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة ، رحمه الله تعالى .

١ ق : فخب .

وقد وهم لسان الدين في شهر وفاة المذكور ، وإنما الصواب أنه توفي يوم الأحد ثامن شوّال ، فاعلم ذلك ، والله سبحانه أعلم .

رجع :

٦٢ – وقال في « التاج المحلّى في مساجلة القِدح المعلّى » وفي « الإكليل الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر » وغيرهما ممّا ثبت في حلى رؤساء الكتّاب ، وحاملي ألوية الآداب ، في ترجمة شيخه ابن الجياب[1] ، ما نصه : « صدر الصدور الجلّة ، وعَلَم أعلام هذه الملّة ، وشيخ الكتابة وبانيها ، وهاصرُ أفنان البدائع وجانيها ، اعتمدته الرياسة فناءً بها على حبل ذراعه ، واستعانت به السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شباة يراعه ، فتفيأ للعناية ظلاً ظليلاً ، وتعاقبت الدول[2] فلم ترَ به بديلاً ، من نَدْب على علوّه متواضع ، وحبر لثدي المعارف راضع ، لا تمرُّ مذاكرة[3] في فن إلاّ وله فيه التبريز ، ولا تُعرض جواهر الكلام على محكات الأفهام إلاّ وكلامُه الإبريز ، حتى أصبح الدهر راوياً لإحسانه وناطقاً بلسانه ، وغرّب ذكره وشرّق ، وأشأم وأعرق ، وتجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق ، إلى نفس هذبت الآداب شمائلها ، وجادت الرياضة خمائلها ، ومراقبة لربه ، واستنشاق لرَوْح الله من مَهَبِّه ، ودين لا يُعجم عوده ، ولا تخلف وعوده ، وكل ما ظهر علينا معشر بنيه من شارة تجلى بها العين ، أو إشارة كما سبكَ اللُّجيَن ، فهي إليه منسوبة ، وفي حسناته محسوبة ، فإنما هي أنفسٌ راضها بآدابه ، وأعلقها بأهدابه ، وهذب طباعها ، كالشمس تلقي على النجوم شعاعها ، والصور الجميلة ، تترك في الأجسام الصقيلة انطباعها ، وما عسى أن أقول

---

١ انظر المجلد ٥ : ٤٣٤ .

٢ الكتيبة : دول العدل .

٣ الكتيبة : لا يمر الكلام .

في إمام الأئمّة ، ونور الدياجي المُدْلهمّة ، والمثل السائر في بُعد الصيت وعلوّ الهمّة ، وقد أثبتُّ من عيون قصائده ، وأدبه الذي علق الإحسان في مصايده ، كلّ وثيق المغنى ، كريم المجنى جامع بين حصافة اللفظ ولطافة المعنى ؛ انتهى . والمذكور له ترجمة في هذا الكتاب في باب مشيخة لسان الدين فلْيُراجَع .

٦٣ – وقال في « الإكليل » في حق عمر بن علي بن غفرون الكلبي من أهل منتفريد[١] ما صورته : شيخ خدم ، قام له الدهر فيها على قدَم ، وصاحب تعريض ، ودهاء عريض ، وفائز من الدول النّصرية بأيادٍ بيض ، أصلُه من حصن منتفريد ، خدم به الدولة النصرية عند انتزاء أهله ، وكان ممّن استنزلهم من حَزْنه إلى سهله ، وحكم الأمر الغالبي في يافعه وكَهله ، فكسب حظوة أرضتْه ، ووسيلة أرهفته وأمضته ، حتّى عظم جاهه وماله ، وبسقَتْ آماله ، ثمّ دالت الدول ، وتنكرت أيامه الأول ، وتغلب من يجانسه ، وشقي بمن كان ينافسه ، فجفّ عوده ، والتاثت سعوده ، وهلك والخمولُ يُظلّه ، والدهر يقوته من صُبابة حرث كان يستغلّه ، وله شعر لم يتقنه النظر ، ولا وضحت منه الغرر ، توفي في ذي الحجة عام أربعة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى

٦٤ – وقال في « الإكليل » في حق قاسم بن محمد بن الجد الفهري المري ما صورته : هو من أئمة أهل الزمام ، خليق برَعْي الذمام ، ذو حظ كما تفتح زهر الكمام ، وأخلاق أعذب من ماء الغمام ، كان ببلده حاسباً ، ودُرّاً في لجّة الإغفال راسباً ، صحيح العمل ، يُلبس الطروس من براعته أسنى الحلل ، قال يمدح السلطان :

أرى أوجُهَ الأيامِ قد أشرقتْ بِشرا ... فقلْ لي رعاكَ الله ما هذه البشرى
وما بال أنفاسِ الخزامى تعطرتْ ... فأرّجتِ الأرجاءَ من نفحها عطرا

١ ق : منتقرير ؛ ومنتفريد (Montefrio) تقع شمال مدينة لوشة واسمها القديم (Mons Frigidus) .

ونقّبَتِ الشمسُ المنيرةُ وجهَها   قصوراً عن الوجه الذي أخجل البدرا

وهي طويلة ، توفي المذكور عام خمسين وسبعمائة بالطاعون .

٦٥ — وقال في « الإكليل » في حق أبي عثمان سعيد الغساني ما صورته : هو ممّن يتشوّق إلى المعرفة والمقالات ، ويتسق إلى الحقائق والمُحالات ، ويشتمل على نفس رقيقة ، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويعاني من الشعر ما يشهد بنُبْله ، ويُستظرف من مثله ؛ انتهى .

٦٦ — وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي الحجاج يوسف بن علي الطرطوشي[١] ما صورته : روض أدب لا تعرف الذواء أزهارُه ، ومجموع فضل لا تخفى آثاره ، كان في فنون الأدب مُطلَق الأعنّة ، وفي معاركه ماضي الظُّبي والأسنّة ، فإن هزل ، وإلى تلك الطريقة اعتزل ، أبرم من الغزل ما غزل ، وبزل من دنان راحه ما بزل ، وإن صرف إلى المغرب غَرْب لسانه ، وأعاره لمحة من إحسانه ، أطاعه عاصيه ، واستجمعت لديه أقاصيه ، وَرَدَ على الحضرة الأندلسية والدنيا شابة ، وريح القبول هابّة ، فاجتلى محاسن أوطانها ، وكتب عن سلطانها ، ثمّ كرَّ إلى أوطانه وعطف ، وأسرع اللحاق كالبارق إذا خطف ، وتوفي عن سنّ عالية ، وبرود من العمر غالية .

٦٧ — وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن المتأهل العذري من أهل وادي آش ما صورته[٢] : رجل غليظ الحاشية ، معدود في جنس السائمة والماشية ، تليت على العمال به سورة الغاشية ، ولِيّ الأشغال السلطانية فذعرت الجباة لولايته ، وأيقنوا بقيام قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل القنوط ، وقالوا : جاءت الدابة تكلمنا وهي إحدى الشروط ، من رجل صائم الحُشوة ، بعيد عن المصانعة والرشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند المخالطة لهم : لا مساس ، عهدي

١ ترجمته في الدرر ٥ : ٢٤٢ وفيه : مات بعد ٧٤٠ .
٢ قد مرت هذه الفقرة (رقم : ٢٦) .

به في الأعمال يخبط ويتبّر ، وهو يهلّل ويكبّر ، ويحسّن ويقبّح ، وهو يسبّح ، وقال يخاطب بعض أمراء الدولة :

ألا انْعَمْ بما ترضاهُ للمتأهلِ ... عمادي، ملاذي، موئلي، ومؤمّلي
على نحو ما يرضيك يا ذا التفضلِ ... وحقّقْ بنيلِ القصدِ منكَ رجاءهُ
بخيرِ زمانٍ فيهِ لا زلتَ تعْتلي ... فأنت الذي في العلمِ يُعرف قدرُهُ
تقرُّ لكمْ بالسبقِ في كلِّ محفلِ ... فَهُنِّيتَ يا معنى الكمالِ برتْبَةٍ

توفي عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

وتذكرت بقوله «ويحسن ويقبح ، وهو يسبح» قولَ الآخر :

ظلم الناس وسبّحْ ... قد بُلينا بأميرٍ
يذكرُ الله ويذبحْ ... فهو كالجزارِ فيهم

رجع :

٦٨ — وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله ابن باق[١] من «التاج» ما صورته : مدير أكؤس البيان المعتّق ، ولَعوب بأطراف الكلام المشقّق ، انتحل لأول أمره الهزل من أصنافه ، فأبرز درَّ معانيه من أصدافه ، وجنى ثمرة الإبداع لحين قِطافه ، ثمّ تجاوزه إلى المغرب وتخطّاه ، فأدار كأسه المُتْرَعَ وعاطاه ، فأصبح لفنيه جامعاً ، وفي فلكيه شهاباً لامعاً ، وله ذكاء يطير شرره ، وإدراك تتبلج غُرره ، وذهن يكشف الغوامض ، ويسبق البارق الوامض ، وعلى ذلاقة لسانه ، وانفساح أمد إحسانه ، فشديد الصبابة بشعره ، مُغْلٍ لسعره ؛ انتهى .

والمذكور هو محمد بن إبراهيم بن علي باق الأموي ، مرسي الأصل ، غرناطي النشأة ، مالقي الاستيطان .

وقال في «عائد الصلة» : كان رحمه الله تعالى كاتباً أديباً ذكياً لوذعياً يجيد

١ ترجمته في الدرر ٣ : ٣٧٦ (ط. القاهرة) .

الخط ويرسل النادرة ، ويقدم على العمل ، ويشارك في الفريضة ، وبذَّ السُّبَّاق في الأدب الهزلي المستعمل بالأندلس ، غبر زماناً من عمره محارفاً للفاقة يعالج بالأدب الكُدية ، ثمّ استقام له الميسم ، وأمكنه البخت من امتطاء غاربه ، فأنشبت الحُظوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد وحاسب ومدير تجْر ، فأثرى ونما ماله ، وعظمت حاله ، عهد عندما شارف الرحيل بجملة تناهز الألف من العين ، لتصرف في وجوه من البر ، فتوهم أنها كانت زكاة أمسك بها ؛ انتهى .

وقال أيضاً : أخبرني الكاتب أبو عبد الله ابن سلمة أنه خاطبه بشعر أجابه عنه بقوله في رَوِيّه :

أحرز الخصلَ من بني سلمَهْ ... كاتبٌ تخدمُ الظُّبى قَلَمَهْ
يحملُ الطِّرْسُ من أناملهِ ... أثرَ الحسنِ كلّما رقمه
وتمـدُّ البيـانَ فكرتُهُ ... مرسلاً حيث يمت ديمه
خَصَّني متحفاً بخمسٍ اذا ... بسم الروضُ فُقْنَ مبتسمه
قلت أهدى زهر الرُّبى خضِلاً ... فإذا كلُّ زهرةٍ كلمَهْ
أقسم الحسنُ لا يفارقهـا ... فأبرَّ انتقاؤهـا قسمَهْ
خطَّ أسطارهـا ونمّقهـا ... فأتتْ كالعقودِ منتظمَهْ
كاسياً من حلاهُ لي حُللاً ... رسْمُها من بديعِ ما رسمه
طالباً عند عاطشٍ نَهَلاً ... ولديـهِ الغيوثُ منسجمه
يبتغي الشعرَ من أخي بَلَهٍ ... أخرسَ العيِّ والقصورُ فَمَهْ
أيها الفاضلُ الذي حفظتْ ... ألسنُ المدحِ والثنا شيَمَهْ
لا تكلّفْ أخاكَ مقْترِحاً ... نشرَ عارٍ لديهِ قد كتمَهْ
وابقَ في عزةٍ وفي دعَةٍ ... ضافيَ العيشِ وارداً شَبِمَهْ
ما ثنى الغصنُ عِطْفَه طرباً ... وشدا الطيرُ فوقَهُ نَغَمهْ

ورأيت على هامش هذه القصيدة بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين ما صورته :

نعم ما خاطب به شيخنا وبركة أهل الأندلس وصدر صدورهم أبا عبد الله ابن سلمة ، ومن لفظه سمعتها بالقاهرة ، وإنها لمن النظم العالي المتسق نسق الدرّ في العقود ، رحمه الله تعالى ، قاله ابن المؤلف ؛ انتهى .

وقرأ ابن باق المذكور على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير والخطيب أبي عثمان ابن عيسى ، وتوفي بمالقة في اليوم الثامن والعشرين لمحرم فاتح عام اثنين وخمسين وسبعمائة ، وأوصى بعد أن يحفر قبره بين شيخيه الخطيبين أبي عبد الله الطنجالي وأبي عثمان ابن عيسى أن يُدفن به ، وأن يُكتب على قبره هذه الأبيات :

ترحَّمْ على قبر ابن باق وحَيِّهِ ... فمن حقِّ ميتِ الحيِّ تسليمُ حيِّهِ
وقل آمنَ الرحمنُ رَوْعَةَ خائف ... لتفريطه في الواجبات وغيِّه
قد اختار هذا القبر في الأرض راجياً ... منَ اللهِ تخفيفاً بقدْرِ وليِّــه
فقد يشفعُ الجارُ الكريمُ لجاره ... ويشملُ بالمَعْروفِ أهلَ نَديِّه
وإني بفضلِ اللهِ أوثقُ واثقٍ ... وحسبي وإن أذنبتُ حُبُّ نبيِّه

انتهى .

٦٩ — وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن سالم ابن فضيلة المعافري المري [1] المدعو بالتوّ من « الإكليل » ما نصه : شيخ أخلاقه لينة ، ونفسه كما قيل هينة ، ينظم الشعر سهلاً مَساقه ، محكماً اتساقه ، على فاقة ، ما لها من إفاقة ، أنشد المقام السلطاني بظاهر بلده قوله :

سرتْ ريحُ نجدٍ من رُبى أرضِ بابلٍ ... فهاجتْ إلى مسرى سُراها بلابلي
وذكّرني عَرفُ النسيمِ الذي سرى ... معاهدَ أحبابٍ سراةٍ أفاضلِ
فأصبحتُ مشغوفاً بذكر منــازلٍ ... ألفتُ ، فواشوقي لتلكَ المنازلِ
فيا ريحُ هُبّي بالبطاحِ وبالرُّبى ... ومُرّي على أغصانِ زهرِ الخمائلِ
وسيري بجسمي للّتي الروحُ عنــدها ... فروحي لديها من أجلِّ الوسائــلِ

[1] ترجمته في الدرر ٣ : ٣٦٧ (ط . القاهرة) .

وقولي لهـا عنّي مُعنّاك بالنوى لهُ شوقُ معمودٍ وعبرةُ ثاكلِ
فيـا بأبي هيفاء كالغصنِ تنثني تقدُّ بقدٍّ كاد ينقــدُ مائلِ

وهي طويلة .

ومن شعر المذكور قوله من قصيدة :

بَهَرَتْ كشمسٍ في غلالةِ عسجدِ وكبدرِ تمٍّ في قضيبِ زبرجدِ
ثمّ انثنتْ كالغصنِ هزَّتهُ الصَّبا طرباً فتزري بالغصونِ المُيَّدِ
حوراءُ بارعةُ الجمالِ غريرةٌ تزهى فتزري بالقضيبِ الأملدِ
إن أدبرتْ لم تُبْقِ عقلَ مدبِّرٍ أو أقبلتْ قتلتْ ولكن لا تدي

قال القاضي أبو البركات ابن الحاج : وابتلي المذكور باختصار كتب الناس ، فمن ذلك مختصره المسمى « الدرر الموسومة في اشتقاق الحروف المرسومة » وكتاب حكايات يسمى « دوحة الجِنان وراحة الجَنان » وغير ذلك .

قال أبو البركات : وسألته عن مولده ، فقال : لي اليوم ستون سنة ، وقال ذلك ليلة الخميس السابع والعشرين لذي قعدة عام أربعين وسبعمائة ، وتوفي آخر رمضان من عام تسعة وأربعين ، رحمه الله تعالى ، انتهى .

رجع :

٧٠ — قال لسان الدين في « الإكليل » في ترجمة الكاتب صاحب العلامة أبي العباس أحمد بن علي المليانى المراكشي ما نصه : الصارم الفاتك ، والكاتب الباتك ، أيُّ اضطراب في وقار ، وتجهّم تحته أنس العقار ! اتخذه ملك المغرب صاحب علامته ، وتوّجه تاج كرامته ، وكان يطالب جملة من أشياخ مراكش بثار عمه ، ويطوّقهم دمَه بزعمه ، ويقصر على الاستنصار منهم بنات همه ، إذ سَعَوْا فيه حتى اعتُقل ، ثمّ جدوا في أمره حتى قُتل ، فترصد كتاباً إلى مراكش

يتضمن أمراً جَزماً ، ويشمل من أمور الملك عَزْماً ، جعل فيه الأمر بضرب رقابهم ، وسَبْي أسبابهم ، ولما أكد على حامله في العَجَل ، وضايقه في تقدير الأجل ، تأنّى حتّى علم أنه قد وصل ، وأن غرضه قد حصل ، فرَّ إلى تلمسان وهي بحال حصارها ، فاتصل بأنصارها ، حالاً بين أنوفها وأبصارها ، وتعجب من فراره ، وسوء اغتراره ، ورجَّمَتِ الظنون في آثاره ، ثم وصلت الأخبار بتمام الحيلة ، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة ، فتركها شنيعة على الأيام ، وعاراً في الأقاليم على حمَلة الأقلام ، وأقام بتلمسان إلى أن حلَّ مُخَنَّق حصرها ، وأزيل هميان الضيقة عن خصرها ، فلحق بالأندلس ولم يعدم براً ، ورعياً مستمراً ، حتّى أتاه حِمامه ، وانصرمتْ أيامه ؛ انتهى .

والمذكور ترجمه في « الإحاطة » [1] بقوله : صاحب العلامة بالمغرب ، الكاتب الشهير البعيد الشأو في اقتضاء التِّرة ، المثل المضروب في الهمة ، وقوة الصريمة ، ونفاذ العزيمة .

حاله — كان نبيه البيت ، شهير الأصالة ، رفيع المكانة ، على سجية غريبة من الوقار والانقباض والصمت ، آخذاً بحظ من الطب [2] ، حسن الخط ، مليح الكتابة ، قارضاً للشعر ، تذهب نفسه فيه كل مذهب .

وصمته — فتك فتكة شهيرة أساءت الظن بحمَلَة الأقلام على ممر الدهر ، وانتقل إلى الأندلس بعد مشقة .

شعره — من شعره الذي يدل على بأوه ، وانفساح خُطاه في النفاسة وبُعْد شأوه ، قوله :

العزُّ ما ضُرِبَتْ عليـه قبابي والفضلُ ما اشتملتْ عليه ثيابي

---

١ انظر ج ١ : ١٤٩ ، والإعلام بمن حل مراكش ١ : ٣٧٣ .
٢ ق : الطلب ؛ وأثبتنا ما في الإحاطة .

والزهرُ ما أهداهُ غصنُ براعتي | والمسكُ ما أبداهُ نِقسُ كتابي
فالمجد يمنع أن يزاحَمَ موردي | والعزمُ يأبى أنْ يضامَ جنابي
فإذا بلوتُ صنيعةً جازيْتها | بجميل شكري أو جزيل ثوابي
وإذا عقدتُ مودةً أجريتهـا | مجرى طعامي من دمي وشرابي
وإذا طلبتُ من الفراقدِ والسُّها | ثأراً فأوشكُ أن أنالَ طلابي

وفاته – توفي بغرناطة يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمائة ودُفن بجبانة باب إلبيرة ، تجاوز الله تعالى عنه ؛ انتهى .

رجع إلى نثر ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

٧١ – فمن ذلك قولـه في « الروضة » في ترجمة « ضخام الغصون من شجرة السر المصون » ما صورته : وهي التي أفاءت الظل الظليل ، وزانت المرأى الجميل ، وتكفلت لمحاسن الشجرة الشمّاء بالتكفيل ، وتتعدد إلى غصون المحبوبات ، وأقسام موضوعاتها المكتوبات ، وغصن المحبين ، أصنافهم المرتبين ، وغصن علامات المحبة ، وشواهد النفوس الصَّبَّة ، وغصن الأخبار المنقولة ، عن ذوي النفوس المصقولة ، وعند تعين هذه الأغصان المقسومة ، كمل شكل الشجرة المرسومة ، والسّرحة الموصوفة الموسومة ، ففاءت الظلال ، وكرمت الخلال ، فحيي من تفرد وتوحد ، واستظل من استهدى واسترشد ، ووقف الهائم فخطب وأنشد[1] :

يا سَرْحَةَ الحيِّ يا مَطولُ | شَرْحُ الذي بيننا يطولُ
عندي مقالٌ فهل مقامٌ | تُصغينَ فيهِ لما أقولُ
ولي ديونٌ عليكِ حلّتْ | لو أنّهُ ينفعُ الحلولُ

١ أورد منها بيتين في النفح ٣ : ٥٠٦ ونسبهما لابن براق .

ماضٍ من العيشِ كان فيهِ   منزلُنــا ظلُّكِ الظليلُ
زالَ وماذا عليهِ مــاذا   يا سرْحَ لو لم يكنْ يزولُ
حيّــا عن المذنبِ المعنّى   منبتَكِ القَطْرُ والقَبولُ

وقال رحمه الله تعالى : فصول في المعرفة تغازل بها عيون الإشارة ، إذا قصرت عن تمام المعنى ألسُنُ العبارة ، ولله درُّ القائل :

وإذا العقولُ تقاصرت عن مدركٍ   لم تتّكلْ إلاّ على أذواقها

المعرفة اختراق المراتب الحسية ، والنفوس الجنسية ، والعقول القدسية ، والبروز إلى فضاء الأزل ، إذا فني من لم يكن وبقي من لم يزل ، مع عمران المراتب ، ورؤية الجائز في الواجب :

ومن عجبٍ أني أحنُّ إليهمُ   وأسألُ شوقاً عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهم في سوادها   ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

المعرفة مقام يأتلف من جمع مفروق ، وأفول وشروق ، وسلّ عروق ، ورد مسروق ، حتى يذهب الكيف والأين ، ويتعين العَين ، فيجمع العدد ويحمل ، وينحي السوى ومع ذلك لا يهمل :

للعِــدا منكَ نصيبُ   ولكَ السهمُ المصيبُ
إنّمــا يومُكَ يومــا   نِ : خصيبٌ وعصيبُ

المعرفة مقام سامي المنْعَرَج ، عاطر الأرج ، ينقل من السّعة إلى الحرج ، ومن الشدّة إلى الفرج :

طريقكَ لا تخفى به إن تتبّعتْ   خطاكَ ولا يخفى مبيتُكَ فيهِ
متاعُكَ منشورٌ على كلّ خيمةٍ   ورؤياكَ أمنٌ من ترفّع تيهِ

المعرفة عين إن لم تبصر أجزاءها ، أحسن الله عزاءها ، وحقيقة إن لم يجعل الفراق إزاءها ، كانت الغيرة[1] جزاءها ، فهي دائرة مركزها يجمع ، ومحيطها في التفريق يطمع ، يستقل الملك أجمع ، ويرى من يرى ويسمع من يسمع :

بُعْدُ المحيطِ من المحدّدِ واحدٌ والكلُّ في حقِّ الوجودِ سواءُ
والحقُّ يعرفُ ذاتهُ من ذاتِهِ صحَّ الهوى فتلاشتِ الأهواءُ

المعرفة صعود ونزول ، ووقوف ووصول ، فلا الوصول عن البداية يقطع ، ولا البداية عن النهاية تمنع :

من له الأمر أجمعُ كلُّ ما شاء يصنعُ
حصلَ القصدُ واستقـ ـرَّ فلم يبقَ مطمعُ

العارف في البداية يشكر الراكع والساجد ، ثمّ يعذر الواجد المتواجد ، ثمّ يرجم المنكر الجاحد ، فإذا انتهى وردَّ العدد إلى الواحد ، قال لسان حاله :

من رأى لي نشيدةً أو على عينها أثرْ
فله الحكم قل لهُ ذهبَ العينُ والأثرْ

إلى أن قال : قال الرئيس : **العارف** هشّ بشّ بسّام ، فيجل الصغير من تواضعه مثلما يجل الكبير ، ويبسط من الخامل مثلما يبسط من النبيه ، ثمّ علل فقال : وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق ، وبكل شيء فإنه يرى فيه الحق ، إني لأجد ريح يوسف[2] :

لمعتْ نارهمْ وقد عَسعسَ اللـ ـلُ وضجَّ الحادي وحارَ الدليلُ
فتأمّلْتهـــا وقلتُ لصحبي هذه النارُ نارُ ليلى فميلوا

---

١ ق : العزة .
٢ انظر مشارق أنوار القلوب : ٧٢ وهما من قصيدة للسهروردي .

العارف شجاع ، وكيف لا وهو بمعزل عن هيبة الموت ، وجواد ، وكيف لا وهو بمعزل عن صحبة الباخل ، وصفّاح ، وكيف لا ونفسه أكبر من أن تحرجها زلة بشر ، ونسّاء للأحقاد ، وكيف لا وذكره مشغول بالحق ، وقالوا : مَنْ عرف الله تعالى صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله رب العالمين .

الشبلي : ليس لعارف علاقة ، ولا لمحب شكوى ، ولا لعبد دعوى ، من عرف الله سبحانه انقطع ، بل خرس وانقمع ، لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ؛ انتهى .

٧٢ — وقال رحمه الله تعالى في بعض تراجم الروضة : الفرع الصاعد إلى الهواء ، على خط الاستواء ، من رأس العمود القائم ، إلى منتهى الوجود الدائم ، ويشتمل على قشر لطيف ، وجِرم شريف ، وأفنان ذوات ألوان ، قِنوان وغير قنوان ، وطَلْع نضيد ، وجَنًى سعيد ، فالقشر الحدود والرسوم ، وخواص العارف الذي هو المعروف بها والموسوم ، والفنون التي يقوم عليها والعلوم ، والجرم ظاهر الخلق المقسوم ، وعلاجه كما تعالج الجسوم ، وباطنه المجاهدات التي عليها يقوم ، وقلبه الرياضة والغصون المقامات فيها المقام المعلوم ، ومادتها السلوك الذي بتدريج غذائه تبلغ الأفنان والورقات ما تروم ، والزهرات اللوائح والطوالع والبواده التي لها الهجوم ، والواردات التي تدوم أو لا تدوم ، ثمّ الجنى وهو الولاية التي كان الغارس عليها يحوم ؛ انتهى .

ثمّ فصّل الكل رحمه الله تعالى فليراجعه من أراده .

٧٣ — ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه على لسان سلطانه للأمير يلبغا الخاصكي[1] ، وهو : « إلى الأمير المؤتمن على أمر سلطان المسلمين ،

[1] كان مدبر الدولة أيام المنصور محمد والأشرف شعبان ، قتله غلمانه لعسفه وظلمه سنة ٧٦٨ .

المقلّد بتدبيره السديد قلادة الدين ، المثني على رسوم بره لمقامه لسان الحرم الأمين ، الآوي من مرضاة الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم إلى الربوة ذات القرار والمعين ، المستعين من الله تعالى على ما تحمّله وأمله بالقوي المعين ، سيف الدعوة ، ركن الدولة ، قوام الملة ، مؤمل الأمة ، تاج الخواص ، أسد الجيوش ، كافي الكفاة ، زين الأمراء ، علم الكبراء ، عين الأعيان ، حسَنة الزمان ، الأجلّ المرفع الأسنى الكبير الأشهر الأسمى الحافل الفاضل الكامل المعظم الموقر الأمير الأوحد يلبغا الخاصكي ، وصل الله له سعادة تشرق غُرّتها ، وصنائع تسح فلا تشحّ درّتها ، وأبقى تلك المثابة قلادة الله تعالى وهو درّتها .

« سلام كريم ، طيب برٌّ عميم ، يخص إمارتكم التي جعل الله تعالى الفضل على سعادتها أمارة ، واليُسرَ لها شارة ، فيساعد الفلكُ الدوّار مهما أعملت إدارة ، وتمتثل الرسوم كلما أشارت إشارة .

« أما بعدَ حمدِ الله تعالى الذي هو يعلمه في كل مكان ، من قاصٍ ودان ، وإليه توجه الوجوه وإن اختلفت السِّيَر وتباعدت البلدان ، ومنه يلتمس الإحسان ، وبذكره ينشرح الصدر ويطمئن القلب ويمرح اللسان ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله العظيم الشان ، ونبيّه الصادق البيان الواضح البرهان ، والرضى عن آله وأصحابه وأحزابه أحلاسِ الخيل ، ورهبان الليل ، وأسود الميدان ، والدعاء لإمارتكم السعيدة بالعز الرائق الخبر والعيان ، والتوفيق الوثيق البنيان ، فإنّا كتبناه إليكم – كتب الله تعالى لكم حظّاً من فضله وافراً ، وصنعاً عن محيّا السرور سافراً ، وفي جو الإعلام بالنعم الجسام مسافراً – من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الأندلس دافع الله سبحانه عن حوزتها كيد العُداة ، وأتحف نَصْلها ببواكر النصر المهداة ، ولا رائد إلا الشوق إلى التعارف بتلك الأبواب الشريفة التي أنتم عنوان كتابها المرقوم ، وبيت قصيدها المنظوم ، والتماس بركتها الثابتة الرسوم ، وتقرير المثول في سبيل زيارتها بالأرواح عند تعذره بالجسوم ، وإلى هذا فإننا كانت بين سلفنا تقبّل الله تعالى جهادهم ، وقدس

نفوسهم ، وأمن مَعادهم ، وبين تلك الأبواب كما عرفتم من عدلها وإفضالها ، مراسلةٌ ينمُّ عَرْفُ الخلوص من خلالها ، وتسطع أنوار السعادة من آفاق كمالها ، وتلتمح من أسطار طروسها محاسن تلك المعاهد الزاكية المشاهد ، وتُعرب عن فضل المذاهب وكرم المقاصد ، اشتَقنا إلى أن نجددها بحسن منابكم ، ونواصلها بمواصلة جنابكم ، ونغتنم في عَودها الحميد مكانكم ، ونؤمل لها زمانكم ، فخاطبنا الأبواب الشريفة في هذا الغرض مخاطبة خجِلة من التقصير ، وَجِلَة من الناقد البصير ، ونؤمل الوصول في خفارة يدكم التي لها الأيادي البيض ، والموارد التي لا تغيض ، ومثلكم من لا تخيب المقاصد في شمائله ، ولا تَضحى الآملُ في ظل خمائله ، فقد اشتهر من حميد سيركم ما طَبّقَ الآفاق ، وصحب الرّفاق ، واستلزم الإصفاق ، وهذه البلاد مباركة ، ما أسلف أحد فيها مشاركة ، إلاّ وجدها في نفسه ودينه وماله وعياله ، والله سبحانه أكرم مَنْ وفى لامرىء بمكياله ، والله عز وجل يجمع القلوب على طاعته ، وينفع بوسيلة النبي صلّى الله عليه وسلّم الذي نعوّل على شفاعته ، ويُبقي تلك الأبواب ملجأ للإسلام والمسلمين ، وظلاًّ لله تعالى على العالمين ، وإقامة لشعائر الحرم الأمين ، ويتولى إعانة إمارتكم على وظائف الدين ، ويجعلكم ممّن أنعم الله تعالى عليه من المجاهدين ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ انتهى .

٧٤ — ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله في قضية امتناع بعض الموثقين من أكل طعامه بمدينة سلا ، وقد صدر به كتابه المسمى بـ « مثلى الطريقة في ذم الوثيقة » وهذا نصه : أما بعد حمد الله الذي قرر الحكم وأحكمه ، وبيّن الحلال من الحرام بما أوضحه من الأحكام وعلّمه ، ونوّع جنس المعاش وقسّمه ، وماز كل نوع منه ووسمه ، فأثبته متفاوتاً في درجات التفضيل ورسمه ، والصلاة والسلام على مولانا محمد رسوله الذي فضّله على الأنبياء وقرّبه وطهّر من دنَس الشبهات شيَمه ، فما استعمله في غير طاعته ولا استخدمه ، ولا أعمل في سوى

البر والهدى بَنانه ولا قَدَمه ، والرضى عن آله وأصحابه الذين رَعَوْا ذِمَمَه ، واستمطروا دِيَمَه ، وتواصوا من أجله بالبر وتواصوا بالمرحمة ، فهذا كتابُ «مثلى الطريقة في ذم الوثيقة» دعا إلى جمعه قلة الإنصاف من المُداهن والمعاصر ، والمباهت في مدرك النور الباصر ، ورضى مظنة النَّيل منهم بالباع القاصر ، والمناضلة عن الحمى الذي لم يؤيده الحق بالولي ولا بالناصر ، ولوضعه حكاية ، ولنفثته شكاية ، إذ معرفة الأشياء بعللها ممّا يتشوق إليه ، ويحرص عليه ، وهو أني لمّا قدمت على مدينة فاس حرسها الله تعالى ، مستخلصاً بشفاعة الخلافة ، ذات الإنافة ، مستدعًى برسالة الإيالة ، ذات الجلالة ، فانسحب والمنة لله السّتر ، وانفسح الفتْر ، وشفع من النعم الوتر ، واقتدى المرؤوس بالرئيس ، وتنافس الأعلام في التأنيس ، واتصل الاحتفاء والاستدعاء ، وانتخب الموعى والوعاء ، وأخذ أعقاب الطيبات الوضوء والطيب والدعاء ، تعرفت فيمن جمعته الأخونّة ، والمداعي المتعينة ، برجل من نبهاء موثقيها غرَّني بمخيلة البشاشة التي يستفزُّ بها الغريب ، ويستخلص هوى من لم يعمل التجريب ، فأنست بمكانه ، واستظهرت على ما يعرض من مكتتب بدكانه ، وشأني في الاغتباط بمن عرفت شاني ، قلست للمِقَة بشاني ، واسترسالي ، حتى لمن أسا لي ، طوع عناني :

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً ... ضميري ويتلوهُ يدي ولساني

ولم يكُ إلاّ أن حللت بمدينة سلا حرسها الله تعالى مقصود المحل وإن رغم الدهر الذي رمى فأقصدَ ، معتمداً بفتوحات الله تعالى وإن أرتج الباب بزعمه وأوصد ، مُصحباً بمدد عنايته وإن كمن وأرصد ، لا يمر فاضل إلاّ عرَّج على مثواي ، وأتى من البر فوق هواي ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوهـــا ، وتعرفت عن صاحبي الفاسي أنه قدم علينا من سخر عملية فلا لها الدسر المنهوبة ، وتخللها المسبعة المرهوبة ، واغتذى الأطعمة التي مرَقَتُها الدموع ، ومطبختها الحمى المَروع ، واستقر بالمدينة بعد أن لان وضَرع ، وجدّل وصرع ، نافقَ البقلة كاسِدَ الوَرَع ،

ونزل بمثوى خمول ، ومحطّ مجهول ، وكَنَف ممقوت ، وجوار لا يبخل بغيبة ولا يسمح بقوت ، فبادرت استدعاءه بفاضل من الطلبة ممّن يتلقى به الوارد ، ويقتاد الشارد، وقد أغرب بقراءة الاحتفاء والاحتفال ، وأجنب الإغفاء والإغفال ، وجهزت السرايا إلى التماس نعم الله تعالى فحلت الأنفال ، فلمّا عرض عليه الدعوة تعجرف ونفر ، ولمّا مسح عِطفه بالاستنزال نزا وطفر ، حتّى بهت الرسول كما بهت الذي كفر ، وآب يحمل عذراً بارداً ، واحتجاجاً شارداً ، فأقطعته جانب شماسه ، وخليت بينه وبين وَسْواسه ، ومن الغَد قَصَدَني فاعتذر ، وأكثر الهذَر ، ولم ينبت الله النبات الحسن شيئاً ممّا بَذَر ، وكان جوابي إياه ما نصه :

أبَيْتم دعوتي إمّا لبأوٍ ... وتأبى لومَهُ مُثُلى الطريقه
وبالمختارِ للناسِ اقتـداءٌ ... وقد حضرَ الوليمةَ والعقيقه
وغير غريبة أن رقّ حرٌّ ... على مَنْ حاله مثلي رقيقه
وإمّا زاجرُ الورعِ اقتضاها ... ويأبى ذاكَ دكان الوثيقه
وغشيانُ المنازل لاختيارٍ ... يُطالبُ بالجليلة والدقيقه
شكرتُ مخيلَةً كانتْ مجازاً ... لكم وحصلت بعدُ على الحقيقه

وذاع خبرها فقلبت عنها الجنوب ، وكلف بها الطالب والمطلوب ، وهَشّ إلى المُراجعة عنها أحد الموثقين بسلا ممّن يحوم حول حمى الإدراك ، ويروم درجة الاختصاص ببعض الفنون والاشتراك ، وله في الأدب مساس ، وجلب الباس ، بما نصه :

رسولك لم يُبنْ لي عن طريقه ... تقرّبُ من حديقتكَ الأنيقه
فلا بأوٌ لديَّ ولا إباءٌ ... ولكن ساء في الغرض الطريقه
وهبْ أني أسأتُ فكم صديقٍ ... تدلّلَ واعتدى فجفا صديقه

فلا عجَبٌ فديتَ لرفقِ حرٍّ يسكّنُ عندَ خجلته رفيقهْ
وإني فيكَ معتقدٌ ، ولكن أرى الأيامَ حاقدةً حنيقهْ
على ذي الودِّ فيمن وَدَّ حتى يفارقهُ وإن أضحى رفيقهْ

فراجعته بما نصه لما أسلفته من جزاء مِصاعه ، وكِلْتُ له بصاعه :

من استغضبت من هذي الخليقهْ بمغضبةٍ بإنكارِ خَليقَــهْ
ولم يغضبْ فَتَيْسٌ أو حمارٌ مجازاً ، لا ، لعمري ، بل حقيقهْ
بعثتُ بمرسَلٍ لك مع عتيقي فلم تطعِ الرسولَ ولا عتيقهْ
وطوّقْتَ السفيرَ الذنبَ لمّا عجلتَ به ولم تُبْلعه ريقَهْ
إمامُ جماعةٍ وقريعُ تقوى ومُبلغ حجّةٍ ،وحفيظُ سيقهْ[1]
فبؤتَ بها على الأيام داءً عُضالاً لا تفيقُ عليه فِيقهْ
وقد عارضت عذرك باعتراف فزدتَ مذمةً تَسِمُ الطريقهْ
وهل بعدَ اعترافٍ من نزاعٍ وهل بعد افتصالٍ من وثيقهْ
ومن جهل الحقوق أطاع نفساً ببحرِ الجهلِ راسبةً غريقهْ
ومنجى نيقةٍ أمرٌ بعيدٌ إذا نصبَ المهندسُ منجنيقهْ

فأمسك حينئذ وأقصر ، ورأى الأمر يطول فاختصر ، إلاّ أنه نمي لي عنه قوله : إن دكان الوثيقة إنْ نافى الورع فبغير بلده ، وأذهلته لذة لدده ، عمّا هو بصدده ، فارتهنت له أن أنصر الدعوى بما يسلمه المنصف المساهل ، وينكره الأرعن الجاهل ، وتشدّ به المنازل والمناهل ، والمعالم والمجاهل ، مستنداً إلى الحكم الشرعي ، والسَّنن المرعي ، والمشاهدة والحس ، وشهادة الجن والإنس .

---

١ السيقة : لعلها صورة اشتقاقية من السوق أو السياق بمعنى المهر الذي يساق إلى المرأة في صداقها ؛ ومما يقرب هذا المعنى أن الرجل الذي وجهت إليه الأبيات من كتاب الوثائق .

ولو تُركَ القَطا ليلاً لناما

والله يجعله موقظاً من السِّنات ، وازعاً عن كثير من الهنات ، وينفع فيه بالنية فإنما الأعمال بالنيات ، وها أنا أبتدىء وعلى الله الإعانة ، وبحوله وقوته الإفصاح والإبانة .

قلت : ينحصر الكلام فيه في سبعة أبواب ، الباب الأول : في جواز الإجارة فيها عند العلماء ، الباب الثاني : في الشركة المستعملة بين أربابها ، الباب الثالث : في محلها من الورع إن سوّغها الفقه ، الباب الرابع : في منزلتها من الصنائع والمهن ، الباب الخامس : في أحوال منتحليها من حيث العلم غالباً ، الباب السادس : في أحوالهم من جهة استقامة الرزق وانحرافه ، الباب السابع : في رد بعض ما يحتج به فيها . انتهت الخطبة المقتطعة من تأليف لسان الدين رحمه الله تعالى .

وهذا التأليف في نحو كراسة ، وقال في آخره ما صورته : فإن قيل : ترك الأجر وقبول العوض في هذا الأمر يدعو إلى تعطيله ، فيفقد الناس منفعة هذه الطريقة وغَنَاءها ، قلت : الإنصاف فيها اليوم أن لو كان متوليها يرتزق من بيت المال وأموال المصالح والأوقاف التي تسع ذلك ، وحالُ الجماهير في فقدانها والاضطرار إليها ورفع أمورهم بها إلى السلطان ورغبتهم في نصب من يتولى ذلك حالُهم في فقدان أئمة الصلاة في المساجد الراتبة في جريانه من بيت المال بعلة التزامهم وارتباطهم فقط ، حسبما نقل الإجماع فيه القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله تعالى ومنع الارتزاق من غيره إجماعاً ، وقد كان بالمدن المعتبرة من بلاد الأندلس — جبرها الله تعالى — ناس من أُولي التعفف والتعين ، كبني الجد بإشبيلية وبني الخليل وغيرهم بغيرها ، يتعيشون من فضول أملاكهم ، ووجائب رباعهم ، ويقعدون بدورهم عاكفين على بر ، منتابين لرواية وفتيا ، يقصدهم الناس في الشهادة فيجاملونهم ، ويُبركون على صفقاتهم ، ويهدونهم إلى سبيل الحق فيها من غير أجر ولا كلفة ، إلاّ الحفظ على المناصب ، وما يجريه السلطان من الحرمة

والتفقد[1] في الضرورة ، وما يهديهم الناس من الإطراء والتجلة ، والله سبحانه ينيلهم من الأجر والمثوبة ، وبلغني اليوم أن حالها بمدينة سجلماسة ينظر إلى هذا الحال من طرف خفي ، ولم يفسد بها كل الفساد ، وكذلك لم نزل نتعرف أن الأمر في شأنها بمدينة تونس أقرب ، وبعض الشر أهون من بعض ، ولو بقيت بحالها لوجب تقرير فضلها وتقريظ منتحلها ، فالصدق أنجى ، والحق عند الله أحْجى ، والله عز وجل يستعملنا فيما يرضيه ، ويلطف بنا فيما يجريه علينا من أحكامه وما يقضيه ، ويجعلنا ممّن ختّم له بالحسنى ، ويقربنا إلى ما هو أقرب من رحمته وأدنى ، وصلوات الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ؛ انتهى .

وكتب على ظهر الورقة الأولى من هذا التأليف شيخ شيوخ شيوخنا الإمام الكبير المؤلف الشهير سيدي أحمد الونشريسي رحمه الله تعالى ما صورته : الحمد لله ، جامعُ هذا الكلام المقيد هذا بأول ورقة منه قد كَدّ نفسه في شيء لا يعني الأفاضل ، ولا يعود عليه في القيامة ولا في الدنيا بطائل ، وأفنى طائفة من نفيس عمره في التماس مساوىء طائفة بهم تُستْباح الفروج ، وتملك مشيّدات الدور والبروج ، وجعلهم أضحوكة لذوي الفتك والمجانة ، وانتزع عنهم جلباب الصدق والديانة ، سامحه الله تعالى وغفر له ، قال ذلك وخطّه بيمنى يديه عُبيد ربه أحمد بن يحيى بن محمد بن علي الونشريسي خار الله سبحانه له ؛ انتهى ما ألفيته .

وقد كان لسان الدين رحمه الله تعالى كثيراً ما يعرّض ويصرح بهجو بعض أهل سلا أو كلهم حتّى قال :

أهلُ سلا صاحتْ بهم صائحهْ غاديةٌ في دورهمْ رائحهْ
يكفيهمُ من عوَزٍ أنّهمْ ريحانُهُمْ ليستْ لهُ رائحهْ

والله المرجو للعفو عن الزلات .

٧٥ — ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى خطبة كتابه في المحبة الذي ما

[1] ق : والنفقة .

ألف في فنه أجمع منه ، ولنوردها فإن فيها دلالة على فضله وعظم قدر الكتاب ، وهي : «اللهم طيِّب بريحان ذكرك أنفاسَ أنفسنا الناشقة ، وعلّل بجِريال حبك جوانح أرواحنا العاشقة ، وسدد إلى أهداف معرفتك نبالَ نبلنا الراشقة ، واستخدم في تدوين حمدك شبّا أقلامنا الماشقة ، ودُلَّ على حضرة قُدسك خطرات خواطرنا الذائقة ، وأبِنْ لنا سُبُلَ السعادة التي جعلتَ فيها الكمال الأخير لهذه الأنفس الناطقة ، واصرفنا عند سلوكها عن القواطع العائقة ، حتى نأمن مخاوف أجبالها الشاهقة ، وأحزابها المنافقة ، وأوهامها الطارئة الطارقة ، وبرازخها القاسية الغاسقة ، فلا تسرق بضائعنا العوائدُ السارية السارقة ، ولا تحجبنا عنك العوارض الجسمية اللاحقة ، ولا الأنوار المغلطة البارقة ، ولا العقول المفارقة ، يا من له الحكمة البالغة والعناية السابقة ، وصَلِّ على عبدك ورسولك محمد درة عقود أحبابك المتناسقة ، وجالب بضائع توحيدك النافقة ، المؤيد بالبراهين الساطعة والمعجزات الخارقة ، ما أطلعت أفلاك الأدواح زُهْر أزهارها الرائقة ، وحدَت قطار السحائب حُداة رعودها السائقة ، وجمعت ريحُ الصَّبا بين قدود أغصانها المتعانقة .

«أما بعد ، فإنه لمّا ورد على هذه البلاد الأندلسية المحروسة بحدود سيوف الله حدودها ، الصادقة بنصر الله للفئة القليلة على الفئة الكثيرة وُعودها — وصَلَ الله تعالى عوائد صنعه الجميل لديها ، وأبقاها دار إيمان إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومَنْ عليها — «ديوانُ الصبابة[1]» وهو الموضوع الذي اشتمل من أبطال العشاق على الكثير ، واستوعب من أقوالهم الحديثة والقديمة كلَّ نظيم ونثير ، وأسدى في غزل غزَله وألحم ، ودلّ على مصارع شهدائهم من وقف وترحّم ، فصدّق الخبر المخبر ، وطمت اللجة التي لا تُعبر ، وتأرّج من مسراه المسكُ والعنبر ، وقالت العشاق عند طلوع قمره : الله أكبر :

مررت بالعشّاقِ قد كبروا   وكان بالقربِ صبيٌّ كريمْ

---

١ كتاب من تأليف شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة .

فقلت : ما بالهمُ ؟ قال لي :   أُلقيَ للحبِّ كتابٌ كريمْ

ولا غرو أن أقام بهذه الآفاق ، أسواق الأشواق ، وزاحم الزفرات في مسالك الأطواق ، وأسال جواهر المدامع من بين أطباق تلك الحقاق[1] ، وفتك نسيمها الضعيف العهد والميثاق بالنفوس الرقاق :

جنى النّسيمُ علينـــا   وما تبيّنتُ عُذرَهْ
إذ صيّرَ الخلقَ نجداً   والأرضَ أبناء عذرَهْ

فوقع للحجة المصرية التسليم[2] ، وقالت ألسنة الأقلام معربة عن ألسنة الأقاليم :

سلّمْتُ لمصرَ في الهوى من بلدٍ   يهديهِ هواؤه لدى استنشاقهِ
من ينكرُ دعوايَ فقلْ عنّي له   تكفي امرأةُ العزيزِ من عشاقهِ

فغمر المحافل والمجالس ، واستجلس الراكب واستركب الجالس ، يدعو الأدب إلى مأدبته فلا يتوقف ، ويُلقي عصا سحره المصري فتتلقف ، ما شئت من ترتيب غريب ، وتطريب من بنان أريب ، يشير إلى الشعر فتنقاد إليه عيونه ، ويصيح بالأدب الشريد فتلبيه فنونه ، وأنهى خبره للعلوم المقدسة ، ومدارك العز الموطّدة المؤسسة ، سما به الجد صُعُداً إلى المجلس السلطاني مقر الكمال ، ومطمح الأبصار والآمال ، حيث رفارف العز قد انسدلت ، وموازين القسط قد عدلت ، وفصول الفضل قد اعتدلت ، ووُرق أوراق المحامد قد هدلت ، مجلس السلطان المجاهد ، الفاتح الماهد ، المتحلّي في ريعان العمر الجديد ، والملك السعيد ، بحلى القانت الزاهد ، شمس أُفق الملة ، وفخر الخلفاء الجلّة ، بدرُ هالاتِ السروج المجاهدة ، أسد الأبطال البارزة إلى حومة الهياج الناهدة ، مُعشي الأبصار المشاهدة ، مظهر رضى الله تعالى عن هذه الأمة الغريبة عن الأنصار والأقطار ، من وراء أمواج[3]

١ ق : الأطباق .   ٢ كذا قال ، ولكن ابن أبي حجلة مغربي المولد ، استوطن القاهرة .
٣ أمواج : سقطت من ق .

البحر الزخار ، باختياره لها واعتيامه ، ومُلبسها برودَ اليُمن والأمان ببركة أيامه ، ومن أطلع الله تعالى أنوار الجمال من أفق جبينه ، وأنشأ أمطارَ السماح من غمام يمينه ، وأجرى في الأرض المثل السائر بحلمه وبسالته ودينه ، أمين الله تعالى على عهدة الإسلام بهذا القطر وابن أمينه وابنِ أمينه ، فخر الأقطار والأمصار ، ومطمح الأيدي وملمَح الأبصار ، وسلالة سعد بن عُبادة سيد الأنصار ، ومَنْ لو نطق الدين الحنيفي لحيّاه وفدّاه ، أو تمثل الكمالُ صورةً ما تعدّاه ، مولانا السلطان الإمام العالم العامل المجاهد أمير المسلمين أبو عبد الله ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر الأنصاري الخزرجي ، جعل الله تعالى ثَغْرَ الثغر مبتسماً عن شَنَب نصره ، والفتحَ المبين مذخوراً لعصره ، كما قصر آداب الدين والدنيا على مقاصير قَصره ، وسوّغه من أشتات مواهب الكمال ما تعجز الألسن عن حصره ، ولا زالت أفنان الأقلام تتحف الأقاليم بجَنيٍّ فنون هَصْره ، فخصته عينُ استحسانه أبقاه الله تعالى بلحظة لحظٍ ، وما يُلقّاها إلاّ ذو حظّ ، وصدرت إليَّ منه الإشارة الكريمة بالإملاء في فنه ، والمنادمة على بنت دَنّه ، وحَسِبَ الشحم من ذي ورم والله سبحانه يجعلني عند ظنه ، ومتى قورن المثري بالمترب ، أو وُزن المشرق بالمغرب ؟ شتان بين من تُجلْى الشمس منه فوق منصتها ، وبين من يشره أُفقه الغربي لابتلاع قرصتها ، لكني امتثلت ، ورشت ونثلت ، ومُكرَهاً لا بَطَلاً مَثَلت ، وكيف يتفرغ للتأليف ، ويتبرع للوفاء بهذا التكليف ، مَنْ حَمَل الدنيا في سن الكهولة على كاهله ، وركض طِرفَ الهوى بين معارفه ومجاهله ، واشترى السهر بالنوم ، واستنفد سواد الليل وبياض اليوم ، في بعث يجهز ، وفرصة تنهز ، وثغر للدين يُسَد ، و أزر للملك يشد ، وقصة ترفع ، ووساطة تنفع ، وعَدل يحرص على بذله ، وهوى يجهد في عذله ، وكريم قوم ينصف من نذله ، ودين تزاح الشوائب عن سُبْله ، وسياسة تشهد للسلطان بنُبله وإصابة نَبله ، ما بين سيف وقلم ، وراحة وألم ، وحرب وسَلْم ، ونشر عَلَم أو علْم ، وجيش يعرض ، وعطاء

يُفرض ، وقرض حسن لله تعالى يُقْرَض ، في وطن توافر العدو على حَصره ، ودار به دَوْر السوار على خصره ، وملك قصر الصبر والتوكل على قَصره ، وعددُ نسبته من العدد العظيم الطاقة ، الشديد الإضاقة ، نسبةُ الشعرة من جلد الناقة ، وبالله نستدفع المكروه ، وإليه نمد الأيدي ونصرف الوجوه ، وسألت منه — أيده الله تعالى — القنوع بما يسره الوقت ، ممّا لا يناله المَقْت ، والذهاب بهذا الغرض لما يليق بالترب والسن ، ويؤمن من اعتراض الإنس والجن ، وما كنت ممّن آثر على الجد الهزل ، واعتاض من الغَزَل الرقيق الغَزَل بشيمة الجزل ، ولا آنف من ذكر الهوى بعد أن خُضتُ غماره ، واجتنيت ثماره ، وأقمت مناسكه ورميت جماره ، وما أبرّىء نفسي إن النفس لأمّارة ، فالهوى أول تميمة قلّدتني الداية ، والترب التي عرفتها في البداية ، وأنا الذي عن عُروته نُبْتُ ، وبُعثتُ إلى الرصافة لأرقّ فذُبت ، إلى أن تبين الرشد من الغي ، وصار النشر إلى الطي ، وتصايح ولِدان الحيّ ، كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم كما منّ عليّ :

جزى الله عني زاجرَ الشيب خير ما جزى ناصحاً فازت يدايَ بخيرهِ
ألفتُ طريقَ الحبّ حتى إذا انتهى تعوضتُ حبَّ اللهِ عن حبّ غيرهِ

حال السواد بحال الفؤاد ، وصوَّح المرعى فانقطعت الرُّوّاد ، ونهاني ازورار خيال الزوراء ، والتفات عاذل الشيب عن المقلة الحوراء ، وكيف الأمان ، وقد طلع منه النذير العريان ، يدل على الخبر بخبره ، وينذر بهاذم اللذات على أثره ، ولله در القائل :

دعتنيَ عيناكَ نحو الصِّبا دعاء يردد في كلّ ساعَهْ
فلولا ، وحقّك، عذر المشيبِ لقلتُ لعينيك: سمعاً وطاعهْ

ولولا أن طيف هذا الكتاب الوارد طَرَقَ مضجعي وقد كاد يبدو الحاجب ، ويضيع من الفرض الواجب ، ويعجب من نوم الغفلة العاجب ، لجريت معه في

ميدانه ، وعقدتُ بناني ببنانه ، وتركت شاني وإن رغم الشاني لشانه ، وقلت معتذراً عن التهويم في بعض أحيانه :

أهلاً بطيفكَ زائراً أو عائدا   تفديكَ نفسي غائباً أو شاهدا
يا مَن على طيف الخيالِ أحالني   أتظنُّ جفني مثل جفنك راقدا
ما نمتُ ، لكنّ الخيال يلمُّ بي   فيجله طرفي فيُطرقُ ساجدا

ومن العصمة أن لا تجد ، هلاّ قبل المشيب ، ومع الزمن القشيب ، وقبل أن تمخض القربة ، وتبنى الخانقاه والتّربة ، وتؤنس بالله الغربة ، وعلى ذلك فقد أثر ، وباء قلبي المعثّر ، اللهم لا أكثر :

وبدا له من بعد ما اندملَ الهوى   برقٌ تألّقَ مَوْهِناً لمعانُه
يبدو كحاشيةِ الرداء ودونَهُ   صعْبُ الذرا متمنّعٌ أركانُه
فبدا لينظرَ كيف لاح، فلم يطقْ   نظراً إليهِ ورددت أشجانُه
فالنارُ ما اشتملتْ عليهِ ضلوعُهُ   والماءُ ما سمحتْ به أجفانُه

وجعلت الإملاء على حمل مؤازرته أيده الله تعالى علاوة ، وبعد الفراغ من ألوان ذلك الخوان حلاوة ، وقلت أُخاطب مؤلف كتاب « الصبابة » بما يعتمده جانب إنصافه ، ويغطي على نقصٍ إن وقع فيه كمال أوصافه :

يا مَنْ أدار من الصبابة بيننا   قَدَحاً ينمّ المسكُ من ريّاهُ
وأتى بريحانِ الحديثِ فكلّما   سمح النديمُ براحهِ حيّاهُ
أنا لا أهيم بذكر مَن قتل الهوى   لكن أهيمُ بذكرِ من أحياهُ

وعَنّ لي أن أذهب بهذا الحب المذهب المتأدي إلى البقاء ، الموصل إلى ذروة السعادة في معارج الارتقاء ، الذي غايته نعيم لا ينقضي أمَده ، ولا ينفد مدده ، ولا يُفصَل وصْلُه ، ولا يفارق الفرعَ أصلُه ، حب الله المبلغ إلى قربه ، المستدعي لرضاه

وحبه ، المؤثر بالنظر إلى وجهه ، ويا لها من غاية ، الملقي رَحْلَ المتصف به بعد قطع بحار الفناء على ساحل الولاية .

« وكنت وقفت من الكتب المؤلفة في المحبة على جملة منها كتاب يشهده العوام ويستخفه الهوام ، ورسالة ابن واصل رسالة مهذارة ، تطفو من دارة إلى دارة ، في مطاردة هر وفارة ، وكتاب ابن الدباغ القيرواني[1] كتاب مفرقع ، ووجه المقصود منه متبرقع ، وكتاب ابن خلصون وهو أعدلها لولا بداوة تَسِمُ الخُرطوم ، وتناسب الجمَل المخطوم ، فكنت بما ذكر لا أقنع ، وأقول ما أصنع ، فالله يعطي ويمنع :

قلتُ للساخرِ الذي رفعَ الأنفَ واعتلى
أنتَ لم تأمنِ الهوى لا تُعَيِّرْ فتُبْتلى

شعر :

وعذلتُ أهلَ العشقِ حتى ذُقتُهُ فعجبتُ كيف يموت من لا يعشقُ[2]

ومن المنقول : لا تُظهر الشماتة بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك .

بلاني الحبُّ فيكَ بمــا بلاني فشاني أن تفيض غروب شاني

أجل بلاني بالغرض الذي هو من القلوب سر أسرارها ، ومن أفنان الأذهان بمنزلة أزهارها ، ومن الموجودات وأطوارها قطبُ مَدارها ؛ ليكون كتابي هذا المقدم على المأزق المهلك ، المتشبع بما لا يملك ، وأن يقنع الاتصاف ، فعسى أن يشفع الإنصاف ، والاقتراف ، يدرؤه الاعتراف ، أنا عند المنكسرة قلوبهم ، ولا تجود يد ، إلاّ بما تجد ، وكل يُنفق ممّا آتاه الله :

وابنُ اللّبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطعْ صولةَ البُزْل القناعيسِ[3]

---

[1] لعله يشير إلى كتاب « مشارق أنوار القلوب » لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بابن الدباغ (– ٦٩٦) . وقد نشره الأستاذ هـ . ريتر (دار صادر : ١٩٥٩) .

[2] البيت للمتنبي من قصيدته التي مطلعها « أرق على أرق ومثلي يأرق » .

[3] البيت لجرير ، ديوانه : ٢٥٠ .

وعسى الذي أنطق شوقاً ، أن ينطقَ ذوقاً ، والذي حرك سفلاً أن يحرك فوقاً ، والذي يسره مقالاً ، أن يكفيه حالاً .

فأوّلُ الغَيث طَلٌ ثم ينسكب

* * *

الحرب أول ما تكون لجاجةٌ

* * *

وإنّ الحرب أولهـا الكلام [1]

نحمد الله سبحانه على الكلف بهذه الطريقة ﴿وما يُلَقَّاها إلاّ ذو حظّ عظيم﴾ (فصلت : ٣٥) وللأرض نصيب من كأس الكريم [2] :

أليسَ قليلاً نظرةٌ إن نظرتُها إليكِ ؟ وكلاّ ليس منكِ قليلُ

* * *

فاتني أنْ أرى الديارَ بطرفي فلعلّي أرى الديارَ بسمعي [3]

وعلى ذلك فذهبت في ترتيبه أغرب المذاهب ، وقرعت في التماس الإعانة باب الجواد الواهب ، وأطلعت فصوله في ليل طلوع نجوم الغياهب ، وعرضت كتائب العزيمة عرضاً ، وأقرضت الله قرضاً ، وجعلته شجرة وأرضاً ، فالشجرة المحبة مناسبة وتشبيها ، وإشارة لما ورد في الكتب المنزلة وتنبيها ، والأرض النُّفوس التي تغرس فيها ، والأغصان أقسامها التي تستوفيها ، والأوراق حكاياتها التي تحكيها ، وأزهارها أشعارها التي تحييها ، والوصول إلى الله تعالى ثمرتها التي ندّخرها بفضل الله ونقتنيها ، شجرة لعمر الله يانعة ، وعلى الزعازع متمانعة ، ظلها ظليل ، والطرف عن مداها كليل ، والفائز بجناها قليل ، رست في التخوم ، وسَمَت

---

١ صدره : فإن النار بالعودين تذكى ؛ يرد في رسالة لنصر بن سيار يستنجد بها الخليفة الأموي عند ظهور المسوّدة .

٢ عكس قول الشاعر : وللأرض من كأس الكرام نصيب ، وكذلك ثبت النص في ق .

٣ البيت للشريف ، ديوانه ١ : ٦٥٨ وديوان الصبابة : ٤٩ .

إلى النجوم ، وتنزهت عن أعراض الجسوم ، والرياح الحُسوم ، وسُقيت بالعلوم ، وغُذيت بالفهوم ، وحملت كمائمها بالزهر المكتوم ، ووفيت ثمرتها بالغرض المَروم ، فاز من استأثر بجناها ، وتَعَنّى من عني بلفظها دون معناها ، فمن استصبح بدُهنها استضاء بسناها ، ما أبعدها وما أدناها ، عيناً ملأت الأكفَّ بغناها ، كم بين أوراقها من قلب مقلَّب ، وفي هوائها من هوًى مغلَّب ، وكم فوق أفنانها من صادح ، وكم في التماس سقيطها من كادح ، وكم دونها من خطب فادح ، ولأربابها من هاجٍ ومادح ، تنوَّعت أسماؤها ، ولم تتنوع أرضها ولا سماؤها ، فسميت نخلة تهز وتجنى ، وزيتونة مباركة يُستصبح بزيتها الأسنى ، وسدرة إليها ينتهي المعنى ، أصلها للوجود أصل ، وليس لها كالشجر جنس ولا فصل ، وتربتها روح ونفس عقل ، وشرفها يعضده بديهة ونقل ، يحط الهائمون بفنائها ، ويصعد السالكون حول بنائها ، تخترق السبع الطباق ببراقها ، وتمحي ظُلَم الحس بنور إشراقها ، فسبحان الذي جعلها قُطب الأفلاك ، ومدافن الأضواء والأحلاك ، ومغرد طيور الأملاك ، وسبب انتظام هذه الأسلاك ، لم يحلْ فيها طريد بعيد ، ولا اتصف بصفاتها إلا سعيد ، ولا اعتلق بأوجها هاوٍ في حضيض ، ولا بمحض برهانها متخبط في شرك نقيض ، ولا تعرَّض لشَيم بوارقها متسم بسمة بغيض ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ومنه نستزيد الاستغراق في بحارها ، والاستنشاق لنواسم أسحارها ، والاستدلال بذرى أفنانها عليه ، والوصول بسبب ذلك إليه ، إنه ولي ذلك سبحانه ، فطاب لعمري المنبت والنابت ، وسما الفرعُ الباسق ورسا الأصل الثابت ، وفاءت الأفنان ، وزخرفت الجنان ، وتعددت الأوراق والزهرات والأغصان ، ولم أترك فنّناً إلا جمعت بينه وبين مُناسبه ، ولا فرعاً إلا ضممته إلى ما يليق به ، واستكثرت من الشعر لكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذي يحرك عَذبات أفنانها ، ويؤدي إلى الأنوف روائح بستانها ، وهو المزمار الذي ينفخ الشوق في يراعته ، والعزيمة التي تُنطق مجنون الوجد من ساعته ، وسلعة ألسن العشاق ، وترجمان ضمير الأشواق ،

ومجتلى صور المعاني الرقاق ، ومكامن قنائص الأذواق ، به عبّر الواجدون عن وَجدهم ، ومشى المحبون إلى قَصْدهم ، وهو رسول الاستلطاف ، ومنزل الألطاف ، اشتمل على الوزن المطرب ، والجمال المعجب المغرب ، وكان للأوطان مركباً ، ولانفعال النفوس سَبباً ، فلا شيء أنسب منه للحديث في المحبة ، ولا أقرب للنفوس الصَّبّة ، واجتلبت الكثير من الحكايات وهي نوافل فروض الحقائق ، ووسائل مجالس الرقائق ، ومراوح النفوس من كدّ الأفكار ، وإحماض مسارح الأخبار ، وحظ جارحة السمع من منح الاعتبار ، وبعض الجواذب لنفوس المحبين ، والبواعث لهمم السالكين ، وحجتها واضحة بقوله تعالى ﴿وكُلاًّ نَقُصُّ عليك﴾ (هود : ١٢٠) في القرآن المبين ، ونقلتُ شواهدَ من الحديث والخبر تجري صحاحها مجرى الزكاة من الأموال ، والخواطر من الأحوال ، ويجري ما سواها من غير الصحيح مجرى الأمثال ، ليكون هذا الكتاب لعموم خيره ، مسرحاً للفاره وغيره ، ويجد كلٌّ ميداناً لسَيره ، وملتقطاً لطيره ، ومحكّاً لغيره ، فمن فاق كلف بأصوله ، ومن قصر قنع بفصوله ، ومن وصل حمد الله تعالى على وصوله ، وسميته « روضة التعريف بالحب الشريف » ويحتوي على أرض زكيّة ، وشجرات فلكية ، وثمرات ملكية ، وعيون غير بكيّة .

« والحب حياة النفوس المَوات ، وعلة امتزاج المركبات ، وسبب ازدواج الحيوان والنبات ، وسر قوله عز وجل ﴿أوَمَن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات﴾ (الأنعام : ١٢٢) ليس كالحب الذي دوّن فيه المدوّنون ، ولعبت بكُرَة أقباسه صوالج الجنون ، وقاد الهوى أهله بحبْل الهون ، وساقت فيه المنى للمنون ، حين نظرت النفوس من سفلى الجنبتين ، ورضيت الأثر عن العين ، وباعت الحق بالمين ، ولم تحصل إلاّ على خفّي حُنين ، وارحمتا لعشاق الصور ، وسُبّاق ملاعب الهوى والهور ، لقد كَلِفوا بالزخارف الحائنة الحائلة ، والمحاسن الزائفة الزائلة ، وسِلَع الجبانة ، وبضائع الإهانة ، أزمانُ التمتّع بهم قصيرة ، والأنكاد عليهم مُغيرة ، فتراهم ما بين طعين بعامل

قَدٍّ ، ومضرَّج بدمِ خدٍّ ، وأسير ثغر قد أعوز فداؤه ، وسقيم طَرْف قد أعضل داؤه ، وما شئت من ليل يُسهر ، ونداء به يُجهر ، وجُيوب تُشق ، وبصائر تخطف أبصارها إذا لمع البرق ، ونواسم تحمـــل التحيّات ، وخلع أيلكٍ تتلقّى بخلع الأريحيات ، وربما اشتد الختل ، وأصابت النَّبل فكان الخبل ، قلوب اشتغلت عن الله فشغلها الله بغيره ، وهَبِ الحبَّ الجسماني لا تبعث عليه شهوة بهيمية ، ولا تدعو إليه قوّة وهْميّة ، أليست الداعية مرتفعة ، والباعثة منقطعة ، وصورة الحسن دائرة ، وأجزاؤه المتناظمة متناثرة ؟ أليس الجراب العنصري عائداً إلى أصله؟ أليس الجنس مفارقاً لفَصله ؟ ولله دَرُّ علي رضي الله تعالى عنه ، وقد نظر إلى قدح الماء وقد أراد أن يشرب ، وعن الاعتبار أعرب ، فقال : كم فيك من خدٍّ أسيل ، وطرف كحيل ! فأوّاه مكررة مردَّدة ، وواهفاه معادة مجددة ، على قلب أصبح يقلّب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ، ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ، وحسبنا مرارة الفراق ذلاً ، وفقد النقد قلاً ، والغفلة عن الله شقاء محتوماً ، والكآبة على الفائت شوماً :

صدَّني عن حلاوةِ التشييعِ اتّقـــائي مرارةَ التوديعِ
لم يقمْ أنسُ ذا بوحشةِ هذا فرأيتُ الصوابَ تركَ الجميعِ

وإن كانت الشهوة فأخْسس بها داعية ، وإلى الفضيحة ساعية ، حَسبكَ من حمار يعلن بنداء المحبة نهاقه ، ويقذفه على السباق اهتياجه إلى السّفاد واشتياقه ، أسير خَبال ، وصريع مَبال ، أولى له ثمّ أولى لو تأمل محاسن الجسوم ما أكذب رائدها المُطْري ، وأخبث زخرفها المُغْري ، وأقصر مدة استمتاعها ، وأكثر المساعي تحت قناعها :

على وجهِ ميٍّ مسحةٌ من ملاحةٍ وتحت الثيابِ العارُ لو كان باديا [1]

ما ثمّ إلاّ أنفاسٌ تركد وتخبث ، وعلل تنشأ وتحدث ، وزخارف حسن تُعاهد ثمّ

---

[1] ينسب لذي الرمة (ديوانه : ٦٧٥) وقيل بل وضع على لسانه .

تنكث ، وتركيبٌ يطلبه التحليل بدَينه ، ويأخذ أثره بعد عينه ، وأنس يُفقد ، واجتماع كأنْ لم يُعقد ، وفراق إن لم يكن فكأن قد :

ومَنْ سَرَّه أن لا يرى ما يسوءه   فلا يتخذ شيئاً يخاف لهُ فقدا

* * *

منغَّصُ العيشِ لا يأوي إلى دعةٍ   من كان ذا بلدٍ أو كان ذا ولدِ
والساكن النفس من لم ترضَ همته   سكنى مكانٍ ولم يسكن إلى أحدِ

وقلت وقد مات سكن عزيز عليَّ أيام التغرب بسَلا عظم جزَعي عليه :

يا قلبُ كم هذا الجوى والخفوتْ   ذَماءكَ استبقِ لئلاّ يفوتْ
فقالَ لا حَولَ ولا قولَ لي   قد كان ما كان فحسبي السكوتْ
فارقَني الرشدُ وفــارقتُهُ   لمَّا تعشقْتُ بشيء يموتْ

والزمان لا يعتبر ، وحاصله خبر ، والحازم من نظر في العواقب ، نظر المراقب ، وعرف الإضاعة ، ولم يجعل الحلم بضاعة ، إنما الحب الحقيق حبٌّ يُصعدك ويرقيك ، ويخلدك ويبقيك ، ويطعمك ويسقيك ، ويخلصك إلى فئة السعادة ممّا يشقيك ، ويجعل لك الكون روضاً ، ومشرب الحق حَوْضاً ، ويُجنيك زهر المنى ، ويُغنيك عن أهل الفقر والغنى ، ويخضع التيجان لنعلك ، ويجعل الكون متصرف فعلك ، ليس إلاّ الحب ، ثمّ الوصل والقرب ، ثمّ الشهود ، ثمّ البقاء بعدما اضمحلّ الوجود ، فشفيت الآلام ، وسقط الملام ، وذهبت الأضغاث والأحلام ، واختصر الكلام ، ومحيت الرسوم وخفيت الأعلام ، ولمن الملك اليوم والسلام ، فالحذر الحذر ، أن يُعجل النفسَ سيرها ، ويفارق القفصَ طيرها ، وهي بالعرَض الفاني متبطة ، وبنائي الثقيل مرتبطة ، وبصحبة الفاني مغتبطة ﴿أن تقول نفسٌ

يا حسرتا على ما فرّطتُ في جنبِ الله وإن كنتُ لمن الساخرين . أو تقولَ لو أنَّ الله هداني لكنت من المتقين . أو تقولَ حين ترى العذابَ لو أنَّ لي كَرَّةً فأكونَ من المحسنين ﴾ (الزمر: ٥٦-٥٨) وفي ذلك قلت :

أعشّاقَ غيرِ الواحدِ الأحدِ الباقي ... جنونُكمُ واللهِ أعيا على الراقي
جُنِنتم بما يفنى وتبقى مضاضةٌ ... تعذّبُ بين البينِ مهجةَ مشتاقِ
وتربطُ بالأجسامِ نفساً حياتُها ... مباينةُ الأجسامِ بالجوهرِ الراقي
فلا هي فازتْ بالذي علقتْ به ... ولا رأسَ مالٍ كان ينفعها باقي
فراقٌ وقَسرٌ وانقطاعٌ وظُلمةٌ ... فِي البعدَ من نيلِ السعادة يا واقي
كأني بها من بعد ما كُشف الغطا ... صريعَةُ أحزانٍ لديغَةُ أشواقِ
تقلّبُ كفّيْها بخيطٍ موصَّلٍ ... رشيقةُ قَدٍّ دونَ سبعةِ أطباقِ
فلا تطعموها السمَّ في الشهدِ ضَلَّةً ... فذلكَ سمٌّ لا يـــداوى بدرياقِ
بما اكتسبتْ تسعى إلى مستقرها ... فإمّا بوفرٍ مُحْسِبٍ أو بإملاقِ
وليسَ لها بَعْـد التفرقِ حيلةٌ ... سوى ندمٍ يذري مدامعَ آماقِ
ولو كان مرمى الحزن منها إلى مدى ... لهان الأسى ما بين وخدٍ وإعناقِ
فجُدُّوا فإنَّ الأمرَ جدٌّ ، وشمِّروا ... بفضلِ ارتياض أو بإصلاحِ أخلاقِ
ولا تطلقوا في الحسِّ ثنيَ عنانها ... وشيموا بها للحقِّ لمحةَ إشراقِ
ودُسُّوا لها المعنى رويداً وأيقِظوا ... بَصيرَتَها من بعدِ نَومٍ وإغراقِ
ومهما أفاقتْ فافتحوا لاعتبارها ... مصاريعَ أبوابٍ وأقفالَ أغلاقِ
وعاقبةَ الفاني اشرحوا وتلطّفوا ... بأخلاقها المرضى تلطُّفَ إشفاقِ
فإن سكرتْ واستشرفت عند سكرها ... لماهيّةِ المَسْقَى ومعرفةِ الساقي
أطيلوا على روض الجمال خطورها ... إلى أن يقوم الوجدُ فيها على ساقِ
وخلُّوا لهيبَ الشوق يطوي بها الفلا ... إلى الوجد في مسرى رموز وأذواقِ
فما هو إلاّ أن تحطَّ رحالها ... بمثوى التجلّي والشهود بإطلاقِ

وتفنى إذا ما شاهدتْ عن شهودها — وقد فنيَ الفاني وقد بقيَ الباقي
هنالكَ تلقى العيشَ تصفو ظلاله — وتنعمُ من عينِ الحياةِ برقراقِ
وما قِسَمُ الأرزاقِ إلاّ عجيبةٌ — فلا تطردِ السؤّالَ يا خيرَ رزّاقِ

وقد أخذ الكلام في هذا الافتتاح حدَّه ، وبلغ النهر مدَّه ، فلآخذ أثر هذا الذي سرَدت ، في تقرير ما أردت ، وما توفيقي إلاّ بالله ، عليه توكلت وإليه أُنيب ؛ فنقول : ينقسم هذا الموضوع إلى أرض ، وشجر غض ، وكلٌ منها ميسور جِدَة ، وفنّ على حِدَة ، ما شئت من مرأى ومستمَع ، فمن شاء أفرد ومن شاء جمَع ، فلنبدأ بالأرض والفلاحة ، والتكسير والمساحة ، وتعيين حدود تلك الساحة ، ثمّ نأتي بالشجرة التي نؤمل جناها ، وننظر إناها ، ونجعل الزاد المبلغ معناها ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون .

برنامج هذا الكتاب الذي يحصر الأجناس والفصول ، ويردُّ الفروع إلى الأصول ، وييسر الباحث عن مسائله بسبب الوصول ، بحول الله وقوّته :

خطبة الأعراس ، وتوطئة الغِراس ، وتنحصر في جملتين :

الجملة الأولى : في صفة الأرض وأجزائها ، وجعل الاختيار بإزائها ، وفيها رتب :

الرتبة الأولى — رتبة الأطباق المفروضة ، والاعتبارات المعروضة ، وفيه مقدمة وأطباق :

المقدمة في تعيين الأرض المذكورة .

الطبق الأول : طبق القلب .

الطبق الثاني : طبق الروح .

الطبق الثالث : طبق النفس .

الطبق الرابع : طبق العقل .

الرتبة الثانية — رتبة العروق الباطنة ، والشعب الكامنة ، وفيها فصول :

الفصل الأول : في العروق المعدنية .

الفصل الثاني : في المقررات العينية .

الفصل الثالث : في المدبرات البدنية .

الفصل الرابع : في البحوث البرهانية .

الجملة الثانية : في صفة الفلاحة والعمل ، المتكفل فيها بنيل الأمل ، وفيها اختيارات :

الاختيار الأول : فيما يصلح للاعتمار من هذه الأرض ، وفيه فصول :

الفصل الأول : في أرض النفس المطمئنة .

الفصل الثاني : في أرض النفس الأمّارة .

الفصل الثالث : في أرض النفس اللوّامة .

الاختيار الثاني : في محركات العزيمة ، لاعتمار هذه الأرض الكريمة ، وفيه فصول :

الفصل الأول : في الجذب وما يتصل بذلك .

الفصل الثاني : في الوعظ المثمر لليَقَظَة .

الفصل الثالث : في ذم الكسل .

الاختيار الثالث : يشتمل على جلب الماء لسَقْي هذه الأرض من عين العلم في جدولي العقل المحرر والنقل المقرر ، وفيه مقدمة في فضل العلم وتعدد أجناسه ، وفصول :

الفصل الأول : في جدول العقل .

الفصل الثاني : في جدول النقل .

الفصل الثالث : في مقدار الماء المجلوب ، للفلَح المطلوب .

الفصل الرابع : في غبار التكوين ، وسبب التلوين .

الاختيار الرابع : في الحرث ، وإخراج لَبَن هذه الفلاحة من بين الدم والفَرْث ، وفيه أقسام :

أولها : القليب الأول .

ثانيها : القليب الثاني الذي عليه المعوَّل .

ثالثها : في سكة الازدراع والتعمير ، وهو مظنة التثمير .

الاختيار الخامس : في تنظيف الأرض المعتمرة من الأرض الخبيثة ، والجذر المعترِضة والشعب المذمومة ، وفيه فصول :

الفصل الأول : في إزالة شكوك تسبق إلى المعتقد غالباً .

الفصل الثاني : في قلع الشجر التي تضر بهذه الأرض وتعاديها بالطبع .

الاختيار السادس : في أُمور ضرورية تلزم لهذه الفلاحة ، وفيه فصول :

الفصل الأول : في أمراض يُشرع في علاجها ، ممّا يرجع لطبع الأرض ومزاجها .

الفصل الثاني : في اختيار أنواعها وأجزائها .

الفصل الثالث : في أقوال تليق بأفحاص الفلاح وإصحاره ، عند ملاحظة عجائب الكون وآثاره .

الفصل الرابع : في الوقت المختار لغراسة الأسباب ، في الحب اللباب ، وتنحصر في مقدمة علمية ، وجرثومة جرمية : المقدمة العلمية في ترتيب المحبة والمعرفة ، الجرثومة الجرمية تنقسم إلى بيان يعطي الصورة ، ويشرح الضرورة ، وإلى بطن وظهر ، وسر وجهر ، وباسط ، وبرزخ واسط ، فالباطن الشرع والنقل ، وينقسم إلى أُصول :

الأصل الأول : الكلام في النبوة من حيث النقل .

الأصل الثاني : في الإيمان والاعتبار العامي .

الأصل الثالث : فيما يتبع ذلك من اليقظة والتوبة في حق غير المحتاج إلى ذلك .

الأصل الرابع : في تقرير العناية والتوفيق في حق غير المحتاج إلى ذلك .

الأصل الخامس : في الموعظة والسماع من حيث تهذيب الجميع ، والظاهر الطبع والعقل ، وينقسم إلى أصول :

الأصل الأول : جزء الفلسفة العلمي والعملي .

الأصل الثاني : سلامة الفطرة في حق المستغني عن ذلك .

الأصل الثالث : في معرفة الجمال والكمال .

الأصل الرابع : في الاعتبار الخاصي .

الأصل الخامس : السلوك بالفكر .

الأصل السادس : في التشبيه بالمبدإ الأول ، باسط الذكر الباسط ، والبرزخ الواسط ، الصاعد من التخوم ، إلى النجوم ، وهو من أخص الأشياء بباطن الشجرة ، وأصولها المعتبرة ، ويشتمل على مقدمة وثلاثة أصول :

الأصل الأول : الأدعية والأذكار ، وله عشر شعب .

الأصل الثاني : أصل الأسماء ، وهي أصول الأرض والسماء ، وله تسع وتسعون شعبة .

الأصل الثالث : أصل السِّيمياء ، وهو الذي عفن بعضه وبقي الانتفاع ببعضه .

العمود المشتمل على القشر والعود ، والجنّى المـوعود ، ينقسم قسمين : قشر وخشب ، ودر مَخْشَلَب ، والقشر ظـاهر يكسر ويخذو ، وباطن ينمي ويغذو ، فظاهره الذي يكسر ويخذو يتضمن الكلام في المحبة وأقسامها من حيث اللسان ، لا من حيث نوع الإنسان ، وباطنه الذي ينمي ويغذو يتضمن الثناء على المحبة طبعاً وعقلاً ، وشرعاً ونقلاً .

الخشب الذي يُتخذ منه النشب ينقسم إلى أقسام :

القسم الأول : في الحدود والمعرفات ، والأسماء الدالة عليها والصفات .

القسم الثاني : معقول معناها ، المتجلي فيه نور سَناها .

القسم الثالث : ارتباطها بالمقامات ، واختصاصها فيها بالكرامات .

القسم الرابع : تبيين ضروريتها ، وإيضاح مزيتها .

الفرع الصاعد في الهواء ، على خط الاستواء ، من رأس العمود القائم ، إلى منتهى الوجود الدائم ، ويشتمل على قشر لطيف ، وجِرم شريف .

القشر : الحدود للمعرفة والرسوم ، وخواص العارف الذي هو المعروف بها والموسوم ، وينقسم إلى فصول :

الفصل الأول : في حدود المعرفة ورسومها وما قيل فيها .

الفصل الثاني : في أوصاف العارف .

الفصل الثالث : في تفضيل العارف .

الفصل الرابع : في علوم العارف .

والجِرم الشريف ، من الفرع المنيف ، ينقسم إلى ظاهر ، وباطن ، وقلب .

فالظاهر ينقسم إلى أقسام : الكلام في الأخلاق ومنشئها وطباعها بحسب القوى النفسانية وإفراطها وتفريطها واعتدالها وعلاجها ، وفيه المجاهدات .

والباطن يتضمن الكلام في أن النظر إلى وجه الله تعالى هو السعادة الكبرى بكل نظر واعتبار .

والقلب قلب الغصن يتضمن الرياضة والسلوك على المقامات كلها ، ويتفرع منه عشرة غصون :

الغصن الأول : غصن فروع البدايات .

الغصن الثاني : غصن فروع الأبواب .

الغصن الثالث : غصن فروع المعاملات .

الغصن الرابع : غصن فروع الأخلاق .

الغصن الخامس : غصن فروع الأصول .

الغصن السادس : غصن فروع الأدوية .

الغصن السابع : غصن فروع الأحوال .

الغصن الثامن : غصن فروع الولايات .

الغصن التاسع : غصن فروع الحقائق .

الغصن العاشر : غصن فروع النهايات ، ولكل فروع أوراق ، ويلحق به صورة السلوك بالذكر حتّى يتأتى الوصول ، وعلى المقصود الحصول ، والكلام على زهرات الطوالع واللوائح والبواده والواردات ، ونختم بالجنّى ، المقترن بنيل المنى ، وهي الولاية .

تفرع ضخام الغصون ، من شجرة السر المصُون ، وهي :

غصن المحبوبات وأقسامها ، وتنقسم إلى أربعة أفنان :

الفن الأول : فن الرب المحبوب .

الفن الثاني : فن العبد المحبوب .

الفن الثالث : فن الدنيا المحبوبة .

الفن الرابع : فن الآخرة المحبوبة .

غصن المحبين ، وأصنافهم المرتبين ، ينقسم إلى مقدمة بيان ، وستة أفنان :

الفن الأول : في رأي الفلاسفة الأقدمين .

الفن الثاني : في رأي أهل الأنوار والإشراقيين .

الفن الثالث : في رأي الحكماء الإسلاميين .

الفن الرابع : في رأي المكملين بزعمهم المتممين .

الفن الخامس : في أهل الوحدة المطلقة من المتوغلين .

الفن السادس : في الصوفية سادة المسلمين .

غصن علامات المحبة ، وشواهد النفوس الصَّبَّة ، وينقسم إلى ثلاثة أفنان :

الفن الأول : فيما يرجع إلى حقوق المحبوب .

الفن الثاني : فيما يرجع إلى باطن المحب .

الفن الثالث : فيما يرجع إلى ظاهره .

غصن اختيار المحبين في ميدان جهادهم ، وتباين أحوال أفرادهم ، وهو ثلاثة أفنان :

الفن الأول : فن المجاهد الصريح .

الفن الثاني : فن المنبتّ الجريح .

الفن الثالث : فن الصريع الطريح .

جوائح الشجرة ، ومَضار فلاحتها المعتبرة ، وينقسم إلى جوائح من نسبتها ، بالنظر إلى مائها وتُرْبتها ، وإلى ما هو راجع إلى الخواطر – وهي على عدد الرياح – وإلى ما سببه غَفْلة الفلاّح ، عذر الطائر الصادح ، على فرض القادح ، ووجود الهاجي والمادح .

صورة الشجرة ذات الحسن الباهر ، والجنَى والأزاهر ، وآثارها للحسن الظاهر ، بفضل المريد القاهر ، لا إله إلاّ هو سبحانه له الحمد ؛ انتهت الخطبة التي تدل على ما وراءها .

وقال رحمه الله تعالى في آخر هذا الكتاب ما نصه : ونختم الكلام في هذه الشجرة والاستدلال على شرف هذه الفلاحة الضمنية بهذه الأبيات :

فلاحَتنا لهـــا القِدْحُ المعلّى   وسَرْحَتنا الضمينَةُ للنّجاحِ
ألستَ ترى منادي الخمس نادى   بمختلفِ الجهاتِ أو النواحي
يرددُ في الأذانِ لكلّ واعٍ   على الآذانِ حَيَّ على الفَلاحِ

وهذا طائر على الشجرة صادح ، ولاحق كادح ، ومعتذرٌ إن قدح قادح ، وتعارض هاج ومادح . قال المؤلف : ولا بد لنا من دريّ صادح على هذه الأفنان ، وشادٍ يهيج أشجان الجنان ، ويثير شجو الرأفة والحنان ، ويبين مجال الضرورة لذوي الاتصاف ، بكرم الأوصاف ، والناظرين إلى الهنات بعيون الإنصاف ، فيرحم من قد كان شره النّقْد ، ويعذر مَنْ تشوّف لاستضعاف هذا القصْد ،

والأعذار التي تقرر عنا هذا الطائر عديدة ، ومبدئة في الصدق معيدة ، وقريبة من الحق لا بعيدة ، فمنها أن هذا الفرض اليوم بأكثر الأرض ، ميدانٌ عـدم فيه ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله مَنْ يُجيل[1] كما يحب جواداً ، ونفيرٌ لا يجيبه إلاّ من يكثر سَواداً ، قد طُمست الأعلام ، وسقط الحمد والملام ، وما لجرح بميت إيلام ، فمدلول هذا الفن بهذه التخوم عنقاء مغرب ، وإكسير يحدث عنه غير واصل ولا مجرب ، إنما يرجع فيه إلى كتب مُقْفلة ، وأغراض مغفلة ، وما عسى أن يعوّل المسكين مثلي على قاصر إدراكه ، مع اقتسام باله واشتراكه ؟ قَصَّر العلم والعمل ، فاختلط المرعيُّ والهَمَل ، وأخفق المسعى وخاب الأمل ، ومنها شواغل الدنيا التي اختطفت من المكاتب ، وموّهت بالمراتب ، ولقبت بالوزير والكاتب ، وأقامت العبدَ الذي لا يملك شيئاً مقام العاتب ، ومن كان بهذه المثابة وإن عُدَّ يقظاً حازماً ، ونحريراً عالماً ، فإنما هو غريق ، وتائه لا يبدو له طريق ، ولا ينساغ له ريق ، ولا يُطفأ ببرد اليقين منه حريق ، ولا يربع عليه من قصاد الله تعالى فريق ، ونستغفر الله ، فالذي ألهم لهذه العيوب ، يتكفل بإصلاح القلوب ، ومكاشفة الغيوب ، وإن كانت النفوس للحق جاحدة ، فما أمري إلاّ واحدة :

لا تعجبنَّ لطالبٍ نالَ العــلا كهلاً وأخفق في الزمان الأوّلِ
فالخمرُ تحكمُ في العقولِ مُسِنّةً وتُداسُ أوّلَ عصرها بالأرجُلِ

ومنها الاشتغال بالهَذَر ، عن العلم والنظر ، منذ أزمان عديدة ، ومُدَد مديدة ، فلم يبقَ ممّا حُصِّل ، وإليه ممّا في الزمان القديم تُوصِّل ، إلاّ رسم بلقع ، وسمل[2] ما له مُرَقّع ، ومنها أنني لم أنتدب إلى هذا الوظيف الذي قَلَّ من يتعاطاه ، ويثير قطاه ، ويقتعد مطاه ، من تلقاء نفسٍ جاهلة ببعد مداه ، ومَطل جَداه ، ومطالبة مدعيه بما كسبت منه يداه ، فلا يتجاوز طوره ولا يتعداه ، وإن طالب الحق من شرط وصوله ، سلب فصوله ، وحالة موته ، وانقطاع حسه فضلاً عن صوته ،

---

١ ق : بخيل . ٢ ق : شمل .

لكني خُضتُ على عدم السباحة غمراً ، وامتثلت مع سقوط الاستطاعة أمراً ، وجئتُ بما في وسعي انقياداً وامتثالاً ، ومثلت مثالاً ، فضرورتي بفضل الله تعالى مشروحة ، والدعوى عن كتفي مطروحة ، وعلى ذلك فقد علم الذي يعلم الأسرار ، ويقرّب الأبرار ، ويقيل العثار ، ويقبل الأعذار ، أن مدة الاشتغال به لم تجاوز شهرين اثنين ، بين كتب وكتم ، وابتداء وختم ، مع ما يتخلل الزمان من حمل لو رُميَ به رَضْوى لتَدَعْدَع ، أو أُنزل على ثَبير لخشع من خشية الله تعالى وتصدع : مداراة عدو قد تكالب على الإسلام ، وسياسة سواد صم عن الملام ، وتعدّي حدود النُّهى والأحلام ، وارتقاب هجوم جيش الآجال ورايةُ الشَّيبِ من الأعلام ، وقد أنذر بالفجر انقشاع الظلام ، وكاد يصعد الخطيب فينقطع الكلام ، جعلت لنقله حصة من جنح الظلام الغاسق ، والليل الواسق ، وعاطيت حميّاه نديم الغارق[1] ، وتعرضت لاقتناص خياله الطارق ، وسرقته من أيدي الشواغل والليل معين السارق ، ولم يعمل فيه عبد القيس[2] نظراً مُعاداً ، ولا أنجز من تصحيحه علم الله تعالى ميعاداً ، إنما هو كراس يفرغ من تسويده رجراج الحبر ، مختلط الترب بالتبر ، فيدفع ملمومُ الماسخ ، إلى يد الناسخ ، وكلفة المتاقل ، إلى كف الناقل ، وتُقذف صحيفته من الزبرة إلى الصاقل ، إذ كان الآمر — أيده الله تعالى ونفعه — حريصاً على تعجيل المعارضة ، ومتحرياً سبيل الشرع في هذه المصارفة والمقارضة ، والجفن المشرّق يعلن بالتبريح ، وينتظر مساعدة الريح ، فمن وقف عليه من فاضلٍ أنار الله بصيرته ، وجبل على الإنصاف سيرته ، أو مَنْ كان من أهل الله الذي يعلم أن ما سوى الله تعالى ظل وفَيْء ، ويتحقق معنى قوله ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ ، فقد أوجب الإنصافُ أن يمحو اقترافي باعترافي ، ويغطي أوصافي بإنصافي ، والرحماء يرحمهم الرحمن ، وقد عذر القنبرة سليمان ، ومع

١ كذا ، ولعل صوابه « العاتق » أي الخمر القديمة أو الشراب الجيد .
٢ حقه أن يقول عبد قيس ، لإشارته إلى قول الشاعر :

أعد نظراً يا عبد قيس فإنما أضاءت لك النار الحمار المقيدا

الاستسلام الأمان ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله . ولا بأس أن يُعَرِّضَ بتلك الأخونَةِ الحصيبة المثوى والمروج ، والحمل والفرّوج ، وفي السماء البروج ، وفي الأرض الفُروج ، والأعرج يُستَنذر منه العروج ، ونمد الأيدي المستعملة في التقصير ، إلى الولي النصير والناقد البصير . اللهم استر بسترك فضائحنا المخلّفة ، وقبائحنا المجمّعة المؤلّفة ، فهو كله تحويمٌ حولَ حِماكَ ، ودندنة يا كريم بباب رُحماك ، وزند أنت قَدَحْته ، وتألّق بارقٍ أنت ألحته ، فصِلِ السبب يا واصل الأسباب ، واجعلنا ممّن تذكّر فنفعته الذكرى وما يتذكر إلاّ أولو الألباب ، اللهم دُلّ نفوسَنا الحائرة على عين الخبر ، واجذبها إلى المؤثر بزمام الأثر ، اللهم اجبر الضالة المُثْقَلَةَ الظهر ، وارفع عنها مَلَكَةَ القهر ، وحيطة الدهر ، والسفر من بلد السر إلى بلد الجهر ، اللهم أعلق بعروة الحق أيدينا الخابطة ، وأظفر بعدوّ الهوى عزائمنا المرابطة ، اللهم أوصِلْ سببنا بسببك ، واحملنا إليك بك ، لا إله إلاّ أنت ، وصلّ على عبدك ونبيّك محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله والصحابة أجمعين » انتهى .

وقال — رحمه الله تعالى — آخِرَ بعضِ تراجم هذا الكتاب ما صورته : خاتمة تشتمل على إشارات ، وتختال من الحق في شارات ، قال بعض مَنْ يطأ بمطية السلوك ، حِمى الملوك ، وينقض زوايا الغيوب ، عن المطلوب ، ببصر بصائر القلوب : شهدت أصناف المحبين والعشاق ، على اختلاف البلاد وتباين الآفاق ، لا أدري أقال كشفاً وشهوداً ، أو فرضاً أو وجوداً ، أو يقظة أو هجوداً ، وقد رَكَضُوا مطايا الأشواق ، وضربوا آباطها بِعصيّ المشارب والأذواق ، وتزوّدوا أزواد الحقائق ، وودعوا أحباب العوائد والعلائق ، وتساهلوا في المحبوب اعتراض العوائق ، وتفاضلوا في اختيار الجوادّ واقتحام المضايق ، والطرق إلى الله تعالى عدد أنفاس الخلائق ، فمن خابط عَشْوَاء ، ومسقط أهواء ، يقول :

يا ليتَ أنّي أُوقدُ النـارا فإنّ مَنْ يهواك قد حارا[1]

---

١ حور في قول عدي بن زيد :

يا لبنى أوقدي النارا إن من تهوين قد حارا

فيجيبه الصدى :

ومن طلب الوصول لدار ليلى بغيرِ طريقها وقعَ الضلالُ

ومثبت بحيث لا يبدو عَلَم ، ولا يُقتص خف ولا قَدم ، في مفازةٍ وجودُ من حلّها عَدَم ، وهو يصيح :

بأبي وأمّي والذي ملكتْ يدي أفْدي الذي يهدي الطريقَ اللاحبا

ثم يقول :

ولقد سَرَيْتُ إليك لكنْ حين لم يكن الدليلُ أجلَّ قصد السالك

ومن طاوٍ نفد زاده ، وفرغ مزاده ، قد استسلم ، وعجز أن يتكلم ، ولسان حاله ينشد :

إذا أنْتَ لم تزرع وأبصرتَ حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذْرِ

وراكضٍ يقطع الدوّ ، ويعرف الجوّ ، يثبت الأعلام الخافية ، ويقصد الموارد الصافية والظلال الضافية ، حاديه أملُه ، ودليله علمه والراحلة عمله ، ينشد بأعلى صوته :

قَرُبَ اللّقاءُ فكيف لا ترتاحُ للقاء سكانِ الحمى الأرواحُ

وفرانقٍ يركض البريد ، ويصحب التفريد ، بلغ الطيَّة ، وأناخ المطيَّة ، قبل وصول الرفقة البطيَّة :

سرى سلخ شهر في فُوَاق حلوبةٍ فللّهِ ما أنأى سُراهُ وما أدْنى

﴿ لو اطَّلعتَ عَلَيْهِم لوَلّيْتَ مِنْهُم فِراراً ولمُلِئْتَ مِنْهُم رُعْباً ﴾ (الكهف : ١٨) .

وقلت :

نَهَضُوا وقد جنَّ الدجى وتخالفت سبلُ الردى فمسدّدون وضُلَّـلُ

سلني عن المنبتِّ حينَ تقطعت أسبابه تيهاً ولا من يَسْأَلُ
قومٌ سَطَتْ بهمُ السباعُ ، وفرقةٌ عطشوا ، وأين من الظمّاء المَنْهلُ ؟
لفَحَ الهجيرُ وجوهَهُم بسعيره فتهافتوا ببلالةٍ وتعلّلوا
وجماعةٌ ركبوا المفاوز دائماً عثروا على أثر فشَطَّ المنزلُ
وركائبٌ جعلوا الدليل أمامهم وسَرَوْا ففازوا بالذي قد أمّلوا
والليلُ مُتْلَفَةٌ ، ومَدْرَجَةُ الهوى لا يستقلُّ بها المطيُّ الذلّلُ
والواصلون هم القليل وكيف لا قفر ومَسْبعة وليل أليَلُ
يا رحمةً للعاشقين تقحّموا خطر النوى وعلى الشدائد عوّلوا
طارتْ بهم أشواقهم فعقولهمْ معقولةٌ عن شأنها لا تعقل
عذراً لكم يا أهل عُذْرَةَ شأنكم سَلّمْتُ فيه لكم فقولوا وافعلوا

حتّى إذا خرجوا إلى قضاء القدر المشترك ، وأفلت من أفلت من الشَّرَك ، وسلم من قتيل المعترك ، وأشرفوا بركاب الآمال ، على ثنية الجمال ، زعقوا بإزاء الباب ، ونادوا من وراء الحجاب :

كُلٌّ كَنَى عَنْ شَوْقهِ بلغاته ولربما أبكى الفصيحَ الأعْجَمُ

وأوصلوا رقاع شكواهم ، بسرّ هواهم ، وبرزوا صفّا ، واستظهروا بشفعائهم التي ظنوا أنها لا تخفى ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إلاّ ليُقَرّبُونا إلى اللهِ زُلْفى﴾ (الزمر : ٣) وقد تعينت الأوصاف وتميزت ، وانتبَذَت الأصناف وتحيزت ، والعشاق نجت وسلمت ، مذ علمت ، منهم الصقُوة والمجان ، والحرافيشُ والبهلوان ، ممّن يعوّل على ذراعه ، وملء كُمّته وصواعه ، وطول باعه ، وصلابة طباعه ، وسَلاطة لسانه ، وامتزاج إساءته بإحسانه ، شأنه البحث عن المحبوب ، مع الشروق والغروب ، والتوصل إلى وَصْله المطلوب ، بالحركة الرشيقة واللفظ الخَلوب ، ومن اتّسَمَ بإذاعة الأسرار ، وصحبة الشرار ،

واللسان المهذار ، حَسِبَ من الأغيار ؛ ومنهم بُذاة ، ليس لهم إلاّ المُنادمة أدة ، تعذر عليهم تميز المحبوب فغلطوا ، وعكفوا على تنزيهه فأفرطوا :

ربما ضرَّ عاشقٌ معشوقاً   ومن البرّ ما يكونُ عقوقا

وغلبت على سجيتهم السلامة ، ولم تنلهم لعدم الموصِّل والمعرِّف الملامة ، وليس للقبول عليهم علامة ؛ ومنهم مَنْ شعاره الحشمة ، ولزيمه العفاف والعصمة ، أولو الحياء والوقار ، والكتم للأسرار ، ومخالطة الأبرار ، والتوسل إلى المحبوب بالافتقار ، وصفاء الضمائر من الأكدار ، لا تختلجهم الشواغل ، ولا يطرق شرابهم الواغل[1] ، أغنتهم الشواهد عن الدعوى ، وأصمتهم الرضى عن الشكوى ، وتقسمت معاملاتهم الآداب ، وصحَّ منهم إلى مراتب المراقبة الانتداب ، والناقد بصير ، وكلام النيات قصير ؛ ومنهم المغلوب الحال ، المحمول من فوق الرحال ، رَقَصَ وشطح ، وسكر فافتضح ، فهو بلخ الرفقة ، وملوع الحرقة ، دعني وعبدي بلخ ، فإنّه يضحكني سبع مرات في اليوم ؛ ومنهم من لم يأخذه نعت ، ولا تعين له فوق ولا تحت ، ولا حمد ولا مقت ، ولا حين ولا وقت ، لو نطق لقال : أنا المعدوم الموجود ، والشاهد المشهود ﴿ألا بُعْداً لِمَدْيَنَ كما بَعِدَتْ ثمُودُ﴾ (هود : ٩٥) .

قضى وَصْلها لي ، وابتلاكم بحبّها   وهل يأخذُ الإنسانُ غيرَ نصيبِهِ

ولم يكنْ إلا أن خرجتِ الرقاع ، وفُضِّلَتِ البقاع ﴿وَوُفِّيَتْ كلُّ نفْسٍ ما عَمِلَتْ وهُم لا يُظْلَمُون﴾ (آل عمران : ٢٥) .

فكان في رقعةِ طائفة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وما كانَ لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاّ وَحْياً ، أو مِنْ وَرَاءِ حِجاب ، أو يُرْسِلَ رَسُولاً

[1] الواغل : المتطفل على الشراب ، يكني به عن الدخيل في فريق أهل الحياء من السالكين .

فيُوحي بإذْنِه ما يَشاء ﴾ (الشورى: ٥١) قلدتم العقل وله طَوْرٌ ، ورأيتم الحركات لا يتناهى لها دور ، وعالم الجزئيات لا يُسْبر له غَوْر ، وَحَوْرُ المعادِ في بعض الفروض لا يكونُ له كَوْر[١] ، ويا شَرَّ ما أصبحتم في المعاد الأول تعتقدونه ، أن جعلتم التصرف في عالم الملك لمن دونه ، قفوا مكانكم ، ولوموا أنفسكم ودعوا شانكم[٢] .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ ارجِعُوا وَرَاءكُم فالتَمِسُوا نُوراً ﴾ (الحديد : ١٣) أساطينَ الحكمة المشرقية ، وفَرَاش الأنوار الحقيقية ، دعونا من استكثار الأنوار ، واحتشاد الأطوار ، الحقُّ نورُ إرشادٍ لا يطيقُ حُسْنَ ذاته ، إلا من ركب ظهر شَتاته ، فارفعوا الكلف ، واذكروا مجرى من تقدم وسلف .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ قُلِ اللهُ ، ثمَّ ذَرْهُم في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُون ﴾ (الأنعام : ٩١) لَمْ تتركوا البراهين على أصلها ، ولا ناسبتم جنسَ هذه الموضوعات بفصلها ، وأثرتم شَغَباً طويلاً ، وأوسعتم المُتشابه تأويلاً ، ولم تعتمدوا من العقل دليلاً ، ولا وقفتم في مجازات العقول قليلاً ، وهَوَّلتم باصطلاح غيركم تهويلاً ، وادعيتم الشهود ولم يجعل الله تعالى في الاحتجاج به إلا للأنبياء سبيلاً ، وبنيتم الحقائق على قياسٍ ونظر ، من غير عين للعقل والنقل ولا أثر :

رُبَّ خِلٍّ أدار فيَّ اعتقاداً   لم أكنْ قبله عَرَفْتُ بفنّهْ
حكمتْ نفسُهُ على علم غيبي   جعلَ الله باطني عندَ ظنّهْ

وعسى أن تكونوا ممّن أخطأ في اجتهاده فأُثيب ، واستغفر فسمع « لا

---

١ الحور : النقصان ، والكور : التمام .
٢ ق : ولوموا مكانكم والزموا شانكم .

تَشْريب » ، فثمرتكم صحيحة ، والمقاصد من التبعة مريحة ، إذا كانت صريحة ، ولولا الافتيات ، لوضحت في ميدان السبق لكم الشيّات ، لكنْ شانكُمُ الهذيان ، وقُلبت منكم بضعفائكم من المتأخرين الأعيان ، كابن قسيٍّ وابن برْجان[1] ، فتبرأوا من أتباعكم المُطيفة ، وأحزابكم المخيفة ، وأخلصوا فعلَ الأنصار يوم قتال بني حنيفة ، وحبّذا الحكم المقتدي ، ومن يهد الله فهو المهتدي ، واكْبَحُوا الألسن عن طلاقتها وذَلاقتها ، ولا تكلفوا العقولَ فوق طاقتها ، فلا بد من توقيف وتسليم ، وفوق كل ذي علم عليم ، وإذا محيتم فاثبتوا ، أو نطق إنسان فاسكتوا ، ولا ترضوا أن تُكتبوا مع الذين كُبِتُوا ، ولكم الحظ السني ، والوصل الهني .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وما خلقْنا السّماء والأرضَ وَما بَيْنَهُما لاعبين ، ما خلقْناهُما إلاّ بالحقّ﴾ (الأنبياء : ١٦) ذهب بوجودكم العدم ، وابتلع حدوثكم القِدم ، ورضيتم بالإشراف ، في الاستشراف ، والتوغّلُ لَزِيمُ الانحراف ، ومن جعل الحسّ وَهْماً ، فقد كابر العيان ظلماً ، والعقل الذي غلّطكم هو آلةُ حكمكم ، وأداة علمكم ، والعوالم أوثق من أن تكون تمويهَ راقش ، والوجودُ المطلقُ أبسطُ من أن يصير أبا بَرَاقش[2] ، ثمّ ما لكم والتبجحَ والتشبع[3] ، والتعقبَ والتتبع ، ولم يغن العراك ، ووقع في ثمرتكم الاشتراك ، فالفيلسوف يتّحد بالعلة القريبة من الخلق ، ثمّ يتلاشى في ذات الحق ، والحكيم يَجُوز إلى عين الحق رتبة الفناء المطلق ، والمتشرّع قد

١ ابن قسي : ثار في أعقاب دولة المرابطين وتسمى تلك الثورة « ثورة المريدين » وكان شيخاً من مشايخ الصوفية وهو صاحب كتاب خلع النعلين ، وقد انتشرت طريقته بشلب وكثر خوض أتباعه في الكتب التصوفية وموضوعات الغلاة من الباطنية ؛ وأبو الحكم ابن برجان أيضاً من المتصوفة، وقد غربه علي بن يوسف اللمتوني وتوفي بمراكش سنة ٥٣٧ (انظر أعمال الأعلام : ٢٤٨ — ٢٥٢) .

٢ أبو براقش : رمز للتلون ، وهو اسم طائر يتنفش فيتغير لونه .

٣ التشبع : أن يدعي المرء ما لا يحسن .

عضده ونصره ، « كنت سَمْعه وبَصَره » ، وإن كان معظم القول الهذر ، ففيكم بعدُ نظر .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿والّذينَ جاهَدُوا فينا لنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنا ، وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحسنين﴾ (العنكبوت : ٦٩) أنتم الأحباب، ولكم يُفتح من الجِنان[1] الأبواب ، ركبتم ظهور الأعمال ، وركب غيرُكم ظهورَ الآمال ، وفزتم بسَحْب الأذيال ، ومَنْ دونكم يحوك عناكب الخيال ، فبدايتكم الأساس الوثيق ، الذي يبنى عليه التحقيق ، ونهايتكم إليها ينتهي الطريق ، وبها يحط فريق الله تعالى ونعم الفريق ، أولكم المقرب المدرَّب ، وأوسطكم الفرد المعرب ، وآخركم الولي المقرب ، حضرتم بذكر محبوبكم حتى غبتم ، فهنيئاً لكم طبتم ، حواسُ مسدودة ، وخيوط أفكار كلّها ممدودة ، ومشاهد مشهودة ، ومغلطات تتجاوز حُرَّاسها ، وقواطع معترضة بحلِّ مِرَاسها ، إلى أن لا توجد تَقيّة ، ولا تبقى بقية ، عند تجلي المعالم الخفية ؛ لو اشتمل العلم على عملكم ، لكان الكلُّ من هملكم ، بحيث تتعين المراتب وتتميز ، وتتقرَّر المشارب وتتحيز ، فلا يعترض قاطع إلاّ وقد علم شانه ، وتعين وقته ومكانه ، ولا تمثل غاية إلا ودرجها محدودة ، ومراحلها معدودة ، ومشاهدها قبل دخول الطريق مشهودة ، فهناك تُطْوَى المراحل ، ويلوح في اللّمحة القريبة الساحل ، ويأمن طولَ الطريق الواصل .

وكان في رقعة المحبين الذين قربوا قبل هذا اليوم وأُدخلوا ، من بعد ما تخيروا للاصطفاء وانتخلوا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إنَّ اللهَ اصطَفى آدَمَ ونُوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمرانَ على العالمين ، ذُرِّيَّةً بعضُها مِن بعضٍ ،

[1] ق : الجناب .

والله سميعٌ عليم ﴾ (آل عمران : ٣٣ ، ٣٤) أنتم الأحباب ، ولباب الألباب ، وبوساطتكم اتصلت بين النفوس وبين الحق الأسباب ، لولاكم لم يُفتح الباب ، فلا يصل إلاّ مَنْ أوصلتم ، ولا يُحجب إلاّ من قطعتم وفصلتم ، أنتم الرعاة والخلق الهمل ، وأنتم الدعاة لمن يريد نَيْلَ الأمل ، مُهدت لكم سُرُرُ القرب تمهيداً ، وبُعثتم إلى الناس ليوحدوا الله توحيداً ﴿ ولتكونوا شهداء على النّاسِ ويَكون الرّسُولُ عليكم شَهيداً ﴾ (البقرة : ١٤٣) فطوبى لمن أصاخ منكم إلى ندا ، واستضاء بنور هُدى ، صلواتُ الله عليكم أبدا ، أنتم أولو الألوية المعقودة ، والعساكر المحشورة المحشودة ، ورؤساء أهلِ المحبّةِ ، وأدلاّء مبتغي الوسيلة والقُرْبة ، ومسالككم قد بينتها الصحفُ المُنْزلة ، والملائكة المرسَلة ، ودخلت على العَذارى خُدورها ، وعمت السماء وبدورها ، وأغنت عن تقرير نحلها المكاتبُ المائجة بالصبيان ، والسنن المعقودة لها حلق التبيان ، والقواعد المفترضة على الأعيان ، والخزائن المرصوصة بعلوم الأديان ﴿ اليومَ أكْمَلْتُ لَكُم دينَكُم ، وأتمَمْتُ عَليكُم نِعْمَتي ، ورَضيتُ لكُمُ الإسْلامَ ديناً ﴾ (المائدة : ٣) وقيل لأتباعهم من الجمهور ، وأقطاب فَلَكِهم المشهور : على قدر أتباعكم ، مناقل أبواعكم ، وبحسب اقتدائكم ، يكون سماع ندائكم ، والمِهادُ لمن وَثَره ﴿ ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذرّةٍ خيراً يَرَه ﴾ (الزلزلة : ٧) وتأخيركم في التوقيع هو التقديم ، و« ساقي القوم آخرهم شربا » مَثَلٌ قديم ، قال المخبر : فرأيت وجوههم قد تهللت ، ونَوَاسم المسرّات نحوهم قد أقبلت ؛ وَمَنْ سواهم من خالص وزائف ، بين راجٍ وخائف . وسمعت أن طائفة استُدعيت بحثٍّ حفيّ ، وأُدخلتْ من باب خفيّ ، قيل لهم : هم أصحاب الخبر المكتوم ، وأرباب المقام غير المعلوم ، جعلنا الله تعالى منهم برحمته :

ولولا الحبُّ ما قَطعُوا الفيافي ولولا الحبُّ ما قَطَعُوا البحارا
فدَعْهُمْ والذي ركبوا إليه وبحثاً عن خلاصكَ واختبارا

فلا تشغل بحبّ ديار لَيْلى   ولكن حبٌّ من سكن الديارا [1]

وقال قبل هذه الخاتمة بعد كلام كثير ما نصّه : وقد أتينا على ما شرطنا من تقرير ما أمكن من هذه الآراء ، وهم ما بين سابق للخيرات ومقتصد وظالم لنفسه ، ومع ذلك مُخبِتون ، وعلى آثار الحبيب مُكِبُّون ، ما كلّ طريقٍ تُوَصِّل ، ولا كل تجارة على الربح تحصِّل ، ومن العشاق مهجور ومطرود ، وموصل وموعود ، ومغبوط ومحسود ، ومحروم ومَجدود ، ومرحوم ومردود :

يا غايتي ، ولكلّ شيء غاية ،   والحبُّ فيــه تأخُّرٌ وتقدُّمُ
قلْ لي بأيّ وسيلةٍ يحظى بما   يرجوه غيري من رضاكَ وأحرَمُ

ورَقة : ولكلٍّ دائرةٌ مفروضة ، وهالة حولَ قَمَرِ الحق معروضة ، تعود الخطوط مَن محيطها المُسَدَّد ، إلى مركزها المحدد : فالفيلسوف يروم التشبث بالعلّة الأولى ، ويعني بها ذات الحق ، أو أن يتحد بالثانية ، وهي مرآة وجه الحق ؛ والإشراقيُّ يروم التّجَوْهُر بنور الأنوار المعبر عنه بالحق ، والاتصالَ به إمّا بواسطة من الحق أو بغير واسطة من الحق ؛ والحكيم أن يؤديه فكره إلى الحق ، ثم يَفْنَى في الحق ، ثم يبقى بالحقّ ، والمتشرّع أن يُجَنَّ في جنة الحق ، ويحصل على جوار الحق ، وينظر إلى جوار الحق ؛ وصاحبُ الوَحْدة المطلقة أن يكون المتفرّق عين الحق ، فسبحان الحق ، المعبود بالحق ، الموجد الجمعَ في الفَرْق ، لا إله إلا هو . وزيد في هذا المحض الذي كثُر في قربه الدعداع [2] ، وطال على الرؤوس منه الصُّداع ، ما تفرد له المقالة المختصرة ، والعناية الميسرة ، بحول مَنْ لا حول ولا قوّة إلاّ بهِ . انتهى .

وقال رحمه الله تعالى في عد ما عدد من فرق الاعتزال ما نصّه :

---

١ حور قول الشاعر :

وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا

٢ الدعداع : العدو فيه بطء والتواء .

الحبُّ حَرَّكهم لكل جِدَالِ   والحُبُّ أقحمهم على الأهوالِ
والحبُّ قاطَعَ بينهم وأضلَّهم   عن نيلِ ما راموه كلَّ ضلالِ
والحبُّ أنشأ فيهمُ عصبيةً   بالقِيلِ أضرم نارها والقالِ

وإنّما استكثرنا من ذكرهم عبرة لمن تأمل حركاتِ هذا الفَراش المختلف الآراء عن ذُبال الحق ، يبتغون إليه الوَسيلة ، قومٌ بالطاعة ، وقوم بالمعصية ، وما منهم إلاّ مُدّعٍ في المحبّة متهالك ، حريص على السعادة بزَعْمه ﴿ وجوهٌ يومَئِذٍ خاشعَةٌ عاملةٌ ناصِبَة ﴾ (الغاشية : ٢) ممّن قصد الحق فأخطأه ، وأراد الصوابَ فضلَّ عنه ، واشتهر بالحكمة بعدُ في الملّة الإسلامية جماعــةٌ بالمشرق والأندلس ، فمن المشارقة : أبو الفرج[١] ، ويَعْقُوب الكندي ، وحُنَيْن بن إسحاق ، وثابت بن قرّة ، فكان عندهم مباشرتها من حيث الترجمة والمزاولة ، إلى أن قال : ومن أهل الأندلس : محمد بن مسعدة السرقسطي ، وأحمد بن طاهر الطُّرْطُوشي ، ويحيى بن عمران القرطبي ، وطُفَيل بن عاصم ، وكُلَيْب بن همام البياسي ، والحسن بن حرب الداني ، وابن مسرة ، ومسلمة المجريطي ، وأبو بكر ابن الصائغ ، وأبو بكر ابن طُفَيل ، وأبو الوليد ابن رُشْد[٢] ، وكلّ هؤلاء المتقدمين والمتأخرين محب عاشق مستهلك ، قال الشاعر :

وعــليَّ أن أســعى وليـــس عــليَّ إدراكُ النجاحِ

* * *

حَيارى يَميدُ بِهِمْ شَجْوُهم   كأنّهمُ ارتَضَعُوا الخندريسا

* * *

١ أبو الفرج هو عبد الله بن الطيب وسنترجم له بعد صفحات .
٢ قد جمع لسان الدين هنا عدداً من المشتغلين بالحكمة من الأندلسيين وإذا استثنينا آخر خمسة ذكرهم وجدنا البقية ممن لم يعرفوا معرفة واضحة .

إذا لم يكنْ عَوْنٌ من الله للفتى أتَتْهُ الرزايا من وجوهِ الفوائدِ [1]

﴿ ولَوْ شاء ربُّكَ لجَعَلَ النّاسَ أُمّةً واحِدَةً ، ولا يَزالُون مختلفِين ، إلاّ مَن رَحِمَ ربُّكَ ولذلكَ خلَقَهُم ،وتمّتْ كلِمةُ ربّكَ لأمْلأنَّ جَهَنّمَ مِنَ الجِنّةِ والنّاسِ أجْمَعين ﴾ (هود : ١١٨) ﴿ فريقاً هَدى ، وفريقاً حقّ علَيْهم الضلالة ﴾ (الأعراف : ٣٠) ﴿ قُلْ سيرُوا في الأرْضِ ثمَّ انْظُرُوا كَيفَ كانَ عاقبَةُ المُكَذّبين ﴾ ، ﴿ قُلْ فللّهِ الحجّةُ البالغةُ ، فلو شاء لهداكُم أجْمَعين ﴾ (الأنعام : ١٤٩) والخلق قد مدوا أبصارهم وآمالهم ، وتحركوا طوعاً وكرهاً يَعْشُون إلى نور الله تعالى ، فمِن أعمى أصمّ لا يسمع ولا يبصر ، وأعمى فقط يجتزىء عن العيان بالمخبر ، وأحول يبصر الشيء شيئين ، والواحدَ اثنين ، كما قال الشاعر :

أحوى الجفونِ له رقيبٌ أحولٌ الشيء في إدراكه شيئانِ
فيلوحُ في عينيَّ منهُ واحدٌ ويلوحُ في عينيهِ منه اثنانِ
يا ليتـه ترك الذي أنا مبصرٌ وهو المخيَّرُ في الحبيب الثاني

وضعيف لا يبصر من بعيد ، وأجهر لا يبصر من قريب ، وأعشى تكثر في عينيه الأشعة ، وربما تندر ، وزرقاء اليمامة :

سبحانَ من قَسَمَ الحظو ظَ فلا عتابَ ولا ملامه [2]
أعشى وأعمى ، ثمَّ ذو بصرٍ ، وزرقاء اليمامه
لولا استقامة من هــدا هُ لمــا تبينتِ العلامه
ومجــاورُ الغرر المخيـ فِ له البشارةُ بالسلامه

أقام سبحانه الحجّة ، وفرق بين الأمر والإرادة ، وأعطى الكفاية من القدرة ﴿ فمِنهُم مُهتَدٍ ، وكَثيرٌ مِنهُم فاسقُون ﴾ (الحديد : ٢٦) اقتصرنا من هذا البحرِ

---

١ البيت لأبي فراس الحمداني ، ديوانه : ٨٣ وفيه : « إذا كان غير الله للمرء عدة » .
٢ قد أورد المقري هذه القصيدة في المجلد الأول : ٧ وانظر مقدمة المحقق : ١٤ .

على نقطة ، ومن هذا الوَدْق على قَطْرة :

ومن يَسُدُّ طريق العارضِ الهَطِلِ [١] ؟

* * *

عَدُّ الحصى والقَطْرِ ليس يُرامُ

وذكرنا الرسل والأنبياء والأتباع ذكراً من غير تبويب ولا تعيين ، لشياع آرائهم ، والعلم بمقاصد مللهم ، وأغراض دعواتهم ، من توحيد الله تعالى وتنزيهه وصفاته وأسمائه ، وكيف يُحشر الناس ليوم لا ريب فيه ﴿ ولتُجزى كلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ ﴾ (الجاثية : ٢٢) وتعليم طرق النجاة ، وإيضاح سبيل الله تعالى ، والتحذير من الغفلة عمّن إليه الرُّجعى ، ولَهُ الآخرة والأولى ، والتخويف من كل ما يقطع عنه ، والترغيب فيما يوصّل إليه ، وشأن الرياضة والتدريج في أحوالها حتّى تنتقل من الظواهر إلى البواطن ، وتَسْري في الخلَف من السلَف ، والندب إلى الاقتصار على الضرورة والقناعة بالبلاغ ، وتبين الرسم فيها ، والتعيين لحدودها ، قد تضمنت ذلك كلّه آياتُ الله التي تكفّل بحفظها ، وسنّة رسوله التي قَيّضَ مَناخل الصدق لتصحيح نقلها ، فالمكاتب — والمنّة لله تعالى — مائجة ، والمدارس حافلة ، فما لنا والإطالة في الموجود الذائع ، والمشهور الشائع :

والشمسُ تكبرُ عن حَلْيٍ وعن حُلَلِ

* * *

فهي الدراريُّ في التّقليدِ بالدرر

ما أغنى الشمس عن مدحِ المادحِ ، تحصيلُ الحاصل عنّاء ﴿ هُوَ الّذي أرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدى ودِينِ الحقّ ليُظْهِرَهُ على الدِّينِ كلِّه ، ولَوْ كَرِهَ المُشْرِكُون ﴾ (التوبة : ٣٣) .

فلنذكر بعضَ أرباب الآراء من قريب وبعيد ، وخلق جديد ، على صورة

[١] للمتنبي ، وصدره : وما ثناك كلام الناس عن كرم .

المثال المفروض وليكون كعرض الحبوب الذي تجزىء منهُ الحَفْنة عن الجَفْنة ، والقربة عن القربة[1] ، ونقتصر على اليسير لإقامة الترتيب ، وإحكام التبويب ، وليرى الواقف عليه أننا قد نفضنا الزوايا ، ورشفنا الرّوايا ، وامتككنا العظام[2] ، واستقصينا النّظام ، حرصاً على نشيدة الحق أن تُعقل ، وعلى الطباع أن تُنقل ، وعلى المرائي الصَّدِئة أن تُصقل ، وعلى صورة النجاة أن تمقل ، ونسأل الله تعالى هداية توصل إليه ، لا إلهَ إلا هو الرحمن الرحيم ، انتهى .

وقال رحمه الله تعالى فيما قبل هذا الكلام بكلام ما صورته : غصن المحبين ، وأصنافهم المرتبين ، ويشتمل على مقدمة بيان ، وستة أفنان .

فالمقدمة . . . فنقول : أصناف المحبين والعشاق كثير ، وهَباء نَثير ، وجَرَاد أثارها مثير ، بحيث يَشُق إحصاؤهم ، ولا يتأتى استقصاؤهم :

فقلتُ كما شاءت وشاء لها الهوى : قَتيلُك، قالت: أيُّهُمْ فهمُ كُثْرُ[3]؟

ثمَّ مدَّ النفَسَ بما لا يقتضي المقام الاختصاري ذكره في هذا الموضع .

وقال رحمه الله تعالى في بعض تراجم الروضة ، وهي الخاتمة التي تنبه النفوس الصَّبَّة ، على حكم المحبَّة ﴿ ليَهلكَ مَنْ هَلَكَ عن بيِّنَةٍ ويحيا مَنْ حيَّ عن بيِّنة ﴾ (الأنفال : ٤٢) بعد كلام ما صورته : فِقَر في معنى هذه الخاتمة فيها حِكم تنثال ، وتجري مجرى الأمثال :

المحبّة بحر بعيد الشط ، وخَطٌّ والفناء منتهى الخط ﴿ إنّا عرضْنا الأمانةَ – إلخ ﴾ (الأحزاب : ٧٢) .

المحبّة مَهْوًى بعيد ، ومَجال وعد ووعيد ، مرجلٌ يغلي ، ثم خيال يولي ، وليس له حد عليه يعول .

المحبّة ظهر لا يركبه ، مَنْ يرى الموت فيتنكبه ، ولا يعلوه ، مَنْ يأتي

---

١ يريد أن بائع الحبوب يعرض منها نموذجاً مثل ملء حفنة أو قربة .

٢ امتك العظم : امتص ما في داخله .

٣ البيت لأبي فراس ، ديوانه : ٢١١ .

إلى وادي الفناء فيسلوه ﴿إنَّ اللهَ مُبتَلِيكُم بِنَهرٍ﴾ (البقرة : ٢٤٩) كم قَصَمت المحبّة من ظهر ، وكم سرّ صيرت إلى جَهْر ، أولها العار المشهور ، وآخرها الطي المنشور ، ثم الموت ثم النشور ﴿وأشْرَقَتِ الأرْضُ بِنُورِ ربّها وَوُضِعَ الكتاب﴾ (الزمر : ٦٩) .

المحبّة أُنس يستدرج ، ثم شوق يُلجم ويُسْرج ، ثمَّ فناء يزعج ، عن الوجود ويخرج :

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائم

المحبة كاس ، كم جردت من كاس ، وآس ، مَنْ شَمّه لم يجد مِنْ آس :

متى أرتجي يوماً شفائي من الضّنى   إذا كان من يجني عليَّ طبيبي

تزاحم أنفاس المحبين على خَطَرات الصَّبا ، تزاحم الهباء على مطارح شعاع الدَّبا ، فلولا بليلها لالتهبت ، وتعليل عليلها لتلك الأرماق لذهبت :

عليلةٌ في حواشي مِرْطها بَلَلٌ   يُهْدى لكلّ عليلٍ منه إبْلال

المحبّة رقّة ، ثمَّ فكرة مسترقة ، ثمَّ ذَوْق ، يطير به شَوْق ، ثمَّ وَجَل لا يبقى معه طَوْق ، ثم لا تحت ولا فَوْق :

أينما كنتُ لا أُخَلِّفُ رحْلاً   مَنْ رآني فقد رآني ورحلي

الهوى هَوَان ، وحِمام له ألوان ، دمع ساجم ، ووجد هاجم ، وهُيام لا يبرح ، ثم وراءه ما لا يُشْرَح :

قال : بمَنْ جُنَّ؟ وهل في الورى   ما يبعثُ الخَبْلَ سوى حبّه ؟

مَنِ اقتحم بحر الهوى ، هَوَى . لا تدخل في بحر الهوى حتّى تشاور صبرك ، وتجاور قبرك ، فإن كنت منّا أو فَرُحْ بسلام .

الهوى طريق ، ولسلوكه فريق . الزاد سر مكتوم ، ووفاء معلوم :

وللميادينِ أبطالٌ لها خُلقوا   وللدّواوين حُسّابٌ وكتّابُ

الحبُّ حَجٌّ ثان ، لا يَثْني نفسَ المريد عنهُ ثان ، طريقُه التجريد ، وزاده الذكر ، وطوافه المعرفة ، وإفاضته الفناء ﴿ فإذا أفضتم مِنْ عرَفات فاذْكُرُوا الله عِندَ المَشْعَرِ الحَرام ، واذكُرُوه كما هَداكُم ، وإن كُنْتُم مِنْ قَبلهِ لَمِنَ الضالِّين ﴾ (البقرة : ١٩٨) .

الغرامُ ، صعب المَرَام ، والدخول فيه حرام ، ما لم يكن فيه شروط كرام . من عرفَ ما أخذ ، هان عليه ما ترك ﴿ وربُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاء ويَخْتار ﴾ (القصص : ٦٨) ظهر الهوى طريقاً سهلاً ، فكثر التائهون جهلاً :

إذا لَمْ يكُن عونٌ من الله للفتى   أتَتْهُ الرزايا من وجوهِ الفوائدِ[1]

والعكس :

قدْ يخبأُ المحبوبَ في مكروهها   مَنْ يخبأُ المكروهَ في المحبوبِ[2]

وقال الشيخ[3] :

هو الحبُّ فاسلمْ بالحشا ما الهوى سَهْلُ   فمـا اختاره مُضْنًى بهِ ولهُ عَقْلُ
وعشْ خالياً فالحبُّ راحتُه عَناً   وأوّلُـهُ سقمٌ وآخـره قَتـلُ
نصَحْتُكَ علماً بالهوى والّذي أرى   مخالفتي ، فاختر لنفسكَ ما يحلو
فمَنْ لم يمتْ في حبّه لم يعشْ بهِ   ودون اجتناء النحلِ ما جنَتِ النحلُ

طريق القوم مبْنية على الموت ، وإليه الإشارة بقوله « موتوا قبلَ أن تموتوا » . بيدي لا بيد عَمْرو ، وقال بعضهم : رأيت ربَّ العزّة فقلت : يا ربّ بمَ أصِلُ إليك ؟ قال : فارق نفسك وتَعالَ :

١ انظر ما تقدم ص : ٣١٠ .
٢ البيت للسان الدين نفسه من بائية طويلة ستأتي عند ذكر شعره .
٣ هو ابن الفارض ، انظر ديوانه : ١٣٤ وديوان الصبابة : ٢٥ .

رَفْضُ السِّوَى فرضٌ على العينِ لا تخلطنَّ الحقَّ بالمَيْنِ
والأينُ والكيفُ سوى ظاهرٍ فاستغنِ عن كيفٍ وعن أينِ

الخشب ، الذي يُتَّخَذ منه النشب ، ينقسم إلى أقسام ، وأجزاء جسام :
القسم الأول : في الحدود والمعرفات ، والأسماء الواقعة والصفات[1] .

وللسان الدين رحمه الله تعالى في المواعظ اليدُ الطولى ؛ قال في الروضة في الفصل الثاني في محركات العزيمة — وهي اليقظة — ما نصّه : قلت : والمحركات المشتركات في باعث اليقظة كثيرة : منها الوعظ السائق بمقود الشارد عن الله تعالى إلى مَرْبط التوبة ، ومحرك العزيمة يُرَدِّد أذانه على نُوَّام أهل الكهف ، وقد ضرب نومُ الغفلة على آذانهم ، حتى يحول بينهم وبين أذانهم ، ويركبهم ظهر الرياضة التي تُلحقهم بالمجذوبين من إخوانهم ، ولمّا كان حب الدنيا هو المانع عن الشروع في إطلاق العمل ، والقاطع به بعده لم يجد أُساة خبل الهوى وجنون الكسل أنجعَ من رقى العذل والتأنيب ، وتقبيح المحبوب ، سيّما إذا انزعجت نبال نبله عن حنيات ضلوع الصدق ، وقال بعضهم : الكلام إذا خرج من القلب دخل القلب :

أوقدِ النارَ من رسالةِ لَيْلى واحذرِ السيلَ بعدها من دموعي

ولا تعدلِ الوعظ البليغ باللسان الفصيح ، والقلب القَريح ، فإذا رأيت الأرض قد اهتزت وربَتْ ، وهضابَ القُلوب القاسية قد تقلبت ، فشمِّرْ للغراس والزراع عن الذراع ، واغتنم السراع والإسراع :

إذا هبَّتْ رياحُكَ فاغتنمها فإنَّ لكلِّ عاصفةٍ سكونا

* * *

حفر لها ماء يريها بدأة واضمنْ لها حوضاً وإن لم تحفرِ
واربأ بنفسك عن تسَامحِ بائعٍ واغنم إذا سامتك شهوةَ مشتري

قالوا : الوعظ يضرب وجه النفس عن التثبط في بساط اللذات ، وينقل

[1] الخشب . . . والصفات : هذه العبارة مقحمة هنا وقد وردت ص : ٢٩٤ .

خطواتها عن الخطو في ملعب الخطيئات ، ويمثل لها الصبر عياناً ، ويبين العواقب المحجوبة بياناً ، ويُنشىء سحاب الحزن في أجواف أجزائها ، ويذكرها بمآلها وانتهائها ، ويعرض عليها مصارع فَنائها ، وخرَاب بنائها ، وفراق حبائبها وأبنائها ، عند نزول هاذم اللّذات بفِنائها ، فترجع إلى الله تعالى بحكم الاضطرار أفكارها ، وتخشع من خيفة الله تعالى وجلاله أبصارُها .

والوعظ يكون بلسانين ، ويوجد فنين : لسان حال ، ولسان مقال ، وربما كان لسان الحال أبلغ ، وهو يُسْمَع مِنَ القبور الموحشة ، والقصور الخالية ، والعظام البالية ، وفيه حكايات وأخبار ، ولسان المقال كقوله سبحانه وتعالى ﴿وسَكَنْتُم في مَساكنِ الّذين ظَلَموا أنفُسَهُم، وتَبَيّنَ لَكُم كَيفَ فَعَلْنا بهِم ، وضَرَبْنا لَكُمُ الأمْثال﴾ (إبراهيم : ٤٥) وهو سبيل الله تعالى التي بعث بها النبيين ، وضمن فصولها الكتاب المبين ، والسَّوْط الذي يحمل على الأوْبَة ، ويسوق ذَوْدَ المتطهرين إلى غدير التَّوْبة ، ونحن نجعله هَيْنَمَةَ بين يدي الفراسة ، لتزكية النفوس إن صدق حكم الفراسة ، فمن ذلك ما صدر عني على لسان واعظ :

« الحمد لله الولي الحميد ، المبدىء المعيد ، البعيد في قربه من العبيد ، القريب في بُعْده فهو أقرب من حبل الوريد ، محيي ربوعِ العارفين بتحيات حياة التوحيد ، ومغني نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار إلى العَرَض الزهيد ، ومخلِّص خواطر المحقّقين من سُجُون دُجُون التقييد ، إلى فُسَح التجريد ، نحمده وله الحمد المنتظمة درره في سلوك الدوام وسموط التأبيد ، حَمْدَ من نزَّه أحكام وحدانيته ، وأعلام فردانيته ، عن مرابط التقليد ، ومخابط الطّبْع البليد ، ونشكره شكر من افتتح بشكره أبوابَ المزيد ، ونشهد أنّه الله الذي لا إله إلا هو شهادة نتخطى بها معالِمَ الخلق إلى حضرة الحق على كَبِدِ التفريد ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله قلادة الجيد المجيد ، وهلال العيد ، وفَذْلَكة الحساب وبيت القصيد ، المخصوص بمنشور الإدلال ،

وإقطاع الكمال ، بين مقام المُرَاد ومقام المُريد ، الذي جعله السبَّب الأوصل في نجاة الناجي وسعادة السعيد ، وخاطَبَ الخلائق على لسانه الصادق بحجّي الوعْدِ والوعيد ، فكان ممّا أوحى به إليه ، وأنزل الملك به عليه ، من الذكر الحميد ، ليأخذ بالحُجَزِ والأطواق من العذاب الشديد ﴿ولقَد خلَقنا الإنسانَ ونَعْلَمُ ما توسوسُ بهِ نفسُهُ ، ونحنُ أقربُ إليهِ من حبْلِ الوَريدِ﴾ (ق : ١٦) إلى قوله (حديد) ، صلى الله عليه وعلى آله صلاةً تقومُ ببعض حقّه الأكيد ، وتَسْرِي إلى تربته الزكية من ظهور المواجِدِ الجاثية على البريد[1] :

قعدتُ لتذكيرٍ ولو كنتُ منصفاً لذكَّرتُ نفسي فهي أحوجُ للذكرى
إذا لم يكنْ مني لنفسيَ واعظٌ فيا ليتَ شعري كيف أفعلُ في الأخرى

آه ! أيُّ وعظ بعد وعظِ الله تعالى يا أحبابنا يُسْمَع ؟ وفي ماذا وقد تبين الرشد من الغي يطمع ؟ يا من يُعْطي ويَمْنَع ، إذا لم تقم الصنيعة فماذا نصنع ؟ اجْمَعْنا بقلوبنا يا من يفرق ويجمع ، وليِّنْ حديدَها بنار خشيتك فقد استعاذ نبيّك صلى الله عليه وسلّم من قلبٍ لا يخشع ، ومن عينٍ لا تدمع ، اعلموا — رحمكم الله — أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان ، وما أملاه الملَوان[2] ، فإن الحق نور لا يضره أن يصدر من الخامل ، ولا يقصر بمحموله احتقارُ الحامـــل ، وأنتم تَدْرُون أنكم في أطوار سفر لا تستقر لها دون الغاية رِحْلَة ، ولا تتأتّى معها إقامة ولا مُهْلَة ، من الأصلاب ، إلى الأرحام ، إلى الوجود ، إلى القبور ، إلى النشور ، إلى إحدى داري البقاء ، أفي الله شك ؟ فلو أبصرتُمْ مُسافراً في البرية يَبْني ويفرش ، ويمهد ويعرش ، ألم تكونوا تضحكون من جهله ، وتَعْجَبُون من ركاكة عقله ؟

١ يريد مواجد المشتاقين إلى زيارة قبره عليه السلام .
٢ الملوان : الليل والنهار .

ووالله ما أموالُكم ولا أولادُكم وشواغلُكم عن الله التي فيها اجتهادكم إلا بقاء سَفْر في قَفْر ، أو إعراس في ليلة نَفْر ، كأنّكم بها مَطْرَحة تعبر فيها المواشي ، وتنبو العيون عن خبرها المتلاشي ﴿إنّما أمْوالُكُم وأوْلادُكُم فِتنَةٌ واللهُ عندَهُ أجرٌ عَظيم﴾ (الأنفال : ٢٨) . ما بعد المقيل إلاّ الرحيل، ولا بعد الرحيل إلاّ المنزل الكريم أو المنزل الوَبيل ، وإنّكم تستقبلون أهوالاً سكراتُ الموتِ بَوَاكِرُ حسابها ، وعَتَبُ أبوابها ، فلو كشف الغطاء عن ذرة منها لذهلت العقول وطاشت الألباب ، وما كل حقيقة يشرحها الكلام ﴿يا أيُّها النّاس إنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ ، فَلا تَغُرَّنّكُمُ الحَياةُ الدُّنيا ، ولا يَغُرَّنّكُم باللهِ الغَرور﴾ (فاطر : ٥). أفلا أعددتم لهذه الوَرْطة حيلة، وأظهرتم للاهتمام بها مَخيلة ؟ أتعويلاً على عفوه مع المقاطعة وهو القائل في مقام التهديد ﴿إنَّ عَذابي لَشَديد﴾ ؟ (إبراهيم: ٧) أأمْناً من مَكْره مع المنابذة ﴿فَلا يَأمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاّ القَوْمُ الخاسِرون﴾ (الأعراف : ٩٩) أطَمَعاً في رحمته مع المخالفة وهو يقول ﴿فسأكتُبُها للّذين يتّقون﴾ (الأعراف : ١٥٦) أمشاقة ومعاندة ﴿ومَنْ يُشاقِّ اللهَ فإنَّ اللهَ شَديدُ العِقاب﴾ ؟ (الحشر : ٤) أشَكّاً في الله ؟ فتعالوا نعيد الحساب ، ونقرر العقد ونتصف بدعوة الحق أو غيرها ، من اليوم تفقد عقد العقائد عند التساهل بالوعيد ، فالعامي يدمي الإصبع الوجِعة ، والعارف يضمد لها مبدأ العصب :

هكذا هكذا يكون التعامي   هكذا هكذا يكون الغرورُ

﴿يا حَسْرةً على العِبادِ ، ما يأتيهِم مِنْ رسولٍ إلاّ كانوا به يستهزئون﴾ (يس : ٣٠) وما عدا عما بدا ؟ ورسولكم الحريص عليكم الرؤوف الرحيم يقول لكم « الكيِّس مَنْ دان نفسَه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على الله الأماني » فعلام بعد هذا المعوّل ؟ وماذا يتأوّل ؟ اتقوا الله سبحانه في نفوسكم وانصحوها ، واغتنموا فُرَصَ الحياة وارْبحُوها ﴿أنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرتا على ما فَرّطتُ في جَنْبِ اللهِ ، وإنْ كُنتُ لمِنَ الساخِرين﴾

(الزمر : ٥٦) وتنادي أخرى ﴿ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيل ﴾ (الشورى : ٤٤) وتستغيث أخرى ﴿يا لَيتَنا نُردُّ فنَعملَ غيرَ الّذي كنّا نَعْمَل﴾ (الأعراف : ٥٣) وتقول أخرى ﴿رَبِّ ارجعون ِ ﴾ (المؤمنون : ٩٩) فرحم الله مَنْ نظر لنفسه ، قبل غُرُوب شمسه ، وقَدَّم لغده من أمسه ، وعلم أن الحياة تجرُّ إلى الموت ، والغفلة تقود إلى الفوت ، والصحة مَرْكب الألم ، والشبيبة سفينة تقطع إلى ساحل الهَرَم .

وإن شاء قال بعد الخطبة : إخواني ، ما هذا التواني ، والكلف بالوجود الفاني عن الدائم الباقي والدهر يقطع الأماني ، وهاذم اللذات قد شرع في نقض المباني ؟ ألا معتبر في عالم هذه المعاني ؟ ألا مرتحل عن مغابن هذه المغاني ؟

ألا أُذُنٌ تُصْغي إليَّ سميعـةٌ   أُحدثُها بالصدقِ ما صنع الموتُ
مددتُ لكم صوتي فأوّاه حسرة   على ما بدا منكم فلم يسمع الصوت
هو القدرُ الآتي على كلّ أمة   فتوبوا سراعاً قبل أن يقع الفوت

يا كلفاً بما لا يدوم ، يا مَفْتوناً[1] بغرور الوجود المعدوم ، يا صريعَ جدار الأجل المهدوم ، يا مشتغلاً ببنيان الطرق قد ظهر المُناخ وقَرُبَ القُدُوم ، يا غريقاً في بحار الأمل ما عساك تعوم ، يا معلّل الطعام والشراب ولمع السراب ، لا بد أن تهجر المشروب وتترك المطعوم . دخل سارق الأجل بيت عمرك فسلب النشاط وأنت تنظر ، وطوى البساط وأنت تكرب ، واقتلع جواهر الجوارح وقد وقع بك النهب ، ولم يبق إلاّ أن يجعل الوسادة على أنفك ويقعد :

لو خفّفَ الوجدُ عنّي   دعوتُ طالبَ ثاري

﴿كلاّ إنّها كَلِمةٌ هُوَ قائلُها﴾ (المؤمنون : ١٠٠) كيف التراخي والفَوْت مع الأنفاس ينتظر ؟ كيف الأمان وهاجم الموت لا يبقي ولا يَذَر ؟ كيف الركون إلى الطمع الفاضح وقد صحَّ الخبر ؟ مَنْ فكر في كرب الخُمار تنغصت عنده

١ ق : مغبوناً .

لذة النبيذ ، مَنْ أحَسّ بلَغطِ الحريق فوق جداره لم يُصْغِ بصوته لنغمة العود ، مَنْ تيقن بذلّ العزلة هان عليه ترك الولاية :

ما قامَ خيرُكَ يا زمان بشرّه أولى لنا ما قَلّ منك وما كفى

أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه أن ضع يدك على مَتْن ثور ، فبعدد ما حاذته من شعره تعيش سنين ، فقال : يا ربّ وما بعد ذلك ؟ قال : تموت ، قال يا ربّ فالآن :

رأى الأمرَ يُفْضِي إلى آخر فَصَيَّر آخـره أوّلا

إذا شعرت نفسُك بالميل إلى شيء فاعرض عليها غصّة فراقه ﴿ ليَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بيّنة ويحيا من حيَّ عن بيّنة ﴾ (الأنفال : ٤٢) فالمفروح به هو المحزون عليه ، أين الأحباب ؟ مروا ، فيا ليت شعري أين استقروا ؛ استكانوا والله واضطروا ، واستغاثوا بأوليائهم ففروا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضروا ، فالمنازل من بعدهم خالية خاوية ، والعروش ذابلة ذاوية ، والعظام من بعد التفاضُلِ متشابهة متساوية ، والمساكن تندب في أطلالها الذئابُ العاوية :

صِحْتُ بالرَّبْعِ فلَمْ يستجيبوا ليتَ شعري أين يمضي الغريبُ
وبجنبِ الدارِ قبرٌ جـديدٌ منهُ يستسقي المَكانُ الجديب
غاض قلبي فيهِ عنْدَ التماحي قلتُ هذا القبرُ فيه الحبيب
لا تسلْ عن رجعتي كيف كانت إنّ يومَ البين يومٌ عصيب
باقترابِ الموتِ علّلتُ نفسي بعـد إلفي كلُّ آتٍ قريب

أين المعمّر الخالد ؟ أين الولد أين الوالد ؟ أين الطارف أين التالد ؟ أين المجادل أين المجالد ؟ ﴿ هَلْ تُحِسُّ منهُمْ مِن أحدٍ أو تَسْمَعُ لهُم رِكزاً ﴾ (مريم : ٩٨) وُجُوهٌ علاهن الثرى ، وصحائف تُفض ، وأعمال على الله تُعرض . بحثَ الزهاد

والعباد ، والعارفون والأوتاد ، والأنبياء الذين يُهْدَى بهم العباد ، عن سبب الشقاء الذي لا سَعادة بعده ، فلم يجدوا إلا البعد عن الله تعالى ، وسببه حبُّ الدنيا « لن تجتمع أمتي على ضلالة » :

هَجَرْتُ حبائبي من أجلِ[1] ليلى ... فما لي بعد ليـــلى من حبيبِ
وماذا أرتجي من وصلِ لَيْلى ... ستَجزي بالقطيعةِ عن قريبِ

وقالوا : ما أورد النفسَ الموارد وفتح عليها باب الحتف إلا الأمـــل ، كلّما قوّمتها مثاقفُ الحدود فتَحَ لها أركانَ الرخص ، كلّما عقدت صَوْمَ العزيمة أهداها طُرَفَ الغرور في أطباق : حتّى ، وإذا ، ولكن ، وربما ، فأفرط القلب في تقليبها حتّى أفطر :

ما أوبقَ الأنفسَ إلا الأملُ ... وهو غرورٌ ما عليــهِ عَمَلُ
يفرضُ منه الشخصُ وَهْماً ما له ... حالٌ ولا ماضٍ ولا مستقبلُ
ما فوق وجهِ الأرضِ نفسٌ حيةٌ ... الاّ قد انقضَّ عَلَيها الأجلُ
لو أنهمْ مِنْ غيرِها قد كوِّنوا ... لامتلأ السهلُ بهمْ والجبلُ
ما ثمّ إلاَّ لُقَمٌ قَدْ هُيِّئَتْ ... للموتِ ، وهو الآكلُ المستعجلُ
والوعدُ حقٌّ والورى في غفلةٍ ... قد خودعوا بعاجلٍ وضُلِّلوا
أين الذين شيّدوا واغترسوا ... ومهّـــدوا وافترشوا وظلّلوا
أين ذوو الراحاتِ زادتْ حسرةً ... إذ جُنِّبُوا إلى الثرى وانتقلُوا
لم تدفعِ الأحبابُ عنهمْ غيرَ أنْ ... بَكوا على فراقهم وأعْوَلُوا
اللهَ في نفسك أولى مَنْ لهُ ... ذَخرتَ نصحاً وعتاباً يقبلُ
لا تتركنها في عَمًى وحَيرةٍ ... عن هولِ ما بين يديها تَغْفلُ
حقِّرْ لها الفاني وحاول زُهْدها ... وَشَوِّقَها إلى الّذي تستقبلُ
وفِدْ إلى الله بها مُضْطَرَّةً ... حتى ترى السيرَ عليها يسهُلُ

---

١ ق : بعد .

هو الفناءُ والبقاءُ بعـده والله عن حكمته لا يُسْأَلُ
يا قُرَّةَ العينِ ويا حَسْرَتَها يومَ يُوَفَّى الناسُ ما قد عملُوا

يا طرداء المخالفة ، إنكم مُدْرَكون فاستبِقوا باب التوبة ، فإن ربَّ تلك الدار يجير ولا يجار عليه ، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما هداكم ، يا طُفَيْلِيَّة الهمّة ، دُسّوا أنفسكم بزُمر التائبين وقد دُعُوا إلى دعوة الحبيب ، فإن لم يكن أكل فلا أقل من طيب الوليمة ، قال بعض العارفين : إذا عقد التائبون الصلح مع الله تعالى انتشرت رعايا الطاعة في عمالة الأعمال ﴿ وأشرقت الأرضُ بنُورِ ربّها وَوُضِعَ الكتاب ﴾ (الزمر : ٦٩) . معاني هذا المجلس والله نسيم سحر ، إذا استنشقه مخمور الغفلة أفاق ، سَعوط هذا الوعظ ينغّص إن شاء الله زَكْمَة البطالة ، إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ، إكسير هذا الكتاب يقلِّب بحكمة جابرِ القلوب المنكسرة عَيْنَ مَنْ كان له قلب ﴿ إنّما يَستجيبُ الذين يَسمعونَ ، والمَوْتى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ (الأنعام : ٣٦) إلهي دلنا من حيرة يضلّ فيها — إلاّ إن هديتَ — الدليلُ ، وأجرنا من غمرة وكيف إلا بإعانتك السبيل ؟ نفوس صدىء على مَرّ الأزمان منها الصَّقيل ، ونبا بجنوبها عن الحق المقيل ، وآذان أنهضها القول الثقيل ، وعثرات لا يقيلها إلاّ أنت يا مقيل العثار يا مقيل ، أنت حسبنا ونعم الوكيل ؛ انتهى .

ومن مواعظ لسان الدين رحمه الله سبحانه ما أورده في الروضة إثر ما سبق ، إذ قال : إخواني صَمّت الآذان والنداء جَهير ، وكذب العيان والمشار إليه شهير ، أين الملك وأين الظهير ؟ أين الخاصة أين الجماهير ؟ أين القَبيل والعَشير ؟ أين كسرى بن أردشير ؟ صدق والله الناعي وكذب البشير ، وغُشّ المستشار واتّهم المشير ، وسئل عن الكلّ فأشار إلى التراب المُشير :

خذ من حياتك للمَماتِ الآتي وبَدارِ ما دامَ الزمانُ مُواتي
لا تغترِرْ فهوَ السَّرابُ بِقيعةٍ قد خودعَ الماضي بهِ والآتي

يا من يؤمِّلُ واعظاً ومذكِّراً يوماً ليوقظَهُ من الغفَلاتِ
هلاَّ اعتبرتَ ويا لها من عِبْرةٍ بمَـدافنِ الآبـاء والأمَّـاتِ
قفْ بالبقيعِ ونادِ في عرَصاته فلَكَم بها مِن جيرةٍ ولِداتِ
درَجُوا ولستَ بخالدٍ من بعدهم متميزٍ عنهم بوصفِ حياةِ
والله ما استهلَلْتَ حَيّاً صارخاً إلاّ وأنت تُعَدُّ في الأمواتِ
لا فَوْتَ عن دَرَكِ الحِمامِ لهاربٍ والناسُ صَرْعى مَعْرَكِ الآفاتِ
كيف الحياةُ لدارجٍ متكلّفٍ سِنةَ الكرى بمدارج الحيّاتِ
أسَفاً علينا معشرَ الأموات لا ننفكُّ عن شُغُلٍ بهاكَ وهاتِ
ويغرنا لمعُ السَّراب فنغتدي في غفلةٍ عن هاذمِ اللّذاتِ
واللهِ ما نَصَحَ امرءاً مَنْ غشّه والحقُّ ليسَ بخافتِ المشكاةِ

يا من غدا وراح ، وألف المراح ، يا من شرب الراح ، ممزوجة بالعذب القَراح ، وقعد لعيان صروف الزمان مقعد الأفراح ، كأنّك والله باختلاف الرياح ، وسماع الصياح ، وهجوم غارة الاجتياح ، فأديل الخفوت من الارتياح ، ونُسيت أصوات الغناء برنّات الرياح ، وعوضت غُرَرُ النُّوَب القباح ، من غُرر الوجوه الصِّباح ، وتناولت الجسومَ الناعمة أيدي الاطِّراح ، وتنوسيت العهود الكريمة بمر المساء عليها والصباح ، وأصبحت كُماة النطاح ، من تحت البطاح ، وخملت المهندة والرماح ، ذليلة من بعد الجماح :

ولو كان هَوْلُ الموتِ لا شيء بعده لهان علينا الأمرُ واحتُقِر الهولُ
ولكنّه حَشْرٌ ونشرٌ وجنّةٌ ونارٌ ، وما لا يستقلُّ به القولُ

يا مشتغلاً بداره ورَمِّ جداره ، عن إسراعه إلى النجاة وبِداره ، يا من صاح بإنذاره شَيْبُ عِذاره ، يا من طَرف[1] عينَ اعتذاره بأقذاره ، يا من قطعه بُعْدُ مزاره وثِقلُ أوزاره ، يا معتلفاً[2] ينتظر هجوم جزّاره ، يا مختلساً للأمانة

[1] ق : صرف . [2] ق : معتلقاً .

يرتقبُ مفتش ما تحت إزاره ، يا من أمعن في خمر الهوى خَفَّفْ من إسكاره ، يا من خالف مولى رِقّهِ تَوَقّ من إنكاره ، يا كلفاً بعاريةٍ تُرَدّ ، يا مفتوناً بأنفاس تُعَدّ ، يا معوّلاً على الإقامة والرحالُ تُشدّ ، كأنّي بك وقد أُوثق الشدّ ، وأُلصق بالوسادةِ الخدّ ، والرِّجلُ تقبض والأخرى تمدّ ، واللسان يقول ﴿يا ليتَنا نُرَدّ﴾ (الأنعام : ٢٧) :

إنّا إلى اللهِ وإنّا لهُ … ما أشغلَ الإنسانَ عن شانِهِ
يرتاحُ للأثوابِ يُزْهَى بها … والخيطُ مغزولٌ لأكفانهِ
ويخزنُ الفلسَ لوُرّاثهِ … مُستنفداً مبلغَ أكوانهِ
قوّضْ عن الفاني رِحالَ امرئٍ … مدّ إليهِ عينَ عرفانهِ
ما ثمَّ إلا مُوقَفٌ زاهدٌ … قد وكّلَ العدلُ بميزانهِ
مُفَرِّطٌ يَشْقَى بتفريطهِ … ومحسنٌ يُجزى بإحسانهِ

يا هذا خفي عليك مَرَضُ اعتقادك فالتبس الشحمُ بالوَرَم ، جهلت قِيَم[1] المعادن فبِعْتَ الشَّبَه بالذهب ، فَسَدَ حِس[2] ذوقك فتفكهت بحنظله ، أين حرصك من أجلك ؟ أين قولك من عملك ؟ يدركك الحياء من الطفل فتتحامى حمى الفاحشة في البيت بسببه ، ثم تُواقعها بعين خالق العين ، ومُقَدّر الكيف والأين ، تالله ما فَعَل فعلك بمعبوده ، مَنْ قطع بوُجُوده ﴿ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثةٍ – إلى عليم﴾ (المجادلة : ٧) تعود عليك مَساعي الجوارح التي سخّرها لك بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة ، فتبخل منها في سبيله بفَلْس ، وأحَدُ الأمرين لازم : إمّا التكذيب ، وإمّا الحماقة ، وجمعك بين الحالتين عجيب ، يرزقك السنين العديدة من غير حق وَجَبَ لك ، وتسيء الظن به في يوم ؛ توجب الحق ، وتعتذر بالغفلة ، فما بال التمادي ؟ تعرّف بالذنب فما

١ ق : فيه ، ولعلها « قيمة » .
٢ ق : حسن .

الحجّة في الإصرار ؟ ﴿ والبَلَدُ الطيّبُ يَخْرُجُ نباتُهُ بإذنِ ربِّه ، والّذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاّ نَكِداً ﴾ (الأعراف : ٥٨) يا مدّعي النسيان ماذا فعلت بعد التذكير ؟ يا معتذراً بالغفلة أين ثمرة التنبيه ؟ يا مَنْ قطع بالرحيل أين الزاد ؟ يا ذُبابة الحرص كم ذا تلجج في ورطة الشهد؟ يا نائماً مِلْءَ عينيه حَذارِ الأجَلُ قد أنذر ، يا ثَمِلَ الاغترار قَرُبَ خُمار الندم ، تَدَّعي الحذق بالصنائع وتجهل هذا القدر ، تبذل النصح لغيرك وتغشُّ نفسك هذا الغش ، انْدَمَلَ جرحُ توبتك على عَظْم ، قام بناء عَزْمتك على رمل ، نبتت خضراء دَعْوَتك على دِمْنَة ، عُقدت كفّك من الحق على قَبْضَة ماء ﴿ أفَمَنْ زُيِّنَ لهُ سوءُ عَمَلِه فرآه حَسناً ، فإنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ويهدي مَنْ يَشاء ﴾ (فاطر : ٨) إذا غام جو هذا المجلس ، وابتدأ رش غمام الدموع ، قالت النفس الأمّارة : حوالينا لا علينا ، فدالت رياح الغفلة ، وسَحابُ الصيف هفاف ، كلّما شدّ طفل العزيمة على دِرَّة التوبة صانَعَتْه ظئرُ الشهوة عن ذلك بعصفور ، إذا ضيق الخوف فُسْحَةَ المهل سرق الأمل حدود الجار ، قال بعض الفضلاء : كانوا إذا فقدوا قلوبهم ، تفقّدوا مطلوبهم ، ولو صدق الواعِظُ لأثّر ، اللّهم لا أكثر :

طبيبٌ يداوي الناسَ وهو عليلُ

والخطب جليل ، والمتفطن قليل ، فهل إلى الخلاص سبيل ؟ اللّهم انظر إلينا بعين رحمتك التي وسعت الأشياء ، وشملت الأموات والأحياء ، يا دليلَ الحائرين دُلّنا ، يا عزيز ارحم ذُلّنا ، يا وليَّ من لا وليَّ له كُنْ لنا كلّنا ، إن أعرضْتَ عنّا فمن لَنا ؟ نحن المذنبون وأنت غفار الذنوب ، فقلّبْ قلوبنا يا مقلّب القلوب ، واسْتُرْ عيوبَنا يا ستّارَ العيوب ، يا أمل الطالب ويا غاية المطلوب ؛ انتهى .

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى في المواعظ ما خاطب بـه بعض من استدعى منه الموعظة ، ونصّه :

إذا لم أنُحْ يوماً على نَفْسيَ الّتي   بجرّائها أحْبَبْتُ كلَّ حَبيبِ
وقد صحَّ عندي أنَّ عاديةَ الردى   تدبُّ لها والله كلَّ دبيبِ
فمَنْذا الذي يبكي عليها بأدمعي   إذا كنتُ موصوفاً برأي لبيبِ

كم قد نظرت إلى حبيب تغار من إرسال طرفك بكتاب الهوىَ إلى إنسانه ، وقد ذبلت بالسقم نرجسة لحظه ، وذَوَتْ وردة خدّه ، واصفرت لمغيب الفراق شمسُ حسنه ، وهو يجود بنفسه الّتي كان يبخلُ منها بالنفَس ، يخاطب بلسان حاله مترجماً : « وليت الفجل يهضمُ نفسه » ، وأنت على أثر مسحبه إلى دَسْت الحكم ﴿ وما أدْري ما يُفْعَلُ بي ولا بِكُمْ ﴾ (الأحقاف : ٩) .

ومنها : تالله لو لم يكن المخبر صادقاً لنشب بحَلق العيش بعده شوكة الشك :

ولَوْ أنّا إذا متنا تُركنا   لكان الموتُ راحةَ كلِّ حيِّ
ولكنّا إذا متنا بُعِثْنا   ونُسْأل بعده عن كلِّ شيِّ

فالحازم مَنْ بتر الآمال طَوْعاً ، وقال : بيدي لا بيد عَمْرو ﴿ يا أيّها النّاسُ إنَّ وعْدَ اللهِ حقٌّ فَلا تَغُرَّنّكُمُ الحَياةُ الدُّنيا ولا يَغُرَّنّكُم بالله الغَرُور ﴾ (فاطر : ٥) .

وقال أمير الوعاظ رحمه الله تعالى :

وبضدّها تتبيّنُ الأشياءُ[١]

يا مقتولاً ما له طالب ثار ، بريدُ الموت مُطْلَق الأعِنّة في طلبك ، وما يحميك حصن ، ثوبُ حياتك منسوج من طاقات أنفاسك ، والأنفاس تستلب ذرات ذاتك ، وحركات الزمان قويّة في النسج الضعيف ، فيا سُرْعة التمزق ، يا رابطاً مُناه بخيط الأمل ، إنّه ضعيف الفَتْل ، صياد التلف قد بَثَّ الصقور ، وأرسل العِقْبان ، ونَصَب الأشراك ، وقطع المواد ، فكيف السلامة ؟ تَهيأ

١ عجز بيت للمتنبي ، وصدره : « ونذيمهم وبهم عرفنا فضله » .

لسُرْعَة الموت وأشدّ منها قلب القلب ، ليت شعري لما يؤول الأمر ؟

فوالله لا أدري أيَغْلِبني الهوى إذا جَدّ جِدُّ البين أم أنا غالبُهْ
فإن أستطعْ أغلبْ وإن يغلب الهوى فَمِثل الذي لاقيتُ يُغْلَبُ صاحبُهْ

مركبُ الحياة يجري في بحرِ البدن برُخاء الأنفاس ، ولا بدّ من عاصف قاصف بفُلكه ويغرق الركاب :

فاقضوا مآربكُم عِجالاً إنّما أعْماركُم سفرٌ من الأسفارِ [1]

وقال : كأنّك بحرب التلف قد قامت على ساق ، وانهزمت جنود الأمل ، وإذا بملك الموت قد بارز الروحَ يجذبها بخَطاطيف الشدائد من قِنانِ العروق ، وقد شد كتافَ الذبيح ، وحار البصر لشدة الهول ، وملائكة الرحمة عن اليمين قد فتحوا أبوابَ الجنّة ، وملائكة العذاب عن اليسار قد فتحوا أبواب النار ، وجميع المخلوقات تَستوكف الخبر ، والكون كلّه قد فاء على صيحة : سَعِدَ فلان ، أو شقي فلان ، فهنالك تنجلي أبصار الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ، ويْحكَ ! تَهيّأ لتلك الساعة ، حَصِّل زاداً قبل الفوت :

تمتّعْ من شَميم عَرَار نجدٍ فَما بعدَ العشيّة من عَرارِ

مَثِّلْ لعينيك سُرْعة الموت ، وما قد عزمت أن تفعل حينئذٍ في وقت الأسر فافعله في وقت الإطلاق ، وقال أبو العتاهية [2] :

خانكَ الطرف اتّئد [3] أيّها القلبُ الجموحُ
فَدَواعي الخيرِ والشرّ دُنُوٌّ ونزوحُ
كيفَ إصلاحُ قُلوبٍ إنّما هنّ قروحُ

١ البيت لأبي الحسن التهامي ، من قصيدته « حكم المنية في البرية جاري » ، ديوانه : ٢٨ .
٢ ديوان أبي العتاهية : ٩٧ .
٣ الديوان : الطموح .

أحْسَنَ اللهُ بنـــا أنَّ الخطايا لا تفـوحُ
فإذا المشهـور منّـا بـيـنَ ثوبَيْه فضوحُ
كَمْ رأيْنا مِنْ عزيز طويتْ عَنْهُ الكَشُوحُ
صـاح منـهُ برحيلٍ طائـرُ الدَّهرِ الصَّدُوحُ
موتُ بعض الناس في الأر ض ِ على بعضٍ فتوحُ
سيصير المرءُ يومـاً جسداً ما فيهِ روحُ
بينَ عَيْنَيْ كلِّ حيٍّ عَـلَمُ الموتِ يلوحُ
كلّنا في غفلةٍ والـ دهرُ يَغْـدو ويروحُ
لبني الدُّنيا من الدُّنـ يا غَبوقٌ وصَبوحُ
رُحْنَ في الوشي وأصبحـ ـن عليهنَّ المُسُوحُ
كلُّ نطّاحٍ من الدَّهـ ـرِ لَهُ يوماً نَطُوحُ
نُحْ على نفسك يا مسـ ـكينُ إن كنتَ تَنُوحُ
لتنوحَنَّ ولَوْ عُمِّـ ـرْت ما عُمّرَ نوحُ

وقال في المعنى [1] :

لمن طَلَلٌ أُسائلُهُ مُعَطَّــلةٌ مناهلُــهُ
غداةَ رأيتُــهُ تنعَى أعاليَــهُ أسافلُــهُ
وكنتُ أراه مأهولاً ولـكن بادَ آهلُـهُ
وكُلٌّ لاعتسافِ الدهـ ـرِ مُعْرِضَةٌ مقاتلهُ
وما مُتَمَلّك [2] إلا وريبُ الدهرِ شاملـهُ
فيصرعُ من يصارعُه ويَنْضُلُ من يُناضِلُهُ
ينازلُ من يهمُّ بهِ وأحْيانـاً يُخاتِـلُـهُ

١ ديوانه : ٣٢٧ .
٢ الديوان : وما من مملك .

وأحيـانـاً يؤخّـره   وتـارات يعـاجلُـهُ
كفاكَ به إذا نزلتْ   على قوم كـلا كلُـهُ
وكم قد عزَّ من ملك   تحفُّ بـه قبـائلُهُ [1]
ويثني عِطْفَهُ مرَحاً   وتُعجبُـهُ شمائـلُـهُ
فلمّا أن أتاه الحقُّ   ولّى عَنْـهُ باطلُهُ
فخفّض [2] عينَـهُ للمو   تِ واسترختْ مفاصله
فما لَبِثَ السّياقُ بهِ   إلى أن جاء غاسلُهُ
فجهّزه إلى جـدثٍ   سيكثُرُ فيـهِ خاذلُـهُ
ويصبحُ شاحِطَ المثوى   مُفَجّعَـةً ثواكلُـهُ
مخمّشـةً نوادبُـهُ   مسلّبـةً حلائـلُهُ
وكَمْ قَدْ طالَ من أملٍ   فلَمْ يدركْهُ آملُهُ
رأيتُ الحقَّ لا يخفى   ولا تخفى شَوَاكلُهُ
ألا فانظرْ لنفسكَ أيَّ   زادٍ أنْتَ حامِلُـهُ
لمنزل وَحْدَةٍ بينَ الـ   ـمقـابرِ أنْتَ نازلُـهُ
قصيرِ السّمك قد رضمت [3]   عليكَ بـهِ جَنادلُهُ
بعيـدٍ تجـاورِ الجيرا   ن ضيِّقة مَدَاخلُهُ
ألَيّتهـا المقابر فيـ   ـكِ من كُنّا ننازلُهُ
ومـن كنّا نتاجرُهُ   ومـن كنّا نعامـلُهُ
ومَـنْ كنّا نُعاشرُهُ   ومَنْ كنّـا نداخـلُهُ
ومَنْ كنّا نُشاربهُ   ومَنْ كنّا نُؤاكـلُهُ

١ الديوان : قنابله .
٢ الديوان : فغمض .
٣ الديوان : رصت .

وَمَنْ كنّا نُفاخِرُهُ وَمَنْ كُنّا نُطاوِلُهُ
وَمَنْ كنّا نراقِبُهُ وَمَنْ كُنّا نُزايِلُهُ
وَمَنْ كُنّا نُكارِمُهُ وَمَنْ كُنّا نُجامِلُهُ
وَمَنْ كُنّا لهُ إلفاً قَليلاً ما نُزايِلُهُ[1]
وَمَنْ كُنّا لهُ بالأمـ ـسِ إخواناً نواصِلُهُ[2]
فحلَّ مَحِلّةً مَنْ حلّ ـها صُرِمَتْ حبائلُهُ
ألا إنَّ المنيّةَ مَنْـ ـهلٌ والخلقُ ناهِلُهُ
أواخِرُ مَنْ ترى تفنى كما فنِيَتْ أوائِلُهُ
لعمركَ ما استوى في الأمـ ـرِ عالِمُهُ وجاهِلُهُ
ليعلمْ كلُّ ذي عملٍ بأنَّ اللهَ سائِلُهُ
فأسْرَعَ فائزاً بالخيـ ـرِ قائِلُهُ وفاعِلُهُ

ثم قال لسان الدين رحمه الله تعالى ، بعد ما سبق ، ما صورته : وهذا الغرض بحر ، ويكفي من خزائنه عرض ، ومن بيت ماله قرض ، إن شاء الله تعالى .

ثم قال : تنبيه يشتمل على سؤالين : أحدهما أن يقال : الوعظ غير مناسب للمحبّة ، إذ لا يحصل إلا بعد الفراغ واليقظة ، الثاني : أن يقال : عظمت الحسرة لفراق عالم الحس ، وأطلتم في قشور ، فنجيب عن الأول : إنّا لم نجلب الوعظ إلا بينَ يدي تأميل حضور المحبّة ، فكأنّه يجري مجرى الأسباب ، فإن الغرض به وجهة النفس من جوّ السرور ، واللعب بالزور ، إلى جوّ الحزن والارتماض ، ومن هنالك تأخذ بخطامها أيدي الاضطرار ، فتحصل اليقظة ثم التوبة ، ومنها يستقيم الطريق في منازل السائرين إلى الحق :

١ ق : نزاوله ، والتصويب عن الديوان .
٢ الديوان : ومن كنا بلا مين أحايينا ...

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتها وإذا تُرَدُّ إلى قَليل تقنعُ[1]

وعند ذلك يُطْوَى بساط الزجر والوعظ[2] ، ويمدّ بساط الاعتبار والحب ، إن شاء الله تعالى ، فإنّها كالشّكْلى بطبعها لما فارقتــه من عنصر نور الله تعالى والعوالم الروحانية الّتي هي الشعار والدثار ، والأمل والدار ، والحياة والجمال ، والوجود والكمال ، وإن كانت لا تشعر بالسبب ، ولا تستحضر ذكر العلّة ، فإذا ذُكر الفراق أنّتْ ، أو تُنوشدت الآثار حَنّتْ ، ويطرقها الحزن عند الألحان الشجية ، وتحس بعض الأحيان بالمواجد العشقية :

وقالوا أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَهُ لقبر ثوى بينَ اللّوى والدكادكِ[3]
فقلت لهم : إن الأسى يبعث الأسى دعوني فهــذا كلّه قبر مالكِ

وعن الثاني : إن كثيراً من النفوس لا تشعر بوجود عالم الحس، فضلاً عن النظر فيه ، وإن شعرت بذلك عد منها نبلاً ، ومَنْ كان بهذه المثابة لا سبيل لندائه إلا من باب القُشُور ﴿ أولئكَ يُنادَونَ من مَكانٍ بَعيد ﴾ (فصلت : ٤٤) إلى أن يتأتى النّداء من باب الله تعالى بفضل الله تعالى ، فالنفوس الشخصية غير متساوية ، وهي بهوى الهوى هاوية ، فالقريبُ منها يُجذَبُ بالأنامل ، والبعيدُ بالجزل الكوامل ، وعلى قدر المحمول تكون قوّة الحامل :

يضع الهِناء مواضع النقب[4]

يكفي اللّبيبَ إشارةٌ مكتومةٌ وسواه يدعى بالنّــداء العالي
وسواهما بالزجر من قبل العصا ثمّ العَصا هي رابعُ الأحوالِ

---

١ لأبي ذؤيب الهذلي ، ديوان الهذليين ١ : ١١ .
٢ والوعظ : سقطت من ق .
٣ البيتان لمتمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك .
٤ من أمثالهم ؛ وهو شطر بيت لدريد بن الصمة ، وصدره : «متبذلا تبدو محاسنه» .

وقال رحمه الله تعالى في فصل ذم الكسل ، ما صورته : ونحن نجلب بعض الأمثال في ذمّه ، ممّا يسهل حفظه ، ويجب لحظه ، فمن ذلك : الكسل مَزْلَقَة الربح ، ومسخرة الصبح . إذا رقَدَت النفسُ في فراش الكسل استغرقها نوم الغفلة ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك : ١٠). الندامة في الكسل كالسم في العَسَل . الكسل آفة الصنائع ، وأَرَضَةٌ في البضائع . العجز والكسل ، يفتحان الخمول ولا تَسَلْ . الفلاّح إذا ملّ الحركة ، عدم البركة :

ظَهران لا يُبْلِغانِ المرء إن رُكبا   بابَ السعادة : ظهرُ العجز ، والكسلُ

وفي اغتنام الأيام : من أضاع الفرصة ، تجرع الغصّة . إن كان لك من الزمان شيء فالحال ، وما سواه فمُحال . تارك أمره إلى غد ، لا يُفلح للأبد . الإنسان ابنُ ساعته ، فليُحطْها من إضاعته . التسويف سُمُّ الأعمال ، وعدوّ الكمال . لم يُحْرَم المُبادر ، إلاّ في النادر . ما درجت أفراخُ ذلٍّ إلا من وَكْر طماعة ، ولا بَسَقَت فروعُ ندمٍ إلاّ من جرثومة إضاعة . العزم سوق ، والتاجر الجسور مرزوق . مَنْ وثق بعهد الزمان ، علقت يَداه بحبل الحرمان . الربح في ضمن الخَسارة ، والمضيع أولى بالخسارة .

ومن أمثالهم — في نظر الإنسان لنفسه ، قبل غروب شمسه — قولهم : اعلم أن كلّ حكيم صانع إذا فكر في أمره ونظر في العواقب علم أنّه لا بد يوماً أن يخرب دكانه الذي هو محل بضاعته ، وتنحلّ أنقاضه ، وتكلّ أدواته ، وتضعف قوّته ، وتذهب أيام شبابه ، فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكان ، واستغنى عن السعي ، فإنّه لا يحتاج بعد ذلك إلى دكان آخر ، ولا إلى أدوات مجددة ، فليتّجر بما اقتناه ويشتغل بالانتفاع والالتذاذ بما كسبت يَداه ، وهذه حالة النفس بعد خراب الجسد ، فبادر واجتهد واحرص واستعجل ، وتزوّد قبل

خراب دكانك وهدم بنيته ، فإن خير الزاد التقوى ، قال حسّان[1] :

إذا أنْتَ لم ترحل بزاد من التُّقى وأبصرت بعد اليوم من قد تزوّدا
نَدِمْتَ على أن لا تكون كمثلهِ ولم تَتَرَصد مثلَ ما كان أرصدا

قال أبو الفرج ابن الطيب البغدادي[2] في اغتنام الوقت في كتابه « في السياسة والآراء الفاضلة » : يجب أن تعيد وتمثّل ، فإن الفكر مضطرب متشوّش بكثرة نوازع النفس واختلاف قُواها ، والعمى في بعض الأوقات ، فإذا سنح للنفس وقتٌ فاضل بصفاء جوهرها ، وأبرمت قانوناً أو صورة متوسطة فاضلة ، يجب أن يقيد بذلك وقت سعد ربما لا يعاوِد أو يعاوَد ؛ انتهى .

٧٦ — ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان سلطانه إلى شيخ الموحّدِين بتونس ابن تافراجين ، يخبره بالتمحيص الجاري عليه ، ونصّه : « من أمير المسلمين أيده الله ونَصَره ، وأعلى أمره وأظهَرَه ، إلى ولينا في الله تعالى الذي له القَدَم الرفيع المناصب ، والمجدُ السامي الذوائب ، والسياسة التي أخبارها سَمَرُ الركبان وحَدْوُ الركائب ، الشيخ الجليل الكبير ، الشهير الخطير ، الهمام الأمضى ، الرفيع الأعلى ، الأمجد الأوحد ، الأسعد الأصعد ، الأوفى الظاهر الطاهر الفاضل الباسل الأرضى الأنقى المعظم الموقّر المبرور ، عَلَم الأعلام ، سلالة أكابر أصحاب الإمام ، مُعيد دولة التوحيد إلى الانتظام ، أبي محمد عبد الله ابن الشيخ الجليل الكبير الشهير الماجد الخطير الرفيع الأسعد

1 كذا والمشهور أن هذين البيتين من قصيدة الأعشى التي نظمها في مدح الرسول وحالت قريش بينه وبين الوفادة عليه ، ومطلعها « ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا » .

2 أبو الفرج عبد الله بن الطيب عراقي فيلسوف اعتنى بشرح الكتب القديمة في المنطق والحكمة من تأليف أرسطوطاليس وكتب جالينوس الطبية (قيل توفي سنة ٤٣٥) ومن تلامذته ابن بطلان (القفطي : ٢٢٣ ، وابن أبي أصيبعة ١ : ٢٣٩) .

الأمجد الحسيب الأصيل الأمضى الأرضى الأفضل الأكمل المعظم المقدس[1] المرحوم أبي العباس تافراجين ، وصَلَ الله تعالى له عزة تناسب شهرة فضله ؛ وسعادة تتكفل له في الدارين برفعة محله : سلام كريم يخص مجادتكم الفاضلة ، ورتبتكم الحافلة ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

« أمّا بعدَ حمدِ الذي يُمَحّصُ ليثيب ، ويأمر بالاستقالة ليُجيب ، ويُعْقِب ليلَ الشدة بصبح الفرج القريب ، ويجني من شجر التوكل عليه ، والتسليم إليه ، ثمرَ الصنع العجيب ، ويظهر العبر مهما كسر ثم جبَّر لكل ذي قلب منيب ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي نلجأ إلى ظل شفاعته في اليوم العَصيب ، ونستظهر بجاهه على جهاد عَبَدَة الصليب ، ونستكثر عددَ بركاته في هذا الثغر الغريب ، ونَصُول منه على العدوّ بالحبيب ، والرضى عن آله وصحبه نجوم الهداية من بعد الأمنة من الأفول والمَغيب ، فإنّا كتبناه إليكم — كتب الله لكم عزّة متصلة ، وعِصْمة بالأمان من نُوَبِ الزمان متكفلة — من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، ولا زائدَ بفضل الله تعالى الذي لطف وجَبَّر ، وأظهر في الإقالة وحسن الإدالة العِبَر ، ممّن كتب الله تعالى له العقبى لما صَبر ، إلا الخبرُ الذي كسا الأعطافَ الحِبر ، والصنع الذي صدّق خُبْرُه الخَبَر ، والحمد لله تعالى كثيراً كما هو أهله فلا فضل إلاّ فضله ، ولمكانتكم عندنا المحلُّ الذي قررت شهرة فضلكم قواعده ، وأعلت مصاعده ، وأثبت التواتر شواهده ، إذ لا نزال نتحف بسيركم التي في التدبيرات تُقْتَفى ، وعلم يُسترشد به إذا العلم اختفى ، والسبيل عفا ، وإن تلك الدولة بكم استقام أوَدُها ، وقامت والحمد لله عُمُدُها ، وإنكم رعيتم في البنين حقوقَ آبائها ، وحفظتم عليها ميراثَ عليائها ، ولو لم تتصل بنا أنباؤكم الحميدة ، وآراؤكم السديدة ، بما يفيد العلم بفضل ذاتكم ، ويُغْري قوى الاستحسان بصفاتكم ، لغبطنا بمخاطبتكم

---

[1] ق : القدوة .

ومفاتحتكم ، ما نجدُهُ من الميل لكم طبعاً وجِبِلّة ، من غير أن نعتبر سبباً أو عِلّة ، فالتعارف بين الأرواح لا يُنكَر ، والحديث الكريم يؤيد من ذلك ما يُنقل ويُذكَر[1] .

«وبحسب ذلك نطلعكم على غريب ما جرى به في ملكنا القدر ، وحيث بلغ الوِرد وكيف كان الصَّدَر ، وربما اتصلت بكم الحادثة التي أكفأها على دار ملكنا من لم يعرف غير نعمتها غاذياً ، ولا برح في جوانب إحسانها رائحاً وغادياً ، يتيم حجرها الكافل ، ورضيع دَرّها الحافل ، الشقي الخاسر ، الخائن الغادر ، محمد بن إسماعيل بن محمد المستجير بنسبنا من لؤم غدره ، الخفية عنا حيلُ مكره لخمول قدره ، إذ دَعاه محتومُ الحَيْن ليهلك إلى أن يهلك ، وسوّلت له نفسه الأمّارة بالسوء أن يُملِّكَ أخانا الخاسر ثم يملك ، وسبحان الذي يقول ﴿يا نُوحُ إنّهُ لَيْسَ مِنْ أهْلِكَ﴾ (هود : ٤٦) ، وكيف تم له ما أبرمه من تسوّر الأسوار ، واقتحام البَوّار ، وتملك الدار ، والاستيلاء على قطب المَدار ، وأنّا كَنَفَتْنا عصمةُ الله تعالى بمتحوّلنا الذي كان به ليلتئذٍ محل ثوائنا ، وكَفَّت القدرة الإلهية أكفَّ أعدائنا ، وخلصنا غِلاباً بحالِ انفرادٍ إلاّ من عناية [الله] ونعم الرفيق ، وصِدْقِ اللّجَإِ إلى رحمة الله تعالى التي ساحتُها عن مثلنا لا تضيق ، مهما[2] تنكّر الزمان أو تفرق الفريق ، وشرذمةُ الغدر تأخذ علينا كلَّ فج عَميق ، حتى أوَيْنا من مدينة وادي آش إلى الجبل العاصم ، والحجة المرغمة أنفَ المخاصم ، ثم أجَزْنا البحر بعد معاناة خطوب ، وتجهم من الدهر وقُطُوب ، وبلا الله هذا الوطَنَ بمن لا يرجو لله وقاراً ، ولا يألو شعائره المعظمة احتقاراً ، فأضرمه ناراً ، وجَلّل وُجُوهَ وجوهه خزياً وعاراً ، حتى هتك الباطل حِماه ، وغيّر اسمه ومُسَمّاه ، وبدّد حاميته المتخيرة وشَذَّبها ، وسَخّم دواوينه التي محّصها الترتيبُ والتجريبُ وهذّبها ، وأهلك نفوسها وأموالها ، وأساء لولا

١ يشير إلى الحديث « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف . . . الخ » .

٢ ق : فمهما .

تَدارك الله تعالى أحوالها .

«ولمّا تأذن جل جلاله في إقالة العِثار ، ودرك الثار ، وأنشأت نواسمَ رضاه إدامة الاستغفار ، ورأينا قلادة الإسلام قد آن انتثارها ، والملّة الحنيفية كادت تذهب آثارها ، ومسائل الخلاف يتعدد مُثارها ، وجعلت الملتان نحونا تشير ، والملك يأمل أن يوافيه بقدومنا البشير ، تحركنا حركة خفيفة تشعر أنّها حركة الفتح ، ونهضنا نبتدر ما كتب الله تعالى من المنح ، وقد امتعض لنا الكونُ بما حمل ، واستخدم الفُلك نفسه بمشيئته تعالى واكتمل ، وكاد يقرب لقرى ضيفنا الثورُ والحَمَل ، وظاهَرَنا محلٌّ أخينا السلطان الكبير الرفيع المعظم المقدس أبي سالم الذي كان وطنه مَأوَى الجنوح ، ومَهَبٌّ النصر الممنوح — رحمة الله تعالى عليه — مظاهرةَ مثلِه من الملوك الأعاظم ، وختم الجميل بالجميل والأعمال بالخواتم ، وأنفَ حتى عدوٌّ الدين لنعمتنا المكفورة ، وحقوقنا المحجوبة المستورة ، فأصبح بعد العدوّ حبيباً ، وعاد بعد الإبابة مُنيباً ، وسَخّر أساطيله تحضيضاً على الإجازة وترغيباً ، واستقبلنا البلاد وبحر البشر يزخر مَوْجُه ، وملك الإسلام قد خرَّ على الحضيض أوْجُه ، والرومُ مستوليةٌ على الثغور ، وقد ساءت ظنون المؤمنين بالعقبى ولله عاقبة الأمور ، والخبيثُ الغادر الذي كان يموّه بالإقدام قد ظهر كذب دَعْوَاه ، وهان مَثْواه ، وتورط في أشراكِ المندمة تورطَ مثله ممّن اتَّبع هواه ، وجحد نعمة مولاه ، فلولا أن الله ، عزّ وجلّ ، تدارك جزيرة الأندلس بركابنا ، وعاجل أُوارها بانسكابنا ، لكانت القاضية ، ولم ترَ لها من بعد تلك الريح العقيم من باقية ، لكنّا والفضل لله تعالى رفعنا عنها وطأةَ العدوّ وقد ناء بكَلْكَل ، وابتززناه منها أيَّ مشربٍ ومأكل ، واعتززنا عليه بالله تعالى الذي يعز ويذل ، ويهدي ويضل ، فلم نسامحه في شرط يجرٌّ غَضاضة ، ولا يخلّف في القلوب مضاضة ، وخُضْنا بحر الهَوْل ، وبرئنا إلى الله تعالى ربّنا عن القوّة والحَوْل ، وظهرت للمسلمين ثمرة سريرتنا ، وما بذلنا في مصانعة

العدوّ عن الإجهاز عليهم من حسن سيرتنا ، فقويت فينا أطماعُهم ، وانعقد على التحرُّم بنا إجماعهم .

« وقصدنا مالَقَة بعد أن انثالت الجهة الغربية ، وأذعنت المعاقل الأبيّة ، فيسّر الله تعالى فتحها ، وهيأ منحها ، ثمَّ توالت البَيْعات ، وصرخت بمآذن البلاد الدُّعاة ، واضطرب أمر الخائن وقد دلفت المخاوف إليه ، وحسبَ كلَّ صَيْحَة عليه ، فاقتضت نَعامته الشائلة ، ودولة بغيه الزائلة ، وآراؤه الفائلة ، أن ضم ما أمكنه من ذخيرة مكنونة ، وآلة للملك مَصُونة ، واستركب أوباشه الذين استباح الحقُّ دماءهم ، وعرف الخلق اعتزاءهم للغَدْر وانتماءهم ، وقصد سلطان قَشْتالة من غير عهد ولا وثيقة ، ولا مُثْلى طريقة ، ولا شِيمة بالرَّعْي خليقة ، لكن الله ، عزّ وجل ، حمله على قدمه ، لإراقة دمه ، وزين الوجود بعدمه ، فَلَحِينِ قدومه عليه راجياً أن يستفِزَّه بعرض ، أو يحيل صحة عَقْده المبرم إلى مَرَض ، ومؤملاً هو وشيعته الغادرة كرَّة على الإسلام مُجْهِزة ، ونصرة لمواعيد الشيطان مُنْجِزة ، تقبّضَ عليه وعلى شيعته ، وصَمّ عن سماع خديعته ، وأفحش بهم المُثْلة ، وأساء بحسن رأيه فيهم القِتْلة ، فأراح الله تعالى بإبادتهم نفوسَ العباد ، وأحْيا بهلاكهم أرماقَ البلاد .

« وحَثَثْنا السير إلى دار ملكنا فدَخَلْناها في اليوم الأغر المحجَّل، وحصلنا منها على الفتح الإلهي المعجَّل ، وعدنا إلى الأريكة التي نبا بنا عنها التمحيصُ فما حسبناه إلاّ سراراً أعقبه الكمال ، ومرضاً عاجله الإبلال ، فثابت للدين الآمال ، ونجحت الأعمال ، وبذلنا في الناس من العفو ما غَفَرَ الذنوب ، وجَبَر القلوب ، وأشَعْنا العفو في القريب والقَصِيّ ، وألبسنا المريبَ ثوبَ البريّ ، وتألّفنا الشارد ، وأعذبنا الموارد ، وأجرينا العوائد ، وأسْنَيْنا الفوائد ، إلا ما كان من شِرْذِمة عظمت جَرَائرهم ، وخَبُثت في معاملة الله تعالى سرائرهم ، وعُرِف شُومُهم ، وصدق من يَلُومهم ، فأقصيناهم وشَرَّدْناهم ، وأجْلَيناهم

عن هذا الوطن الجهادي وأبعدناهم .

« ولمّا تعرّف سلطان قشتالة باستقلالنا، واستقرارنا بحضرة الملك واحتلالنا، بادر يُعرّف بما كان من عمله فيمن لَحِق به من طائفة الغَدْر ، وإخوان الخديعة والمكر ، وبعث إلينا برؤوسهم ، ما بين رئيسهم الشقيّ ومرؤوسهم ، وقد طفا على جداول السيوف حَبابُها ، وراق بحنّاء الدماء خِضابها ، وبرز الناسُ إلى مشاهدتها معتبرين ، وفي قدرة الله تعالى مستبصرين ، ولدفاع الناس بعضهم ببعض شاكرين ، وأحقّ الله تعالى الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين ، فأمرنا بنصب تلك الرؤوس بمسوّرِ الغدر الذي فرعته ، وجعلناها علماً على عاتق العمل السيىء الذي اخترعته ، وشرعنا في مُعالجة العلم ، وأفضْنا على العباد والبلاد حُكْمَ السلم ، فاجتمع الشمل كأحسن أحواله ، وسكن هذا الوطن بعد زلزاله ، وأفاق من أهْواله .

« ولعلمنا بفضلكم الذي قضاياه شائعة ، ومُقدّماته ذائعة ، أخبرناكم به على اختصار ، واجتزاء واقتصار ، ليسر دينكم المتين بتماسك هذا الثغر الأقصى بعد استرساله ، وإشرافه على سوء مآله ، وكنّا نخاطب محل أخينا السلطان الجليل المعظّم الأسعد الأوحد الخليفة أمير المؤمنين أبي إسحاق ابن الخليفة أمير المؤمنين المعظّم المقدس أبي يحيى ابن أبي بكر ابن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين – وَصَلَ الله تعالى أسباب سَعْده وحرس أكناف مجده – لولا أنّنا تعرفنا كَوْنَه في هذه المدة مقيماً بغير تلك الحضرة التونسية ، فاجتزأنا بمخاطبة جهتكم السنية ، وبين سلفنا وسلفكم من الود الراسخ البنيان ، والكريم الأثر والعيان ، ما يدعو إلى أن يكون سببُ المخاطبة مَوْصولاً ، وآخرة الود خيراً من الأولى ، لكن الطريق جَمُّ العوائق ، والبحر مفروق[1] البوائق ، وقَبُول العذر بشواغل

[1] ق : معروف .

القطر بالفضل لائق ، ومـُزَادنا أن يتصل الودُّ ، ويتجدّد العهد ، والله عز وجل يتولى أمور المسلمين بمتوارد إحسانه ، ويَجْمع قلوبهم حيثُ كانوا على طاعة الله تعالى ورضوانه ، وهو سبحانه يُطيل سعادتكم ، ويحرس مَجادتكم ، ويُنجح إدارتكم ، ويُسَنّي إرادتكم ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته » .

٧٧ ـ ومن نثره رحمه الله تعالى ما أنشأه عن سلطانه الغني بالله ، وذلك قوله: « يا أيها الناس ، ضاعف الله تعالى بمزيد النعم سرورَكم ؛ وتكفل بلطفه الخفي في مثل هذا القطر الغريب أموركم ؛ أُبشركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم ، المترادفة بيمنه وسعادته نعمُ الله تعالى عليكم ، أمتع الله تعالى الإسلام ببقائه ، وأيده على أعدائه ، ونصره في أرضه بملائكة سمائه ، وأن الله تعالى فتَحَ له الفتح المبين ، وأعَزَّ بحركة جهاده الدين ، وبَيّض وجوهَ المؤمنين ، وأظفره باطريرةَ البلدِ الذي فجع المسلمين بأسرهم فجيعةً تثير الحمِيّة ، وتحرك الأنفس الأبيّة ، فانتقم الله تعالى منهم على يده ، وبلّغه من استئصالهم غاية مقصده ، فصَدَقَ من الله تعالى لأوليائه وعلى أعدائه الوَعْدُ والوعيد ، وحكم بإبادتهم المبدىء المعيد ﴿وكَذلكَ أخْذُ ربّكَ إذا أخَذَ القُرى وهي ظالمَة ؛ إنَّ أخْذَه أليمٌ شَديد﴾ (هود : ١٠٢) وتَحَصَّل من سبيه بعدما رويت السيوف من دمائهم آلاف عديدة ، لم يُسْمَع بمثلها في المُدَد المديدة ، والعهود البعيدة ، ولم يُصَبْ من إخوانكم المسلمين عددٌ يُذكر ، ولا رجل يُعتبر ، فتح هني ، وصنع سني ، ولطف خفي ، ووعد وفي ، فاستبشروا بفضل الله تعالى ونعمته ، وقِفُوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته ، وقابلوا نِعَمَه بالشكر يَزِدْكم ، واستبصروا في الدفاع عن دينكم ينصركم ويؤيدكم ، واغتبطوا بهذه الدولة المباركة التي لم تَعْدَمُوا من الله تعالى معها عيشاً خصيباً ، ولا رأياً مُصيباً ، ولا نصراً عزيزاً ولا فتحاً قريباً ، وتضرعوا في بقائها ، ونَصْر لوائها ، إلى مَنْ لم يزل سميعاً للدعاء مجيباً ، والله عز وجل

يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة ، ولا يعدمكم ولا أُولي الأمر منكم توفيقاً وسعادة ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته من مُبْلِغ ذلك فلان » انتهى .

٧٨ — ومن نثر لسان الدين — رحمه الله تعالى — ما أنشأه عن سلطانه الغني بالله تعالى — حين وصله ابنُه الذي كان بفاس — يخاطب سلطان فاس ، ما نصّه :

« المقام الذي تقلّد نافلة الفضل شَفْعاً ، وجوّد سورة الكمال إفراداً وجَمْعاً ، واستولى وَجَمع ببرّه المَنْح ، والتهنئة والفتح ، فأحرز أصلاً وفرعاً ، واستحق الشكر عقلاً وشَرْعاً ، وأغرى أيديَ جوده ، بالقصد الذي هو حَظٌّ وليه من وجوده ، فأثار من جيش اللقاء نَقْعاً ، ووَسَط به جَمْعاً ، مقامُ محل أخينا الذي أقلامُ مقاصده دَرِبة بحسن التوقيع ، وعيونُ فضله مُذكاة لإحكام الصنيع ، وعَذَبات فخره تهفو بذروة العلم المنيع ، ومكارمه تتفنن فيها مذاهبُ التنويع ، أبقاه الله تعالى وألسنُ فضله ناطقة ، وأقيسةُ سعدِه صادقة ، وألويتُه بالنصر العزيز خافقة ، وبضائعُ مكارمه في أسواق البر نافقة ، وعصائبُ التوفيق لركائب أغراضه موافقة ؛ السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا : سلام كريم ، طيب برّ عميم ، يخصّ مقامَكم الأعلى ، وطريقتكم المُثْلى ، وأخوّتكم الفُضْلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، مُجِلٌّ قدرِكم ، وملتزم بركم ، وموجب حمدكم وشكركم ، فلان .

« أمّا بعدَ حمدِ الله تعالى الذي جعل الشكر على المكرمات وَقْفا ، ونهج منه بإزائها سبيلاً لا تَلْتَبِس ولا تخفى ، وعَقَد بينه وبين المزيد سبباً وحِلْفا ، وجعل المودة في ذاته ممّا يُقَرّبُ إليه زُلْفَى ، مربح تجارة من قصد وجههُ بعمله حتى يرى الشيء ضعفا ، وناصر هذه الجزيرة من أوليائه الكرامِ السيرة بمن يُوسِعُها فضلاً وعَطْفا ، ومُدْني ثمار الآمال فتتمتع بها اجتناء وقَطْفا ، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا ومولانا محمّد النبيّ العربي الكريم ، الرؤوف الرحيم ،

الذي مدّ من الرحمة على الأمة سجْفا ، وملأ قلوبَها تعاطفاً وتعارفاً ولطفا ، القائل « مَنْ أيقن بالخَلَف جاد بالعطية » ووعد مَنْ عامل الله تعالى بربح المقاصد السنية ، وعداً لا يجد خُلْفا ، والرضى عن آله وأصحابه الذين كانوا من بعده للإسلام كَهْفا ، وعلى أهله في الهواجر ظِلاً ملتفّا ، غيوثُ النّدى كلّما شامُوا سَماحاً وليوث العدى كلّما شَهِدُوا زَحْفا ، والدعاء لمقام أخُوّتكم الأسعد بالنصر الذي يكف من عُدْوانِ الكفر كفّاً ، والمجد الذي لا يغادر كتابُه من المفاخر التي ترك الأول للآخر حَرْفا ، وإلى هذا — أيدكم الله بنصر من عنده ، وحكم لملككم الأسمى باتصال سعده ، وأنجز في ظهوره على من عاند أمره سابقَ وعده — فإنّنا نقرر لدى مقامكم وإن كان الغنيَّ بأصالة عَقْله ، عن اجتلاء الشاهد ونَقْله ، وجلاء البيان وصَقْله ، أن الهدايا وإن لم تحلَ العينُ منها كما حلت ، أو تناولها الاستنزارُ فما نبهت في لحظ الاعتبار ولا جلّت ، أو كانت زَيْفاً كلّما أُغري بها الاختبار قَلّت ، لا بد أن تترك في النفوس مَيْلاً ، وأن تستدعي من حسن الجزاء كَيْلاً ، وأن تنال من جانب التراحم والتعاطف نَيْلاً ، وأيُّ دليل أوضح مَحَجّة ، وأبين حجّة ، من قوله صلى الله عليه وسلّم « تهادوا تحابوا » من غير تبيين مقدار ، ولا إعمال اعتبار ، ولا تفرقة بين لجين ولا نُضار ؟ فكيف إذا كانت الهدية فِلْذة الكبد التي لا يلذ العيش بعد فراقها ، ولا تضيء ظُلَم الجوانح إلا بطلوع شمسها وإشراقها ، وجمع الشمل الذي هو أقصى آمال النفوس الآلفة ، والبواطن المصاحبة للحنين المحالفة ، لا سيما إذا اقتعدت محل الهَناء ، بالفتح الرائق السّناء ، وحَفّت بها من خلفها وأمامها صنائع البر وقَوَمة الاعتناء ، فهنالك تفخر ألسن الثناء ، وتتطابق أعلام الشكر السامية البناء .

« وإنّنا ورد علينا كتابُكم الذي سَطّره البر وأمْلاه ، وكَنَفَه اللّحظُ وتَوَلاّه ، ووشّحه البيانُ وحَلاّه ، مهنئاً بما منح الله جلّ جلاله من رد الحق ، وتعيين الجمع ورفع الفرق ، وتطويق الأمان وأمان الطوق ، وإسعاد السّعْد ،

وبلوغ القصد ، وقطع دابر من جَحَد نعمة الأب والجدّ ، وسَلّ سيف البغي داميَ الحد ، والحمد لله تعالى حمداً يلهمه ويتيحه ، ونسأله إمداداً يسوّغه ويُبيحه ، على أنْ أحْسَنَ العُقْبى وأعقب الحسنى ، وأرى النعمَ بين فُرَادى ومَثْنى ، وجَمَعَ الشمل الذي قد تبدد ، وجدَّدَ رسم السعادة لهذا القطر فتجدّد ، وأخذ الظالم فلم يجد من مَحيص ، وجمع لنا الأجر والفخر بين تخصيص وتمحيص ، وقَلّد برؤوس الفَجَرَة الغَدَرَة الفرضةَ التي فَرَعُوها ، وأطفأ بمُرَاقِ دمائهم نارَ الضلالة التي شرَعُوها ، وكتب لقبيلكم الفضلَ الذي يُحمد ويُشكر ، والحقّ الذي لا يُجحد ولا يُنكر ، فلقد أوى لما تبرأت الخُلْصان ، وتَحَفّى عندما تنكر الزمان ، وسبَّب الإدالة ، وطاوع الأصالة والجَلالة ، حتى فرج الله تعالى الكُرْبة ، وآنس الغربة ، وأقال العثرة وتقبل القربة ، له الحمد على آلائه ، وصِلة نعمائه ، ملء أرضه وسمائه .

« ووصل صحبته الولد مكنوفاً بجناح اللّطف ، ممهّداً له ببركتكم مهادُ العطف ، فبرزنا إلى تلقيه تنويهاً لهديتكم وإشادة ، وإبداء في بركم وإعادة ، وأركبنا الجيشَ الذي آثرنا لحين استقلالنا عرضه ، وقررنا بموجب الاستحقاق فرضه ، فبرز إلى الفضاء الأفْيَح حسنَ الترتيب ، سافِراً عن المرأى العجيب ، ولولا الحَنانُ الذي تجده النفوس للأبناء وتستشعره ، والشّوق إلى اللّقاء الذي لا يجحده منصف ولا يُنْكره ، لما شقّ علينا طول مقامه في حجركم ، ولا ثواؤه لصقَ أريكة أمركم ، فجوارُكم محل لاستفادة رسوم الإمارة ، وتعلّم السياسة والإدارة ، حتى يرد علينا يقدُمُ كتيبة جهادكم ، ويقود إلينا طليعة نصركم إيانا وإمدادكم ، فنحن الآن نشكر مقاصدكم التي اقتضى الكمال سياقَها ، وزَيّنَ المجدُ آفاقها ، وقدّرها فأحكم طِباقها ، ونقرر لديكم أن حظنا من ودادكم ، ومحلنا من جميل اعتقادكم ، حظٌّ بانَ رجحانه وفَضْلُه ، ولم يتأتَّ بين مَنْ سلف من السلف مثله ، من الصحبة في المنزل الخَشِنِ وهي الوسيلة ، وفي رَعْيها

تظهرُ الفضيلة ، والاشتراك في لازم الوصول إلى الحق ، وضم أشتات الخلق ، والمودة الواضحة الطرق ، إلى ما بين السَّلَف ، من الودّ الآمن بَدْرُهُ من الكلَف ، المذخورة أذِمَّتُه للخلَف ، فإذا كانت المعاملة جارية على حَسَبه ، وشعبها راجعة إلى مذهبه ، جنى الإسلام ثمرة حافلة ، واستكفى الدينُ إيالة كافلة ، فالله ، عزّ وجلّ ، يمهّد البلاد بيمن تدبيركم ، ويُجْرِي على مَهْيَع السدادِ جميعَ أموركم ، ويجعلكم ممّن زين الجهـاد عواتق أعماله ، وكان رضي الله تعالى عنه أقصى آماله ، حتى تُرْبي مآثركم على مآثر أسلافكم الذين عرف هذا الوطن الجهادي إمدادَهم ، وشكر جهادَهم ، وقبل الله تعالى فيه أموالهم وأولادهم ، وَحَسّن من أجله معادَهم .

«وقد حضر بين يدينا رسولكم الذي وجهتم الولد – أسعده الله تعالى – لنظره ، وتخيرتموه لصحبة سفره ، فلان ، وهو من الأمانة والفضل ، والرَّجاحَة والعَقْل ، بحيث طابق اختياركم ، واستَحَقّ إيثاركم ، فأطنب في تقرير ما لديكم من عناية بهذه الأوطان عينت الرفد ، وضربت الوَعْد ، وأخلصت في سبيل الله تعالى القَصْد ، وغير ذلك ممّا يؤكّد المودة المستقرة الأركان ، المؤسّسة على التقوى والرضوان ، فأجبناه بأضعاف ذلك ممّا لدينا لكم ، وقابلنا بالثناء الجميل قولكم وعملكم ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويَحْرُسُ مجدكم ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته» .

٧٩ – ومن ذلك ما كتبه – رحمه الله تعالى – على لسان الأمير سعد ابن سلطانه الغني بالله تعالى إليه وهو :

« مولاي ومولى كبيري ومولى المسلمين ، ورحمتي المتكفّلة بالسعد الرائق الجبين . يقبّل قَدَمَكم التي جعل الله تعالى العزّ في تقبيلها ، والسعدَ في اتباع سبيلها ، عَبْدُكم الصغير في سنه ، الكبير في خدمتكم وخدمة كبيرهِ في حياتكم بفضل الله تعالى ومَنّه ، الهاشُّ لتمريغ وجهه في كتابكم حسن الذراع ، المنبئة طباعه

عن العبودية الكامنة بالبدار إلى ذلك والإسراع ، عبدكم وولدكم سعد ، كتبه من بابكم، المحوط بعز أمركم ، المتحف إن شاء الله تعالى بأنباء نصركم ، وقد وصل إلى عبدكم تشريفكم السابغ الحلل، وتنويهكم المبلغ غايات الأمل، وخط يدكم الكريمة وغمامة رحمتكم الهامية الديمة ، فيا له من عز أثبت لي الفخر في أبناء الملوك ، وسار بي من الترشيح لرتب حظوتكم على المنهج المسلوك ، قرر من عافية مولاي وسعادته ، واقتران السعود حيث حل بوفادته ، ما تكفل ببلوغ الآمال ، وتمم لسانُ الحال في شكر الله تعالى لسانَ المقال ، والله تعالى يديم أيام مولاي حتى يقوم بحق شكر النعم لسانُه ، وتؤدي بعده جوارحُه من الدفاع بين يدي سلطانه ما يسر به سلطانه ، وبعث جوابه منقولاً ليد حامله من يده ليهنىء تقبيل اليد الكريمة بحال تأكيد ، ويقرر ما لعبده إلى وجهه الكريم من شوق شديد ، ويعرف شمول نعمة الله تعالى ونعمته لمن ببابه من خدم وحرم وعبيد ، ويمدّ يد الرغبة لمولاه في صلة الإنعام بتشريفه ، وإعلامه بترايدات حركته وتعريفه ، ففي ضمن ذلك كلٌّ عز مشيد ، وخير جديد ، ويُنْهي تحية أهل منزل مولاي على اختلافهم بحسب منازلهم من نعمة لحظه ، التي يأخذ منها كُلٌّ بحظّه ، والسلام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته » .

٨٠ — وقال رحمه الله تعالى : ومن نثري ما خاطبت به السلطان على لسان ولده من مالَقَة ، وقد وصلتُ به إليه من المغرب :

« مولاي الذي رضى الله تعالى مقرون برضاه ، والنُّجْحُ مُسَبَّب عن نيته ودُعاه ، وطاعته مرتبطة بطاعة الله ، أبقى الله تعالى عَلَيَّ بكم ظلَّ رحماه ، وغمام نعماه ، وزادني من مواهبه هداية في توفية حقّه الكبير فإن الهدى هُدى الله : يقبِّل مواطىء أقدامكم التي ثرَاها شرفُ الخدود وفَخْر الجباه، ويقرر من عبوديّته ما يسجّل الحقُّ مقتضاه ، ويسلّم على مَثابة رحمتكم السلامَ الذي يحبّه الله تعالى ويرضاه ، ولدُكم وعبدكم يوسفُ ، من منزل تأييدكم

بظاهر مالقة، حرسها الله ، والوجود ألْسُنٌ بالعزّ بالله ناطقة ، والأعلام والشجر ألْوِيةٌ بالسعد خافقة ، وأنواع التوفيق متوافقة ، وصنائع اللطيف الخبير مصاحبة مرافقة .

«وقد وصل يا مولاي لعبدكم المفتخر بالعبودية لكم ما بعث به عَليٌّ مقامكم ، وجادت به سحائب إنعامكم ، ولمن تحت حجبة ستركم المسدول ، وفي ظل اهتمامكم الموصول ، ولمن ارتسم بخدمة أبوابكم الشريفة من الخدام ، وأُولي المراقبة والالتزام ، ما يضيق عنه بيانُ العبارة ، ويفتضحُ فيه لسانُ القول والإشارة ، من عنايات سنية ، ونعم باطنة وجلية ، وملاحظة مولوية ، ومقاصد ملكية ، فما شئت من قباب مذهبة ، وملابس منتخبــة ، وأسرَّة مرتبة ، ومحاسن لا مستورة ولا محجبة ، واللواء الذي نشرتم على عبدكم ظلّه الظّليل ، ومددتم عليه جَناح العز الجليل ، جعله الله تعالى أسعد لواء يسير في خدمتكم ، ومد عليَّ وعليه لواء حرمتكم ، حتّى يكون لجهادي بين يديكم شاهداً ، وبالنصر العزيز والفتح المبين عليكم عائداً ، ولطائفة الخلوص لأمركم قائداً ، ولأولياء بابكم هادياً ولأعدائكم كائداً .

«واتفق يا مولاي أن كان عبدكم قد ركب مغتنماً برد اليوم ، ومؤثراً للرياضة في عقب النوم ، والتف عليه الخدام ، والأولياء الكرام ، فلمّا عدنا تعرضت لنا تلك العنايات المجلوّة الصور ، المتلُوَّة السور ، وقد حشر الناس ، وحضرت منهم الأجناس ، فعلا الدعا ، وانتشر الثنا ، وراقت الأبصار تلك الهمّة العليا ، فنسأل الله تعالى يا مولاي أن يكافىء مقامكم بالعز الذي لا يتبدل ، والنصر الذي يُستأنف ويُستَقبَل ، والسعد الذي مُحكَمه لا يتأوّل ، والعبد ومَنْ له على حال اشتياق للورود على أبوابكم الرفيعة المقدار ، وارتياح لقرب المزار :

وأبْرَحُ ما يكون الشوقُ يوماً إذا دَنَتِ الدّيارُ مِن الديارِ

« والعمل على تيسير الحركة متصل ، والدهر لأوامر السعد محتفل ، بفضل الله تعالى ، والسلام على مقام مولاي مقام الشفقة والرحمة ، والمنّة والنعمة ، ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

٨١ – ومن إنشاء لسان الدين في تولية الأمير يوسف المذكور مشيخةَ الغُزَّاة على لسان السلطان والده ما نصّه :

« هذا ظهير كريم فاتَحَ بنشر الألوية والبُنُود ، وقَوْدِ العساكر والجنود ، وأجال في ميدان الوجود ، جيادَ البأس والجود ، وأضفى ستر الحماية والوقاية بالتهائم والنجود ، على الطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود ، عقد للمعتمد به عقد التشريف ، والقدر المنيف ، زاكي الشهود ، وأَوْجَبَ المنافسة بين مجالس السروج ومضاجع المهود ، وبشر السيوف في الغُمُود ، وأنشأ ريحَ النصر آمنة من الخمود ، أمضى أحكامه ، وأنهد العزّ أمامه ، وفتّح من زهر السرور والحبور كمامه ، أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نَصْر – أيد الله تعالى أمره وخلد ذكره – لكبير ولده ، وسابق أمَدِه ، وريحانة خَلَدِه ، وياقوتة الملك على يده ، الأمير الكبير الطاهر الظاهر الأعلى ، واسطةِ السلك ، وهلال سَماء الملك ، ومصباح الظُّلَم الحلك ، ومظنة العناية الأزلية من مدير الفَلَك ومجري الفُلْك ، عنوان سعده ، وحُسام نصره وعضده ، وسَمِيّ جده ، وسلالة فضله ومجده ، السعيد المظفّر الهمام الأعلى الأمضى ، العالم العامل الأرضى ، المجاهد المؤمّل المعظّم أبي الحجاج يوسف ، ألبسه الله تعالى مِنْ رضاه عنه حُلَلاً لا تخلق جِدَّتها الأيام ، ولا تبلغ كنهها الأفهام ، وبلّغه في خدمته المبالغ التي يُسَرّ بها الإسلام ، وتَسْبَح في بحار صنائعها الأقلام ، وحَرَس مَعاليَها الباهرة بعينه التي لا تنام ، وكنفه بركنه الذي لا يُضام ، فهو الفَرْعُ الذي جرى بخَصْله على أصله ، وارتسم نَصْرُه في نصله ، واشتمل حدّه على فَصْله ، وشهدت ألسن خِلاله ، برفعة

جلاله ، وظهرت دلائلُ سعادته ، في بدء كل أمر وإعادته ، لمَّا صرف وجهه إلى ترشيحه ، لافتراع هضاب المَجد البعيد المدى وتوشيحه ، بالصبر والحلم والبأس والندى ، وأرهف منه سيفاً من سيوف الله تعالى لضرب هام العِدا ، وأطْلَعه في سماء الملك بَدْرَ هُدَى ، لمن راح وغَدَا ، وأخذه بالآداب التي تقيم من النفوس أوَدا ، وتبذر في اليوم فتجني غدا ، ورقاه في رتب المعالي طوراً فَطوْراً ، ترقي النبات ورَقاً ونَوْراً ، ليجده بحول الله تعالى يداً باطشة بأعدائه ، ولساناً مُجيباً عند ندائه ، وطرازاً على حُلّة عَلائه ، وغماماً من غمائم آلائه ، وكوكباً وهّاجاً بسَمائه ، وعقَد له لواء الجهاد على الكتيبة الأندلسية من جنده ، قبل أن ينتقل عن مهده ، وظَلّله بجناح رايته ، وهو على كَتِدِ دابتــه ، واستركب جيش الإسلام ترحيباً بوفادته ، وتنويهاً بمجادته ، وأثبت في غرض الإمارة النصرية سهم سعادته ، رأى [1] أن يزيده من عنايته ضروباً وأجناساً ، ويتبع أثره ناساً فناساً ، قد اختلفوا لساناً ولباساً ، واتفقوا ابتغاء لمرضاة الله والتماساً ، ممّن كرم انتماؤه ، وزُينت بالحسب العدّ سماؤه ، وعُرف غَناؤه ، وتأسّس على المجادة بناؤه ، حتى لا يدع من العناية فنّاً إلاّ وجَلَبه إليه ، ولا مقادة فخر إلا جعلها في يديه ، ولا حُلّةَ عزّ إلاّ أضفى ملابسها عليه .

و [لما] كان جيش الإسلام في هذه البلاد الأندلسية — أمّنَ الله سبحانه خلالها ، وسكن زلزالها ، وصدق في رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء آمالها — كَلَفَ همّته ، ومَرْعى ذمّته ، وميدان اجتهاده ، ومتعلّق أملِ جهاده ، ومعرج إرادته ، إلى تحصيل سعادته ، وسبيل خلاله ، إلى بلوغ كماله ، فلم يَدَعْ له علّة إلا أزاحها ، ولا طَلِبة إلا أجال قِداحها ، ولا عزيمة إلاّ أوْرَى اقتداحها ، ولا رغبة إلاّ فَسَحَ ساحها ، آخذاً مُدَوّنته بالتهذيب ، ومَصافّه بالترتيب ، وآماله بالتقريب ، محسناً في تلقّي الغريب ،

[1] هذا جواب « لما » في السطر الأول اعلاه .

وتأنيس المريب ، مستنجزاً له وبه وعد النصر العزيز والفتح القريب ، ورفع عنه لهذا العهد نظر مَنْ حكّمَ الأغراض في حُماته ، واستشعر عروق الحسائف لتشذيب كماته ، واشتغل عن حسن الوساطة لهم بمصلحة ذاته ، وجلب جباته ، وتثمير ماله وتوفير أقواته ، ذاهباً أقصى مذاهب التعمير بأمد حياته ، فانفرج الضيق ، وخلص إلى حسن نظره الطريق ، وساغ الريق ، ورضي الفريق ، رأى — والله الكفيل لنجح رأيه ، وشكر سعيه ، وصلة حفظه ورعيه — أن يجهد لهم اختياره ، ويحسن لديهم آثاره ، ويستنيب فيما بينه وبين سيوف جهاده ، وأبطال جلاده ، وحماة أحوازه ، وآلات اعتزازه ، مَنْ يجري مَجْرى نفسه النفيسة في كل مَبْنى ، ويكون له لفظ الولاية وله — أيده الله تعالى — المعنى ، فقدمه على الجماعة الأولى كبرى الكتائب ، ومقادة الجنائب ، وأجَمة الأبطال ، ومُزْنة الوَدْقِ الهطّال ، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك الكرام ، وأعلام الإسلام ، وسائر قبائل بني مَرِين ، ليوث العَرِين ، وغيرهم من أصناف القبائل ، وأولي الوسائل ، ليحوط جماعتهم ، ويعرف بتفقّده إطاعتهم ، ويستخلص لله تعالى ولأبيه — أيده الله تعالى — طاعتهم ، ويشرّف بإمارته مواكبهم ، ويزين بهلاله الناهض إلى الإبدار على فلك سعادة الأقدار كواكبهم ، تقديماً أشرق له وجه الدين الحنيف وتهلل ، وأحسّ باقتراب ما أمّل ، فللخيل اختيال ومَرَاح ، وللأسل السُّمْر اهتزاز وارتياح ، وللصدور انشراح ، وللآمال مَغْدًى في فضل الله تعالى ورَوَاح .

« فليتولَّ ذلك — أسعده الله تعالى — تولي مثلِه ممن أسرة الملك أسرته ، وأسوة النبي صلوات الله تعالى عليه أُسْوَتُه ، والملك الكريم أصل لفرعه ، والنسب العربي منجد لطيب طبعه ، آخذاً أشرافهم بترفيع المجالس بنسبة أقدارهم ، مُغْرِياً حسن اللّقاء بإيثارهم ، شاكراً غَناءهم ، مستدعياً ثناءهم ، مستدرّاً لأرزاقهم ، موجباً المزية بحسب استحقاقهم ، شافعاً لديه في رغباتهم المؤمَّلة ، ووسائلهم المتحمَّلة ، مسهلاً الإذن لوفودهم المتلاحقة ، منفقاً لبضائعهم النافقة ،

مؤنساً لغرمائهم ، مستجلياً أحوال أهليهم وآبائهم ، مميّزاً بين أغفالهم ونبهائهم .

« وعلى جماعتهم — رعى الله تعالى جهادهم ، ووفر أعدادهم — أن يطيعوه في طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ، ويكونوا يداً واحدة على دفاع أعداء الله تعالى وأعاديه ، ويشدوا في مواقف الكريهة أزْرَه ، ويمتثلوا نهيه وأمره ، حتى يعظم الانتفاع ، ويشور الدفاع ، ويخلص المِصال لله تعالى والمِصاع ، فلو وجد — أيده الله تعالى — غايةً في تشريفهم لبلغَها ، أو موهبة لسوّغها ، لكن ما بعد ولده العزيز عليه مذهب ، ولا وراء مباشرتهم بنفسه مَعْزَب ، والله تعالى منجح الأعمال ، ومبلغ الآمال ، والكفيل بسعادة المآل .

« فمن وقف على هذا الظهير الكريم فليعلم مقدار ما تضمنه من أمر مطاع ، وفخر مستند إلى إجماع ، ووجوب اتباع ، وليكن خير مَرْعِيٍّ لخير راع ، بحول الله تعالى .

« وأقطعه — أيده الله تعالى — ليكون بعض المواد لأزواد سفره ، وسماط نَفَره ، في جملة ما أولاه من نعمه ، وسوّغه من موارد كرمه ، جميعَ القَرْية المنسوبة إلى عرب عِنان ، وهي المحلة الأثيرة ، والمنزلة الشهيرة ، تنطلق عليها أيدي خُدّامه ورجاله ، جارية مَجْرى صريح ماله ، محررة من كل وظيفة لاستغلاله ، إن شاء الله تعالى ، فهو المستعان سبحانه ، وكتب في كذا » انتهى .

٨٢ — وكتب لسان الدين — رحمه الله تعالى — في شأن تقليد الأمير سعد أخي المذكور الأصغر منه سنّاً ما صورته :

« هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيراً ، وعَقَد منه في سبيل الله تعالى لواء منصوراً ، وأعطى المعتمد به باليُمن كتاباً منشوراً ﴿وَما كانَ عَطاءُ ربّكَ مَحْظوراً﴾ (الإسراء : ٢٠) وأطلع صبح العناية المبصرة الآية يبهر سُفوراً ، ويسطع نوراً ، وأقر عيوناً للمسلمين وشرح صدوراً ، ووعد الأهلة أن تصير بإمداد شمس الهدى إياها بدوراً ، وبشّر الإسلام بالنصر المنتظر ، والفتح الرائق الغرر ،

مواسط وثغوراً ، وأتبع حماة الدين لواء الإمارة السعيدة النصرية فأسعدْ بها آمراً وأكرِمْ بها مأموراً ، أمَرَ به ، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه ، أميرُ المسلمين عبد الله محمد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل ربّ العالمين أبي الحجّاج ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل ربّ العالمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر ، أعلى الله تعالى رايته وسدد رأيه ، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه ، لقرة عينه ، ومقتضى حقّه من العدوّ وَدَيْنِه ، وغصنِ دَوْحه ، وآيةِ لَوْحه ، ودرةِ قلادته ، ودُرّيّ أفلاك مَجادته ، وسيفِ نصره ، وهلالِ قَصْره ، وزينة عصره ، ومتقبلِ هديه ورشده ، ومَظِنة إشراقِ سعده ، وإنجاز وعده ، ولده الأسعد ، وسليل ملكه المؤيد ، الأمير الأجلّ الأعز الأسنى الأطهر الأظهر الأعلى ، لابس أثواب رضاه ونعمته ، ومنحة الله لنصره وخدمته ، ومظهر عزّه وبعد همته ، التقيّ الرضيّ العالم العامل الماجد حامي الحمى تحت ظل طاعته ، وكافي الإسلام الذي يأمن من إضاعته ، المحرز مزايا الأعمار الطويلة حظّاً الشهر في يومه وحظ اليوم في ساعته ، الموقر المهيب المؤمل المعظم أبي النصر سعد عرّفه الله تعالى ببركة سعد بن عُبادة جده ، خال رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأعظمْ بمَجْدِهِ ، ووزيره في حَلّه وعَقْده ، وأجناه ثمرة النصر الذي كناه به ووصل سببه بسببه فما النصر إلا من عنده ، وأنتج له الفتح المبين من مقدمتي نصره وسعده ، لما صَرَفَ وَجْه عنايته إليه في هذه البلاد الأندلسية التي خلص لله انفرادها وانقطاعُها ، وتمحّضَ — لأن تكونَ كلمة الله هي العليا — قِرَاعُها ، وصدق مِصالها في سبيله جلّ وعلا ومِصاعها ، إلى ما يمهّد أرجاءها ، ويحقق رجاءها ، من سلم يعقد ، ولا يعدم الحزم معه ولا يفقد ، وعطاء ينقد ، ورأي لا يتعقب ولا ينقد ، وحَرْب تُضَمّر له الجياد ، ويُعْتَقَل الأسَلُ الميّاد ، وكان الجيشُ رَوْضَ أمله الذي في جنّاه يسرح ، ومرمى فكره الذي عنه لا يبرح ، فديوانه ديوان أمانيه الذي تسهب فيه وتشرح ، أسْهَمَه من سياسته أوفى الحظوظ

وأسناها ، وقصرَ عليه لفظَ العناية ومعناها ، ووقف عليه مُوْحَدَها ومَثْناها ، فازاح علله ، وأحيا أمله ، وأنشأ جَذَلَه ، ورفع عنه من لم يبذل الجدّ له ، ولا أخْلَص لله فيه عمله .

« واختار لقيادة مقانبه المنصورة ، وإمارة غَزَواته المبرورة ، أقربَ الناس إلى نفسه نَسَباً ، وأوصلهم به سَبَباً ، وأحقهم بالرتب المنيفة والمظاهر الشريفة ، ذاتاً وأباً ، وحدّاً وشباً ، وأمره على أشرافه ، ودل به الأنفال على أعرافه ، وصرف إليه آماله ، واستعمل في أسنّته يمينه وفي أعنته شماله ، وعقد عليه ألويته الخافقة لعزّة نصره ، ورأى الظهور على أعداء الله تعالى جنّى فهيّأه لهصره ، وأدار هالة قَتام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره ، ونبّه نفوس المسلمين على جلالة قَدْره ، وقدّمه على الكتيبة الثانية من عسكر الغزاة المشتملة على الأشياخ من أولاد يعقوب كبار بني مَرين ، وسائر قبائلهم المكرمين ، وغيرهم من القبائل المحترمين ، ينوب عن أمره في عَرْض مسائلهم ، وقِرَى وافدهم ، وإجراء عوائدهم ، تقديماً تهلّلَ له الإسلام واستبشر ، وتيقن الظفرَ فاستبصر ، لما علم بمن استنصر ، فليخلصوا له في طاعته الكبرى الطاعة ، وليعلقوا ببنان نداه بنان الطماعة ، ويؤملوا على يديه نجح الوسيلة إلى مقامه والشفاعة ، ويعلموا أن اختصاصهم به هو العنوان على رَفْع محالهم لديه ، وعزة شأنهم عليه ، فلو وجد هَضْبة أعلى لفَرَعها لهم وعلاها ، أو عزة أعز لجلاها ، أو قِبلة أزكى لصرف وجوهَهُمْ شَطْرها وولاها ، حتى تجنى ثمرة هذا القَصْد ، وتعود بالسعد حركة هذا الرصد ، وتعلو ذؤابة هذا المجد ، وتشهد بنصر الدين على يده ألسنة الغَوْر والنّجْد ، بفضل الله سبحانه .

« وعليه – أسعد الله الدولة باستعماله مكافحاً بأعلامها ، وزَيْناً لأيامها ، وسيفاً في طاعة إمامها – أن يقدم منهم في مجلسه أهْلَ التقديم ، ويقابل كرامهم بالتكريم ، ويستدعي آراء مشايخهم في المشكلات في أمور الحرب ، ويغضي جفون عزائمهم في موقف الصبر والضرب ، ويتفقدهم بإحسانه عند الغَناء ، ويقابل حميد سعيهم

بالثناء ، على هذا يعتمد وبحسبه يعمل ، وهو الواجب الذي لا يُهْمل ، وقصده بالإعظام والإجلال ، والانقياد الذي يعود بالآمال ، ويُنجح الأعمال ، بحول الله تعالى متقبل ، وكتب في كذا » انتهى .

٨٣ — ومما اشتمل على نظم لسان الدين ونثره ما كتب به من سلا إلى سلطانه الغني بالله تعالى ، وقد بلغه ما كان من صنع الله سبحانه له [وعودته إلى سلطانه] :

« هنيئاً بما خُوِّلْتَ من رفعة الشانِ	وإن كره الباغي وإنْ رَغم الشاني
وأن خصَّكَ الرحمنُ جَلَّ جلالهُ	بمعجزة منسوبة لسُلَيْمانِ
أغار على كرسيِّه بعضُ جِنّه	فألقَتْ لهُ الدنيا مقالدَ إذعانِ
فلمّا رآها فتنةً خرَّ ساجداً	وقال إلهي امْنُنْ عليَّ بغفرانِ
وهبْ ليَ ملكاً بعدها ليسَ ينبغي	تقلُّده بعدي لإنسٍ ولا جانِ
فآتاهُ لمّا أن أجابَ دعاءهُ	من العزّ ما لم يُؤتِ يوماً لإنسانِ
وإن كانَ هذا الأمرُ في الدهرِ مفرداً	فأنتَ لَهُ لمّا اقتديت بهِ الثاني
فقابِلْ صنيعَ الله بالشكرِ واستعنْ	بهِ وآجزِ إحسان الإله بإحسانِ
وحقِّ الذي سمّاكَ باسم محمّد	لَو آن الصِّبا قد عادَ منهُ بريْعانِ
لما بلغَ النعمى عليكَ سروره	أليَّة وافٍ لا أليّة خوّانِ
فإنّي أنا العبد الصريح انتسابه	كما أنتَ مولاي العزيز وسلطاني
إذا كنتَ في عزٍّ ومُلْك وغبطة	فقد نلتُ أوطاري وراجعتُ أوطاني

« مولاي الذي شأنه عَجَب ، والإيمان بعناية الله تعالى به قد وَجَب ، وعزه أظهره مَنْ برداء العزة احتجب ، إذا كانت الغاية لا تُدْرَك ، فأولى أن تسلّم وتترك ، ومنة الله تعالى عليك ليست ممّا يشرح ، قد عقل العقل فما يبرح ، وقيد اللسان فما يرتعي في مجال العبارة ولا يسرح ، اللّهم ألهمنا على هذه النعمة شكراً

ترضاه ، وإمداداً من لَدُنْك نتقاضاه ، يا الله يا الله . سعود أنارت بعد أُفول شهابها ، وحياة كرَّت بعد ذهابها ، وأحباب اجتمعت بعد فراقها ، وأوطان دَنَتْ بعد بُعْدِ شامها من عراقها ، وأعداء أذهب الله تعالى رَسْم بغيهم ومَحاه ، وبُغاة أدار عليهم الدهر رحاه ، وعباد أُعطوا من كشف الغم ما سألوه ، ونازحون لو سُئلوا في إتاحة القرب بما في أرماقهم لبذلوه ، وسبحان الذي يقول ﴿ولو أنّا كَتبْنا عَلَيهِم أنِ اقْتلُوا أنْفُسَكُم أو اخْرجُوا من ديارِكُم ما فَعَلُوه﴾ (النساء : ٦٦) فليهن الإسلامَ بياضُ وجهه بعد اسوداده، وتغلُّب إيالة مَنْ لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر على بلاده ، وعودة الملك المظلوم إلى معتاده ، واستواء الحق النائي جنبه فوق مهاده ، ورد الإرث المغصوب إلى مستحقّه عن آبائه وأجداده . والحمد لله الذي غسل عن وجه الأمّة الحنيفية العار ، وأنقذ عُهْدتَها وقد ملكها الذعار ، فرد المُعار ، وأعيد الشّعار ، نحمدك اللّهم حمداً يليق بقدسك ، لا بل لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

« والعبد يا مولاي قد بهرت عَقْلَه آلاء الله تعالى قبلك ، فالفكر جائل واللسان ساكت ، والعقل ذاهل والطرف باهت ، فإن أقام رَسْماً للمخاطبة فقلم مرح وركض ، وطِرْس هز جناح الارتياح ونفض ، ليس هذا المَرام ممّا يرام ، ولا هذه العناية التي تحار فيها الأفهام ، ممّا تُصْمي غرضه السّهام ، فنسأل الله تعالى أن يجعل مولاي من الشاكرين ، وبأحكام تقلبات الأيام من المعتبرين ، حتى لا يغرّه السّراب الخادع ، والدهر المرغم للأنوف الجادع ، ولا يرى في الوجود غير الله من صانع ، ولا معطٍ ولا مانع ، ويمتعه بالعز الجديد ، ويوفقه للنظر السديد ، ويلهمه للشكر فهو مفتاح المزيد ، والسلام » انتهى .

٨٤ ــ وممّا خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى أبا عبد الله ابن عمر التونسي قوله :

«سيدي الذي عهده لا يُنسى ، وذكره يُصْبح في ترديده بالجميل ويُمْسَى ،

أبقاكم الله تعالى تجلون من السعادة شمسا ، وتصرفون في طاعته لساناً فرداً وبناناً خمسا : وصلني كتابكم الأشعث الأغبر ، ومقتضبكم الذي أضغاثه لا تُعْبَر ، شاهدةً بعدم الاعتناء أوضاعُه ، معدوماً إمتاعه ، قصيراً في التعريف بالحال المتشوِّفِ إليها باعه ، مضمَّناً الإحالة على خليٍّ من معناها ، غيرِ ملتبسٍ بمَوْحَدها ولا مَثْناها ، سألته كما يسأل المريضُ عمّا عند الطبيب ، ويحرص الحبيبُ على تعرّف أحوال الحبيب ، فذكر أنّه لم يتحمّل غير تلك السَّحاءةِ المغنيةِ في الاختصار ، المجحفة بحظّي الأسماع والأبصار ، فهممتُ بالعتب ، على البخيل بالكتب ، ثم عذرت سيدي بما يعتري مثله من شواغل تطرق ، وخواطر تومض وتبرق ، وإذا كان آمناً سِرْبُه ، مُهَنّأً شِرْبُه ، فهو الأمل ، ويُقنع هذا المجمل ، وإن كان التفسير هو الأكمل ، وما ثمَّ ما يعمل ، وودّه في كل حال ودّه ، والله سبحانه بالتوفيق يمدّه ، والسلام» .

وكانت للسان الدين رحمه الله تعالى مخاطبات كثيرة لسلطان الدولة وأعيانها ، دلّت على قوّة عارضته في البلاغة ، وقد ألمعنا بجملة منها في هذا الكتاب في مواضع ولم نكثر منها طلباً للاختصار أو التوسط بحسب ما اقتضاه الباعث في الحال ، والله سبحانه وتعالى يبلّغ الآمال ، ويزكي الأعمال .

٨٥ ـ ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه عن السلطان أبي الحجاج يوسف بن نصر إلى سيد العالمين صلى الله عليه وسلّم إثر نظم ، ونصُّ الكل هو :

إذا فاتني ظلُّ الحمى ونعيمُهُ ... فحسبُ فؤادي أن يَهُبَّ نسيمُهُ
ويُقنعني أنّي بهِ متكنّفٌ ... فزمزمُهُ دمعي ، وجسمي حطيمُهُ
يعود فؤادي ذكرُ مَنْ سكنَ الغضا ... فيُقعدُهُ فَوْقَ الغَضا ويقيمُهُ
ولَمْ أرَ شَيْئاً كالنّسيم إذا سَرى ... شفى سَقَمَ القَلْبِ المَشوقِ سقيمُهُ
نعلّلُ بالتذكار نَفْساً مشوقةً ... نديرُ عليها كأسَهُ ونُديمُهُ

وما شفَّني بالغَور قـدٌّ مرنَّحٌ ولا شاقني من وحش وجرَةَ ريمُهُ
ولا سهرتْ عيني لبَرْق ثنيَّة من الثغر يبدو مَوْهِناً فأشيمُهُ
براني شوقٌ للنبيّ محمّد يسومُ فؤادي بَرْحُهُ ما يسومُهُ
ألا يا رسولَ الله نـاداكَ ضارعٌ على النأي محفوظُ الوداد سليمهُ
مَشُوقٌ إذا ما الليلُ مدَّ رواقَهُ تهمُّ به تحتَ الظلام همومُهُ
إذا ما حديثٌ عنك جاءت به الصَّبا شجاهُ منَ الشوقِ الحثيثِ قديمهُ
أيجهرُ بالنّجوى وأنتَ سميعُها ويشرحُ ما يخفي وأنتَ عليمُهُ
وتعوزهُ السقيا ، وأنتَ غياثُهُ وتتلفُهُ الشكوى ، وأنتَ رحيمُهُ
بنوركَ نور الله قد أشرقَ الهُدى فأقمارهُ وضَّاحةٌ ونجومُهُ
لكَ انهلَّ فضلُ الله بالأرض ساكباً فأنواؤهُ ملتفَّةٌ وغيُومُهُ
ومن فوق أطباق السماء بك اقتدى خليلُ الّذي أوطاكها وكليمُهُ
لك الخُلقُ الأرْضَى الذي جلَّ ذكره ومجدكَ في الذكرِ العظيمِ عظيمُهُ
يجلُّ مَدى علياكَ عن مدحِ مادحٍ فموسرُ درِّ القولِ فيكَ عديمُهُ
ولي يا رسولَ الله فيكَ وراثةٌ ومجدُكَ لا يَنْسَى الذمامَ كريمُهُ
وعندي إلى أنصارِ دينكَ نسبةٌ هي الفخرُ لا يَخْشَى انتقالاً مقيمُهُ
وكانَ بودّي أن أزورَ مُبَوَّأً بكَ افتخرتْ أطلالهُ ورسومُهُ
وقد يُجهدُ الإنسانُ طِرْفَ اعتزامه ويُعوزه مِنْ بَعْدِ ذاكِ مَرُومُهُ
وعذريَ في تسويفِ عزميَ ظاهرٌ إذا ضاقَ عُذْرُ العزْمِ عمّن يلومهُ
عَدَتْني بأقصى الغربِ عن تربك العدا جلالقةُ الثغرِ الغريبِ ورُومُهُ
أُجاهدُ منهُم في سَبيلكَ أمةً هي البحرُ يُعيي أمرها من يرومُهُ
فلولا اعتناء منك يا ملجأ الورى لريعَ حماه واستُبيحَ حريمُهُ
فلا تقطعِ الحبلَ الذي قد وصلتهُ فمجدك موفورُ النوال عَميمُهُ

وأنْتَ لَنا الغيثُ الذي نستدرُّهُ وأنْتَ لَنا الظلُّ الذي نستديمُهُ
ولمّا نأت داري وأعوز مطْمَعي وأقلقني شوقٌ يشبُّ جَحيمُهُ
بعثتُ بها جهدَ المقلِّ معوّلاً على مجدك الأعلى الذي جلَّ خيمُهُ
وكلت بها همي وصدقَ قريحتي فساعدني هاء الرويِّ وميمُهُ
فلا تَنْسني يا خيرَ مَنْ وطيء الثرى فمثلُكَ لا يُنْسَى لديه خَديمُهُ
عليكَ صلاةُ الله ما ذَرَّ شارقٌ وما راقَ من وجه الصباحِ وسيمُهُ

« إلى رسول الحق إلى كافة الخلق ، وغَمام الرحمة الصادق البَرْق ، الحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصَبَ السّبْق ، خاتم الأنبياء ، وإمام ملائكة السماء ، ومن وجبت له النبوّة وآدم بين الطين والماء ، شفيع أرباب الذنوب ، وطبيب أدواء القلوب ، والوسيلة إلى عَلاّم الغيوب ، نبي الهدى الذي طَهُرَ قلبه ، وغُفِرَ ذنبه ، وَخَتَم به الرسالة ربه ، وجرى في النفوس مجرى الأنفاسِ حُبّه ، الشفيعِ المشفع يوم العرض ، المحمودِ في ملإ السماء والأرض ، صاحبِ اللواء المنشور يوم النشور ، والمؤتمن على سِرّ الكتاب المسطور ، ومُخْرِج الناسِ من الظلمات إلى النور ، المؤيد بكفاية الله وعِصْمَته ، الموفور حَظّه من عنايته ونعمته ، الظل الخفاق على أمّته ، مَنْ لو حازت الشمسُ بعضَ كماله ما عدمت إشراقاً ، أو كان للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسُهم إشفاقاً ، فائدة الكون ومَعْناه ، وسر الوجود الذي يبهر الوجودَ سناه ، وصفيّ حضرة القدس الذي لا ينام قلبه إذا نامت عَيْناه ، البشير الذي سَبَقَت له البشرى ، ورأى من آيات ربّه الكبرى ، ونزل فيه ﴿سُبحانَ الذي أسْرى﴾ (الإسراء : ١) مَنِ الأنوارُ من عنصر نوره مُسْتمَدة ، والآثار تخلق وآثاره مستَجدّة ، مَنْ طُوِي بساطُ الوحي لفقده ، وسُدّ باب الرسالة والنبوّة من بعده ، وأُوتي جوامع الكلم فوقفت البلغاء حَسْرَى دون حَدّه ، الذي انتقلَ في الغُرَر الكريمة نورُه ، وأضاءت لميلاده مصانعُ الشام وقصورُه ، وطفقت الملائكة تجيئه وفودُها وتزوره ، وأخبرت الكتب

المنزلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته ، وأخذ عهد الإيمان به على مَنِ اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته ، المَفْزَع الأمنع يوم الفزع الأكبر ، والسّنَد المعتمد عليه في أهوال المحشر ، ذو المعجزات التي أثبتتها المشاهَدَة والحس ، وأقرَّ بها الجنُّ والإنس ، من جماد يتكلّم ، وجذع لفراقه يتألّم ، وقمر له ينشقّ ، وحَجَر يشهد أن ما جاء به هو الحق ، وشمس بدعائه عن مسيرها تحبس ، وماء من بين أصابعه يتبجّس ، وغمامٍ باستسقائه يَصُوب ، وطَوِيٍّ بصق في أجاجها فأصبح ماؤها وهو العذب المشروب ، المخصوص بمناقب الكمال وكمال المناقب ، المسمى بالحاشر العاقب ، ذو المجد البعيد المرامي والمراقب ، أكرم من رُفعت إليه وَسيلة المعترف المغترب ، ونجحت لديه قُرْبَة البعيد المقترب ، سيد الرسل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، الذي فاز بطاعته المحسنون ، واستُنقِذ بشفاعته المذنبون ، وسَعِد باتباعه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، صلى الله عليه وسلّم ما لمَعَ بَرْق ، وهَمَع وَدْق ، وطلعت شمس ، ونَسَخَ اليومُ أمس :

« مِنْ عتيق شفاعته ، وعَبد طاعته ، المعتصم بسَبَبه ، المؤمن بالله ثم به ، المستشفي بذكره كلّما تألم ، المفتتح بالصلاة عليه كلّما تكلّم ، الذي إن ذكر تمثل طلوعه بين أصحابه وآله ، وإن هَبَّ النسيم العاطر وَجَد فيه طيبَ خلاله ، وإن سمع الأذان تذكر صَوْتَ بِلالِهِ ، وإن ذكر القرآن استشعر تردُّدَ جبريل بين معاهده وخلاله ، لاثِم تُرْبه ، ومؤمل قربه ، ورهين طاعته وحُبّه ، المتوسل به إلى رضى الله ربّه ، يوسف بن إسماعيل بن نصر :

« كتبه إليك يا رسول الله والدمْعُ ماح ، وخَيْل الوجد ذات جِماح ، عن شَوْق يزداد كلّما نقص الصبر ، وانكسار لا يُتاح له إلاّ بدُنُوّ مَزارك الجَبْر ، وكيف لا يُعْيي مشوقَك الأمر ، وتوطأ على كبده الجمر ، وقد مَطَلَتِ الأيامُ بالقدوم على تربك المقدسة اللحد ، ووعدت الآمالُ ودانتْ بإخلاف الوعد ، وانصرفت الرفاق والعينُ بنور ضريحك ما اكتحلت ، والركائبُ إليك

ما رَحَلَتْ ، والعزائم قالت وما فعلت ، والنواظر في تلك المشاهد الكريمة لم تسرَحْ ، وطيورُ الآمال عن وكور العجز لم تَبْرَحْ ، فيا لها من معاهدَ فاز مَنْ حيّاها ، ومشاهد ما أعْطَرَ ريّاها ، بلاد نيطت بها عليك التمائم [1] ، وأشرقت بنورك منها النجودُ والتهائم ، ونزل في حُجُرَاتها عليك الملَك ، وانجلى بضياء فرقانك فيها الحَلَك ، مَدَارِسُ الآيات والسور ، ومَطالع المعجزات السافرة الغُرَر ، حيث قضيت الفروض وحتمت ، وافتتحت سورة الرحمن وختمت ، وابتُدئت الملّة الحنيفيّة وتمت ، ونُسخت الآيات وأُحكمت :

« أما والذي بعثك بالحق هادياً ، وأطلعك للخلق نوراً بادياً ، لا يطفىء غُلّتي إلاّ شِرْبك ، ولا يُسَكن لوعتي إلا قربك ، فما أسْعَدَ مَنْ أفاض من حرم الله إلى حرمك ، وأصبح بعد أداء ما فرضتَ عن الله ضيفَ كرمك ، وعفّر الخدَّ في معاهدك ومعاهد أسرتك ، وتردد ما بين داريْ بعثك وهجرتك ، وإنّي لما عاقتني عن زيارتك العوائق ، وإن كان شغلي عنك بك ، وعدَتْني الأعداء فيك عن وَصْل سببي بسببك ، وأصبحت بين بحرٍ تتلاطمُ أمواجُه ، وعدوّ تتكاثف أفواجُه ، ويحجب الشمسَ عند الظهيرة عَجاجُه — في طائفة من المؤمنين بك وَطّنوا على الصبر نفوسَهم ، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم ، ورفعوا إلى مصارختك رؤوسهم ، واستعذبوا في مرضاة الله تعالى ومرضاتك بُوسَهم ، يطيرون من هَيْعَة إلى أخْرَى ، ويلتفتون والمخاوف عن يُمْنى ويُسْرى ، ويقارعون وهُم الفئة القليلة جموعاً كجموع قيصر وكسرى ، لا يبلغون من عدوّ هو الذرُّ عند انتشاره ، عُشْرَ معشاره ، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا ، لأن تكون كلمة الله تعالى هي العليا ، فيا لَه من سِرْب مَرُوع ، وصريخ إلا منْك ممنوع ، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع ، وصبية حُمْر

---

[1] نثر فيه قول الأعرابي :

بلاد بها نيطت علي تمائمي   وأول أرض مس جلدي ترابها

الحواصل ، تخفق فوق أوكـــارها أجنحة المناصل ، والصليبُ قد تمطّى فمدّ ذراعيه ، ورفعتِ الأطماع بضَبْعيْه ، وقد حُجبتْ بالقتّام السماء ، وتلاطمت أمواج الحديد ، والبأس الشديد ، فالتقى الماء ، ولم يبق إلا الدّماء ، وعلى ذلك فما ضعفت البصائر ولا ساءت الظنون ، وما وعد به الشهداء تعتقده القلوب حتى تكاد تشاهده العيون ، إلى أن نلقاك غداً إن شاء الله تعالى وقد أبلينا العذر ، وأرغمنا الكفر ، وأعمَلنا في سبيل الله تعالى وسبيلك البيض والسّمْر – استنبتُ[1] رقعتي هذه لتطير إليك من شوقي بجناح خافق ، وتسعد من نبيّي التي تصحبها برفيق مُوافق ، فتؤدّي عن عبدك وتبلّغ ، وتعفّر الخدّ في تُرْبك وتمرّغ ، وتطيّب بريّا معاهدك الطاهرة وبيوتك ، وتقف وقوفَ الخضوع والخشوع تجاه تابوتك ، وتقول بلسان التملّق ، عند التشبث بأسبابك والتعلّق ، منكسرة الطرف ، حذراً بَتهْرجُها من عدم الصرف : يا غياث الأمة ، وغمام الرحمة ، ارحم غربتي وانقطاعي ، وتغمد بطَوْلك قصر باعي ، وقوّ على هيبتك خَوَرَ طباعي ، فكم جُزتَ من لج مَهُول ، وجُبت من حزون وسُهُول ، وقابِلْ بالقَبول نيابتي ، وعجّل بالرضى إجابتي ، ومعلوم من كمال تلك الشّيَم ، وسَجايا تيك الديم ، أن لا يخيب قَصْدُ من حَط بفِنائها ، ولا يظمأ واردٌ أكبَّ على إنائها .

« اللّهم يا من جعلته أول الأنبياء بالمعنى وآخرهم بالصورة ، وأعطيته لواء الحمد يسيرُ آدمُ فمن دونه تحت ظلاله المنشورة ، وملكت أمته ما زُوِي له من زوايا البسيطة المعمورة ، وجعلتني من أمته المجبولة على حُبّه المفطورة ، وشوّقتني إلى مَعاهده المبرورة ، ومَشاهده المَزُورة ، ووكلت لساني بالصلاة عليه ، وقلبي بالحنين إليه ، ورغبتي بالتماس ما لديه ، فلا تقطع منه أسبابي ، ولا تحرمني من حبّه ثوابي ، وتداركني بشفاعته يوم أخْذِ كتابي .

« هذه يا رسول الله وسيلة من بَعُدَت داره ، وشَطّ مزاره ، ولم يُجعل بيده

[1] استنبت : جواب « لما » التي وقعت قبل سطور عديدة .

اختياره . فإن لم تكن[1] للقبول أهلاً فأنت للإغضاء والسماح أهل ، وإن كانت ألفاظها وعرة فجنابك للقاصدين سهل ، وإن كان الحب يُتوارث كما أخبرت ، والعروق تدس حسبما إليه أشرت ، فلي بانتسابي إلى سعدٍ عميدِ أنصارك مزية ، ووسيلة أثيرة حفية ، فإن لم يكن لي عمل ترتضيه فلي نيّة ، فلا تنسني ومَنْ بهذه الجزيرة المفتتحة بسيف كلمتك ، على أيدي خيار أمتك ، فإنّما نحن بها وديعة تحت بعض أقفالك ، نعوذ بوجه ربّك من إغفالك ، ونستنشق من ريح عنايتك نَفحَة ، ونرتقب من مُحيّا قبولك لمحة ، ندافع بها عدوّاً طغى وبغى ، وبلغ من مضايقتنا ما ابتغى ، فمواقف التمحيص قد أعيت مَنْ كتب وورّخ ، والبحر قد أصمت من استصرخ ، والطاغية في العُدوان مستبصر ، والعدو محلق والولي مقصر ، وبجاهك ندفع ما لا نطيق ، وبعنايتك نعالج سقيم الدين فيفيق ، فلا تفردنا ولا تهملنا ، وناد ربّك فينا ﴿رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا﴾ (البقرة : ٢٨٦) ، وطوائف أمتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم ، وربك يقول لك وقوله الحق ﴿وما كانَ اللهُ ليُعَذِّبَهُمْ وأنْتَ فيهمْ﴾ (الأنفال: ٣٣) والصلاة والسلام عليك يا خيرَ مَنْ طاف وسَعى ، وأجاب داعياً إذا دعا ، وصلى الله على جميع أحزابك وآلك ، صلاة تليق بجلالك ، وتحق لكمالك ، وعلى ضجيعيك وصديقيك ، وحبيبيك ورفيقيك ، خليفتك في أمتك ، وفاروقك المستخلف بعده على جلتك ، وصهرك ذي النورين المخصوص ببرك ونحلتك ، وابن عمك سيفك المسلول على حلتك ، بدر سمائك ووالد أهلتك ، والسلام الكريم عليك وعليهم كثيراً أثيراً ورحمة الله تعالى وبركاته ، وكتب بحضرة جزيرة الأندلس غرناطة ، صانها الله تعالى ووقاها ، ودفَع عنها ببركتك كيدَ عِداها » انتهت الرسالة .

٨٦ ــ وكتب أيضاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم على لسان مخدومه

---

١ الضمير يعود إلى « وسيلة » ويعني بها الرسالة .

السلطان الغني بالله محمد ابن السلطان أبي الحجاج – رحم الله تعالى الجميع – ما صورته :

دَعاكَ بأقصى المغربَين غريبُ وأنتَ ، على بُعدِ المزار ، قريبُ
مدلٌّ بأسبابِ الرجاءِ وطرفُهُ غضيضٌ على حكم الحياء مريبُ
يكلفُ قرصَ البدر حملَ تحيةٍ إذا ما هوى والشمسَ حين تغيبُ
لترجعَ من تلك المعالم غدوةً وقَدْ ذاعَ من ردِّ التحيةِ طِيبُ
ويستودعُ الريحَ الشمالَ شمائلاً من الحبِّ لم يعلمْ بهن رقيبُ
ويطلبُ في جيبِ الجُيوب جوابها إذا ما أطلَّتْ والصباحُ جنيبُ
ويَستفهمُ الكفَّ الخضيبَ ودمعهُ غراماً بحنَّــاء النجيع خضيبُ
ويَتْبعُ آثار المطيِّ مشيِّعاً وقَدْ زمْزمَ الحادي وحنَّ نجيبُ
إذا أثر الأخفافِ لاحتْ مَحاربٌ يخـــرّ عليهـــا راكعاً وينيبُ
ويلقي ركابَ الحجِّ وهي قوافلٌ طِلاحٌ وقد لبّى النـــداءَ لبيبُ
فلا قولَ إلاّ أنّةٌ وتوجّــعٌ ولا حـــولَ إلا زفرةٌ ونحيبُ
غَليلٌ ولكنْ من قبولك منهلٌ عَليلٌ ولكنْ مِنْ رضاكَ طبيبُ
ألا ليت شعري والأمانيُّ ضَلّةٌ وقَدْ تخطىءُ الآمالُ ثمَّ تصيبُ
أينجدُ نجدٌ بعد شَحْطِ مزاره ويكثُبُ بعد البعدِ منهُ كثيبُ
وتُقْضَى ديوني بعدما مَطَلَ المدى وينفُـذُ بَيْعي والمَبيعُ معيبُ
وهَل أقتضي دهري فيسمح طائعاً وأدعو بحظي مسمعاً فيُجيبُ
ويا ليتَ شعري هل لحَوْميَ موردٌ لديك ؟ وهل لي في رضاك نصيبُ ؟
ولكنّكَ المولى الجوادُ وجارهُ على أيِّ حالٍ كان ليس يخيبُ
وكيفَ يضيقُ الذَّرعُ يوماً بقاصدٍ وذاكَ الجنابُ المستجارُ رَحيبُ
وما هاجني إلا تألّقُ بارقٍ يلوحُ بفَوْدِ الليلِ منهُ مشيبُ

ذكرتُ به رَكْبَ الحجاز وجيرةً أهابَ بها نحـو الحبيب مُهيبُ
فبتُّ وجَفْني من لآلىء دمعهِ غنيٌّ وصبري للشجونِ سليبُ
ترنّحني الذكرى ويهفو بيَ الجوى كما مال غصنٌ في الرياضِ رطيبُ
وأحْضرُ تعليلاً لشوقيَ بالمُنى ويطرقُ وجـدٌ غالبٌ فأغيبُ
مراميَ ، لو أُعْطى الأمانيَّ ، زورةٌ يُبَثُّ غرامٌ عنـدها ووجيبُ
فقولُ حَبيبٍ إذ يقول تشوّقاً عَسى وطنٌ يدنو إليَّ حبيبُ
تعجبتُ من سيفي وقد جاور الغَضا بقَلْبي فلَمْ يسبكْه منهُ مذيبُ
وأعجبُ أن لا يورقَ الرمحُ في يدي ومن فوقه غيثُ المَشُوق سكيبُ
فيا سَرْحَ ذاك الحيِّ لو أخلف الحيا لأغناك من صَوْبِ الدموعِ صبيبُ
ويا هاجِرَ الجوِّ الجديبِ تلبُّثاً فعهديَ رطبُ الجانبين خصيبُ
ويا قادحَ الزندِ الشَّحاح ترفّقاً عليكَ فشوقي الخارجيُّ شَبيبُ
أيا خاتمَ الرسلِ المكين مكانُهُ حديثُ الغَريبِ الدار فيك غَريبُ
فؤادي على جمرِ البعادِ مقلَّبٌ يُماحُ عليهِ للدموعِ قليبُ
فوالله ما يزدادُ إلا تلهّباً أأبصرتَ ماءً ثارَ عنْهُ لهيبُ
فليلتُهُ ليلُ السَّليمِ ويَومُها إذا شُدَّ للشوقِ العصابُ عصيبُ
هوايَ هُدًى فيك اهتديتُ بنورهِ ومنتسبي للصحبِ منك نسيبُ
وحَسْبي على أني لصحبكَ مُنْتمٍ وللخزرجيّينَ الكرامِ نسيبُ
عدتْ عن مغانيك المشوقةِ للعدا عَقاربُ لا يخفى لهنَّ دبيبُ
حِرَاصٌ على إطفاء نورٍ قَدَحْتَهُ فمستلَبٌ مِنْ دونهِ وسَليبُ
فكم من شهيدٍ في رضاك مجدَّلٍ يظلّله نسرٌ وينـدبُ ذيبُ
تمرُّ الرياحُ الغُفْلُ فوق كلومهم فتعبقُ من أنْفاسِها وتَطيبُ
بنصركَ عنك الشغلُ من غير منَّةٍ وهَلْ يتساوى مَشْهدٌ ومَغيبُ

فإن صحّ منك الحظُّ طاوعتِ المُنى ... ويبعدُ مرمَى السهم وهو مُصيبُ
ولولاك لم يُعْجَمْ من الروم عُودها ... فعُودُ الصليبِ الأعجميِّ صليبُ
وقد كانتِ الأحوالُ، لولا مراغبٌ ... ضمنتَ ووعدٌ بالظهور ، تُريبُ
فما شئتَ من نصرٍ عزيزٍ وأنعُمٍ ... أثاب بهنَّ المؤمنين مُثيبُ
منابرُ عزّ أذّنَ الفتحُ فوقها ... وأفصحَ للعضبِ الطرير خطيبُ
نَقُودُ إلى هيجائها كلَّ صائلٍ ... كما ريعَ مكحولُ اللحاظِ رَبيبُ
ونجتابُ من سَرْدِ اليَقين مدارعاً ... يكفّتُها من يجتني ويثيبُ
إذا اضطربَ الخطّيُّ حول غديرِها ... يروقكَ منها لجّـةٌ وقَضيبُ
فعذراً وإغضاءً ولا تنسَ صارخاً ... بعزّك يرجو أن يجيبَ مجيبُ
وجاهك بعدَ الله نرجو ، وإنّهُ ... لحظٌّ مليءٌ بالوفاء رغيبُ
عليك صلاةُ الله ما طيّبَ الفضا ... عليك مطيلٌ بالثناء مطيبُ
ومـا اهتزَّ قدٌّ للغصونِ مرنّحٌ ... وما افترَّ ثغرٌ للبروقِ شَنيبُ

« إلى حجّة الله تعالى المؤيدة ببراهين أنواره، وفائدةِ الكون ونكتةِ أدواره، وصفوة نوع البَشَر ومنتهى أطواره ، إلى المجتبى وموجودُ الوجودِ لم يَغْنَ بمطلقِ الوجود عديمه ، المصطفى من ذرية آدم قبل أن يكسو العظامَ أديمه ، المحتومِ في القِدم ، وظلمات العدم ، عند صدق القَدَم ، تفضيلُه وتقديمُه ، إلى وديعةِ النور المنتقل في الجباه الكريمة والغرر ، ودرة الأنبياء التي لها الفضل على الدُّرَر ، وغمامِ الرحمةِ الهاميةِ الدِّرَر ، إلى مختار الله تعالى المخصوص باجتبائه ، وحبيبه الذي له المزية على أحبّائه ، وذرية أنبياء الله تعالى آبائه ، إلى الذي شرح صدره وغسله ، ثم بعثه واسطة بينه وبين العباد وأرسله ، وأتمّ عليه إنعامه الذي أجزله ، وأنزل عليه من الهدى والنور ما أنزله ، إلى بشرى المسيح والذبيح ، ومن لهم التّجْر الربيح ، المنصور بالرعب والريح ، المخصوص

بالنسب الصريح ، إلى الذي جعله في المُحُول ِ غماماً ، وللأنبياء إماماً ، وشقّ صدره لتلقّي روح أمره ِ غُلاماً ، وأعلَم به في التوراة والإنجيل إعلاماً ، وعلم المؤمنين صلاةً عليه وسلاماً ، إلى الشفيع الذي لا تُرَدُّ في العُصاة شفاعته ، والوجيه الذي قُرنت بطاعة ِ الله تعالى طاعتُه ، والرؤوف الرحيم الذي خلصت إلى الله تعالى في أهل الجرائم ِ ضَرَاعته ، صاحب الآيات التي لا يسعُ ردها ، والمعجزات التي أربى على الألف ِ عدها ، فمن قمر شُقّ ، وجذع حن له وحق ، وبنان يتفجّر بالماء ، فيقوم بريّ الظماء ، وطعام ٍ يُشبعُ الجمعَ الكثير يسيرُه ، وغمام يُظَلّلُ به مقامه ومسيره ، خطيب المقام المحمود إذا كان العرض ، وأول من تنشقُّ عنه الأرض ، ووسيلة الله تعالى التي لولاها ما أقرض القرض ، ولا عرف النفل والفرض ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف المحمود الخلال من ذي الجلال ، الشاهد بصدقه صحفُ الأنبياء وكتب الأرسال ، وآياته التي أثلجت القلوب ببرد اليقين السلسال ، صلى الله عليه وسلّم ما ذرَّ شارق ، وأومض بارق ، وفرق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارق ، صلاة تتأرج على شذا الزَّهر ، وتتبلّج عن سنا الكواكب الزُّهر ، وتتردد بين السر والجهر ، وتستغرق ساعات اليوم وأيام الشهر ، وتدوم بدوام الدهر :

« من عبد هُداه ، ومستقري مَوَاقع نداه ، ومزاحم أبناء أنصاره في منتداه ، وبعض ِ سهامه المفوقة إلى نحور عداه ، مؤمّل العتق من النار بشفاعته ، ومحرز طاعة الجبّار بطاعته ، الآمن باتصال رعيه من إهمال الله تعالى وإضاعته ، متخذ الصلاة عليه وسائل نجـاة ، وذخائر في الشدائد مُرْتجاة ، متاجر بضائعها غير مُزْجاة ، الذي ملأ بحبّه جوانح صدره ، وجعل فكره هالة لبدره ، وأوجب حقّه على قدر العبد لا على قدره ، محمد بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي ، نسيب سعد بن عُبادة من أصحابه ، وبوارق سحابه ، وسيوف نصرته ، وأقطاب دار هجرته ، ظلّله الله تعالى يوم الفزع الأكبر من رضاك عنهُ بظلال الأمان ، كما أنار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى والإيمان ، وجعله

من أهل السياحة في فضاء حُبّك والهيمان :

« كتبه إليك يا رسولَ الله — واليراع تقتضي الهيبة صفرة لونه ، والمداد يكاد أن يحول سواد جَوْنه ، وورقة الكتاب يخفق فؤادُها حرصاً على حفظ اسمك الكريم وصَوْنه ، والدمعُ يقطر فتنقط به الحروف وتفصل الأسطر ، وتوهُّمُ المثول بمثواك المقدس لا يمر بالخاطر سواه ولا يخطر ، عن قلب بالبعد عنك قَريح ، وجفن بالبكاء جريح ، وتأوّه عن تبريح ، كلّما هَبَّ من أرضك نسيم ريح ، وانكسار ليس لَهُ إلا جَبْرك ، واغتراب لا يؤنس فيه إلا قربك ، وإن يُقْضَ فقبرك ، وكيف لا يسلم في مثلها الأسى ، ويوحش الصباح والمسا ، ويرجفُ جبلُ الصبرِ بعدما رَسا ، لولا لعلَّ وعسى ، فقد سارتِ الركبانُ إليك ولم يُقْضَ مَسير ، وحومت الأسرابُ عليك والجناحُ كَسير ، ووعدت الآمال فأخلفت ، وحلفت العزائم فلم تَفِ بما حلفت ، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل ، إلاّ على التمثيل ، ولا من المعالم الملتمسة التنوير ، إلاّ على التصوير ، مَهْبط وحي الله تعالى ومتنزل أسمائه ، ومُتَردَّد ملائكة سمائه ، ومدافن أوليائه ، وملاحد أصحاب خيرة أنبيائه ، رزقني الله تعالى الرضى بقضائه ، والصَّبرَ على جاحم البعد ورَمْضائه — من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الإسلام بالأندلس قاصية سيلك ، ومسحبة رَجْلك يا رسولَ الله وخَيْلك ، وأنأى مَطارح دعوتك ومساحب ذيلك ، حيث مصافّ الجهاد في سبيل الله وسبيلك قد ظللها القَتام ، وشُهْبان الأسنّة أطلعها منه الإعتام ، وأسواقُ بيعِ النفوسِ من الله تعالى قد تعدد بها الأيامى والأيتام ، حيث الجراحُ قد تحلت بعسجد نجيعها النحور ، والشهداء تحفُّ بها الحور ، والأمم الغريبة قد قطعها عن المدد البحور ، حيث المباسم المُفْتَرَّة ، تجلوها المصارع البَرَّة ، فتحييها بالعَراء ثغورُ الأزاهر ، وتندبها صَوادحُ الأدواحِ برنّات تلك المزاهر ، وتحلّي السحابُ أشلاءها المعَطّلة من ظلّها بالجواهر ، وحيث الإسلام من عدوّه المكايد بمنزلة

قطرةٍ من عارضِ غمام ، وحَصاةٍ من ثَبيرٍ أو شَمام ، وقد سدت الطريق ، وأسلمَ الفراقُ الفريق ، وأغصّ الريق ، وينس من الساحـــل الغريق ، إلا أن الإسلام بهذه الجهة المتمسكة بحبل الله تعالى وحَبْلك ، المهتدية بأدِلّة سُبُلك ، سالم والحمد لله تعالى من الانصداع ، محروسٌ بفضل الله تعالى من الابتداع ، مقدودٌ من جديد الملّة ، معدومٌ فيه وجودُ الطوائف المُضِلّة ، إلا ما يخص الكفر من هذه العلّة ، والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه بجمع القلة .

« ولهذه الأيام يا رسول الله أقام الله تعالى أَوَدَه بِراً بوجهك الوجيه ورَعْياً ، وإنجازاً لوعدك وهو الذي لا يخلف وعداً ولا يخيب سَعْياً ، وفتح لنا فتوحاً أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب ، وبشَّرتنا منه تعالى بغفر التقصير ورفع التثريب ، ونصرنا ولَهُ المنّة على عَبَدَةَ الصليب ، وجعل لألفنا الرُّدَيْني ولامِنا السَّرْدي حكم التغليب ، وإذا كانت الموالي التي طوّقت الأعناق مِنَنُها ، وقررت العوائد الحسان سيرها وسننها ، تبادر إليها نوّابها الصرحاء وخدامها النصحاء بالبشائر ، والمسرات التي تشاع في العشائر ، وتجلو لديها نتائج أيديها ، وغايات مَباديها ، وتتاحفها وتُهاديها ، بمجاني جنانها وأزاهر غَوَاديها ، وتطرف محاضرها بطُرَفِ بواديها ، فبابُكَ يا رسولَ الله أولى بذلك وأحقّ ، ولك الحق الحق ، والحرُّ منّا عَبْدُك المسترقّ ، حسبما سَجّله الرق ، وفي رضاك من كلِ من يلتمس رضاه المطمع ، ومَثْواكَ المَجْمَع ، وملوك الإسلام في الحقيقة عبيد سُدَّتك المؤملة ، وخَوَلُ مثابتك المحسنة بالحسنات المجملة ، وشهب تعشو إلى بدورك المكملة ، وبعض سيوفك المقلّدة في سبيل الله تعالى المحملة ، وحرَسة مهادِك ، وسلاح جهادك ، وبروق عِهادك .

« وإن مكفول احترامك الذي لا يخفر ، ورَبِيَّ إنعامك الذي لا يكفر ، وملتحف جاهك الذي يمحى ذنبه بشفاعتك إن شاء الله تعالى ويُغْفَر ، يطالع روضة الجنّة المفتحة أبوابها بمثْوَاك ، ويفاتح صِوَان القُدُس الذي أجنّك وحَوَاك ،

وينثر بضائع الصلاة عليك بين يدي الضريح الذي طوّاك ، ويعرض جنى ما غرست وبذرت ، ومصداق ما بشرت به لما بشرت وأنذرت ، وما انتهى إليه طَلَقُ جهادك ، ومَصَبُّ عِهادك ، لتقرَّ عينُ نصحك التي أنام العيونَ الساهرةَ هجوعُها ، وأشبع البطونَ ورواها ظمؤها في الله تعالى وجُوعُها ، وإن كانت الأمور بمرأى من عَيْن عنايتك ، وغيبها متعرف بين إفصاحك وكنايتك ، ومجمله يا رسول الله صلى الله عليك ، وبلّغ وسيلتي إليك ، هو أن الله سبحانه لمّا عرفني لطفه الخفي في التمحيص ، المقتضي عدم المحيص ، ثم في التخصيص ، المغني بعيانه عن التنصيص ، وفّق ببركاتك السارية رحماتها في القلوب ، ووسائل محبتك العائدة بنيل المطلوب ، إلى استفادة عظة واعتبار ، واغتنام إقبال بعد إدبار ، ومزيد استبصار ، واستعانة بالله تعالى وانتصار ، فسكن هبوبُ الكفر بعد إعصار ، وحُلَّ مخنّقُ الإسلام بعد حِصار ، وجرت على سنن السنَّة بحسب الاستطاعة والمنّة اليسيرة ، وجُبرت بجاهك القلوب الكسيرة ، وسُهّلت المآربُ العسيرة ، ورفع بيد العزة الضَّيْم ، وكشف بنور البصيرة الغَيْم ، وظهر القليل على الكثير ، وباء الكفرُ بخطّة التعثير ، واستوى الدينُ الحنيفُ على المهاد الوثير ، فاهتبلنا يا رسول الله غِرة العدوّ وانتهزناها ، وشِمْنا صوَارم عزة الغدوّ وهَزَزْناها ، وأزحنا علل الجيوش وجهّزناها .

« فكان ممّا ساعد عليه القدر ، والخطبُ المبتدر ، والوِرد الذي حسُنَ بعده الصَّدَر ، أنّنا عاجلنا مدينة بُرْغُه[1] ، وقد جرَّعَت الأختين مالَقَة ورُنْدَة ، من مدائن دينك ، ومزابِن ميادينك ، أكواسَ الفِراق ، وأذكرت مثل مَنْ بالعراق ، وسدت طرق التزاور عن الطُّراق ، وأسالتِ المسيلَ بالنجيع المُراق ، في مراصد المراد والمَرَاق ، ومنعت المراسلة مع هدير الحمام ، لا بل مع طَيْف المنام عند الإلمام ، فيسّر الله تعالى اقتحامها ، وألحمت بيض الشفار

١ برغه (Burgo) بين مالقة ورندة .

في زُرْق الكفار إلحامها ، وأزال بَشْرُ السيوف من بين تلك الحروف إقحامها ، فانطلق المَسْرَى ، واستبشرت القواعدُ الحَسْرَى ، وعدمت بطريقها المخيف مصارع الصَّرْعى ومثاقف الأسْرَى ، والحمد لله على فتحه الأسنى ومَنْحِه الأسرى، ولا إله إلا هو منقّل قيصر وكسرى ، وفاتح مغلقاتهما المنيعة قَسْرا ؛ واستولى الإسلام منها على قرار جنات ، وأم بنات ، وقاعدة حصون ، وشجرة غصون ، طهرت مساجدها المغتصبة المكرهة ، وفجع بحفظها الفيل الأفيل وأبرهة ، وانطلقت بذكر الله الألسنة المِدْرهة ، وفاز بسبق ميدانها جيادك الفرهة ، هذا وطاغية الروم على توفّر جموعه ، وهَوْل مرئيه ومسموعه ، قريبٌ جوارُه ، بحيث يتصل خُوَاره ، وقد حرك إليها الحنين حوّاره .

« ثمّ نازل المسلمون بعدها شجا الإسلام الذي أعيا النطاسيَّ علاجُه ، وكرك[1] هذا القطر الذي لا تُطاول أعلامه ولا تصاول أعلاجه ، وركاب الغارات التي تطوي المراحـــل إلى مُكايدة المسلمين طي البرود ، وحجر الحيات التي لا تخلع على اختلاف الفصول جلود الزرود ، ومُنَغّص الورود في العذب المورود ، ومُقِضّ المضاجع ، وحلم الهاجع ، ومجهّز الخطب الفاجىء الفاجع ، ومستدرك فائتة الراجع ، قبل هبوب الطائر الساجع ، حصن آشر[2] حماه الله تعالى دعاء لا خبراً ، كما جعله للمتفكرين في قدرته معتبراً ، فأحاطوا به إحاطة القِلادة بالجيد ، وأذلوا عزته بعزّة ذي العرش المَجيد ، وحفت به الرايات يَسِمُها وَسْمُك ، ويلوح في صفحاتها اسمُ الله تعالى واسْمُك ، فلا ترى إلاّ نفوساً تتزاحم على مَوْرد الشهادة أسرابها ، وليوثاً يَصْدُق في الله تعالى ضِرابُها ، وأرسل الله عليها رِجْزاً إسرائيليّاً من جَرَاد السهام ، تشذ آياته عن الأفهام ،

---

١ شبهه بحصن الكرك ، وكان ذا شأن ومنعة في الحروب الصليبية .

٢ حصن آشر (Iznajar) في الجنوب الشرقي لحصن روطة (Rute) على ضفة رافد من روافد شنيل ؛ وقد صحف في ق فكتب « أشب » .

وسدد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام ، من بعد الاستغلاق والاستبهام ، وقد عبثت جوارح صخوره في قنائص الهام ، وأعيا صَعْبُه على الجيش اللُّهام ، فأخذ مسائغَهُ النقضُ والنقبُ ، ورَغا فوق أهله السَّقبُ[1] ، وَنُصبت المعارج والمَراقي ، وقُرعت المناكب والتراقي ، واغتنم الصادقون مع الله تعالى الحظ الباقي ، وقال الشهيد السابق : يا فوز استباقي ، ودخل البلد فألحم السيف ، واستُلِبَ البَحْتُ والزيف ، ثم استخلصت القصبة فعلت أعلامُكَ في أبراجها المشيدة ، وظفر ناشِدُ دينك منها بالنشيدة[2] ، وشكر الله تعالى في قصدها مساعيَ النصائح الرشيدة ، وعمل ما يرضيك يا رسول الله في سد ثَلْمها ، وصَوْن مستلمها ، ومُداواة ألمها ، حرصاً على الاقتداء في مثلها بأعمالك ، والاهتداء بمِشْكاة كمالك ، ورتب فيها الحماة تشجي العدوّ ، وتصل في مرضاة الله تعالى ومرضاتك برواحها الغُدُوّ .

«ثم كان الغزو إلى مدينة إطريرة[3] بنت حاضرة الكفر إشبيلية التي أظلّتها بالجناح الساتر ، وأنامتها في ضَمان الأمان للحُسام الباتر ، وقد وتر الإسلام من هذه الموسة البائسة بوتر الواتر ، وأُحفظَ منها بأذى الوَقاح المهاتر ، لما جرَّته على أسراه من عمل الخاتل الخاتر ، حَسْبَ المنقولِ لا بل المتواتر ، فطوى إليها المسلمون المدى النازح ، ولم تشكُ المطيُّ الروازح ، وصدق الجِدُّ جَدَها المازح ، وخفقت فوق أوكارها أجنحةُ الأعلام ، وغشيتها أفواجُ الملائكةِ الموسومة وظلالُ الغمام ، وصابت من السهام وَدْق الرِّهام ، وكاد يكفي السهام على الأرض ارتجاج أجوائها بكلمة الإسلام ، وقد صَمَّ خاطبُ عروس الشهادة

١ السقب : ولد الناقة وفي العبارة إشارة إلى ما حل بقوم صالح عندما عقروا الناقة ، فيقال في المثل لتصوير الهلاك « رغا فوقهم السقب » .
٢ النشيدة : الضالة التي تنشد أي تطلب .
٣ إطريرة (Utrera) إلى الجنوب الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٩ كيلومتراً ، وقد ضبطت بكسر الهمزة وسكون الطاء .

عن الملام ، وسمح بالعزيز المَصُون مبايع الملك العلاّم ، وتكلّم لسانُ الحديد الصامت وصمت إلاّ بذكر الله لسانُ الكلام ، ووفت الأوتار بالأوتار ، ووصل بالخَطّيّ ذَرْع الأبيض البتّار ، وسلطت النار على أربابها ، وأذن الله تعالى في تَبار تلك الأمة وتَبابها ، فنزلوا على حكم السيف آلافاً ، بعد أن أُتلفوا بالسلاح إتلافاً ، واستوعب المقاتلة كِتافاً ، وقُرِنُوا في الجُدُلِ أكتافاً أكتافاً ، وحُملت العقائل والخرائد ، والولدان والولائد ، إركاباً من فوق الظهور وإردافاً ، وأقلت منها أفلاك الحمول بدوراً تضيء من ليالي المحاق أسدافاً ، وامتلأت الأيدي من المواهب والغنائم ، بما لا يصوّره حلم النائم ، وتركت العوّافي تتداعى إلى تلك الولائم ، وتفتنُّ من مطاعمها في الملائم ، وشُنّت الغارات على حمص فجللت خارجها مغاراً ، وكست كبار الروم بها صَغاراً ، وأجحرت أبطالها إجحاراً ، واستاقت من النَّعم ما لا يقبل الحصر استبحاراً .

«ولم يكن إلا أن عدل القسم ، واستقل بالقفول العزيز الرسم ، ووضح من التوفيق الوسْم ، فكانت الحركة إلى قاعدة جَيّان قيعة الظل الأبرد ، ونسيجة المنوال المفرد ، وكِناس الغيد الخُرَّد ، وكرسي الإمارة ، وبحر العمارة ، ومهوى هوى الغيث الهَتُون ، وحزب التين والزيتون ، حيث خندق الجنّة تدنو لأهل النار مَجانيه ، وتشرق بشواطىء الأنهار إشراق الأزهار زُهْرُ مبانيه ، والقلعة التي تَختَتّمَتْ بنانُ شرفاتها بخواتيم النجوم ، وهمّت من دون سحابها البيض سحائبُ الغيث السّجُوم ، والعقيلة التي أبدى الإسلام يوم طلاقها ، وهجوم فراقها ، سِمَة الوجوم لذلك الهجوم ، فرمتها البلاد المسلمة بأفلاذ أكبادها الوادعة ، وأجابت منادي دعوتك الصادقة الصادعة ، وحَبّتْها بالفادحة القادعة ، فغَصّت الرُّبى والوهاد بالتكبير والتهليل ، وتجاوبت الخيلُ بالصَّهيل ، وانهالت الجموعُ المجاهدة في الله تعالى انهيالَ الكَثيب المَهِيل ، وفهمت نفوسُ العباد المجاهدة في الله تعالى حقَّ الجهاد معانيَ التيسير من ربّها والتسهيل ، وسفرت الرايات عن المرأى الجميل ، وأربت المحلات المسلمة على التأميل ، ولمّا صبحتها

النواصي المقبلة الغُرَر، والأعلام المكتتبة الطُّرَر ، برز حاميتها مُصْحِرين[1] ، وللحوزة المستباحة منتصرين ، فكاثرهم من سَرْعان الأبطال رَجْلُ الدَّبا[2] ، ونَبْتُ الوهاد والرُّبى، فأقحموهم من وراء السور ، وأسرعت أقلام الرماح في بسط عددهم المكسور ، وتركت صرعاهم ولائم للنسور ، ثم اقتحموا رَبَضَ المدينة الأعظم ففرعوه ، وجَدّلوا مَنْ دافع عن أسواره وصَرَعُوه ، وأكواسَ الحتوف جرَّعوه ، ولم يتصل أولى الناس بأخراهم ، ويحمد بمخيم النصر العزيز سُراهم ، حتّى خذل[3] الكافرَ الصبرُ وأسلم الجلَد ، ونزل على المسلمين النصر فدُخِل البلد ، وطاح في السيل الجارف الوالد منه والولد ، وأتهم المطرف والمتلد ، فكان هولاً بعيدَ الشناعة ، وبعثاً كقيام الساعة ، أعجل المجانيق عن الركوع والسجود ، والسلالم عن مطاولة النجود ، والأيدي عن ردم الخنادق والأغوار ، والأكبُش عن مناطحة الأسوار ، والنفوط عن إصعاق الفجار ، وعمد الحديد ، ومعاول البأس الشديد ، عن نقب الأبراج ونقض الأحجار ، فهيلَتِ الكثْبان ، وأبيد الشيب والشبان ، وكسرت الصُّلبان ، وفجع بهدم الكنائس الرهبان ، وأهبطت النواقيسُ من مَرَاقيها العالية وصروحها المتعالية ، وخلعت ألسنتها الكاذبة ، ونقل ما استطاعته الأيدي المجاذبة ، وعجزت عن الأسلاب[4] ذوات الظهور ، وجلل الإسلام شعار العزّ والظهور ، بما خلت عن مثله سوالف الدهور والأعوام والشهور ، وأعرست الشهداء ومن النفوس المبيعة من الله تعالى نحل الصدقات والمهور ، ومن بعد ذلك هُدم السور ، ومحيت عن محيطه المحكم السطور ، وكاد يسير ذلك الجبلُ الذي اقتعدته المدينة ويدك ذلك الطَور ، ومن بعد ما خرب الوِجار ، عُقرت الأشجار ، وعُفِّر المنار ، وسلطت على بنات

١ مصحرين : بارزين .
٢ الرجل : الجماعة ، والدبا : الجراد .
٣ في ق : جذل ، وصوبناه .
٤ ق : الأشلاء .

التراب والماءِ النار ، وارتحل عنها المسلمون وقد عمتها المصائب ، وأصمى لَبّتها السهمُ الصائب ، وجللتها القَشاعِمُ العصائب ، فالذئاب في الليلِ البهيم تعسل ، والضباع من الحَدَبِ البعيدِ تنسل ، وقد ضاقت الجُدُلُ عن المخانق ، وبيع العِرضُ الثمين بالدانق ، وسُبكت أسورة الأسوار ، وسوّيت الهضاب بالأغوار ، واكتسحت الأحوازَ القاصيةَ سرايا الغِوار ، وحجبت بالدخانِ مطالعُ الأنوار ، وتخلفت قاعتها عبرة للمعتبرين وعظة للناظرين ، وآية للمستبصرين ، ونادى لسان الحمية ، يا لثارات الإسكندرية ، فأسمع آذان المقيمين والمسافرين ، وأحقّ الله الحقّ بكلماته وقطع دابر الكافرين .

«ثم كانت الحركة إلى أختها الكبرى ، ولِدَتِها الحزينة عليها العبرى ، مدينة أبدة[1] ذات العمرانِ المستبحر ، والربَضِ الحرق المصحر ، والمباني الشُّمّ الأنوف ، وعقائل المصانع الجمة الحلي والشنوف ، والغاب الأنوف ، بلدة التجر ، والعسكر المَجْر ، وأفق الضّلال الفاجر الكذبِ على الله تعالى الكاذبِ الفَجْر ، فخذل الله تعالى حاميتَها التي يعيي الحسبانَ عدُّها ، وسَجر بحورها التي لا يرام مدُّها ، وحقّت عليها كلمة الله تعالى التي لا يستطاع رَدُّها ، فدُخلت لأوّل وَهْلة ، واستوعب جَمُّها والمنة لله تعالى في نَهلة ، ولم يكف السيف من عليها ولا مهلة ، فلمّا تناولها العَفا والتخريب ، واستباحها الفتح القريب ، وأُسْنِدَ عن عوَاليها حديثُ النصر الحسن الغريب ، وأُقعدت أبراجها من بعد القيام والانتصاب ، وأُضْرِعَتْ مسايفها[2] لهول المصاب ، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذي عظم صيتُه ، والعز الذي سما طَرْفه واشرأب لِيتُه ، والعزم الذي حُمد مَسْراه ومبيته ، والحمد لله ناظم الأمر وقد راب شتيته ، وجابر الكسر وقد أفات الجبر مفيته .

[1] أبدة (Ubeda) - بتشديد الباء - إلى الشمال الشرقي من جيان .
[2] المسايف : جمع مسيف ، ويعني بها لسان الدين في الأرجح ، المدماك (أي السطر من البناء) .

«ثم كان الغزو إلى أم البلاد، ومثوى الطارف والتلاد، قرطبة، وما قرطبة؟ المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمـــل، والكرسي الذي بعصاه رُعي الهمل، والمصر الذي له في خطة المعمور الناقة والجمل، والأفق الذي هو لشمس الخلافة العَبْشَمية[1] الحمل، فخيم الإسلام بعقوتها[2] المستباحة، وأجاز نهرها المعيي على السّباحة، وعم دَوْحها الأشِبَ بواراً، وأدار المحلاّتِ بسورها سِوَاراً، وأخذ بمُخَنّقها حِصاراً، وأعمل النصر بشجر بصلها[3] اجتناءً ما شاء واهتصاراً، وجدّل من أبطالها من لم يرض انجحاراً، فأعمل إلى المسلمين إصحاراً، حتى فرغ بعض جهاتها غلاباً جهاراً، ورفعت الأعلام إعلاماً بعز الإسلام وإظهاراً، فلولا استهلال الغَوادي، وأن أتى الوادي، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادي، ولقَضَى تَفَثَه[4] العاكفُ والبادي، فاقتضى الرأي – ولذنب الزمان في اغتصاب الكفر إياها متاب، تعمل ببُشْراه بفضل الله تعالى أقتاد وأقتابٌ، ولكل أجل كتاب – أن يُرَاض صَعْبها حتى يعود ذَلولاً، وتُعفّى معاهدها الآهلة فتُترك طُلولاً، فإذا فجع الله تعالى بمارج النار طوائفها المارجة، وأباد بخارجها الطائرة والدارجة، خَطَبَ السيفُ منها أمَّ خارجة[5]، فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار ومفارقُ الهضاب بالهشيم قد شابت، والغلات المستغلات قد دعا بها القَصْلُ فما ارتابت، وكأن صحيفة نهرها لما

١ العبشمية : نسبة إلى عبد شمس .

٢ العقوة : الساحة . وفي ق : بعقرتها .

٣ ق : فأعمل النصر . . . نصها ؛ والمراد أن النصر حطم رماحها .

٤ التفث في الحج : الحلق والتقصير وقص الأظفار ونحر البدن وغير ذلك مما يفعله الحاج إذا حل من إحرامه ، والمراد أنه استوفى حجه ، فكنى به لسان الدين عن بلوغ غاية الأرب .

٥ أم خارجة : كانت سريعة الخطبة ولذلك قيل في المثل « أسرع من نكاح أم خارجة » وقد شبه قرطبة بها لتداول الغلبة عليها دهراً بعد دهر ، وألمح ابن شهيد إلى هذا حين تغزل بقرطبة فقال :

زنت بالرجال على سنها ... فيا حبذا هي من زانيه

أضرمت النار في[1] ظهرها ذابت ، وحيته فرّت أمام الحريق فانسابت ، وتخلفت لغمائم الدخان عمائم تلويها برؤوس الجبال أيدي الرياح ، وتنشرها بعد الركود أيدي الاجتياح ، وأغريت بأقطارها الشاسعة ، وجهاتها الواسعة ، جنودُ الجوع ، وتوعدت بالرجوع ، فسلب أهلها لتوقع الهجوم متزور الهجوع ، فأعلامها خاشعة خاضعة ، وولِدانُها لثُديّ البؤس راضعة ، والله سبحانه يُوفِدُ بخبر فتحها القريب ركابَ البُشْرى ، وينشر رحمته قِبَلنا نشرا .

«ثم تنوّعتْ يا رسول الله لهذا العهد أحوالُ العدوّ تنوّعاً يوهم إفاقته من الغمرة ، وكادت فتنته تؤذن بخمود الجمرة ، وتُوُقِّعَ الواقع ، وحُذر ذلك السمُّ الناقع ، وخيف الخرق الذي يحار فيه الراقع ، فتعرفنا عوائد الله سبحانه ببركة هدايتك ، وموصول عنايتك ، فأنزل النصر والسكينة ، ومكّن العقائد المكينة ، فثابت العزائم وهبَّت ، واطَّردت عوائد الإقدام واستتبت ، وما راع العدو إلا خيل الله تعالى تجوس خلاله ، وشمس الحق توجب ظلاله ، وهُدَاك الذي هَديت يُدْحِض ضلاله ، ونازلنا حصني قنبيل والحاثر[2] ، وهما معقلان متجاوران يتناجى منهما الساكن سراراً ، وقد اتخذا بين النجوم قَرَاراً ، وفصل بينهما حسام النهر يروق غراراً ، والتفَّ معصمهُ في حُلّة العَصْب وقد جعل الجسر سواراً ، فخذل الصليبُ بذلك الثغر مَنْ تولاّه ، وارتفعت أعلام الإسلام بأعلاه ، وتبرجت عروسُ الفتح المبين بمَجْلاه ، والحمد لله تعالى على ما أولاه .

ثم تحركنا على تفئة[3] تعدّي ثغر الموسطة على عدوّه المساوِرِ في المضاجع ، ومصبحه بالفاجىء الفاجع ، فنازلنا حصن روطة الآخذ بالكَظْم ، المعترض بالشَّجا اعتراض العظم ، وقد شحنه العدو مدداً بئيساً ، ولم يألُ اختياره رأياً ولا تلبيساً ، فأعيا داؤه ، واستقلت بالمدافعة أعداؤه ، ولمّا أتلع إليه جيد المنجنيق ،

---

[1] ق : حافي ، ولعلها : حامي .
[2] ق : والحوائر .
[3] على تفئة : على أثر .

وقد برك عليه بروك الفَنيق ، وشد عصام العزم الوثيق ، لجأ أهلُه إلى التماس العهود والمواثيق ، وقد غصوا بالريق ، وكاد يذهب بأبصارهم لمعانُ البريق ، فسكناه من حامية المجاهدين بمن يحمي ذماره ، ويقرر اعتماره ، واستولى أهل الثغور إلى هذا الحد على معاقل كانت مستغلقة ففتحوها ، وشرعوا أرْشِيَةَ الرماح إلى قُلُب قلوبها فمتحوها .

«ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفُضُ عن الأعراف متراكم الغبار ، وترخي عن آباط خيلها شدَّ حُزُمِ المغار ، حتى عاودت النفوسُ شوقَها ، واستتبعت ذَوْقَها ، وخطبت التي لا فَوْقَها ، وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية ، والمدارك المتصاعبة على الأفكار المتعاصية ، فقصدنا الجزيرة الخضراء باب هذا الوطن الذي منه طرِقَ وادعُه ، ومطلع الحق الذي صَدَعَ الباطلَ صادعُه ، وثنية الفتح التي بَرَقَ منها لامعه ، ومشرف الهجوم الذي لم تكن لتعثر على غيره مطامعه ، وفرضة المجاز التي لا تنكر ، ومجمع البحرين في بعض ما يذكر ، حيث يتقارب الشطّان ، ويتوازى الخطّان ، وكاد أن تلتقي حَلْقَتا البِطان ، وقد كان الكفرُ قَدَّر قَدْر هذه الفرضة التي طرق منها حِماه ، ورماه الفتح الأول بما رَماه ، وعلم أن لا تتصل أيدي المسلمين بإخوانهم إلاّ من تلقائها ، وأنّه لا يعدم المكروه مع بقائها ، فأجلب عليها برَجْله وخَيْله ، وسد أُفق البحر بأساطيله ، ومراكب أباطيله ، بقِطع لَيْله ، وتداعى المسلمون بالعُدوتين إلى استنقاذها من لهَوَاته ، أو إمساكها من دون مَهْواته ، فعجز الحول ، ووقع بملكه إياها القول ، واحتازها قَهْراً ، وقد صابرت الضيق ما يناهز ثلاثين شهراً ، وأطرق الإسلام بعدها إطراق الواجم ، واسودَّتِ الوجوه لخبرها الهاجم ، وبكتها حتى دموع الغيث الساجم ، وانقطع المدد إلا من رحمة من يُنَفّس الكروب ، ويغري بالإدالة الشروقَ والغروب ، ولما شُكّنا بشَبا الله تعالى نَحْرَها ، وأغصصنا بجيوش الماء وجيوش الأرض تُكاثر نجم السماء برها وبحرها ، ونازلناها نذيقها شديد النزال ، ونحجّها بصدق الوعيد في سبيل الاعتزال ، رأينا بأواً لا يظاهَر إلا بالله تعالى ولا يُطال ،

وممنَّعة ً يتحاماها الأبطال ، وجناباً روّضه الغيث الهطّال ، أما أسواقها فهي التي أخذت النجد والغَوْر ، واستَعَدَّتْ بجدال الجلاد عن البلاد فارتكبت الدَّوْر [1] ، تحوز بحراً من العمارة ثانياً ، وتشكّكُ أن يكون الإنس لها بانياً ، وأمّا أبراجها فصفوف وصفوف ، تزين صفحاتِ المسايفِ منها أُنوف ، وآذان لها من دوامغِ الصخر شُنُوف ، وأما خندقها فصخر مجلوب ، وسورٌ مقلوب ، فَصَدَقَها المسلمون القتالَ بحسب محلّها من نفوسهم ، واقتران اغتصابها ببوسهم ، وأُفول شموسهم ، فرشَقُوها من النبال بظلالةٍ تحجب الشمس فلا يشرق سَناها ، وعرجوا في المراقي البعيدة يفرعون مبناها ، ونفوسها أنقاباً ، وحصونها عقاباً ، ودخلوا مدينة إلبنةَ [2] بِنْتِها غلاباً ، وأحسبوا السيوف استلالاً والأيدي اكتساباً [3] ، واستوعب القتل مقاتِلتَها السابغة الجُنَن ، البالغة المنن ، فأخذهم الهول المتفاقم ، وجدّلوا كأنّهم الأراقم ، لم تفلت منهم عينٌ تطرف ، ولا لسانٌ يلبي من يستطلع الخبر أو يستشرف .

«ثم سمت الهمم الإيمانية إلى المدينة الكبرى فداروا سواراً على سورها ، وتجاسروا على اقتحام أودية الفناء من فوق جسورها ، وأدنوا إليهـا بالضُّروب من حيل الحروب ، بروجاً مَشيدة ، ومجانيق توثق حبالها منها نَشيدة ، وخفقت بنصر الله تعالى عَذَباتُ الأعلام ، وأهدت الملائكة مدد السلام ، فخذل الله تعالى كفّارها ، وأكْهَمَ [4] شفارها ، وقلّم بيد قدرته أظفارها ، فالتمسوا الأمان للخروج ، ونزلوا على مَرَاقي العروج ، إلى الأباطح والمروج ، من سمائها ذات البروج ، فكان بروزهم إلى العَرَاء من الأرض ، تذكرة بيوم العَرْض ، وقد

---

١ أي أنها وقعت في قضية دور (وهو من مصطلح المنطق) بسبب ما استعدت به من جدال المجالدة ؛ ولا ريب أن التلاعب بمصطلح أهل المناظرة هنا واضح .
٢ في ق : البنية ؛ والمقصود أن هذه المدينة «إلبنة» هي بنت الجزيرة الخضراء أي هي من توابعها .
٣ يقابل هنا بين الاحتساب – وهو ما كان لوجه الله تعالى – وبين الاكتساب .
٤ أكهم : أكلّ عن الضرب .

جلل المقاتِلَةَ الصَّغار ، وتعلّق بالأمان النساء والصِّغار ، وبودرت المدينة بالتطهير ، ونطقت المآذن العالية بالأذان الشهير ، والذكر الجهير ، وطرحت كفّارها التماثيلَ عن المسجد الكبير ، وأزرى بألسنة النواقيس لسانُ التهليل والتكبير ، وأُنزلت عن الصروح أجرامُها ، يعيي الهندامَ[1] مرامُها ، وأُلفيَ منبر الإسلام بها مجفوًّا فأنست غربته ، وأعيد إليه قربه وقربته ، وتلا واعظ الجمع المشهود ، قول منجز الوعود ومُورِق العود ﴿وَما ظَلَمْناهُم وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم ، فَما أَغْنَتْ عَنْهُم آلِهَتُهُم التي يَدعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شيءٍ لمَّا جاء أَمْرُ ربِّكَ ، وَما زَادُوهُم غَير تَتْبيب ، وكَذلكَ أَخْذُ ربِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى وهِيَ ظالمَةٌ إنَّ أَخْذَهُ أَليمٌ شَدِيد ، إنَّ في ذلكَ لآيَةً لمَنْ خافَ عَذابَ الآخِرَة ، ذلكَ يَوْمٌ مجمُوعٌ لَهُ النّاسُ وذلكَ يَوْمٌ مَشْهُود﴾ (هود : ١٠٢) فكان الدمعُ يخُرق الآماق ، والوجدُ يستأصلُ الأرماق ، وارتفعت الرغبات ، وعلَت السيات ، وجيء بأسرى المسلمين يرسُفُون في القيود الثقال ، وينسلون من أحدابِ الاعتقال ، ففُكت عن سوقهم أساودُ الحديد ، وعن أعناقهم فَلَكاتُ البأس الشّديد ، وظلّلوا بجناح الالطف العريض المديد ، وترتبت في المقاعد الحامية ، وأزهرت بذكر الله تعالى المآذن السامية ، وعادت المدينة لأحسن أحوالها ، وسكنت من بعد أهوالها ، وعادت الحالية إلى أموالها ، ورجع إلى القطر شبابه ، ورُدَّ على دار الإسلام بابه ، واتصلت بأهل لا إله إلاّ الله أسبابه ، فهي اليوم في بلاد الإسلام قلادَةُ النحر ، وحاضرةُ البرّ والبحر ، أبقى الله تعالى عليها وعلى ما وراءها من بيوت أمتك ، ودائع الله تعالى في ذمتك ، بكلمة دينك الصالحة الباقية ، وسَدَل عليه أستار عصمته الواقية ؛ وعُدْنا والصلاة عليك شعار البروز والقفول ، وهِجّيرًا الشروقِ والأفول ، والجهاد يا رسول الله الشأن المعتمَد ، ما امتدَّ بالأجلِ الأمد ، والمستعان الفرد الصمد .

« ولهذا العهد يا رسول الله صلى الله عليك ، وبَلّغ وسيلتي إليك ، بلغ من هذا

---

[1] الهندام الآلات .

القُطْر المرتدي بجاهك الذي لا يذل من ادَّرَعَه ، ولا يضل من اهتدى بالسبيل الذي شرعه ، إلى أن لاطَفَنا ملكُ الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها ، ورفع التماثيل ببيوت الله تعالى ونصبها ، فانجاب عنها بتورك الحلك ، ودار بإدالتها إلى دعوتك الفلك ، وعاد إلى مكاتبها القرآن الذي نزل به على قلبك المَلَك ، فوجبت مطالعةُ مقرِّك النبويّ بأحوالِ هذه الأمةِ المكفولة في حِجْرك ، المفضلة بإدارة تَجْرك ، المهتدية بأنوار فَجْرك ، وهل هو إلا ثمراتُ سَعْيك ، ونتائج رَعْيك ، وبركة حبّك ، ورضاك الكفيل برضى ربّك ، وغمام رعدك ، وإنجاز وَعْدك ، وشعاع من نور سعدك ، وبَذْر يجنى رَيْعه من بعدك ، ونصر رايتك ، وبرهان آيتك ، وأثر حمايتك ورعايتك .

« واستنبتُ هذه الرسالة مائحةَ بحرِ الندى الممنوح ، ومُفاتحة بابِ الهدى بفتح الفتوح ، وفارعة المظاهرِ والصروح ، وملقية الرحل بمتنزل الملائكة والروح ، لتمدَّ إلى قبولك يَدَ استمناح ، وتطيرَ إليك من الشوق الحثيث بجناح ، ثم تقف موقف الانكسار ، وإن كان تَجْرها آمناً من الخسار ، وتُقْدم بأنس القربة ، وتحجم بوَحْشة الغربة ، وتتأخّر بالهيبة ، وتُجْهش لطول الغيبة ، وتقول : ارحم بُعْدَ داري ، وضعف اقتداري ، وانتزاح أوطاني ، وخلوَّ أعطاني ، وقلةَ زادي ، وفرَاغ مزادي ، وتقبّلْ وسيلةَ اعترافي ، وتغمّدْ هفوةَ اقترافي ، وعجِّل بالرضى انصراف متحملي لانصرافي ، فكم جُبْتُ من بحر زاخر ، وقَفْر بالركاب ساخر ، وحاش لله تعالى أن يخيب قاصدُك ، أو تتخطاني مقاصدُك ، أو تطردني موائدك ، أو تضيقَ عني عوائدك ، ثم تمدّ مقتضيةً مزيد رحمتك ، مستدعيةً دعاء مَنْ حضر من أمّتك ، وأصحبتها يا رسولَ الله عرضاً من النواقيس التي كانت بهذه البلاد المفتتحة تعيق الإقامة والأذان ، وتسمع الأسماع الضالة والآذان ، ممّا قَبِلَ الحركة ، وسالم المعركة ، ومكّن من نقله الأيدي المشتركة ، واستحق بالقدوم عليك والإسلام بين يديك السابقة في الأزل البركة ، وما سواها فكانت جبالاً عَجزَ عن نقلها الهندام ، فنسخ وجودَها الإعدام ، وهي يا

رسولَ الله جنى من جنانك ، ورطبٌ من أفنانك ، وأثرٌ ظهر علينا من مسحةِ حنانك .

« هذه هي الحال والانتحال ، والعائقُ أن تشدّ إليك الرحال ، ويعمل الرّحال ، إلى أن نلقاك في عرَصات القيامة شفيعاً ، ونحلّ بجاهك إن شاء الله تعالى محلاً رفيعاً ، ونقدمَ في زُمْرَة الشهداء الدامية كلومهم من أجلك ، الناهلة غللهم في سَجْلك ، ونبتهل إلى الله تعالى الذي أطلعك في سماء الهداية سراجاً ، وأعلى لك في السبع الطباق معراجاً ، وأم الأنبياء منك بالنبي الخاتم ، وقَفّى على آثار نجومها المشرقة بقمرك العاتم ، أن لا يقطع عن هذه الأمة الغريبة أسبابك ، ولا يسدّ في وجوهها أبوابك ، ويوفقها لاتباع هداك ، ويثبت أقدامها على جهاد عِداك ، وكيف تعدم ترفيها ، أو تخشى بَخْساً وأنت موفّيها ، أو يعذبها الله تعالى وأنت فيها ؟ وصلاة الله وسلامه تحط بفِنائك رحال طيبها ، وتهدر في ناديك شَقاشقُ خطيبها ، ما أذكر الصباحُ الطّلْقُ هداك ، والغمامُ السّكْبُ نَداك ، وما حنّ مشتاق إلى لَثْم ضريحك ، وبَلِيتْ نسمات الأسحار عمّا استرقت من ريحك ، وكتب في كذا » . انتهت الرسالة ، وفيها ما لا خفاء به من براعة لسان الدين ، رحمه الله تعالى وقدّس روحه الطاهرة ، آمين .

٨٧ — وممّا علق بحفظي من نثره رحمه الله تعالى أثناء رسالة في العزاء خاطب بها ملك المغرب قوله بعد كلام : أين مروان بن الحَكَم ودَهاؤه ، وعبد الملك بن مروان وبهاؤه ، والوليد وبناؤه ، وسليمان وغذاؤه ، وعمر بن عبد العزيز وثناؤه ، ويزيد ونساؤه ، وهشام وخُيَلاؤه ، والوليد وندماؤه ، والجَعْدي وآراؤه ، أم أين السفّاح وحُسامه ، والمنصور واعتزامه ، والمهدي وإعظامه ، والهادي وإقدامه ، والرشيد وأيامه ، والأمين ونِدامه ، والمأمون وكلامه ، والمعتصم وإسراجُه وإلجامه ؟ انتهى .

وقد تقدّم كلام أبي الخطاب ابن دِحْية في هذا المعنى بطوله في الباب الثاني من هذا القسم ، فليراجَع ثمة[1] .

[للمقّري محاكياً لسان الدين]

قلت : وقد تقدّم في الخطبة نَظْمي لمثل هذا ، وقد كنت نسجت على منوال لسان الدين وأنا بالمغرب نثراً ممّا لم يحضرني منه الآن غير قولي : أين الإسكندر ويونانه ، وشدّاد وبنيانه ، والنمروذ وعدوانه ، وفرعون وهامانه ، وقارون وطغيانه ، وكسرى أنوشروان وإيوانه ، وقيصر وبطارقته وأعوانه ، وسيف ابن ذي يزَن وغُمْدانه ، والمنذر ونُعمانه ؟ إلى أن قلت : وأين أبو بكر رضي الله تعالى عنه وثباته ، وعمر رضي الله تعالى عنه ووثَباته ، وعثمان رضي الله تعالى عنه ورَهَباته ، أم أين علي رضي الله تعالى عنه وشجاعته وعلمه ، وأين معاوية رضي الله تعالى عنه وحمله ، وأين يزيد وظلمه ؟

ثم ذكرت ما تقدم للسان الدين ، وقلت بعده : وأين الواثق وغناؤه ، والمتوكل ومَوَاليه وأولياؤه وأبناؤه ، والمنتصر وآماله ، والمعتز وجَماله ، والمستعين وعُمّاله ، والمهتدي وأعماله ، والمعتضد وذكاؤهُ وإحاطته بالأخبار واشتماله ، والمقتدر ونساؤه وإهماله ؟ إلى أن قلت : وأين بنو عُبيد وضلالهم ، وبنو بويه وجلالهم ، وبنو سلْجوق ونظامهم ، وبَنو سامان وإعظامهم ، وبَنو أيوب وصلاحهم ، والجراكسة ومبانيهم وسلاحهم ؟

ثم قلت في ملوك المغرب : وأين عبد الرحمن الداخل وأمراؤه ، والناصر وزَهْراؤه ، والحكم ووزراؤه ، والمؤيد وظهراؤه ، أم أين المنصور بن أبي عامر وغزواته ومواليه ، والمُظَفَّر وأدواته ومعاليه ، أم أين بنو حَمّود

[1] انظر المجلد ٥ : ١١٥ .

وعُلاهم ، وأوصافهم وحِلاهم ، وبنو جَهْوَر وحَزْمهم ، وبنو باديس وعَزْمهم ، وأين مُعْتَضد بني عَبّاد ، ومعتمدهم الذي سَنا كرمِهِ للمعتفين باد ، وبنو ذي النون وَمزِيتُهم ، وبنو صُمادح ومريتهم ، وبنو الأفطس وبنو هود ، وما كان لهم من المكارم في الحفل المشهود ، وأين لَمْتُونه ، وصبرهم الذي ركبوا مُتُونه ، أم أين الموحِّدون وناصرهم ومنصورهم ، ومصانعهم وقصورهم ، أم أين بنو الأحمر وغرناطتهم ، وإزالتهم عن حوزة الدين أدناسَ المعتدين وإماطتَهم ، وجَعْلُهم الأمورَ لمثل ابن الحكيم ولسان الدين وإناطتَهم ، أم أين بنو مَرِين وفارسهم ، ومغانيهم ومَدارسهم ، وأين بنو زَيّان ومنازلهم الشاهقة ، وأشجار عزّهم الباسقة ، وأين الحَفْصيّون ، ومستنصرهم الذي قضى للمعالي الديون ، وأبو فارس ، الذي شُنّفَتْ بأخباره آذانُ الطروس والفهارس ؟ طحنت والله تعالى الجميعَ رحى المنون ، وتأيمَتِ الأزواجُ ويتم البنون ، وطالت الأيام والسنون ، وبقيت القصور العالية خالية ، والرسوم المتكاثرة داثرة ، والسلوك المنظومة متناثرة ، وعن قريب يقف الكلُّ بين يدي ربّ الأرباب ، في يوم تَذْهَل فيه الألباب ، وتنقطع إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلّم الأسباب ، ويقتص للمظلوم من الظالم ، وتنبهم للنجاة الطرقُ والمعالم ، وتُبْلى السرائر لدى مَنْ هو بها عالم ، ﴿ يَوْمَ تجِدُ كلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ محْضَراً ، وما عَمِلَتْ من سوءٍ تودُّ لَوْ أنَّ بَيْنَها وبَيْنَهُ أمَداً بَعيداً ﴾ (آل عمران : ٣٠) يوم يحكم الله تعالى في الخلق ، بالحق ، حسبما سبق في علمه إذ جعلهم قريباً وبعيداً ، وشقياً وسعيداً ، اللهم اجعلنا في ذلك اليوم الصعب ممّن فاز بالنجاة ، وحاز شفاعة نبيك ومُصْطَفاك ذي الحرمة والجاه ، صلى الله عليه وسلّم وشرَّف وكرَّم ؛ انتهى .

رجع لنثر لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

٨٨ — ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به سلطان المغرب

أبا زيّان لما تمّ له الأمر ، وهو مشتمل على نظم ونثر ، ونصّه :

يا ابن الخلائف يا سميَّ محمدٍ ... يا مَن عُلاه ُ ليس يَحْصُر حاصِرُ
أبشرْ فأنت مجدِّدُ الملكِ الذي ... لولاك أصبحَ وهو رَسْمٌ دائرُ
من ذا يعاندُ منكَ وارثه الذي ... بسعودِهِ فَلَكُ المشيئةِ دائرُ
ألقتْ إليكَ يَدُ الخلافةِ أمرها ... إذ كنتَ أنت لها الوليُّ الناصرُ
هذا وبينكَ للصريخ وبينها ... حربٌ مضرّسةٌ وبحرٌ زاخرُ
من كانَ هذا الصنعُ أوّلَ أمره ... حَسُنَتْ له العقبى وعزَّ الآخرُ
مولايَ عندي في عُلاكَ محبّةٌ ... واللهُ يعلمُ ما تُكِنُّ ضمائرُ
قلبي يحدّثني بأنّكَ جابرٌ ... كسري ، وحظّي منك حظٌّ وافرُ
بَرّى جلودك قد حَطَطْتُ حقيبتي ... فوسيلتي لعُلاكَ نورٌ باهرُ
وبذلتُ وسعي واجتهادي مثلما ... يلقي لملككَ سيف أمركَ عامرُ
فهو الولي لدى الذي اقتحم الردى ... وقضى العزيمة وهو سَيْفٌ باترُ
وولي جدّكَ في الشدائدِ عندما ... خذلت علاهُ قبائِلٌ وعشائرُ
فاستَهدِ منهُ النُّصحَ واعلم أنّهُ ... في كلٍّ معضلةٍ طبيبٌ ماهرُ
إن كنت قد عجلت بعضَ مدائحي ... فهي الرياضُ ، وللرياض بواكرُ

« مولانا ، وعمدة ديننا ودنيانا ، الذي سخر الله تعالى البر والبحر بأمره ، وحكم فوق السمَوات السبع بعز نصره ، وأغنى يوم سَعْدِهِ عن سَلِّ السلاح وشَهْره ، وفتق عن زهر الصنع الجميل كمامةَ تسليمه وصبره ، وقيّض لهُ في علم غيبه وزيراً مذخوراً لشدّ أزره ، وقوّد الملك إليه على حال حَصْره ، الخليفة الإمام ، الذي استبشر به الإسلام ، وخفقت بعزّه الأعلام ، ولاح بدرُ مُحيّاه فافتضّ الظلام ، المقتدي بالنبي الكريم سميّه في المراشد التي تألّق منها الصبح ، والمقاصد التي لازمها النُّجح ، والتمحيصِ الذي نبع منه المنْحُ ، حتى

في الهجرة التي جاءه بعدها الفتح ، أبو زيان ابن مولانا السلطان ولي العهد ترشيحاً ومآلاً ، ومؤمل الإسلام تقلداً للمذهب الصريح وانتحالاً ، وأمير المسلمين لو أوسعه القدر إمهالاً ، ووُسْطى عقد البنين خلائق متعددة وخِلالاً ، المتحَفِ بالشهادة ولمَّا يعرفْ بدرُهُ هلالاً ، المعوَّض بما عند الله تعالى سعادةً ألبسته سِرْبالاً ، وأبلغته من رضوان الله تعالى آمالاً ، أبي عبد الرحمن ابن مولانا أمير المسلمين عظيم الخلفاء ، وعنصر الصبر والوفاء ، وستر الله تعالى المسدول على الضعفاء ، والمجاهد في سبيل الله تعالى بنفسه وماله ، المنيف على مراكز النجوم بهممه وآماله ، المقدس أبي الحسن ابن موالينا الخلفاء الطاهرين والأئمة المرضيين ، من قبيل بني مَرِين ، وصفوة الله تعالى في هذا المغرب الأقصى من أوليائه المؤمنين ، وزينة الدنيا وعمدة الدين ، هنأه الله تعالى ما أورثه من سرير الملك الأصيل ، وخوَّله من سعادة الدنيا والدين على الإجمال والتفصيل ، وتوّجه من تاج العزّة القعساء عند اشتباه السبيل ، وعوَّضه من قبيل الملائكة عند تشتت القبيل ، وجعل قدمه الراسخة ، وآياته الناسخة ، ورَبْوته السامية الباذخة ، وغرة نصره الشادخة [1] ، وأوزعه شكر آلائه ، في الخلاص من ملكة أعدائه ، وخطر البحر وعدوان مائه ، وغُول السفر ، وارتكاب الغَرر ، وثبات أقدام أوليائه الذين ما بَدَّلوا تبديلاً ، ولا ارتضوا لقِبْلَة طاعته بعد أن ولوا وجوههم شَطْرها تحويلاً ، بل صبروا صبراً جميلاً ، وباعوا نفوسهم تتميماً لعقدة إيمانهم وتكميلاً .

« يسلم على مقامكم الذي وسم السعد مشرق جبينه ، وذُخِرت قُبَلُ الطاعة ليمينه ، وأقسم الدهر بمظاهرة أمره السعيد فبرَّ — والشكرُ لله تعالى — في يمينه ، عبدكم الذي اعتلق منكم بالوسيلة الكبرى ، وقرَّ بملككم عيناً وشرح صدرا ، وبذل الجهد وإن قل قُدْرَة وقدرا ، والتمس لكم الدعاء عَلَناً وسرّا ، ابنُ الخطيب الذي حَطَّ رَحْلَ اقتصاده بتراب الملوك الكرام جدودكم ، محاريب

[1] شدخت الغرة : سالت فملأت الوجه دون أن تصل العينين .

بركم وأسباب وجودكم ، وآبائكم الذين في مظاهرتهم ورَعْيهم يظهر للناس مخايلُ هداكم وتدرُّ سحائبُ جودكم ، ملتحفاً منذ سنتين بأصْونة قبورهم وثيابها ، مستظلاً بأفنيتها المعظمة وقبابها ، ممرغاً خدّه بترابها ، مُوَاصلاً الصراخ يا لمرين ويا ليعقوب متطارحاً على أبوابها ، فلم يُتِـحِ الله تعالى له نعرة ترعى الضيف وتحمي الدخيل ، أو حميّةً تدفعُ الضيم وتشفي الغليل ، إلاّ على يدكم يا أيّها الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وبطل الميدان في موقف الهول العظيم ، المذخور لنصر المظلوم وإنصاف الغريم ، وإجالة أقلام الفتح بفتح الأقاليم .

« كتبه مهنئاً بما سَنّى الله تعالى لملككم من الصنع الذي خرق حجاب العادة ، وأرى إعجاز السعادة ، معجلاً ذلك بين يدي المبادرة إلى لثم بساطكم الذي شرّفَ وجوهها بلثمه الوجوه ، وتخشاهُ الأملاكُ الجبابرةُ وترجوه ، وأداء الواجب من القيام بمنظوم ثنائه في الحَفْل المشهود ، وإبلاغ لسان الحمد وسع المجهود ، وإلقاء ما عند العبد من خلوص وجُنُوح ، وحبّ واضح أيَّ وضوح ، فولِيُّ دعوتكم الشيخ أبو ثابت أعزّه الله تعالى يقرره ، ويبين مجمله ويفسره ، والعبد واثق بفضل الله تعالى على يديكم ، وملتمس النصر لديكم ، وقاطعٌ أن طَلِبته بكم تَتَسَنّى ، وأنكم سبب عاقبته الحسنى ، إما بالظهور على الوطن الذي تجرأ به المنقلبُ[1] على مُلككم ، ومدَّ اليد إلى نثر سلككم ، ونقص إرثكم المسلم المحرر ، وزلزل وطنكم المؤسس على الطاعة المقرر ، وأضرم النار في بسائطكم وجبالكم ، وأطلق يد الفتنة على بيوت أموالكم متكثّراً عليكم بالقلة ، متعززاً بالذلة ، جانياً على داركم بما لا تبيحه الملّة ، أو بالشفاعة الجازمة إن لم يتأذنِ الله تعالى في الانتصاف ، والله يجعلُ الظهورَ بكم من الأوصاف ، ويعينكم على جبرِ الكسير ، وتيسير الأمر العسير ، ويهنيكم منيحةَ الملك الكبير ، ويبقي كلمته في عقبكم بعد تملؤ التعمير ، والسلام » .

١ ق : المتغلب .

٨٩ ـ وله رحمه الله تعالى في مخاطبة السلطان أبي زيان المذكور: « المولى الذي طوق المنن، وأحيا السنن، وأنبت الله تعالى حبّه في القلوب النباتَ الحسن، ناظم كلمة الدين بعد انتشارها، ومُقيل عثارها، والآخذ بثارها، والمخلد لآثارها، السلطان أبو زيان . . . إلخ ـ أبقاكم الله تعالى عالي القدم، منصورَ العَلَم، ظاهراً على الأمم، مقصودَ الحمى كالركن الملتزَم. عبدُ مقامكم الذي آويتموه غريباً، وأنستموه مريباً، وأنلتموه على عدوِ الدهْرِ نصراً عزيزاً وفتحاً قريباً، فلم يخش دركاً وتثريباً، ولا عدم حظوة وشفقة ونعمة وتقريباً، ابن الخطيب عن ثناء يعطر الآفاق، ويرقم الأوراق، ويخلّق الجيوب والأطواق، وحب بهر نوراً وراق، وجاس اشتهاره الشام والعراق. ويطالع العبدُ محل مولاه الذي خلّف ببابه قلبه وولده، وصبره وجلده، وصير وطنه داره الحقيقيَّة وبلده، أنّه لمّا قدم على محل أخيه، المعتد بما أودع الله تعالى من الخلال الشريفة فيه، مولاي ابن مولاي أبي عبد الله ـ كفل الله تعالى جميل رعيه وكرم عهده، وحكم بإعلاء جدّه ومَضاء حدّه ـ رَعَى الوسيلة، وصَدَّق المخيلة، وجلا عند اجتلاء مخاطبتكم أسارير الفضيلة، فلم يَدَعْ حقّاً إلا صرفه، ولا نكرة إلا عرَّفه، ولا نعمة إلا سكبها، ولا مزية إلاّ أوجبها، ولا رتبة إلا أعلاها، ولا نعمة إلا أولاها، وما ذاك يا مولاي وإن تعددت الرسائل والأذِمّة، وادَّكرت القُرَبُ بعد أمّة، إلا بوصاتكم التي لا تُهْمل، وحرمتكم التي لا تُجهل، وعطف مقامكم الذي اشتهر، واعتنائكم بعبدكم الذي راق وبَهَر، فالعبد عبدكم بكل اعتبار، وخديمكم وإن نأت الدار، ومحسوب على نعمه مقامكم الرفيع المقدار، والأمل في مقامكم غير منقطع السبب، والأهل والولد تحت كَنَف مقامكم الأصيل الحسب، حتّى يمنّ الله تعالى بحج بيته وزيارة رسوله على يديكم، ويكون قضاء هذا الوطر منسوباً إليكم، وبعد هذا يستقرّ القرار، حيثُ يختار مَنْ يخلق ما يشاء ويَخْتار، بحول الله تعالى.

والعبد يذكّر مولاه بما بشره به بين يدي وداعه ، وبمرأى وزيره السعيد واستماعه ، من انجلاء الحركة عن عزّه وظهوره ، ونجاح أحواله واستقامة أموره ، ويهنيه بصدق الوعد ، وإمطار الرعد ، وظهورِ السعد ، وهي وسيلةٌ إذا عُدّتِ الوسائل ، وروعيت الذّمم الجلائل ، ومثلُ مولاي مَنْ رَعَى وأبقى ، وسلك التي هي أبرُّ وأتقى ، وما قصّر عنه القلم من حق مولاي فالرسولُ أعزّه الله تعالى يتممه ، وما قصر عنه الرسول فالله تعالى يعلمه ، وهو جلّ وعلا يديم أيامَ مولاي ويبقي مجده ، ويَصِلُ سعده ، والسلام » انتهى .

٩٠ – وممّا خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى شيخ الدولة يحيى بن رحو [١] قوله : « سيدي الذي له المزية العظمى ، والمحلّ الأسمى ، شيخ قبيل بني مَرين ، وقطب مدار الأحرار على الإجمال والتعيين ، والمتميز بالدهاء والرَّجاحة ، والمعرفة الفسيحة الساحة ، والصدقة المُباحة ، وشروط الصوفية من ترك الأذى ووجود الراحة ، أُسَلّم على ذاتكم الطاهرة التي بخلت الأزمان والله أن تأتي بنظيرها ، وتنافست الدول في تكبيرها ، وسارت المواكب الملوكية بمسيرها ، وأثنت الألسُن بفضلها وخيرها ، وأُقرر لديها أنّي أعددت من معرفتها بالأندلس كنزاً لم أنفق منه إلى اليوم وَزْناً ، إعداداً له وخَزْناً ، إذ لا يخرج العتّاد الكبير إلاّ عن حاجة وفاقة ، ولا ترد اليد إلى الذخيرة إلاّ في إضاقة وعجز طاقة ، وما كانت الوصلة بمثلها ليهملها مثلي جَهْلاً بقيمتها العالية ، وإزراء بجهتها الكافلة الكافية ، لكن نابت عن يدها أيد ، وكفى عن ابتذالها ما كف الله تعالى من عمرو وزيد ، والآن أُقرر أنّي قد كادت حاجّي إلى ذلك العتاد أن تتمحض ، وزبدته أن تتمخض ، إذ هو حظي من رَعْيِي ذلك القبيل الذي قصرت عليه رياسته ، والوزير

[١] هو يحيى بن عمر بن رحو ، ولاه يوسف بن إسماعيل رياسة الجند المغربي بعد أبي ثابت عامر بن عثمان (سنة ٧٤١) ، وهذه هي وظيفة شيخ الغزاة بالأندلس ، وقد بقي يحيى في هذه الوظيفة حتى سنة ٧٦٤ حين قبض عليه السلطان النصري وسجنه واستلبه جاهه (اللمحة البدرية : ١١٨) .

الذي من رأيه تستمد سياسته ، وإذا وَفْد خاصة هذه المدينة مُهَنّين ، وبشكر إيالته الكريمة مُثْنِين ، فخيمته ظلٌّ ظَليل ، ومشاركته معتمدي في الكثير فكيف ولا غرض لي إلاّ في القليل ، وعندي أن رَعْيَه لمثلي لا يفتقر إلى وسيلة تجلب ، ولا ذِمام يحسب ، فمثله من قدر قدر الهناء ، وشد أعلام الحمد والثناء ، سامية البناء ، وعرف أن الدنيا على الله تعالى أحقر الأشياء ، وقد رفعت أمري كلّه بعد الله تعالى إلى رأيك ، وغنيت عن سعيي لنفسي بجميل سعيك ، والسلام » .

٩١ — وممّا خاطب به لسان الدين شيخَه سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق التلِمساني رضي الله تعالى عنه قوله شافعاً : « يا سيدي أبقاكم الله تعالى مَحَطَّ الآمال وقِبْلَةَ الوجوه ، وبلّغ سيادتكم ما تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه ، وكلأ بعين حفظه ذاتَكُم الفاخرة ، وجعل عز الدنيا متصلاً لكم بعزّ الآخرة ، بعد تقبيل يدكم التي يدها لا تزال تُشكر ، وحسنتها عند الله تعالى تُذكر ، أُنْهِي إلى مقامكم أن الشيخ الكذا أبا فلان — مع كونه مستحقّ التجلّة بهجرةٍ إلى أبوابكم الكريمة قَدُمَتْ ، ووسائلَ من أصالةٍ وحشمة كرمت ، وفضل ووقار ، وتنويهٍ للولاية أن كانت ذات احتقار ، وسن اقتضى الفضلُ بره ، وأدبٍ شكر الاختبار عليه وسَرَّه — له بمعرفة سلفكم الأرْضَى وسيلة مَرْعية ، وفي الاعتّراف بنعمتكم مقامات مرضية ، وتوجّه إلى بابكم ، والتّمسك بأسبابكم ، والمؤمَّلُ من سيدي سَتْرُه بجناح رعيه في حال الكَبْرة ، ولحظه بطرف المَبرة ، إمّا في استعمال يليق بذوي الاحتشام ، أو سكون تحت رَعْي واهتمام ، وإعانة على عمل صالح يكون مسكة ختام ، وهو أحق الغرضين بالتزام ، وإحالة سيدي في حفظه رسمَ مثله ، على الله تعالى الذي يجزي المحسنين بفضله ، ومنه نسأل أن يديم أيام المجلس العليّ محروساً من النوائب ، مُبَلِّغ الآمالِ والمآرب ، والمملوكُ قد قرّر شأنه في إسعاف المقاصدِ المأمولة من الشفاعة إليكم ، والتحسب في هذه الأبواب عليكم ، وتقليب القلوب بيد الله تعالى الذي يعطي

ويمنع ، ويملك الأمر أجمع ، والسلام » .

٩٢ — وكتب إليه أيضاً في الشفاعة بما نصّه : « سيدي الأعظم ، وملاذي الأعصم ، وعروة عزي الوثقى التي لا تُفْصَم ، أبقاك الله تعالى بقاء آثارك آية للعز تأمر الدهر فيأتمر ، ويلبي بفِنائك الطائف والمعتمر ، بأيّ لسان أثني على فواضلك وهي أمّهات المِنَن ، وَطُرَفُ الشام واليمن ، ومقامات بديع الزمن ، والتحف المرتفعة عن الثمن ؟ فحسبي دعاء أردده وأواليه ، وأرتقب مطلوبَ الإجابة من مُقَدَّمه وتاليه ، وإن تشوّف المنعمُ للحالِ الموقوفِ خيرُهُ بمشيئة الله تعالى على جميل سَعْيه ، الموسَّد على وطاء لطفه المغشّى بغطاء رعيه ، قلبٌ خافق ، وقلبٌ مؤمن يجول به وسواسُ منافق ، وقد تجاوز موسى مجمع البحرين ، وأصبح سريّ بابه سريّ العين ، ولقد كانت مراحلُ الرَّمَلِ قصيرةً قبل أن يكسبها زَجلي ثِقْلَ الحركة ، ويخلط خاصّي في وظائفها المشتركة ، وليت أمري برز إلى طرَف ، وأفضى إلى منصرف ، وربما ظفر آيس بما يرجوه ، وبرز المحبوب من المكروه ، والله تعالى لا يَفْضَح جاه الكتاب الذي أحيا وأنشر ، وحيّا وبشر ، وأعطى صحيفته باليمين وقد جمعت مثابتكم المحشر ، وموصل كتابي ، ينوبُ في تقبيل اليد العليا مَنابي .

« وليعلم سيدي أن هذا القطر على شهرته ، وتألّق مشتريه وزُهْرته ، إذا انتحل كرامه ، وعهد الفضل لم يبق إلا انصرامه ، فهو لُبابه المتخير ، وزُلاله الذي لا يتغير ، أصالةً معروفة ، وهمّةً إلى الإيثار مصروفة ، ونُبلاً على السّنّ والكبرة ، ورجوليةً خليقة بصِلة الحرمة والمبرة ، والوسيلة لا تُطْرح ، والمعنى الذي لا يفسّر لوضوحه ولا يُشرح ، وهو انتماؤه إلى جناب سيدي حديثاً وقديماً ، واعترافه بنعمه مديراً لها ومديماً ، والله تعالى يوفي من إيثار سيدي حظّه ، ويجدّد لديه رعيه ولحظه ، حتى يعود خافقاً علَم إقباله ، مُعْلماً بُردُ اهتباله ، مسروراً

بلوغ آماله ، فلعمري إن محلّ ولايته لكَفيّ ، وإنّ عهد أمانته لوفيّ ، وإن عامل جدّه لَظاهر وخفيّ ، وما يفعله سيدي من رَعْيه ، وإنجاح سَعْيه ، محسوب من مناقبه ، ومعدود في فضل مذاهبه ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته » انتهى .

وقد تكررت في كتابنا هذا مخاطبات لسان الدين رحمه الله تعالى للخطيب ابن مرزوق المذكور نظماً ونثراً ؛ إذ كان – أعني ابن مرزوق – رئيس الدولة ، ومعتمَد الجِلّة ، وسبق منّا التعريفُ ببعض أحواله في باب مشايخ لسان الدين ممّا جرّته المناسبة ، فليرجع إليه مَنْ أراده ، والله تعالى يجعل الجميع من أهل السعادة .

٩٣ – وممّا اشتمل على نثر لسان الدين ونظمه ما خاطب به الرئيس أبا زيد ابن خلدون ، لما ارتحل من بحر المرية واستقر ببلد بسكرة عند رئيسها أبي العباس ابن مَزْني ، صحبة رسالة خطبها أخوه أبو زكريا ، وقد تقلّد كتابة صاحب تلِمسان ، ووصل الكتاب عنه من إنشائه ، وهذه صورة ما كتبه لسان الدين رحمه الله تعالى[1] :

بنَفسي ومَا نفسي عليّ بهَينَةٍ ... فينزلَني عَنها المكاسُ بأثمانِ[2]
حَبيبٌ نأى عنّي وصمَّم لا يني ... وراش سهامَ البينِ عمداً فأصماني
وقد كان همُّ الشيبِ، لا كان، كافياً ... فقد آدني لمّا ترَحّلَ همّانِ
شرعْتُ له من دمعِ عينيَ مورداً ... فكدَّرَ شِرْبي بالفراقِ وأظماني
وأرعيتُه من حُسْنِ عهدي جميمَهُ ... فأجدبَ آمالي وأوحشَ أزماني
حلفتُ على ما عنده ليَ من رضًى ... قياساً بما عندي فأحْنَثَ أيماني
وإنّي على ما نالني منه من قِلًى ... لأشتاقُ من لقياه نُغْبَةَ ظمآنِ

١ وردت هذه الرسالة في التعريف : ١٠٤ .
٢ المكاس : المشاحة في الثمن .

سألتُ جنوني فيه تقريبَ عرشهِ فقستُ بجنّ الشوقِ جِنّ سليمانِ
إذا ما دعا داعٍ من القوم باسمه وثَبْتُ وما استثبتُّ شيمةَ هيمانِ
وتالله مــا أصغيتُ فيــهِ لعاذلٍ تحاميته حتى ارْعَوَى وتحاماني
ولا استشعرتْ نفسي برحمة عابدٍ تُظَلّلُ يوماً مثلَهُ عبـدَ رَحمنِ
ولا شعرتْ من قبلـــهِ بتشوقٍ تخلّل منها بينَ روحٍ وجثمانِ

أما الشوقُ فحدّث عن البحرِ ولا حَرَج ، وأمّا الصبرُ فسلْ به أيةّ درج ، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج ، لكن الشدة تعشقُ الفرَج ، والمؤمن يَنْشَق من رَوْحِ الله تعالى الأرَج ، وأنّى بالصَّبْر ، على إبر الدَّبْر ، لا بل الضرب الهبر [1] ، ومطاولة اليوم والشهر ، حتى حكم القهر ؟ وهل للعين أن تسلو سلوّ المقصر ، عن إنسانها المبصر ، أو تذهل ذهول الزاهد ، عن سرّها الرائي والمشاهد ؟ وفي الجسد بَضْعَةٌ يصلح إذا صلحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت ، وإذا كان الفراق هو الحِمام الأوّل ، فعلامَ المعوَّل ؟ أعيتْ مُرَاوضة الفراق ، على الراق ، وكادت لوعة الاشتياق ، أن تُفْضِي إلى السِّياق :

تركتمُوني بعد تشييعكم أُوسعَ أمرَ الصبرِ عصيانا
أقْرَعُ سني ندماً تارة وأستميحُ الدمعَ أحيانا

وربما تعللتُ بغشيانِ المعاهد الخالية ، وجددتُ رسومَ الأسى بمباكرة الرسوم البالية ، أسأل نونَ النوى عن أهليه ، وميمَ الموقد المهجور عن مُصْطليه ، وثاء الأثافي المثلثة عن منازل الموحّدين ، وأحار بين تلك الأطلال حيرة الملحدين ، لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ، كَلِفْتُ لعمر الله بسالٍ عن جفوني المؤرقة ، ونائم عن همومي المتجمعة المتفرقة ، ظَعَنَ عن مَلال ، لا متبرماً مني بشرّ خلال ، وكدّر الوصل بعد صفائه ، وضرّج النصل بعد عهد وفائه :

[1] الهبر : الذي يهبر أي يقطع .

أقِلَّ اشتياقاً أيّها القلبُ ربّما   رأيتك تُصْفي الودَّ من ليس جازيا [1]

فها أنا أبكي عليه بدمٍ أساله ، وأنهل فيه أسى له [2] ، وأعلل بذكراه قلباً [3] صَدعه ، وأودعه من الوجد ما أودعه ، لمَّا خدعه ، ثم قلاه وودَّعه ، وأنشق ريّاه أنفَ ارتياح قد جدَعَه ، وأستعدي به على ظلم ابتدعه :

خليليَّ هل أبْصَرْتُما أو سَمِعتُما   قتيلاً بكى من حبِّ قاتله قبلي [4]

فلولا عسى الرجاء ولعلّه ، لا بل شفاعة المحلّ الذي حلّه ، لمزجْتُ الحنينَ بالعَتْب [5] ، وبثثت كتائبه كمناء في شعاب الكتب ، تهز من الألفات رماحاً خُزْرَ الأسنّة ، وتُوتّر من النونات أمثال القِسِيّ المُرِنّة ، وتقود من بياض الطرس وسواد النّقس بُلْقاً تردي [6] في الأعنّة ، ولكنّهُ أوى إلى الحرم الأمين ، وتفيّأ ظلال الجوار المؤمن من معرّة العوار عن الشمال واليمين ، حرم الخِلال المَزْنيّة ، والظلال اليَزَنيّة ، والهمم السنيّة ، والشيَم التي لا ترضى بالدون ولا بالدَّنيّة ، حيث الرفد الممنوح ، والطير الميامن يُزْجَرُ لها السُّنُوح ، والمَثْوَى الذي إليه — مهما تقارع الكرام على الضِّيفان ، حول جَوابي الجفان — الميلُ والجنوح :

نسَبٌ كأنَّ عليه من شَمْس الضحى   نوراً ، ومن فَلَقِ الصباح عمودا [7]

ومن حلَّ بتلك المثابة فقد اطمأنَّ جَنْبُه ، وتُغُمّدَ بالعفو ذنبه ، ولله درُّ القائل حيث يقول :

---

١ البيت للمتنبي بعد فراقه لسيف الدولة وحلوله عند كافور .
٢ التعريف : وأندب في ربع الفراق ، آسى له .
٣ التعريف : وأشكو إليه حال قلب .
٤ البيت لجميل بثينة ، ديوانه : ١٧٦ .
٥ التعريف : لنشرت ألوية العتب .
٦ تردي : تمشي الرديان ، وهو نوع من المشي دون العدو .
٧ البيت لأبي تمام (ديوانه : ٨١ ط . بيروت) .

فوحقِّه لقَد انتدبْتُ لوصفهِ بالبُخْلِ لولا أنَّ حمصاً داره
بلد متى أذكره تَهْتَجْ لوعتي وإذا قدحْتَ الزندَ طار شراره

اللهم غفراً ، لا كُفْراً ، وأين قرارة النخيل ، من مَثْوَى الأقلف البخيل ، ومكذبة المخيل ؟ وأين ثانية هَجَر ، من متبوّإ من ألحد وفَجَر ؟

من أنكرَ غيثاً منشؤه في الأرضِ وليسَ بمُخلفها
فبنانُ بني مَزْنى مُزْنٌ تنهلُّ بلطفِ مُصَرَّفها
مُزْنٌ مذ حَلَّ بِبَسْكرةٍ يوماً نطقت بمُصَحَّفها [1]
شكرتْ حتّى بعبارتِها وبمعنـاهـا وبأحرفها
ضحكتْ بأبي العباس من الـ أيّامِ ثَنايا زخرفها
وتَنَكّرتِ الدُّنيا حتّى عُرِفتْ منـهُ بمعرّفها

بل تقول : يا محلَّ الولد ﴿ لا أُقسِمُ بهَذا البَلَدِ وأنْتَ حِلٌّ بهَذا البَلَد ﴾ (البلد: ٢،٣) لقد حَلَّ بَيْنُكَ عُرَى الجلَد ، وخلق الشوق بعدكَ يا ابن خلدون في الصميم من الخَلَد ، فحيّاً الله تعالى زمناً شُفِيَتْ برُقَى قربك [2] زَمَانَتُه ، واجتُليتْ في صدف مجدكَ جمانَتُه ، ويا من لمشوق لم تقض من طول خلّتك لُبانته [3] ، وأهلاً برَوْض أظلت أشتات معارفك بانَته ، فحمائمه بعدك تندب ، فيساعدها الجُنْدُب ، ونواسِمُه ترقُّ فتتغاشى ، وعشياته تتخافت وتتلاشى ، ومزْنُه باك ، ودَوْحُه في مأتم ذي اشتباك ، كأن لم تكن قَمَرَ هالاتِ قبابه ، ولم يكُ أنسُك شارعَ بابه ، إلى صفوة الظرف ولُبابه ، ولم يسبح إنسانُ عينك في ماء شبابه ، فلهفي عليك من درة اختلَسَتْها يَدُ النوى ، ومَطَل بردّها الدهر ولَوَى ، ونَعَق الغرابُ ببينها في ربوع الجَوَى ، ونطق بالزَّجر فما نطق عن

---

١ مصحف بسكرة : بشكره أو تشكره .
٢ التعريف : في قربك .
٣ التعريف : وقضيت في مرعى خلتك لبانته .

الهوى ، وبأي شيء نعتاضُ منكِ أيتها الرياض ، بعد أن طمى نهرك[1] الفياض ، وفهقتِ الحياض ؟ ولا كان الشانىء المشنوء ، والجربُ المهنوء ، مِنْ قِطْع ليلٍ أغار على الصبح فاحتمل ، وشارك في الذمّ الناقةَ والجمل ، واستأثر جنحه ببدر النادي لما كمل ، نشر الشراع فرَاع ، وأعمل[2] الإسراع ، كأنّما هو تمساح النيل ضايق الأحباب في البرهة ، واختطف لهم من الشط نزهةَ العينِ وعينَ النزهة ، ولجّجَ بها والعيون تنظر ، والغمر عن الاتّباع يحظر ، فلم يُقْدَرْ إلاّ على الأسف ، والتماح الأثر المنشَف ، والرجوع بملء العَيْبَة من الخيبة ، ووَقْر الجَسْرة[3] من الحَسْرَة ، وإنّما نشكو إلى الله البثّ والحزْنَ ، ونستمطر من عبارتنا المُزْن ، وبسيف الرجاء نَصُول ، إذا شُرِعت لليأس النصول :

ما أقْدرَ الله أن يُدْني على شَحَطٍ   مَنْ دارُه الحَزْنُ ممّن داره صُول[4]

فإن كان كَلْم الفراق رغيباً[5] ، لما نويت مَغيباً ، وجللت الوقت الهنيء تشغيباً ، فلعلّ الملتقى يكون قريباً ، وحديثه يروى صحيحاً غريباً .

إيهٍ ثقة[6] النفس كيف حال تلك الشمائل ، المزهرة الخمائل ؟ والشيم ، الهامية الديم ، هل يمر ببالها مَنْ راعت بالبعد باله ، وأخمدت بعاصف البين ذُباله ، أو ترثي لشؤونٍ شأنها سَكْبٌ لا يفتر ، وشوق يبتُّ حبال الصبر ويبتر ، وضَنًى تقصر عن حلله الفاقعة صنعاء وتستر ، والأمر أعظم والله يستر ، وما الذي يضيرك ؟ صِينَ من لفح السّمومِ نضيرُك ، بعد أن أضرمْتَ وأشعلت ،

١ نهرك : سقطت من ق .
٢ التعريف : وواصل .
٣ الجسرة : الناقة ؛ والوقر : الحمل .
٤ البيت لحندج بن حندج المري ، (حماسة المرزوقي : ١٨٣١) .
٥ الجرح الرغيب : الواسع .
٦ التعريف : إيه سيدي .

وأوقدت وجعلت ، وفعلت فعلتك التي فعلت ، أن تترفق بذماء ، أو ترد بنغبة ماء ، أرماق ظماء ، وتتعاهد المعاهد بتحية يُشَمّ منها شذا أنفاسك ، أو تنظر إلينا على البعد بمُقْلة حَوْراء من بياض قرطاسك وسواد أنقاسك ، فربما قنعت الأنفسُ المحبة بخيال زُور ، وتعللت بنوالٍ منزور ، ورضيت لما لم تَصِدِ العنقاء بزرزور :

يا من ترحّلَ والنسيمُ لأجْلِهِ تشتاقُ إن هبَّت شذا ريّاها
تحيي النفوس إذا بعثت تحيـة فإذا عزمت اقرأ ﴿ومن أحياها﴾ [1]

ولئن أحييت بها فيما سلف نفوساً تفديك — والله تعالى إلى الخير يهديك — فنحن نقول معشر مريديك : ثَنِّ ولا تجعلها بيضة الديك [2] ، وعذراً فإنّي لم أجْتَرِ على خطابك بالفقر الفقيرة ، وأدللت لدى حجراتك برفع العقيرة ، لا عن نَشاط بعثت مَرْمُوسَه ، ولا اغتباط بالأدب تغري بسياسته سُوسَه ، وانبساط أوحى إليَّ على الفترة ناموسَه ، وإنّما هو اتفاق جرَّته نفثة المَصْدور ، وهِناء الجربِ المجدور ، وخارق لا مخارق [3] ، فثم قياس فارق ، أو لحن غنى به بعد الممات [4] مفارق ، والذي سَبّبه [5] ، وسوّغ [6] منه المكروه وحبّبه ، ما اقتضاه الصنوُ يحيى — مدَّ الله تعالى حياته ، وحَرَس من الحوادث ذاته — من خطاب ارتشف به لهذه القريحة بُلالتها ، بعد أن رضي عُلالتها ، ورشح إلى الصِّهر الحضرمي سلالتها ، فلم يسع إلا إسعافه ، بما أعافه ، فأمليت مُجيباً ، ما لا

١ إشارة إلى الآية الكريمة : ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً (المائدة : ٣٢) .
٢ من قول بشار :
قد زرتنا مرة في العمر واحدة ثني ولا تجعليها بيضة الديك
٣ التعريف : وإن تعلل به مخارق .
٤ التعريف : بعد البعد .
٥ التعريف : والذي هيأ هذا القدر وسببه .
٦ التعريف : وسهل .

يـُعدّ في يوم الرهانِ نجيباً ، وأسمعتُ وَجيباً ، لما ساجلتُ بهذه الترّهات سحراً عجيباً ، حتى إذا ألِفَ القلمُ العريان سَبْحَه ، وجمح برذون الغَرارة فلَمْ أُطِقْ كبْحَه ، لم أُفق من غَمْرة غلوّه ، وموقف متلوّه ، إلا وقد تحيّز إلى فئتك معتزّاً بل معترّاً ، واستقبلها ضاحكاً مُفْترّاً ، وهشّ لها برّاً ، وإن كان لونُهُ من الوَجَل[1] مُصْفرّاً ، وليس بأوّل من هجر ، في التماس الوصل ممّن هَجَر ، أو بعث التمر إلى هَجَر ، وأي نسب بيني اليوم وبين زخرف الكلام ، وإجالة جياد الأقلام ، في محاورة الأعلام ؟ بعد أن حال الجَرِيض ، دون القريض[2] ، وشغل المريض ، عن التعريض ، واستولى[3] الكسَل ، ونصلت الشعرات البيض كأنّها الأسَل ، تروع برقط الحيات ، سِرْبَ الحياة ، وتطرق بذوات الغُرَرِ والشّيات[4] ، عند البيات ، والشيب الموت العاجل ، وإذا ابيضّ زَرْعٌ صبّحته المناجل ، والمعتبر الآجل ، وإذا اشتغل الشيخ بغير مَعاده ، حُكم في الظاهر بإبعاده ، وأسره في مَلَكَةِ عاده ، فأغضِ أبقاك الله واسمح ، لمن قَصّر عن المَطْمح ، وبالعين الكليلة فالمح ، واغتنم لباسَ ثوب الثواب ، واشْفِ بعض الجوى بالجواب ، تولاك الله تعالى فيما استضفت وملكت ، ولا بعدت ولا هلكت ، وكان لك أيةً سلكت ، ووَسَمك من السعادة بأوضح السمات ، وأتاح لقاءك من قبل الممات ، والسلام الكريم يعتمد جلال ولدي ، وساكن خَلَدي ، بل أخي وإن عتبته[5] وسيدي ، ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

قلت : هذه الرسالة الرافلة في حلل البلاغة لم أر مثلها ولم أقف عليه ، فرحم الله تعالى لسان الدين ووجّه سحائب الرحمة إليه ، فلقد كان آيةَ الله في النظم

١ التعريف : الخجل .
٢ هذا مثل ؛ والجريض : ما يعترض في الحلق من غصص ، أي حال العائق دون قول الشعر ، ويتصل بقصة عبيد بن الأبرص ويوم البؤس عند النعمان .
٣ التعريف : وغلب حتى .
٤ ذوات الغرر والشيات هي الخيل .
٥ التعريف : وإن اتقيت عتبه .

والنثر وجميع العلوم على اختلافها .

٩٤ ــ وكما خاطب الولي ابن خلدون خاطب أخاه أبا زكريا يحيى حسبما قال في بعض كتبه : وممّا خاطبت به الفقيه أبا زكريا ابن خلدون ، لما ولي الكتابة عن السلطان أبي حمّو سلطان تلمسان من بني زيان واقترن بذلك نصر وصنع غبطته به وأشدتُ به قصد تنفيقه وإنهاضه لديه : «نخص الحبيب الذي هو في الاستظهار به أخ وفي الشفقة عليه وَلَد ، والولي الذي ما بعد قرب مثله أمل ولا على بُعْده جَلَد ، والفاضل الذي لا يخالف في فضله ساكن ولا بلد ، أبقاه الله تعالى وفاز فوزه وعصمته لها من توفيق الله سبحانه عمد ، ومورد سعادته المسوغ لعادته لا غور ولا ثمد ، ومدى إمداده من خزائن إلهام الله تعالى وسداده ليس له أمد ، وحمى فرح قلبه بمواهب من ربه أن يطرقه كمد .

«تحية مُحِلّه ، من صميم قلبه بمحلّه ، المنشىء رواق الشفقة ، مرفوعاً بعمد المحبّة والمِقَة ، فوقَ ظعنه وحلّه ، مؤثره ومُجِلّه ، المعتني بدقّ أمره وجِلّه ، ابن الخطيب ، من الحضرة الجهادية غرناطة ، صان الله تعالى خلالها ، ووقى هجير هجر الغيوم ظلالها ، وعمر بأسُود الله تعالى أغيالها ، كما أغرى بمن كفر بالله تعالى صيالها ، ولا زائد إلاّ منن من الله تعالى تَصُوب ، وقوة يسترد بها المغصوب ، ويخفض الصليب المنصوب ، والحمد لله تعالى الذي بحمده يُنال المطلوب ، وبذكره تطمئن القلوب ، ومودتكم المودة التي غذتها ثُديُّ الخلوص بلبانها ، وأحلتها حلائل المحافظة بين أعينها وأجفانها ، ومهدت مواتُّ أخواتها الكبرى أساسَ بنيانها ، واستحقت ميراثها مع استصحاب حال الحياة إن شاء الله تعالى واتصال زمانها ، واقتضاء عهود الأيام بيمنها وأمانها ، ولله درُّ القائل :

فإن لم يكنْها أو تكنْه فإنّه ... أخوها غذَتْه أمُّه بلبانها [1]

[1] البيت لأبي الأسود الدؤلي (ديوانه في نفائس المخطوطات ٢ : ٣٧) وكان له غلام يتاجر إلى الأهواز ويشرب الخمر .

« وصل الله تعالى ذلك من أجله وفي ذاته ، وجعله وسيلة إلى مرضاته ، وقربة تنفع عند اعتبار ما روعي من سنن الجبار ومفترضاته .

« وقد وصل كتابكم الذي فاتح بالريحان والرَّوْح ، وحلَّ من مرسوم الولاء محل البَسْملة من اللوح ، وأذن لنوافح الثناء بالبوح ، يشهد عدله بأنَّ البيان يا آل خلدون سكن من مثواكم دارَ خلود ، وقدح زنداً غير صَلود ، واستأثر من محابركم السيالة ، وقُضُب أقلامكم المبادة الميالة ، بأبٍ مُنْجب وأم ولود ، يقفو شانيه غير المشنوّ ، وفصيله غير الجَرِبِ ولا المهنوّ ، من الخطاب السلطاني سفينة مَنُوح[1] ، إن لم نقل سفينة نوح ، ما شئت من آل أزواج ، وزُمَر من الفضل وأفواج ، وأمواج كرم تطفو فوق أمواج ، وفنون بشائر ، وإهطاع قبائل وعشائر ، وضَرَبٍ للمسرات أعيا الشائر ، فللّه هو من قلم راعى نَسَبَ القنا فوصل الرحم ، وأنجد الوشيج والملتحم ، وساق بعصاه من البيان الذودَ المزدحم ، وأخاف من شَذَّ عن الطاعة مع الاستطاعة فقال ﴿لا عاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أمْرِ اللهِ إلاَّ مَنْ رَحِم﴾ (هود : ٤٣) ولو لم يوجب الحقَّ بَرْقه ورعده ، ووعيده ووعده ، لأوجبه يمنه وسعده ، فلقد ظهرت مَخايل نُجْحه ، علاوة على نصحه ، ووضحت محاسن صُبْحه ، في وحشة الموقف الصعب وقبحه ، وصلَ الله تعالى له عوائد منحه ، وجعله إقليداً كلّما استقبل باب أمل وكَّله الله تعالى بفَتْحه .

« أمّا ما قرّره ولاؤكم من حب زكا على حبّة القلب حبُّه ، وأنبته النباتَ الحسنَ ربُّه ، وساعده من الغمام سَكْبُه ، ومن النسيم اللدْن مَهَبُّه ، فرسم ثبت عند الوليّ نظيره ، ومن غير معارض يَضيره ، وربما أربى بتذييل مزيد ، وشهادة ثابت ويزيد[2] ، ولمَ لا يكون ذلك ، وللقلب على القلب شاهد ؟ وكونها

١ المنوح : العطايا .

٢ ثابت ويزيد : من أعلام التابعين الثقات كأن تقول : ثابت البناني ويزيد بن الأسود ؛ ثم يلمح إلى قول جميل :

إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي ... من الوجد قالت ثابت ويزيد

أجناداً مُجنَّدة لا يحتاج تقريره إلى ماهد وجَهْد جاهد ، ومودّة الأخوة سبيلها لاحب ، ودليلُها للدعوة الصادقة مصاحب ، إلى ما سبق من فضل ولقاء ، ونظافة سقاء ، واعتقاد ، لا يُرَاع سِرْبُه بذئب انتقاد ، واجتلاء شهاب وقَّاد ، لا يحوج إلى إيقاد ، إنّما عاق عن مُواصلة ذلك نوًى شَطٌّ منها الشطَن ، وتشذيب لم يتعين معه الوطن ، فلمّا تعين ، وكاد الصبحُ أن يتبين ، عاد الوَميضُ دَيْجوراً ، والثماد بحراً مسجوراً ، إلى أن أعلق الله تعالى منكم اليدَ بالسبب الوثيق ، وأحلَّكم مَنْجَى نيق[1] ، لا يخاف من منجنيق ، وجعل يراعكم لسعادة موسى[2] معجزة تأتي على الحبر بالعيان ، فتخرّ لثعبانها سَحَرَة البيان :

أيحيى سقى حيثُ لُحْتَ الحيا ... فَنعمَ الشعاب ونعمَ الوكون
وحيّا يراعك مِنْ آية ... فقد حرّك القومَ بعد السكون
دعوتَ لخدمة مُوسى عصاه ... فجاءت تَلَقَّفُ ما يأفكُون
فأذعنَ من يَدَّعي السحر رغْماً ... وأسْلَم من أجلها المشركون
وساعدكَ السعْدُ فيما أردت ... فكانَ كما يَنْبغي أن يَكون

«فأنتم أولى الأصدقاء بصلَة السبب ، ورَعْي الوسائل والقُرَب ، أبقاكم الله تعالى وأيدي الغبطة بكم عالية ، وأحوال تلكم الجهات بدرككم المهمات حالية ، وديَمُ المسرات من إنعامكم المُبِرّات على معهود المبرات متوالية .

«وأمّا ما تشوّفتم إليه من حال وليكم فأمل متقلص الظل ، وارتقابٌ لهجوم جيش الأجلِ المطلّ ، ومُقام على مساورة الصِّلّ ، وعمل يكذب الدعوى ، وطمأنينة تنتظر الغارة الشعْوا ، ويد بالمذخور تفتح ، وأخرى تجهد وتمنح ، ومرض يزور فيثقل ، وضعف عن الواجب يعقل ، إلاّ أن اللطائف تستروح ،

١ النيق : الطويل من الجبال .
٢ موسى : هو السلطان أبو حمو .

والقلب من باب الرجاء لا يبرح ، وربما ظفر البائس ، ولم تطّرد المقايس ، تداركنا الله تعالى بعفوه ، وأوردنا من منهل الرضى والقبول على صفوه ، وأذن لهذا الحرق في رَفْوِه .

« وأمّا ما طلبتم من انتساخ ديوان ، وإعمال بنان في الإتحاف ببيان ، فتلك عهود لديَّ مهجورة ، ومعاهد لا مُتَعَهَّدة ولا مَزُورة ، شغل عن ذلك حوضٌ يعلو لجبه ، وحرص يُقْضَى من لغط المانح عجبُه ، وهول جهادٍ تَساوى جُماداياه وَرَجَبُه ، فلولا التماسُ أجر ، وتعلُّل بربح تَجْر ، لقلتَ : أهلاً بذات النحيين [1] ، فلئن شكت ، وبذلت المَصُون بسبب ما أمسكت ، فلقد ضحكت فيَ الباطن ضعف ما بكت ، ونستغفر الله تعالى من سوء انتحال ، وإيثار المزاح بكل حال ، وما الذي ينتظر مثلي ممّن عرف المآخذ والمتارك ، وجَرَّب لما بَلا المبارك ، وخبر مساءة الدنيا الفارك ؟

« هذا أيّها الحبيبُ ما وسعه الوقت الضيق ، وقد ذهب الشباب الرَّيّق ، فليسمح فيه معهود كمالك ، جَعَل الله تعالى مطاوعة آمالك ، مطاوعة يمينك لشمالك ، ووطّأ لكَ موطّأ العزّ بباب كل مالك ، وقرن النُّجح بأعمالك ، وحفظك في نفسك وأهلك ومالك ، والسلام » انتهى .

٩٥ — ومن مخاطبات لسان الدين لصاحب العلامة أبي القاسم ابن رضوان :

« قد كنت أُجْهِدُ في التماس صنيعة ... نفساً شهابُ ذكائها وقّادُ
وأقولُ لو كان المخاطب غيركم ... عِندَ الشدائد تَذهبُ الأحقادُ

« سيدي ، أبقاكم الله تعالى علَم فضل وإنصاف ، ومجموع كمال أوصاف : كلام النيّة قصير ، والله تعالى بحسنات الأقوال والأفعال بصير ، وإليه بعد هذا الخباط كلّ رجعى منا ومصير ، وليس لنا إلاّ هو مولّى ونصير ، وهذا الرجل سيدي الخطيبُ

[1] يكني عن كثرة الشغل لقولهم في المثل : « أشغل من ذات النحيين » والنحي : ظرف السمن .

أبو عبد الله ابن مرزوق – جبره الله تعالى – بالأمس كنّا نقف ببابه ، ونتمسك بأسبابه ، ونتوسل إلى الدنيا به ، فإن كنّا قد عرفنا خيراً وجبت المشاركة ، أو كفافاً تعينت المتاركة ، أو شرّاً اهتبلت غرةَ الهدى الأنفسُ المباركة ، واتصفتْ بصفة من يُعصى فيسمح ، ويُسأل فيمنح ، ويعود إلى قبيح بالفعل الجميل ، ويُخسِبُ يَدَ التأميل ، ومع هذا فلم نَدْرِ إلاّ خيراً كَرُمَ منه المورد والمصرف ، ومن عرف حجةٌ على من لا يعرف ، وأنتم في الوقت سراج علم لا يخبو سَناه ، ومجموع تخلّقٍ عرفنا منه ما عرفناه ، وهذه هي الشهرة التي تُغتنم إذا سفرت ، والهنة التي تُحْبَرَ عليها النفسُ إذا نفرت ، حتى لا تجد بعونِ الله تعالى عارضاً يَعُوقها عن الخيرِ ، وسبيل الكمال الأخير ، والأجر في استيفاء كتاب الشفاعة ، وتحرّي المقاصد النفاعة ، وتنفيق البضاعة ، قد ضمنه مَنْ وَعَد بقيام الساعة ، والجزاء على الطاعة وغير الطاعة ، وهذه المشاركة تسجيل لفضلكم قِبَلي ، وهي في الحقيقة لي ، فكيف والله تعالى يرى عملكم وعملي ، والمتروك حقير ، والوجود إلى رحمة من رحمات الله تعالى فقير ، والسلام » انتهى .

٩٦ – ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى قوله في مخاطبة شيخ العرب مبارك بن إبراهيم رحمه الله تعالى[١] :

« ساحاتُ دارِكَ للضيافِ مَبارِكُ — وبضوء نار قِراكَ يُهْدَى السالكُ
ونوالكَ المبذُولُ قد شملَ الورى — طرّاً ، وفضلك ليسَ فيه مشاركُ
قلْ للذي قال الوجودُ قد انطوى — والبأسُ ليسَ لَهُ حسامٌ فاتكُ
والجودُ ليسَ لَهُ غمامٌ هاطلٌ — والمجدُ ليسَ لهُ همامٌ باتكُ[٢]
جمع الشجاعةَ والرجاحةَ والندى — والبأسَ والرأيَ الأصيل مُباركُ

١ وردت هذه الرسالة في الاستقصا ٤ : ١٣ – ١٥ .
٢ الباتك : القاطع .

للدين والدُّنيــا وللشِّيَم العُــلا والجودِ إن شحَّ الغمامُ السافكُ
عند الهياج ربيعةُ بن مُكَدَّمٍ في الفضل والتقوى الفُضَيلُ ومالكُ [1]
ورث الجلالةَ عَنْ أبيه وجَدّه فكأنّهمْ ما غاب منهم هالكُ
فجيــاده للآمـلين مراكبٌ وخِيامُـهُ للقــاصـدين أرائكُ
فإذا المعالي أصبحَتْ مملوكةً أعناقُهــا بــالحقِّ فهوَ المالكُ
يا فارسَ العربِ الذي من بيته حَرَمٌ لهـا حجٌّ به ومناسكُ
يا من يُبَشَّر باسمه قصَّادُهُ فلهمْ إليهِ مساربٌ ومسالكُ
أنت الذي استأثرتُ فيك بغبطتي وسِواكَ فيهِ مآخذٌ ومتاركُ
لا زلتَ نوراً يهتدي بضيائه مَنْ جَنَّهُ للروع ليلٌ حالكُ
ويخصُّ مجدَكَ من سلامي عاطرٌ كالمسك صاكَ به الغوالي صائكُ [2]

الحمد لله تعالى الذي جعل بيتك شَهيراً ، وجعلك للعرب أميراً ، وجعل اسمك فالاً ، ووجهك جَمالاً ، وقربك جاهاً ومآلاً ، وآلَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم لك آلاً ؛ أُسلم عليك يا أميرَ العربِ وابنَ أمرائها ، وقُطْبَ سيادتها وكبرائها ، وأُهنيك بما منحك الله تعالى من شهرةٍ تبقى ، ومكرمةٍ لا يضلُّ المتصفُ بها ولا يشقى ، إذ جعل خيمتك في هذا المغرب على اتساعه ، واختلافِ أشياعه ، مأمَناً للخائف ، على قياس [3] المذاهب والطوائف ، وصَرَفَ الألسنة إلى مدحك والقلوبَ إلى حبِّك ، وما ذلك إلا لسريرة لك عند ربّك ، ولقد كنت أيام تجمعني وإيّاكَ المجالسُ السلطانية على معرفتك متهالكاً ، وطوع الأمل سالكاً ، لما يلوحُ لي على وجهك من سيما المجد والحياء ، والشِّيَم الدالة على العلياء ، وزكاء الأصول وكرم الآباء ، وكان والدي — رحمه الله تعالى — قد عينَ للقاء

١ الفضيل بن عياض ومالك بن دينار (وقد يكون : مالك بن أنس) .
٢ الغوالي : الطيوب ، مفردها غالية ؛ صاك : خلط ومزج .
٣ الاستقصا : على كثرة .

خال السلطان قريبكم لما توجه في الرسالة إلى الأندلس نائباً في تأنيسه عن مخدومه ، ومنوّهاً حيثُ حلّ بقدومه ، واتصلت بعد ذلك بينهما المُهاداة والمعرفة ، والوسائل المختلفة ، فعظُم لأجل هذه الوسائل شوقي إلى التشرف بزيارة ذلك الجناب الذي حُلولُه شرف وفخر ، ومعرفته كنز وذُخْر ، فلمّا ظهر الآن لمحل الأخ الكذا القائد فلان اللحاقُ بك ، والتعلّق بسببك ، رأيت أنّه قد اتصل بهذا الغرض المؤمل بعضي والله تعالى ييسر في البعض ، عند تقرير الأمنِ وهدنةِ الأرض ، وهذا الفاضل بركة حيثُ حلّ لكونه من بيت أصالة وجهاد ، وماجداً وابنَ أمجاد ، ومثلك لا يُوصَى بحسن جواره ، ولا يُنَبه على إيثاره ، وقبيلُكَ في الحديث – من العرب – والقديم ، وهو الذي أوجب لها مزيّةَ التقديم ، لم يفتخر قطُّ بذهبٍ يجمع ، ولا ذخرٍ يُرْفَع ، ولا قصر يبنى ، ولا غَرْس يُجْنَى ، إنّما فخرها عدوّ يُغْلَب ، وثناء يجلب ، وجزورٌ ينحر ، وحديث يذكر ، وجود على الفاقة ، وسماحة بحسب الطاقة ، فلقد ذهب الذهب ، وفني النشَب ، وتمزقت الأثواب ، وهلكت الخيلُ العِرَاب ، وكلُّ الذي فوق التراب تراب ، وبقيت المحاسنُ تروى وتنقل ، والأعراضُ تجلى وتُصْقَل ، ولله درُّ الشاعر إذ يقول :

وإنّما المرءُ حديثٌ بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى [1]

هذه مقدمة إن يسّرَ الله تعالى بعدها لقاء الأمير ، فيجلي اللسان عمّا في الضمير :

ومدحي عُلى الأمْلاك مدح ، وإنّما   رأيتكَ منها فامتدحت على وسمي
وما كنتُ بالمهدي لغيرك مدحتي   ولو أنّه قَدْ حلّ في مفرق النجمِ »

[1] من مقصورة ابن دريد (ص : ١١٥) .

٩٧ ـــ ومن ذلك ما خاطب به شيخه الخطيب سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق ، وهوَ :

« راشَ زماني وبَرَى نبـلَهُ   فكنتَ لي من وقعها جُنّهْ
ولو قهرتَ الموتَ أمَّنتني   منهُ وأدخلتنيَ الجنّهْ
فكيفَ لا أنشرها منَّـــةً   قد عَرَفَتْها الإنسُ والجِنّهْ

« بماذا أُخاطب به تلك الجلالة ، فيتيسر الخطاب وتحصل الدَّلالة ، أبسيدي ويشركني فيه ، من قال لا إله إلاّ الله بفيه ؟ أو بروح حياتي ، ومقدم ماهية ذاتي ، وذخري الكبير الكثير ، لا بل فلَكي الأثير ، وهو تضييق على الولد والأهل ، وتعدي المراتب المحدودة من الجهل ، فلم يبق إلاّ الإشارة الخارجة عن وظائف اللسان ، وهي بعض دلالات الإنسان ، أفدت الإكسير ، وجبرت الكسير ، ورويت يا أبا العلا [١] التيسير ، وغمرت بالكرم وأمن حمام الحرم الظعن والمسير ، فمن رام شكر بعض [٢] أياديك فلقد شد حقائب الرحال ، إلى نيل المحال ، والحقّ أن نَكِلَ جزاك ، لمن جعل إلى المجد اعتزاك ، ونولي شكرك وثناك ، إلى مَن عمر بما يرضيه من الرفق بالخلق وإقامة الحق إنَاك ، وندعو منك بالبقاء إلى الروض المَجُود ، وغمام الجود ، وإمام الرُّكَّع السُّجود ، لا بل لنور الله تعالى المشرق على التهائم والنُّجود ، ورحمته المبثوثة أثناء هذا الوجود .

« وليعلم سيدي أن النفس طمّاعة جمّاعة ، وسراب آمالها بحارُه لماعة ، فلا تفيق من كد ، ولا تقف عند حد ، سيّما إذا لم يهذبها السلوك والتجريد ، ولم يَسرْ منها في عالم الغيب البريد ، ولا تجلت لها السعادة التي يجذب بها المراد ويشمّر لها المريد ، إلى أن يتأتّى عمّا دون الحق المَحيد ، ويصح التوحيد ،

---

١ ق : يا ابن العلاء .
٢ بعض : سقطت من ق .

وقد مثلتِ الآن خصماً ، توسعُ ظهر استظهاري بالتسليم قَصْماً ، وتقول : المال عديلي عند القيمة ، وطبيبي في الأحوال السقيمة ، وهو نتيجة كدّي عند الأقيسة العقيمة ، ومن استخلصني على شرفي إذا تفاضلت الجواهر ، وتبينت للحق المظاهر ، وتعينت المراتب التي يقتعدها على رأي البراهمة النور الاصفهندي والنور القاهر ، فخلاصُ المال طَوْعُ يديه ، وهو كما قال الله تعالى أهْوَنُ عليه ، فألاطفها ، حتى تلين مَعاطفها ، وأُخادعها ، حتى تلوي أخادعها ، وأقول : قد وقع الوعد ، وأشرق السعد ، ولان الجعد ، وسكن الرعد ، ولله تعالى الأمر من قبلُ ومن بعد ، فتجيبني : العمر المنام ، وأيام الجاه والقدرة قد يحق لها الاغتنام ، وهمُّ العاقل إلى وقته الحاضر مصروف ، و « إذا لم يغير حائطه » مثل معروف ، وفي الوقت زبون يرجى به استخلاصُ الحقوق ، ويُستبعد وقوع العقوق ، فإن رأى مولاي أن يَشْفَع المنة ، ويقرع باباً ثانياً من أبواب الجنّة ، قبل أن يشغل شاغل ، أو يكدّر الأكلَ والشربَ وارشٌ أو واغل[1] ، أو يثوب للمتعدي نظر في اللجاج ، أو يُدَسَّ له ما يحمله على الاحتجاج ، — و « أو » متسعٌ مَناطها ، فسيحٌ استنباطها ، كثيرٌ هياطها ومياطها — فهو تمام صنيعته التي لم ينسج على منوالها الأحرار ، ولا اهتدت إلى حسنتها الأبرار ، ولا عرف بدرُ مجدها السِّرار ، فإليه كان الفرار ، ولله تعالى ثم له خَلَصَ الاضطرار ، ويستقر تحت دخيله القَرار ، وتطمئن الدار ، فإنّ ما ابتدأ به من عزّ ضَرَبَ على الأيدي العادية منه حكمُ الحكام ، وفارع الهِضاب والآكام ، على ملإ ومجمع ، وبمرأى من الخلق ومَسْمع ، يقتضي اطّراد قياس العزّة القعساء ، وسعادة الإصباح والإمساء ، وظهورَ درجات الرجال على النساء ، فهو جاهٌ حارت فيه الأوهام وهذه أذياله ، ومن ركب حقيقَةَ أمرها هانَ عليه خيالُه ، والمال ماله ، والعيال عياله ، والوجود سريع زيالُه ، والجزاء عند الله تعالى مكياله ،

[1] الوارش : المتطفل على الآكلين ؛ والواغل : المتطفل على الشاربين ؛ وفي ق : واش .

وعروض المغصوب باقية الأعيان[1] ، مستقلّة الشجر قائمة البنيان ، تمنع عن شرائها قاعدة الأديان ، وغيرها من مكيل وموزون ، بين مأكول ومخزون ، والكتب مُلْقاة بالقاع ، مطّرحةٌ بأخبث البقاع ، فإن تأتّى الجَبْر ، وإلاّ فالصَّبْر ، على أنّ وَعْدَ عمادي لا يفارقُ الإنجاز ، ومكرمته التي طوّقها قد بلغت الشام والحجاز ، وحقيقة التزامه تباين المجاز ، وآية مجده تستصحب الإعجاز ، ولله در إبراهيم بن المهدي يخاطب المأمون ، لما أكذب في العفو عنه الظّنون :

وهَبْتَ مالي ولم تبخل عليّ بِـهِ   وقبلَ ذلك ما إن قد وهبت دمي[2]

وقد كانت هذه المنقبة غريبة فعززتَها بأختها الكبرى ، وفريدةً فجئت بأخرى ، وشفعت وتْرا ، أبقاك الله تعالى لتخليد المناقب ، وإعلاء المراتب ، وجعل أخمص نعلك تاجاً للنجم الثاقب ، وتكفّل لك في النفس والولد بحسن العواقب :

آمين آمين لا أرضى بواحِدة   حتى أُضيف إليها ألف آمينا[3]

وأما تنبيه سيدي على إنشاء رزق ، وتقرير رفد ورفق ، فلا أُنبه حاتماً وكعباً ، أن يملأ قعباً ، لمن خاض بحراً أو ركب صعباً ، هذا أمر كفانيه الكافي ، وداء كَوَخزٍ[4] الأشافي ، أذهبه الشافي ، والسلام » انتهى .

٩٨ — ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان السلطان قوله :

« هذا ظهيرٌ كريم ، مُضَمَّنُهُ استجلاء لأمور الرعية واستطلاع ، ورعاية

١ يشير لسان الدين هنا إلى ما أخذ منه بالأندلس ، من عروض ومكيلات وموزونات وكتب . . . إلخ ؛ ويقول إن أعيان العروض (من شجر ومبان) لا تزال شاهدة .

٢ الأغاني ١٠ : ١٢٥ وروايته : « رددت مالي ولم تمنن علي به ؛ وقبل ردك مالي . . . إلخ » .

٣ انظر المجلد ١ : ١٧٥

٤ ق : لوخز ؛ والأشافي : جمع إشفى وهو المخرز .

كرمت منها أجناس وأنواع ، وعدل بَهَر منه شعاع ، ووصايا يجب لها إهطاع ، أصدرناه للفقيه فلان لما تقرر لدينا دينه وعدله وفضله ، رأينا أنه أحقّ مَنْ نقلّده الهمّ الأكيد ، ونرمي به من أغراض البرّ الغرضَ البعيد ، ونستكشف به أحوالَ الرعايا حتى لا يغيب عنا شيء من أحوالها ، ولا يتطرق إليها طارق من أهوالها ، وينهي إلينا الحوادث التي تنشأ فيها إنْهاء يتكفل بحياطة أبشارها وأموالها .

« وأمرناه أن يتوجه إلى جهة كذا حاطها الله تعالى فيجمع الناس في مساجدهم ، ويندبهم من مشاهدهم ، ويبدأ بتقرير غرضنا في صلاح أحوالهم ، وإحساب أموالهم [1] ، ومكابدتنا المشقة في مداراة عدوّهم الذي نعلم من أحواله ما غاب عنهم دفعه الله تعالى بقدرته ، ووقى نفوسهم وحريمهم من مَعَرّته ، ولمّا رأينا من انبتات الأسباب التي تؤمل ، وعجز الحيل التي كانت تعمل ؛ ويستدعي إنجادهم بالدعاء ، وإخلاصهم فيه إلى رب السماء ، ويسأل عن سيرة القوّاد ، وولاة الأحكام بالبلاد ، فمن نالته مظلمة فليرفعها إليه ، ويقصّها عليه ، ليبلغها إلينا ، ويوفدها مقررة الموجبات لدينا ، ويختبر ما افترض صدقةً للجبل ، وما فضل عن كريم ذلك العمل ، ليعيّن إلى بناء الحصن بجبل فاره يسّرَ الله تعالى لهم في إتمامه ، وجعل صدقتهم تلك مسكة ختامه ، وغيره ممّا افترض إعانةً للمسافرين ، وإنجاداً لجهاد الكافرين ، فيعلم مقداره ، ويتولى اختباره [2] ، حتى لا يجعل منه شيء على ضعيف ، ولا يُعدل به لمشروف عن شريف ، ولا تقع فيه مضايقة ذي الجاه ، ولا مُخادعة غير المراقب لله ، ومتى تحقّق أن غنياً قُصّر به عن حقه ، أو ضعيفاً كلف منه فوق طَوْقه ، فيجبر [3] الفقير من الغني ،

---

١ ق : آمالهم .

٢ ق : اختياره .

٣ ق : فيجبر .

وَيَجري من العدلِ على السَّنن السَّوِي ، ويعلم الناس أنَّ هذه المعونة[1] وإن كانت بالنسبة إلى محل ضرورتها يسيرة ، وأن الله تعالى يضاعفها لهم أضعافاً كثيرة ، فليست ممّا يلزم ، ولا من المعاونِ التي بتكرّرها يُجزَم ؛ وينظر في عهود التوفيق فيصرفها في مصارفها المتبينة ، وطرقها الواضحة البينة .

« ويتفقّد المساجد تفقداً يكسو عاريها ، ويتمم منها المآرب تتميماً يُرْضي باريها ، ويندب الناس إلى تعليم القرآن لصبيانهم ، فذلك أصل أديانهم ، ويحذرهم المغيب على كلّ شيء من أعشارهم ، فالزكاةُ أخت الصلاة وهما من قواعد الإسلام ، وقد اخترنا لهم بأقصى الجدّ والاعتزام ، ورفعنا عنهم رسمَ التعريف نظراً إليهم بعين الاهتمام ، وقدمنا الثقات لهذه الأحكام ، وجعلنا الخَرْصَ[2] شرعيّاً في هذا العام ، وفيما بعده إن شاء الله تعالى من الأعوام .

« ومن أهم ما أسندناه إليه ، وعوّلنا فيه عليه ، البحث بتلك الأحواز عن أهل البدع والأهواء ، والسائرين من السبيل على غير السّواء ، ومن يُنْبَزُ بفساد العَقْدِ ، وتحريف القصد ، والتلبس بالصوفية وهو في الباطن من أهل الفساد ، والذاهبين إلى الإباحة وتأويل المعاد ، والمؤلفين بين النساء والرجال ، والمتبعين لمذاهب الضلال ، فمهما عثر على مُطَوَّق بالتهمة ، منبز بشيء من ذلك من هذه الأمة ، فليشد ثقافه شدّاً ، ويسد عنه سبيل الخلاص سدّاً ، ويسترعي في شأنه الموجبات ، ويستوعب الشهادات ، حتى ينظر في حَسْم دائه ، ويعاجل المرض بدوائه ، فليتولّ ما ذكرنا نائباً بأحسن المناب ، ويقصد وجه الله تعالى راجياً منه جزيل الثواب ، ويعمل عملَ مَنْ لا يخاف في الله لومة لائم ليجد ذلك في موقف الحساب .

« وعلى من يقف عليه من القوّاد والأشياخ والحكام أن يكونوا معه يداً واحدة

١ المعونة : الضريبة ، والجمع معاون .
٢ الخرص : تخمين الكرم والنخيل خاصة ؛ وفي ق : الحرص .

على ما حررنا في هذه الفصول ، من العمل المقبول ، والعدل المبذول ، ومن قصر عن غاية من غاياته ، أو خالف مقتضًى من مقتضياته ، فعقابه عقاب من عصى أمر الله وأمرنا فلا يلم إلاّ نفسه التي غرّتْه ، وإلى مصْرَع النكير جرّته ، والله تعالى المستعان » انتهى .

٩٩ — ومن ذلك ما خاطب به تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني لما قصدها عقب ما شرع في جواره وتوسّل إلى أغراضه بذلك إلى ولده رحم الله تعالى الجميع :

« السلام عليك ثم السلام ، أيّها المولى الهمام ، الذي عرف فضله الإسلام ، وأوجبت حقّه العلماء الأعلام ، وخفقت بعزّ نصره الأعلام ، وتنافست في إنفاذ أمره ونهيه السيوفُ والأقلام . السلام عليك أيّها المولى الذي قسم زمانه بين حكم فَصْل ، وإمضاء نَصْل ، وإحراز خَصْل ، وعبادة قامت من اليقين على أصْل . السلام عليك يا مقرر الصدقات الجارية ، ومُشْبع البطون الجائعة وكاسي الظهور العارية ، وقادح زناد العزائم الوارية ، ومُكَتِّب الكتائب الغازية في سبيل الله تعالى والسرايا السارية . السلام عليك يا حجّة الصبر والتسليم ، وملتقى أمر الله تعالى بالخلق المرضي والقلب السليم ، ومُفَوّض الأمر في الشدائد إلى السميع العليم ، ومُعْمِل البنان الطاهر في اكتتاب الذكر الحكيم . كرّم الله تعالى تربتك وقدّسها ، وطيب روحك الزكية وآنسها ، فلقد كنت للدهر جمالاً ، وللإسلام ثمالاً ، وللمستجير مجيراً ، وللمظلوم وليّاً ونصيراً ؛ لقد كنت للمحارب صدراً ، وفي المواكب بدراً ، وللمواهب بحراً ، وعلى العباد والبلاد ظلاً ظليلاً وستراً ؛ لقد فَرَعَتْ أعلام عزّكَ الثنايا ، وأجزلت همّتك لملوك الأرض الهدايا . كأنّك لم تعرض الجنود ، ولم تنشر البنود ، ولم تبسط العدل المحدود ، ولم توجد الجود ، ولم تزين الرُّكّع السُّجود ، فتوسدت الثرى ، وأطلت الكرى ، وشربت الكأس التي يشربها الورى ، وأصبحت ضارع الخدّ ، كليل الحدّ ،

سالكاً سَنَن الأب والجَد ، لم تجد بعد انصرام أجلك ، إلا صالح عملك ، ولا أصبحت لقبرك ، إلا رابح تجرك ، وما أسلفت من رضاك وصبرك ، فنسأل الله تعالى أن يؤنس اغترابك ، ويَجُودَ بسحاب الرحمة ترابك ، وينفعك بصدق اليقين ، ويجعلك من الأئمة المتقين ، ويعلي درجتك في عِلِّيِّين ، ويجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين.

« ولْيَهنك أن صَيَّر الله تعالى ملكك من بعدك ، إلى نير سعدك ، وبارق رَعْدك ، ومنجز وعدك ، أرْضَى ولدك ، وريحانة خَلَدك ، وشقّة نفسك ، والسَّرْحة المباركة من غَرْسك ، ونور شمسك ، وموصل عملك البر إلى رمسك ، فقد ظهر عليه أثر دعواتك ، في خلواتك وأعقابَ صلواتك ، فكلمتك والمنّة لله تعالى باقية ، وحسنتك إلى محل القبول راقية ، يرعى بك الوسيلة ، ويتمّم مقاصدك الجميلة ، أعانه الله تعالى ببركة رضاك على ما قلده ، وعمر بتقواه يومَه وغده ، وأبعد في السعد أمَدَه ، وأطلق بالخير يَدَه ، وجعل الملائكة أنصاره والأقدار عُدَدَه.

« وإنّني أيّها المولى الكريم ، البر الرحيم ، لما اشترّاني ، وراشني وبراني ، وتعبدني بإحسانه ، واستعمل في استخلاصي خط بنانه ، ووصية لسانه ، لم أجد مكافأة إلا التقرب إليك وإليه برثائك ، وإغراء لساني بتخليد عَلْيائك ، وتعفير الوَجْنة في حرمك ، والإشادة بعد الممات بمجدك وكرمك ، ففتحت الباب في هذا الغرض ، إلى القيام بحقّك المفترض ، الذي لولاه لاتصلت الغفلة عن أدائه وتمادت ، فما يبست الألسن ولا كادت ، متحيزاً بالسبق ، إلى أداء هذا الحق ، بادئاً بزيارة قبرك الذي هو رحلة الغرب ما نويته من رحلة الشّرق ، وما أعرضت عنه فأقطعه أثر مواقع الاستحسان ، وقد جمع بين الشكر والتنويه والإحسان ، والله سبحانه يجعله عملاً مقبولاً ، ويبلغ فيه من القبول مأمولاً ، ويتغمد مَنْ ضاجعته من سلفك الكرام بالمغفرة الصَّيِّبة ، والتحيات الطيبة ، فنعم الملوك الكبار ،

والخلفاء الأبرار ، والأئمة الأخيار ، الذين كرمت منهم السِّيَر وحسنت الأخبار ، وسعد بعزماتهم الجهادية المؤمنون وشقي الكفّار ، وصلوات الله تعالى عَوْداً وبدءاً على الرسول الذي اصطفاه واختاره فهو المصطفى المختار ، وعلى آله وأصحابه الذين هم السادة الأبرار ، وسلم تسليماً » انتهى .

١٠٠ — وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : وممّا خاطبت به الوزير المتغلب على الملك بالمغرب ما نصّه :

« لا ترجُ إلاّ اللهَ في شدَّةٍ وَثِقْ به فَهْوَ الذي أيّدَكْ
حاشاك أن ترجُوَ إلاّ الذي في ظلمةِ الأحشاء قد أوجدك
فاشكره بالرحمةِ في خَلْقِه ووجهك ابسطْ بالرضى أو يدك
واللهُ لا تُهْمِلُ أَلْطافُهُ قلادةَ الحقّ الذي قلّدك
ما أسعدَ الملكَ الذي سُسْتَهُ يا عُمرَ العدلِ ، وما أسعدك

« نخص الوزير الذي بهر سعده ، وحُمد في المضاء قصده ، وعول على الشيم التي اقتضاها مجده ، وأورثه إياها أبوه وجدّه ، الوزير عمر الكذا ابن الشيخ الكذا ، أبقاه الله تعالى ثابت القَدَم ، خافق العَلَم ، شهيراً حديثُ سعده في الأمم ، مثلاً خبرُ بسالته وجلالته في العرب والعجم .

« تحيّة معظّم مجده الكبير ، المستند إلى عهده الوثيق وحَسَبه الشهير ، المسرور بما سنّاه الله تعالى له من نُجْحِ التدبير ، والنصر العديم النظير ، وإنجاده إيّاه عند إسلام النصير ، وفراق القَبيل والعَشير ، ابن الخطيب ، واليدُ ممدودة إلى الله تعالى في صِلَة سعد الوزير — أبقاه الله تعالى — ودوام عصمته ، واللسان يطنب ويسهب في شكر نعمته ، والأمل متعلّق بأسبابه الكريمة وأذِمّته ، وقد كان شيّعه مع الشفقة التي أذابت الفؤاد ، وألزمت الأرق والسهاد ، على علمٍ بأن عناية الله تعالى عليه عاكفة ، وديَم آلائه لديه واكفة ، فإن الذي أقدره وأيده

ونصره ، وأنفذت مشيئته ما دبَّره ، كفيل بإمداده ، ومَلِيٌّ بإسعاده ، ومَرْجُوّ لإصلاح دنياه ومَعاده ، وفي أثناء هذه الأراجيف استولى على معظّمِ وزارته الجزَع ، وتعاورته الأفكار تأخذ وتَدَع ، فإنّي كما يعلم الوزير أعزّه الله تعالى منقطع الأسباب ، مستوحش من الجهة الأندلسية على بُعْد الجناب ، ومستعدى عليَّ بكوني من المعدودين فيمن لَهُ من الخلصان والأحباب ، فشرعت في نَظَرٍ أحْصُل منه على زوال اللبْس ، وأمان النفس ، واللحاق بمأمن يرعاني برعي الوزير ، بخلال ما يدبر الأمر مَنْ له التدبير ، ففي أثنائه ، وتمهيد أساس بنائه ، وَرَد البشير بما سَنّاه الله تعالى لسيدي وجابرِ كسري ، ومنصفي بفضل الله تعالى من دهري ، من الصنع الذي ظهر ، وراق نوره وبَهَر ، فأمنتُ وإن لم أكن ممّن جنَى ، وحفتني المسرات بين فرادى وثُنَى ، وانشرح بفضل الله تعالى صدري ، وزارتني النعم والتهاني من حيث أدري ولا أدري ، ووجهت الولد الذي شملته نعمةُ الوزير وإحسانه ، وسبق إليه امتنانه ، نائباً عني في تقبيل يده وشكر يده ، والوقوف ببابه ، والتمسك بأسبابه ، آثرته بذلك لأمور : منها المزاولة فيما كان يلزمني من إخوته الأصاغر ، وتدريبه على خدمة الجلال الباهر ، وإفرادي له بالبركة ، ولعائق ضعف عن الحركة ، وبعد ذلك أشرعُ بفضل الله تعالى في العمل على تجديد العهد بباب الوزارة العلية ، عارضاً من ثنائها ما يكون وفق الأمنية ، ورُبَّ عمل أغنى عنه فضل نية ، والسلام الكريم على سيدي ورحمة الله تعالى وبركاته » .

١٠١ — قال : وكتبت إليه أيضاً على أثر الفتح الذي تكيف له :

« سيدي الذي أُسَرُّ بسعادته ، وظهور عناية الله تعالى به في إبدائه وإعادته ، وأعلم كرم مَجادته ، وأعترف بسيادته ، الوزير الميمون الطائر ، الجاري حديثُ سعده ومَضائه مجرى المثل السائر ، أبقاه الله تعالى عزيز الأنصار ، جارية بيمن نَقيبته حركة الفَلَك الدوّار ، معصوماً من المكاره بعصمة الواحد القهّار ؛

معظّمُ سيادته الرفيعة الجانب ، وموقّر وزارته الشهيرة المناسب ، الداعي إلى الله تعالى بطول بقائه في عزّ واضح المذاهب ، وصنع واكف السحائب ، ابنُ الخطيب ، عن الذي يعلم سيدي من لسان طَلْق بالثناء ، ويد ممدودة إلى الله تعالى بالدعاء ، والتماس لما يعدُّ من جزيل النعماء ، والفتح الذي تفتح له أبواب السماء ، وقد اتصل ما سَنّاه الله تعالى له من النصر والظهور ، والصنع البادي السفور ، لمّا التقى الجمعان ، وتهوديت أكواس الطّعان ، وتبين الشجاع من الجبان ، وظهر من كرّات سيدي وبسالته ما تحدث به ألسنةُ الركبان ، حتى كانت الطائلةُ لحزبه ، وظهرت عليه عناية ربّه ، فقلت : الحمد لله الذي جعل سَعْدَ عمادي متّصلَ الآيات ، واضح الغرر والشّيات . وقد كنتُ بعثت أهنّئه بما قدم من صنع جميل ، وبلوغ تأميل ، فقلت : اللّهم أفد علينا التهاني تَتْرَى ، واجعل الكبرى من نعمتك السالفة بنعمتك الرادفة الخالفة هي الصغرى ، واجْمَعْ له بين نعم الدنيا والأخرى ، والناس — أبقى الله تعالى سيدي — لهم مع الاستناد إليك جهات ، وأمور مشتبهات ، إلا المحب المتشيّع فجهتك هي التي آنست الغربة ، وفرّجت الكربة ، ووعدت بالخير ، وضمنت عاقبة الضير ، وأنا أرتقب ورود التعريف المولوي على عبيده بهذه المدينة وأصِلُ إن شاء الله تعالى لمباشرة الهناء ، وقرةِ العين بمشاهدة الآلاء ؛ والله عزّ وجل يديم سعادة سيدي ويطيل بقاءه ، ويرادف قِبَلَه نعمه وآلاءه ، بفضله » انتهى .

١٠٢ — وقال : وممّا خاطبت به المذكور وأنا ساكن بسلا :

« أيا عُمَرَ العدلِ الذي مَطَلَ المدى ... بوعدِ الهدى حتّى وفيت بدَيْنه
ويا صارمَ الملكِ الذي يستعدُّه ... لدَفْع عِداه أو لمجلسِ زينه
هنَتْ عينَكَ اليقظى من الله عصمةٌ ... كفتْ وجهَ دينِ الله موقعَ شينه
وهل أنت إلا الملكُ والدينُ والدُّنا ... ولا يلبس الحق المُبين بمَيْنه
إذا نالَ منك العينَ ضرٌّ فإنّما ... أصيب به الإسلام في عين عينه

«الوزير الذي هو للدين الوزَر الواقي ، والعلَم السامي المراقِبِ والمراقي ، والحليُ المقلد فوق الترائب والتراقي ، والكنزُ المؤمَّل والذخرُ الباقي ، حجب الله تعالى العيون عن عينِ كمالك ، وصيّرَ الفَلَكَ الدوّار مطيّةَ آمالك ، وجعل اتفاقَ اليُمن مقروناً بيمينك ، وانتظام الشملِ معقوداً بشمالك .

« اعلم أن مطلق لسان الثناء على مجدك ، والمستضيء على البعد بنور سعدك ، ومعقود الرجاء بعروة وعدك ، لا يزالُ في كلّ ساعةٍ يسحبُ الفلك فيه ذيلها ، ويعاقب يومها وليلها ، مُصْغي الأذن إلى نبإ يهدي عنك لله تعالى دفاعاً ، أو يمد في ميدان سعدك باعاً ، وأنت اليوم النصير على الدهر الظلوم ، وآسي الكُلُوم ، وذو المقام المعلوم ، فتعرفت أن بعض ما يتلاعب به بين أيدي السادة الخدام ، وتتفكّه به المثاقِفَةُ والأفدام[1] ، من كرةٍ مرسلةِ الشهاب ، أو نارنجة ظهر عليها من اسمها صبغة الالتهاب ، حوّمتْ حول عينك لا كَدّر صفاؤها ، ولا هُدم فوق مهاد الدعة والأمن إغفاؤها ، فرعت حول حماها ، ورامت أن تصيب فخيب الله تعالى مرماها :

نَرى السوءَ ممّا نتقي فنهابهُ   وما لا نرى ممّا يَقي الله أكْثَرُ[2]

«فقلت : مكروه أخطأ سَهْمُه ، وتنبيه من الله تعالى لمن نبل عقله وفهمه ، ودفاع قام دليله ، وسعد أشرق جليله ، وأيام أعربت عن إقبالها ، وعصمة غطت بسربالها ، وجوارح جعل الله تعالى الملائكة تحرسها ، فلا تغتالها الحوادث ولا تفترسها ، والفَطِن يشعر بالشيء وإن جهل أسبابه ، والصوفي يسمع من الكون جوابه ، فبادرت أُهنّئه تهنئة من يرى تلك الجوارح الكريمة أعز عليه من جوارحه ، ويرسل طير الشكر لله تعالى في مساقط اللّطف الخفي ومسارحه ،

١ المثاقفة : أهل الثقافة أي الذين يصارعون الحيوانات المتوحشة ؛ والأفدام : الحمقى .
٢ مر هذا البيت وقصته بين الأمير عبد الرحمن ووزيره الزجالي في المجلد ٣ ص : ٥٣٩ ، ٦١٣ .

وسألته سبحانه أن يجعلك عن النوائب حِجْراً[1] لا يُقرب ، وربعك رَبْعاً لا يخرب ، ما سبّح الحوتُ ودبَّ العقرب ، ثم إنّني شفعت الهناء وترته ، وأظهرت السرور فما سترته ، بما سنّاه لتدبيرك من مسالمة تكذّبُ الإرجاف ، وتغني عن الإيجاف ، وتخصب للإبل العجاف ، وتريح من كيد ، وتفرغ إلى مجادلة عمرو وزَيْد ، وكأنّني بسعدك قد سدّل الأمان ، وعدل الزمان ، وأصلح الفاسد ، ونفق الكاسد ، وقهر الروع المستاسد ، وسرَّ الحبيب وساء الحاسد ، والسلام » انتهى .

١٠٣ — ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به الرئيس عامر ابن محمد بن علي الهنتاتي معزّياً له عن أخيه عبد العزيز :

«أبا ثابتٍ كنْ في الشدائدِ ثابتا ... أعيذُكَ أن يُلْفى حسودُكَ شامتا
عزاؤكَ عن عبد العزيزِ هو الذي ... يليقُ بعزّ منكَ أعجزَ ناعتا
فدوحتُكَ الغنَّاء طالتْ ذوائباً ... وسَرْحتُكَ الشمَّاء طابتْ منابتا
لقد هدَّ أركانَ الوجود مُصابُهُ ... وأنطق منه الشجوُ من كان صامتا
فمن نَفَسٍ حرّ أوثق الحزنُ كظمها ... ومن نَفَسٍ بالوجدِ أصبح خافتا
هو الموتُ للإنسانِ فصلٌ لحدّهِ ... وكيف ترجّي أن تصاحبَ مائتا
وللصبرِ أولى أن يكونَ رجوعنا ... إذا لم نكنْ بالحزنِ نَرْجِعُ فائتا

«اتصلَ بي أيّها الهمام ، وبدر المجد الذي لا يفارقه التّمام ، ما جنته على علياتك الأيام ، واقتنصه مُحلّق الردى بعد أن طال الحيام ، وما استأثر به الحِمام ، فلم يغن الدفاع ولا نفع الذّمام ، من وفاة صنوك الكريم الصفات ، وهلاك وُسْطى الأسلاك ، وبدر الأحلاك ، ومجير الأملاك ، وذهاب السّمْح الوهّاب ، وأنا لديغُ صِلّ الفراق ، الذي لا يفيق بألف راق ، وجريح سَهْم

---

١ الحجر : الممنوع المحمي .

البَين ، ومُجاري العيون الجارية بدمع العين ، لفقد أنيس سَهّل عليّ مَضَض النكبة ، ونحّى ليث الخطب عن فريستي بعد صدق الوثبة ، وآنسني في الاغتراب ، وصحبني إلى منقطع التراب ، وكفل أصاغري خير الكفالة ، وعاملني من حسن العشرة بما سجّل عقد الوكالة ، انتزعه الدهر مِن يدي حيث لا أهلَ ولا وطن ، والاغترابُ قد ألقى بعَطَن ، وذات اليدِ يعلم حالها مَن يعلم ما ظهر وما بطن ، ورأيت مِن تطارُح الأصاغر على شِلْو الغريب ، النازح عن النسيب والقريب ، ما حملني على أن جعلت البيت له ضريحاً ، ومدفناً صريحاً ، لأخدع من يرى أنّه لم يزل مقيماً لديه ، وأن ظلّ شفقته منسحبٌ عليه ، فأعيا مصابي عند ذلك القرح ، وأعظم الظمأ البرح ، ونكأ القرح القرح ، إذ كان ركناً قد بنته لي يد معرفتك ، ومتصفاً في البرّ بي والرعي لصاغيتي بكريم صفتك ، فوالهفا عليه من حسام ، وعز سام ، وأيادٍ جسام ، وشهرة بين بني حام وسام ، أيُّ جمالِ خَلْق ، ووجه للقاصد طَلْق ، وشيم تطمح للمعالي بحق ، وأي عضد لك يا سيدي الأعلى لا يَهِنُ إذا سطا ، ولا يقهقر إذا خطا ، يوجب لك على تحليه بالشيبة ، ما توجبه البُنُوّة من الهيبة ، ويرد ضيفك آمناً من الخيبة ، ويسد ثغرك عند الغيبة ، ذهبت إلى الجزع فرأيت مُصابه أكبر ، ودعوت بالصبر فولّى وأدبر ، واستنجدتُ الدمع فنضب ، واستصرخت الرجاء فأنكر ما روى واقتضب ، وبأي حزن يُلْقى عبد العزيز وقد جلّ فقده ، أو يطفأ لاعجه وقد عظم وَقْده ، اللهم لو بكى بنَدى أياديه ، أو بغمائم غواديه ، أو بعُباب واديه ، وهي الأيّام أي شامخ لم تَهُدَّه ، أو جديد لم تُبلِه وإن طالت المدة ؟ فرّقت بين التيجان والمفارق ، والخدود والنمارق ، والطُّلى والعقود ، والكأس وابنة العنقود ، فما التعلّل بالفان ، وإنّما هي إغفاءة أجفان ، والتشبث بالحبائل ، وإنّما هو ظلٌّ زائل ؟ والصبر على المصائب ، ووقوع سهمها الصائب ، أولى ما اعتمد طِلاباً ، ورجع إليه طوعاً أو غِلاباً ، فأنا يا سيدي أقيمُ رسم التعزية ، وإن بُؤْتُ بمضاعَفِ المرزية ، ولا عتب على القَدَر ، في الوِرْد من الأمر والصَّدَر ، ولولا أن هذا الواقع ممّا لا

يجدي فيه الخُلْصان ، ولا يغني فيه اليَراع ولا الخرصان ، لأبلى جهده مَن أقرضتموه معروفاً ، وكان بالتشيّع إلى تلك الهضبة معروفاً ، لكنّها سوقٌ لا ينفقُ فيها إلا سلعة التسليم ، للحكيم العليم ، وطيّ الجوانح على المضض الأليم ، ولعمري لقد خلدت لهذا الفقيد وإن طمس الحِمام محاسنه الوضاحة ، لمّا كبس منه الساحة ، صحفاً منشّرة ، وثغوراً بالحمد موشّرة ، يفخر بها بَنُوه ، ويستكثر بها مكتسبو الحمد ومُقْتَنُوه ، وأنتم عماد البازة ، وعَلم المفازة ، وقطب المَدار ، وعامر الدار ، وأسد الأجَمَة ، وبطل الكتيبة الملجمة ، وكافل البيت ، والستر على الحي والميت ، ومثلك لا يُهْدَى إلى نهجٍ لاحب ، ولا ترشده نار الحباحب ، ولا ينبه على سنن نبيّ كريم أو صاحب ، قدرُكَ أعلى ، وفضلك أجلى ، وأنت صدر الزمان بلا مدافع ، وخير مُعْلٍ لأعلام الفضل ورافع ، وأنا وإن أخرت فرض بيعتك لما خَصَّني من المصاب ، ونالني من الأوصاب ، ونزل بي من جَوْر الزمان الغَصَّاب ، ممّن يَقبل عُذْرَهُ الكرم ، ويسعه الحرم المحترم ، والله سبحانه الكفيل لسيدي وعمادي ببقاء يكفل به الأبناء وأبناء الأبناء ، ويعلي لقومه رُتَبَ العزّ ساميةَ البناء ، حتى لا يوحش مكان فقيد مع وجوده ، ولا يحسّ بعضٌ زمانٍ مع جوده ، ويقر عينه في ولده وولد ولده ، ويجعل أيدي مُناويه تحت يده ، والسلام » .

١٠٤ ــ وخاطبه لسانُ الدين أيضاً بما نصّه :

« سيدي الذي هو رجل المغرب كلّه ، والمجمَعُ على طهارة بيته وزكاء أصله ، علم أهل المجد والدين ، وبقية كبار الموحّدين .

« بعدَ السلامِ الذي يجب لتلك الجلالة الراسخة القواعد ، السامية المصاعد ، والدعاء لله أن يفتح لك في مضيقات هذه الأحوال مسالكَ التوفيق ، ويمسكك من عصمته بالسبب الوثيق ، أعرّفك أن جبلك اليوم وقد عظم الرَّجَفان ، وفاض التنور وطغى الطوفان ، تؤمل النفوسُ الغَرْقى جُودِيَّ جودِه ، وتغتبط غايةَ

الاغتباط بوجوده . ووالله لولا العلائقُ التي يجبُ لها الالتزام ، ما وقع على غير قصدك الاعتزام ، والله تعالى يمدك بإعانته على تحمُّل القُصَّاد ، ويُبقي محلك رفيعَ العماد كثيرَ الرماد ، ويجعل أبا يحيى خلفاً منك بعد عمر النهاية البعيد الآماد ، ويُبقي كلمة التوحيد فيكم إلى يوم التناد . وحاملُه القائد الكذا معروف النباهة والجهاد ، ومحله لا ينكر في الفؤاد ، لما اشتبهت السبل ، والتَبَسَ القول والعمل ، لم يجد أنجى من الركون إلى جنابك ، والتمسُّك بأسبابك ، والانتظام في جملة خواصك وأحبابك ، حتى ينبلج الصبح ، ويظهر النُّجح ، ويعظم المنح ، ويكون بعد هجرته الفتح ، ومثلُكم من قُصِد وأُمِّل ، وأُنضي إليه المطيّ وأُعمل ، وأمّا الذي عندي من القيام بحق تلك الذات الشريفة ، والقول بمناقبها المنيفة ، فهو شيء لا تفي به العبارة ، ولا تؤديه الألفاظ المستعارة ، والله تعالى المسؤول في صلة عز سيدي ودوام سعده ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

١٠٥ — وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : وممّا خاطبْتُ به شيخ الدولة — وقد استقل من مرض — ما نصّه :

«لا أعدم الله دار الملك منكَ سَنَاً يجلى بهِ الحالكان الظُّلم والظُّلَمُ
وأنشدتْكَ الليّالي وهي صادقة « المجد عوفيَ إذ عوفيتَ والكرمُ »[1]

«مَنْ علم — أعلى الله تعالى قدرك — أن المجد جواد حُلاك شِياتُه ، لا بل الملك بدرٌ أنت آياته ، لا بلِ الإسلامُ جسمٌ أنت حياته ، دعا منك بالبقاء لمجد يروق بك جبينُه ، ومُلْكٍ تنيره وتَزينه ، ولدينٍ تعامل الله تعالى بإعزازه وتَدْيِنُه ، فلقد ألمتْ نفوسُ المؤمنين لآلامك ، ووجم الإسلامُ لتوقع إسلامك ، وخفقت الأعلام لتأخر إطرافك بمصالح الملك وإعلامك ، فإنّما أناملُ الدين والدنيا متشبثة بأذيال أيامك ، ورحالُ الأملِ مخيمةٌ بين حِلالك وخيامك ،

١ صدر بيت للمتنبي ، وعجزه « وزال عنك إلى أعدائك الألم » .

فإذا قابلت الأشرافُ نِعَمَ الله تعالى بشكر ، ورمت الغفلة عن ذلك بنكر ، فاشكره جلّ وعلا بملء لسانك وجنانك ، واجْرِ في ميدان حمده مطلقاً من عنانك ، على ما طوّقك من استرقاق حرّ ، وإفاضة أيادٍ غُرّ ، واقتناء عسجدٍ من الحمد ودرّ ، وإتاحةِ نفعٍ ودفعِ ضُرّ ، وإدالة حلو من مر ، وكنْ على ثقةٍ من مدافعة الله تعالى عن حِماك ، وعزّ تبلغ ذوائبه السّماك ، ورزق يجره فألُ منتماك ، ودونكَ مجلسَ الإمامة فقُدْ تدبيره بزمامك ، وحُظْوة الخلافة فاستحقّها بوسائلك القديمة وذمامك ، ومحاسن الدولة فاجْلُها على منصة إمامك ، ورسوم البر فأغْرِ بها عينَ اهتمامك ، وذروة المنبر فأمضِ بها ظُبَةَ حسامك ، وأجْنِ الآملين زهرَ الأيادي البيض من كمائم أكمامك ، فيا عز دولة بك — يا جملة الكمال — قد استظهرت ، وأذلت المعاند وقهرت ، وبإعمالِ آرائك اشتهرت ، فراقت فضائلها وبَهَرَتْ : جزالةٌ كما شقّ الجوَّ جارح ، ولطافةٌ كما طارح نغمَ التأليفِ مُطارح ، وفكر في الغيب سارح ، ودين لغوامض الحلم والعدل شارح ، ومكارم محت آثار الكرماء ونَسَخَتْ ، وحلّتْ عقود أخبار الأجواد في الأعصار وفَسَخَتْ ، فلم تدع لفضل الفضلِ ذكراً ، وتركت معروف يحيى بن خالدٍ نكراً ، لا بل لم يبق لكعب ، من علو كعب ، وأنسَتْ دعوة حاتم ، بأيّ ماحٍ وخاتم ، قُصارُهُ شيٌّ حُوار ، ومنع حِوار ، وعقرُ ناب ، عند اقشعرار جَناب ، وأين يقع من كبر قَدْرٍ ترفّعَ عن الكبر ، وجودٍ خَضَبَ الأيدي بحنّاء التبر ، وعزّ استخدم الأسَلَ الطّوال بيراع أقلّ من الشبر ، وحَقَنَ الدماء المُراقة بإراقة نجيع الحبر ، وفكّ العِقال ، ورفَع النُّوَبَ الثقال ، وراعَ الذرّة والمثقال ، وعثّر الزمانُ فأقال ، ووجد لسان الصدق فقال .

«أقسمُ بباريء النّسَم ، وهو أبرُّ القَسَم ، ما فازت بمثلك الدول ، ولا ظفرت بمثلك الملوك الأواخر والأول ، ولو تقدّمتَ لم يُضْرَبْ إلاّ بكَ المثل ، ولم يقع إلا على سنّتك وكتابك والإجماع المنعقد على آدابك العمل ، والمملوك لمّا شام مالكه بَرْقَ العافية ، وتَدَرَّعَ بالألطاف الخافية ، كتب مبشّراً بالهَناء ، ومذيعاً

ما يجبُ من الحمد والثناء ، وشاكراً ما له بوجوده من الاعتناء ، فقد بادر رَكن الدين بالبناء ، وأبقى السرّ والمنّة على الآباء والأبناء ، فنسأل الله تعالى أن يمتع منك بأثير الملوك ، ووسطى السلوك ، وسُلالةِ أربابِ المقاماتِ والسلوك ، ويبقيك وحصّة الصحة وافرة ، وغُرّةُ العزة القعساء سافرة ، وغادةُ عادةِ السعادة غيرُ نافرة ، وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غانمةٌ ظافرة ، ما زَحَفَتْ للصباح شُهُبُ المواكب ، وتفتحت بشطِّ نهر المجرَّة أزهارُ الكواكب ، والسلام » انتهى .

١٠٦ — ومن ذلك ما خاطَبَ به سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق ، جواباً عن كتابه ، وقد استقر خطيبَ السلطان بتونس :

« ولما أن نأتْ منكم ديارٌ وحالَ البعدُ بينكمُ وبيني
بعثتُ لكم سواداً في بياضٍ لأنظركم بشيء مثلِ عيني

« بمَ أُفاتحك يا سيدي ، وأجلَّ عُدَدي ؟ [كيف أُهدي] سلاماً ، فلا أحذر ملاماً ؟ أو أنتخبُ لك كلاماً ، فلا أجد لتَبِعَة التقصيرِ في حقّك الكبيرِ إيلاماً ؟ إن قلت : تحيةَ كسرى في الثناء وتُبّع ، فكلمةٌ في مرتع العجمة تربع ، ولها المصيفُ فيه والمربع ، والحَميمُ والمنبع ، فتَرْوَى متى شاءتْ وتشبع ، وإن قلتُ : إذا العارض خطر ، ومهما همى أو قطر ، سلام الله يا مطر [١] ، فهو في الشريعة بَطَر ، وركبة خطر ، ولا يُرْعَى به وطنٌ ولا يُقْضى به وطر ، وإنّما العِرق الأوشج ، ولا يستوي البان والبنفسج ، والعَوْسَج والعَرْفج :

سلام وتسليم ورَوْحٌ ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج [٢]

١ من قول الشاعر
سلام الله يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام
٢ البيت لابن الرومي من قصيدته في رثاء يحيى بن عمر العلوي ومطلعها :
أمامك فانظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج
والسجسج : البرود .

«وما كان فضلك ليمنعني الكفرانُ أن أشكره ، ولا لينسيني الشيطانُ أن أذكره ، فأتخذ في البحر سبباً[1] ، أو أسلك غير الوفاء مذهباً ، تأبى ذلك – والمنّة لله تعالى – طِباع ، لها في مجال الرَّعْي باع ، وتحقيق وإشباع ، وسوائم من الإنصاف ، ترعى في رياض الاعتراف ، فلا يطرقها ارتياع ، ولا تخيفها سباع ، وكيف نجحد تلك الحقوق وهي شمسُ ظَهيرة ، وأذان عَقيرة[2] جَهيرة ، فوق مئذنة شهيرة ، آدت الأكتادَ لها ديون تستغرقُ الذمم ، وتسترقُّ حتى الرمم ، فإن قضيت في الحياة فهي الخطّة التي نرتَضيها ، ولا نقنع من عامل الدهر المساعد إلاّ أن ينفذ مراسمها ويُمْضيها ، وإن قُطع الأجل فالغنيُّ الحميد – من خزائنه التي لا تبيد – يقضيها ، ويُرْضِي من يقتضيها . وحيّا الله تعالى أيها العَلَم السامي الجلال ، زمناً بمعرفتك المبرة على الآمال ، بَرَّ وأتحف ، وإن أساء بفراقك وأجحف ، وأعرى بعدما ألحف ، وأظفر باليتيمة المذخورة للشدائد والمزاين[3] ، ثم أوحش منها أصْوِنة هذه الخزاين ، فآب حُنَيْنُ الأملِ بخفّيه ، وأصبح المغربُ غريباً يقلّبُ كفّيه ، ونستغفر الله تعالى من هذه الغَفَلات ، ونستهديه دليلاً في مثل هذه الفَلَوات ، وأي ذنب في الفراق للزمن ، أو لغرابِ الدِّمَن ، أو للرواحِلِ المدلجة ما بينَ الشام إلى اليمن ، وما منها إلا عبد مقهور ، وفي رُمة القدر مبهور ، عقد والحمد لله مشهور ، وحجّة لها على النفس اللوّامة ظهور ، جعلنا الله تعالى ممّن ذكر المسبب في الأسباب ، وتذكّر ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إلاّ أُولو الألْباب ﴾ (البقرة : ٢٦٩ ، آل عمران : ٧) ، قبل غلق الرَّهْن وسد الباب ، وبالجملة فالفراق ذاتيّ ، ووعده مأتيّ ، فإن لم يكن فكأنْ قَدْ ، ما أقرب اليوم من الغد ، والمرء في الوجود غريب ، وكل آت قريب ، وما من مقام إلا لزيال ، من غير احتيال ، والأعمار مَراحل والأيام أمْيال :

---

١ ناظر إلى الآية القرآنية : «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر . . .» .

٢ العقيرة : الصوت .

٣ المزاين : يريد أن الدرة تتخذ لأمور الزينة .

نَصيبُكَ في حياتكَ من حبيب   نَصيبُكَ في منامك من خيالِ[1]

« جعل الله تعالى الأدب مع الحق شاننا ، وأبعد عنّا الفراقَ الذي شانَنا ، وإنّي لأسر لسيدي بأن رعى الله تعالى صالح سَلَفِه ، وتداركه بالتلافي في تَلَفِه ، وخلّص سعادته من كلفه ، وأحلّه من الأمن في كَنَفه ، وعلى قدرها تصاب العلياء ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء .

« هذا ، والخير والشرُّ في هذه الدار ، المؤسّسة على الأكدار ، ظلاّن مضمحلان ، فقد ارتفع ، ما ضرَّ أو نفع ، وفارق المكان ، فكأنّه ما كان ، ومن كلمات الملوك ، البعيدة عن السلوك ، إلا أن يشاء ملك الملوك[2] :

خذْ من زمانكَ ما تيَسّرْ   واترك بجهدِكَ ما تَعَسّرْ
ولربَّ مجملِ حالةٍ   ترضى بهِ ما لم يُفَسّر
والدّهرُ لَيسَ بدائمٍ   لا بدَّ أن سيسوء إن سرّ
واكتمْ حديثَكَ جاهداً   شَمِتَ المحدثُ أو تحسر
والناسُ آنيةُ الزجا   جِ إذا عثرتَ بهِ تكسر
لا تعدمِ التّقْوَى فَمَنْ   عدم التُّقى في الناسِ أعسر
وإذا امرؤ خسرَ الإلـ   ـهَ فلَيس خلقٌ منهُ أخسر

«وإن لله تعالى في رَعْيك لسرّاً ، ولطفاً مستمرّاً مستقرّاً ، إذ ألقاك اليمُّ إلى الساحل ، فأخذ بيدك من ورطة الواحل ، وحرك منك عزيمة الراحل ، إلى الملك الحُلاحل ، فأدالك من إبراهيمك سميّاً ، وعرّفك بعد الوَليّ وَسْمياً ، ونقلك من عناية إلى عناية ، وهو الذي يقول وقوله الحق ﴿ما نَنْسَخ مِنْ آيَةٍ ــ الآية﴾ (البقرة : ١٠٦) .

١ من قصيدة المتنبي في رثاء أم سيف الدولة .
٢ الأبيات في مشاهدات لسان الدين : ١١٥ .

«وقد وصل كتاب سيدي يحمد – والحمد لله – العواقب، ويصف المراقي التي حلّها والمراقب، وينشر المفاخر الحَفْصيّة والمناقب، ويذكر ما هيّأه الله تعالى لديها من إقبال، ورَخاء بال، خصّيصَى اشتمال، ونشوة آمال، وأنّه اغتبط وارتبط، وألقى العصا بعدما خبط، ومثل تلك الخلافة العلية مَنْ تَزِنُ الذوات المخصوصة من الله تعالى بتشريف الأدوات بميزان تمييزها، وتفرق بين شَبَه المعادن وإبريزها، و «شِبْهُ الشيء» مَثَلٌ معروف[1]، ولقد أخطأ من قال: الناس ظروف، إنّما هم شَجَراتُ رِيعٍ في بقعةٍ ماحلةٍ، وإبلٌ مائةٌ لا تجد فيها راحلة[2]، وما هو إلا اتفاق، ونجح للمسلك وإخفاق، وقلّما كَذَبَ إجماعٌ وإصفاق، والجليسُ الصالحُ لربّ سياسةٍ أمَلٌ مطلوب، وحظ إليه مَجْلوب، وإن سئل أطرف، وعمر الوقت ببضاعةٍ أشرف، وسَرّقَ الطباع، ومَدّ في الحسنات الباع، وسَلّى في الخطوب، وأضحك في اليوم القَطُوب، وهدى إلى أقوم الطرق، وأعان على نوائب الحقّ، وزرع له المودة في قلوب الخلق، زاد الله تعالى سيدي لديها قُرْباً أثيراً، وجعل فيه للجميع خيراً كثيراً، بفضله وكرمه.

«ولعلمي بأنّه – أبقاه الله تعالى – يقبل نصحي، ولا يرتاب في صدق صبحي، أغبطه بمَثْواه، وأنشده ما حضر من البديهة في مسارة هداه ونجواه:

بمقامِ إبراهيمَ عُذْ واصرفْ به ... فِكَراً تؤرقُ عن بواعثَ تنبري
فجوارُهُ حَرَمٌ وأنتَ حمامةٌ ... ورقاء والأغصانُ عودُ المنبرِ
فلقد أمنتَ من الزمان وريْبِهِ ... وهوَ المروّع للمسيء وللبري

«وإن تشوّف سيدي فلعمر وليّه لو كان المطلوب دنيا لوجب وقوع الاجتزاء،

---

[1] من قول المتنبي:
وشبه الشيء منجذب إليه ... وأشبهنا بدنيانا الطغام

[2] من حديث الرسول (ص): «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة».

ولاغتبط بما تحصَّل في هذه الجزور ، المبيعة في حانوت الزور ، من السهام الوافرة الأجزاء ، فالسلطان — رعاه الله تعالى — يوجب ما فوق مزية التعليم ، والولد — هداهم الله تعالى — قد أخذوا بحظّ قلّ أن ينالوه بغير هذا الإقليم ، والخاصة والعامة تعامل بحسب ما بلته من نصح سليم ، وتركٍ لما بالأيدي وتسليم ، وتدبير عاد على عدوّها بالعذاب الأليم ، إلا مَنْ أبدى السلامة وهو من إبطان الحسدِ بحالِ السليم ، ولا ينكر ذلك في الحديث ولا في القديم ، ولكن النفس منصرفة عن هذا الغرض ، نافضة يَدَها من العرض ، قد فوّتت الحاصل ، ووصلت في الله تعالى القاطع وقطعت الواصل ، وصدقت لما نصح الفَوْدُ الناصل ، وتأهّبت للقاء الحِمام الواصل ، وقلت :

انظر خضابَ الشباب قد نَصَلا وزائرَ الأنسِ بَعْدهُ انفصلا
ومطلبي والذي كَلِفْتُ بِهِ حاولْتُ تحصيله فما حَصَلا
لا أملٌ مُسْعِفٌ ولا عَمَلٌ ونحن في ذا والموتُ قد وصلا

«والوقت إلى الإمداد منكم بالدعاء في الأصائل والأسحار ، إلى مُقيل العِثار ، شديدُ الافتقار ، والله عزّ وجلّ يَصِلُ لسيدي رَعْي جوانبه ، ويتولى تيسير آماله من فضله العميم ومآربه ، وأقرأ عليه من التحيات ، المحملة من فوق رحال الأريحيات ، أزكاها ، ما أوجعَ البرقُ الغمائمَ فأبكاها ، وحسد الروضُ جمالَ النجوم الزواهر فقاسها بمباسم الأزهار وحكاها ، واضطبن[1] هَرِمُ الليل عند الميل عصا الجوزاء وتوكاها ، ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

١٠٧ — وممّا خاطب به لسان الدين — رحمه الله تعالى — ابنَ مرزوق المذكور قوله :

١ اضطبن العصا : وضعها تحت ضبنه ليتوكأ عليها ، والضبن : ما بين الخاصرة ورأس الورك .

«سيدي ، وعمادي ، كَشْفُ قناع النصيحة من وظائف صديق ، أو خديم لصيق ، وأنا بكلتا الجهتين حقيق ، ويتلجلج في صدري كلام أنا إلى نَفْثه ذو احتياج ، ولو في سبيل هياج ، وخرقِ سياج ، وخوض دَيّاجٍ ، وقد أصبحت سعادتي عن أصل سعادَتك فرعاً ، فوجب النصحُ طبعاً وشرعاً ، فليعلمْ سيدي أن الجاه ورطة ، والاستغراقَ في تيار الدول غلطة ، وبمقدار العلو — إلا أن يقي الله تعالى — تكون السقطة ، وأنّه — والله تعالى يعصمه من الحوادث ، ويقيه من الخطوب الكوارث — وإن تبعه الجمٌ فهو مفرد ، وبسهام الحَسَدة مُقْصَد ، وأن الذي يقبّل يده ، يُضْمر حسده ، وما من يوم إلاّ والعِلل تستشري ، والحيَل تريش وتَبري ، وسمومُ المكايد تسري ، والعينُ الساهرة تطرقُ العينَ النائمة من حيث تدري ولا تدري ، وهذا الباب الكريم مخصوص بالزيادة والبركة ، وخصوصاً في مثل هذه الحركة ، فثم ظواهر تُخالف السرائر ، وحيَلٌ تصيبُ في الجوّ الطائر ، وما عسى أن يتحفّظ المحسود ، وقد عوَتِ الكلابُ وزأرت الأسود ، وإن ظن سيدي أن الخطة الدينية تذب عن نفسها ، أو تنفع مع غير جنسها ، [فذلك] قياسٌ غير صحيح ، وهبوب الريح ، وإنّما هي درجة فوق الوزارة والحجابة ، ودهر يدعى فيبادر بالإجابة ، وجاه يجر على القبيل الأذيال ، ويفيدُ العزّ والمال ، وبحرٌ هال ، وصدور تحمل الجبال ، وإن قطع بالأمان ، من جهة السلطان ، لم يؤمن أن يقع فيه ، والله سبحانه يَقيه ، ويمتع به ويُبْقيه ، ما البشر بصَدَده ، والحي يجري إلى أمَدِه ، فيستظهر الغير بقَبيل ، ويجري من التغلب على سبيل ، ويبقى سيدي — والله تعالى يعصمه — طائراً بلا جناح ، ومحارباً دون سلاح ، ينادي من مكان يثق بودّه في طَلَل ، ويقرع سن النادم والأمر جَلَل ، ومثله بين غير صنفه — ممّن لا يتصف بظَرْف ، ولا يلتفت إلى الإنسانية بطَرْف ، ولا يعبد الله تعالى ولو على حَرْف — محمول عليه من حيث الصنفية ، معتمد بالعداوة الخفية ، وإن ظن غير هذا فهو مخدوع مسحور ، ومفتون مغرور ، وبالفكر في الخلاص تفاضلت النفوس ، واستُدْفِعَ البوس ، وله وجوه كلّها متعذر

الحصول ، دونه بيضُ النصول ، إلاّ ما كان من الغرض الذي بان فيه بعد الجِدّ الفُتُور ، وعدلِ عنه وقد أخذ الدستور ، وتيسرت الأمور ، وتقررت الأيمان والنذور ، فإنّه عَرَض قريب وسفر قاصد[1] ، ومَسْعًى لا ينفق فيه سيدي من ماله درهم واحد ، ووطنٌ لحركتِهِ راصد ، لا يمنع عليه أهله ، ولا يستصعب سَهْله ، وأميره جبره الله تعالى يتطارح في تعيينكم لاقتضائه ، وإحكام آرائه ، وتأمين خائفه ، واستقدام أصنافه وطوائفه ، وتتحركون حركة العز والتّنْوِيه ، والقدر النبيه ، لا يُعْوِزكم ممّن وراءكم مَطْلَب ، ولا يُلْفى عن مخالفتكم مذهب ، ولا يكدّر لكم مَشْرب .

«وتمر أيام وشهور ، وتظهر بطون للدهر وظهور ، وتُفتح أبواب ، وتُسَبَّب أسباب ، من رجوع يتأتّى بعد السكون والفتور ، وقد سكنت الخواطر وتنوّعت الأمور ، أو مقام تمهّد به البلاد ، ويعمل في ترتيب الصلة الحسنة الاجتهاد ، وتستغرق في هذا الغرض الآماد ، ويتأتى ان حدث وتراكم حادث الاستقلال والاستبداد ، تتهنّا فيه الأعمار ، ويكون لمن ينتقل به على الشرق والغرب الخيار ، أو التحكم في ذخيرة سما منها المقدار ، وذُهِل عند مشاهدتها الاعتبار ، وخزانة الكتب بجملتها وفيها الأمّهات الكبار ، قد تجافت عنها الحاجة وعُدِم إليها الاضطرار ، والربع الذي يُسَوَّغ بالشرع والعقّار ، فهذا كلّه حاصل ، وثمّ ضامن لا يُتّهم وكافل ، وعهود صِبْغُها غير ناصل .

«وبالجملة فالوطن لأغراض الملك جامع ، ولمقاصده من المقام أو الانتقال مطيع وسامع ، وإن توقّع إثارة فتنة ، أو ارتكاب إحْنَة ، فالأمر أقرب ، وحاله المتيسّرُ أغرب ، وهذه الحجّة في تلمسان غير معتبرة ، وأجوبتها مقررة ، وقدوم رسول الطاغية وإعانته تحصل في الغالب ، على هذه المطالب ، وبالجملة فالدنيا

١ من الآية الكريمة (التوبة : ٤٢) « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك » .

قد اختلّت ، والأقدامُ قد زلّتْ ، والأموال قد قلّت ، وشبيبة الدهر ولّتْ ، وذلك القطر على علاته أحكم لمن يرومُ الجاهَ وأمنع ، وأجدى بكل اعتبار وأنفع ، وقد حَضَرَتْ لاستخلاصكم إياه الآلةُ التي لا تتأتّى في كل زمان ، وتهيّأ إمكان أيّ إمكان ، واقتُضيت أيمان ، وعُرضت سلع تقلّ لها أثمان ، وارتهنت الوفاء مروءاتٌ وأديان ، وتحقّق بذلك القطر الفساد الذي اشتهر به مأموره وأموره وأميره ، والمنكر الذي يجب على كل مسلم تغييره ، فإن شئت شرعاً فالحكم ظاهر ، أو طبعاً فالطبع حاضر ، وما ثَمّ عاذل بل عاذر ، والمؤونة التي تلزم أقل من أن تكون ثمن بعض الحصون ، فضلاً عن الشجرة ذات الغصون ، وما يُستهلك في هذا الغرض شيء له خطر ، ولا يُستنقذ من الصحيفة سطر ، واليد محكمة بكلٍّ أو شطر

«وما يخص المملوك من هذا الأمر إلاّ استنقاذ نَشَب ، واستخلاص مؤمَّل بين موروث ومكتسب ، وبعيد أن لا ينعر لَهُ في زمن من الأزمان ، فلا بدّ في كل وقت من أعيان ، ومروءات وأحساب وأديان ، والله سبحانه كل يوم هو في شان ، وأمّا خدمة دوله فهي عليّ حرام ، لا ينجح لي فيها أن أعتمدها مرام ، وكأنّي بالمشرق لاحق ، ولأنفاسه الذكية ناشق ، فما هي إلاّ أطماع ، سَرابُها لماع ، فإذا انقطعت ، انفسحت الدنيا واتسعت ، ومعاش في غمار ، أو عكوف في كِسْر دار ، لمداومة استقالة واستغفار ، والله ما تُوُهّم أن من بتلك البلاد يستنسر بُغاثُه عليكم ، أو يحتقر ما لديكم ، فقد ظهر الكائن ، وتطابق المخبر والمعاين ، فسبحان من يقوي الضعيف ويهين المخيف ، ويجري يد المشروف والشريف ، والهمم بيد الله تعالى يُنْجِدُها ويخذلها ، والأرضُ في قبضته يرعاها ويهملها .

«هذا بثٌّ لا يسع إفشاؤه ، وسر إن لم يُطْوَ سقط به على السرحان شاؤه[1].

[1] أصل المثل « سقط العشاء به على سرحان » ، ولعل القراءة الصحيحة : « عشاؤه ».

وفيه ما ينكره الآمر ، وتتعلّق به الظنون وتعمل الخواطر ، فتدبروه واعتبروه ، وبعقلكم فاسبُروه ، ثمّ غطوه بالإحراق واستروه ، والله تعالى يرشدكم للتي هي أسدّ ، ويحملكم على ما فيه لكم العز السّرْمَد ، والفخر الذي لا ينفد ، والسلام »[1] انتهى .

١٠٨ — وقال رحمه الله تعالى : وممّا صدر عني ما أجبت به عن كتاب بعث به إليّ الفقيهُ الكاتبُ عن سلطان تلِمسان أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي الثغري :

«حيّـا تِلمسانَ الحَيَا فربوعها صَدَفٌ يجودُ بدرّهِ المَكنونِ
ما شئتَ من فضلٍ عميمٍ إن سقى أروى ومنٍّ ليسَ بالممنون[2]
أو شئتَ من دينٍ إذا قدح الهدى أورى ودُنْيا لَمْ تَكُن بالدون
ورَد النسيمُ لهـا بنشرِ حديقةٍ قَدْ أزهرتْ أفنانها بفنون
وإذا حبيبة أم يحيى أنجبتْ فلها الشفوفُ على عيونِ العِين

«ما هذا النشر ، والصف والحشر ، واللف والنشر ، والفجر والليالي العشر ، شَذاً كما تنفست دارِين ، وسطور رقم حللها التزيين ، وبَيان قام على إبداعه البرهان المُبين ، ونِقْس ، وشّي به طِرْس ، فجاء كأنه عيون العِين ، لا بل ما هذه الكتائب الكتيبة التي أطلعت علينا الأعِنّة ، وأشرعت إلينا الأسنّة ، وراعت الإنس والجِنّة ، فأُقسم بالرحمن ، لولا أنّها رفعت شعار الأمان ، وحيّت بتحية الإيمان ، لراعت السّربَ ، وعاقت الذودَ أن يردَ الشّرب ، أظنّها مدد الجهاد قدِم ، وشاردَ العرب استُعمل في سبيل الله واستُخدم ، والمتأخّر على ما فاته ندم ، والعزم وجد بعدما عدم ، نستغفر الله ، إنّما هي رقاع الرفاع[3] ،

[1] ورّى لسان الدين في هذه الرسالة عن أمور وحاطها بالغموض ولذا طلب أن تحرق الرسالة .
[2] المن : الفضل ؛ والممنون : المقطوع .
[3] ق : رقاع رقاع ؛ والرفاع : رفع الحب بعد الحصاد .

وصِلات صَلاة ليس فيها سَبْق ولا إرباع [1] ، وبقاعٌ لها بطَلَ الطباع الكريمة انتفاع ، وألحان بيان يعضدها إيقاع ، ودر منسوق ، ورطب لنخلها بُسُوق ، ولله در القائل : الملك سوق [2] ، ومَنْ نصير الشيخ على كتيبة تعقبها كتيبة ، واقتضاء وجيبة من ذي غَلّة غير نجيبة ، بينا هو يكابد من مراجعة الحيّ من حضرموت الموت ، ولا يكاد يرجع الصوت ، إذ صبّحته قيسٌ وهي التي شَذَّت عن القياس ، وأجحمت عن مبارزتها أسود الأخياس [3] ، فلولا امتثال أمرٍ ، وصبر على جمر ، لأعاد ما حكي في مبارزة الوصيّ عن عمرو [4] ، فتحرَّج من الخطل ، وبيّنَ عُذْرَ المكرهِ عن مناجزةِ البُطل ، ألم يدر قائدُ رَعيلها ، وزائر غيلها ، أنّي أمُتُّ بذمةٍ من عبيـــده لا تُخْفَر ، وأن ذنب إضافتي له لا يُغفر ، وحقّه الحق الذي لا يُجحد ولا يُكفر :

لمّا رأت رايةَ القيسيّ زاحفةً ... إليَّ ريعتْ وقالتْ لي وما العَمَلُ ؟
قلتُ الوغى ليس من رأيي ولا عملي ... لا ناقةٌ ليَ في هذا ولا جمَلُ
قد كان ذاك ورنّاتُ الصَّهيلِ ضُحًى ... تَهزُّ عِطفي كأنّي شاربٌ ثَمِلُ
والآن قد صوَّحَ المرعى وقوضتِ الـ ... خيمات والركب بعد اللبثِ محتملُ
قالت ألستَ شهابَ الدين تضرمها ... حاشا العلا أن يقالَ: استنوقَ الجملُ
وإنَّ أحسنَ مِنْ هذا وذا وزَرٌ ... بمثله في الدواهي يُبْلَغُ الأملُ
هو الحمى لأبي حمُّو استجره ففيـ ... ـه الأمنُ منسدلٌ والفضلُ مكتملُ
واللهِ لو أهمَلَ الراعي النّقّادَ به ... ما خاف من أسدِ خَفّانٍ به هَمَلُ [5]

---

١ الإرباع : الإسراع . وفي ق : إرقاع .
٢ هو من المثل : « الملك سوق يحمل إليها ما نفق فيها » .
٣ ق : الأجناس .
٤ الوصي : علي بن أبي طالب ، ومبارزته لعمرو بن العاص – فيما روي – تدل على أن عمراً لم يكن من أرباب المبارزة وإنما من أهل الحيلة والدهاء .
٥ النقاد : الغنم ؛ وخفان : اسم موضع .

تكونُ من قوم موسى إن قَضَوْا عدلوا وإن تقاعدَ دهرٌ جائرٌ حملوا
هُمُ الجبالُ الرواسي كلّما حلموا هُمُ البحارُ الطوامي كلّما حملوا
فقلتُ : كان لكِ الرحمن بعديَ ما سواهُ معتمَدٌ والرأيُ معتمـلُ
فها أنا تحت ظلّ منه يلحفني والشملُ مني بسترِ العزّ يشتملُ
فقلْ لقيس لقد خاب القياسُ فلا تُذْكُوا المصاعَ وتحت الليل فاحتملوا
دامتْ لهُ دِيَمُ النعمى مُساجلةً يمناه ، تنهملُ اليمنى فتنهملُ
وآمنتْ شمسُ علياه الأفولَ إلى طيّ الوجودِ فلا شمسٌ ولا حَمَلُ

«ولو خوى — والعوذ بالله — نجم هذا المتات ، ولم يتصف السبب — وحاشاه — بالاتصال ولا بالانبتات[1] ، فمرعى العدلِ مكفول ، وسببُ الرفقِ موصول ، وإن اشتجرتْ نُصُول ، والهرمُ تأبى الأبطالُ التنزلَ إلى نزاله ، والناسكُ التائبُ يدينُ ضربُ الغاراتِ باعتزاله ، إلاّ مَنْ أعرق في مذهبِ الخارجي الأخرق ، نافع بن الأزرق ، وحسبي ، وقد ساء كسبي ، أن أتركَ الخطر لراكبه ، وأخلّي الطريق لمن يَبْني المنارَ به ، ونسير بسير أمثالي من الضعفاء ، ونكفّ فهو زمان الانكفاء ، ونسلّم مخطوبةَ هذا الفن إلى الأكفاء ، ونقول : بالبنين والرفاء ، فقد ذهب الزمن المُذْهَب ، وتبين المَذْهَب ، وشاخ البازي الأشهب ، وعتادُ العمر يُنْهب ، ومرهب الفوت من فَوْقِ الفود يرهب ، اللّهمّ ألهمْ هذه الأنفسَ رُشْدَها ، وأذكرها السكرات وما بعدها .

«إيه أخي والفضلُ وَصْفك ونعتك ، والزّيْفُ يُبَهْرِجه بحتك ، وسهامُ البراعة انفردَ بها بَرْيُك وَنَحْتُك ، وصلتني رسالتك البرةُ ، بل غمامتك الثرة ، وحيتني ثُغُور فضلك المُفْتَرّة ، فعظمتْ بورودها المسرّة ، جددتِ العهدَ بمحبوب لقائك ، وأنهلت ظامي الاستطلاع في سقائك ، واقتضتْ تجديدَ الدعاء ببقائك ، إلاّ أنّها ربّما ذُهلت عند وداعك ، وأبهر عقلَها نورُ إبداعك ،

[1] ق : ولو جرى ... المتاب ... بالانتياب .

فلم تَلْقَنِ الوصية ، وسلكتِ المسالك القَصيّة ، وأبعدتْ من التطوّف ، وجاءت تبتغي من أسرار التصوّف ، ومتى تُقْرَنُ هيبةُ السبع الشداد ، بحانوتِ الحدّاد ، أو تنظر أحكام الاعتكاف ، بدكّان الإسكاف ، أو يُتَعَلّمُ طبعُ المثقال ، بحانوتِ البقال ؟ والظن الغالب – وقد تلتبس المطالب – أنّكم أمرتموها ، لما أصدرتموها ، بإعمال التشوّف ، فطردت حكم الإبدال ، غائبة عمّا يلزم من الجدال ، وسمّت الشين صاداً ، وعينت لزرع الوصيةِ حَصاداً ، والله تعالى يجعل المحبّ عند ظنّ من نظر بمرآته ، أو وَصَفَه ببعض صفاته ، وهي تزلقُ عن صَفاته ، فالتصوّفُ أشرف ، وظلاله أوْرَف ، من أن يناله كلفٌ بباطل ، ومغرورٌ بسرابٍ ماطل ، لا بربَابٍ هاطل ، ومفتون بحالِ حالٍ أو عاطل ، ومن قال ولم يتصف بمقاله ، فعقله لم يَرِمْ عن عقاله ، وجبالُ أثقاله ، مانعة له عن انتقاله .

«وعلى ذلك، وبعد تقرير هذه المسالك، فقد عمرت يدها كيلا تعود بها صِفْراً بعد إعمال السفر ، أو ترى أنّها قد طولبت بذنب الغلط المغتفر ، وأصبحت المراجعة بمجلس وعظٍ فتحت به باب الحرج ، إلى إنكار الإمام أبي الفرج [1] ، وفنُّ الوعظ لما سأل الأخ هو الصديق المسعد ، والمُبْرِقُ قبل غمام رحمته والمُرْعِد ، ولله در القائل : لستَ به ولم تبعد ، والاعتراضُ بعدُ مُلازم ، لكنّ الإسعافَ لقصده لازم ، وعامله عند الاعتلال بالعذر جازم ، وإغضاؤه ملتمَس ، وفضله لا يخبو منه قبَس ، وعذراً أيّها الفاضل ، وبعد الاعتذار ، عن القلم المِهْذار ، وإغفال الحذار ، اقرأ عليهم من طيّب السلام ، ما يُخجلُ أزهارَ الكمام عقبَ الغمام ، ورحمة الله تعالى مِنْ مُمليه على الكاتب ، ولعلّها تفثأ من عتْبِ العاتب ، ابنِ الخطيب : فإنّي كتبته والليلُ دامس ، وبحرُ

[1] يعني أبا الفرج ابن الجوزي لشهرته في الوعظ .

الظلامِ طامس ، وعادة الكسل طبعٌ خامس ، والنافخُ بشكوى البرد هامس ، والذبالُ المُنادم خافت ، لا يهتدي إليه الفَرَاش المتهافت ، يقومُ ويقعد ، ويفيق ثم يرعد ، ويزفر ثم يخمد ، وربما صار ورقَةَ آس ، أو مبضَعَ آس ، وربما أشبه العاشقَ في البَوْح بما يخفيه ، وظهوره من فيه ، فتميله الآمال وتلْويه ، وتميته النواسم الهفافة بعدما تحييه ، والمطر ، قد تعذَّرَ معه الوطَر ، وساقه الخطر ، وفعل في البيوتِ المتداعية ما لا يفعل الترْكُ والططر ، والنشاطُ ، قد طُويَ منه البساط ، والجوارحُ بالكلال تعتذر ، ووظائف الغدِ تنتظر ، والفكرُ في الأمور السلطانية جائل ، وهي بحر هائل ، ومثلي مقنوعٌ منه باليسير ، ومعذورٌ في قِصَرِ الباع وضعفِ المسير ، والسلام » انتهى .

وهي من البلاغة في الذروة .

١٠٩ — ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله : وممّا صدر عني في السياسة : «حدَّث منِ امتاز باعتبار الأخبار ، وحاز درجَةَ الاشتهار ، بنقل حوادثِ الليل والنّهار ، وولج بين الكمائم والأزهار ، وتلطف لخجل الورد من تبسم البهار ، قال : سهر الرشيد ليله ، وقد مال في هجر النبيذ ميله ، وجهد ندماؤه في جلب راحته ، وإلمام النوم بساحته ، فشحّتْ عِهادهم ، ولم يُغْنِ اجتهادهم ، فقال : اذهبوا إلى طُرُقِ سمّاها ورسمها ، وأمهاتِ قسمها ، فمَنْ عثرتمْ عليه من طارقِ ليل ، أو غُثاء سيل ، أو ساحبِ ذَيْل ، فبلغوه ، والأمَنَة سوّغوه ، واستدعوه ، ولا تَدَعُوه ، فطاروا عَجالى ، وتفرقوا ركباناً ورجالا ، فلم يكن إلا ارتدادُ طرف ، أو فُوَاق حرف [1] ، وأتوا بالغنيمة التي اكتسحوها ، والبضاعة التي ربحوها ، يتوسطهم الأشعث الأغبر ، واللجُّ الذي لا يُعْبَر : شيخٌ طويل القامة ، ظاهر الاستقامة ، سَبَلَته مُشْمَطَة ،

[1] الفواق : فترة ما بين الحلبتين ؛ والحرف : الناقة .

وعلى أنفه من القبع[1] مَطّة ، وعليه ثوب مرقوع ، لطير الحرق عليه وقوع ، يُهَيْنِمُ بذكر مسموع ، وينبىء عن وقتٍ مجموع ، فلمّا مَثَلَ سلّم ، وما نبس بعدها ولا تكلّم ، فأشار إليه الملك فقَعد ، بعد أن انشمر وابتعد ، وجلس ، فما استرق النظر ولا اختلس ، إنّما حركة فكره ، معقودةٌ بزمام ذكره ، ولحظات اعتباره ، في تفاصيل أخباره ، فابتدره الرشيدُ سائلاً ، وانحرف إليه مائلاً ، وقال : ممّن الرجل ؟ فقال : فارسيُّ الأصل ، أعجميُّ الجنسِ عربيُّ الفَصْلِ ، قال : بلدك وأهلك وولدك ؟ قال : أما الولد فولد الديوان ، وأمّا البَلدُ فمدينة الإيوان ، قال : النِّحلة ، وما أعملتَ إليه الرحلة ؟ قال : أمّا الرحلةُ فالاعتبار ، وأمّا النِّحلة فالأمر الكُبار ، قال : فَنَنُكَ ، الذي اشتمل عليه دَنُّكَ ؟ فقال : الحكمة فنّي الذي جعلته أثيراً ، وأضجعت فيه فراشاً وَثيراً ، وسبحان الذي يقول ﴿ومَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيْراً كَثيراً﴾ (البقرة : ٢٦٩) وما سوى ذلك فتَبَع ، ولي فيه مُصْطاف ومُرْتبَع ، قال : فتعاضد جَذَلُ الرشيد وتوفّر ، كأنّما أغشى وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر ، وقال : ما رأيت كالليلة أجمعَ لأملٍ شارد ، وأنعمَ بمؤانسة وارد ، يا هذا إنّي سائلك ، ولن تخيبَ بعدُ وسائلُك ، فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بُلينا بحَمْل أعبائه ، ومُنينا بمراوضة إبائه ، فقال : هذا الأمر قلادةٌ ثقيلة ، ومن خُطّة العجز مستقيلة ، ومفتقرةٌ لسَعَةِ الذَّرْع ، وربط السياسة المدنية بالشرع ، يفسده الحكم في غير محله ، ويكون ذريعةً إلى حلّه ، ويُصْلحه مقابلة الشكل بشكله ، ومن لم يكن سبعاً آكلاً تداعتْ سباعٌ إلى أكله .

« فقال الملك : أجملتَ ففصّل ، وبَرّيْتَ فنصِّلْ ، وَكلْتَ فأوْصِلْ ، وانثرِ الحَبَّ لمن يُحَوْصِل ، واقسمِ السياسة فنوناً ، واجعلْ لكلّ لقبٍ قانوناً ، وابدأ بالرعية ، وشروطها المرعية .

---

[1] القبع : الصياح أو الإعياء والانبهار .

«فقال : رعيّتك ودائع الله تعالى قِبلَكَ ، ومرآة العدل الذي عليه جبَلَكَ ، ولا تصل إلى ضبطهم إلاّ بإعانة الله تعالى التي وهب لك ، وأفضلُ ما استدعيت به عَوْنه فيهم ، وكفايته التي تكفيهم ، تقويمُ نفسك عند قصد تقويمهم ، ورضاك بالسهر لتنويمهم ، وحراسة كهلهم ورضيعهم ، والترفع عن تضييعهم ، وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها ، أخذاً يحوطُ مالها ، ويحفظُ عليها كمالها ، ويقصّرُ عن غير الواجبات آمالها ، حتى تستشعرَ علِيْتها رأفتك وحنانك ، وتعرف أوساطها في النّصَب امتنانك ، وتحذر سِفْلَتها سنانَكَ ، وحظّرْ على كلّ طبقةٍ منها أن تتعدى طورها ، أو تخالف دورها ، أو تجاوزَ بأمرِ طاعتك فَوْرها ، وسُدَّ فيها سُبُلَ الذريعة ، وأقصرْ جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة ، وامنع أغنياءها من البطرِ والبطالة ، والنظرِ في شبهات الدين بالتمشدقِ والإطالة ، وليقلَّ فيما شجر بين الناس كلامها ، ويرفض ما تنبز به أعلامها ، فإن ذلك يُسقطُ الحقوقَ ، ويرتّبُ العقوقَ ، وامنعهمْ من فحشِ الحرص والشرهِ ، وتَعاهدهم بالمواعظِ التي تجلو البصائر من المرَهِ ، واحملهمْ من الاجتهاد في العمارة على أحسنِ المذاهب ، وانْهَهُمْ عن التحاسدِ على المواهب ، ورُضْهُم على الإنفاق بقدر الحال ، والتعزي عن الفائت فَرَدُّه من المحال ، وحذّر البخلَ على أهل اليسار ، والسخاء على أولي الإعسار ، وخذهمْ من الشريعة بالواضحِ الظاهر ، وامنعهمْ من تأويلها مَنْعَ القاهر ، ولا تطلقْ لهم التجمّعَ على من أنكروا أمرهُ في نواديهم ، وكفَّ عنهم أكفَّ تعدّيهم ، ولا تبحْ لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم ، ولتكنْ غايتهم ، فيما توجّهَتْ إليه إبايتهم ، ونكصَتْ عن الموافقة عليه رايتهم ، إنهاءهُ إلى من وَكَلْتَهُ بمصالحهم من ثقاتك ، المحافظين على أوقاتك ، وقدّمْ منهم من أمنتَ عليهمْ مكره ، وحمدت على الإنصاف شكره ، ومن كثر حياؤه من التأنيب ، وقابل الهفوةَ باستتابة المنيب ، ومن لا يتخطّى عندك محلّه الذي حلّه ، فربّما عمد إلى المبرَمِ فحلّه ، وحسِّنِ النيّةَ لهم

بجهد الاستطاعة ، واغتفر المكارهَ في جنب حسن الطاعة ، وإن ثار جرادهم ، واختلف في طاعتك مُرَادهم ، فتحصنْ لثورتهم ، واثبت لفورتهم ، فإذا سالوا وسلّوا ، وتفرقوا وانسلّوا ، فاحتقرْ كثرتهم ، ولا تُقِلْ عثرتهم ، واجعلهمْ لما بينَ أيديهم وما خلفهم نكالاً ، ولا تتركْ لهم على حلمك اتكالاً .

« ثم قال : والوزيرُ الصالح أفضلُ عددك ، وأوصلُ مددك ، فهو الذي يصونك عن الابتذال ، ومباشرة الأنذال ، ويثبُ لك على الفرصة ، وينوبُ في تجرع الغصَّة ، واستجلاء القصة ، ويستحضرُ ما نسيتَهُ من أمورك ، ويغلبُ فيه الرأي بموافقة مأمورك ، ولا يسعه ما تمكنك المسامحة فيه ، حتّى يستوفيه ، واحذر مصادمة تياره ، والتجوز في اختياره ، وقدّمِ استخارةَ الله تعالى في إيثاره ، وأرسل عيون الملاحظة على آثاره ، وليكن معروفاً بالإخلاص لدولتك ، معقود الرضى والغضب برضاك وصَوْلَتك ، زاهداً عمّا في يديك ، مؤثراً لكل ما يُزْلِفُ لديك ، بعيد الهمّة ، راعياً للأذمّة ، كامل الآلة ، محيطاً بالإيالة ، رحيب الصدر ، رفيع القدر ، معروف البيت ، نبيه الحيّ والميت ، مؤثراً للعدل والإصلاح ، دريّاً بحمل السلاح ، ذا خبرة بدخل المملكة وخَرْجها ، وظهرها وسرجها ، صحيح العقد ، متحرزاً من النقد ، جادّاً عند لهوك ، متيقظاً في حال سَهْوِك ، يلينُ عند غضبك ، ويَصِلُ الإسهابَ بمقتضبك ، قلقاً من شكره دونك وحمده ، ناسباً لك الإصابةَ بعَمْده ، وإن أعيا عليك وجودُ أكثر هذه الخلال ، وسبق إلى نقضها شيء من الاختلال ، فاطلبْ منه سكونَ النفس وهدونها ، وأن لا يرى منك رتبةً إلاّ رأى قَدْرَه دونها ، وتقوى الله تعالى تفضلُ شرفَ الانتساب ، وهي للفضائل فَذْلَكةُ الحساب ، وساوِ في حفظ غَيْبه بين قربه ونأيه ، واجعل حظَّهُ من نعمتك موازياً لحظِّك من حُسْنِ رأيه ، واجتنب منهم من يرى في نفسه إلى الملك سبيلاً ، أو يقودُ من عِيصِه للاستظهار عليك قبيلاً ، أو من كاثر مالَكَ مالُه ، أو من تقدم لعدوك استعماله ، أو من سَمَتْ لسواك آماله ، أو من يَعْظُم عليه إعراضُ وجهك ، وبِهمّةُ نادرُ تَجْهك ،

أو من يداخلُ غيرَ أحبابك ، أو من ينافسُ أحداً ببابك .

«وأمّا الجند فاصرف التقديمَ منهم للمقاتلة ، والمكايدة والمخاتلة ، واستوفِ عليهم شرائط الخدمة ، وخذهمْ بالثباتِ للصدمة ، ووفّ ما أوجبتَ لهم من الجراية والنعمة ، وتَعاهدهم عند الغَناء بالعَلْفةِ والطعمة ، ولا تكرمْ منهم إلاّ من أكرمه غَناؤه ، وطاب في الذبّ عن ظنك ثناؤه ، وولِّ عليهم النبهاء من خيارهم ، واجتهدْ في صرفهم عن الافتتان بأهليهم وديارهم ، ولا توطئهم الدَّعَة مهاداً ، وقدمهمْ على حصصك وبعوثك مهما أردت جهاداً ، ولا تلينْ لهم في الإغماضِ عن حسن طاعتك قياداً ، وعوّدهم حُسْنَ المواساةِ بأنفسهم اعتياداً ، ولا تسمحْ لأحدٍ منهم في إغفالِ شيء من سلاحِ استظهاره ، أو عُدَّةِ اشتهاره ، ولْيَكُنْ ما فضل من شِبَعهم وريّهم ، مصروفاً إلى سلاحهم وزيّهم ، والتزيد في مراكبهم وغلمانهم ، من غير اعتبار لأثمانهم ، وامنعهم من المستغلاّت والمتاجر ، وما تكسّب به غير المشاجر ، وليكن من الغوار اكتسابهم ، وعلى المغانم حسابهم ، كالجوارحِ التي تفسد باعتيادها ، أن تَطْعَمَ من غير اصطيادها .

«واعلم أنّها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان ، إلاّ لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان ، ويملك حركاتها بالتقويم ، ورُتَبَها بالميزان القويم ، ومن تثق بإشفاقه على أولادها ، ويشتري رضى الله تعالى بصبره على طاعته وجِلادها ، فإذا استشعَرتَ لها هذه الخلالَ تقدمتك إلى مواقفِ التلف ، مطيعةً دواعي الكلف ، واثقةً منك بحسن الخلف ، واستبق إلى تمييزهم استباقاً ، وطبِّقهم طباقاً ، أعلاها من تأملتَ منه في المحاربة عنك أخطاراً ، وأبعدُهم في مرضاتك مَطاراً ، وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزماً ووقاراً ، واستهانة بالعظائم واحتقاراً ، وأحسنهم لمن تقلّده أمرك من الرعية جِواراً ، إذا أجدت اختباراً ، وأشَدّهم على مماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصطباراً ، ومن بَلا في الذي عنّ لك إحلاء وإمراراً ، ولحقه الضر في معارض الدفاع

عنك مراراً ، وبعده مَنْ كانت محبّـته لك أزيد من نَجْدَته ، وموقعُ رأيه أنفعَ من موقع صَعْدته ، وبعدهما مَنْ حَسُنَ انقيادُهُ لأمرائك ، وإحماده لآرائك ، ومَنْ جعل نفسه من الأمر حيث جعله ، وكان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده بما فعله . واحذر منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه في الانتفاع ، ولم يستحيِ من التزيد بأضعاف ما بذله من الدفاع ، وشكا البخس فيما تعذّر عليه من فوائدك ، وقاس بين عوائد عدوّك وعوائدك ، وتوعد بانتقاله عنك وارتحاله ، وأظهر الكراهية لحاله .

«وأما العمال فإنّـهم ينبئون عن مذهبك ، وحالهم في الغالب شديدة الشبه بك ، فعرِّفهم في أمانتك السعادة ، وألزمهمْ في رعيتك العادة ، وأنزلهمْ من كرامتك بحسب منازلهم في الاتصاف ، بالعدلِ والإنصاف ، وأحِلّهم من الحفاية ، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية ، وقِفهم عند تقليد الأرجاء ، مواقفَ الخوف والرجاء ، وقرِّرْ في نفوسهم أن أعظمَ ما به إليك تقربوا ، وفيه تدربوا ، وفي سبيله أعجموا وأعربوا ، إقامةُ حقّ ودَحْضُ باطل ، حتى لا يشكو غريمٌ مَطْلَ ماطل ، وهو آثر لديك من كل رَبابٍ هاطل ، وكفّهم من الرزق الموافق ، عن التصدي لدنيء المرافق ، واصطنعْ منهم من تيسرتْ كلفته ، وقويتْ للرعايا ألفته ، ومن زاد على تأميله صبرُه ، وأربى على خَبَرِه خُبْرُه ، وكانت رغبته في حسن الذكر ، تشفُّ على بناتِ الفكر ، واجتنبْ منهم من يغلبُ عليه التخرقُ في الإنفاق ، وعدم الإشفاق ، والتنافس في الاكتساب ، وسَهُلَ عليه سوء الحساب ، وكانت ذريعته المصانعة بالنفاية ، دون التقصي والكفاية ، ومن كان منشؤه خاملاً ، ولأعباء الدناءة حاملاً ، وابْغِ مَنْ يكون الاعتذارُ في أعماله ، أوضحَ من الاعتذار في أقواله ، ولا يفتننك ممّن قلدته اجتلابُ الحظّ المقنع ، والتنفقُ بالسعي المسمع ، ومخالفة السّنن المرعية ، واتباعـه رضاك بسخط الرعية ، فإنّه قد غَشّك ، من حيث بَلّك ورَشّك ، وجعل من يمينك

في شمالك ، حاضر مالك ، ولا تُضَمّنْ عاملاً مال عمله ، وحُلْ بينه فيه وبين أمله ، فإنّك تميتُ رسومك بمحياه ، وتخرجه من خدمتك فيه إلا أن تملكه إيّاه ، ولا تجمع لَهُ بين الأعمالِ فيسقط استظهارك ببلد على بلد ، والاحتجاج على والدٍ بولد ، واحرصْ على أن يكونَ في الولاية غريباً ، ومنتقلُهُ منك قريباً ، ورهينةً لا يزال معها مريباً ، ولا تقبلْ مصالحته على شيء اختانه ، ولو برغبية فتّانه ، فتقبلَ المصانعةَ في أمانتك ، وتكونَ مشاركاً لَهُ في خيانتك ، ولا تُطِلْ مدة العمل ، وتعاهد كشف الأمور ممّن يَرْعى الهمل ، ويبلغ الأمل .

«وأمّا الولد فأحْسِنْ آدابهم ، واجعل الخير دابهم ، وخَفّفْ عليهم من إشفاقك وحنانك ، أكثر من غلظةِ جنانك ، واكتمْ عنهم ميلك ، وأفضْ فيهم جودك ونَيْلك ، ولا تستغرقْ بالكلَف بهم يومَكَ ولا لَيْلَكَ ، وأثِبْهُمْ على حُسْنِ الجواب ، وَسَبّقْ لهم خوفَ الجزاء على رجاء الثواب ، وعلّمهم الصبرَ على الضرائر ، والمهلة عند استخفاف الجرائر ، وخذهم بحسن السرائر ، وحبب إليهم مراسَ الأمور الصعبة المِراس ، وَحُسْنَ الاصطناع والاحتراس ، والاستكثار من أُولي المراتب والعلوم ، والسياسات والحلوم ، والمقام المعلوم ، وكرّهْ إليهم مجالسة الملهين ، ومصاحبة الساهين ، وجاهد أهواءهم عن عقولهم ، وحذّرِ الكذبَ على مَقُولهم ، ورشّحْهُمْ إذا آنست منهم رُشْداً أو هَدْياً ، وأرضعهم من الموازرة والمشاورة ثدياً ، لتمرّنهم على الاعتياد ، وتحملهم على الازدياد ، ورُضْهُم رياضة الجياد ، واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم ، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم ، وتدارك الخلق الذميمة كلّما نَجَمَت ، واقدعها إذا هجمت ، قبل أن يظهر تضعيفها ، ويقوى ضعيفها ، فإن أعجزتك في الصغر الحيل ، عظم الميل :

إنّ الغُصونَ إذا قوّمتها اعتدلت   ولَنْ تَلينَ إذا قومتها الخشبُ

وإذا قدروا على التدبير ، وتشوفوا للمحل الكبير ، إياك أن تورطنهم في

مكانك ، جهد إمكانك ، وفرقهم في بلدانك ، تفريق عبدانك ، واستعملهم في بعوث جهادك ، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك ، فإنَّ حَضْرَتك تشغلهم بالتحاسد ، والتباري والتفاسد ، وانظر إليهم بأعين الثقات فإن عين الثقة تُبْصِرُ ما لا تبصر عين المحبّة والمِقَة .

«وأمّا الخدم فإنّهم بمنزلة الجوارح التي تفرق بها وتجمع ، وتبصر وتسمع ، فرُضْهُم بالصدق والأمانة ، وصُنهم صَوْن الحُمانة ، وخذهم بحسنِ الانقياد إلى ما آثرته ، والتقليل ممّا استكثرته ، واحذرْ منهم من قويتْ شَهَواته ، وضاقت عن هواه لهواته ، فإن الشهواتِ تنازعُكَ في استرقاقه ، وتشاركك في استحقاقه ، وخيّرْهم من ستَرَ ذلك منه بلطف الحيلة ، وآدابٍ للفساد محيلة ، وأشْرِبْ قلوبهم أنَّ الحقَّ في كلّ ما حاولته واستنزلته ، وأن الباطلَ في كلّ ما جانبته واعتزلته ، وأن مَنْ تصفَّحَ منهم أمورك فقد أذنب ، وبايَنَ الأدبَ وتجنّب ، وأعْطِ من أكددته ، وأضقتَ منه مَلَكَتَهُ وشددته ، رَوْحَةً يشتغلُ فيها بما يعنيه ، على حسب صعوبة ما يُعانيه ، تغبطهم فيها بمسارحهم ، وتجمّ كليلةَ جوارحهم ، ولتكنْ عطاياك فيهم بالمقدار الذي لا يُبطر أعلامهم ، ولا يُؤْسِفُ الأصاغرَ فيفسد أحلامهم ، ولا تَرْمِ مُحْسِنَهُمْ بالغايةِ من إحسانك ، واتركْ لمزيدهم فضلة من رفدك ولسانك ، وحذِّرْ عليهم مخالفتك ولو في صلاحك ، بحدّ سلاحك ، وامنعهمْ من التواثُبِ والتشاجُر ، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر ، واستخلصْ منهم لسرك من قلّتْ في الإفشاء ذنوبه ، وكان أصبرَ على ما ينوبه ، ولودائعك من كانتْ رغبته في وظيفةِ لسانك ، أكثر من رغبته في إحسانك ، وضبطُهُ لما تقلّد من وديعتك ، أحبَّ إليه من حسن صنيعتك ؛ وللسفارة عنك مَنْ حلا الصدق في فمه ، وآثره ولو باختطار دمه ، واستوفى لك وعليك فهم ما تحمّله ، وعُني بلفظه حتى لا يهمله ، ولمن تودعه أعداء دولتك مَنْ كان مقصور الأمل ، قليل القول صادق العمل ، ومن كانت

قسوته زائدة على رحمته ، وعَظْمه في مرضاتك آثر من شحمته ، ورأيه في الحذر سَديد ، وتَحرُّزه من الحيل شديد ؛ ولخدمتك في ليلك ونهارك مَنْ لانت طباعه ، وامتد في حسن السجيّة باعُه ، وأمن كيده وغدره ، وسلم من الحقد صدره ، ورأى المطامع فما طمع ، واستثقل إعادة ما سمع ، وكان بريئاً من المَلال ، والبشر عليه أغلب الخلال ، ولا تؤنسهم منك بقبيح فعل ولا قول ، ولا تؤيسهم من طَوْل ، ومكن في نفوسهم أن أقوى شفعائهم ، وأقرب إلى الإجابة من دعائهم ، إصابة الغرض فيما به وكلوا ، وعليه شكلوا ، فإنّك لا تعدم بهم انتفاعاً ، ولا يعدمون لديك ارتفاعاً .

«وأمّا الحرم فهنّ مغارس الوُلد ، ورياحين الخُلد ، وراحة القلب الذي أجهدته الأفكار ، والنفس التي تقسَّمها الإحماد إلى المساعي والإفكار ، فاطلب منهن من غلب عليهن من حسن الشيم ، المترفعة عن القيم ، ما لا يسوءُك في خلدك ، أن يكون في ولدك ، واحذر أن تجعل لفكرٍ بشرٍ دون بصرٍ إليهن سبيلاً ، وانصبْ دون ذلك عذاباً وبيلاً ، وأرْعِهِنّ من النساء العُجُزِ مَنْ بانت في الديانة والأمانة سبله ، وقويَتْ غيْرته ونبله ، وخذهنّ بسلامة النيات ، والشيم السنيّات ، وحسن الاسترسال ، والخلق السّلسال ، وحَذِّر عليهنّ التغامُزَ والتغاير ، والتنافس والتخاير ، وآسِ بينهن في الأغراض ، والتصامم عن الإعراض ، والمحاباة بالأعراض ، وأقلل من مخالطتهن فهو أبقى لهمتك ، وأسبلُ لحرمتك ، ولتكن عشرتك لهن عند الكلال والملال ، وضيق الاحتمال ، بكثْرة الأعمال ، وعند الغضب والنوم ، والفراغ من نَصَبِ اليوم ، واجعل مَبيتَكَ بينهن تَنَمِ بركاتك ، وتسترْ حركاتك ، وافصل من ولدتْ منهن إلى مسكنٍ تختبرُ به استقلالها ، وتعتبر بالتفردِ خلالها ، ولا تطلق لحرمةٍ شفاعةً ولا تدبيراً ، ولا تَنُطْ بها من الأمرِ صغيراً ولا كبيراً ، واحذرْ أن يظهر على خدمهن في خروجهن عن القصور ، وبروزهن من أجَمةِ الأسد الهَصُور ، زي بارع ، ولا طيب للأنوف مسارع ، واخصص بذلك مَنْ طعن في السن ، ويئس من الإنس

والجن ، ومن توفّر النزوع إلى الخيرات قبله ، وقصر عن جمال الصورة ورُسم بالبَلَه .

«ثمّ لمّا بلغ إلى هذا الحد حمي وطيس استحفاره ، وختم حِزْبَهُ باستغفاره ، ثم صمت مَلِيّاً ، واستعاد كلاماً أوّليّاً .

«ثم قال : واعلم يا أمير المؤمنين – سدد الله تعالى سهمك لأغراض خلافته وعصمك من الزمان وآفته – أنّك في مجلس الفصل ، ومباشرة الفرع من ملكك والأصل ، في طائفة من عز الله تعالى تذبُّ عنك حُماتها ، وتدافع عن حوزتك كماتها ، فاحذر أن يعدل بك غضبك عن عدل تزري منه بضاعة ، أو يهجم بك رضاك على إضاعة ، ولتكن قدرتك وقفاً على الاتصاف ، بالعدل والإنصاف ، واحكم بالسّوية ، واجنح بتدبيرك إلى حسن الرويّة ، وخَفْ أن تقعد بك أناتك عن حزم تعين ، أو تستفزك العجلة في أمر لم يتبين ، وأطع الحجة ما توجهت إليك ، ولا تحفلْ بها إذا كانت عليك ، فانقيادك إليها أحسنُ من ظفرك ، والحق أجدى من نَفرك ، ولا تردّنّ النصيحة في وجه ، ولا تقابل عليها بنَجْه ، فتُمنعها إذا استدعيتها ، وتُحجب عنك إن استوعيتها ، ولا تستدعها من غير أهلها ، فيشغبك أولو الأغراض بجهلها ، واحرص على أن لا ينقضي مجلس جلسته ، أو زمن اختلسته ، إلا وقد أحرزت فضيلة زائدة ، أو وثقت منه في مَعادك بفائدة .

«ولا يزهدنك في المال كثرته ، فتقل في نفسك أثرته ، وقس الشاهد بالغائب ، واذكر وقوع ما لا يحتسب من النوائب ، فالمال المصون ، أمنع الحصون ، ومَنْ قل ماله ، قصرت آماله ، وتهاون بيمينه شماله ، والملك إذا فقد خزينه ، أخنى على أهل الجدة التي تزينه ، وعاد على رعيته بالإجحاف ، وعلى جبايته بالإلحاف ، وساء معتاد عيشه ، وصغر في عيون جيشه ، ومَنّوا عليه بنصره ، وأنفوا من الاقتصار على قصره ، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه ، وتربط آمال أهل السلاح به ، والمال نعمة الله تعالى فلا تجعله ذريعة إلى خلافه ، فتجمع

بالشهوات بين إتلافك وإتلافه ، واستأنس بحسن جوارها ، واصرف في حقوق الله تعالى بعضَ أطوارها ، فإن فَضَلَ المالُ عن الأجل فأجَلّ ، ولم يضر ما خلف منه بين يدي الله عزّ وجلّ ، وما ينفق في سبيل الشريعة ، وسد الذريعة ، مأمول خَلَفُه ، وما سواه فمتعين تَلَفُه .

«واستخلص لنواديك الغاصة ، ومجالسك العامة والخاصة ، من يليق بولوج عَتَبها ، والعروج لرتبها ، أمّا العامية فمن عظم عند الناس قدره ، وانشرح بالعلم صدره ، أو ظهر يساره ، وكان لله تعالى إخباته وانكساره ، ومن كان للفتيا منتصباً ، وبتاج المشورة معتصباً ، وأمّا الخاصية فمن رَقّت طباعه ، وامتد فيما يليق بتلك المجالس باعه ، ومن تبحر في سير الحكماء ، وأخلاق الكرماء ، ومن له فضل سافر ، وطبع للدّنية منافر ، ولديه من كل ما تستتر به الملوك عن العوام حظ وافر ، وصف ألبابهم بمحصول خيرك ، وسكّن قلوبهم بيُمْن طيرك ، وأغْنِهِمْ ما قدرت عن غيرك . واعلم بأن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألّقة ، والمصابيح المتعلّقة ، وعلى قدر تَعاهدها تَبذلُ من الضياء ، وتجلو بنورها صُوَرَ الأشياء ، وفرّغها لتحبير ما يزين مدتك ، ويحسّن من بعد البلاء جِدّتك ، وبعناية الأواخر ذكرت الأُوَل ، وإذا محيت المفاخرُ خربت الدول .

«واعلم أن بقاء الذكر مشروطٌ بعمارة البلدان ، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان ، فاحرص على ما يوضح في الدهر سُبُلك ، ويحرز المزية على من قبلك ، وأن خير الملوك من ينطق بالحجّة وهو قادر على القَهْر ، ويبذل الإنصاف في السر والجهر ، مع التمكن من المال والظّهر ، ويسار الرعية جمال للملك وشرف ، وفاقتهم من ذلك طرف ، فغلّبْ أليقَ الحالين بمحلك ، وأولاهما بظعنك وحِلّك .

«واعلم أن كرامة الجور دائرة ، وكرامة العدل متكاثرة ، والغلبة بالخير

سيادة ، وبالشر هوَادة ، واعلم أن حسن القيام بالشريعة يحسمُ عنك نكايةَ الخوارج ، ويسمو بك إلى المعارج ، فإنّها تقصدُ أنواع الخدع ، وتوري بتغيير البدع ، وأطلق على عدوك أيدي الأقوياء من الأكفاء ، وألسنةَ اللفيفِ من الضعفاء ، واستشعر عند نكثه شعارَ الوفاء .

«ولتكنْ ثقتك بالله تعالى أكثرَ من ثقتك بقوة تجدها ، وكتيبة تنجدها ، فإن الإخلاص يمنحك قوى لا تُكتسب ، ويمهّد لك مع الأوقات نصراً لا يحتسب .

«والتمس أبداً سلْمَ من سالمك بنفيس ما في يدك ، وفَضّلْ حاصلَ يومك على مُنْتَظَر غدك ، فإن أبى وضحتْ محجتك ، وقامت عليه للناسِ بذلك حجتك ، فللنفوس على الباغين مَيْل ، ولها من جانبه نَيْل ، واستهد في كلّ يومٍ سيرةَ من يناويك ، واجتهد أن لا يوازيك في خير ولا يساويك ، وأكذبْ بالخير ما يُشيعه من مساويك ، ولا تقبل من الإطراء إلاّ ما كان فيك فضل عن إطالته ، وجدّ يُزْرِي على بطالته ، ولا تلقَ المذنبَ بحميّتك وسبّكَ ، واذكر عند حركةِ الغضب ذنوبك إلى ربك ، ولا تنسَ أن ربّاً المذنب أجلسك مجلسَ الفصل ، وجعل في قبضتك رياشَ النصل . وتشاغلْ في هدنةِ الأيام بالاستعداد ، واعلم أن التراخي منذرٌ بالاشتداد ، ولا تهملْ عَرْضَ ديوانك ، واختبارَ أعوانك ، وتحصينَ معاقلك وقلاعك . وعُمّ إيالتك بحسن اطلاعك ، ولا تشغل زَمَنَ الهدنة بلذاتك ، فتجني في الشدة على ذاتك ، ولا تطلقْ في دولتك ألسنةَ الكهانة والإرجاف ، ومطاردة الآمال العِجاف ، فإنّه يبعثُ سوء القول ، ويفتحُ باب العَوْل ، وخذ على المدرسين والمتعلمين ، والعلماء والمتكلمين ، حَمْلَ الأحداث على الشكوك الخالجة والمزَلاّت الوالجة ، فإنّه يفسدُ طباعهم ، ويغري سباعهم ، ويمدّ في مخالفة الملّة باعَهم ، وسُدّ سبيلَ الشفاعاتِ فإنّها تفسد عليك حُسْنَ الاختيار ، ونفوسَ الخيار ، وابذل في الأسرى من حُسْنِ ملكتك ما يرضي مَنْ ملّكَكَ رقابها ، وقلّدك ثوابها وعقابها ، وتَلَقّ بدء نهارك بذكر الله تعالى في ترفّعك وابتذالك ، واختم اليوم بمثل ذلك .

« واعلم أنّك مع كثرة حُجّابك ، وكثافة حِجابك ، بمنزلة الظاهر للعيون ، المطالَب بالديون ، لشدةِ البحثِ عن أمورك ، وتعرّفِ السرّ الخفي بين أمرك ومأمورك ، فاعملْ في سرك ما لا تستقبحُ أن يكونَ ظاهراً ، ولا تأنفْ أن تكون به مُجاهراً ، وأحْكِمْ بَرْيَك في الله ونَحْتَكَ ، وخَفْ مَنْ فوقَكَ يخفْ مَنْ تحتك ، واعلم أن عدوّك من أتباعك من تناسيتَ حسنَ قَرْضه ، أو زادت مؤونته على نصيبه منك وفَرْضه ، فأصمتِ الحججَ ، وتوقَّ اللّجج ، واسترِبْ بالأمل ، ولا يحملنك انتظامُ الأمورِ على الاستهانة بالعمل ، ولا تحقرنْ صغير الفساد ، فيأخذَ في الاستشاد ، واحبس الألسنةَ عن التخالي باغتيابك ، والتشبّثِ بأذيالِ ثيابك ، فإن سوء الطاعة ينتقلُ من الأعينِ الباصرة ، إلى الألسنِ القاصرة ، ثم إلى الأيدي المتناصرة ، ولا تثقْ بنفسك في قتالِ عدوّ ناواك ، حتى تظفرَ بعدوّ غضبِكَ وهواك ، وليكن خوفكَ من سوء تدبيرك ، أكثرَ من عدوكَ الساعي في تتبيرك[1] ، وإذا استنزلت ناجماً[2] ، أو أمنت ثائراً هاجماً ، فلا تقلّده البلد الذي فيه نَجَمَ ، وهَمَى عارضُه فيه وانسجم ، يعظم عليك القدح في اختيارك ، والغَض من إيثارك ، واحترز من كيده في حَوْرك ومأمّك[3] ، فإنّك أكبر هَمّه وليس بأكبر همّك ، وجَمّلِ المملكة بتأمين الفلوات ، وتسهيل الأقوات ، وتجديد ما يُتعامَلُ من الصرفِ في البياعات ، وإجراء العوائد مع الأيام والساعات ، ولا تبخسْ عِيار قِيم البضاعات ، ولتكنْ يدك عن أموال الناس محجورة ، وفي احترامها إلاّ عن الثلاثة مأجورة : مال مَنْ عدا طَورُهُ طَورَ أهله ، وتخارقَ في الملابس والزينة ، وفضولِ المدينة ، يرومُ معارضتك بجهله ؛ ومَنْ باطَنَ أعداك ، وأمِنَ اعتِداك ؛ ومَنْ أساء جوارَ رعيتك بإخْساره ، وبذل الأذاية فيهم بيمينِهِ ويساره .

١ التتبير : الهلاك .
٢ الناجم : الثائر .
٣ الحور : العودة ؛ والمأم : القصد .

وأضَرُّ ما مُنِيتَ به التعادي بين عبدانك ، أو في بلد من بلدانك ، فسُدَّ فيه الباب ، واسأل عن الأسباب ، وانقلهم بوساطة أولي الألباب ، إلى حالة الأحْباب ، ولا تطوّق الأعلامَ أطواقَ المنون ، بهواجسِ الظنون ، فهو أمر لا يقفُ عند حد ، ولا ينتهي إلى عدّ ، واجعلْ ولدك في احتراسك ، حتّى لا يطمعَ في افتراسك .

«ثم لمّا رأى الليلَ قد كاد ينتصف ، وعموده يريدُ أن ينقصف ، ومجال الوصايا أكثر ممّا يصف ، قال : يا أمير المؤمنين ، بحرُ السياسة زاخر ، وعمر المتمتع بناديك مستاخر ، فإن أذنْتَ في فنّ من فنون الأنْسِ يجذبُ بالمقاد ، إلى راحةِ الرقاد ، ويَعْتِقُ النفسَ بقدرة ذي الجلال ، من ملكة الكَلال .

«فقال : أمّا وقد استحسنّا ما سردت ، فشأنك وما أردت .

«فاستدعى عوداً فأصلحه حتّى حمده ، وأبعد في اختباره أمَدَه ، ثم حرك بمّه ، وأطال الجس ثمه ، ثم تغنى بصوت يستدعي الإنصات ، ويصدع الحَصاة ، ويستفز الحليم عن وقاره ، ويستوقفُ الطير ورزقُ بنيه في منقاره ، وقال :

صاحِ ما أعْطَرَ القبولَ بنَمّهْ ... أتراهــا أطالَتِ اللبثَ ثَمّــهْ
هي دارُ الهوى مُنى النفس فيها ... أبدَ الدهرِ والأمانيُّ جَمّهْ
إن يكُنْ ما تأرَّجَ الجوُّ منها ... واستفاد الشــذا وإلا فمِمّهْ
مَــنْ لطرفي بنظرة ولأنفــي ... في رباهــا وفي ثراها بشمهْ
ذُكرَ العهدُ فانتفضتُ كأنّي ... طرقَتْــني مــن الملائكِ لمّــهْ
وطنٌ قد نَضَيْتُ فيــه شباباً ... لم تُدَنّسْ منهُ البرودَ مَذَمّهْ
بنْتُ عنه والنفسُ من أجلِ من قد ... خَلّفَتْهُ خــلاله مُغْتَمّهْ
كان حلماً فويحُ مَنْ أمّلَ الدّهـ ... ـرَ وأعماه جَهْلُه وأصمّهْ
تأمُلُ العيشَ بعــد أن خلقَ الجســ ... ـم وبنيانُــهُ عسيرُ المرمّهْ ؟
وغــدت وَفْرةُ الشبيبــة بــالشيـ ... ـبِ عــلى رغمِ أنفهــا معتمّهْ

فَلَقدْ فازَ سالكٌ جَعَلَ اللّـهَ إلى الله قصدَهُ ومأمّه
من يَبِتْ مِن غرورِ دُنيا بهمّ يلدغُ القلبَ أكثرَ اللهُ همّهْ

ثمّ أحالَ اللّحن إلى لون التنويم ، فأخذ كلٌّ في النعاس والتهويم ، وأطال الجس في الثقيل ، عاكفاً عكوف الضاحي في المقيل ، فخاط عيونَ القوم ، بخيوط النوم ، وعمر بهم المراقد ، كأنّما أدار عليهم الفراقد ، ثم انصرف ، فما علم به أحد ولا عرف ، ولمّا أفاق الرشيد جدّ في طلبه ، فلم يعلم بمُنْقلبه ، فأسف للفراق ، وأمر بتخليد حِكَمه في بطون الأوراق ، فهي إلى اليوم تتلى وتُنقل ، وتجلى القلوب بها وتُصقل ، والحمد لله رب العالمين » انتهى .

قال في « الإحاطة » بعد إيراد نبذة من نثره ما صورته : فهذا ما حضر من المنثور وحظّه عندي من الإجادة ضعيف ، وغرضه كما شاء الله تعالى سخيف ، لكن الله سبحانه بعباده لطيف ؛ انتهى .

١١٠ – وممّا علق بحفظي من نثره قوله في تحليته لبعض أهل زمانه : هو إمام الفئة ، وعينُ أعيان هذه المائة .

١١١ – وقوله في وصْف فاس[١] : نعم العَرِين ، لأسود بني مَرِين ، ذات المشاهد التي منها مطرح الجنّة ومسجد الصابرين :

بَلَدٌ أعارتْهُ الحمامَةُ طَوْقَها وكساه ريشَ جناحه الطاووسُ[٢]
فكأنّما الأنهارُ فيهِ مُدامةٌ وكأنّ ساحات الديار كؤوسُ

جمعت ما ولد سام وحام ، وكثر الالتئام والالتحام ، واشتد الزحام ، إلى

١ انظر مشاهدات لسان الدين : ١١٠ – ١١١ والمقري ينقل من حفظه فلذلك اختلف ما أورده عن النص الأصلي في عدة مواضع ، لا حاجة للإشارة إليها .
٢ مر البيتان والقول في نسبتهما في المجلد ١ : ١٦٩ .

أن قال : يلقى الرجل أبا مثواه فلا يدعوه لبيته ، ولا يُطْعمه من بَقْله وزيته ؛ لا يطرق الضيف حِماهم ، ولا يعرف اسمهم ولا مسمّاهم ﴿إلاّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ وَقَلِيلٌ ما هم﴾ (ص : ٢٤) .

١١٢ – وقوله في وصف مراكش المحروسة : ذات المقاصر والقصور ، ومأوى اللّيث الهَصُور ، ومسكن الناصر والمنصور ، إلى أن قال : ومنارها في الفَلاة ، بمنزلة وَالي الولاة . ثمّ بعد كلام : إلاّ أن خرابها هائل ، وزحامها حرب وائل ، وعقاربها كثيرة الدبيب ، منغصة لمضاجعة الحبيب ؛ انتهى ما كتبته من حفظي لطول العهد .

١١٣ – وقال رحمه الله تعالى في وصف مدينة بَسْطة [1] من كلام لم يحضرني جميعه الآن : محل خصيب ، ومنزل رحيب ، وكفاها مسجد الجنّة دليلاً على البركة وباب المسك دليلاً على الطيب ، ولها من اسمها نصيب ، إذ هي بحر الطعام ، وينبوع العيون المتعددة بتعدّد أيام العام ؛ انتهى .

[في ذكر بسطة]

ولمّا أجرى ذكر بسطة الإمام أبو الحسن القَلَصادي [2] في رحلته قال : سقى الله تعالى أرجاءها المشرقة ، وأغصانها المورقة ، شآبيبَ الإحسان ، ومهدها بالهدنة والأمان ، دار تخجل منها الدور ، وتتقاصر عنها القصور ، وتقرّ لها بالقصور ، مع ما حوته من المحاسن والفضائل ، من صحّة أجسام أهلها وما طُبعوا

---

١ المشاهدات : ٣١ .
٢ أبو الحسن القلصادي علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي نزيل غرناطة ، آخر من له التواليف الكثيرة من أئمة الأندلس (إذ توفي سنة ٨٩١) . وقد ترجم له المقري في الراحلين إلى المشرق (ج ٢ : ٦٩٢) .

عليه من كرم الشمائل ، وحسبك فيها من عدم الحرج ، أن داخلها باب الفرج ؛
ثم قال : ولله در القائل :

دارٌ مشى الإتقانُ في تنجيدها حتى تناسَبَ روضُها وبناؤها
مرقومةُ الجنباتِ ذاتُ قرارةٍ يمتدُّ قُدَّامَ العيونِ فضاؤها
ما زال يضحكُ دائماً نوّارها في وجهِ ساحتهِ ويلعبُ ماؤها

ولبعض أصحابنا فيها وهو الأديب الكاتب أبو عبد الله ابن الأزرق :

في بسطةٍ حيثُ الأباطحُ مُشْرِقه أضحتْ جفوني بالمحاسنِ مُغْلَقه

وله أيضاً في تورية :

قلْ لمَنْ رام النوى عن وَطَنٍ قَوْلَةً ليسَ بها من حَرَجِ
فرّجِ الهمَّ بسكنى بسطةٍ إنَّ في بسطةَ بابَ الفَرَجِ

رجع :

١١٤ – ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به السلطان على لسان جدّته ، وهو :

« إلى قرّة أعيننا وأعين المؤمنين ، وفلذة كبدنا الذي نصل للقائه الحنين بالحنين ، وعزّنا الذي حللنا من كَنَفه بالحرم الأمين ، وسرّنا الذي خلفنا برضاه من أفقده الدهر من كرم البنين ، ووارثنا المستأثر بعدنا بطول السنين ، أمير المسلمين الأسعد المؤيّد الموفّق الطاهر البر الرحيم الأرضى الكافل الفاضل حفيدنا محمد ابن ولدنا الرضى وواحدنا الكريم الحفي السلطان الكبير الجليل السعيد الطاهر الظاهر المقدس ، جعل الله تعالى من عصمته لزيماً يرافقه ، وأجرى القدر بما يوافقه ، وحفظ عليه الكمال الذي تناسب فيه خلقه وخلائقه ، والبر الذي حسنت فيه طرقه وطرائقه .

« من المستظلة بظلال رضاه وبرّه ، المبتهلة إلى الله تعالى في عزّ نصره ، وسعادة أمره ، الداعية إلى الله تعالى أن يسرّها في الحياة وما بعدها بسترِه ، وما يَفْضل عمرها من عمره ، جدته التائقة إليه ، كتبته من كَنَفه العزيز بحَمْرائه العلية عن الخير الدائم بدوامه ، واليسر الملازم ببركة أيامه ، ولا زائد بفضل الله تعالى إلا الشوق إليه ، وتحويم الكبد الخافقة خفوق رايته عليه ، وتجهيز مواكب الدعاء المقبول من خلفه ومن بين يديه .

« وقد وصل كتابه العزيزُ الوفادةِ والوصول ، الكريمُ الجُمَلِ والفصول ، مُطْلعُ وجهِ السرورِ والجذل ، ومُهْدي قَصِيّ الأمل ، ومجددُ العهدِ بحديثه الذي في ضمنه شفاء الغُلَلِ ، وبرء العِلَلِ ، مُهْدِياً تحفة عافيته وهي الهدية التي جَلّتْ عن المكافاة ، وترفعت عن المجازاة ، إنّما يجازي عليها مَنْ يصل بفضله عادتَها ، ويُوالي بعد الإبداء إعادتَها . ووصفتم يا ولدي ما عرفتم من نعم الله تعالى التي انثالت عليكم سَحابُها ، وعنايته التي يلقى ركابكم تسهالها وترحابها ، واستبشار الجهات بقدومكم الميمون ، واجتلاء وجهكم الذي فيه للإسلام قرّة العيون ، وكيف لا يكون ذلك وأنتم ذخرهم العزيز ، وحرزهم الحريز ، والندرة التي خلصها من معادن سلفكم الذهب الإبريز ، في أيامكم والحمد لله نامت أجفانهم ، وتكيف أمانهم ، نسأل الله تعالى أن يديم لنا ولهم نعمة بقائكم ، ويُعْلي الدين بعلوّكم في معارج العز وارتقائكم ، فقابلنا ما قرره سلطانكم بالحمد والثناء ، والشكر المتصل على الآناء ، ومحضتكم من خالص الدعاء ، ما يتكفّل لكم بالحسنى وما وعد الله تعالى من نيل الرجاء ، وتمهيد الأرجاء ، وأصدرت هذا الجواب لكم مصدر الهناء ، بنعم الله تعالى المُغْدقة والآلاء ، ونسألُ من فضلكم وبركم صلةَ التعريفِ بمثلِ هذه الأخبارِ السارة والأنباء ، وإتحافَنا بمثلها مع الصباح والمساء ، وإن كان مجدكم غنيّاً عن الشبه لمثل هذه الأشياء ، أدام الله تعالى لكم أسبابَ البقاء ، وكان لكم في كلّ حال ، من إقامة وارتحال ، بعزّة وجهه وقدرته » انتهى .

ويرحم الله تعالى لسان الدين ابن الخطيب ، فإنّه يعبّر في كلّ مقامٍ بما يليق ، فتارة يترقى في أدراج البراعة ، وطوراً يهتك عنانَ اليراعة .

[شعر لسان الدين]

وأمّا شعر لسان الدين رحمه الله تعالى فهو من النهاية في الحسن ، وقد قدمنا في هذا الكتاب منه نبذة في أثناء نثره وكلامه الذي جلبناه ، وفي مواضع غيرهما ، جملةً مفيدة من شعره رحمه الله تعالى .

وقال رحمه الله تعالى في « الإحاطة » ما نصّه : الشعر — ولنثبت جملة من مطوّلاته ، ونتله بشيء من مقطوعاته ، ونقدم من المطوّلات أمداحَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم تبركاً بها ، فمن ذلك قولي[1] :

هل كنتَ تعلم في هبوبِ الريحِ … نَفَسَاً يؤججُ لاعجَ التبريحِ
أهدتكَ من شيحِ الحجازِ تحيةً … فاحَتْ لها عَرْضَ الفجاجِ الفيحِ
بالله قلْ لي كيف نيرانُ الهوى … ما بينَ ريحٍ في الفلاةِ وشيحِ
وخضيبةِ المنقارِ تحسبُ أنّها … نهلتْ بموردِ دمعيَ المَسْفُوحِ
باحَتْ بما تخفي وناحتْ في الدجى … فرأيتُ في الآماق دَعْوَةَ نوحِ
نطقتْ ، بما يخفيه قلبي ، أدمعي … ولطالما صمتتْ عَنِ التصريحِ
عَجباً لأجفانٍ حملنَ شهادةً … عن خافتٍ بينَ الضلوع جريحِ
ولقلّما كتبتْ رُوَاةُ مدامعي … في صفحتيها حليةَ التجريحِ
جاد الحمى بعدي وأجراعَ الحمى … جَوْدٌ تكلُّ به متونُ الريحِ
هنَّ المنازلُ ، ما فؤادي بعدها … سالٍ ، ولا وجدي بها بمريحِ
حسبي وَلُوعاً أن أزورَ بفكرتي … زوّارها والجسمُ رهنُ نزوحِ[2]

١ الإحاطة ، الورقة : ٤١٣ .
٢ الإحاطة : رهن ضريح .

فأبثُّ فيها من حديثِ صبابتي وأحثُّ فيها من جناح جنوحي
ودُجنَّةٍ كادتْ تضلُّ بها السُّرى لولا وَميضا بارقٍ وصفيحِ
رعشتْ كواكبُ جوِّها فكأنَّها وَرِقٌ تُقلّبها بنانُ شَحيحِ
صابرتُ منها لجَّةً مهما ارتمتْ وطمتْ رميتُ عُبابها بسَبُوحِ
حتى إذا الكفُّ الخضيبُ بأفقها مسحتْ بوجهٍ للصباح صَبيحِ
شمتُ المنى وحمدتُ إدلاجَ السُّرى وزجرتُ للآمالِ كلَّ سَنيحِ
فكأنَّما ليلي نسيبُ قصيدتي والصبحُ فيـهِ تخلّصي لمديحِ
لمَّا حَطَطْتُ لخيرِ من وطىء الثرى بعِنانَ كلِّ مولَّدٍ وصريحِ
رحمى إله العرشِ بينَ عبادهِ وأمينهِ الأرْضَى على ما يوحي
والآيةُ الكبرى التي أنوارها ضاءتْ أشعَّتها بصفحةِ يُوحِ [1]
ربُّ المقامِ الصّدقِ والآي التي راقتْ بها أوراقُ كلِّ صحيحِ
كهفُ الأنام إذا تفاقم مُعْضِلٌ مثَلُوا بساحةِ بابهِ المَفتوحِ
يردون مِنهُ على مَثابةِ راحمٍ جَمٍّ الهباتِ عن الذنوبِ صَفوحِ
لهفي على عُمْرٍ مضى أنضيتُهُ في ملعبٍ للتُرّهاتِ فَسيحِ
يا زاجرَ الوَجْناء يعتسفُ الفَلا والليلُ يعثرُ في فضول مُسُوحِ
يَصِلُ السُّرى سبقاً إلى خير الورى والركبُ بينَ مُوَسَّدٍ وطريحِ
لي في حمى ذاكَ الضريحِ لُبانةٌ إن أصبحَتْ لُبْنى أنا ابن ذَريحِ
وبمهبطِ الروح الأمينِ أمـانـةٌ اليُمنُ فيهـا والأمانُ لروحي
يا صفوةَ اللهِ المكينَ مَكانُهُ يا خيرَ مؤتمنٍ وخيرَ نصيحِ
أقرضتُ فيك اللهَ صدقَ محبّتي أيكونُ تَجْري فيك غيرَ ربيحِ
حاشا وكلاًّ أن تخيبَ وسائلي أو أن أرى مسعايَ غيرَ نجيحِ
إن عاقَ عنكَ قبيحُ ما كسبتْ يدي يوماً فَوجْهُ العفوِ غـيرُ قَبيحِ

[1] يوح : اسم الشمس .

واخجلتي من حلبة الفكرِ التي أغْريتُهـــا بغرامـــيَ المشروحِ
قصرتْ خطاها بعدَما ضمّرتها من كلّ موفورِ الجمام جَمُوحِ
مَدَحتْك آياتُ الكتابِ فما عسى يُثْني على علياكَ نظمُ مديحي
وإذا كتابُ الله أثنى مفصحاً[1] كان القصورُ قُصارَ كلّ فصيحِ
صلّى عليكَ الله ما هبّتْ صباً فهفَتْ بغصنٍ في الرياض مَرُوحِ
واستأثر الرحمنُ جَلّ جلاله عن خلقهِ بخفيّ سِرّ الروحِ

وأنشدتُ السلطانَ مَلِكَ المغرب ليلة الميلاد الأعظم من عام ثلاثة وستين وسبعمائة هذه القصيدة :

تألّقَ نَجْدِيّاً فأذْكَرَني نَجْدا وهاجَ بِي الشوقَ المبَرِّحَ والوَجْدا
وَميضٌ رأى بُرْدَ الغمامة مُغْفلاً فمدّ يَداً بالتبرِ أعلمتِ البردا
تبسّمَ في بحريّـــةٍ[2] قـــد تجهّمَتْ فما بذلَتْ وصلاً ولا ضربَتْ وعدا
وراوَدَ منها فاركاً قَدْ تنعّمتْ فأهْوى لهـــا نصلاً وهددها رعدا
وأغرى بها كفّ الغِلابِ فأصبحَتْ ذَلُولاً ولَمْ تَسْطِعْ لإمرته ردّا
فحُلّتها الحمراء من شَفَقِ الضحى نَضاها وحلّ المزنَ من جيدها عقدا
لكَ الله من برقٍ كأنّ وميضَهُ يدُ الساهرِ المقرورِ قد قَدَحَتْ زندا
تعلّمَ من سكانه شِيَمَ الندى فغادر أجراعَ الحمى روضةً تندى
وتَوّجَ من نوّارها قُنَنَ الرُّبى وختّم من أزهارها القُضُبَ المُلْدا
لسرعانَ ما كانَتْ مناسفَ للصبا فقد ضحكت زَهراً وقد خجلت وَردا
بلادٌ عهدنا في قرارتها الصبا يقلّ لذاكَ العهدِ أن يألفَ العهدا
إذا ما النسيمُ اعتلّ في عرَصاتها تناولَ فيها البانَ والشّيحَ والرندا

١ الإحاطة : مفهماً .
٢ البحرية : صفة للسحابة .

فكم في مجاني وردها مِنْ علاقةٍ   إذا ما استثيرتْ أرضها أنبتَتْ وجدا

إذا استشعرتْها النفسُ عاهدتِ الجوى   إذا التمحتها العينُ عاقدتِ السهدا

ومن عاشقٍ حرّ إذا ما استماله   حديثُ الهوى العذريّ صيره عبدا

ومن ذابلٍ يحكي المحبين رقّةً   فيثني إذا ما هبَّ عَرْفُ الصبا قدّا

سقى الله نجداً ما نضحْتُ بذكرها   على كبدي إلا وجدتُ لها بَردا

وآنسَ قلبي فهوَ للعهدِ حافظ   وقَلّ على الأيام مَنْ يحفظ العهدا

صبورٌ وإن لم يبقَ إلا ذبالةٌ   إذا استقبلتْ مسرى الصبا اشتعلتْ وقدا

صبورٌ إذا الشوقُ استجادَ كتيبةً   تجوسُ خلالَ الصبرِ كانَ لها بَنْدا

وقد كنتُ جلْداً قبل أن يُذهب النوى   ذَمائي وأن يستأصلَ العظمَ والجلدا

أأجحدُ حقّ الحبّ والدمعُ شاهدٌ   وقد وقع التسجيلُ من بعد ما أدّى

تناثر في إثر الحُمُولِ فريدُهُ   فللّهِ عينا من رأى الجوهرَ الفردا

جرى يَقَقاً في ملعبِ الخدّ أشهباً   وأجهده ركضُ الأسى فجرى وَرْدا

ومرتحلٍ أجريتُ دمعيَ خلفَه   ليرجعه فاستَنّ في إثرهِ قصدا

وقلتُ لقلبي طِرْ[1] إليهِ برقعتي   فكانَ حماماً في المسير بها هدّى

سرقتُ صُواع العزمِ يومَ فراقه   فلجّ ولم يرقبْ سُواعاً ولا وَدّا

وكحلْتُ عيْني من غبارِ طريقه   فأعقبها دمعاً وأورثها سهدا

ليَ الله كم أهذي بنجدٍ وحاجرٍ   وأكني بدعدٍ في غراميَ أو سُعْدى

وما هوَ إلاّ الشّوقُ ثارَ كمينُه   فأذهل نفساً لم تُبِنْ عنده قصدا

وما بيَ إلاّ أن سرى الركبُ موهناً   وأعمل في رملِ الحمى النصّ والوَخْدا

وجاشتْ جنودُ الصبرِ والبينِ والأسى   لديّ فكان الصبرُ أضعفَها جندا

ورُمْتُ نهوضاً واعتزمتُ مودعاً   فصدّنيَ المقدورُ عن وجهتي صَدّا

رقيقٌ بدت للمشترين عيوبُه   ولم تُلْتَفَتْ دعواه فاستوجبَ الردّا

١ ق : صر .

تخلّفَ منّي ركبُ طيبةَ عانياً ... أمَا آن للعاني المعنّى بأن يُفْدى
مُخَلَّفُ سربٍ قد أُصيبَ جناحه[1] ... وطرن فلم يسطع مَرَاحاً ولا مغدى
نشدتك يا ركبَ الحجاز ، تضاءلت ... لك الأرضُ مهما استعرض السهبُ وامتدّا
وجَمَّ لك المرعى وأذعنتِ الصُّوى ... ولم تفتقد ظلاً ظَليلاً ولا وردا
إذا أنتَ شافهتَ الديارَ بطيبة ... وجئتَ بها القبرَ المقدسَ واللحدا
وآنستَ نوراً من جنابِ محمدٍ ... يجلّي القلوبَ الغُلْفَ والأعينَ الرمدا
فَنُبْ عن بعيدِ الدارِ في ذلك الحمى ... وأذرِ بهِ دمعاً وعَفِّرْ بهِ خدّا
وقلْ يا رسولَ الله عبدٌ تقاصرتْ ... خُطاهُ وأضحى مِن أحبّتهِ فَرْدا
ولم يستطعْ من بعد مـا بَعُدَ المدى ... سوى لوعةٍ تعتادُ أو مدحةٍ تُهْدى
تداركْهُ يا غوثَ العباد برحمةٍ ... فجودك ما أجدى وكفُّك ما أندى
أجار بك الله العبـادَ من الردى ... وبوّأهم ظلاً من الأمنِ ممتدّا
حمى دينُكَ الدنيا وأقطعك الرضى ... وتوّجك العليا وألبسك الحمدا
وطَهّر منكَ القلبَ لمّا استخصّه ... فجلّلهُ نوراً وأوسعَـــهُ رشْدا
دعاهُ فما ولّى ، هداه فما غَوَى ... سقاهُ فما يظما ، جلاهُ فما يَصْدا
تقدمتَ مختاراً ، تأخرتَ مَبْعثاً ... فقد شملتْ علياؤك القَبْل والبَعْدا
وعلةُ هذا الكونِ أنت ، وكلُّ ما ... أعاد فأنتَ القصدُ فيه وما أبدا
وهل هو إلا مظهرٌ أنت سرُّهُ ... ليمتاز في الخلقِ المكبُّ من الأهْدى
ففي عالمِ الأسرارِ ذاتُكَ تجتلي ... ملامحَ نورٍ لاحَ للطُّورِ فانهدّا
وفي عالم الحسّ اغتديتَ مبوَّأً ... لتشفي من استشفى وتَهدي من استهدى
فما كنتَ لولا أن ثبتَّ هدايةً ... من الله مثل الخلقِ رسماً ولا حدّا
فماذا عسى يُثْني عليكَ مُقَصِّرٌ ... ولم يألُ فيك الذكرُ مدحاً ولا حمدا
بماذا عسى يجزيك هاوٍ على شَفاً ... من النارِ قد أوردته بعدها الخلدا
عليكَ صلاةُ الله يا كاشفَ العمى ... ومُذْهِبَ ليلِ الروعِ وهو قد اربدّا

١ ق : جنانه .

إلى كم أراني في البطالةِ كانعاً ... وعمريَ قد ولّى ، ووزريَ قد عدّا
تقضّى زماني في لعلّ وفي عسى ... فلا عزمةٌ تمضي ولا لوعة تَهْدا
حسامُ جبانٍ كلّما شيمَ نَصْلُه ... تراجعَ بعد العزمِ والتزمَ الغمدا
ألا ليت شعري هل أرانيَ ناهداً ... أقودُ القلاصَ البُدْنَ والضّامرَ النّهدا
رضيع لبان الصدق فوق شِمِلّة ... مُضَمَّرةٍ وُسّدْتُ من كورها مهدا
فتُهْدى بأشواقي السراةَ إذا سَرَتْ ... وتُحْدى بأشعاري الركابُ إذا تحْدى
إلى أن أحُطَّ الرحلَ في تربك الذي ... تضوّعَ نَدّاً ما رأينا له نِدّا
وأطفىء في تلك الموارد غُلّتي ... وأحسِبَ قرباً مهجةٌ شكتِ البعدا
لمولدك اهتزَّ الوجودُ فأشرقتْ ... قصورٌ ببُصرى ضاءت الهضبَ والوهدا
ومن رعبه الأوثانُ خرّتْ مهابةً ... ومن هوله إيوانُ كسرى قد انهدّا
وغاض لهُ الوادي وصبّحَ عزُّهُ ... بيوتاً لنارِ الفرسِ أعدمها الوَقْدا
رعى الله منها ليلةً أطلع الهدى ... على الأرضِ من آفاقها القمرَ السّعدا
وأقرضَ ملكاً قام فينا بحقّها ... لقد أحرز الفخرَ المؤثّلَ والمجدا
وحيّا على شطّ الخليج محلةً ... يحالف من ينتابها العيشة الرغدا
وجاد الغمامُ العِدُّ فيها خلائفاً ... مآثرهم لا تعرفُ الحصرَ والعدّا
عليّاً وعثماناً ويعقوب ، لا عدا ... رضى الله ذاك النجلَ والأبَ والجدّا
حَمَوْا وهُمُ في حومة البأس والندى ... فكانوا الغيوثَ المستهلةَ والأُسدا
ولله ما قد خلّفوا من خليفةٍ ... حوى الإرثَ عنهمْ والوصيةَ والعهدا
إذا ما أراد الصعبَ أغرى بنيله ... صدورَ العوالي والمُطَهَّمةَ الجردا
وكم مُعتدٍ أردى وكم تائهٍ هدى ... وكم حكمةٍ أخفى ، وكم نعمةٍ أبدى
أبا سالمٍ دينُ الإلهِ بك اعتلى ... أبا سالمٍ ظِلُّ الإلهِ بك امتدّا
فدُمْ من دفاعِ الله تحتَ وقايةٍ ... كفاك بها أن تسحبَ الحلَقَ السَّرْدا
ودونكها مني نتيجةَ فكرةٍ ... إذا استرشحت للنظم كانت صفاً صلدا
ولو تركتْ مني الليالي صُبابةً ... لأجهدتَها ركْضاً وأرهقتها شدّا

ولكنّــهُ جَهْــدُ المقلّ بلغتُهُ وقد أوضحَ الأعذارَ مَنْ بلَغ الجهدا

وقلت أخاطب السلطان الملك الكبير العالم أبا عنان على أثر انصرافه من بابه رحمه الله تعالى :

أبدى لداعي الفوز وجْهَ منيبِ وأفاقَ من عَذْلٍ ومن تأنيبِ
كلفُ الجنان إذا جرى ذكرُ الحمى والبانِ حَنَّ لهُ حنينَ النِّيبِ
والنفسُ لا تنفكُّ تكلفُ بالهوى والشيبُ يلحظها بعينِ رقيبِ
رحلَ الصِّبا فطرحتُ في أعقابهِ ما كان من غزَلٍ ومن تشبيبِ
أترى التغزُّلَ بعد أن ظعنَ الصِّبا شأني الغداةَ أو النسيبَ نسيبي
أنّى لمثلي بالهوى من بعد ما للوَخطِ في الفَوْدَيْنِ أيُّ دبيبِ
لبسَ البياضَ وحَلَّ ذروةَ منبرٍ مني ووالى الوعظَ فِعلَ خطيبِ
قد كان يسترني ظلامُ شبيبتي والآنَ يفضحني صباحُ مشيبي
وإذا الجديدانِ استجدّا أبليا من لبسة الأعمارِ كلَّ قشيبِ
سلني عن الدهرِ الخؤونِ وأهله تَسَلِ المهلّبَ عن حروبِ شبيبِ
متقلّبُ الحالاتِ فاخبُرْ تَقْلُهُ مهما أعدتَ يداً إلى تقليبِ
فكلِ الأمورَ إذا اعترتكَ لربها ما ضاقَ لطفُ الربِّ عن مربوبِ
قد يخبأ المحبوبَ في مكروهها مَنْ يخْبأُ المكروهَ في المحبوبِ
واصبرْ على مضضِ الليالي إنها لحواملٌ سيَلِدْنَ كلَّ عجيبِ
واقْنَعْ بحظّ لمْ تنَلْهُ بحيلَةٍ ما كلّ رامٍ سهمهُ بمصيبِ
يقع الحريصُ على الردى ولكم غدا تركُ التسبّبِ أنفعَ التسبيبِ
مَنْ رامَ نَيلَ الشيء قبلَ أوانهِ رامَ انتقالَ يَلَمْلمٍ وعَسيبِ
فإذا جعلتَ الصبرَ مفزع مُعضلٍ عاجلتَ علّتهُ بطبِّ طبيبِ
وإذا استعنت على الزمان بفارسٍ[1] لبّى نداءكَ منهُ خيرُ مجيبِ

---

١ فارس هو السلطان أبو عنان .

بخليفةِ اللهِ الذي في كفّهِ ... غيثٌ يروّض ساحَ كلِّ جديبِ
المنتقى من طينةِ المجدِ الذي ... ما كان يوماً صرفُهُ بمَشوبِ
يرمي الصعابَ بصعبه فيقودها ... ذُلُلاً على حَسَبِ الهوى المرغوبِ
ويرى الحقائقَ من وراء حجابها ... لا فَرقَ بين شهادةٍ ومَغيبِ
من آلِ عبد الحقّ حيثُ توشحتْ ... شُعَبُ العلا وربتْ بأي كثيبِ
أُسْدُ الشرى سُرُجُ الورى فمقامهم ... للهِ بينَ محاربٍ وحروبِ
إمّا دعا الداعي وثوّبَ صارخاً ... ثابوا وأمّوا حَوْمَةَ التثويبِ
شهبٌ ثواقبُ في سماء عجاجةٍ ... مأثورها قد صحَّ بالتجريبِ
ما شئتَ في آفاقها من رامحٍ ... يبدو وكفٍّ بالنجيعِ خَضيبِ
عجبتْ سيوفهمُ لشدةِ بأسهم ... فتبسّمتْ والجوُّ في تقطيبِ
نظموا بلَبّاتِ العُلا واستوسقوا ... كالرمحِ أنبوباً على أُنبوبِ
تروي العوالي والمعالي عنهمُ ... أثرَ النّدى المولودِ والمكسوبِ
منْ كلِّ موثوقٍ بهِ إسنادُهُ ... بالقطعِ أو بالوضعِ غير معيبِ
فأبو عنان عن عليٍّ نَصُّهُ ... للنقلِ عن عثمانَ عن يعقوبِ
جاءوا كما اتّسَقَ الحسابُ أصالةً ... وغدا فذالكَ[1] ذلكَ المكتوبِ
متجسّداً من جَوْهَرِ النور الذي ... لم تُرْمَ يوماً شمسهُ بغروبِ
متألّقاً من مطلعِ الحقّ الذي ... هو نورُ أبصارٍ وسرُّ قلوبِ
قلْ للزمانِ وقد تبسَّم ضاحكاً ... من بَعْدِ طول تجهّمٍ وقطوبِ
هي دعوةُ الحقّ التي أوضاعها ... جمعتْ من الآثارِ كلَّ غريبِ
هي دعوةُ العدلِ الذي شمل الورى ... فالشاةُ لا تخشى اعتداء الذيبِ
لو أنَّ كسرى الفُرس أدرك فارساً ... ألْقى إليهِ بتاجِهِ المَغصوبِ
لمّا حللتُ بأرضهِ مستملياً ... ما شئتَ من برٍّ ومن ترحيبِ

١ فذالك : جمع فذلكة وهي محصّل الحساب .

شمل الرضى فكأنّ كلَّ أقاحةٍ توميِ بثغرٍ للسّلامِ شَنيبِ
وأتيتُ في بحرِ القِرى أمَّ القرى حتّى حططتُ بمرفإِ التقريبِ
فرأيتُ أمْنَ اللهِ في ظلِّ التُّقى والعدلِ تحت سرادقٍ مضروبِ
ورأيتُ سيفَ اللهِ مطرورَ الشبا[1] يمضي القضاءُ بحدِّهِ المرهوبِ
وشهدتُ نور الحقِّ ليسَ بآفلٍ والدِّينَ والدُّنْيا على ترتيبِ
ووردتُ بحرَ العلمِ يقذفُ موجُهُ للنّاسِ من دررِ الهدى بضروبِ
للهِ مِنْ شيَمٍ كأزهارِ الرُّبى غِبَّ انثيالِ العارضِ المسكوبِ
وجمالِ مرأى في رداء مَهابة كالسيفِ مصقولِ الفرند مهيبِ
يا جَنَّةً فارقتُ من غرفاتها دارَ القرارِ بما اقتضته ذنوبي
أسفي على ما ضاعَ من حَظّي بها لا تنقضي تَرْحاتُه ونحيبي
إن أشرقتْ شمسٌ شرقتُ بعَبرتي وتفيضُ في وقت الغروب غروبي
حتّى لقد علّمْتُ ساجعةَ الضحى شجوي وجانحةَ الأصيل شحوبي
وشهادةُ الإخلاص توجبُ رجعتي لنعيمها من غيرِ مسٍّ لغوبِ
يا ناصرَ الدينِ الحنيفِ وأهلُهُ أنْضاءُ مَسْغَبَةٍ وفلٍّ خطوبِ
حقّقْ ظنونَ بنيه فيكَ فإنهمْ يتَعلّلونَ بوَعْدِكَ المَرْقوبِ
ضاقَتْ مذاهبُ نصرهمْ فتعلّقوا بجنابِ عزٍّ من عُلاكَ رحيبِ
ودَجا ظلامُ الكفرِ في آفاقهم أوَلَيسَ صُبْحُكَ منهمُ بقريبِ؟
فانظرْ بعينِ العزِّ من ثَغْرٍ غدا حَذَرَ العدا يرنو بطرفٍ مُريبِ
نادتكَ أندلسٌ ومجدكَ ضامنٌ أن لا يخيبَ لديكَ ذو مطلوبِ
غَصَبَ العدوُّ بلادها وحسامُكَ الـ ماضي الشبا مسترجِعُ المغصوبِ
أرضِ السوابحَ في المجازِ حقيقةً من كلِّ قعدةِ مُحْرَبٍ وجنيبِ
يتأوّدُ الأسَلُ المثقّفُ فوقَها وتجيبُ صاهلةٌ رغاءَ نجيبِ

[1] المطرور: المشحوذ؛ الشبا: الحد.

والنصرُ يُضحكُ كلَّ مبسم غرة   واليُمنُ مَعْقودٌ بكلِّ سبيبِ
والروم فارمٍ بكلِّ نجمٍ ثاقبٍ   يُذكي بأربُعها شُواظَ لهيبِ
بذوابل السُّلُبِ التي تركتْ بني   زيّانَ بينَ مجدَّلٍ وسليبِ
وأضف إلى لام الوغى ألِفَ القنا   تظهرْ لديكَ علامةُ التغليبِ
إن كنتَ تعجمُ بالعزائمِ عودها   عودُ الصَّليبِ اليومَ غيرُ صليبِ
ولكَ الكتائبُ كالخمائلِ أطلعتْ   زهرَ الأسنّةِ فوقَ كلِّ قضيبِ
فمرنّحُ العطفينِ لا من نشوةٍ   ومُورَّدُ الخدينِ غيرُ مريبِ
يبدو سدادُ الرأي في راياتها   وأمورها تجري على تجريبِ
وترى الطيورَ عصائباً من فوقها   لحلولِ يومٍ في الضلالِ عصيبِ
هذبتها بالعرضِ يُذكرُ يومُهُ   عَرْضَ الورى للموعدِ المكتوبِ
وهي الكتائبُ إن تُنوسيَ عَرْضها   كانتْ مُدَوَّنَةً بلا تهذيبِ[1]
حتى إذا فرضَ الجلادُ جدالهُ   ورأيتَ ريحَ النصرِ ذاتَ هُبوبِ
قَدَّمْتَ سالبةَ العدوّ وبعدها   أُخرى بعزِّ النصرِ ذاتَ وجوبِ[2]
وإذا توسط وصلُ سيفك عندها   جُزْأَيْ قياسكَ فُزتَ بالمطْلوبِ
وتبرّأ الشيطانُ لمّا أنْ علا   حزبُ الهدى من حزبه المغلوبِ
الأرضُ إرثٌ والمَطامِعُ جَمّةٌ   كلٌّ يهَشُّ إلى التماسِ نصيبِ
وخلائفُ التقوى هُمُ ورّاثُها   فإليكهـا بالحظِّ والتّعْصيبِ
لكأنني بكَ قد تركتَ ربوعها   قفراً بكرِّ الغزوِ والتعقيبِ[3]
وأقَمْتَ فيها مأتماً لكنّهُ   عرسٌ لنسرٍ بالفلاةِ وذيبِ
وتركتَ مقلتها بقلبٍ واجبٍ   رهباً وخدٍّ بالأسى مندوبِ
تبكي نوادبها وينقلنَ الخطا   من شلوِ طاغيةٍ لشلوِ سليبِ

١ يومي إلى المدونة في الفقه المالكي ، وتهذيب المدونة للبرادعي .
٢ في هذا البيت وما بعده إشارات إلى المصطلح المنطقي .
٣ التعقيب : العودة ثانية ، وهو من قولهم « قدح معقب » أي يعاد إلى الخريطة مرة بعد مرة .

جعلَ الإلهُ البيتَ منكَ مثابَةً للعاكفينَ وأنتَ خيرُ مُثيبِ
فإذا ذكرتَ كأنَّ هبَّاتِ الصَّبا فَضَّتْ بمَدرجِها لطيمةَ[1] طيبِ
لولا ارتباطُ الكونِ بالمعنى الذي قَصُرَ الحجى عن سرّهِ المحجوبِ
قلنــا لعالمكَ الذي شرّفتهُ حسد البسيطُ مزيّــةَ التركيبِ
ولأجلِ قطركَ شمسها ونجومها عدلتْ من التشريقِ للتغريبِ
تبدو بمطْلعِ أفقهــا فضيّةً وتغيبُ عندكَ وهي في تذهيبِ
مولايَ أشواقي إليكَ تهزّني والنارُ تفضحُ عَرْفَ عودِ الطيبِ
بحلى عُـلاكَ أطلْتُها وأطبتُها ولكم مُطيلٍ وهو غيرُ مُطيبِ
طالبتُ أفكاري بفرضٍ بديهها فوفَتْ بشرطِ الفورِ والترتيبِ
متنبيءٌ أنا في حُلى تلكَ العلى لكــنَّ شعري فيكَ شعرُ حبيبِ
والطبعُ فحلٌ ، والقريحَةُ حُرَّةٌ فــاقبلهُ بينَ نجيبةٍ ونجيبِ
هابَتْ مقامكَ فاطّبَيْتَ[2] صعابها حتّى غدتْ ذُلُلاً على التدريبِ
لكنّني سَهّلْتُها وأذَلْتُهــا من كلِّ وحشيٍّ بكلِّ ربيبِ[3]
إن كنتُ قد قاربتُ في تعديلها لا بدَّ في التعديــلِ من تقْريبِ[4]
عذري لتقصيري وعجزي ناسخٌ ويحلُّ منكَ العفوُ عن تثْريبِ
مَنْ لم يَدِنْ للهِ فيكَ بقربةٍ هو من جنابِ اللهِ غيرُ قريبِ

ولمّا احتفل السلطان لإعذار ولده نظمت هذه القصيدة مساعدة لمن نظم من الأصحاب ، وتشتمل على أوصافٍ من ذكر الحلبة التي أرسلها ، والطلبة التي

١ اللطيمة : وعاء الطيب أو قافلة تحمل طيوباً .
٢ اطبيت : استملت .
٣ الوحشي : اللفظ الوحشي ؛ والربيب : المربب المألوف في البيت يعني به القول ؛ ولعل فيه إشارة بعيدة إلى وحشي قاتل حمزة وإلى الربيب مثل عمر بن أبي سلمة الذي كان ربيب النبي (ص) .
٤ التعديل والتقريب من مصطلحات الحساب والفلك .

نصبها في الهواء للفرسان يرسلون العصي إليها ، والثيران التي أرسل عليها الأكلب الرومية تمسكها في صورة القرط من آذانها ، وهي آخر النظم في الأغراض السلطانية ، قصر الله تعالى ألسنتنا على ذكره ، وشغلها به عن غيره :

شَحَطْت وفَوْدُ الليل بانَ به الوَخْطُ ... وعَسْكَرُهُ الزنجيُّ همَّ بهِ القبْطُ
أتاهُ وليدُ الصبحِ من بعد كبرةٍ ... أيولَدُ أجنا[1] ناحلُ الجسمِ مشمطُّ
كأنَّ النجوم الزُّهرَ أعشارُ سورةٍ ... ومن خَطَرات الرجمِ أثناءها مَطُّ
وقد وردتْ نهرَ المجرَّةِ سحرةً ... غوائصَ فيهِ مثلَما تفعلُ البطُّ
وقد جعلتْ تَفْلي بأنملها الفلا ... ويرسلُ منها في غدائره مشطُ
يجفُّ عبابُ الليلِ عنها جواهراً ... فيكثُرُ فيها النَّهْبُ للحينِ واللَّقطُ
فسارتْ خيالاً مثلها ، غير أنه ... من البثِّ والشكوى يبينُ له لغطُ
سَرَتْ سلخَ شهرٍ في تلفُّتِ مقلةٍ ... على قَتَبِ الأحلامِ تَسْمو وتنحطُّ
ليَ الله من نَفْسٍ شَعاعٍ ومهجةٍ ... إذا قُدحتْ لم يخبُ من زندها سَقْطُ
ونقطةِ قلبٍ أصبحتْ منشأ الهوى ... وعن نقطةٍ مفروضةٍ ينشأ الخطُّ[2]
فأُقسمُ لولا زاجرُ الشيبِ والنُّهى ... ونفسٌ لغيرِ اللهِ ما خضعتْ قطُّ
لزيع لها الأحراسُ منّي بطارقٍ ... مَفارقُهُ شُمْطٌ وأسْيافُهُ شُمْطُ
تنـاقله كَوْماءُ ساميَةُ الذُّرا ... ويقذفهُ شهمٌ من النِّيقِ منحطُّ
ولولا النُّهى لم تستَهِنْ سُبُلَ الهدى ... وكاد وزانُ الحقِّ يدركه الغمطُ
ولولا عَوادي الشيبِ لم يبرحِ الهوى ... يهيِّجهُ نوءٌ على الرملِ مختطُّ
ولولا أمـيرُ المسلمينَ محمَّدٌ ... لهالتْ بحارُ الرَّوعِ واحتجبَ الشطُّ
ينوبُ عن الإصباحِ إن مطلَ الدجى ... ويضمنُ سقي السَّرحِ إن عظُم القحطُ

١ الأجنأ – وهو مهموز الآخر – الأحدب .

٢ قد مر بنا استخدام لسان الدين لمعارفه في الشعر ، وهو هنا يظهر شيئاً من معرفته الهندسية .

تقرُّ له الأملاكُ بالشيَم العــلا إذا بُذِلَ المعروفُ أو نُصبَ القسطُ
أرادوه فارتدُّوا ، وجاروه فانثنوا وساموه في مرْقى الجلالَة فانحطّوا
تُبيرُ على المدّاحِ غُرٌّ خلاله وما رسموا فوقَ الطروسِ وما خطّوا
تعلّمَ منهُ الدّهرُ حالَيْه في الورى : فــآونَــةً يسخو ، وآونــةً يسطو
ويجمعُ بين القبضِ والبسطِ كفه بحكمةِ مَن في كفّه القبضُ والبسطُ
خلائق قد طابَت مَذاقاً ونَفْحَةً كما مُزِجتْ بالباردِ العذبِ إسفنطُ[1]
أسبطَ الإمــام الغــالــبيّ محمّــدٍ ويا فخرَ ملكٍ كنتَ أنت له سبطُ
وقَتْكَ أواقي اللهِ من كلّ غائلٍ فأيُّ سلاحٍ ما المجَنُّ وما اللامطُ[2]
لقد زلزلتْ منكَ العزائمُ دولةً أناختْ على الإسلامِ تجني وتشتطُّ
إيالَةُ غَدْرٍ ضيّعَ اللهُ ركْنَها ونادى بأهليها التّبارَ فلم يُبْطوا
على قَدَرٍ جلّى بكَ الله بؤسها ولا يكملُ البُحْرانُ أو ينضجَ الخلطُ
وكانوا نَعيمَ الجَنّتَينِ تفيّأوا ولمَّا يقعْ منها النزولُ ولا الهبطُ[3]
فقد عُوّضوا بالأثلِ والخمطِ بعدَها وهيهاتِ أينَ الأثلُ منها أو الخمطُ
فمن طائحٍ فوق العَراء مجدَّلٍ ومن راسفٍ في القيدِ أزهقه الضغطُ
وأتحفَ منكَ الله أُمَّةَ أحمدٍ أماناً كما يضفو على الغادةِ المرطُ
أنَمْتَ على مَهْدِ الأمانِ عيونَها فيُسمعُ من بعد السهادِ لها غَطٌّ
وصمَّ صدى الدنيا فلمّا رحمتها تزاحــمَ مرتــادٌ عليهــا ومختــطٌّ
وأحكمتَ عَقْدَ السلمِ لم تألُ بعده وجاء فصحَّ العقدُ واستوثقَ الربطُ
وأيقنَ مرتابٌ ، وأصحبَ نافرٌ وأذعنَ مُعْتاصٌ ، وأقصرَ مشتطٌّ

١ الإسفنط : اسم للخمر .
٢ اللمط : الدرق اللمطية ، منسوبة إلى لمطة من قبائل المغرب .
٣ استوحى في هذا البيت والذي يليه الآية الكريمة « لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان . . . الآية » (سبأ : ١٥) .

وللهِ مَبْناكَ الذي معجزاتُـــه سَمَتْ أن توافيها الشفاهُ أو الخطُّ
وأنْسَتْ غريبَ الدارِ مسقطَ رأسهِ ومن دون فرخيهِ القتادةُ والخرْطُ
تناسبتِ الأوضاعُ فيكَ وأحْكَمَتْ على قَدَرٍ حتى الأرائكُ والبُسطُ
فجاء على وفق العلا رائقُ الحلى كما سُمِّطَ المنظومُ أو نُظم السمطُ
وللهِ إعْذارٌ دعَوْتَ لهُ الورى فهبّوا لداعيهِ المهيبِ وإن شطُّوا
تقودهم الزُّلفى ، ويدعوهمُ الرضي ويحدوهمُ الخصبُ المضاعَفُ والغبطُ
وأغريْتَ بالبهمِ العلاجَ تحفّياً فلم يُذخَرِ الشيءُ الغريبُ ولا السبطُ[1]
أتَتْ صورةٌ مَعْلولةٌ عن مزاجها وأصلُ اختلافِ الصورةِ المزجُ والخلطُ
قضيتَ بها دَيْنَ الزمانِ ، ولم يزلْ أكدٌّ كذوبَ الوعدِ يلوي ويشتطُّ
وأرسلْتَ يومَ السبْقِ كلَّ طِمِرَّةٍ كما قذفَ الململومةَ النارُ والنفطُ
رنَتْ عن كحيلٍ كالغزالِ إذا رنا وأوفتْ بهادٍ كالظليمِ إذا يعْطو
وقامتْ على منحوتةٍ من زبرجَدٍ تخطُّ على الصُّمِّ الصِّلابِ إذا تخطو
وكلٌّ عتيقٍ من تماثلِ رومَــةٍ تأنّقَ في استخطاطهِ القسُّ والقمطُ
وطاعنةٍ نحرَ السّكاك أعـــانها على الكون عرقٌ واشج ولحّى سُبْطُ
تلَقّفُ حيّاتِ العصيِّ إذا هوَتْ فثعبانهـــا لا يَسْتَقيمُ لهُ سرطُ
أزرْتَ بهــا بحرَ الهواء سَفينَةً على الجوّ لا الجوديُّ كانَ لها حطُّ
وطاردتَ مقدامَ الصُّوارِ بجارحٍ يُصابُ بهِ منهُ الصماخُ أو الإبطُ
متينُ الشّوا في رأسهِ سَمْهَريّةٌ مقَصّرةٌ عَنْهُنَّ ما يُنْبِتُ الخطُّ
وقـد كان ذا تاجٍ فلمّا تعلّقا بسامِعَتَيْهِ زانَـهُ مهما قُرطُ
وجيءَ بشبلِ الملكِ ينجدُ عزمهُ عليه الحفاظُ الجعدُ والخلُقُ السبطُ
سمحتَ بهِ لم ترعَ فرطَ ضنانةٍ وفي مثلها من سنّةٍ يترِكُ الفرطُ
فأقدمَ مختاراً ، وحكّمَ عاذراً ولم يشتمل مَسْكٌ عليهِ ولا ضبطُ

١ السمط : الخفيف الجسم .

ولو غيرُ ذاتِ اللهِ رامته نَضنَضَتْ قناً كالأفاعي الرُّقطِ أو دونها الرُّقطُ
وأسدِ نزالٍ من ذؤابةِ خزرجٍ بهاليلُ لا رومُ القديمِ ولا قبطُ
جلادهمُ مثنى إذا اشتجر الوغى كأنَّ رعاءً بالعضاهِ لها خبطُ
كتائبُ أمثالُ الكتّابِ تَتاليـاً فمن بيضها شكلٌ، ومن سمرها نقطُ
دليلهمُ القرآنُ ، يا حبّذا الهدى ورهطهمُ الأنصارُ ، يا حبّذا الرَّهْطُ
وبيضٌ كأمثالِ البروقِ غمامُهـا إذا وشحتْ سُحبَ القتامِ دمٌ عبطُ
ولكنّهُ حكمٌ يطاعُ وسنّةٌ وأعمالُ برٍّ لا يليقُ بها الحبطُ
ورُبّتَ نَقْصٍ للكَمالِ مآلُهُ ولا غروَ فالأقلامُ يُصلحها القطُّ
فهنّيتهُ صنعاً ودمتَ مملّكـاً عزيزاً تشيدُ المعلواتِ وتختطُّ
ودونَ الذي يهدي ثناؤكَ في الورى من الطيب ما تهدي الألُوّةُ والقُسْطُ[1]
رضيت ومَن لم يرضَ باللهِ حاكماً ضلالاً فللهِ الرضى وله السخطُ
حياتُكَ للإسلامِ شرطُ حيـاتهِ ولا يوجدُ المشروطُ إن عُدِمِ الشرطُ

هذا كافٍ في المطوّلات لنجلب منها عرضاً يدل على جبوبها ، ونتحف منها أنفس الظرفاء بمطلوبها ، منقولة من الكتاب المسمّى بـ « أبيات الأبيات » ومن الكتاب المسمّى بـ « الصيِّب والجَهام » .

فمن التورية على طريقة المشارقة قولي[2] :

مضجعي فيكَ عن قَتادَةَ يروي وروى عن أبي الزنادِ فؤادي
وكذا النّوْمُ شاعرٌ فيكَ أمسى من دموعي يهيمُ في كلّ وادي

ومن هذا الباب أيضاً :

١ الألوة : العود يتبخر به ؛ والقسط : عود هندي أيضاً يدخل في البخور والطيب .
٢ راجعت أكثر هذه المقطعات على نسخة الإحاطة ولكنها لم ترد على الترتيب الذي جاءت فيه في النفح ؛ ولست أرى حاجة إلى شرحها في الحواشي ؛ وانظر أيضاً أزهار الرياض ١ : ٣٠٤ – ٣١٣ فقد ورد أكثرها هنالك ؛ وكذلك نثير فرائد الجمان : ٢٤٨ – ٢٥٦ .

ولمّا رأت عزمي حثيثاً على السُّرى وقد رابها صبري على موقف البينِ
أتتْ بصحاحِ الجوهريِّ دموعُها فعارضت من دمعي بمختصرِ العينِ

وفي هذا المعنى :

كتبتُ بدمعِ عيني صَفْحَ خدّي وقد منع الكرى هجرُ الخليلِ
ورابَ الحاضرينَ ، فقلتُ : هذا كتابُ العَينِ يُنْسَبُ للخَليلِ

ومن الأغراض الظريفة فيها :

تعجلت وخط الشيب في زمنِ الصِّبا لخوضي غمارَ الهمّ في طلبِ المجدِ
فمهما رأيتم شيبةً فوق مفرقي فلا تنكروها إنها شيبةُ الحمدِ

ومن التورية بالنجوم ، والكاتب بهته بيت شرفه :

بَأوْتُ على زمني همّةً فأعتبني الزمنُ العاتبُ
وشرَّفني الله في مَوْطني وفي بيته يشرف الكاتبُ

وأبدع منها قولي لمن يُدعى بشمس الدين :

قلْ لشمسِ الدينِ وُقِّيتَ الردى لم يدعْ سُقْمُكَ عندي جَلَدا
رَمِدَتْ عَيْنُكَ هذا عَجَبٌ أوَعَيْنُ الشمسِ تشكو الرَّمَدا

وقلت في غرض التورية بما يظهر من الأبيات :

أفَلَ الأُلى كانوا نجو ماً للورى فالكونُ مظلمْ
وتذاكر الناسُ الحديـ ـثَ الحقَّ وافتقدَ المعلِّمْ
أنا كاتبُ السلطانِ ما طالعتُ قطُّ كتابَ مُسلمْ
إلاّ سخاماً قادحاً في الدينِ واللهُ المسلِّمْ

وفي معنى الدعابة مع بعض الطلبة :

قال لي عندما أتى بجدالٍ وشُكوكٍ على أصولِ الدينِ
ولساني يبدّلُ الدالَ تاءً عاجزٌ في الأمورِ عن تبيينِ
التمسْ مخرجاً يوافقُ قولي قلت : أحسنتَ يا جلالَ التينِ

وفي التورية :

اذممْ ذوي التطفيلِ مهما أتى وإنْ تكنْ أجملتهم فاعنِهِ
يمشي على رجليهِ مع أنّهُ من جنس من يمشي على بطنهِ

وقلت :

أفقدَ جفنيَّ لذيذَ الوسنْ من لم أزل فيه خليعَ الرَّسَنْ
عِذارُهُ المسكيُّ في خدّهِ أنبتهُ الله النباتَ الحسنْ

وقلت في رثاء من اسمه حسن :

أشكو إلى اللهِ من بثّي ومن شَجَني لم أجنِ من محنتي شيئاً سوى محَنِ
أصابتِ الحَسَنَ العَيْنُ التي رشقَتْ وعادةُ العينِ لا تُصْمي سوى الحسنِ

وفي الشيب :

تَفِرُّ عن الشّيْبِ الغَواني تَعَزُّزاً كما يعتريها إن رأتْ سامَ أبرصا
بدا وَضَحاً في جدة العمر شانياً فمن سام شيخاً فهو قد سام أبرصا

وقلت في السها من النجوم الجوفية :

قالوا : السها بادي النحول كأنَّه متسترٌ تبــدو مخايلُ خوفهِ
أتراه يشكو ؟ قلت : هذا ممكنٌ والله يَعْلَمُ دارَهُ منْ جوفهِ

وقلت :

عابوا وقالوا : بساقه شَعَرٌ   لقد عداهُ الكمالُ من ساقِ
قلت: انظروا ورد روضِ وجنته   وكلُّ وردٍ مُشَوَّكُ الساقِ

وقلت في التضمين :

رُفِعَتْ قصةُ اشتياقي ليحيى   فزَوى الوجهَ رافضاً للفتوَّهْ
ورمى بالكتاب ضعفَ اهتبالٍ   قلت يحيى خُذِ الكتابَ بقوَّهْ

وقلت :

وذي حيلٍ يُعيي التَّقيَّةَ أمرُهُ   مكايدُهُ في لجَّةِ الليلِ تسبحُ
يدبُّ شبولَ الليثِ ، والليثُ ساهرٌ   ويسرقُ نابَ الكلبِ، والكلبُ ينبحُ

وقلت :

لمَّا رأوا كلفي بهِ ودَرَوْا   مقدار ما لي فيهِ منْ حُبِّ
قالوا الفتى حلوٌ فقلتُ لهم   طلعَتْ حلاوته على قلبي

وقلت ، ولهما حكاية :

وذي زوجةٍ تشكو فقلتُ له : اسقِها   دواءً من الحَبِّ المليِّن للبَطْنِ
فقال : أبَتْ شربَ الدواء بطَبْعها   فقلت : اسقِها إن عافت الشربَ بالقرنِ

وقلت :

لعنوا بَريّاً من خبائثِ ظنّهمْ   فالله يلعنُ أهلَ سوق العنبرِ
واللهِ لا أوطأتُ ساقيَ سوقَهم   أبدَ الزمان فتلك سوق العنْ بري

ومن الفكاهات :

ولمّا دعانيَ داعي الهوى ... وأخلف ما كنتُ أمّلتُهُ
ولم يبقَ غير البكا حيلةٌ ... بكيتُ بمقدارِ ما نلتُهُ

وقلت ، وقد رُفع للسلطان باكورة بنفسج :

قدم البنفسجُ وهو نعم الواردُ ... قد نمّ منهُ إليّ طيبٌ زائدُ
فسألته : ما باله ؟ فأجابني ... والحقُّ لا يُبغى عليه شاهدُ
أقبلتُ أطلبُ من بنانِ محمدٍ ... صلةً فعادَ عليّ منه عائدُ

وقلت من التشبيه :

سهرنا وفي سير النجومِ اعتبارنا ... إلى أن ضفا للّيلِ من فوقنا رَيْطُ
فخِلْنا شهابَ الرجْمِ إبرةَ خائطٍ ... مسوحاً وما يبقى من الذنَبِ الخيطُ

وقلت أُودّع صديقاً أنستُ به :

فلاحــةُ مثليَ ممقوتَــةٌ ... وإن أعجبَ البدءُ منها وراقْ
زرَعْتُ اللقـــاء وعالجته ... فلمْ أستغدْ منه إلاّ الفراقْ

ومن تضمين المثل :

لا تَهِــجْ بالذكرِ في كبدي ... نارَ وجدٍ شَقّ مُحْتَمَلُهْ
ويقولُ الناسُ في مَثَلٍ ... لا تحرّكْ منْ دنا أجَلُهْ

ومن المدح :

عَجَباً لراحَتكَ الملثّةِ بالنّدى ... أن لا تكونَ على الغمامِ غماما
يهْمي ووجهكَ نورُهُ متألّقٌ ... والقَطرُ إن سَحبَ السحابُ أغاما

ومن أبيات المدح :

يا ناصرَ الدّينِ لمّا قلَّ ناصرُهُ ومطلعَ الجودِ في الدنيا وقد أفلا
لولا التشهّدُ والتردادُ منكَ له لم يسمعِ الناسُ يوماً من لسانك لا

ومن أوصاف صنيع سلطاني :

ماذا أُحدّثُ في صنيعِ خلافة هشّتْ إليهِ الشُّهبُ في آفاقها
فكأنما الجَوْزاءُ حينَ تعرّضتْ شَدّتْ لتخدم فيه عَقْدَ نطاقها

ومن قصيدة في وصف فَرَس :

فبوّأته مِنْ مهجتي مُتَبَوّأً خفياً على سرّ الفؤادِ المكتّمِ
ويا عَجَباً مني وفرط تشيّعي أهيم بوجدي فيهِ وهو ابن مُلْجمِ

ومن الحماسة في التورية بالمنطق[1] :

حتّى إذا فرضَ الجلادُ جدالهُ ورأيتُ ريحَ النصرِ ذات هبوبِ
قَدَّمْتَ سالِبَةَ العدوِّ وبعدها أُخرى بعزّ النصر ذات وجوبِ
وإذا توسَّطَ حدُّ سيفِك عندها جُزأيْ قياس فزت بالمطلوبِ

وفي خاتمة قصيدة :

ما ضرَّني إنْ لم أجيء متقدّماً السبقُ يُعْرَفُ آخرَ المضمارِ
ولئن غدا رَبْعُ البلاغَةِ بَلْقعاً فلربّ كنزٍ في أساسِ جدارِ

ومن المدح :

إنْ أبهمَ الخطبُ جلّى في دُجُنّته رأياً يفرّقُ بين الرأي والرشدِ
وإن عتا الدهرُ أبدى من أسرّتهِ وكفّه هَدْيَ حيران ورِيَّ صَدِ

[1] مرت الأبيات في البائية التي مدح فيها أبا عنان ، انظر ما تقدم ص : ٤٥٨ .

وإنْ نظرتَ إلى لألاء غُرَّته   يوم الهياج رأيتَ الشمس في الأسدِ

ومن الأوصاف في قصيدة :

كمْ ليالٍ بتُّ في ظَلْماتها   أمتطي من نار شوقي فُرُشا
وكأنَّ النّجم شَرْبٌ ثملٌ   واصلَ الثملةَ حتى ارتعشا

ومن التورية بالكفّتين من الحيل العددية :

لا عدلَ في الملكِ إلاّ وَهْوَ قد نصبَهْ   وصيّرَ الخلقَ في ميزانه عَصَبَهْ
والكفّتانِ ترى من كفّهِ درتا   أن تخرج العددَ المجهولَ للطَلَبَهْ

وفي رجل يحتال على الولاية [1] :

حلفْتَ لهم بأنَّكَ ذو يسارٍ   وذو ثقَةٍ وبَرٌّ في اليمينِ
ليستندوا إليكَ بحفظِ مالٍ   فتأكلَ باليسارِ وباليمينِ

وقلت ، ولهما حكاية تظهر من الأبيات :

قلتُ لمَّا استقلَّ مولاي زَرْعي   ورأى غَلّةَ الطعامِ قليلَهُ
دمنتي لانتجاعيَ الحرثَ كَلّتْ   فهيَ اليومَ دمنةٌ وكليلَهْ

وممّا صدرتُ به كتاباً لأحد الفضلاء :

يا مَن تقلّدَ للعلاء سلوكا   والفضلُ صيّرَ نهجَهُ مسلوكا
كاتبتني متفضّلاً فملكتني   لا زلتُ منك مُكاتباً مملوكا

وقلت في غرض يظهر منه :

---

[1] يتفق لسان الدين وابن رضوان في هذه التورية ، انظر ما تقدم ص : ١١٢ .

جلس المولى لتسليمِ الورى ... ولفصلِ البردِ في الجوّ احتكامْ
فإذا مـا سألوا عن يومنا ... قلتُ : هذا اليوم بردٌ وسلامْ

وقلتَ من التورية :

يـا مـالكي بخـلالٍ ... تُهْدي إلى القلْبِ حَيرهْ
أضرمْتَ قلْبِيَ نـاراً ... يـا مـالكَ بن نُويرهْ

وقلت في التورية :

أضاف إلى الجفون السودِ شَعراً ... كجنحِ الليلِ أو صبغِ المدادِ
فقلتُ أميرُ هذا الحسنِ تزكو الـ ... أجورُ لهُ بتكثـيرِ السّوادِ

وقلت أيضاً :

بأبي بَدْرٌ غَزاني ... مستبيحاً شرح صدري
فأنا اليومَ شَهيدُ الـ ... حبِّ من غزوة بدرِ

وقلت ، ولهما[1] حكاية :

أيا ليْلَةً بالخصبِ لم تألُ شهرةً ... كما اشتهرتْ في فضلها ليلةُ القدرِ
فآمن قلبُ اللوزِ من علّةِ[2] النوى ... وأصبحَ فيها التينُ منشرحَ الصدرِ

ومن النزعات المشرقية في التورية :

يا قائدي نحو الغرامِ بمقْلَةٍ ... نفقَتْ حلاوتها بكلِّ فؤادي
ماذا جنيتَ عليَّ من مضضِ الهوى ... اللهُ ينصفُ منكَ يا قوّادي

١ ق : ولها .
٢ ق : من غمة .

ومن هذا النّمط المشرقي :

وقالتْ حلَقْتُ الكسَّ مني بنَوْرَةٍ فقلتُ لها استنصرتِ من ليس ينصرُ
ألا فابلغي عني فديتُكِ واصدقي محلّق ذاك الكسِّ أني مقصّرُ

ومنها :

قال لي والدموعُ تنهلُّ سَحّاً[1] في عراضٍ من الخدودِ محولِ
بكَ ما بي فقلتُ مولاي عافا كَ المعافي من عَبرتي ونحولي
أنا جفني القريحُ يروي عن الأعمشِ ، والجفنُ منك عن مكحولِ

ومن أبيات التورية أو ما داخلته :

في مصرِ قلبي من خزائنِ يوسفٍ حَبٌّ وعيرُ مدامعي تمتاره
حلّيْتُ شعري باسمه فكأنّهُ في كلّ قَطرٍ حلّهُ ديناره

ومن المدح أيضاً ولا أستحضر لقبه :

رأيتُ بكفّكَ اعتبارا بأساً وندىً ما إن يبارى
فقلتُ وقد عجبتُ منها يا بحرُ متى تدعو نوارا

وقلتُ ممّا يجري مجرى الحكم :

إنَّ الهوى لَشكايةٌ معروفَةٌ صبرُ التصبرِ من أجلِّ علاجها
والنفسُ إن ألفتْ مرارَةَ طعمِهِ ضمنتْ بذاكَ له صلاحَ مزاجها

ومن الغرائب في الأوصاف :

كأنما الروضُ مَلْكٌ باهى بهِ جُلَسَاهُ

[1] ق : سِجباً .

يرضى النّديمُ فهمها سقى الرياض كساهُ

وفي غرض النّسيب :

أصبَحَ الخدُّ منكَ جنّةَ عدن مجتَــلى أعــينٍ وشَمَّ أنوفِ
ظلّلتهُ من الجفونِ سيوفٌ جنّة الخلدِ تحتَ ظلّ السيوفِ

وقلت في النسيب :

أرسلتُ طرفي في حُلاكَ بنظرةٍ هي كانت السببَ الغريبَ لما بي
وأراكَ بالعبراتِ قد عاقبتها ليسَ الرسولُ بموضعٍ لعقابِ

ومن تحسين القبيح :

وأحْوَلَ يعدي القلبَ سهمُ جفونه فتضحي صحيحات القلوب به مرضى
رأى الحسنُ أنَّ اللحظَ منهُ مهنّدٌ فحرّفَهُ كيما يكونَ له أمضى

ومن النزعات الحسنة :

من لي بذكرى كلّما أوجزتّها تمحو سُلُوّيَ واشتياقي تثبتُ
وسحابُ دمعٍ كلما أمطرته غير القتادِ بمضجعي لا يُنْبتُ

ومن النّسيب :

جاء العِذارُ بظلٍّ غيرِ ممدودِ فمنتهى الحسنِ منه غيرُ محدودِ
ناديتُ قلبيَ إذ لاحتْ طلائعُـهُ يا صبرَ أيوبَ هذا درعُ داودِ

وفي نقيضه :

ما ضرَّ منّيَ أن أخْلفْتَ موعودي وروض خدك أضحى ذاويَ العُودِ
وقالَ قوسُ عِذارٍ فوقَ صفحتِهِ سفينة الحسن قد حطّت على الجودي

ومن التضمين :

يا مَنْ بأكنافِ فؤادي رَبَعْ[1] قد ضاقَ بي عن حبّكَ المتسعْ
ما فيكَ لي جدوى ولا أرعوي «شحٌّ مطاعٌ وهوى متّبعْ»

ومن الأغراض المخترعة :

أنكرتُ لمّا أطلَّ عارضُهُ فقال لي حين رابهُ نظري
ألمْ تقلْ لي بأنّني قَمَرٌ فانظر إلى وبْر أرنبِ القمرِ

ومن التضمين :

يا كوكبَ الحسنِ يا معناهُ يا قمرَهْ يا روضَهُ المتناهي الرّيعِ يا ثمرَهْ
أمرتني بسلُوٍّ عنكَ ممتنعٍ «مأمورُ حسنكَ لمّا يقضِ ما أمرهْ»

وقلت :

لمّا رضيتَ بفرقتي وبعادي وصرمتَ آمالي وخنتَ ودادي
لاعَنْتُ أمَّ الصبرِ فيكَ وبعده ورثْتُ للأشجان كنزَ فؤادي
فالصبرُ منّي أجنَبيٌّ بعدها ولواعجُ الأشجانِ من أولادي

ومن الأغراض المشرقية :

سار بي للأمير يشكو اعتراضي يوسفٌ والشهودُ أبناءُ جِنْسه
قال لي ما تقول قلتُ مجيباً لم نخفْ من نكاله أو لحبسه
حَصْحَصَ الحقُّ يا خوَندُ فدعني أنا راودتُ يوسفاً عن نفسه

ومن الأوصاف :

---

١ ق : رتع .

بتنا نطارحُ همَّ القحطِ ليلتنا وأيّدَ الهَمُّ والسّهدُ البراغيثا
وكانَ يحمدُ ما كنّا نكابدهُ منَ المشقّةِ لو أنَّ البرا غيثا

وفي قريب من المعنى :

وقالوا بَدتْ منكمْ على الجسمِ حمرةٌ فقلتُ براغيثٌ لكمْ رَقَطونـا
عَدَتْ نحونا ليلاً ومن بعدنا اغتذتْ كما رقَصَتْ في القلْوِ بزر قَطونا

ومن التضمين :

قـال جَوادي عندما همزتُ همـزاً أعجزَهْ
الى مـتى تهمزني ﴿ويلٌ لكلِّ هُمَزَهْ﴾

وفي رثاء السلطان أبي الحجاج رحمه الله تعالى :

غبتَ فلا عينٌ ولا مخبرُ ولَا انتظارٌ منكَ مرقوبُ
يا يوسفٌ أنتَ لنا يوسفٌ وكلُّنا في الحزنِ يعقوبُ

وقلت ، ولهما حكاية :

طالَ حزني لنشاطِ ذاهبِ كنتُ أسقى دائماً من حانهِ
وشبابٍ كان يندى نضرةً[١] نزلَ الثلجُ على ريحانـهِ

وقلت ، وقد أعجبني نشاطُ ولدي :

سرقَ الدهرُ شبابي من يدي ففؤادي مُشعرٌ بالكَمَدِ
وحمدتُ الأمرَ إذْ أبصرتهُ باعَ ما أفقدني من ولدي

١ ق : وشباب كان يندى من يدي .

وقلت ، ولهما حكاية :

قلتُ للشيبِ لا يَرِبْكَ جَفائي في اختصاري لك البرور ومقتكْ
أنتَ بالعتبِ يا مشيبيَ أولى جئتني غَفْلَةً وفي غيرِ وقْتكْ

وممّا خططته في رملةٍ نزلتها :

أقَمْنا بُرهَةً ثمّ ارتَحَلْنا كذاك الدهرُ حالٌ بعد حالِ
وكلٌّ بدايةٍ فإلى انتهاء وكلٌّ إقامةٍ فإلى ارتحالِ
ومن سام الزمانَ دوامَ أمرٍ فقد وقف الرجاء على المحالِ

وقلت أيام مقامي بسلا :

أيا أهلَ هذا القُطْرِ ساعَدَه القَطْرُ بُليتُ فدلّوني لمن يُرْفَعُ الأمرُ
تشاغلتُ بالدنيا ونمتُ مفرّطاً وفي شُغُلي أو نَوْمَتي سُرِقَ العمرُ

وقلت ، والبقاء لله وحده ، وبه نختم الهذر :

عدّ عن كيتٍ وكيتِ ما عليهـــا غيرُ ميتِ
كيفَ ترجو حالةَ البقا يا لمصباحٍ وزيتِ

انتهى ما نقلته من « الإحاطة » من ترجمة نظمه ، وبعض ما ذكر هنا قد تقدّم ، وكرّرته لكونه بلفظه في الإحاطة ، وقد ذكرت أثناء الأبواب غير هذا الباب من نظم لسان الدين — رحمه الله تعالى — كثيراً ، ولنعزّز ذلك هنا بذكر ما لم يتقدّم ذكره ، إذ نظمه بحر لا ساحل له ، ولذا كتب ابنه أبو الحسن على هذا المحل من الإحاطة ما صورته : ولوالدي أيضاً المترجم به — رحمه الله تعالى — في سكين الأضاحي لسلطانه أبي الحجاج يوسف بن نصر فيما يكتب بالسكين المضحية :

لِيَ الفخرُ إن أبصرتني أو سمعتَ بي   على كلّ مصقول الغرارين مرهفِ
كفانِيَ فَخْراً أنْ تَرانِيَ قائماً   بسنّة إبراهيمَ في كَفّ يوسفِ

ومقطوعاته كثيرة لم يتضمن هذا الديوان منها إلاّ القليل بسبب الاختصار ، ومن أراد الوقوف على جملتها فعليه بكتاب « الصيِّب والجَهام » في شعره ، رحمه الله تعالى ، قال ذلك ولده علي ، لطف الله تعالى به آمين ؛ انتهى.

فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى[1] :

عسى خطرة بالركبِ يا حاديَ العيسِ   على الهضبة الشمّاء من قصر باديسِ[2]
لنظفرَ من ذاكَ الزلالِ بعلّةٍ   وننعمَ في تلكَ الظلالِ بتعريسِ
حبستُ بها ركبي فُواقاً ، وإنما   عقدتُ على قلبي بها عقدَ تحبيسِ[3]
لقد رسختْ آيُ الجوى في جوانحي   كما رسخ الإنجيلُ في قلب قسيسِ
بميدانِ جفني للسهاد كتيبةٌ   تغير على سرح الكرى في كراديسِ
وما بي إلاّ نفحةٌ حاجريّةٌ   سرت والدجى ما بين وهْنٍ وتغليسِ
ألا نَفَسٌ يا ريح من جانبِ الحمى   تُنَفّسُ من نار الجوى بعض تنفيسِ
ويا قَلْبُ لا تُلْقِ السلاحَ فربما   تعذّرَ في الدّهْرِ اطّرادُ المَقاييسِ
وقد تُعْتِبُ الأيّامُ بعدَ عتابها   وقد يعقب الله النعيمَ من البوسِ
ولا تخش لج الدمع يا خطرة الكرى   إلى الجفن بل قيسي على صرح بلقيسِ
تقولُ سليمى ما لجسمكَ شاحباً   مقالةَ تأنيبٍ يُشابُ بتأنيسِ
وقد كنتَ تَعْطو كلما هبّت الصَّبا   بريّانَ في ماء الشبيبةِ مغموسِ
ومَنْ رابحَ الأيّامَ يا ابنةَ عامرٍ   بجَوْبِ الفلا راحت يداهُ بتفليسِ

---

١ الإحاطة : ٤٢١ وأزهار الرياض ١ : ٢٣٤ .
٢ قصر باديس : فرضة بالمغرب تقابل مالقة من الديار الأندلسية .
٣ التحبيس : الوقف الدائم .

فلا تحسبي والصدقُ خيرُ سجيّة ظهورَ النّوى إلاّ بطون النواميسِ[1]
وقفراء أمّا رَكْبُها فمضلَّـلٌ ومربعُها من آنس غير مأنوسِ
سحبنا بها من هَضْبةٍ لقرارةٍ ضلالاً وملنا من كِناسٍ إلى خيسِ
إذا ما نهضنا عن مقيل غزالةٍ نزلنا فعَرّسْنا بساحةِ عِرّيسِ[2]
أدرنا بها كأساً دهاقاً من السُّرى أمَلنا بها عند الصباح من الروسِ
وحانـة خمّار هدانا لقصدها شميمُ الحميّا واصطكاكُ النّواقيسِ
تطلّعَ ربانيُّهـا من جدارهِ يهيّنمُ في جنْحِ الظلامِ بتقديسِ
بكرنا وقلنا إذْ نزلنا بساحه عن الصافناتِ الجُرد والضُّمَّرِ العيسِ
أيا عابد النّاسوتِ إنّا عصابةٌ أتيْنا لتثليثٍ بلى ولتسديسِ
ومـا قَصَدْنا إلاّ المقام بحانَةٍ وكمْ ألبسَ الحقّ المبين بتَلْبيسِ
فأنْزَلَنا قَوراء في جَنَباتهـا[3] محاريب شتّى لاختلاف النواميسِ
بدرنا بها طين الختام بسجدةٍ أردنا بها تجديدَ حسرةِ إبْليسِ
ودارَ العذارى بالمدامِ كأنهـا قطيعٌ تهادى[4] في رياش الطواويسِ
وصارفَنـا فيها نُضاراً بمثله كأنّا ملأنا الكاس ليلاً من الكيسِ
وقمنا نَشاوى عندما متَعَ الضحى كما نهضتْ غُلْبُ الأسود من الخيسِ
فقالَ لبئسَ المسلمونَ ضيوفنـا أما وأبيكَ الحبر ما نحن بالبيسِ
وهلْ في بني مَثْواكَ إلاّ مبرِّزٌ بحلبةِ شورى أو بحلقَةِ تَدْريسِ
إذا هَزَّ عسّال اليراعةِ فاتكاً أسالَ نجيعَ الحبرِ فوقَ القَراطيسِ
يقلّبُ تحتَ النّقْعِ مقلةَ ضاحكٍ إذا التفتَ الأبطالُ عن مُقَلٍ شُوسِ

١ لعل صوابها : « النواويس » .
٢ العريس : عرين الأسد .
٣ ق : فوراً على جنباتها ، والتصويب عن أزهار الرياض والإحاطة .
٤ الأزهار : قطا تتهادى ؛ وسقط البيت من الإحاطة .

سبينا عُقار الروم في عقرِ دارها [1] بحليةِ تمويهٍ وخدعةِ تَدْليسِ
لئن أنكرتْ شكلي ففضليَ واضحٌ وهل جائزٌ في العقل إنكارُ محسوسِ
رسبت بأقصى الغربِ ذخرَ مضنّةٍ وكمْ درَّة علياء في قــاع قاموسِ
وأغريت سُوسي بالعذيب وبارق على وطن داني الجوار من السوسِ

ومن أبدع ما صدر [2] عن لسان الدين رحمه الله تعالى لاميته المشهورة التي خاطب بها السلطان حين عاد من المغرب إلى الأندلس ، وأعاد الله تعالى عليه ملكه الذي كان خُلع منه ، ويقال : إن السلطان أمر بكتب هذه القصيدة على قصوره بالحمراء إعجاباً بها ، وإنها إلى الآن لم تزل مكتوبة بتلك القصور التي استولى عليها العدوّ الكافر ، أعادها الله تعالى للإسلام ، وأول هذه القصيدة :

الحقُّ يعلو والأباطلُ تسفُلُ والله عن أحكامه لا يُسْألُ

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : نظمتها للسلطان ـــ أسعده الله تعالى ـــ وأنا بمدينة سَلا ، لما انفصل طالباً حقه بالأندلس ، كان صُنعُ الله تعالى براعة استهلالها ، ووجهت بها إليه إلى رُندة قبل الفتح ، ثمّ لما قدمت أنشدتها بعد الفتح وفاء بنذري وسميتها « المنح الغريب في الفتح القريب » ومنها :

وإذا استحالتْ حالةٌ وتبدَّلتْ فاللهُ عزَّ وجلَّ لا يتبدَّلُ
واليسرُ بعدَ العسرِ موعودٌ به والصبرُ بالفرَجِ القريبِ موكَّلُ
والمسْتَعِدُّ لما يؤمّلُ ظــافرٌ وكفاك شاهد « قيدوا وتوكلوا » [3]
أمحمّدٌ والحَمْدُ منكَ سجيّةٌ بحليّهـــا دونَ الورى تتَجَمَّلُ
أمّا سعودكَ فهي دون مُنازعٍ عقدٌ بأحكامِ القضاء مسجَّلُ

---

[1] الإحاطة والأزهار : خانها .
[2] انظر أزهار الرياض ١ : ٢٦٢ .
[3] يشير إلى الحديث « اعقلها وتوكل » .

ولكَ السجايا الغُرُّ والشِّيَمُ التي بغَريبهـا يتمثَّـلُ المتمثِّـلُ
ولكَ الوقار إذا تزلزلتِ الرُّبى وهفَتْ من الروعِ الهضابُ المثّلُ
عوِّذْ كمالكَ ما استطعتَ فإنّهُ قد تنقصُ الأشياءُ ممّا تكملُ
تابَ الزمانُ إليكَ ممّا قد جنى واللهُ يأمُرُ بالمتـابِ ويقْبلُ
إن كان ماضٍ من زمانكَ قد مضى بإساءةٍ قد سرّكَ المستقْبَلُ[1]
هذا بذاكَ فشَفِّع الجاني الذي أرضاكَ فيما قد جنَاهُ الأوّلُ
واللهُ قَدْ ولاّكَ أمْرَ عبـادهِ لمّا ارتضى بكَ قيّماً لا تُعزلُ
وإذا تَغمّدكَ الإلهُ بنصرهِ وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذلُ

ومنها :

وظعنتَ عن أوطانِ ملككَ راكباً متْنَ العُبابِ فأيّ صبرٍ يحملُ
والبحرُ قد حُنِيَتْ عليكَ ضلوعُهُ والريـحُ تقطعُ للزفيرِ وترسـلُ
ولك الجواري المنشآتُ قد اغتدتْ تختالُ في بُردِ الشبابِ وترفلُ
جوفـاء يحملها ومن حملت بهِ من يعلم الأنثى وماذا تحمـلُ

ومنها :

صبّحتَهُمْ غُرَرَ الجيادِ كأنما سَدَّ الثنيّةَ عارضٌ متهلّلُ
من كلِّ منجردٍ أغرَّ محجّلٍ يرمي الجلادَ به أغرُّ محجّلُ
زَجِلُ الجناحِ إذا أجَدَّ لغايَةٍ[2] وإذا تغنّى للصهيـلِ فلبْبُـلُ
جِيدٌ كما التفتَ الظّليمُ وفوقَهُ أذنٌ ممشَّقَةٌ وطرفٌ أكحَلُ
فكأنّما هو صورةٌ في هيكلٍ من لطفه وكأنما هو هَيْكَلُ

١ سقط هذا البيت من ق .
٢ الأزهار : لغارة .

ومنها :

وخليج هندٍ راقَ حُسْنُ صفائِهِ حتى يكاد يعومُ فيهِ الصيقلُ
غرقتْ بصفحته النمالُ وأوشكَتْ تبغي النجاةَ فأوثقتْها الأرجلُ
فالصرحُ منهُ ممرَّدٌ ، والصفحُ منهُ موَرَّدٌ ، والشطُّ منــه مهدَّلُ[1]
وبكلِّ أزرقَ إن شكَتْ ألحاظُهُ مَرَهَ العيونِ فبالعجاجةِ تُكحَلُ
متأوِّدٌ أعْطــافُهُ في نَشْوَةٍ ممَّا يعلُّ من الدماء وينهلُ
عجباً له أنَّ النجيعَ بطَرفِهِ رمدٌ ، ولا يخفى عليهِ مقتلُ

ومنها :

للهِ موقفكَ الذي وثَبــاتُهُ وثباتُهُ مَثَلٌ بهِ يُتَمَثَّلُ
والخيلُ خطٌّ ، والمجالُ صحيفَةٌ والسُّمرُ تنقطُ ، والصوارمُ تشكلُ
والبيضُ قد كُسرتْ حروفُ جفونِها وعواملُ الأسَلِ المثقَّف تعملُ
للهِ قومكَ عند مشتجر القنــا إذْ ثوَّبَ الدّاعي المهيب وأقبلوا
قَوْمٌ إذا لَفَحَ الهجيرُ وجوهَهمْ حجبوا برايات الجهاد وظللوا

وهي طويلة لم يحضرني الآن منها سوى ما كتبته .

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله[2] :

يا إمامَ الهُدى وأيَّ إمامٍ أوضحَ الحقَّ بعد إخفاء رسْمِهْ
أنتَ عبدُ الحليم ، حلمَكَ نرجو فالمسمّى له نصيبٌ من اسمهْ

وقال يخاطب عبد الواحد بن زكريا بن أحمد اللحياني أبا مالك ابن سلطان إفريقية مودعاً[3] :

١ الأزهار : مصندل .
٢ أزهار الرياض ١ : ٢٦١ .
٣ المصدر نفسه .

أبا مالكٍ أنتَ نجلُ الملوكِ غيوثُ الندى وليوثُ النزالِ
ومثلكَ يرتاحُ للمكرماتِ وما لك بين الورى من مثالِ
عزيزٌ بأنفسنا أنْ نَرى ركابَكَ مؤذنَةً بارتحالِ
وقد خبرت منك خُلقاً كريماً أنافَ على درجاتِ الكمالِ
وفازتْ لديك بساعاتِ أُنسٍ كما زار في الليل طيفُ الخيالِ
ولَوْلا تَعَلّلُنا أنّنا نزورك فوق بساطِ الجلالِ
ونبلغُ فيكَ الذي نبتغي وذاك على الله سهلُ المنالِ
لما فتَرَتْ أنفُسٌ من أسًى ولا برحتْ أدمعٌ في انهمالِ
تلقّتكَ حيث حللتَ[1] السعودُ وكان لك الله في كلّ حالِ

وتوفي أبو مالك المخاطب بهذا في بلاد الجريد سنة ٧٥٠ .

ومن نظم ابن الخطيب قوله لما أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى[2]:

ماذا أُحدث عن بحر سَبَحْتُ به من البحارِ فلا إثمٌ ولا حَرَجُ
دحاهُ مبتدعُ الأشياء مستوياً ما إن به دركٌ كلاً ولا دَرَجُ
حتى إذا ما المنارُ الفردُ لاحَ لنا صحت ابشري يا مطايا جاءك الفرجُ
قربتِ من عامرٍ داراً ومنزلةً والشاهد العدل هذا الطّيب والأرجُ

وقال رحمه الله تعالى[3] :

كأنّا بتامسنا نجوسُ خلالهـا وممدودها في سيرنا ليسَ يُقصرُ
مراكبُ في البحرِ المحيطِ تخبطتْ ولا جهةٌ تدري ولا البرّ تُبصِرُ

١ الأزهار : احتلت .
٢ أزهار الرياض : ٢٦٥ .
٣ المصدر نفسه .

وقال سامحه الله تعالى ، وهو مكتوب بالمدرسة التي بناها السلطان أبو الحجاج ابن نصر رحمه الله تعالى[1] :

ألا هكذا تُبنى المدارسُ للعلمِ   وتبقى عهودُ المجدِ ثابتةَ الرسمِ
ويُقصد وجه الله بالعملِ الرضى   وتجنى ثمار العزّ من شجر العزمِ
تفاخر مني حضرة الملكِ كلّما   تقدم خصم في الفخار إلى خصمِ
فأجدى إذا ضنّ الغمامُ من الحيا   وأهدى إذا جنّ الظلام من النجمِ
فيا ظاعناً للعلمِ يطلبُ رحلةً   كفيت اعتراض البيد أو لجج اليمّ
ببابيَ حُطّ الرحلَ لا تنوِ وجهةً   فقد فزت في حالِ الإقامة بالغُنْمِ
فكم من شهابٍ في سمائيَ ثاقبٍ   ومن هالةٍ دارتْ على قمرٍ تمّ
يفيضون من نورٍ مبينٍ إلى هدًى   ومن حكمةٍ تجلو القلوب إلى حكمِ
جزى الله عني يوسفاً خير ما جزى   ملوكَ بني نصر عن الدين والعلمِ

وقال رحمه الله تعالى[2] : مررت يوماً مع شيخنا أبي البركات ابن الحاج ببعض مسالك غرناطة حرسها الله تعالى فأنشدني من نظمه :

غرناطةٌ ما مثلها حضرهْ   الماء والبهجة والخضرهْ

واستجازني رحمه الله تعالى ، فقلت :

سكّانها قد أسكنوا جنّةً   فهم يُلقّون بها نضرهْ .

وقال في تورية طبية[3] :

إني وإنْ كنتُ ذا اعتلالِ   رثّ القوى بيّنَ الهزالِ

---

١ أزهار الرياض : ١ : ٢٧٢ .
٢ المصدر نفسه .
٣ أزهار الرياض ١ : ٢٧٤ .

في عارضِ التيسِ لي شفاءٌ فكيف في عارضِ الغزالِ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب شيخه سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق موطئاً على بيت المشارقة في العِذار[1] :

أما والذي تُبْلى لديهِ السرائرُ لما كنتُ أرضى الخسفَ لولا الضرائرُ
غدوتُ لضيمِ ابن الربيبِ فريسةً أما ثار من قومي لنصريَ ثائرُ
إذا التمستْ كفّي لديهِ جرايتي كأنيَ جانٍ أوبقَتْهُ الجرائرُ
وما كان ظني أن أنالَ جرايةً يحكّم من جرّائها فيَّ جائرُ
متى جاد بالدينارِ أخضرَ زائفاً ودارتُهُ دارتْ عليها الدوائرُ
وقد أخرج التعنيتُ كيسَ مرارتي ورقّتْ لبلوايَ النفوسُ الأخايرُ[2]
تذكرتُ بيتاً في العِذارِ لبعضهمْ له مثَلٌ بالحسن في الأرض ثائرُ
« وما اخضرَّ ذاك الخدُّ نبتاً ، وإنما لكثْرة ما شُقّتْ عليه المرائرُ »
وجاهُ ابن مرزوقٍ لديَّ ذخيرةٌ وللشدَّةِ العظمى تُعَدُّ الذخائرُ
ولو كان يدري ما دهاني لساءه وأنكرَ ما صارتْ إليهِ المصائرُ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحد الشرفاء[3] :

أعيا اللقاءُ عليَّ إلاَّ لمحةً في جملةٍ لا تقبلُ التفْصيلا
فجعلتُ بابكَ عن يمينكَ نائباً أهديهِ عند زيارتي تقبيلا
فإذا وجَدتُكَ نلْتُ ما أمّلْتُهُ أو لم أجدكَ فقد شفيتُ غليلا

ولما دخل رحمه الله تعالى مدينة أنفا[4] ، ومر منها على دار عظيمة تُنسب إلى والي

١ المصدر نفسه .
٢ اضطربت هذه اللفظة في ق ، وأثبتنا ما في أزهار الرياض .
٣ أزهار الرياض ١ : ٢٧٥ .
٤ أنفا : هي الدار البيضاء الحديثة في المغرب .

جبايتها عبّو من بني الترجمان قارون قومه وغني صنفه ، قال[1] :

قد مررنا بدار عَبّو الوالي وهي ثكلى تشكو صروفَ الليالي
أقْصَدَتْ ربَّها الحوادثُ لمّا رشقَتْــهُ بصــائبــات نبالِ
كان بالأمسِ والياً مستطيلاً وهو اليومَ ما له من والِ

وقال في الشيخ ابن بطّان الصنهاجي[2] :

للهِ درُّكَ يا ابن بطّان فما لشهيرِ جودك في البسيطة جاحدُ
إنْ كانَ في الدُّنيا كريمٌ واحدٌ يزنُ الجميعَ فأنتَ ذاك الواحدُ
أجريتَ فضلكَ جعفراً يحيا به ما كان من مجدٍ فذكرك خالدُ
فالقومُ منكَ تجمَّعوا في مفردٍ ولَدٌ كما شاء العَلاءُ ووالدُ
وهي الليالي لا تزالُ صروفها يشقى بموقعها الكريمُ الماجدُ
وبمستعين الله يصلحُ منكَ ما قد كان أفسدهُ الزمانُ الفاسدُ

وقال رحمه الله تعالى وقد انتابه البرغوث[3] :

زحفتْ[4] إليَّ ركائبُ البرغوثِ نَمٌّ الظلام بركبها المحثوثِ
بالحبّةِ السوداءِ قابل مقدمي للهِ أي قِرًى ، أعَدَّ ، خبيثِ
كسحتْ بهن ذباب سرح تجلدي ليلاً فحبلُ الصبرِ جدُّ رثيثِ
إن صابرتْ نفسي أذاه تعبّدتْ أو صحتُ منه أنفتُ من تحنيثِ
جيشانِ من ليلٍ وبرغوثٍ فهلْ جيشُ الصباح لصرختي بمغيثِ

---

١ أزهار الرياض ١ : ٢٨٨ .
٢ المصدر نفسه .
٣ أزهار ص : ٢٨٩ .
٤ ق : رجعت .

وقال يخاطب الوالي محمد بن حسّون بن أبي العلاء ، وصدّر بها رسالة [1] :

لم يُبقِ لي جودُ الولايةِ حاجةً ... في الأمن أو في الجاه أو في المالِ
بعد اللقاء أُولو الفضائلِ بغيتي ... ورأيتُ هذا القصدَ شرطَ كمالِ
أجملتُهُ وتشوّفَتْ لبيــانه ... همم فكنتَ مفسّرَ الإجمالِ
وخصصتَ بالإلقاء غيركَ غيرةً ... وجعلتُ ذكرك شاهد الأعمالِ
للبستَ يا ابن أبي العلا قُشُبَ الملا ... وتركتَ أهلَ الأرض في أسمالِ
إنْ دوّن الفضلاء فضلاً مُعْلَماً ... فلقد أتيتَ عليهِ بالإكمالِ
تُثني عليكَ رعيّةٌ آمالُهــا ... في أن تفوزَ يداكَ بالآمالِ
أرعَيْتَها هملاً فلمْ يطرقْ لها ... بمنيعِ سورك طارقُ الإهمالِ
من كنتَ واليهِ تولّتْهُ العلا ... ومن اطّرحتَ فما لهُ من والي

وقال في عثمان بن يحيى بن عمر بن روح [2] :

أسميَّ ذي النورين وجهك في الوغى ... شمس الضحى حلّتْ بليث عرينِ
إن تفتخر بمرين أرضُ العُدوةِ الـ ... ـقصوى فإنّكَ أنتَ فخرُ مرينِ

وقال رحمه الله تعالى عند وقوفه على مراكش واعتباره بما صار إليه أمرها [3] :

بلدٌ قد غزاهُ صَرْفُ الليالي ... وأباحَ المصونَ منهُ مُبيحُ
فالذي خرَّ من بناهُ قتيلٌ ... والذي خرَّ منه بعضٌ جريحُ
وكأنَّ الذي يزورُ طبيبٌ ... قد تأتّى لهُ بها التشريحُ
أُعجمتْ منه أربُعٌ ورسومٌ ... كان قِدماً بها اللسانُ الفصيحُ

١ أزهار : ٢٨٩ .
٢ المصدر نفسه .
٣ أزهار : ٢٩٠ .

كم معانٍ غابت بتلك المغاني		وجمالٍ أخفاهُ ذاكَ الضريحُ
وملوكٍ تَعبّدوا الدَّهرَ لمّا		أصبح الدهرُ وهو عبدٌ صريحُ
دوّخوا نازحَ البسيطةِ حتى		قالَ ما شاء ذابِلٌ وصفيحُ
حين شبّتْ لهم من البأس نارٌ		ثمّ هبّتْ لهم من النصرِ ريحُ
أثرٌ ينـــدبُ المؤثّرَ لمّا		طال بَعد الدنوِّ منهُ النزوحُ
ساكنِ الدار روحها، كيف يبقى		جسدٌ بعدما تولّى الروحُ ؟

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحمد بن يوسف حفيد الولي الصالح سيدي أبي محمد صالح النائم في ظل صيته رحمه الله تعالى[1] :

يا حفيدَ الولي يا وارث الفخـ		ـرِ الذي نال في مقام وحالِ
لك يا أحمدَ بنَ يوسفَ جبنا		كلَّ قطرٍ يعيي أكفَّ الرحالِ

وقال في « نفاضة الجراب » : لما خرجت من آسفي[2] سرت إلى منزل ينسب إلى أبي خَدُّو ، وفيه رجل من بني المنسوب إليه اسمه يعقوب ، فألطف وأجزل ، وآنس في الليل ، وطلبني بتذكرة تثبت عندي معرفته فكتبت له[3] :

نزلنا على يعقوب نجل أبي خَدُّو		فعرّفنا الفضلَ الذي ما له حدُّ
وقابلَنا بالبِشرِ واحتفل القِرى		فلم يبقَ لحمٌ لم نَنَلْهُ ولا زبدُ
يحقُّ علينا أن نقومَ بحقّهِ		ويلقاه منا البرُّ والشكرُ والحمدُ

وقال :

أألقي إلى الأيام فضلَ مقادتي		فتجنبني ما بين كدٍّ وإرهاقِ

١ أزهار : ٢٩٨ .
٢ آسفي : بالمغرب على ساحل الاطلنطي ، والسين منها مفتوحة أو ساكنة .
٣ المصدر نفسه .

وأُتلف بين الخلق والرزق فكرتي ولستُ بخلاّقٍ ولست برزّاقِ
إذا كنتُ بالإثراء لي في تملّقٍ رضيتُ بعز النفس في عز إملاقِ

وقال :

لك الملك ملك الحسن فاقْضِ بنا الذي تشاء فما يُعْصى لأمركَ واجبُهْ
إذا ما كسرت اللحظ من تحت حاجبٍ تحكّم في الألباب كسرى وحاجبُهْ

وقال :

سألنا ربيعَ العامِ للعامِ رحمةً فضنَّ ولم يسمحْ بذرَّةِ إنعامِ
فقلنا وقد ردَّ الوجوهَ ولم يُبَلْ قليلُ الحيا قُبِّحْتَ والله من عامِ

وقال :

تخوّنه صرفُ الزمان وهل ترى بقاءً لحيّ أو دواماً على أمرِ
هو الدهر ذو وجهين يومٍ وليلةٍ ومن كان ذا وجهين يعتبُ في غدرِ

وقال رحمه الله تعالى في شجر الجوز :

انظر إلى يَنْعي وحُسْنِ بُسُوقي يهفو النسيمُ بقدّيَ الممشوقِ
يجلو اللواحظَ منظري حسناً كما يجلو ثُغورَ الغـــانيـــات عروقي

وقال رحمه الله تعالى في ساقٍ :

كيف آمنتما على الشَّرْبِ ظبياً لحظُهُ في القلوبِ غيرُ أمينِ
راح يسقي فصَبَّ في الكأس نزراً ثقةً منهُ بالذي في العيونِ

وقال يخاطب السلطان[1] :

---

١ أزهار : ٢٩٨ .

أنتَ للمسلمين خيرُ عمادٍ ومـلاذٍ وأيُّ حِرْزٍ حريزِ
لو رأى ما شرعتَ للخلقِ فيهِ عمرُ الفاضل ابن عبدِ العزيزِ
لجزى ملكك المباركَ خيراً وقضـى بالشفوفِ والتبريزِ
فاشكر الله ما استطعتَ بفعلٍ وبقولٍ مُطَـوَّل أو وجيزِ
كلُّ مَلْكٍ يُرَى بصحبة أهل الـعلم قَدْ باء بالمحلّ العزيزِ
فإذا ما ظفرتَ منهم بإكسيـرٍ مـلأت البـلادَ من إبريزِ
والبرايا تبيدُ والملك يفنى أين كسرى الملوكِ مع أبرويزِ

وقال رحمه الله تعالى :

ما لي أهذِّبُ نفسي في مطامعها والنفسُ تأنف تهذيبي وتهذي بي
إذا استعنْتُ على دهري بتجربةٍ تأبى المقاديرُ تجريبي وتجري بي

وقال :

من لا نصيبَ لصَحْبه في خيره وإذا سعى لم يقضِ حاجةَ غيره
فاقصدْ أباه متى أردتَ وقل له الله يُلهمُهُ العزاء بأيره

وقال رحمه الله تعالى :

أمُستخرجاً كنزَ العَقيق بآماقي أناشدكَ الرحمنَ في الرمَقِ الباقي
فقد ضعفتْ عن حمل صبريَ طاقتي عليك وضاقتْ عن زفيريَ أطواقي

وقال رحمه الله تعالى :

إذا لم أشاهد منكَ قبل منيّتي نهـايةَ آمالي وغاية غاياتي
فحسْنُ عزائي حيل بيني وبينه وقرّة عيني لم تحلَّ بمرآتي
شهودك أمني من عُداةِ خواطري وقربك حِرْزي من توقّع آفاتِ

فإن لم يكنْ وصلٌ فهبها إشارةً   فيا حُسن َشاراتي بها من إشاراتِ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب الدنيا :

دُنْيا خدعتِ الذي سَفَرتِ له   عن صفحةٍ لم يحلْ بها كرَمُ
سرقتِ حظَّ الإلـه من يده   فهانَ ما كانَ منهُ يحترمُ
هـذا الذي نالَ منك ليسَ له   منقطـــعٌ دائـمٌ ومنصرمُ
وهبْــه نالَ الذي أراد أما   بينَ يديهِ المشيبُ والهَــرَمُ

ولمّا أورد رحمه الله تعالى قول القائل[1] في وصف الدنيا :

كلّما أنبَتَ الزّمانُ قنـاةً   ركّبَ المرءُ في القناة سنانا
وكأنّا لم نرضَ فيها بريْـ   ـبِ الدهرِ حتى أعانه من أعانا

قال أثره ما نصّه : والحق ما قلته من أبيات تناسب ذلك ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله :

والله إن لم يُداركها وقد وحلت   بلمحةٍ أو بلطفٍ من لدنه خفي
ولم يَجُدْ بتـــلافيها على عجلٍ   ما أمرها صـائرٌ إلا إلى التلفِ

فحب الدنيا رأس كل بلية ، ولولاه لم تزل النفس صافية عالية عن سجيتها الأولية .

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله :

إن رأى الحقُّ فيك منهُ بقيّهْ   فاتّقِ البعدَ فيهِ حقَّ التقيَّهْ
وإذا لم يكن لذاتكَ رسمٌ   قائمٌ تلكَ حالةٌ حقّـيَّهْ

وقوله رحمه الله تعالى :

١ هو المتنبي ، من قصيدة له مطلعها « صحب الناس قبلنا ذا الزمانا » .

فسامحْ إذا ما لم تفدكَ عبارةٌ ... وإن أشكلت يوماً فخذها كما هيا
وتلخيصُ ما دندنتَ بالقولِ حوله ... إذا قمتَ بالباقي فما زلت باقيا

وقال رحمه الله تعالى[1] :

ففي عالَمِ الأسرارِ ذاتُكَ تَجْتلي ... ملامحَ نورٍ لاحَ للطُّور فانْهدّا
وفي عالمِ الحسّ اغتديتَ مبوَّأً ... لتشفي من استشفى وتهدي من استهدى
فما كُنتَ لولا أن أتيْتَ هداية ... من الله مثلَ الخلق رسماً ولا حدّا

وهذه الأبيات في مدح النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال رحمه الله تعالى :

حَمامةَ البانِ ما هذا البكاء على ... مرِّ الليالي وما ذا البثُّ والحَزَنُ
لا منزلٌ بنتَ عَنْهُ أنتَ تندبُهُ ... ولا حبيبٌ ولا خلٌّ ولا سكنُ
لو كنتَ تَنفثُ عن شوق مُنيتَ به ... إذاً لصار رماداً تحتك الغُصُنُ

وقال رحمه الله تعالى مضمِّناً :

أمِطْ عنك مهما اسطعتَ كلَّ إرادةٍ ... وإلا فمَغْنى القومِ عَنْكَ بعيدُ
تكونُ مريداً ثمَّ فيكَ إرادةٌ ... إذا لم ترد شيئاً فأنتَ مريدُ

وقال رحمه الله تعالى :

تعلَّقته من دوحةِ الجودِ والباسِ ... قضيباً لعوباً بالرجاء وباليأسِ
ضَروباً بضربٍ لليراعة والقَنا ... طروباً بحملِ المشرفية والكاس
يذكرنيه الصبحُ عند انصداعه ... جمالَ رُوَاه في تأرُّج أنفاس
ويبدو لعيني شَعْرُه وجبينُهُ ... إذا ما سفحتُ الحبرَ في صفح قرطاس

---

1 انظر ص : ٤٥٣ .

وقال رحمه الله تعالى :

أحبُّ لحبّهــا جَمَلي ورحلي　　وعزمي والقَتادة والطريقــا
ومَنْ أخْشاهُ من سبعٍ ولصٍّ　　فكيفَ فريقها ؟ سلموا فريقا !
وكيف أُخَصُّ باسم الحبِّ إن لم　　أُحبَّ لأجلهــا إلا صـديقا

وقال رحمه الله تعالى : وقلت من قصيدة :

أنا نسخةُ الأكوانِ أدمجُ خطّها　　فسِرُّ ذوي التحقيق في طيّ أوراقي
فمِن عالم الأشباحِ ليلي وظلمتي　　ومن عالمِ الأرواح نوري وإشراقي

وقال رحمه الله تعالى :

مولايَ مولايَ إن أرضاك بَذْلُ دمي　　فقَـدْ أتيْتُ بهِ أسْعى على قَدَمي
وإن تعاظَمَ ذَنْبٌ قَدْ جنتهُ يدي　　وطال قَرْعي عليهِ السنَّ مِنْ نَدمِ
فهَبْهُ لي واغتفرْ ما كانَ من خطإ　　وزلةٍ وارعَ لي حـبي على القـدمِ

وقال رحمه الله تعالى من قصيدته العينية السلوية التي وجهها إلى سلا أيام خلّف بها أهله وولده :

بوليِّ اللهِ فابدأ وابتـدرْ　　واحدِ الآحادِ في باب الورعْ

[ترجمة الولي ابن عاشر]

قلت : هذا الولي هو العارف بالله تعالى سيدي الحاج أحمد بن عاشر أحد الصلحاء أصحاب الكرامــات المشهورة بالمغرب ، وقد زرت قبره بسلا عام تسعة وألف ، وهو أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر [1] ، الأندلسي ، نزيل سَلا ، الولي الزاهد المشهور بالمناقب والأحوال .

---

[1] انظر ترجمة ابن عاشر في نيل الابتهاج : ٤٣ والمقري ينقل عنه ؛ وأنس الفقير : ٩ .

قال ابن عرفة : ما أدركت مبرِّزاً في زماننا هذا إلا الشيخ أبا الحسن المنتصر وأحمد بن عاشر بسَلا ؛ انتهى .

وقال بلديُّنا أبو عبد الله ابن صعد التلمساني في كتابه « النجم الثاقب فيما لأولياء الله تعالى من المناقب » : كان أحَدَ الأولياء الأبدال ، معدوداً في كبار العلماء ، مشهوراً بإجابة الدعاء ، معروفاً بالكرامات ، مقدّماً في صدور الزهاد ، منقطعاً عن الدنيا وأهلها ، ولو كانوا من صالحي العباد ، ملازماً للقبور في الخلاء المتصل ببحر مدينة سَلا ، منفرداً عن الخلق ، لا يفكر في أمر الرزق ، وله أخبار جليلة ، وكرامات عجيبة مشهورة ، ممّن جُمِع له العلم والعمل ، وأُلقي عليه القبول من الخلق ، شديد الهيبة ، عظيم الوقار ، كثير الخشية ، طويل التفكر والاعتبار ، قصده أميرُ المؤمنين أبو عنان ، وارتحل إليه عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، فوقف ببابه طويلاً ، فلم يأذن له ، وانصرف وقد امتلأ قلبه من حُبّه وإجلاله ، ثم عـــاود الوقوف ببابه مراراً فما وصل إليه ، فبعث له بعض أولاده بكتاب كتبه إليه يستعطفه لزيارته ورؤيته ، فأجابه بما قطع رجاءه منه ، وأيس من لقائه ، واشتد حزنه ، وقال : هذا ولي من أولياء الله تعالى حجبه الله عنّا ؛ انتهى .

ولمّا أجرى ذكره لسان الدين في « نفاضة الجراب » قال ما ملخصه : ولقيت من أولياء الله تعالى بسَلا الولي الزاهد الكبير المنقطع القرين ، فراراً عن زهرة الدنيا ، وعزوفاً عنها ، وإغفاء في الورع ، وشهرة بالكشف ، وإجابة الدعوة وظهور الكرامة ، أبا العباس ابن عاشر ، يسّر الله تعالى لقاءه على تعذره لصعوبة تأتّيه ، وكثرة هيبته ، قاعداً بين القبور في الخلاء ، رث الهيئة ، مُطْرِق اللحظ ، كثير الصمت ، مفرط الانقباض والعزلة ، قد فرَّ من أهل الدنيا وتطارحهم ، فهو شديد الاشمئزاز من قاصده ، مُجَرمز للوثبة من طارقه ، نفع الله تعالى به .

وقال ابن الخطيب القسمطيني الشهير بابن قنفذ : لقيته بسلا سنة ٧٦٣ ، وهو على أتم حال في الورع ، والفرار من الأمراء ، والتمسك بالسنّة ، وهو الشيخ

الفقيه الولي ، توفّي في سنة خمس وستين وسبعمائة ؛ انتهى .

وممّن انتفع به ونال بركته الولي العارف بالله سيدي أبو عبد الله ابن عبّاد شارح الحكم ، وقد ترجمناه في هذا الكتاب .

وقال ابن عباد المذكور في رسائله : وقد كنت قِدماً خرجت في يوم مولده صلى الله عليه وسلّم صائماً إلى ساحل البحر ، فوجدت هناك سيدي الحاج ابن عاشر رحمه الله تعالى وجماعة من أصحابه معهم طعام يأكلونه ، فأرادوا مني الأكل ، فقلت : إنّي صائم ، فنظر إلي سيدي الحاج نظرة منكرة ، وقال لي : هذا يوم فرح وسرور يُستَقبح في مثله الصوم كالعيد ، فتأمّلت قوله فوجدته حقّاً ، وكأنّه أيقظني من النوم ؛ انتهى .

وقال ابن قنفذ السابق في رحلته ما صورته : وكان ابن عاشر رحمه الله تعالى فريداً في الورع ، ميسراً عليه في ذلك أتم تيسير ، محفوظاً من كل ما فيه شبهة ، كثير النفور من الناس ، وخصوصاً أصحاب الولاية في الأعمال ، وخرجت على يده تلامذة نجباء أخيار ، وطريقه أنّه جعل « إحياء علوم الدين » بين عينيه ، واتبع ما فيه بجدّ واجتهاد ، وصدق وانقياد ، وكان الحجّة في ذلك الطريق ، وأول اجتماعي به نَفَرَ مني ، فحبَسْتُه بيدي وهزته ، فتبسم ووقف معي ، وسألني عن نسبي ، ودعا لي ، وطلبته بما يطعمني ، فاعتذر لي بالإقلال ، ثم قال : أمهل ، فدخل وأخرج لي حبّات تين يابسة في يده اليمنى ، وغطاها باليد اليسرى ، ودفعها إليّ ، وضحك معي ، وعجب الحاضرون من ليانته وانشراحه معي ، لأنّه لا ينبسط إلى أحد ، وحصل لي بذلك فخر لا يدري قدره إلاّ مَنْ حاول بعضه معه ، وقصدني كثير من الخواص فسألني عن مجلسي معه وما وقع من جوابه وسؤاله ، وقد حاول ملك المغرب لما ارتحل إليه في عام سبعة وخمسين وسبعمائة على لقائه فلم يقدر عليه بوجه ، وحجبه الله تعالى حتى تبعه يوم جمعة من الجامع الأعظم على قدمه ، والناس ينظرونه ، وهو لم يره ، فرجع ، ولم يكن قوته إلاّ من نسخ العمدة في الحديث ، وكيف يبيعها ، ولمن يبيعها ، ولا يأخذ إلا قيمتها ،

ولم تزل حالته وبركته في زيادة إلى أن توفي سنة ٧٦٥ ، وسأله بعض الأخيار بمحضري عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفة النصراني ؛ لوجود ذلك من بعضهم ، فقال : المسلم الذي له هذه الدرجة يبرىء من العاهة ، والنصراني لا يبرىء ، ثم قال : وهل يبرىء الفقيه من العاهة ؟ فقال له : نعم ، ثم نظر يميناً وشمالاً ليجد صاحب عاهة فيأتي بالعيان ، فلم يجد أحداً ، وكأنه اغتاظ لهذا السؤال ، ثم أخرج يده وقال : يأتي لمن يقعد عن الحركة ، فيحبسه بيده ، ويقيمه وقد ذهب ألمه بعد أن جثا إلى الأرض في الصفة ، ثم قال : وسئل بعضهم عن هذا ، وكان السائل نصرانياً في زي المسلم ، فقال له : الفرق بينهما سقوط الزنار من وسطك ، قال : فسقط ، وفضحه الله تعالى ، وأسلم بسبب ذلك ؛ انتهى كلام ابن قنفذ القسمطيني ، رحمه الله تعالى .

وترجمة ولي الله تعالى سيدي الحاج ابن عاشر — نفعنا الله تعالى ببركاته — متسعة جداً ، وكراماته ومناقبه لا نبلغ لها حداً ، ولا نطيق لها عداً ، وإنما ألمعنا بذكره قصداً للتبرك به ، والله ولي التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق .

رجع إلى نظم لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، فنقول : ومن مداعباته رحمه الله تعالى قوله :

ومولع بالكتب يبتـاعها بأرخص السوم وأغلاه
في نصف الاستذكار أعطيته مختصر العـين فأرضاه

ويعني بمختصر العين الزبيدي فافهم ، وقال رحمه الله تعالى من قصيدة :

ووالله ما اعتلّ الأصيل ، وإنما تعلّم من شجوي فبان اعتلاله

وهذا غاية في المبالغة وحسن التعليل .

وقال رحمه الله تعالى [1] : وقفت على قبر المعتمد بالله في مدينة أغمات في حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية ، باعثُها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار ، عام واحد وستين وسبعمائة ، وهو بمقبرة أغمات في نَشَز من الأرض ، وقد حفَّت به سِدْرة ، وإلى جنبه قبر « اعتماد » حظية مولاه رُمَيْك ، وعليهما هيئة التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما ، فأنشدت في الحال :

قد زرتُ قبرك عن طوعٍ بأغماتِ ... رأيْتُ ذلكَ من أولى المهمّاتِ
لم لا أزورُك يا أندى الملوكِ يداً ... ويا سراجَ اللّيالي المدلهماتِ
وأنت من لو تخطّى الدهر مَصْرَعه ... إلى حَياتي لجادتْ فيهِ أبياتي
أنافَ قبركَ في هَضْب يميّزُهُ ... فتَنْتحيهِ حَفِيّاتُ التحياتِ
كرمتَ حيّاً وميتاً واشتهرتَ عُلاً ... فأنْتَ سلطانُ أحياءٍ وأمواتِ
ما ريء مثلك في ماضٍ ، ومعتقدي ... أن لا يُرَى الدهْرَ في حالٍ ولا آتِ

وقد تقدّم هذا في القسم الأول في الباب السابع منهُ ، وكررته هنا ، والله الموفّق .

وقال رحمه الله تعالى مورياً حين أكل مشرفُ الدار القابِضَ ، أي أكل مالهُ [2] :

مُشْرِفُ دارِ الملك ما باله ... منتفخ الجوفِ شكا نافضا [3]
فقيلَ لي ليسَ بهِ علّة ... لكنّهُ قد أكلَ القابضا [4]

[1] أزهار الرياض ١ : ٢٩٧ ، وانظر الأبيات في الجزء ٤ : ٩٨ .
[2] أزهار : ٣٠٠ .
[3] النافض : الحمى .
[4] القابض – في المصطلح الأندلسي – المال المقبوض .

وقال[1] :

يا نفسُ لا تصغي إلى سلوةٍ — كم أخلف الموعدَ عرقوبُ
وأنْتَ يا قلبيَ وصّــاك إبـ — راهيمُ بالحزنِ ويعقوبُ

وقال في السعيد أبي بكر ابن السلطان أبي عنان :

أميرٌ كأنّ قُميرَ الدُّجى — أفاض الضياء على صَفْحتَيْهِ
تمــلأ قلبيَ مِنْ حبــهِ — غداةَ نظرتُ بعيني إليــهِ
فلا بسطَ الدهر كف الردى — لذاك الشخيصِ وذاك الوجيهِ

وقال يخاطب الخطيب ابن مرزوق :

تعلّمَ طَيْفوري خلالَ سميّهِ — وإن كان منسوباً إلى غير بسطام[2]
وجاء فقيرَ الوقتِ لابسَ خرقةٍ — فليس براضٍ غيرَ صحبة صوام
فديتك لا تردُدْهُ عَنْكَ مخيباً — ودرّسْهُ يا مولايَ قصّــة بلعام[3]

وقال : ممّا كتبت به إلى ابن مرزوق المذكور ، وقد وصل ولده إلى سَلا ومنع ابنَ الخطيب عن لقائهِ عذرُ مرضٍ ، وكان نزوله بزاوية النساك :

صــدّني عَنْ لقاء نجلكَ عذرٌ — يمنعُ الجسمَ عن تمامِ العباده
واختصرتُ القرى لأن حطّ رحلاً — في محلّ الغنى ودار الزّهاده
ولَوَ آني احتفلتُ لم يُعِنِ الدهـ — ـرُ ولا نلتُ بعضَ بعضٍ أراده
وعلى كلّ حــالةٍ فقصوري — عــادةٌ إذ قبولُكَ العذرَ عاده

---

١ هذه المقطوعة والعشر التالية لها في أزهار الرياض ٣٠٠ – ٣٠٤ .
٢ الطيفور : طبق عليه طعام أو مائدة صغيرة ، وفي الإسبانية (Ataifor) ، وانظر الحاشية : ٢ من ج ٤ : ٥١٠ ، وطيفور اسم أبي يزيد البسطامي .
٣ بلعام اسمه مشتق من البلع فهو يوري بذلك .

لا عدمتَ الرضى من اللهِ والحُسـ ـنى كما نصَّ وَحْيُـه والزياده

وقال يخاطبه من ضريح السلطان أبي الحسن بشالة لاستنهاض عزيمته في قضاء غرضه :

برئت لله من حَوْلي ومن حِيَلي ... إن نام عني وليِّي فَهْوَ خيرُ ولي
أصبحتُ ما ليَ من عطفٍ أؤمّله ... من غيرهِ في مهمّاتٍ ولا بَدَلِ
ما كنتُ أحسبُ أن أُرْمى بقاصيةٍ ... للهجر أقطعُ فيها جانبَ الأمل
من بعد ما خلصتْ نحوي الشفاعةُ ما ... بينَ العُلا[1] والدجى والبيض والأسل
إن كنتُ لستُ بأهل للذي طمحتْ ... إليـه نفسي وأهْوَى نحوه أملي
فكيفَ يُلْغى ولا تُرعى وسيلته ... دخيلُ قبرِ أمير المسلمين علي
من بعد ما اشتهرتْ حالي به وسرَتْ ... بها الركائبُ في سهلٍ وفي جبل
والرسلُ تترى ولا تخفى نتائجها ... عندَ التأمّلِ من قولٍ ولا عمل
ولا لليليَ من صبحٍ أطالعه ... كأنَّ همّيَ قد مدَّ الدُّجُنّةَ لي
لو أنّني بابن مرزوقٍ عقدتُ يدي ... وكان محتكماً في خيرة الدول
لكان كربيَ قد أفضى إلى فرجٍ ... وكان حزنيَ قد أوفى على جذَلِ
ألحتُ بالعتبِ لم أحذرْ مواقعه ... « أنا الغريق فما خوفي من البلل »
ولست أجحد ما خُوِّلت من نعم ... لكنّها النفس لا تنفكُّ عن أمل
ولست أيأس من وعد وعدت به ... « وإنّما خُلِقَ الإنسانُ من عَجَل »

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا الحجاج :

أمولاي إنَّ الشعر ديوانُ حكمةٍ ... يفيد الغنى والعز والجاه من كانا
وقد وُجدَ المختارُ في الحفلِ مُنْصِتاً ... لهُ وحَبا كعباً علَيْهِ وحسّانا

[1] الأزهار : الفلا .

وفيما رواه الناقلون وأثبتوا ... بذلك ديواناً صحيحاً فديوانا
بأنَّ أبا بكرٍ خليفتَهُ الرضى ... وفاروقه الأدنى إليـهِ وعثمانا
وأنَّ علياً قدَّسَ الله جمعهم ... وكرَّمنـا بالقرب منهم وحيّانا
لهم في ضروبِ القولِ إذ هم فحوله ... خطابٌ وشعرٌ يستقرّان تبيانا
وفاض على أهل القريضِ نوالُهم ... فروَّضَ روضَ القول سحّاً وتهتانا
وأنت أحقُّ الناسِ أن تفعلَ الذي ... به فَعَلَ المختـارُ ديناً وإيمانا
فما زلت تهدي في البريةِ هديه ... وتقضي بما يرضيه سرّاً وإعلانا
وإن قيل قدرُ المرء ما هو محسنٌ ... فصنعةُ نظمِ القولِ أرفعُه شانا

وقال مورياً :

بنفسي حبيبٌ في ثناياه « بارق » ... ولكنّهـا للواردين عـذابُ
إذا كان لي منه عن الوصل «حاجر» ... فدمعي « عقيق » بالجفون مذابُ

وقال :

عذَّبتَ قلْبي بالهوى فقيامه ... في نارِ هجركَ دائماً وقعوده
ولقد عهدتُ القلبَ وهو موحِّد ... فعلامَ يُقْضَى في العذاب خلوده

وقال في التجنيس :

دعوتُك للودّ الّذي جنَباته ... تداعَتْ مبانيها وهَمّتْ بأن تهي
وقلتُ لعهد الوصل والقربِ بعدما ... تناءى وهل أسلو حياتي وأنت هي
ومَنْ شام من جوّ الشبيبة بارقاً ... ولم تنهه عنهُ النُّهى كيف ينتهي

وقال :

ناديت دمعيَ إذ جدَّ الرحيلُ بهم ... والقلبُ من فَرَقِ التوديع قد وَجَبا
سقطتَ يا دمعُ من عيني غداةَ نأى ... عني الحبيبُ ولم تقضِ الذي وجبا

وقال :

شليرُ لعمري أساء الجوارَ   وسدَّ عليَّ رحيبَ الفضا
هو الشيخُ أبردُ شيءٍ يُرَى   إذا لبس البرنسَ الأبيضا

وقال : قلت أخاطب بعض من أدل عليه وما أولاني بذلك :

إذا قمتَ قُلْ بعقيب الكرى   إلهيَ أنتَ إلـهُ الورى
تباركتَ أنشأتهم من تراب   وأنشأتني بينهمْ من خرا

قلت : ولا خفاء ببشاعة هذا ، فحذفه أولى من إثباته .

وقال يداعب بعض أصحابه :

شيخُ رباطٍ إن أتى شادنٌ   خلوته عند انسدال الظلامْ
أدْلَى وقَدْ أبصره دَلْوه   وقال يا بشرايَ هذا غلامْ

وقال في غرض يظهر :

لم أجد فيه لين بَثٍّ لقلبي   وقبولاً لحجتي واعتذاري
ثقَّلَ الله ظهره بعيالٍ   سوَّدَ الله وجهه بعذارِ

وقال من قصيدة :

أخذْتَ وأمواجُ الردى متلاطمهْ   بضَبْعيَ يا نجلَ الوصيِّ وفاطمهْ

وقال :

ووجه غرستُ الوردَ فيه بنظرةٍ   فيا ليتَ كفي مُتِّعتْ بجَنَى غرسي
كأنَّ سوادَ الخالِ في وجناته   علامةُ مولانا على أحمرِ الطرس
وبَيْنهما في باطن الأمرِ نسبةٌ   لذلك أمضيتُ الغرامَ على نفسي

وقال يشير إلى بعض طبقات الغناء :

ضرط الفقيه فقلت ذاكَ غريبة ما كانَ ذلك منهُ بالمعلُومِ
فَدَنا إليَّ وقالَ قد أصرفتكم من ضرطي بغَريبةِ المزمومِ

وفي آخر سنة أربع وسبعين وجَّه إلى السلطان أبي حمّو سلطان تلمسان أبياتاً لزومية في غرض الهَناء ، وهي :

وقفَ الغرامُ على ثَناكَ لساني رعياً لما أوليتَ من إحسانِ
فكأنّما شكري لما أوليته شكرُ الرياضِ لعارضِ النيسانِ
أنا شيعَةٌ لك حيثُ كنتَ ، قضيةٌ لَمْ يختلفْ في حكمها نفسانِ
ولقد تشاجرتِ الرماحُ فكنتُ في ميدانِ نهرك فارسَ الفرسانِ
ورويتُ غُرَّ مآثرٍ أسندتُها لعلاكَ بينَ صحائحٍ وحسانِ
ولأنت أولى بالتشيّع شيمةً لم تتفقْ لسواكَ من إنسانِ
الشمسُ أنت قد انفردتَ وهل يُرى بينَ الورى في مطلعٍ شمسانِ
جبرت بجبرك كلَّ نفسٍ حرّةٍ وشدا بشكرِ[1] اللهِ كلُّ لسانِ
وبَدَتْ سعودك مستقيماً سيرُها وعلتْ فَفَرَّ أمامها النحسانِ
فاستقبِل السعدَ المعاود سافراً عن أيّ وجه للرضى حُسّانِ
وابغ المزيدَ بشكرِ ربك ولتثقْ بمضاعَفِ الإنعامِ والإحسانِ
فالشكرُ يقتادُ المزيدَ ركائباً تنتابُ بابكَ منهُ في أرسانِ
ثمَّ السلامُ عليكَ يزْري عَرْفه طيباً بعَرْفِ العودِ والبَلَسانِ

وقال[2] :

١ ق : بذكر .
٢ أزهار : ٣٠٤ .

بحقٍّ ما بيننا يا ساكني القصبهْ ردُّوا عليَّ حياتي فهي مغتصَبَهْ
ماذا جنيتم على قلبي ببينكمُ وأنتم الأهلُ والأحبابُ والعَصَبَهْ

قلت : ولعل ابن زَمْرَك قال أبياته التي على هذا الروي المذكورة في غير هذا الموضع من هذا الكتاب جواباً لهذه حين كان ابن زَمْرَك من جملة أتباع لسان الدين رحم الله تعالى الجميع .

وقال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى [1] :

حينَ ساروا عني وقد خنَقَتْني عبراتٌ قد أعربت عن وَلُوعي
صحتُ مَنْ ينصرُ الغريبَ ؟ فلمّا لم أجدْ ناصراً بلعتُ دموعي

وقال :

قالَ لي والدموعُ تنهلُّ سُحْباً في عراصٍ [2] من الخدود محولِ
بكَ ما بي فقلتُ مولايَ عافا كَ المعافي من عَبْرتي ونحولي
أنا جفني القريح يروي عن الأع مش والجفنُ منكَ عن مكحولِ

وقال :

أشكو لمبسمه الحريقَ وقَد حمى عني لماه المشْتَهى ورحيقَهُ
يا ريقــه حيرتَني ومطلتني ما أنتَ إلا باردٌ يا ريقَــهُ

وقال فيمن ركب البحر وماد [3] :

ركب السفينةَ واستقلَّ بأفقها فكأنّما ركبَ الهلالَ الفرقدُ

١ أزهار : ٣٠٥ وكذلك القطعة التالية والتي بعدها .
٢ ق والأزهار : عراض .
٣ أزهار : ٣٠٦ والقطعة التي تليها أيضاً .

وشكوا إليه بميده فأجبتهم لا غرو إن ماد القضيب الأملدُ

وقال عندما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجهاً إلى الأندلس لطلب حقّه :

ولمّا حثثت السيرَ والله حاكم للملكَ في الدنيا بعزٍّ وفي الأخرى
حكى فرسَ الشطرنج طرفُكَ لا يُرى ينقّل من بيضاء إلاّ إلى حمرا

ويعني بالبيضاء فاساً الجديدة ، وبالحمراء حمراء غرناطة .

وتذكرت هنا أن بعض علماء الأندلس ، وأظنّه أبا عبد الله ابن جُزَيّ ، لما رَمِدَت عينُ بعض أهل فاس سأله عنها ، فقال :

يا سيدي عينيَ قد أودى قذاها بالأنَس
فانظرْ إليها ترها دار مليك الأندلس

يعني حمراء ، فأجابه بقوله :

وُقيتَ ممّا تشتكي من القذى والوصَبِ
ما رمدتْ عيناك بل عينُ العُلا والأدبِ
فلتحمدن أن لم تكن دار مليك المغربِ

يعني بيضاء ، وهذا من غريب ما يحاضَرُ به .

رجع — وقال لسان الدين رحمه الله تعالى[1] :

أجاد يراعُ الحسنِ خطَّ عِذاره وأودعه السّرَّ المصونَ الذي يدري
ولَمْ يفتقر فيهِ لختمٍ وطابعٍ فمبْسِمُهُ أغناه عن طابعِ السرِّ

---

[1] هذه القطعة والقطع العشر التالية في أزهار الرياض ٣٠٧ – ٣١٠ .

وقال في غرناطة :

أحيِّيك يا مَعْنى الكمال[1] بواجبٍ وأقطعُ في أوصافك الغُرّ أوقاتي
تقسّمَ منك التّرب قومي وجيرتي ففي الظّهر أحيائي وفي البطنِ أمواتي

وقال في غرض ينحو نحو المشارقة :

رموا بالسلوّ حليفَ الغرامِ وأدمُعُه كالحيا الهاطلِ
أعوذ بعزّكَ يا سيدي لذلّيَ من دعوةِ الباطلِ

وقال :

يا ليلُ طُلْتَ ولم تجُد بتبسمٍ وأريتني خُلُقَ العبوسِ النادمِ
هلاّ رحمتَ تغربي وتفرقي للهِ ما أقساكَ يا ابنَ الخادمِ

وقال في مروحة سلطانية :

كأنيَ قوسُ الشمسِ عند طلوعها وقد قدمتْ من قبلها نسمةُ الفجرِ
وإلاّ كما هبّت بمحتدمِ الوغى بنصرٍ ولكنْ من بنود بني نصرِ

وقال يخاطب شيخه ابن الجيّاب :

بينَ السهام وبينَ كُتْبِكَ نسبةٌ فبها يصابُ من العدوّ المقتلُ
وإذا أردتَ لها زيادةَ نسبةٍ هذي وهذي في الكنانة تجعلُ

وقال يتغزل ، وفيه معنى غريب :

إنّ اللحاظَ هي السيوفُ حقيقةً ومن استراب فحجتي تكفيه
لم يُدْعَ غمدُ السيف جفناً باطلاً إلا لشبه اللحظِ يغمد فيه

[1] أزهار : أحيك يا مغنى الكمال .

قيل : وأحسن منه قول غيره :

إنَّ العيون النُّجْل أمضى موقعاً   من كلّ هنديٍّ وكُلّ يماني
فضلُ العيُونِ على السيوفِ بأنّها   قتلتْ ولَمْ تخرج من الأجفانِ

وأصل ما قال لسان الدين قول الأول :

بينَ السيوف[1] وعينيه مناسبةٌ   من أجلها قيل للأغمادِ أجفانُ

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في الساعة ، وتسميها المغاربة المنجانة :

تأمَّلِ الرملَ في المنجان منقطعاً   يجري وقدِّرْهُ عُمْراً منك منتهبا
واللهِ لو كان وادي الرمل[2] ينجده   ما طالَ كامله إلا وقد ذهبا

وقال :

أقولُ لعاذلي لمَّا نهاني   وقد وجد المقالة إذ جفاني
علمتَ بأنّهُ مُرُّ التجني   وفاتكَ أنّهُ حلوُ اللّسانِ

وقال في غرض صوفي :

لا تنكروا إن كنتُ قد أحببتكم   أو أنّني استولى عليَّ هواكم
طوعاً وكرهاً ما ترون فإنّني   طفتُ الوجود فما وجدت سواكم

وقال يمدح ، وفيه تورية :

وإن نَظَرْتَ إلى لألاءِ غُـرَّتِهِ   يومَ الهياجِ رأيتَ الشمسَ في الأسدِ

وقال ممّا يُكتب على طاق الماء بباب القبّة[3] :

---

١ ق : اللحاظ .
٢ ق : الأرض .
٣ هذه القطعة والقطع الثلاث بعدها في الأزهار ٣١٢ – ٣١٣ .

أنا طاقٌ تزهو بيَ الأيامُ   تعبتْ في بدائعي الأفهامُ
وتبدَّيْتُ للنواظر محـرا   باً كأنَّ الإناء فيَّ إمامُ
واقفٌ للصلاة حتى إذا ما   جئت للشربِ حان مني سلامُ

وقال في ذلك أيضاً :

يا صانِعي للهِ ما أحكمتـه   فلأنتَ بينَ العالمين رئيسُ
أحكمتَ تاجي يوم صغتَ رقوشه   فصبتْ إليه مَفارقٌ ورؤوسُ
وأقمتَ في محرابه فكأنّه   مجلى إناء الماء فيه عروسُ

وقال في المشيب[1] :

أنّى لمثلي بالهوى مِنْ بَعد ما   للوَخْط في الفَودَين أيّ دبيبِ
لبس البياضَ وحَلَّ ذروةَ منبرٍ   مني ووالى الوَعْظَ ، فعلَ خطيبِ

وقال رحمه الله تعالى :

واللهِ ما جانٍ على مالِـهِ   أو جاهه مَنْ ذبَّ عن عرضهِ
والناسُ في خيرٍ وفي ضدّهِ   همْ شهداء اللهِ في أرضهِ

وقال[2] :

إلهيَ بالبيتِ المقدَّس والمسعى   وجَمْعٍ إذا ما الخلق قد نزلوا جمعا
وبالموقف المشهود يا رب في منى   إذا ما أسال الناسُ من خوفك الدمعا
وبالمصطفى والصحب عجِّل إقالتي   وأنجح دعائي فيك يا خير من يُدعى
صُدِعْتُ وأنتَ المستغاثُ جَنابه   أقِل عثرتي يا موئلي واجبر الصدعا

١ البيتان من بائيته التي تقدمت ص : ٤٥٥ .
٢ أزهار الرياض ١ : ٢٧١

وقال رحمه الله تعالى في بنيونش سبتة[١] :

بنيونش[٢] أسنى الأماكنِ رقعةً   وأجلُّ أرضِ الله طُرًّا شانا
هي جنّةُ الدنيا التي مَنْ حلّها   نال الرضى والرَّوْحَ والريحانا
قالوا القرودُ بها فقلتُ فضيلةٌ   حيوانُها قد قارب الإنسانا[٣]

وفي بنيونش هذه يقول أبو عبد الله ابن مجبر[٤] :

بنيونشٌ جنّةٌ ولكنْ   طريقُها يَقْطَعُ النياطا
وجنّةُ الخلدِ لا يراها   إلا فتًى يقطعُ الصراطا

وقال ابن الخطيب رحمه الله تعالى[٥] :

إنَّ الهوى لشكاية معروفة   صبر التصبر من أجلِّ علاجها
والنفس إن ألفت مرارة طعمه   يوماً ضمنت لها صلاح مزاجها

وقال رحمه الله تعالى[٦] :

ولمّا رأت عزمي حثيثاً على السُّرى   وقد رابها صبري على موقفِ البينِ
أتت بصحاحِ الجوهري دموعُها   فقابلتُ من دمعي بمختصر العينِ

وقال رحمه الله تعالى :

تذكرتُ عهداً كان أحلى من الكرى   وأقصَر من إلمام طيف خيالِهِ

---

١ أزهار الرياض ١ : ٣٤ .
٢ الأزهار : بليونش ، وهي لغة في بنيونش .
٣ ذكر في الاستبصار : ١٣٨ أن على قرية بليونش جبلا عظيماً فيه القردة .
٤ وردا في أزهار الرياض (٣٤) منسوبين للقاضي عياض .
٥ مر البيتان في ما تقدم ص : ٤٧١ .
٦ مر البيتان في ما تقدم ص : ٤٦٤ .

فيا ليتَ شعري مَنْ أتاح ليَ المنى وعذّب بالي هــل أمــرٌ بباله

وقال رحمه الله تعالى :

عيني جنت فعَلامَ تُحرَقُ أضلعي أبمــا جنى جارٌ يعذّبُ جارُ
يا قلبُ لا تدهشْك نيرانُ الهوى فكنارِ إبراهيمَ تلك النـــارُ
فاصبرْ على ما حمّلوا تنلِ المنى بالسبكِ أدرك نقشَهُ الدينارُ

وقال رحمه الله تعالى :

وما كان إلا أنْ جنى الطرفُ نظرةً غدا القلبُ رهناً في عقوبةِ ذنبِــهِ
وما العدلُ أن يأتي امرؤٌ بجريرةٍ فيؤخذَ في أوزارها جارُ جنبِــهِ

وقال رحمه الله تعالى :

برَى جسدي فيكم غرامٌ ولوعةٌ إذا سكن الليلُ البهيمُ تثورُ
فلولا أنني ما اهتدى نحو مضجعي خيالُكُمُ بالليل حين يزورُ
ولو شئتُ في طيّ الكتابِ لزرتكم ولم تدرِ عنّي أحْرُفٌ وسطورُ

وقال رحمه الله تعالى :

بلدٌ تحفُّ بهِ الرياضُ كأنّهُ وجهٌ جميلٌ والرياضُ عذارهُ
وكأنّما واديه مِعْصَمَ غادةٍ ومن الجسورِ المحكماتِ سوارهُ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا حمّو صاحب تلِمسان ويشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس[1] :

لقــد زارَ الجزيرةَ منك بحرٌ يمدُّ فليسَ تعرف منه جزْرًا

١ هذه القطعة والتي تليها في أزهار الرياض : ٢٦١ .

أعدتَ لها بعهدك عهدَ موسى　　سميِّكَ فهي تتلو منهُ ذكرا
أقمتَ جدارها وأفدتَ كنزاً　　ولو شئتَ اتخذتَ عليه أجرا

وقال أيضاً :

وقالوا الجزيرةُ قد صوّحَتْ　　فقلتُ غمامَ النّدى تنتظرْ
إذا وكفتْ كفُّ موسى بها　　غماماً يعودُ الجنابُ الخَضِرْ

وقال رحمه الله تعالى عقب الإياب من الرحلة المراكشية[1] :

أفادتْ وجهيَ بندَاك مالاً　　قضى ديني وأصلحَ بعضَ حالي
ومُتّعَتِ الخواطرُ بانشراحٍ　　وأطرفتِ النواظرُ باكتحال
وأبتُ خفيفَ ظهرٍ ، والمطايا　　بجاهك تشتكي ثقلَ الرحال
وشأني للمعالم غيرُ شانٍ　　وحالي بالمكارم جدُّ حال
فحبُّ علاكَ إيماني وعقدي　　وشكرُ نداك ديني وانتحالي
كما قد صحَّ لله انقطاعي　　بتأميلي جنابك وارتحالي
وما يبقى سوى فعلٍ جميلٍ　　وحالُ الدهر لا تبقى بحال
وكلُّ بدايةٍ فإلى انتهاء　　وكلُّ إقامةٍ فإلى ارتحال
ومَنْ سام الزمانَ دوامَ أمرٍ　　فقد وقف الرجاء على المحال

وقال رحمه الله تعالى في الضَّرَاعة إلى ربّه ، والاعتراف بذنبه[2] :

مولايَ إن أذنبتُ يُنْكَرُ أن يُرى　　منكَ الكمالُ ومنّيَ النقصانُ ؟
والعفوُ عن سببِ الذنوبِ مسبَّبٌ　　لولا الجنايةُ لم يكنْ غفرانُ

١ أزهار : ٢٧١ .
٢ أزهار : ٢١١ .

وقال رحمه الله تعالى[1] :

سلامٌ على تلك المرابع إنّها معاهدُ أُلاّفي وعهدُ صحابي
ويا آسة المغنى انْعَمي فلطالما سكبتُ على مثواك ماء شبابي

وقال سامحه الله تعالى :

أموطنيَ الذي أُزعِجْتُ عنهُ ولَمْ أُرزأ بهِ مالاً ولا دَمْ
لئن أُزعجتُ عنك بغير قصدٍ فقبليَ فارَقَ الفردوسَ آدمْ

ومن ميلادياته رحمه الله تعالى قوله[2] :

ما على القلب بعدكم من جُناحٍ أن يُرى طائراً بغيرِ جنَاحِ
وعلى الشوقِ أن يَشُبَّ إذا هـ بَّ بـأنفاسكم نسيمُ الصَّباح
جيرةَ الحيّ ، والحديثُ شجونٌ واللّيالي تلينُ بعد الجماح
أترون السلوَّ خامرَ قلبي بعدكم ؟ لا وفالقِ الإصباح
ولَوَ انّي أُعطى اقتراحي على الا أيامِ ما كان بُعْدُكم باقتراحي
ضايقتني فيكم صروفُ الليالي واستدارتْ عليَّ دَوْرَ الوشاح
وسقتني كأسَ الفراقِ دهاقاً في اغتباقٍ مواصَلٍ واصطباح
واستباحَتْ من جِدّتي وفتائي حرَماً لَمْ أخَلْه بالمستَباح

ومنها :

يا ترى والنفوسُ أسرى أمانٍ[3] ما لها من وَثاقها منْ سَرَاح
هل يُباح الورودُ بعد ذيادٍ أو يتاح اللّقـاءُ بعد انتزاح

١ أزهار : ٦ .
٢ أزهار : ٢٣٧ والإحاطة : ٣١٥ .
٣ الإحاطة : الأماني .

وإذا أعوز الجسومَ التلاقي ... نابَ عَنْهُ تعارفُ الأرواح

وهي طويلة لم يحضرني منها الآن سوى ما ذكرته .

وقد حذا حَذْوَها الفقيهُ الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون أخو قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون صاحب التاريخ ، فقال في مولد عام ثمانية وسبعين وسبعمائة ، واستطرد لمدح السلطان أبي حمّو موسى صاحب تلمسان الذي تقدم ذكره قريباً[1] :

ما على الصبّ في الهوى من جُناحِ ... أن يُرَى حِلْفَ عبرةٍ وافتضاحِ
وإذا ما المحبُّ عيلَ اصطباراً ... كيف يُصغي إلى نصيحةِ لاحِ
يا رعى الله بالمحصَّبِ رَبعاً ... آذنتْ عهده النوى بانتزاحِ
كم أدرنا كأسَ الهوى فيه مزحاً ... ربّ جِدٍّ من الجوى في المزاحِ
هل إلى رَسْمه المحيلِ سبيلٌ ... يا حُداة المطيِّ تلك الطِّلاحِ
نسألُ الدارَ بالخليطِ ونسقي ... ذلك الرَّبْعَ بالدموعِ السِّفاحِ
أيّ شجوٍ عاينتُ بعد نَوَاها ... من أسًى لازمٍ وصبرٍ مُزاحِ
أهْلَ ودي إن زابكم بَرْحُ وجدي ... من صبا بارقٍ وبرقٍ لياحِ
فاسألوا البرقَ عن خفوقِ فؤادي ... والصبا عن سَقام جسمي المتاحِ
يا أُهَيْلَ الحمى نداء مشوقٍ ... ما له عن هوى الدُّمى من بَراحِ
طالما استعذبَ المدامعَ وِرْداً ... في هواكم عن كلّ عذبٍ قَراحِ
عاده بالطلولِ للشوقِ عيدٌ ... من حَمامٍ بدوحهنّ صداحِ
من لِقَلبٍ من الجوى في ضِرامٍ ... ولجفنٍ من البكا في جراحِ
ولصبٍّ يهيجُهُ الذكرُ شوقاً ... فهو سكراً يرتادُ من غير راحِ
وليالٍ قضيتُ للهوِ فيها ... وَطَراً والشبابُ ضافي الجناحِ

---

[1] أزهار : ٢٣٩ .

راكباً في الهوى ذَلولَ تَصابٍ ... ساحباً في الغرامِ ذيلَ مراحِ
ونجومُ المُنى تنيرُ إلى أن ... روّعَ الشيبُ سِرْبَها بالصباحِ
أيُّ مَسْرًى حمدتُ لم أخلُ منهُ ... بسوى حسرةٍ وطولِ افتضاحِ
واخسَارِي يومَ القيامةِ إنْ لم ... يَغْفِرِ الله زَلّتي واجتْراحي
لم أُقدّمْ وسيلةً فيهِ إلا ... حبَّ خيرِ الورى الشفيعِ الماحي
سيّد العالمين دنياً وأخرى ... أشرفُ الخلق في العلا والسماحِ
سيّد الكونِ من سماءٍ وأرض ... سِرُّه بينَ غايةٍ وافتتاحِ
زهرةُ الغيب مظهرُ الوحي معنى الـ ... ـنور كنهُ المشكاةِ والمصباحِ
آيةُ المكرماتِ قطبُ المعالي ... مصطفى الله من قريشِ البطاحِ
أولُ الأنبياء تخصيصَ زُلْفى ... آخرُ المرسلين بَعْثَ نجاحِ
صفوةُ الخلق أرفعُ الرُّسلِ قدراً ... وسراج الهدى وشمس الفلاحِ
من لميلاده بمكّةَ ضاءتْ ... من قرى قيصرٍ جميعُ الضواحي
وخبَتْ نارُ فارسٍ وتداعَتْ ... من مَشيدِ الإيوانِ كلُّ النواحي
من رَقى في السماء سبعاً طباقاً ... ورأى آيَ ربّهِ في اتضاحِ
ودَنا منهُ قابَ قوسينِ قرباً ... ظافراً في العُلا بكلّ اقتراحِ
مَنْ هدى الخلقَ بين حمرٍ وسودٍ ... وجَلا ليلَ غيّهِمْ بالصباحِ
مَنْ يجيرُ الورى غَداً يوم يجزى ... كلُّ عاصٍ وطائعٍ باجتراحِ
من إلى حوضِهِ وظلٌّ لواه ... يلجأ الناس بينَ ظامٍ وضاحي
أحمدُ المجتبي حبيباً ، وأنّى ... فوق عزِّ الحبيبِ مَرْمى طماحِ ؟
في أناجيلِهِ المَسيحُ تلاهُ ... باسمه ، والكليمُ في الألواحِ
ولَكَم حجّةٍ وبرهانِ صدقٍ ... في سماعٍ أتى بها والتماحِ
إنَّ في النجمِ والنباتِ لآياً ... بَهرَتْ والجمادِ والأرواحِ
معجزاتٌ فُتْنَ المداركَ وَصْفاً ... وحساباً كالزُّهْرِ أو كالصباحِ

يا رواةَ القريضِ والشعرِ عجزاً ما عسى تدركون بالأمداحِ
إنّما حسبنا الصلاةُ عليهِ وهي للفوز آيةُ استفتاحِ
يا إلهي بحقِّ أحمدَ عفواً عَنْ ذنوب جنيتهنّ قباحِ
وأدمْ دولةَ الخليفة موسى ذي المعالي المبينة الأوضاحِ
مفخرُ الملك مُسْتَقَرٌّ المزايا مظهرُ اللطف ذو التُّقى والصلاحِ
ناصرُ الحقّ خاذلُ الجورِ عدلاً مَلْجأُ الخائفين بحرُ السّماحِ
يتلقّى الندى بوجهٍ حَيِيّ ويلاقي العدا ببأس صفاحِ
ولهُ المكرماتُ إرثاً ولبساً حازَ حمداً بها مُعلّى القِداحِ
من عُلاً باذخٍ وفخر صميم وكمال بحتٍ ومجد صُراحِ
وأحاديثَ في المعالي حسان رُوِيَتْ عنهُ في العوالي الصِّحاحِ
عاقدٌ صفقةَ العُلا كلَّ حينٍ فائز فيه سعيُهُ بالرباحِ
للنّدى والهُدى يَروحُ ويغدو أيّ مغدًى إلى العُلا ومَراحِ
ملكٌ تشرقُ الأسرَّةُ منهُ في سَماء السّرير نورَ صباحِ
وإذا ما علا بعالي العوالي صَهْوةَ الجُرْدِ فهوَ ليثُ الكفاحِ
لبس الدهرُ منهُ حُلّة حسن وثنى للسرور عِطْفَ مراحِ
وعلى عاتِقِ الخلافةِ منهُ طرزُ فخر سبى النُّهى بالتماحِ
ورث الملكَ شامخاً عن سراةٍ شيّدوا رُكْنَهُ بأيدي الصفاحِ
من بني القاسم الذين تحلّوا بالمعالي واستأثروا بالفلاحِ
فرَعُوا هضبةَ الخلافةِ مجداً رفعُوا سقفه على الأرماحِ
نشروا رايةَ المَفاخر حمداً خافقَ النور بالرُّبى والبِطاحِ
يا إماماً بَذَّ الملوكَ جلالاً وجمالاً فُدِيتَ بالأرواحِ
أنت شمس الكمال دمت عليها في اغتباقٍ من المنى واصطباحِ
وبنوكَ الأعلون أنجمُ سعد زاهرات بنوركَ الوضاحِ
وأبو تاشفينَ بدر منير زانهُ الله بالجلالِ الصُّباحِ

أكمل العالمين خَلْقاً وخُلُقاً أشرف الناس في الندى والكفاحِ
وبكم زيّنَت سماء المَعالي واهتدى الناس في الدجى والصباحِ

وكان السلطان أبو حمّو الممدوح بهذه القصيدة يحتفل لليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلّم غاية الاحتفال ، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله .

ومن احتفاله له ما حكاه شيخُ شيوخ شيوخنا الحافظ سيدي أبو عبد الله التنسي ثم التلمساني في كتابه « راحُ الأرواح فيما قاله المولى أبو حمّو من الشعر وقيل فيه من الأمداح وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح » ونصّه : أنّه كان يُقيم ليلة الميلاد النبوي — على صاحبه الصلاة والسلام — بمشورة من تلمسان المحروسة مَدْعاة حفيلة يحشر فيها الناس خاصة وعامة ، فما شئت من نَمارِقَ مصفوفة ، وزَرَابِيَّ مَبْثوثة ، وبُسُطٍ مُوَشّاة ، ووسائد بالذهب مغشاة ، وشمع كالأسطوانات ، وموائد كالهالات ، ومباخر منصوبة كالقباب ، يخالُها المبصرُ تبراً مذاب ، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، كأنّها أزهار الربيع المنمنمة ، تشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر ، ويخالط حسن رَيّاها الأرواح ويخامر ، رُتِّبَ الناسُ فيها على مراتبهم ترتيبَ احتفال ، وقد علت الجميعَ أبهة الوقار والإجلال ، وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومكفّرات[1] ترغّب في الإقلاع عن الآثام ، يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ، وبالقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزانة المنجانة قد زخرفت كأنّها حُلّة يمانية ، لها أبواب موجفة[2] على عدد ساعات الليل

١ المكفرات : أشعار تقال في التزهيد فتكفر ما كان من عبث ، وهي تشبه « الممحصات » .
٢ الأزهار : مرتجة .

الزمانية ، فمهما مضت ساعة وقع النّقْر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك بابٌ من أبوابها ، وبرزت منه جارية صُورت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة ، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ، ويُسْرَاها على فمها كالمؤدية بالمُبايعة حق الخلافة ، هكذا حالهم إلى انبلاج عَمُود الصباح ، ونداء المنادي حيَّ على الفلاح ؛ انتهى .

وقال التنسي المذكور في كتابه المسمى بـ « نظم الدر والعقيان في شرف بني زيّان وذكر ملوكهم الأعيان » ما نصّه : وكان السلطان أبو حمّو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلّم ، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم ، يقيم مَدْعاة[1] يحشر لها الأشراف والسوقة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابيّ مبثوثة ، وشمع كالأسطوانات ، وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم وِلْدان قد لبسوا أقبية الخز الملوّن وبأيديهم مباخر ومرشات ينال كلٌّ منها بحظّه ، وخزانة المنجانة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة ، بأعلاها أيكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه ، ويختلُه فيهما أرقم خارج من كُوَّة بجذر الأيكة صاعداً[2] ، وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُوَيْن رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويُسامت أول كل ساعة بابها المرتَج ، فينقض من البابين الكبيرين عُقابان ، بفي كل واحد منهما صنجة صُفْر يلقيها إلى طست من الصفر مُجَوَّف بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرنّ ، وينهش الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهناك يُفتح باب الساعة الذاهبة ، وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راءٍ ، بيُمْناها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوماً ، ويُسْراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة ، والمُسْمِع قائم ينشد

---

١ المدعاة : الدعوة .

٢ الأزهار : صعداً .

أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمّد صلى الله عليه وسلّم ، ثمّ يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دَوْراً ، والرياض نَوْراً ، وقد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم[1] على ألوان تشتهيها الأنفس وتستحسنها الأعين ، وتلذّ بسماع أسمائها الآذان ، ويَشْرَه مبصرها للقرب منها والتناول وإن كان ليس بغَرْثان ، والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه ، وكل ذلك بمرأى منه ومَسْمَع حتى يصلي هنالك صلاة الصبح . على هذا الأسلوب تمضي ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلّم في جميع أيام دولته ، أعلى الله تعالى مقامه في علّيّين ، وشكر له في ذلك صنيعه الجميل آمين. وما من ليلة مولد مرت في أيامه إلاّ ونظم فيها قصيداً في مديح مولد المصطفى صلى الله عليه وسلّم ، أول ما يبتدىء المسمع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده ، ثم يتلوه إنشاد مَنْ رفع إلى مقامه العلي في تلك الليلة نظماً ؛ انتهى وهو أتم مَساقاً ممّا في « راح الأرواح » .

ولا بأس أن نلمّ ببعض المقطوعات التي أنشأها الكاتب أبو زكريا يحيى ابن خلدون المذكور على لسان جارية المنجانة في مخاطبة السلطان أبي حمّو معلمة بما مرّ من ليل ، ففي مضي ساعتين قوله[2] :

أخليفةَ الرحمن والملكُ الذي ... تعنو لعزّ عُلاه أملاكُ البشرْ
لله مجلسك الذي يحكي عُـلاً ... بكَ مالكي أفق السماء لمن نظر
أوَما ترى فيه النجومَ زواهراً ... وَجْهُ الخليفة بينهن هو القمر
والليلُ منه ساعتان قد انقضتْ ... تثني عليك ثَنا الرياضِ على المطر
لا زال هذا الملكُ منصوراً بكمْ ... وبَلَغْتَ ممّا ترتجي أسنى الوطر

وقوله في مضي ثلاث ساعات :

---

١ الأزهار : الطعام .
٢ وردت هذه المقطعات في بغية الرواد ٢ : ٢١٩ - ٢٢٢ وأزهار الرياض ١ : ٢٤٦ - ٢٤٧ .

أمولايَ يا ابنَ الملوك الأُلى ... لهم في المَعالي سَنيُّ الرُّتبْ
تولَّت ثَلاث من الليلِ أبقتْ ... لكَ الفَخْرَ في عُجمها والعربْ
فدمْ حجّةَ الله في أرضهِ ... تنال الذي شئتَه من أربْ

وقوله في مضي ست ساعات :

يا ماجداً وهو فردٌ ... تخاله في عساكر[1]
ستٌ من الليل وَلّتْ ... ما إن لها من نَظائر
دامتْ لياليكَ حتى ... إلى المعادِ نواضر

وقوله في مضي ثماني ساعات :

يا أكرمَ الخلقِ ذاتاً ... وأشرفَ الناسِ أسْرَهْ
مرّت ثمانٍ وأبقتْ ... في القلبِ منيَ حسْرَهْ
فيهنَّ كانَ شبابي ... أخا نَعيمٍ ونَضْرَهْ
وَلّى بها الدهر عنّي ... تُرَى لها بعدُ كَرَّهْ
فالله يبقيكَ مولّى ... يطيل في السّعدِ عُمرَهْ

وقوله في مضي عشر ساعات :

يا مالكَ الخير والخيلِ التي حَكَمَتْ ... لَه بعزٍّ على الأيامِ مُقْتَبِلِ
هذا الصَّباح وقد لاحت بشائره ... والليل وَدَّعنا توديعَ مرتحلِ
لله عشرٌ من الساعاتِ باهرةٌ ... مضينَ لا عن قِلًى منّا ولا مللِ
كذا تمرُّ ليالي العمرِ راحلةً ... عنّا ونحن من الآمالِ في شُغُلِ
نمسي ونصبحُ في لهو نُسرُّ به ... جهلاً وذلك يُدْنينا من الأجلِ

[1] البغية : يا واحداً في علاه ... من نابه في عساكر .

والعمر يمضي ولا ندري فوا أسفا عليه إذ مــرَّ في الآثام والزللِ
يا ليت شعري غداً كيف الخلاصُ به ولم نقدِّمْ لَـهُ شيئاً من العملِ
يا ربِّ عَفْوك عما قد جَنَتْه يدي فليس لي بجزاء الذنبِ من قِبَلِ
يا ربِّ وانصر أميرَ المسلمين أبا حمّو الرضى وأنله غايـةَ الأملِ
وأبقِ في العزّ والتمكين مدتَـهُ وأعلِ دولته الغرَّا على[1] الدولِ

انتهى المجلد السادس

١ البغية : الغراء في .

محتويات المجلد السادس

الباب الرابع

الباب الخامس

في إيراد جملة من نثر لسان الدين وشعره وموشحاته